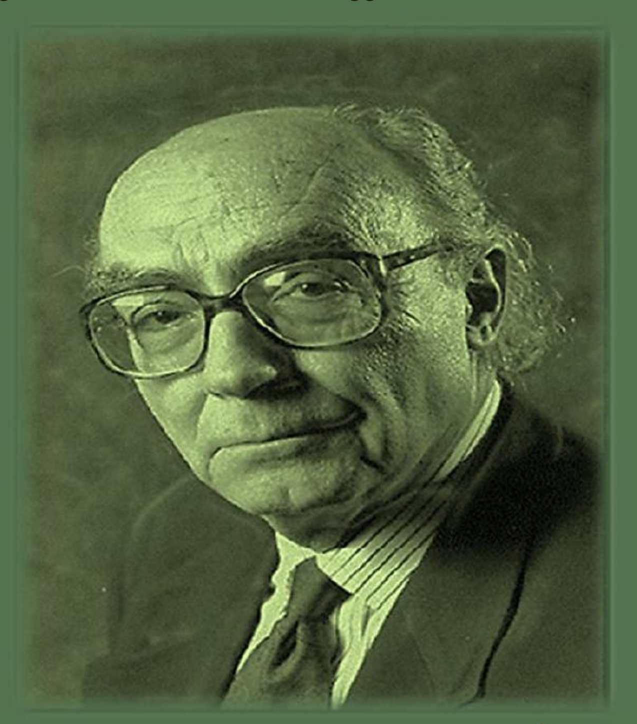
1998

مكتبة نوبل

جوزيه ساراماغو

سنة موت ريكاردو ريس



ترجمة: أنطون حمصي

علي مولا





مكتبة نوبل

Auteur : José Saramago
Titre : L'Année de la mort de Ricardo Reis
Traducteur : Antoine Homsi
Editeur : Al- Mada
Première Edition: 1999
Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : جوزيه ساراماغو
عنوان الكتاب : سنة موت ريكاردو ريس
ترجمة : أنطون حمصي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٩٨

مكتبة نوبل

جوزيه ساراماغو

سنة موت ريكاردو ريس

ترجمة

أنطون حمصي





«عاقل هو من يكتفي بالفرجة على العالم»

ريكاردو ريس

«اختيار عدم الفعل كان ، دائماً ، شاغل حياتي وهاجسها»

برناردو سواريس

«اذا قيل لي ان من العبث التحدث ، على هذا النحو ، عن أحد لم يوجد قط ، أرد بأن ليس لدي أي دليل على أن ليشبونة ، هي أيضاً ، قد وجدت أو على كوني ، أنا الذي اكتب أو أي شيء آخر ، في أي مكان كان ، قد وجدنا»

فرناندو بيسوا

إلى القارىء

ليس دور المترجم أن يوضح ، بتعليق ، نوايا المؤلف ولا أن يفسر الرموز التي تسكن حكايته . ومع ذلك ، وبسبب كثافة هذه الرواية الناجمة ، جزئياً ، عن اسناداتها التاريخية والثقافية البرتغالية في خصوصيتها ، وكذلك ، أيضاً ، إلى ما يؤلف نسيجها ـ لعبة أخذ ورد بين أكذوبة الواقع وحقيقة السراب ـ بدا لنا من المفيد أن نعطي القارىء بضع نقاط استناد ستسمح له بأن يتوجه في هذه المتاهة التي تتيح ، على صورة متاهات بورخيس ، عدداً لا متناهياً من القراءات .

البعد الأساسي لهذه الرواية ـ الإبهام الخاص بثيمة القرين ـ يفتحها على ما في حدود الهويات من انفلات . وهذا ، حقاً ، ما توحي به ، فعلاً ، الشواهد الثلاثة الصادرة ، وكل منها موقّع باسم يختلف من واحد إلى آخر ، مع ذلك ، عن مؤلف واحد ، فرناندو بيسوا نفسه الذي يعني اسمه المشتق من كلمة «برسونا» اللاتينية ، كما يقول أوكتافيو باز ، القناع . وبيسوا (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) الذي يعد ، اليوم ، أكبر شاعر برتغالي منذ كامويس (١٥٢٤ ـ ١٥٨٠) والذي كان يصرح بأنه «يريد أن يكون ، بمفرده ، أدباً كاملاً» كان قد تصور ـ كما هو معروف ـ كوكبة من كتّاب ومفكرين

وشعراء زود كل منهم بشخصية وترجمة حياة ومؤلفات خاصة به ونشر ، بأسمائهم ، معظم نصوصه واعطاهم اسم الأسماء البديلة المشهورة اليوم . ويفضل ترجمات أرمان غيبير وبيير هوركاد الى الفرنسية ، أصبح اثنان منهم ، البرتو كاييرو ، «المعلم» ، وألفارو دوكامبوس ، «المهندس المستقبلي» ، معروفين من الجمهور الفرنسي الواسع الذي أتى ، مؤخراً ، على اكتشاف برناردو سواريس ، وهو بديل آخر ، موظف مكتب متواضع في ليشبونة ، مؤلف كتاب «عدم الطمأنينة» .

وريكاردو ريس ، البديل الثالث «الكبير» وبطل هذه الرواية ، هو ، في مؤلفات بيسوا ، شاعر هرب الزمن ، الأبيقوري ذو «الصفاء المتشنج» الذي يلعب لعبة العيش والحب . وتكشف لنا «ترجمة حياته» أنه ، وهو المولود عام ١٨٨٧ ، قصير ، نحيل واسمر ، وأنه طبيب وأنه نفى نفسه الى البرازيل عام ١٩١٩ .

وهكذا نلقى الموقعين الثلاثة على الشواهد ، بيسوا وسواريس وريس الذين سيهدمون ، بلعبة انعكاسات بارعة ، كوكبة الأسماء البديلة ، وهي تجلٍ للهوية الاشكالية ، الثيمة المركزية لهذه الرواية .

فحيث تنتهي مسيرة ريكاردو ريس كاسم بديل لبيسوا ، تبدأ مسيرة شخصية جوزيه ساراماغو . وكما لو كان ذلك صدى لعبارة بيسوا القائلة «أنا شخصية رواية مازال ينبغي أن تُكتب» ، يلفق ساراماغو ، بعد أن توضع الثوابت التاريخية والطوبوغرافية والسياسية لروايته ، اللقاء بين هذين اللاوجودين ، وجود الشاعر الميت ووجود بديله ، المزدوج الوهمية .

ان لعبة الازدواج الدائم هذه عالقة في تشابك بين الوهمي والواقعي :

الثاني يخطر من خلال وثائق عصر وصحف : حرب اسبانيا ، مجيء سالازار وخلق الدولة الجديدة ، حرب الحبشة الخ... ؛ أما الأول ، فهو مسجل

في شواهد تتخلل الرواية ـ مقتطفات من أشعار ألفارودو كاميوس وكاييرو ، وبيسوا نفسه واشارات متواترة الى كامويس الذي لا يسيطر وجهه على الساحة الطوبوغرافية التي يدور ، فيها ، الفعل فقط ، بل ، أيضاً ، على مستوى رمزي ، على مركبات «البرتغالية» ـ أساطير السيباستانية والامبراطورية الخامسة المتكاملة ، كلها ، في العمل بصورة أو بأخرى .

واذا كان لا يمكن فهم مرمى عمل فرناندو بيسوا الا باعتبار كل نص لكل واحد من البدلاء كدراما واعتبار مجموعها دراما أخرى ، «دراما أشخاص لا دراما أفعال» حسب تعابير خالقها نفسها ، فإنه من المناسب أن نعد رواية جوزيه ساراماغو ، بدورها ، نتاج العلاقة بين الأدب والأسطورة ، اذ تلقى هذه الأخيرة ، هنا ، معالجة ساخرة وكاشفة للوهم .

وكي نختتم هذا المدخل الموجز ، ندع الكلام للمؤلف الذي قدّم على هذا النحو روايته قبل الأخيرة في مقال نشر ، في تشرين الثاني ١٩٨٥ ، في مجلة «فولها ساو باولو» (البرازيل) :

«سنة موت ريكاردوريس [...] تجعلنا نقبل ، كشيء محتمل التصديق ، فكرة حياة أخرى ، وهي اكذوبة ، وبالتالي حقيقة اخرى ، قناعاً آخر . ان في هذه اللعبة دواراً» .

ولا بد من كلمة أخيرة حول سمة شكلية يمكن ان تفاجىء القارىء والناجمة عن إرادة من ساراماغو لمحو تعدد الهويات والانقطاع في الخطابات ؛ والأمر يدور حول التنقيط : وقد حاولنا ، بقدر ما تسمح قواعد اللغة ، احترام اختيار المؤلف الخاص جداً ، أي غياب الخط الصغير والمقاطع في الحوارات ، وضع الفواصل بدلاً من عدد كبير من نقاط نهايات الجمل والحذف المنتظم لكل نقاط التعجب والاستفهام .

هنا ينتهي البحر ويبدأ البر ، تمطر السماء على المدينة الشاحبة ، النهر ينقل مياهاً طمية والضفاف مغمورة : تصعد سفينة سوداء عكس التيار القاتم ، انها «الهايلاند بريغاد» التي اتت على الرسو عند رصيف ألكانترا . وهي سفينة انكليزية من الأسطول الملكي تعمل بين لندن وبونس ايرس وتعبر الأطلسي من احدى ضفتيه الى الأخرى ، وتتوقف دائماً في المرافىء نفسها ، لابلاتا ، مونتفيديو ، سانتوس ، ريودو جانيرو ، برنامبوكو ، لاس بالماس ، في هذا الترتيب أو في الترتيب الآخر ، واذا لم تغرق خلال عبورها ، فإنها ستلامس ، أيضاً ، فيغو وبولوني على البحر قبل أن تمضي ، أخيراً ، على نهر التاميز كما تمخر ، الآن ، نهر التاج ، فلكل نهر مدينته . ليست سفينة هامة ، زنتها أربعة عشر ألف طن فقط ، ولكنها تصمد جيداً للبحر ، واتت ، أيضاً ، على اثبات ذلك خلال هذه السفرة . فعلى الرغم من طقس رديء مستمر ، لم يمرض سوى المسافرين المستجدين وبضعة آخرين ، أيضاً ، أفضل تمرساً ولكنهم يعانون ضعفاً في المعدة غير قابل للشفاء ، ويشعر ، فيها ، المرء بالرخاء ، وهي مريحة الى حد أعطي لها ، معه ، كشقيقتها التوأم «هايلاند مونارك» ، اللقب

الودود ، لقب مركب العائلات . فكلتاهما مزودتان بكثيبات فسيحة للرياضة وحمامات الشمس ، ويمكن ، مثلاً ، وهو برهان على أن لا شيء مستحيل على الامبراطورية البريطانية ، ان يلعب ، فيها ، الكريكيت ، وهي لعبة برية تصبح ممارستها ، على هذا النحو ، ممكنة في البحر ، أيضاً ، كما تمنى أولئك الذين يحكمون هناك . وعندما يكون الطقس لطيفاً ، تصبح «الهايلاند بريغاد» حديقة أطفال ، جنة للمسنين ، ولكنها ليست كذلك ، اليوم ، لأن السماء تمطر وبعد الظهر يقترب من نهايته . ووراء زجاج النوافذ الذين كمد لونه بتأثير الملح ، يرقب الأطفال المدينة الرمادية الواقعة على مستوى الهضاب ، وكلها بيوت واطئة أو هذا ، على الأقل ، الانطباع الذي تعطيه ، مع ، على مسافات متباعدة ، قبة أو واجهة تنفك عن خلفيتها ، شكل يشبه خرائب قصر ، ولكن كل ذلك ليس سوى وهم ، خداع بصري ، سراب خلقه الستار المتحرك من المطر التي تسقط من السماء المسدودة . الأطفال الأجانب الذين اعطتهم الطبيعة مزيداً من الفضول عن الآخرين يريدون أن يعرفوا اسم المدينة ، فيطلعهم عليه آباؤهم أو مرضعاتهم أو مربياتهم أو خادماتهم أو آنساتهم أو بحّار كان يمر من هناك ليمضي إلى القيادة ، انها ليشبوا ، ليشبون ، ليشبونة ، ليشابون ، وهي أربع صياغات مختلفة ، دون أن تعد الصيغ المتوسطة أو غير الدقيقة ، والأطفال يعرفون الآن ما كانوا يجهلونه قبلاً وهم لم يعرفوا مع ذلك شيئاً ، مايكاد أن لا يكون سوى اسم يوقع الاضطراب في ذكائهم ، جرى تلفظه بصورة تقريبية ، باللكنة الخاصة بالأرجنتينيين ، بأهالي الأوروغواي ، بالبرازيليين أو الاسبانيين الذين يعبّر كل منهم ، حين يكتبون ليشبوا بلغتهم القشتالية والبرتغالية ، عن شيء مختلف عن الآخرين ليست له أدنى علاقة بما جرت العادة على سماعه أو كتابته . وغداً ، في وقت مبكر جداً ،

عندما ستغادر الهايلاند بريغاد المرفأ ، يجب أن يكون هناك قليل من الشمس على الأقل ، ان تتكشف السماء وان لا يعتم هذا الضباب القاتم ، نهائياً ، طالما ظلت الأرض مرئية ، الذكرى المتلاشية من قبل للمسافرين الذين مروا من هنا للمرة الأولى ، لهؤلاء الأطفال الذين يرددون ليشبونة ويصنعون منها اسماً لاستعمالهم ، لهؤلاء الراشدين الذين يقطبون حواجبهم ويرتعشون في الرطوبة التي ترشح من الخشب والحديد كما لو كانت الهايلاند بريغاد المنبثقة من أعماق البحر قد جاءت لتتنشف على السطح ، مركباً شبحياً مرتين . لاينبغي ، عن إرادة ولا عن ميل ، ان يرغب أحد في البقاءفي هذا المرفأ .

قليل من الناس سينزلون . السفينة وقفت عند الرصيف ، ووضع من قبل سلم النزول ، وفي الأسفل يظهر عمال الميناء ، والعتالون ببطء ، ويغادر الحرس الماليون محارسهم والعنابر التي كانوا قد وجدوا فيها ملجأ ، وموظفو الجمرك يتعجلون . هدأت المطر ، كاد أن لا يبقى منها سوى قطرات . المسافرون يتجمعون في أعلى العبّارة ، مترددين ، كما لو كانوا يشكون في كونهم قد سمح لهم بالنزول ، ربما كان هناك حوالي الأربعين منهم ، أو أنهم يخشون الدرجات الزلقة ، ولكن كلا ، ان المدينة الصامتة هي التي تخيفهم ، يمكن ان يقال ان كل الناس قد ماتوا وأن المطر تصر على الهطول لتنجز اغراق ما كان مايزال صامداً . وعلى طول الرصيف ، ومن خلال الكوى الكامدة ، هناك الومضات الضعيفة للسفن الراسية والأغصان المقطوعة ، السوداء ، صواري شحن ، والرافعات الصامتة . انه يوم الأحد . وما وراء العنابر ، تبدأ المدينة ، كئيبة ، منزوية وراء واجهاتها وجدرانها ، مازالت ، لبرهة ، محمية من المطر ، وعندما يتحرك ، مصادقة ، ستار حزين ، مطرز ، تنظر الى الخارج بعينين فارغتين وتصغي الى قرقرة ماء السقوف الذي ينزل

على طول الميازيب حتى بازالت المجاري ، على حجارة الرصيف اللامعة ، في السواقي الفائقة الامتلاء حيث صعد الماء .

ينزل أوائل الركاب ، يحملون ، وهم محنيو الظهور تحت المطر الرتيبة ، رزَماً والأمتعة التي تحمل بالأيدي بالهيئة التائهة لمن اجتاز حلم صور سيالة ، وكان هناك ، بين السماء والبحر ، مسرع مقدم السفينة الذي يعلو ويهبط ، تأرجح الأمواج ، الأفق المغناطيسي . أحدهم يحمل طفلاً ، برتغالياً احتمالاً على اعتبار انه صامت ، نسي أن يسأل أين كان أو ربما قيل له ذلك عندما كان نائماً في القمرة الخانقة ، واعدين إياه بمدينة جميلة ، بحياة سعيدة ، قصة جنيات اخرى ، لأن الهجرة لم تنجح مع هؤلاء . امرأة عجوز تحمل تحت ذراعها صندوقاً أخضر تصرّ على فتح مظلة ، الصندوق الصغير يقع ، يسقط على حجارة الرصيف ، الغطاء يتحطم ، القعر انفتح تحت الصدمة ، ما من شيء ذي قيمة ، أشياء تخصها ببساطة ، بضعة أسمال مبرقشة ، رسائل ، صور طارت ، لآلي عقد زجاجية ، مكبات خيوط بيضاء تلوثت الآن ، أحدها اختفى بين حافة الرصيف والسفينة ، إنها راكبة من الدرجة الثالثة .

وضعوا ، الواحد منهم بعد الآخر ، أقدامهم على الأرض ، ركضوا يحتمون ، الأجانب يرغون ويزبدون ضد العاصفة كما لو كنا مسؤولين عن الطقس الرديء ، ويبدو أنهم قد نسوا أن الأمر غالباً ما يكون أسوأ في فرانساتهم وانكلتراتهم ، وأخيراً ، فكل شيء ، لهؤلاء الناس ، ذريعة لاغتياب البلدان الفقيرة ، حتى المطر ، ومع ذلك فقد كان من شأننا ، نحن الآخرين ، ان تكون لدينا أسباب كثيرة اخرى للشكوى ، ونحن نلزم الصمت ، ملعون هذا الشتاء ، ملعونة كل هذه الأرض التي تفلت ، منتزعة من الحقول الخصبة ، في حين نحن في أشد الحاجة إليها ، فالبرتغال صغيرة

جداً . بدأ افراغ الأمتعة ، البحارة يشبهون ، وهم تحت معاطفهم البرّاقة ، تمائم مغطاة الرؤوس ، وفي الأسفل ، على الرصيف ، يتحرك العتّالون البرتغاليون مجهزين تجهيزاً خفيفاً بعمرات ذات واقيات وجه ومشمع قصير ، غير مبالين بالطوفان الى حد يدهش ، معه ، كل الناس ، هذا الازدراء للرخاء يستجر اشفاق جيوب المسافرين ، محافظهم كما يقال الآن ، والاكرامية تزيد مع الاشفاق ، شعب متخلف يعيش ممدود اليد ، كل واحد يبيع ما بقي له ، تسليمه ، القناعة ، صبره ، ويوجد دائماً ، اناس يتاجرون بهذه السلع . المسافرون مروا على الجمارك ، العدد صغير ، كان الأمر متوقعاً ، ومع ذلك ، فسوف يلزم وقت قبل أن يخرجوا ، بكل الشكليات التي يجب استكمالها وبموظفي الجمارك العاملين اليوم ، المهووسين بالكتابة ، اسرعهم يرتاحون الأحد دون شك . أظلم بعد الظهر والساعة لم تتجاوز الرابعة ، وبعد قليل سيحل ليل أسود ، والأمر ، فضلاً عن ذلك ، هو نفسه ، هنا ، في الداخل ، فمصابيح مسكينة تشتعل طيلة اليوم ، بعضها احترق ، هوذا واحد لم يعد يضيء منذ أسبوع ولم يُبدل ، بعد ، بسواه . وميض أخضر مزرق يرشح من النوافذ القذرة . الهواء ينشر النتن في الملابس ، رائحة الأمتعة الحادة ، قماش الأكياس ، والكآبة تستولي على المسافرين الذين صمتوا فجأة ، ليست هناك ادنى علامة فرح بهذه العودة . الجمرك مدخل متوسط ، حواش ، ما الذي سيكون الأمر عليه عندما يخرجون .

رجل أشيب ، نحيل ، يوقّع الأوراق الأخيرة ، يأخذ النسخة الثانية منها ، يستطيع الآن ان يمضي ، ان يخرج ، أن يتابع دربه على الأرض الثابتة . يصحبه عتّال لا فائدة من التفصيل في مظهره الجسدي والا كان ينبغي ، اذ ذاك ، لتجنب كل ابهام ، الاستمرار الى ما لا نهاية في

الفحص من أجل تمييز أحدهما عن الآخر بوضوح لأن كليهما نحيلان ، أشيبان ، اسمران وحليقان ، ومع ذلك فهما مختلفان جداً ، أحدهما راكب ، والآخر عتال . هذا الأخير يحمّل الحقيبة الكبيرة على عربة معدنية صغيرة ، ويعلق الأخريين ، وهما صغيرتان بالمقارنة مع الأولى ، في عنقه بحزام يمر وراء رقبته ، حتى ليقال أنه نير أو عقد لسلك ما . في الخارج ، وفي حماية الأفريز ، وضع الحمولة على الأرض ، ومضى يبحث عن تاكسي ، وهو ما ليس ضرورياً عادة ، فسيارات التاكسي تتسكع جميعها هنا لدى وصول المراكب . ينظر المسافر الى الغيوم المنخفضة ، والى بقع المياه على الأرض غير المستوية ، ومياه الحوض الملوثة بالزيوت والقشور والفضلات من كل الأنواع ، يرى سفناً حربية ، متحفظة ، لم يكن من المتوقع ان تُرى هنا ، أليس مكان هذه القطع في أعالي البحر أو ، أيضاً ، في غير زمن الحرب أو خلال المناورات ، عند مصب النهر الواسع الى حد يكفي لاستقبال كل أساطيل العالم كما كان يقال سابقاً وكما ربما مازال يقال اليوم ، دون الاهتمام بمعرفة الأساطيل التي يدور الأمر حولها . ركاب آخرون يخرجون من الجمرك يساعدهم عتّالون ، التاكسي ينبثق اذ ذاك ، مرسلاً برشاش من حزم المياه من تحت عجلاته ، كل الذين كانوا يترقبون هناك ، مستعجلين ، يلوحون بأذرعتهم ، ولكن العتّال الذي قفز من فوق الدواسة لوح بيده عالياً ، أنه للسيد هناك ، وهذا برهان على أن معدماً من مرفأ ليشبونة يستطيع ، عندما تكون المطر والظروف الى جانبه ، ان يكون سيد السعادة ويتصرف بها على هواه ، يعطيها ويستعيدها في الثانية نفسها ، كما يعتقد بأن الله يصنع حياة . بينما كان السائق يفتح الصندوق الخلفي للسيارة ، سأل المسافر ، وكانت المرة الأولى التي تلاحظ ، فيها ، لكنته

البرازيلية الخفيفة ، لماذا توجد هذه المراكب في الحوض أجاب العتال اللاهث الذي كان يساعد السائق على رفع الحقيبة الثقيلة ، بأنه حوض البحرية ، وانها قطرت الى هنا أول أمس بسبب العاصفة السيئة ، والا كانت مهددة بأن تقتلع مراسيها وتمضي لتجنح الى الجيس* .

وصلت سيارات تاكسي اخرى ، كانت متأخرة ، ربما كانت السفينة قد رست قبل موعدها ، هياج شديد كان يسود الآن في الميدان ، كان هناك ما يكفي الجميع . سأل المسافر : بكم أدين لك ؟ . قال العتال : ما تريد فوق التعرفة ، دون أن يحدد التعرفة ولا السعر الحقيقي للخدمة ، فقد كان يسلم أمره للحظ الذي يبتسم للجسورين حتى لو كانوا عتالين . ليس معي سوى عملة انكليزية . باه! لا بأس . وفي يده اليمنى ، شاهد عشرة شلنات توضع ، العملة كانت تلمع أكثر من الشمس ، نجح النجم ـ الملك ، أخيراً ، في تمزيق الغيوم التي كانت تثقل على ليشبونة . الشرط اللازم لعيش حياة عتال طويلة ومزدهرة ، هو أن يكون للمرء قلب متين ، قلب من برونز ، والا كان مهدداً في كل لحظة بالانهيار مصعوقاً تحت الأحمال البالغة الثقل والارتجاجات التي تسببها . مثل هذا الكرم يقتضي مكافأة عادلة ، والعتال الذي لا يريد أن يكون مقصراً يضيف الى ضروب الشكر التي لا يصغي إليها أحد معلومات ما من أحد قد طلبها ، هذه كاسحات ألغامنا يا سيدي ، كلها برتغالية ، هذه التاج والداو وليما وفوغا وتاميغا ، الداو هي تلك الموجودة هناك ، قريبة جداً . لا يوجد أي فرق بينها ، بل يمكن قلب الأسماء ، انها متشابهة كلها ، توائم مدهونة بلون رمادي كئيب ، تقطر مطراً ، دون نسمة على متنها ، راياتها مبللة ، اسمال ، فليسامحني الله ودون ان أريد تقليل

---

* الجيس : أول محطة حمامات بعد ليشبونة ، على خط ليشبونة ـ كاسكيه .

احترامي ، ولكن حسناً ، نحن نعلم الآن ان الداو هي هذه ، من يعلم ، فربما سنسمع عنها من جديد .

العتال يرفع عمرته ، يشكر ، التاكسي ينطلق مسرعاً ، السائق يسأل ، الى أين نمضي ، وهذا السؤال البسيط جداً ، الطبيعي جداً ، المتكيف ، تماماً ، مع المكان والظروف ، باغت المسافر ، كما لو كان شراؤه بطاقته في ريودو جانيرو كان ، ويمكن ان يستمر في أن يكون ، جواباً على كل الأسئلة ، حتى أسئلة الماضي التي لم تلق ، سابقاً ، سوى الصمت ، واليوم ، وهو ما يكاد ينزل الى البر ، يتبين أن الأمر ليس كذلك ، وأنه لا شك في أنه طرح عليه أحد السؤالين المرهوبين ، أين نمضي ، والآخر ، وهو أسوأ أيضاً ، كان أن يسأل لماذا . ألقى السائق نظرة على المرآة ، فربما لم يسمعه الراكب ، كان قد فتح فمه ليكرر ، أين نذهب ، ولكن الجواب سبقه ، جواب متردد ، الى الفندق . أي فندق . لا أعلم ، والمسافر يفهم فجأة ، بعد ان قال لا أدري ، ما كان يتمناه بحرارة ، كما لو أن رحلته ، بكاملها ، انقضت في تأمل هذا الاختيار . فندق قرب النهر ، هنا تحت . قرب النهر لا أرى ، أبداً ، سوى البراغانسا في بداية شارع اليكريم ، لا أعلم اذا كنت تعرفه . لا أتذكر الفندق ، ولكني أعرف الشارع ، عشت في ليشبونة ، أنا برتغالي . آه ، أنت برتغالي ، مع هذه اللكنة ظننت أنك برازيلي ، أيلاحظ هذا الى هذه الدرجة . أخيراً ، يقال ان هناك شيئاً ما ، مضت ست عشرة سنة لم أعد خلالها إلى البرتغال . ست عشرة سنة مدة طويلة ، سترى كثيراً من التغيير هنا ، وبعد هذه الكلمات الأخيرة سكت السائق فجأة .

لم تكن التغييرات تبدو ، في عين المسافر ، بهذه الأهمية . الشارع الذي كانا يجتازانه يقابل ، اجمالاً ، الذكرى التي احتفظ بها عنه ، الأشجار وحدها كانت أعلى ، ولم يكن في هذا ما يدهش ، فقد كان لديها ست

عشرة سنة لتنمو ، واذا كان يرى ، من جديد ، في ذاكرته ، أوراقاً خضراء ، ولأن عري الغصون الشتوي يقلص كتلة الأشجار المتلاحقة ، فإن الرؤيتين كانتا تتطابقان . كانت المطر قد خفت ، بقيت بضع قطرات متفرقة فقط ، ولكن لا وجود لأية فتحة على زرقة السماء ، كانت الغيوم تتعاقب مشكلة سقفاً واسعاً موحداً بلون الرصاص . سأل المسافر : هل هطلت المطر كثيراً . أجاب السائق : انه طوفان ، وهو مستمر منذ شهرين ، وشغّل ماسحات الزجاج . المرور قليل ، بضعة تراموايات ، أحد المشاة يعيد اغلاق مظلته مرتاباً ، على طول الأرصفة بقاع مياه ولدت من أختناق المجاري ، بضع حانات مفتوحة الى جانب بعضها بعضاً ، مظلمة ، مصابيحها المزفتة محاطة بالظل ، صورة صموت لكأس خمر قذرة على مشرب من التوتياء . هذه الواجهات هي السور الذي يخفي المدينة ، التاكسي يمر أمامها ، ببطء ، باحثاً عن فجوة ، فتحة ، باب خفي ، مدخل المتاهة . قطار كاسكيه يمر على غير عجل ، يكبح سيره بشكل رخو ، إنه يسير ، حقاً ، بسرعة تكفي لتجاوز التاكسي ، ولكنه يبقى وراءه ، يدخل المحطة في البرهة التي كانت ، فيها ، السيارة تدور حول الميدان ، السائق يعلن : ها هو الفندق ، هناك ، في بداية الشارع ، وقف أمام مقهى وأضاف أنه من الأفضل أن يذهب أولاً ليرى ما اذا كانت هناك غرفة شاغرة ، لا أستطيع الوقوف أمامه بسبب التراموايات ، خرج المسافر ، ألقى نظرة سريعة على «الكافيه رويال» ، مثال مبتذل على ضروب حنين ملكية في إبان الجمهورية ، ذكرى العهد السابق المخفي وراء اسم انكليزي أو فرنسي ، فكرة مضحكة ، يقرأ المرء ولا يعرف كيف يتلفظ ، ما اذا كان يجب ان يقول رويال أو رويل ، انقطعت المطر ، الشارع في اتجاه صاعد ، لدى المسافر كل الوقت للتفكير في السؤال ، ثم يتخيل نفسه وقد عاد من

الفندق ، بغرفة أو دونها ، ولم يبق أثر للتاكسي الذي اختفى مع حقائبه وملابسه وأشيائه الشخصية وأوراقه ، ويتساءل ، اذ ذاك ، كيف يعيش مسلوباً من هذه الممتلكات وغيرها .

تسلق آخر درجات سلم الفندق التي تطل على الشارع وقد فهم أن هذه الأفكار كانت أفكار رجل متعب جداً ، نعم ، الأمر هو كذلك ، كان يحس بتعب هائل ، بخدر في النفس ، بيأس ، إلى حد يفهم المرء هذه الكلمة الى درجة تكفي للتلفظ بها .

عندما دفع باب الفندق ، رن جرس كهربائي ، سابقاً كان ، دون شك ، ناقوساً يرن درن ، درن ، ولكنه ينبغي ، دائماً ، أن يحسب حساب للتقدم وتحسيناته . في أسفل درج مستقيم تمثال صغير من حديد الصب ، في طرف ذراعه اليمنى كرة زجاجية ، وصيف بلباس بلاط ، إلا أنه هل يجب أن يذكر ذلك ، أليس هذا لغواً ، لأن لا أحد يتذكر أنه رأى وصيفاً بغير لباس البلاط ، فهم وصفاء من أجل أن يرتدوا الثوب ، كان من الأفضل ان يقال : وصيف بثياب وصيف ، وبموجب تفصيلة الثياب ، نموذج ايطالي من عصر النهضة تسلق المسافر الدرجات التي لا تنتهي ، لا يمكن التفكير في أنه ينبغي صعود هذا القدر لبلوغ طابق أول ، انه صعود الايفرست ، انجاز خالد ، حلم جبلي ، ولكن هوذا يظهر فوق رجل بشاربين يشجعه ، هيا ، اصعد . كلا ، لم يقل شيئاً ، ولكنه يمكن تفسير هذه الطريقة التي له في النظر ، محنياً فوق المنبسط ، متسائلاً حول أية ريح طيبة أو حظ سيء قادا هذا الزبون الى هنا على هذا النحو . مساء الخير يا سيدي ، مساء الخير . كان مبهور الأنفاس ، ذو الشاربين يبتسم متفهماً . غرفة . الابتسامة تتحول الى اعتذار ، ما من غرفة في هذا الطابق ، هنا الاستقبال ، قاعة الطعام ، الصالة ، هناك في الآخر المطبخ والمكتب ، الغرف في الأعلى ، يجب الصعود

الى الطابق الثاني ، هذه لا تستخدم ، إنها صغيرة ومظلمة ، ولا هذه ، النافذة تطل على الباحة الخلفية ، هذه مشغولة ، أريد غرفة أرى منها النهر . آه ، حسن جداً ، اذن سوف تحب المائتين والواحد ، انها شاغرة منذ هذا الصباح ، سأريك إياها حالاً . كان الباب واقعاً في نهاية الممشى ، مع رقعة من الخزف بأرقام سوداء على خلفية بيضاء ، ولو لم تكن تلك غرفة هادئة في فندق متواضع ، لكان رقم الباب مائتين واثنين ، ولكان الزبون يدعى جاسنتو ، مالك مزرعة في في تورنر ، ولم تكن هذه المغامرات الصغيرة لتقع في شارع اليكريم ، بل في الشانزليزيه ، على يمين الصاعد ، كما في فندق براغانسا ، ولكن التشابه يتوقف هنا . الغرفة أعجبت المسافر ، ولنكون أكثر دقة نقول الغرفتين ، لأنه كان هناك غرفتان يجمع بينهما ممر بقنطرة ، وفي آخر الغرفة غرفة النوم ، المضجع كما كان يمكن ان يقال سابقاً ، وفي المقدمة الصالة ، ويشكل المجموع شقة حقيقية بأثاثها القاتم المصنوع من الأكاجو المصقول والستائر المزدوجة على النوافذ والنور الهادىء . سمع المسافر صرير ترام يصعد الشارع . كان السائق على حق . بدا له ، اذ ذاك ، ان زمناً لا نهاية له انقضى منذ ان غادر التاكسي ، اما يزال هناك ، وابتسم في داخله من خوفه من ان يكون مسلوباً .

اتعجبك هذه الغرفة ؟ كان المدير هو الذي يسأل بصوت من اعتاد ان يأمرُ وسلطته ولكنه ، مع ذلك ، مجامل كما يناسب وظيفته . نعم ، إني آخذها . وكم يوماً تريدها . لا أعلم بعد ، هذا يتوقف على بعض شؤون يجب حلها ، على الوقت الذي ستستغرقه مني . حوار مألوف في هذا النوع من الظروف ، ومع ذلك ، فهناك شيء زائف ، فلم يكن لدى المسافر عمل يعالجه في ليشبونة ، لم يكن لديه ، على الأقل ، ما يستحق هذا الاسم ، لقد كذب هو الذي أكد يوماً أنه يكره انعدام الصحة .

عادا الى الطابق الأول ، نادى المدير مستخدماً هو ، في الوقت نفسه ، صبي فندق ورجل يصلح لكل عمل ، من أجل ان يذهب ليجلب أمتعة السيد ، التاكسي ينتظر أمام المقهى ، خرج المسافر ليدفع أجرة الشوط ، مازالت هذه اللغة ، لغة العربة والحوذي ، تستعمل اليوم ، وخرج ليتحقق من أنه لا ينقصه شيء ، ريبة غير مبررة ، خطأ في الحكم ، السائق رجل شريف لا يطلب شيئاً خلاف السعر المسجل على العداد ، زائداً الاكرامية المعتادة طبعاً . لن يكون له حظ العتال ، توزيع الذهب قد انتهى ، ففي هذه الأثناء بدّل المسافر في الاستقبال قسماً من نقوده الانكليزية ، وليس ذلك ان الكرم قد نضب ، ولكن المرة الواحدة ليست عادة ، والتباهي اهانة للفقراء . حقيبة السيد ، انها أثقل من خالي . عندما وصلت الى المنبسط صدرت عن المدير المزروع هناك للانتظار ومراقبة النقل حركة ، يده ممدودة الى الأمام ، في حركة تساوي في رمزيتها وضع حجر أساس في حين كانت ، محمولة تتقدم ، مستندة ، بكاملها ، على ظهر الصبي ، صبي بالمهنة ، وليس بالعمر ، لأنه لم يعد فتياً جداً ، وهو يحمل الحقيبة لاعناً إياها في سريرته الداخلية ، يسنده من الجانبين مساعدان كان يمكن ان يستغني عنهما طواعية ، الحركة الرمزية الثانية كان من قام بها هو المسافر الذي أوجعه جهد اجرائها . ها هما في الطابق الثاني تقريباً . انها المائتان والواحد يا بيمنتا . بيمنتا محظوظ هذه المرة ، فهو لايحتاج الى ان يصعد حتى الطابق الأخير . وفي حين كان يتابع صعوده ، عاد الزبون الى الاستقبال وهو مايزال يلهث ، أخذ قلماً وكتب على صفحة السجل المخططة ما معرفته ضرورية ، ما يدعي كونه ، اسمه ، ريكاردو ريس ، عمره ، ثمانية وأربعون عاماً ، مولود في بورتو عازب ، مهنته ، طبيب ، آخر عنوان له ، ريودو جانيرو ، البرازيل ، من هناك أتى ، سافر على الهايلاند بريغاد . يخيل الى المرء إنها

بداية اعتراف ، بداية ترجمة ذاتية ، كل المجهول يقع في هذا السطر المخطوط ، المسألة الآن هي اكتشاف الباقي . المدير الذي كان يلوي عنقه لمتابعة تلاحق الحروف ومحاولة تفسير معناها يعتقد ، الآن ، انه يعرف أمرين أو ثلاثة ، ويقول سيدي الدكتور* ، ليست هذه مجاملة حقاً ، إنها بالأحرى علامة تميز ، اعتراف بحق ، بمزية ، بصفة ينبغي عليه مكافأتها فوراً ، اسمي سلفادور ، أنا مسؤول عن الفندق ، مديره ، اذا احتجت الى شيء ، سيدي الدكتور ، يكفي أن تعلمني به . في أية ساعة يقدم العشاء ، العشاء في الثامنة ، سيدي الدكتور ، آمل ان يعجبك مطبخنا ، لدينا أيضاً أطباق فرنسية . أبدى الدكتور ريكاردو ريس موافقته باشارة من رأسه . أخذ معطفه الواقي من المطر وقبعته اللذين كان قد وضعهما على كرسي ، وانسحب .

في الغرفة المفتوحة الباب ، كان الصبي ينتظره . لمحه ريكاردو ريس من مدخل الردهة . كان يعلم انه عند وصوله الى هناك سيمد له الرجل يداً مخلصة ولكنها مطالبة بما يناسب الجهد المبذول ، ولاحظ وهو يتقدم ، ولم يكن قد لاحظ ذلك قبلاً ، ان كل الأبواب واقعة في جانب واحد ، وفي الجانب الآخر جدار قفص السلم ، كان يفكر في ذلك كأنه شيء هام جداً لم يكن ينبغي ، خاصة ، ان ينساه ، كان متعباً جداً حقاً . اخذ الرجل الإكرامية ورازها أكثر مما نظر إليها ، مسألة عادة ، وبدا مسروراً الى درجة قال ، معها ، شكراً جزيلاً ، سيدي الدكتور . من المستحيل تفسير كيف عرف ذلك على اعتبار انه لا يمكن ان يكون قد راجع السجل ، يجب الايمان بأن الطبقات الدنيا لا تقل فطنة ولا حدة ذهن عن الأشخاص المثقفين ، عن الذين

* في البرتغال من الشائع مناداة الأطباء ، وكذلك المهندسون والجامعيون بلقب دكتور .

درسوا . بيمنتا ، من جهته ، يشعر بألم في أحد لوحي كتفيه ، فلم يكن احد قضبان الحقيبة جيد الإحكام ، الخبرة لم تفد شيئاً هذه المرة .

جلس ريكاردو ريس على كرسي ، ألقى نظرة حوله ، هنا سوف يعيش لزمن لا يعرفه ، ربما سيستأجر بيتاً ويؤسس عيادة أو يعود الى البرازيل . في الوقت الحاضر ، الفندق يكفي ، مكان حيادي ، دون شبهة ، مكان ترانزيت وحياة انتظار ، أضيئت الأنوار في النوافذ ، خلف الستائر فجأة ، أضيئت المصابيح العاكسة . الوقت تأخر جداً فجأة . هذا اليوم ينتهي ، ما بقي منه يحوم بعيداً على البحر ، منذ وقت قصير كان ريكاردو ريس يمخر البحر ، الأفق الآن في متناول يده ، الجدران ، الأثاث ، مرآة مظلمة ينعكس عليها الضوء . اهتزاز الآلات البخارية العميق ترك مكانه للهمس ، لتمتمة المدينة ، ستمائة ألف شخص يتنهدون ، صرخة من بعيد ، خطى متحفظة في الردهة الآن ، صوت امرأة يقوى إني آتية . هاتان الكلمتان ، هذا الصوت ، خادمة دون شك . فتح احدى النوافذ ونظر خارجاً ، المطر توقفت ، الهواء الندي ، الذي بللته الريح التي كنست النهر يدخل الى الغرفة ، يطرد منها رائحة المحبوس ، كما لو كانت رائحة ثياب وسخة منسية في درج ، الفندق ليس منزلاً ، يجب تذكر ذلك ، الروائح تنطبع فيه ، تعرق أرق أحدهم ، ليلة حب لآخر ، أو ، حقاً أيضاً ، الرائحة الرطبة لمعطف ، الرائحة المغبرة لأحذية مفرشاة قبل الرحيل ، رائحة خدم يأتون لتنظيف الغرف ، للكنس ، لا يمكن عمل شيء بصددها ، هذه علامات لانسانيتنا .

ترك النافذة مفتوحة ومضى ليفتح الأخرى بكمين مشمرين ، وانتعش ، واسترد كل قوته ، فبدأ يفرغ الحقائب ، افرغها في أقل من نصف ساعة ، فانتقل محتواها الى الأثاث ، الى دروج الصوان ، الأحذية في الخزانة الخاصة

بها ، البذلات على علاقات الشماعة ، حقيبته الطبية السوداء في قعر الخزانة المظلم ، وعلى رف ، الكتب القليلة التي كان قد حملها معه ، كتاب مدرسي للغة اللاتينية لم يعد يقرؤه كثيراً ، شعراء انكليز مألوفون ، ثلاثة أو أربعة مؤلفين برازيليين ، ووسط كل هذا كتاب يخص مكتبة الهايلاند بريغاد نسي أن يرده قبل أن ينزل . اذا كان أمين المكتبة الايرلندي قد لاحظ ، في هذه الساعة ، هذا الغياب ، فلا بد أنه يوجه اتهامات رهيبة ضد الوطن البرتغالي ، أرض عبيد ولصوص ، كما كان يقول بايرون ، وكما ينبغي أن يقول أوبريان الآن ، ترهات مضحكة هي ، مع ذلك ، أصل النزاعات العالمية الكبيرة ، ولكني بريء ، اقسم على ذلك ، انه مجرد نسيان ، لا أكثر ، وضع الكتاب على طاولة ليل ، ذات يوم ، عندما يرغب في ذلك ، سوف ينتهي الى قراءته ، عنوانه هو « إله المتاهة » ، مؤلفه هو هربرت كوين ، ايرلندي هو الآخر ، كما لو كانت تلك مصادفة ، أما بالنسبة للإسم ، فهو غريب جداً حقاً ، لأنه يمكن ، دون اقتراف خطأ في التلفظ تقريباً ، ان يقرأ « كويم » ، هل قرأتم ، حقاً ، كوين ، كويم* ، كاتب أفلت من الظلمة لمجرد كون أحدهم قد اكتشفه على الهايلاند بريغاد ، الا أن هذا ، الآن ، اذا لم تكن هناك على السفينة سوى نسخة واحدة ، سبب اضافي للتساؤل « كويم » . مع ضجر الرحلة ، والعنوان الموحي ، ترك نفسه للإغراء . متاهة بإله ، حول أي إله يدور الأمر ، حول أية متاهة ، من كان هذا الإله المتاهاتي . لم يكن الكتاب ، في نهاية المطاف ، سوى رواية بوليسية مبتذلة ، قصة قتل وتحقيق تافهة ، المجرم ، الضحية ، او العكس ، اذ تسبق الضحية المجرم في

* اشارة الى بورخيس الذي يذكر ، في « قصص مؤلفات هربرت كوين » ، كتاباً وهمياً لهذا المؤلف « إله المتاهة » . ولعبة الكلمات لا تترجم ، فهي تستند الى الجناس اللفظي بين « كوين » و« كويم » التي تعني ، بالبرتغالية ، من ؟

الوجود ، وأخيراً التحري ، ثلاثتهم شركاء للموت ، ويجب الاعتراف بأن الباقي الحقيقي الوحيد على قيد الحياة في هذه القصة هو القارئ نفسه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن كل قارئ يقرأ كل قصة بوصفه الباقي الحقيقي على قيد الحياة دائماً .

يبقى ترتيب الأوراق ، هذه الصفحات التي تتراصف ، فيها ، أشعار ، أقدمها مؤرخ في الثاني عشر من حزيران ، ألف وتسعمائة وأربعة عشر ، كانت الحرب تقترب ، الكبرى ، كما سميت فيما بعد في انتظار الأخرى ، الأكبر أيضاً ، يا معلم ، كل الساعات التي نفقدها هادئة على اعتبار اننا ، حين نفقدها ، كأننا نضع زهوراً في إناء ، وكانت تخلص بعد ذلك بقليل قائلة ، سنغادر الحياة هادئين ، لا نأسف حتى لكوننا قد عشنا . لم يكتب كل شيء هكذا متتابعاً ، كل سطر يشكل بيتاً دون عيب ، ولكن هذه الطريقة التي تقرؤها بها ، دون وقفة سوى وقفة التنفس والايقاع . أحدث ورقة تعود الى الثالث عشر من تشرين الثاني ، عام ألف وتسعمائة وخمسة وثلاثون ، مضى شهر ونصف الشهر منذ كتبها ، ما تزال نضرة وتقول ، فينا تعيش كائنات لا حصر لها ، ان أفكر أو أحس ، فإني أجهل من هو الذي يحس أو يفكر ، أنا فقط مسرح الاحساس أو التفكير ، وحتى اذا لم ينته كل شيء هنا ، فالأمر هو كما لو كان هذا قد انتهى ، على اعتبار لا شيء يوجد ما وراء الفكر والاحساس . فكر ريكاردو ريس ، بعد ان قرأ ، اذا لم أكن سوى هذا ، فمن هو اذن الآن من يفكر ما أفكر به ، أو يفكر بما أنا آخذ في التفكير به في مسرح فكري ، من هو اذن الذي أخذ في الاحساس بما أنا آخذ في الاحساس به في مسرح احساسي ، يستخدمني ليحس ويفكر ، ومن انا بين هذه الكائنات التي لا حصر لها والتي تسكنني ، كويم ، كوين ، أية أفكار ، أية احساسات هي لي الى حد لا يمكن ، معه ، تقاسمها مع أحد ،

من أنا الذي لا يكونه الآخرون ، لم يكونوه ، لن يكونوه . جمع أوراقه ، عشرون سنة ، يوماً بعد يوم ، ورقة بعد ورقة ، ورتبها في أحد دواليب المكتب الصغير ، وأغلق النافذتين ، فتح ماء ساخناً كي يغتسل . تجاوزت الساعة السابعة بقليل .

ريكاردو ريس ، الدقيق ، نزل الى قاعة الطعام حين كانت الدقة الأخيرة من الساعة الثامنة في ساعة منبسط الاستقبال الكبيرة . سلفادور ، المدير ، ابتسم له كاشفاً أسناناً منخورة تحت شاربه واسرع ليفتح له الباب المزدوج المزجج الذي يحمل حرف H وB ، تشابكات من منحنيات ومنحنيات معاكسة ، استطالات نباتية ، بقايا أقنطة ، أوراق متشابة ، الخدمة الفندقية التافهة التي شرّفتها الفنون التزيينية . فتح له رئيس الخدم الدرب ، ما من زبون في المطعم ، هناك فقط مستخدمان كانا ينهيان وضع الأطباق ، كانت تسمع ضجة المطابخ وراء باب ثانٍ يحمل حرفاً سرعان ما ستظهر منه أوعية الحساء والصحون المليئة . الأثاث هو نفسه في كل مكان ، عندما يرى المرء احدى قاعات الطعام هذه ، يكون قد رآها جميعها ما عدا ، بالتأكيد ، اذا كان الأمر يدور حول فندق فاخر ، ولكن الأمر ليس كذلك هنا ، بضعة أنوار خافتة في السقف وعلى الجدران ، وعلاقات ، وعلى الموائد أغطية بيضاء ملطخة ، فخر الإدارة ، التي بيضتها بحب نساء من كانوساس ، وليس من مكان آخر غيره ، لأنه لا يستعمل هناك سوى الصابون والشمس ، ولكن الأغطية البديلة ، مع هذه المطر التي لا تتوقف ، سوف تتأخر بالتأكيد . جلس ريكاردو ريس ، ذكر له رئيس الخدم الوجبة ، الحساء ، السمك ، اللحم ، الا انه اذا أراد السيد الدكتور غذاء قليل الدهون ، فهناك لحم آخر ، سمك آخر ، حساء آخر . من أجل أن تبدأ في التكيف مع هذه التغذية الجديدة ، انصحك بهذا النظام فضلاً عن ذلك ، عندما يكون المرء قادماً لتوه

من المدارات بعد ست عشرة سنة من الغياب ، ماذا ، هذا أيضاً يعرفونه فعلاً في قاعة الطعام وغرفة الخدمة . دفع باب الاستقبال ، دخل زوجان مع طفلين ، صبي صغير وبنت صغيرة ذات لون شمعي ، ولكنها حقاً الأسرة نفسها ، التشابهات تثبت ذلك ، الأقارب بالدم ، رئيس الأسرة مشى في المقدمة قائداً قبيلته ، الأم تدفع الصغيرين اللذين يمشيان في الوسط . رجل ضخم ، وقور ، دخل بدوره ، وكانت سلسلة متدلية من أحد جيبي صدارته الى الآخر تسد معدته ، وبعده فوراً ، رجل نحيل جداً ، ربطة عنق سوداء وعلامة حداد على ساعده . ثم لا أحد خلال ربع الساعة هذا . كانت تسمع ضجة الأطباق في الصحون ، والد الطفلين يقرع بسكينه على كأسه بالحاح ليستدعي النادل ، الرجل النحيل ، المجروح في حداده وحسن تربيته ، يحدق فيه ، بعين قاسية ، الرجل الضخم يمضغ بسكون . ريكاردو ريس يتأمل عيني حساء الدجاج ، لقد اختار النظام الغذائي مطيعاً ، بلا مبالاة خالصة ، الاقتراح . نقرات على الزجاج ، عادت المطر الى الهطول . هذه النوافذ لا تطل على شارع اليكريم ، ما هو هذا الشارع اذن ، إنه لا يتذكر ، هل عرف ذلك قط ، النادل الذي جاء ليبدل الطبق يشرح له . هذا شارع نوفا دوكار فالو ، سيدي الدكتور ، ويسأل ، هل كان الحساء جيداً إذن ؟ من طريقته في التلفظ يتبين انه غاليسي . نعم كان جيداً . ومن اللكنة يتبين حالاً ان هذا الزبون عاش في البرازيل ، بيمنتا حصل على اكرامية ممتازة .

فتح الباب من جديد ، يدخل رجل متوسط العمر ، طويل ، وقور ، وجهه طويل ومتغضن ، تصحبه فتاة ما تكاد أن تبلغ حوالي العشرين من عمرها ، نحيلة ، على الرغم انه من الأصح ان يقال هزيلة . يتوجه كلاهما نحوالطاولة التي تواجه طاولة ريكاردو ريس ، وبدا من الواضح ، فجأة ، أن هذه الطاولة كانت تنتظرهما كما ينتظر شيء يداً لا يمكن الا أن تمسك به .

انهما من الرواد المترددين هنا ، مالكا الفندق ، احتمالاً ، من الطريف كيف ينسى ان للفنادق مالكاً ، هذان الاثنان ، مالكين كانا أم غير مالكين ، اجتازا القاعة بخطوة هادئة كما لو كانا في بيتهما ، هذه تفاصيل تقفز الى العيون عندما ينتبه المرء قليلاً . ظهر من الفتاة جانب وجهها ومن الرجل ظهره ، انهما يتحدثان بصوت منخفض ، ولكن صوتها ، هي ، ارتفع ليقول ، كلا يا أبي ، إني على ما يرام . انهما اذن أب وبنت ، التقاء أحرى بأن يكون نادراً في فندق وفي عمريهما . النادل جاء ليخدمهما ، متحفظ ومألوف لديهما في الوقت نفسه ، ثم ابتعد . القاعة صامتة الآن ، لا يسمع حتى الطفلان ، هذا غريب ، ريكاردو ريس لا يتذكر انه سمعهما يتكلمان . اما ان يكونا أبكمين ، واما ان شفاههما ملتصقة ، مربوطة ، بمشابك غير مرئية ، فكرة عابثة ، على اعتبار انهما يأكلان . الفتاة النحيلة وضعت ملعقتها بعد ان انهت حساءها ، أمضت يدها اليمنى تداعب يدها الأخرى ، حيوان صغير أليف يستريح في حجرها . ريكاردو ريس ، المدهوش من اكتشافه ، تبين اذ ذاك ان هذه اليد كانت جامدة منذ البداية ، اليد اليمنى ، وحدها ، هي التي فردت المنشفة ، وهي أيضاً التي تمسك الآن باليد اليسرى ، وتضعها برفق على الطاولة ، بلور هش ، وتدعها الى جانب الصحن لتساعدها في الوجبة ، اصابعها الطويلة ممدودة ، شاحبة ، غائبة . ريكاردو ريس أحس برعشة تجتازه ، هو حقاً الذي يحس بها ، لا أحد مكانه ، يشعر بالقشعريرة خارج جلده وداخله ، وينظر ، مفتوناً ، الى اليد العمياء والمشلولة التي لا تعرف أين يجب أن تمضي اذا لم توجه ، لتتدفأ في الشمس ، لتصغي الى محادثة او من أجل أن يستطيع طبيب جاء من البرازيل ان يتأملها ، يد صغيرة عسراء مرتين ، خرقاء ، غير حاذقة ، جامدة ، يد ميتة ، يد ميتة لن تمضي أبداً لتقرع على هذا الباب هناك ، ريكاردو ريس يلاحظ أن أطباق الفتاة تصل

مهيأة تماماً من قبل ، السمك مسحوب الحسك ، اللحم مقطّع ، الفاكهة مفتوحة ومقشرة ، البنت والأب زبونان معروفان ، هذا واضح ، من المألوفين في المنشأة ، ربما يعيشان هنا . انها وجبته ، ينتظر قليلاً أيضاً ، يأخذ وقته ، ينهض أخيراً ، يدفع كرسيه ، على صوت احتكاك القدمين الفاضح على الأرض ، التفت وجه الفتاة ، انها أكبر بكثير من عشرين سنة الدقائق القليلة الأخيرة ، ولكن وجهها الجانبي يردها الى المراهقة ، العنق الطويل والهش ، الذقن الدقيقة ، كل خط جسمها المتردد ، غير المستقر ، غير المكتمل . خرج ريكاردو ريس من قاعة الطعام ، اقترب من الباب ذي الحرفين ، ينبغي عليه تبادل المجاملة مع الرجل الضخم الذي يخرج في اللحظة نفسها ، أنت أولاً ، أرجوك . كلا ، انه دورك . الرجل الضخم خرج . شكراً جزيلاً يا سيدي ، طريفة هي هذه الطريقة في قول : كلا ، هذا دورك ، لأنه لو كانت الصيغة قد أخذت بحرفيتها لكان ينبغي أن يمر ريكاردو ريس أولاً ، هو الذي يقول عن نفسه انه لا حصر له .

سلفادور ، المدير ، يمد من قبل مفتاح الغرفة مائتين وواحد ويستعد لتسليمه ، ثم يوقف فجأة حركته ، ربما كان الزبون يريد أن يخرج لاكتشاف ليشبونة الليلية ومتعها السرية ، بعد كل هذه السنوات التي قضاها في البرازيل وهذه الرحلة الطويلة ، ولكن الحق هو أن الليل الشتوي يثير بالأحرى الرغبة في الجلوس الى الجانب هنا ، في طمأنينة الصالة ذات المقاعد الجلدية العالية والعميقة ، تحت الثريا الكبيرة ذات النجفات ، أمام المرآة الكبيرة التي تنعكس عليها كل الغرفة التي تزدوج ، بعد إضافي يمتزج فيه الطول والعرض والارتفاع ، وهو ما ليس ، بعد ، مجرد الانعكاس الطبيعي للصالة بل الشبح الذي لا يمكن الامساك به لمستوى قريب وبعيد معاً ، ولكن هذه دون شك محاكمة متناقضة ، نتاج منطق

كسول ، ريكاردو ريس يتأمل في قعر المرآة احدى الكائنات المتعبة التي تسكنها . أنا صاعد ، السفرة أنهكتني ، أسبوعان كاملان من الطقس الرديء . اسأل ما اذا كانت لديك الصحف اليومية من أجل ان اطلع على أحوال البلاد قبل أن أنام . ها هي يا سيدي الدكتور . في هذه اللحظة بالذات ، تظهر الفتاة ذات اليد المشلولة وأبوها فجأة ، يتوجهان إلى الصالة ، هو في المقدمة ، وهي ، على مسافة بضع خطوات وراءه . في يد ريكاردو ريس المفتاح والصحف الكامدة بلون الرماد ، هزت هبة ريح الباب المطل على الطريق ، هناك في آخر السلم ، رن الجرس . لا أحد ، إنها ببساطة العاصفة التي عادت بصورة أقوى ، هذه الليلة مفقودة نهائياً ، المطر ، عاصفة في البر والبحر ، عزلة .

أريكة الغرفة مريحة ، تأنسنت النوابض تحت ثقل كل الأجساد التي جلست عليها ، فحفرت عشاً طرياً ، ضوء المصباح ، فوق المكتب ، ينير الجريدة من زاوية جيدة ، لا يخيل للمرء أنه في فندق ، بل في بيته ، داخل أسرته ، في هذا البيت الذي ليس لدي ، الذي لن يكون لي دون شك أبداً . أخبار من بلدي . تكريماً لموزينو دو البوكرك ، رئيس الدولة يفتتح معرضاً في الوكالة العامة للمستعمرات ، ليست هناك وسيلة للافلات من كل هذه الاحتفالات ولا لنسيان الوجوه الامبراطورية . في منطقة غوليغا ، لم أعد أعرف أين تقع ، آه ، نعم ، في الريباتيجو ، يخشى جداً من أن تدمر الفيضانات سد فنت ، ياله من اسم من أين جاء ، قد تكون كارثة شبيهة بكارثة ألف وثمانمائة وخمسة وتسعين ، عام خمسة وتسعون كنت في الثامنة من عمري ، فلا عجب اذا كنت قد نسيت . أطول امرأة في العالم تدعى ايلسا دورايون ، طولها متران وخمسون سنتمتراً ، هذه ، على الأقل ، واحدة ليس لديها ما تخشاه من الفيضان ، والفتاة كيف تدعى ، هذه اليد

المشلولة ، الرخوة تماماً ، أهو مرض أو حادث . المسابقة الخامسة لجمال الأطفال ، نصف صفحة لصور أطفال صغار عراة تماماً ، مؤخراتهم في الهواء ، مغتذون بالدقيق الملبن ، بعضهم سيصبحون مجرمين ، أوغاداً ، مومسات ، كل ذلك لأنهم منذ أبكر سنوات عمرهم عرضوا على أنظار السوقي الذي ليس لديه أي احترام للبراءة . العمليات مستمرة في اثيوبيا ، وفي البرازيل ، لننظر قليلاً ، ما من جديد ، لم يعد هناك شيء . تقدم عام للجيوش الايطالية ، لا يمكن لأية قوة بشرية ان توقف الجندي الايطالي في تقدمه البطولي والقناص الحبشي برمحه المسكين ، بمديته المضحكة ، لا يستطيع شيئاً ضده . محامي الرياضية الشهيرة صرح بأن موكلته خضعت لعملية جراحية هامة كانت قد أتاحت لها تغيير جنسها ، وسوف تصبح بعد بضعة أيام رجلاً حقيقياً ، كما لو كانت قد ولدت ذكراً ، ويجري التفكير فعلاً في اعطائها اسماً آخر ، أي اسم ، بوكاشيو أمام محكمة التفتيش ، لوحة للرسام فرناندو سانتوس ، يهتمون بالفنون الجميلة هنا . في الكوليزيه ، يمكن رؤية الآية الأخيرة ، فانيزميرليس ، النجمة البرازيلية ، هذا غريب ، في البرازيل لم انتبه إليها قط ، هذا خطئي ، المشهد يقع في قسمين ، ثلاثة ايسكودوسات في الرواق الأعلى وخمسة في الصالة ، حفلة صباحية يوم الأحد . في بوليتياما ، تعرض «الحروب الصليبية» ، فيلم تاريخي رائع . وحدات عسكرية انكليزية عديدة نزلت في بور سعيد ، هذه صليبية اليوم ، لنا الصليبية التي نقدر عليها ، يقال انها بلغت حدود ليبيا الايطالية . قائمة بأسماء البرتغاليين الذين ماتوا في البرازيل خلال النصف الأول من كانون الأول ، هذه الأسماء لا تعني لي شيئاً ، لا حاجة الى الحزن ، لا موجب لحداد ، لا يمنع ذلك ان هناك ، حقاً ، كثيراً من البرتغاليين الموتى . توزع وجبات على الفقراء في كل البلاد ، وجبة محسنة في الملاجيء ، كم تحسن

معاملة المسنين والأطفال المهجورين ، زهور الشارع ، في البرتغال ، وهذا الخبر ، عمدة بورتوأبرق لوزير الداخلية ، المجلس البلدي أخذ علماً ، خلال دورته اليوم ، وبرناستي ، بمرسوم مساعدة الفقراء في الشتاء ويصر على تهنئة سعادتكم على هذه المبادرة الرائعة . أنباء اخرى أيضاً ، الروث الذي يملأ أحواض المياه ينشر الجدري في لوباسابو وفاتيلا ، وافدة في بورتا لاغره وحمى تيفية في فاليوم ، فتاة في السادسة عشرة من عمرها ماتت بالهيضة ، زهرة حقول ، زنبقة فتية ، حصدت بأبكر وأقسى مما ينبغي . لدي كلبة هجينة ولدت مرتين حتى الآن ، وقد فاجأتها ، كل مرة ، وهي تلتهم جراءها ، لم ينج منها ولا واحد منها ، قل لي ماذا يجب أن أفعل يا سيدي المحرر . أيها القارىء والسائل اللذيذ ، أكل الكلبات جراءها يعود ، عامة ، الى تغذية سيئة اثناء الحمل ، عوز في اللحوم خاصة ، يجب اعطاؤها غذاء وفيراً ، لحماً بصورة رئيسية ، انما حليباً أيضاً ، خبزاً ، وخضاراً ، وباختصار غذاء كاملاً ، واذا تحققت هذه الشروط ولم تفقد هذه العادة السيئة ، فلا يوجد سوى حل واحد ، اقتلها أو لا تدعها تضاجع ، فلتتدبر أمر اثارتها ، أو أجر لها عملية جراحية . لنتخيل الآن ان كل النساء السيئات التغذية خلال حملهن ، ولا يحصلن ، وليس هذا ما ينقص ، على لحم ولا على حليب ، بل فقط على خبز وملفوف ، شرعن ، هن أيضاً ، في التهام أطفالهن ، عندما نتخيل المشهد ، عالمين انه لن يحدث ، يصبح فجأة من البسيط جداً ان نميز البشر عن الحيوانات . ليس المحرر هو الذي أضاف هذا التعليق ، بالطبع ، ولا ريكاردو ريس الذي يفكر في شيء آخر ، بالاسم الذي ينبغي اعطاؤه لهذه الكلبة ، لا ديانا ولا ليمبرادا ، لا جدوى من اعطاء اسم لجريمتها ، البهيمة الفظيعة ستموت مسمومة بقطعة حلوى ، مقتولة بالرصاصة التي سيطلقها عليها صاحبها في رأسها ، ريكاردو ريس يصر

ويجد أخيراً الاسم الذي كان يبحث عنه ، اسماً يأتي من أوغولينو ديلا غيرارديسكا ، الكونت الآكل للحوم البشر الذي التهم كل ابنائه وأحفاده ، ولمزيد من الأدلة يكفي الرجوع الى الفصل المكرس له في كتاب «تاريخ الغيلفيين والجيبيلان» أو أيضاً الى النشيد الثالث والثلاثين من «الجحيم» . هذه اذن أوغولينا ، الأم التي تلتهم أبناءها ، المنحرفة الى درجة لا تختلج ، معها ، أحشاؤها عندما يمزق فكّاها اللحم الفاتر والرقيق للكائنات الصغيرة التي لا تملك دفاعاً عن نفسها والتي تقتلها بتحطيم عظامها الطرية ، والجراء الصغيرة التي تئن تموت دون أن ترى من يلتهمها ، الأم التي ولدتها ، أوغولينا ، أنا أبنك ، لا تقتليني .

الجريدة التي تفصل بلطف هذه الفظاعات أتت على السقوط فوق ركبتي ريكاردو ريس النائم . هبة ريح عنيفة هزت الزجاج ، انهمرت مطر طوفانية ، أوغولينا ، الكلبة السكرى بالدم ، تسير في طرقات ليشبونة المقفرة ، تزمجر عند الأبواب ، تنبح على الساحات وفي الحدائق ، تعض بغضب هذا البطن الذي تكبر فيه ، من قبل ، حمولة الأطفال القادمة .

بعد ليلة شتاء قاس وعاصفة عنيفة ، مصطلحان ولدا متزاوجين ، ليسا بالضبط أولى المصطلحات المولودة هكذا ، ولكن المجموع من كمال التكيف مع الظروف بحيث يعفي من اختراع آخر ، كان يمكن أن يأتي النهار مشرقاً بالشمس مع سماء زرقاء تماماً وكشات حمام فرحة ولكن طيور النورس ، لأن الكواكب كانت معاكسة ، تابعت تحويمها فوق المدينة ، النهر ليس آمناً ، الحمام لا يتشجع ، السماء تمطر ، بصورة مقبولة لمن خرج بمعطف واق من المطر وبمظلة ، الريح ، اذا أخذنا في الحسبان ، مبالغاتها في الفجر ، مداعبة على الوجه . غادر ريكاردو ريس الفندق باكراً ليذهب الى المصرف التجاري ليبدل قسماً من نقوده الانكليزية باسكودوسات وطنية .

تلقى مقابل كل ليرة مائة وعشرة آلاف ريس ، من المؤسف ان لا تكون الليرات ذهبية ، فمن شأن ذلك أن يعطي الضعف ، ولكن هذا المسافر العائد الى البلد الذي خرج من المصرف بخمس رزم في جيبه ليس له حقاً داع للشكوى ، انها ثروة في البرتغال . وجد نفسه في شارع كوميرسيو ، التيريرودو باسو على بعد بضعة أمتار ، كنا نريد أن نكتب على بعد خطوتين* لولا ابهام الجناس ، ولكن ريكاردو ريس لن يغامر باجتياز الميدان ، ينظر من بعيد ، محتمياً تحت القناطر ، النهر رمادي وموحل ، انه المد ، وعندما تنتصب الأمواج في عرضه ، يخيل للمرء انها ستغمر الفناء ، تبتلعه ، ليس هذا سوى تأثير ضوئي ، فهي تنحل على الردم ، تتحطم قوتها على درجات الرصيف المائلة . يتذكر أنه جلس هنا في أزمنة أخرى ، من البعد بحيث يشك في أنه عاشها هو نفسه ، أو عاشها أحد آخر مكاني ، ربما بالوجه نفسه ، والاسم نفسه ، ولكنه آخر . قدماه متجمدتان ، رطبتان ، يحس بظل حزن ينزلق على جسده ، ليس على روحه ، فلنكرر ، ذلك ، ليس على روحه ، فهذا الانطباع خارجي ، كان يمكن ان يلمسه بأصابعه لو لم تكن متشبثة بقبضة هذه المظلة المفتوحة دون فائدة . وهكذا عرض نفسه ، معزولاً عن العالم ، لسخرية أحد المارة الذي قال ، آيه ، يا سيد ، انت تعلم ، هنا تحت لا تمطر . ولكن الضحكة صادقة ، دون خبث ، وريكاردو ريس يبتسم من ذهوله ، ودون ان يعلم لماذا ، تمتم ببيتي شعر جواو دودوس ، الشهيرين في المدرسة الابتدائية ، تحت هذه القنطرة كانت تقضى ليلة جيدة .

لقد جاء ، كان قريباً جداً ، ليتأكد وهو يمر أن الذكرى التي كان

---

* لعبة كلمات على الجناس في البرتغالية بين Passo التي تعني « خطوة » و Paço التي تعني « القصر » .

يحتفظ بها عن المكان ، الدقيقة كنقش بالازميل أو أعاد الخيال خلقها لتبدو كذلك اليوم ، تشبه في الواقع مضلعاً محاطاً بأبنية من ثلاث جهات ، مع تمثال فروسي وملكي في الوسط ، وقوس نصر لا يستطيع رؤيته من حيث يوجد ، ولكن كل شيء مبثوث نهائياً ، العمارة ضبابية ، الخطوط ممحوة ، ربما كان ذلك بسبب الوقت الرديء ، الوقت الماضي ، لعينيه المتعبتين فعلاً ، عيون الذكرى وحدها تكون في مثل حدة عيني الصقر . كان الوقت قريباً من الحادية عشرة ، حركة كبيرة تسود تحت القناطر ، ولكن هذه الحركة ليست عجلة ، الوقار ليس مستعجلاً . الرجال ، وكلهم يعتمرون قبعات ، ومظلاتهم تقطر مطراً ، وبعض النساء النادرات يمضون الى مكاتبهم ، انها الساعة التي يبدأ فيها الموظفون العامون يومهم . ريكاردو ريس يبتعد نحو شارع كروسيفكسيو ، متلقياً هجمة بائع يانصيب يود أن يوظف عُشر البطاقة للسحب الاقدم . انها ذات الرقم ألف وثلاثمائة وتسعة وأربعون ، والدولاب يدور غداً ، ليس هذا الرقم والدولاب لن يدور غداً ، ولكن هذا هو النحو الذي يدوي عليه غناء العراف ، النبي المرقم برقم على عمرته . اشتر يا سيدي ، اذا لم تشتر ، سوف تندم ، انه مال كثير ، وهناك تهديد مرهوب في الحاحه . دخل في شارع غاريت وصعد الى شيادو ، أربعة سعاة مستندون بظهورهم الى قاعدة التمثال لا يبدون أي انتباه الى القطرات ، هنا جزيرة رجال المشقة . بعد ذلك بقليل توقفت المطر ، كانت تمطر ، لم تعد تمطر ، هناك صفاء شاحب وراء لويس دو كامويس ، هالة ، وانظروا الى ما هي عليه الكلمات ، هذه تعني مطراً بقدر ما تعني غيماً أو دائرة نور ، وبما أن المطر قد توقفت ، فإن الغيوم تتباعد ببساطة ، ولا جدوى من تخيل معجزات أوريك ، وفاطمة ، ولا حتى هذه المعجزة البسيطة جداً التي هي سماء زرقاء .

ريكاردو ريس يتوجه الى تحرير الصحف ، أمس ، قبل أن ينام ، سجل
ناوينها ، لم نقل بعد أنه نام نوماً سيئاً ، السرير لم يكن سريره ، الشعور
الغربة احتمالاً ، عندما ينتظر النوم في صمت غرفة مازالت غريبة مع
لاصغاء لصوت المطر في الطريق ، فإن الأشياء تتخذ بعدها الحقيقي ، انها
كلها كبيرة ، بليغة ، ثقيلة ، ان ضوء النهار هو الخدّاع ، على اعتبار انه
جعل من الحياة ظلاً ما يكاد ان يبرز ، الليل وحده صافٍ ، ولكن النوم
تغلب عليه ، دون شك من أجل تهدئتنا وراحتنا ، السلام في نفس
لأحياء ، ريكاردو ريس يمضي الى ادارة الصحف ، انه ذاهب إلى حيث
جب ان يذهب دائماً من يهتم بأشياء العالم الماضي ، هنا ، في باريرو
تو ، حيث مضى العالم ، حيث ترى بصمات خطاه ، آثاراً ، أغصاناً
كسورة ، أوراقاً مداسة ، رسائل ، معلومات ، هذا ما بقي من العالم ،
بقية الأخرى ، هي من جانب الاختراع الضروري من أجل ان يستطيع هذا
عالم ان يحتفظ بوجه ، بنظرة ، بابتسامة ، باحتضار . الموت غير المتوقع
فرناندو بيسوا ، شاعر اورفيوس ، سبب انطباعاً مؤلماً في الأوساط
ثقافية . روح حَرِيّة بالاعجاب كانت تهذب الشعر بصورة أصيلة وتمارس
نقد بذكاء ماتت أول أمس في صمت ، كما عاش دائماً ، ولكن ، بما أن
أدب في البرتغال لا يغذي أحداً ، فإن فرناندو بيسوا كان يعمل في مكتب
تجاري ، وبعد بضعة أسطر ، قرب القبر ، ترك أصدقاؤه زهور حنين . هذه
جريدة لا تقول اكثر من ذلك ، قول آخر ، بطريقة أخرى ، الشيء نفسه ،
فرناندو بيسوا ، الشاعر الرائع ، صاحب «منساغيم» ، وهي قصيدة حماسة
قومية ، احدى أجمل ما كتبه ، دفن أمس ، فاجأه الموت في سرير مسيحي
في مستشفى سان لويس ، ليلة السبت ، في الشعر لم يكن فرناندو بيسوا
فقط ، بل أيضاً ألفارو دوكامبوس ، البيرتوكايرو وريكاردو ريس ، ها نحن

هنا ، لم تكن تنقص الا هذه الهفوة ، هذا الزعم ، عندما نعرف جيداً ، نحن ، ان ريكاردو ريس هو هذا الرجل الذي يقرأ الجريدة بعينيه ، هو ، المفتوحتين والحيتين ، هذا الطبيب الذي يبلغ الثامنة والأربعين ، أصغر بسنة من فرناندو بيسوا ، في اللحظة التي اغلقت ، فيها ، عيناه ، الميتتان حقاً من جهتهما ، هذا يكفي للبرهان ، للشهادة على ان الأمر لا يدور حول الشخص نفسه ، واذا كان هناك أيضاً من يشك ، فليذهب الى فندق براغانسا ويتحدث الى السيد سلفادور ، المدير ، فليسأله ما اذا كان شخص يسمى ريكاردو ريس القادم من البرازيل يسكن هنا ، وسوف يجيبه الآخر بنعم ، السيد الدكتور لن يعود للغداء ، ولكنه قال انه سيتعشى هنا ، اذا أردت ترك رسالة له ، فسأتولى شخصياً أمر ايصالها إليه . من سيجرؤ الآن على الشك بكلمة مدير فندق ، خبير فراسة ممتاز ومعرّف هويات . ولكن من أجل أن لا نبقى عند كلام شخص ما لا نكاد ان نعرفه ، هذه جريدة أخرى نشرت الخبر في الصفحة المناسبة ، صفحة الوفيات ، وقدمت المرحوم جيداً ، أمس جرت جنازة السيد الدكتور فرناندو أنطونيو فوغيرا بيسوا ، عازب ، في السابعة والأربعين من عمره ، لاحظوا جيداً ، السابعة والأربعين ، مولود في ليشبونة ، حائز على دبلوم في الآداب من جامعة انكلترا ، كاتب وشاعر شهير جداً في الوسط الأدبي ، وضعت عند تابوته باقات من الزهور الطبيعية . المسكينة ، هي التي لاقت أكثر المصائر حزناً ، ذبلت بهذه السرعة . في حين كان ينتظر الترام الذي يجب أن يقوده الى برازيريس* ، قرأ الدكتور ريكاردو ريس التأبين الذي ألقي أمام القبر ، قرأه قريباً جداً من المكان الذي شنق فيه ، كما هو معروف ، منذ مائة وثلاثة

* احدى مقابر ليشبونة يعني اسمها «المتع» .

وعشرين عاماً ، في عهد دون جاو الخامس ، وهو اسم ورد في قصيدة «منساغيم» ، كنا نقول اذن ، حيث شنق بائع جوال جنوي قتل بطعنة سكين في العنق ، بسبب قطعة قماش ، برتغالياً من بلدنا ، ثم اخضع للمصير نفسه المربية التي ماتت فوراً ، وسدد طعنتي سكين ، غير قاتلتين من جهتهما ، الى خادم ، وفقأ عين آخر كما يفعل بأرنب ، واذا لم يقع هناك مزيد من الموتى ، فذلك لأنهم نجحوا أخيراً في توقيفه ، وقد أُعدم هنا ، قريباً جداً من بيت الضحية ، وكان هناك زحام كبير ، لا توجد أية علاقة مع هذه الصبيحة من عام ألف وتسعمائة وخمسة وثلاثين ، الثلاثين من كانون الأول ، السماء مغطاة ، لا يوجد في الطريق سوى الذين لا يستطيعون خلاف ذلك ، على الرغم من أن السماء لا تمطر في هذه اللحظة الدقيقة التي يقرأ فيها ريكاردو ريس ، مستنداً الى مصباح في أعلى الكالسادادو كومبرو ، التأبين ، ليس تأبين الجنوي الذي لم يحصل الا على واحد ، احتمالاً ، شتائم الغوغاء ، بل تأبين فرناندو بيسوا ، الشاعر ، البريء من كل جريمة دموية ، كلمتان حول موته ، كلمتان تكفيان من أجله ، أو ولا كلمة ، الصمت كان أفضل ، صمت يلفه منذ الآن ، ونحن معه ، صمت جدير بروحه ، اذا كان لا شيء آخر مبرر أمام الله .

لم يكن يجب على رفاقه في تجارة الجمال ، لم يكونوا يستطيعون ان يروه يحمل الى الأرض هكذا ، أو أنهم بالأحرى لم يكونوا يستطيعون رؤيته يجتاز الحدود الأخيرة للأبدية ، دون ان يتلفظوا بالاحتجاج الهادىء ولكنه الاحتجاج الإنساني جداً ، احتجاج الغضب الذي سببه رحيله . لم يكن رفاقه في أورفيوس يستطيعون ، حتى قبل اخوته ، على اعتبار انهم كانوا ينتمون الى دم الجمال المثالي نفسه ، لم يكونوا يستطيعون ، فلنكرر ذلك ، ان يتخلوا عنه هنا ، في مثواه الأخير ، دون ان يكونوا قد نثروا ، على موته

المهيب زنبق صمتهم وألمهم الأبيض ، نحن نأسف على الرجل الذي انتزعه الموت منا ، ونأسف معه لفقدان المعجزة التي كانت معاشرته ولطف حضوره ، نأسف على الرجل فقط ، وهذا القول قاس ، لأن القدر منح ما هو روحه وقدرته الابداعية جمالاً خالداً غريباً ، هذه البقية تنتمي الى عبقرية فرناندو بيسوا . حسناً ، حسناً ، لحسن الحظ أنه ما تزال هناك استثناءات على قاعدة الحياة ، منذ هاملت الذي كان يقول لنا بالضبط ، ان كل الباقي صمت ، لأن العبقرية أخيراً هي التي تتولى الباقي ، واذا كانت هي ، فهي أيضاً أي شيء حقاً .

وصل الترامواي وغادر ثانية ، ريكاردو ريس جلس فيه ، وحيداً على مقعده ، دفع ثمن بطاقته خمسة وسبعين سنتافوس ، سينتهي مع الوقت الى ان يقول سبعة ونصف ، انه يقرأ الوداع الجنائزي . لا يستطيع ان يقنع نفسه بأنه موجه الى فرناندو بيسوا ، الميت ، حقاً ، اذا تأملنا اجماع الأخبار ، هذا الهذر النحوي والمعجمي الذي كان من شأنه ان يكرهه ، كان ينبغي ان يكون معروفاً معرفة سيئة جداً ليجري الحديث عنه على هذا النحو ، لقد أفادوا من موته ، من كونه مغلول القدمين والمعصمين .

لقد أسأنا الى هذه الزنبقة البيضاء والذابلة ، كفتاة ماتت بالحمى التيفية ، وهذا النعت ، المهيب ، يا الهي ، يا لها من تتمة غبية ، احذروا هذه الكلمة السوقية ، عندما كان تحت عيني الخطيب الموت الجوهري الذي كان من شأنه ان يعفيه من كل الباقي ، خاصة من الباقي ، كله ، وهذا قليل جداً . وبما أن كلمة «مهيب» تعني النبيل ، الفروسية ، الفخور ، الأنيق ، اللطيف ، اللبق ، وهذا ما يرى عليه المعجم ، فهناك موجب لأن يقال ، اذن ، ان الموت سيسمى نبياً أو فروسياً ، فخوراً أو أنيقاً ، لطيفاً أو لبقاً... ما الذي كان سيكون عليه موته لو كان قد أعطي الاختيار على سريره المسيحي في

مستشفى سان لويس ، نرجو الآلهة أن يكون لطيفاً ، لأن مثل هذا الموت لا ينتزع الحياة .

عندما وصل ريكاردو ريس الى المقبرة ، رن جرس البوابة ، مدوياً في الهواء بصوت البرونز المتصدع ، كما في مزرعة ريفية في ساعة القيلولة . كانت عربة صغيرة بذراع تتوارى من قبل بشرائطها الجنائزية المتماوجة في الريح ، مجموعة قاتمة كانت تتبع عربة الموتى ، ظلال مغطاة بوشاحات سوداء وبذلات زواج وأقحوانات داكنة في الأذرعة ، كانت باقات أخرى من هذه الزهور تزين غطاء النعش ، ليست للزهور ، هي الأخرى ، المصير نفسه . العربة الصغيرة اختفت بعيداً ، توجه ريكاردو ريس الى مكتب تسجيل المتوفين ليسأل عن المكان الذي دفن فيه فرناندو انطونيو نوغيرا بيسوا المتوفى في الثلاثين من الشهر الماضي ، الراقد في هذه المقبرة حتى نهاية الأزمنة ، حين سيبعث الله لإيقاظ الشعراء من موتهم المؤقت . الموظف فهم أنه أمام شخص مثقف ومتميز ، فقدم ، متعجلاً ، شروحاً ، دل على الممشى والرقم . هنا كما في المدينة يا سيدي العزيز ، ولأنه ارتبك في ارشاداته ، غادر مكتبه ، خرج ودل بصورة قاطعة ، تابع السير في هذا الممشى ، تحول عند الزاوية الى اليمين ، بعد ذلك الى اليمين دائماً ، ولكن انتبه الى ان تكون الى اليمين دائماً حقاً ، هناك ، عند ثلثي الممشى ، المغارة صغيرة ، من السهل ان لا تنتبه إليها . شكره ريكاردو ريس ، تشمم الرياح التي كانت تهب من العرض ، في البحر والنهر ، لم يسمعها تئن كما كان يجب أن تفعل في مقبرة ، الهواء رمادي ، الرخام والحجارة رطبة من المطر الأخيرة ، ربما كانت اشجار السرو ذات خضرة اكثر قتامة ، هبط في الممشى كما قيل له ، بحثاً عن الرقم أربعة آلاف وثلاثمائة واحد عشر ، الدولاب لن يدور غداً ، لقد دار من قبل ولن يعود

الى الدوران ، الذي خرج هو القدر وليس الحظ ، الممشى ذو انحدار خفيف ، يخيل للمرء انه متنزه ، لم تكن الخطوات الأخيرة أصعب مما ينبغي ، النزهة الأخيرة ، آخر مواكبة ، لأن أحداً لن يعود يصحب فرناندو بيسوا اذا كان الذين تبعوه ميتاً قد صحبوه قط في حياته . هذه هي الزاوية التي يجب الانعطاف عندها . يتساءل المرء عما جاء يفعله في هذا المكان ، ما هي هذه الدمعة التي احتفظ بها من أجل ان يسكبها هنا ، ولماذا لم يبك عندما كان وقت ذلك ، الألم كان اذ ذاك أقل من الدهشة ، لم يأت الا فيما بعد ، أصم ، الجسم بكامله مثل عضلة ممزقة من الداخل ، دون علامة سوداء لتدلنا ، علينا ، على مكان الحداد . أبواب المغارات ، من الجانبين ، موصدة ، زجاجها مغطى بستائر صغيرة من الدانتيل بحبات بريتانيا ، كما في المناديل ، زهور صغيرة مطرزة بين نوبتي بكاء ، مشغولة بالصنارة ، بإبر شبيهة بسيوف عارية ، بحبات ريشيليا أو آجور ، تعابير مفرنسة ، يعلم الله كيف يجري التلفظ بها ، كما كان يفعل أطفال الهايلاند بريغاد التي هي بعيدة جداً ، في هذه الساعة ، في طريقها نحو الشمال ، على بحار ملح ، الدموع البرتغالية الوحيد فيها هو ملح دموع الصيادين الضائعين وسط الأمواج التي تقتلهم ، أو ملح دموع أقاربهم الذين يصرخون على الشاطىء ، ان شركة كوتس وكلارك ذات شعار المرساة هي التي تخدم هذا الخط ، كي لا نخرج من التاريخ المأساوي ـ البحري . كان ريكاردو ريس قد اجتاز فعلاً نصف الطريق ، نظر الى اليمين ، حسرات أبدية ، ذكرى ورعة ، هنا يرقد... ، لذكرى... ، لو نظرنا الى اليسار لرأينا الشيء نفسه ، ملائكة بأجنحة مكسرة ، وجوه باكية ، أصابع متشابكة ، أقمشة متغضنة دقيقة ، أغطية مرفوعة ، أعمدة مبتورة ربما تصورها نحاتو الحجارة هكذا ما لم تكن قد سلمت كاملة ، من أجل ان يستطيع اهل

المرحوم ، كعلامة حزن ، ان يحطموها كما يكسر المرء درعه بصورة رسمية لدى موت القائد ، ورؤوس الموتى هذه في أسفل الصلبان ، بداهة الموت هي الستارة التي يختفي المرء تحتها . تجاوز ريكاردو ريس القبر الذي كان يبحث عنه ، ما من صوت ناداه ، بست... ، هنا ، وهناك من مازالوا مستمرين في تأكيد كون الموتى يتكلمون ، آه ، التعساء ، لو لم تكن هناك الكتابات ، لو لم يكن يظهر على الحجر اسم أو رقم كما على أبواب الأحياء ، الأمر كان يستحق عناء تعلم القراءة لا لشيء سوى القدرة على ايجادهم ، تصوروا قليلاً ماذا كان سيحدث مع واحد من أميينا العديدين ، كان سينبغي ان يقاد حتى القبر ، ان يقال له هنا ، وكان سينظر بريبة ، خائفاً من ان يكون قد خدع وان يرغم ، بخطأ من جانبنا أو خبث ، على الصلاة من أجل مونتيغو ، وهو من أسرة كابوليه ، أو من أجل منديس ، وهو من أسرة كونسالفيز .

عناوين الامتياز ، مغارة د . ديونيزيادو سيابرا بيسوا ، مسجلة في الواجهة ، تحت الحواف البارزة للمحرس الذي ينام فيه ، بإلهام رومنطيقي ، حارس . في الأسفل ، على مستوى مفصلة الباب الأخيرة ، اسم ، لا أكثر ، فرناندو بيسوا ، مع تاريخي الولادة والوفاة ، والحدبة المذهبة لمرمرة تقول ، أنا هنا ، وبصوت مرتفع ، كرر ريكاردو ريس ، جاهلاً أنهم سمعوه ، أنه هنا . في هذه اللحظة عادت المطر الى الهطول . لقد جاء من بعيد جداً ، من ريودو جانيرو ، سافر في البحر ليالٍ وأياماً على أمواج المحيط ، رحلة تبدو له اليوم بعيدة جداً وقريبة جداً معاً ، ما الذي يجب عليه ، ان يفعله الآن ، وحيداً في هذا الممشى ، بين هذه المساكن الجنائزية ، المظلة مفتوحة ، في وقت الغداء ، من بعيد ، صدى الجرس ، كان يأمل ، لدى وصوله الى هنا ، عندما لمس هذه الزخارف الحديدية ، ان يشعر في قرارة نفسه باضطراب ،

بتمزق ، بهزة داخلية ، كما في هذه المدن الكبيرة التي تنهار في صمت لأننا لسنا فيها ، حيث تسقط البوابات والأبراج البيضاء ، عند ذلك فقط اختفت حرقة خفيفة ما كادت ان تصل الى عينيه ، لم يتيسر له الوقت حتى ليفكر في ذلك ولينفعل لدى هذه الفكرة . لم يعد لديه ما يفعله هنا ، ما فعله ليس شيئاً ، في المغارة ترقد مجنونة مسنة لا يمكن تركها وحدها ، وتسهر على الجسد المتفسخ لصانع أشعار ترك للعالم نصيبه من الجنون ، الفرق الكبير بين الشعراء والمجانين هو في مصير جنونهم . أخاف نفسه من التفكير بالجدة ديونيزيا ، التي هي هنا ، بحفيدها المسكين فرناندو ، عيناها ، هي ، جاحظتان ، ساهرتان ، وهو يشيح بنظره بحثاً عن شق ، عن نفحة ريح ، عن ضوء صغير ، توعكه تحول الى غثيان كما لو أن موجة بحرية كبيرة كانت تحمله ، مختنقاً هو الذي لم يمرض خلال أربعة عشر يوماً من الرحلة في البحر . فكّر اذ ذاك ، هذا لأن معدتي فارغة ، كان هذا هو التفسير ، لم يكن قد أكل شيئاً منذ الصباح . بدأت زخة مطر ضخمة في الهطول ، جاءت في الوقت المناسب . لو سئل ريكاردو ريس الآن ، لكان لديه عذر جيد . كلا ، كلا ، لم أتأخر ، كانت المطر تهطل بشدة . عاد ببطء عبر الممشى ، شعر بالغثيان يتبدد ، بقي فقط صداع مبهم ، فراغ في الرأس ، مثل نقص ، قطعة من الدماغ ناقصة ، النصيب الذي يعود اليّ . عند باب مكتب التسجيل ، كان يقف الذي كان قد أرشده ، لامع الشفتين ، أتى على الانتهاء من تناول الغداء ، كان ذلك واضحاً ، أين ، هنا بالذات . كانت هناك منشفة ممددة على مكتبه ، وطبق محمول من بيته مازال فاتراً لكونه قد غُلف بجرائد ، وربما يكون قد سخن على موقد غاز ، هناك في آخر غرفة الأرشيف ، والمضغ قد قوطع ثلاث مرات من أجل تسجيل الدخول . اخيراً ، يجب ان أكون قضيت من الوقت أكثر مما كنت أظن . هل وجدت ، أذن ، المغارة

التي كنت تبحث عنها . أجاب ريكاردو ريس ، وجدتها ، وكرر ، وهو يجتاز البوابة ، وجدتها ، كانت هناك .

رفع يده ليناردي سيارة تاكسي ، كان جائعاً ، مستعجلاً ، هل هناك مطعم ، حانة مازالا يقبلان ان يخدماه في هذه الساعة ، خذني الى روسيو من فضلك . كان سائق التاكسي يمضغ ، بمنهجية ، مسواكاً ، ينقله من زاوية الى اخرى في فمه بلسانه ، لم يكن يمكن ان يجري ذلك الا بلسانه ، على اعتبار ان يديه الاثنتين كانتا مشغولتين بالقيادة ومن وقت الى آخر ، كان يمتص بضجة اللعاب بين أسنانه ، محدثاً صوتاً متناوباً ، شبيهاً بزقزقة عصفور ، انها زغردات الهضم ، هذا ما فكر به ريكاردو ريس ، وابتسم . في اللحظة نفسها امتلأت عيناه بالدموع ، غريب أن ينتج مثل هذا السبب هذه النتيجة ، ولكن ربما ينجم ذلك عن دفن الملاك الصغير الذي اتى على المرور في عربة بيضاء ، انه فرناندو ولم يعش ما يكفي من أجل ان يكون شاعراً ، ريكاردو لن يكون شاعراً ولا طبيباً ، ثم كلا ، منشأ هذه الدموع مختلف جداً دون شك ، حان الوقت ، بكل بساطة . الظواهر الفيزيولوجية معقدة ، فلندعها لمن يفهمها ، خاصة اذا كان من الضروري الطواف بكل خفايا الشعور داخل الغدد الدمعية ، التحقيق ، مثلاً ، في الفروق الكيميائية بين دمعة حزن ودمعة فرح ، هذه الأخيرة أشد ملوحة دون أي شك ، من أجل ذلك تحرقنا عيوننا الى هذا الحد . في المقدمة ، ضغط السائق المسواك بين أنيابه اليمنى ، كان يصعد بها ويهبط بصمت ، محترماً على هذا النحو حزن الراكب ، هذا شيء يتفق ان يحدث لهم عندما يعودون من المقبرة . نزل التاكسي الكالسادادا ايستريلا ، انعطف الى الكورتز ، في اتجاه النهر ، ثم وصل ، عبر الطريق التي نعرفها من قبل ، الى البيكسا ، وصعد من جديد في شارع اوغوستا ، ودخل في الروسيو في اللحظة التي قال ، فيها ، ريكاردو ريس ، مدفوعاً

يتذكر مبهم مفاجيء ، توقف امام الايرماوس يونيدوس . انه اسم المطعم ، مباشرة الى اليمين هناك مدخل ، الآخر في الخلف ، في شارع دوس كوريبروس ، هنا يعاد ملء المعدات ، انه مكان لطيف ، تقليدي ، واقع في الأمكنة نفسها التي كان يرتفع فيها ، ولدينا منذ وقت طويل الانطباع بأننا نروي تاريخ بلد آخر ، مستشفى تودوس ، اوسانتوس كانت هزة أرضية في الوسط تماماً كافية ، وهذه هي النتيجة ، التي رأتنا ونراها ، أهذا أفضل أم أسوأ ، المهم هو أن يكون المرء حياً وان يحتفظ بالأكل .

ريكاردو ريس تناول الغداء دون ان يبالي بالحمية ، في الأمس ، بدا أضعف ممايبنغي ، الرجل الذي اجتاز الامتداد المحيطي مثل طفل ، انه يسعى ، احياناً ، الى كتف امرأة ليضع عليه رأسه ، يطلب ، أحياناً ، في الحانة ، كؤوس خمر ستحمل إليه السعادة ، والسعادة هي التي صبت فيها حقاً ، وأحياناً اخرى ، كما لو لم تكن لديه رسالة خاصة ، يستطيع أي خادم غاليسي أن يدله على ما يجب ان يأكله ، حساء دجاج ، هذا أفضل ما يناسب معدتك الخربة يا صاحب السعادة ، أما هنا ، فلا أحد سأله اذا كان قد غادر السفينة البارحة ، ما اذا كانت الأغذية المدارية قد خربت معدته أم لا ، ولا أي طبق خاص يمكن أن يشفي حنينه الى الوطن ، اذا كان هذا ما يجعله يتألم ، اذا ما كان يتألم ، لماذا ، بحق الشيطان ، قد عاد . من الطاولة التي كان جالساً إليها ، كان يرى ، في الخارج ، الترامواياتِ ، بين فجوات الستائر ، يسمعها تصر عند المنعطفات ، طنين أجراسها التي لها دوي سائل في الجو الغارق في المطر ، كأجراس كاتدرائية غارقة ، أو أوتار بيانو قيثاري ينتشر الى ما لا نهاية بين جدران بئر . الخدم ينتظرون بصبر أن ينهي هذا الزبون الأخير غداءه ، لقد وصل متأخراً ، سأل ، من فضلكم ، أما زلتم تستطيعون تقديم الطعام لي ، ولبي طلبه تأثراً بعلامة الاحترام هذه

للذين يعملون ، في حين كانوا يرتبون ، من قبل ، القدور في المطبخ . انه يمضي الآن ، يقول وداعاً بأدب ويخرج ، وهو مازال يشكر ، من باب شارع دوس كوريبيروس ، الباب الذي يطل على بابل الحديد والزجاج هذه التي هي ميدان فيغيرا الذي مازال نشيطاً ، ولكنه نشاط ضئيل جداً اذا قورن بالساعات الصباحية المدوية بالصرخات والنداءات النوبية . يتنفس المرء جواً مصنوعاً من ألف رائحة حادة ، تفوح رائحة الملفوف المسحوق والفاسد ، روث الأرانب ، ريش الدجاجات المغطسة في الماء الحار ، الدم ، الجلد المسلوخ . تغسل الأوضام ، الأزقة الداخلية ، بالسطول ، بأنابيب الري ، وبمكانس خشنة من البياسافا ، ومن وقت الى آخر ، يسمع انزلاق معدني ، ثم قرقعة ستارة حديدية تسدل .

ريكاردو ريس التفت على الميدان من الجهة الجنوبية ، ودخل شارع دوس دورادوريس ، لم تعد السماء تمطر تقريباً ، استطاع اغلاق مظلته ، ورفع عينيه ورأى الواجهات العالية ، ذات لون الرماد ، وصفوف النوافذ المتراصفة ، ذات القضبان ، وذات الشرفات ، والحياة الرتيبة الكبيرة المتعاقبة في تتابع الطريق الى درجة الامتزاج في شرائط عمودية ضيقة ، تزداد رقة دائماً ، ولكن ذلك ليس كافياً لتشكل نقطة هرب ، ذلك أنه تقع هناك ، سادة الطريق ظاهراً ، بناية شاع كونسيكاو ، نوافذ وشباك كلها من لون واحد ورسم واحد ، مع فرق ضئيل ما احتمالاً ، وكلها تقطر الظلمة نفسها والرطوبة نفسها ، وتطلق باحاتها الخلفية رائحة مجار مفزورة ، متراكبة مع نفحات غاز مبعثرة ، كيف العجب للوجوه الشاحبة للمستخدمين الذين يأتون الى عتبات الدكاكين بقمصانهم أو بثياب العمل المصنوعة من قماش رمادي خشن ، الأقلام وراء آذانهم ، مستائين لأن هذا اليوم هو الإثنين ، ولأنهم قضوا يوم أحد سيئاً . رصف الطريق فظ ، غير منتظم ،

بازلت أسود تقريباً ترتد عليه عجلات العربات المعدنية ، وحيث تقدح حدوات البغال شرراً ، في أوقات الجفاف ، لا مثل اليوم ، حين تتجاوز الحمولة المعايير والقوس .

لا شيء من هذا اليوم ، ليس للأشياء هذا المدى ، رجلان هنا يفرغان أكياساً من الفاصولياء ، يجب ، من حجمها ، أن لا يقل وزن الواحد منها عن ستين كيلو غراماً ، وربما كان من الأفضل ان نقول سبعين ليتراً ، وهكذا يبدو الوزن أقل . فبما أن الفاصولياء خفيفة بطبيعتها ، فكل ليتر قد يعادل ، اذن ، ستمائة وخمسين غراماً تقريباً ، اذا كان المراقبون قد أخذوا في حسبانهم كل اعتبارات الوزن والكتلة هذه عندما ملؤوا الأكياس .

نحو الفندق وجه ريكاردو ريس خطاه . تذكر في هذه اللحظة الغرفة التي قضى فيها ليلته الأولى كابن ضال ، يفكر فيها كما لو كان الأمر يدور حول منزله الخاص ، ليس منزل ريو دو جانيرو ولا أيا من المنازل التي عاش فيا ، سواء كان ذلك في بورتو التي نعرف انه ولد فيها أم هنا ، في مدينة ليشبونة هذه حيث سكن قبل أن يركب البحر الى منفاه البرازيلي ، ليس أياً منها ، وهي التي كانت مع ذلك بيوتاً حقيقية ، شيء غريب وماذا يعني ، أن رجلاً يتذكر غرفته في فندق كمنزل كان يمكن أن يكون منزله ، وان يشعر ، وهو في الخارج كل هذا الوقت ، منذ الفجر ، هذا القلق ، هذه البلبلة ، أنا قادم ، أنا قادم . سيطر على الاغراء بأن ينادي سيارة تاكسي ، ترك الترام الذي كان يمكن ان ينزله عند بابه يمر ، ونجح أخيراً في كبت القلق العابث باذلاً جهده في أن يكون الفرد الغفل الذي يعود الى بيته ، حتى ولو كان في الفندق ، دون عجلة ولا تأخير لا لزوم له ، على الرغم من أن ما من أحد ينتظره .

فيما بعد في السهرة ، يحتمل كونه سوف يرى في قاعة الطعام ، الفتاة

ذات اليد المشلولة ، الرجل الضخم ، النحيل الذي هو في حالة حداد ، الطفلين الشاحبين ووالديهما الموفورين ، وما يعلم الله من زبائن آخرين ، أناساً غامضين ينبعون من المجهول والضباب ، يشعر ، وهو يفكر فيهم ، بحرارة كبيرة في القلب ، رخاء ، أحبوا بعضكم بعضاً ، هذا ما قيل يوماً ، وحان الوقت للبدء في ذلك . الريح التي تنفذ الى الشقوق كانت تهب بقوة في شارع دوار سنال ، ولكن السماء لم تكن تمطر ، فقط بضع قطرات مطرودة من حواف السقوف كانت تسقط على الرصيف . ربما كان الطقس سيتحسن اعتباراً من اليوم ، هذا الشتاء لا يمكن ان يدوم الى الأبد . هذا الطوفان مستمر منذ شهرين ، كما قال له السائق أمس ، وكان يتحدث كواحد لم يعد يؤمن بأيام أفضل .

رن جرس المدخل رنة قصيرة ، وكان الأمر كما لو ان الوصيف الايطالي والسلم القاسي يرحبان به ، حتى بيمنتا الذي كان ينتظره في الأعلى ، باحترام وتلطف ، منحنياً انحناءة خفيفة ، من اعتياد الحمولات دون شك ، مساء الخير يا سيدي الدكتور ، سلفادور ، المدير ، ظهر هو على المنبسط ، قال الشيء نفسه بإلقاء أشد تهذيباً ، أجاب ريكاردو ريس الاثنين ، لم يكن هناك مدير ولا خادم ولا دكتور ، بل ثلاثة أشخاص يتبادلون الابتسام ، سعداء بلقائهم بعد غياب طويل ، منفصلون منذ هذا الصباح ، هل تتبينون ذلك ، أي حنين يا إلهي . عندما دخل ريكاردو ريس الى غرفته وتبين أن كل شيء كان مرتباً ، غطاء السرير مسحوب ، المغسلة متلألئة ، المرآة دون ظل ، اذا تركنا أثر الوقت جانباً ، تنهد بارتياح . خلع حذائيه ، وانتعل خفين خفيفين ، وفتح احدى النافذتين ، مبادرة من يعود الى بيته ويسر لوجوده فيه ، ثم جلس في مقعده ليستريح . كان يبدو له اذ ذاك أنه يقع في نفسه ، سقطة سريعة ، فجائية . والآن ، تساءل ، والآن يا

ريكاردو ، أو كائناً من تكون ، كما قد يقول الآخرون . كانت قد كفته لحظة ليفهم ان النهاية الحقيقية لسفرته كانت ، على وجه الدقة ، في هذه البرهة التي هو آخذ في عيشها ، ان الزمن الذي انقضى منذ وضع قدميه على رصيف الكانترا كان قد هدر ، بعض الشيء ، في مناورات تقرب ورسو ، في حساب المد ، واطلاق حبال ، كالبحث عن فندق ، وقراءة أولى الصحف ، وما يليها ، والنزهة في المقبرة ، والغداء في البيكسا* ، والنزول في شارع دورا دوريس ، وهذا الحنين المفاجيء الى غرفته ، وهذه الاندفاعة من المحبة التلقائية ، وتحيات سلفادور وبيمنتا ، وغطاء السرير الذي لا شائبة فيه ، والنافذة المفتوحة التي اعادت الريح أغلاقها ، التي تتماوج أمامها الستائر الخفيفة كأجنحة . والآن المطر تهطل من جديد ، وقعها على السقوف ، المخدر ، المغناطيسي ، يشبه الرمل الذي ينخل ، ربما أنام الله الرحيم هكذا كل البشر يوم الطوفان الكبير ، من أجل أن يكون موتهم عذباً ، فيدخل الماء برقة من المنخرين والفم ، يُغرق الرئتين دون ان يخنقهما ، سواق صغيرة تملأ النخاريب واحداً بعد الآخر ثم بقية الجسم ، أربعون نهاراً وأربعون ليلة من النوم والمطر ، والأجساد مليئة بالماء واثقل ، في نهاية المطاف ، بحيث تنزل ببطء نحوالقاع ، هكذا جرت الأمور ، أوفيليا تركت نفسها تمضي وهي تغني في التيار ، ولكنه سوف ينبغي عليها ان تموت قبل نهاية الفصل الرابع ، لكل ، كما نعتقد ، طريقته الخاصة في النوم والموت ، في حين ان الطوفان هو الذي يستمر ، الزمن يمطر علينا ، الزمن يغرقنا . القطرات التي كانت تدخل من النافذة ، وهي ترش طرفها ، تلاقت وكبرت على الأرضية المشمعة ، هناك زبائن مهملون يزدرون عمل البسطاء ،

---

* اسم يطلق على الأحياء القديمة في ليشبونة ، في المدينة السفلى .

يعتقدون دون شك ان على النحل أيضاً ، فوق صنع الشمع ، ان يلمع الأرضيات ، ولكن هذا ليس عمل حشرات ، هذه الأرضيات ستكون كامدة ، لو لم يوجد الخدم ، وهم ، أيضاً ، عمال ، ولم يكن المدير ليتأخر عن الظهور للوم والمعاقبة ، هذا هو دوره . وضعنا في هذا الفندق كي نشرف ونمجد مالكه ، أو مندوبه ، سلفادور ، كما نعلم من قبل ، كما بينا من قبل . ركض ريكاردو ريس لاغلاق النافذة ، نشف كل الماء تقريباً وجففه ، ولكنه لما كان ينقصه اللازم لانهاء اصلاح الأضرار ، ضغط على الجرس . هذه هي المرة الأولى ، فكر كما لو كان يسعى الى تبرئة نفسه .

سمع خطى في الممشى ، قرع الباب بتحفظ ، ادخل ، كان ذلك رجاء اكثر منه أمراً ، وعندما فتحت الخادمة الباب ، قال ، وهو لا يكاد ينظر إليها ، كانت النافذة مفتوحة ، لم أكن قد لاحظت ان المطر يمكن ان يدخل ، الأرضية كلها مبللة ، وسكت فجأة ، متبيناً انه قد أتى على تشكيل ثلاثة أبيات بسبعة مقاطع ، هو ريكاردو ريس ، مؤلف أعشار غنائية تسمى ساقية أو الكائنة ، أصبح شاعراً شعبياً ، لولا قليل لما انهى جملته حاذفاً منها مقطع كلمة بسبب العروض والقواعد ، أضاف قائلاً ، شكراً على التنظيف ، كانت الخادمة قد فهمت تماماً ، دون مزيد من الشعر ، خرجت ثم عادت مع السطل والممسحة ، وركعت ، وحركة جسمها قد توافقت مع حركة ذراعيها ، وجففت الأرضية المشمعة بقدر ما استطاعت ، غداً ستمر مع الطلاء . هل تحتاج الى شيء آخر يا سيدي الدكتور . كلا ، شكراً جزيلاً ، وتبادلا النظر مباشرة في عيونهما . كانت المطر تضرب على الزجاج بعنف ، تسارع ايقاعها ، كانت تقرع الآن كطبل ، الذين ناموا كانوا يستيقظون مذعورين . ما اسمك ، ليديا يا سيدي الدكتور ، كان يمكن ان تتكلم بصوت أقوى وأن تقول شيئاً آخر ، أنا في خدمتك مثلاً ، وهي صيغة

يقبلها المدير بل ويوصي بها ، استمعي يا ليديا ، اعتني جيداً بزبون المائتين والواحد ، الدكتور ريس . وهذا ما كانت تفعله ، ولكنه لم يرد عليها ، كان يبدو أنه يكرر اسمها ، ليديا ، يتمتم به ، من أجل ان لا ينساه في حال حاجته إليها من جديد ، دون شك ، هناك أناس يكررون دائماً الكلمات التي يسمعونها ، الحقيقة هي أننا جميعاً ببغاوات ، أليست هذه فضلاً عن ذلك طريقتنا الوحيدة للتعلم . ربما انبثق هذا التفكير دون مناسبة ، انه لم يأت من ليديا ، فلندعها اذن تخرج ، الآن وقد صار لها اسم ، حاملة سطلها وممسحتها ، ولنلاحظ ريكاردو ريس الذي يبتسم بسخرية ، حركة الشفتين هذه لا تخدع ، لقد لزم حقاً ، بعد صنع السخرية ، اختراع ابتسامة للتعبير عنها وكان ذلك أصعب بكثير . قال ليديا وابتسم . اخذ من درجه ، وهو ما يزال يبتسم ، قصائده ، غنائياته ، قرأ بعض الأبيات عشوائياً وهكذا ليديا ، قرب النار ، كما نحن . في هذا الإطار ، ليديا ، دون رغبة ، ليديا ، في هذه الساعة ، عندما سيأتي ، ياليديا ، خريفنا ، تعالي واجلسي معي ، يا ليديا ، على ضفاف النهر ، الحياة ، يا ليديا ، ابشع من الموت . لم يعد هناك أثر من سخرية في الابتسامة ، اذا كان مايزال يمكن ان تسمى الشفتان المفتوحتان على الأسنان كذلك ، في حين انحلت ، تحت الجلد ، لعبة العضلات ، انها الآن تكشيرة ، تقطيبة مؤلمة ، اذا استعملنا لغة المتحذلق ولكن ذلك لا يدوم سوى لحظة . وكالصورة المنعكسة في مرآة الماء المرتعشة ، استعاد وجه ريكاردو ريس المنحني فوق الصفحة سماته الاعتيادية ، عما قريب سوف يتعرف على نفسه . إنه أنا ، دون اية سخرية ، دون أي قرف ، السرور لكونه لا يستمتع بكونه من هو بل بكونه موجوداً حيث هو ، كما يفعل من لم يعد يرغب في شيء أو لا يتمنى ، عارفاً أنه لا يستطيع الحصول على شيء ، الا ما يخصه من قبل ، أي كل شيء .

تكاثف ظل الغرفة ، اجتازت غيمة سوداء السماء ، مزنة أشد حلكة من مزن الطوفان ، وقع الأثاث في نوم مفاجئ . بدأ ريكاردو ريس حركة ، جس الهواء الرمادي بيديه ، ثم كتب ، وهو يكاد لا يميز الكلمات التي يرسمها على الورق ، اطلب الى الآلهة فقط ان تمنحني عدم طلبي منها شيئاً ، وبعد ان كتب هذا لم يعرف ماذا يضيف ، هناك حالات يؤمن فيها المرء ، الى نقطة معينة ، بأهمية ما يقال أو يكتب ، فقط لأن من المستحيل خنق الأصوات ، محو الأسطر ، ولكن اغراء الصمت ، فتنة الجمود تكتسحاننا ، اغراء ان نكون ، كالآلهة ، صامتين وهادئين ، مجرد متفرجين ، مضى ليجلس على الأريكة ، تمدد عليها ، أغلق عينيه ، شعر أنه يستطيع ان ينام ، لا يرغب في أي شيء آخر . نهض ، وهو ناعس فعلاً ، وفتح الخزانة ، وسحب منها غطاء تلفع به ، الأمور تسير على ما يرام ، ينام ، يحلم بصبيحة مشمسة ، يتنزه خلالها ، وهو في ملابس خفيفة ، بسبب الحرارة ، في شارع دو أو فيدور في ريودوجانيرو ، ويسمع من بعيد طلقات نارية وانفجارات وقنابل تتفجر ، ولكنه لا يستيقظ ، ليست هذه المرة الأولى التي يرى فيها هذا الحلم ، لم يسمع النقرات المضروبة على الباب ولا صوت المرأة الذي يسأل ، ملحاً ، ما اذا كان السيد الدكتور قد نادى .

فلنسلم بأن ريكاردو ريس قد أغفى بهذا العمق لأنه نام قليلاً خلال الليل ، وان هذا الافتتان ، هذا الاغراء بالجمود والصمت المتزامنين ، القابلين للتبادل فيما بينهما ، ليسا سوى وهم عمق روحي زائف ، ان الأمر لا يدور هنا حول آلهة ، وأنه كان يمكن ، عادة ، ان يقال لريكاردو ريس ، كما لأي شخص آخر على أهبة النوم ، داؤك هو النوم . ومع ذلك ، فهناك على الطاولة ورقة يمكن ان يقرأ عليها ، اطلب الى الآلهة فقط أن تمنحني عدم طلبي منا شيئاً ، هذه الورقة موجودة فعلاً ، للكلمات فضلاً عن ذلك

وجود مزدوج ، الأول ذاتي ، والثاني يأتي من ترتيبها في نظام معين ، عندما تقرأ ، تعني شيئاً ، أي شيء وسواءً كان هناك آلهة أم لم يكن ، سواء أكان من كتب هذه الأبيات نائماً أم غير نائم ، فالأمور ليست في هذه البساطة التي تبدو عليها . كانت الغرفة مظلمة عندما استيقظ ريكاردو ريس . آخر شعاع قادم من الخارج أضعفه الزجاج الكامد ، قماش الستائر الرقيق ، احدى الستائر المزدوجة مسحوبة ، الظلمة كلية . صمت كبير يخيم على الفندق ، انه قصر حسناء الغابة النائمة الذي هربت الحسناء منه ، الذي لم تعش فيه قط . الجميع نائمون ، سلفادور ، بيمنتا ، الخدم الغاليسيون ، المعلم ، الزبائن ، وصيف عصر النهضة ، ساعة المنبسط توقفت ، رن جرس المدخل البعيد فجأة ، إنه الأمير الذي جاء يقبّل الحسناء ، وصل متأخراً جداً ، المسكين ، كنت أهرع فرحاً تماماً وأعود حزيناً تماماً ، كانت السيدة الفيكونتيس قد وعدتني ، ولكنها لم تف بوعدها . انها أغنية شعبية طفلية انبثقت من أعماق الذاكرة ، يغنيها أطفال ضباب بأصواتهم الحادة والحزينة مع ذلك في قعر حديقة شتوية ، يتقدمون ويتراجعون بخطوات رسمية ، مكررين هذه الرقصة للأطفال المتوفين الذين لن يلبثوا ان يكونوهم . ريكاردو ريس يدفع عنه الغطاء ، يلوم نفسه لأنه نام بثيابه ، ليس من عادته ان يدع نفسه هكذا ، راعى دائماً قواعد سلوكه ، انضباطه ، مدار الجدي لم ينجح ، وهو ملطِف مع ذلك ، خلال ست عشرة سنة ، في أن يثلم الحد الصارم لقواعده وقصائده ، الى حد يمكن معه ، ان يؤكد أنه يسعى دائماً الى التصرف كما لو كان تحت انظار الآلهة . نهض من على المقعد ، مضى ليضيء المصباح ، وكما لو كان الوقت صباحاً ، وكما لو أنه ما يكاد ان يكون قد استيقظ من راحته الليلية ، ينظر الى نفسه في المرآة ، يجس وجهه ، ربما كان عليه ان يحلق

للعشاء ، أن يبدل ملابسه على الأقل ، ولكن كلا ، سوف يذهب الى قاعة الطعام كما هو ، مجعد الثياب .

فلتذهب الهواجس الى الشيطان ، يخيل الى المرء انه لم يلاحظ بعد طريقة لبس أهل المدن ، السترات التي تشبه أكياساً ، السراويل التي تصنع جيوباً ، ربطات العنق التي تمرر وتسحب عبر الرأس دون ان تحل عقدتها ، القمصان الرديئة التفصيل ، الثنيات والطيات التي يصنعها الاهتراء ، والأحذية العريضة كالأشداق ، من أجل أن تستطيع أصابع القدم أن تتحرك فيها على راحتها ، على الرغم من ان النتيجة النهائية تنتهي بإلغاء القصد ، لأن هذه المدينة هي دون شك تلك التي يشاهد فيها ازدهار المسامير والتكلكلات والأثفان بأكبر الغزارة ، دون الكلام عن الأظفار المغروزة ، لغز قدمي معقد قد يقتضي تحقيقاً خاصاً ، ويبقى مفتوحاً أمام كل التعقيبات . يقرر أن لا يحلق ، يرتدي قميصاً نظيفاً ، يختار ربطة عنق من لون بذلته ، يعيد تصفيف شعره أمام المرآة مبرزاً المفرق جيداً . وعلى الرغم من ان ساعة العشاء ماتزال بعيدة ، فإنه يستعد للنزول ، قبل الخروج ، ودون أن يلمس الورقة ، أعاد قراءة ما كان قد كتبه ، فارغ الصبر ، كما لو كان يأخذ علماً برسالة تركها شخص لا يحبه أو يضايقه أكثر من المعقول . ريكاردو ريس هذا ليس الشاعر ، انه فقط زبون فندق وجد ، وهو خارج من غرفته ، ورقة كتب عليها بيت ونصف بيت . من ترك لي هذا إذن ؟ لا يمكن أن تكون الخادمة ، ليست ليديا ، لا هي ولا واحدة اخرى . يا لها من متاعب ، طالما انه قد بدأ الآن ، فسوف ينبغي عليه ان ينتهي ، انه نوع من القدر ، والناس لا يتصورون حتى ان الذي ينهي أمراً ليس قط من بدأه ، وحتى لو حملوا جميعهم الاسم نفسه ، فهو وحده لا يتغير ، هو فقط .

المدير سلفادور كان في موقعه ، ساكناً ، مبدياً ابتسامته الأزلية ، حياه

ريكاردو ريس ، وتابع طريقه . تبعه سلفادور سائلاً ما اذا كان السيد الدكتور سيتناول شيئاً قبل العشاء ، شراباً مقبلاً . كلا شكراً ، لم يكن قد اكتسب هذه العادة بدورها ، ربما أتت مع الوقت ، المذاق أولاً ، ثم الحاجة ؛ ولكن هذا لن يكون حالاً . بقي سلفادور لحظة بين البابين ليرى ما اذا كان الزبون سيغير رأيه ، يعبر عن رغبة أخرى ، ولكن ريكاردو ريس كان قد فتح احدى الصحف ، كان قد أمضى النهار كاملاً في جهل لأحداث العالم ، ليس الأمر أنه كان ، من حيث الميل ، قارئاً مواظباً ، بل أن نثر الصحف الكبرى يتعبه على العكس من ذلك تماماً ، ولكنه لم يكن لديه شيء آخر يفعله في هذه اللحظة ، والجريدة التي تتحدث عن العالم عامة كانت تستخدم حاجزاً ضد هذا العالم الآخر القريب والعدواني معاً وتسمح بالافلات من رعاية سلفادور ، يمكن ان تقرأ فيها أخبار الخارج كرسائل بعيدة ودون أهمية ، ذات كفاية مشكوك فيها على اعتبار انه ليس حتى من المؤكد انها تبلغ غايتها . استقالة الحكومة الاسبانية بعد اقرار حل البرلمان ، هذا واحد من الأخبار . في برقية الى عصبة الأمم ، النجاشي يصرح بأن الطليان يستخدمون الغازات الخانقة ، هذا خبر آخر ، نتعرف جيداً هنا على الصحف ، انها لا تحسن الحديث إلا عما جرى فعلاً ، عندما يفوت الأوان على معالجة الأخطاء والأخطار والإغلاق ، كان من شأن جريدة جيدة ، مثلاً ، ان تعلن ، في أول كانون الثاني عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر ، ان الحرب ستندلع في الرابع والعشرين من تموز ، كان سيتوفر لنا على هذا النحو حوال سبعة أشهر لتحاشي التهديد ، ومن يعلم ما اذا كان سيتوفر لنا الوقت للتوصل الى ذلك ، او كان من الطريف ، وهو أفضل أيضاً ، ان نرى قائمة من بأسماء الذين سيموتون منشورة ، ملايين من الرجال والنساء يقرؤون في جريدة الصباح ، في وقت القهوة بالحليب ، الاعلان عن وفاتهم ، المصير المقرر والذي ينبغي

تحقيقه ، باليوم ، والساعة ، والمكان ، والاسم بكامل حروفه . ماذا كانوا سيفعلون وقد عرفوا أنهم سيقتلونهم ، ماذا كان من شأن فرناندو بيسوا أن يفعل لو كان قد قرأ قبل شهرين ان مؤلف «منساغيم» سيموت في الثلاثين من تشرين الثاني المقبل بمغص كبدي ، ربما كان سيستشير طبيباً ، وربما كان سيتوقف عن الشرب ، وربما كان سيلغي موعده ويعكف على شرب الضعف ليموت قبل التاريخ المحدد . خفض ريكاردو ريس الجريدة ونظر الى نفسه في المرآة ، سطح خداع مرتين ، ينسخ فراغاً عميقاً وينكره ، مجرد اسقاط لا شيء فيه حقيقي إلا اذا كان الانعكاس السطحي والأبكم للأشخاص والأشياء ، شجرة تنحني على بحيرة ، وجه يبحث عن نفسه فيها ، دون ان تزعجه صورة الشجرة وصورة الوجه أو تربكانه أو تمسانه مساً خفيفاً . المرآة ، هذه وكل الأخرى ، لأنها لا ترد ، أبداً ، سوى مظهر ، محمية من الأنسان ، لسنا أمامها شيئاً خلاف ما هو هناك ، ما كان فيه ، كالرجل الذي يعجب ، قبل أن يذهب الى حرب ألف وتسعمائة وأربعة عشر ، بزيه العسكري أكثر مما يعجب بنفسه ، جاهلاً أنه لن ينظر الى نفسه أبداً في هذه المرآة ، الباطل هو هذا أيضاً ، ما لا يدوم . هكذا هو الأمر مع المرآة ، تقبل ولكن ترفض أيضاً .

حول ريكاردو ريس عينيه ، بدل مكانه ، ابتعد ، رافضاً ومرفوضاً ، أدار لها ظهره ، رافضاً دون شك ، لأنه هو نفسه مرآة .

الساعة دقت الثامنة ، ما كاد ان ينطفىء الصدى الأخير حتى رنّ صنج غير مرئي رنيناً ضعيفاً ، لا يمكن سماعه ما لم يكن المرء قريباً منه تماماً ، زبائن الطوابق العليا لم يسمعوه بالتأكيد ، إلا أنه يمكن الوثوق بقوة العادة . طوى ريكاردو ريس الجريدة ، وصعد الى غرفته ليغسل يديه ويرتب نفسه قليلاً ، عاد حالاً وجلس الى الطاولة التي تعشى عليها أول مساء وانتظر . لو

كان أحد قد لاحظه أو اقتفى خطاه لفكر ، وهو يراه في هذا الاستعجال ، ان هذا الرجل يجب أن يكون قد تغدى باكراً وغداء سيئاً ، انه يموت جوعاً أو أنه ، أيضاً ، اشترى بطاقة للمسرح ، ولكننا نعلم أنه تغدى متأخراً ، ولم يسمع وهو يشكو من أنه أكل أقل مما ينبغي ، وهو ليس ذاهباً الى المسرح ولا الى السينما ، لأن المجنون ، او غريب الطباع ، وحده ، كانت ستخطر له ، في هذا الطقس الرديء والذي يتفاقم ، فكرة المضي للتنزه في الطرقات . ريكاردو ليس سوى مؤلف قصائد غنائية ، ليس غريب الطباع ، وهو أقل من ذلك أيضاً أبله ، وليس بالتأكيد أبله هذه القرية . لماذا استولت عليّ اذن هذه العجلة ، الناس يصلون الآن فقط للعشاء ، الرجل النحيل الذي هو في حداد ، الضخم الهادىء الذي يهضم جيداً جداً ، كل الذين لم أرهم مساء أمس ، تخلف فقط الطفلان الصامتان وأبواهما ، كانوا عابرين احتمالاً . اعتباراً من الغد ، لن انزل قبل الثامنة والنصف ، سيكون ذلك مبكراً تبكيراً كافياً حقاً ، هيئتي مضحكة وأنا جالس هنا ، يخيل للمرء أني فلاح ينزل في فندق للمرة الأولى . تناول حساءه ببطء ، محركاً ملعقته كثيراً ، ثم قطع السمك وقضم ، لم يكن جائعاً في الحقيقة ، وبينما كان الخادم يقدم له الطبق الثاني ، رأى ثلاثة رجال يدخلون ويقودهم رئيس الخدم الى الطاولة التي كانت الفتاة ذات اليد المشلولة وأبوها قد تعشيا عليها بالأمس ، لم تعد هنا اذن ، فكّر في انهما قد رحلا ، أو أنهما يتعشيان خارجاً ، كان متردداً ، وفي هذه اللحظة فقط انتهى الى التسليم بما كان يعرفه من قبل ولكنه يتظاهر بجهله ، أنه كان ، مع تسجيله بشبه لا مبالاة دخول الزبائن ، يخفي عن نفسه انه نزل مبكراً ليلمح الفتاة ، لماذا ، هذا السؤال نفسه كان تظاهراً ، أولاً لأن بعض الأسئلة تُطرح بهدف وحيد هو بيان عدم وجود جواب ، ثم لأن الجواب الآخر الممكن وغير المباشر كان يجعله يرى في هذه الفتاة التي

تداعب يدها اليسرى المشلولة كما لو كان الأمر يدور حول حيوان صغير ثمين ، بل حتى وربما لأنها لا تفيدها في شيء ، وهو سبب كافٍ ، ولم يكن في حاجة الى سبب أعمق ، هذا الجواب كان صحيحاً وخاطئاً بالتساوي . اختصر العشاء ، طلب ان تقدم له القهوة ، وكونياك ، في الصالة ، طريقة أخرى في قضاء الوقت منتظراً ، وكان هذا قراراً واعياً الآن ، ان يسأل المدير سلفادور من كان هذان الشخصان ، الأب والبنت . هل تفهم ذلك ، لدي انطباع بأني رأيتهما من قبل ، في مكان ما ، في ريودو جانيرو احتمالاً ، وليس في البرتغال على كل حال ، لأنه يجب أن تكون الفتاة ماتزال طفلة في ذلك العهد . نسج ريكاردو هذه الشبكة من الافتراضات ومزجها ، كثير من الأبحاث من أجل مثل هذا التحقيق المسكين . في الوقت الحاضر ، سلفادور مشغول بزبائن آخرين ، أحدهم راحل في ساعة مبكرة جداً ويطلب حسابه ، والآخر يشكو من أنه لا يستطيع النوم بسبب مغالق النوافذ التي تضرب ببعضها عند ما تهب الريح ، سلفادور يرد على كل منهما بأسلوبه اللطيف ، واسنانه الوسخة ، وشاربيه المدعيين . الرجل النحيل وصاحب الحداد دخل الى الصالة ليتصفح جريدة ، ثم خرج حالاً تقريبياً ، ظهر الضخم على عتبة الباب ، ماضغاً باهمال مسواكاً ، تردد أمام نظرة ريكاردو ريس الباردة وابتعد محني الظهر لأن الشجاعة خانته ، هناك تخليات من هذا النوع ، برهات ضعف معنوي متطرف لا يستطيع رجل ان يفسره لأحد ، وأقل من ذلك لنفسه .

بعد نصف ساعة استطاع سلفادور البشوش ، أخيراً ، ان يزوده بالمعلومات ، كلا ، يجب أن تكون خلطت بينهما وبين آخرين ، في حدود علمي لم يذهبا أبداً الى البرازيل ، انهما يأتيان الى هنا منذ ثلاث سنوات ، لقد تحدثنا طويلاً ، كانا سيحدثانني عن رحلة كهذه . اذن أنا مخطىء ،

ولكنك قلت يا سيد سلفادور أنهما يأتيان الى هنا منذ ثلاث سنوات . هو ذاك ، نعم ، انهما من كوامبرا ، هناك يسكنان ، الأب هو الدكتور سامبايو ، كاتب عدل ، أما هي ، فلها اسم غريب ، انها تدعى مرساندا ، طريف اليس كذلك ؟ إنهما من أسرة ممتازة . الأم ميتة ، ما بها يدها ؟ اعتقد ان كل الذراع مشلولة . لهذا السبب يأتيان ثلاثة أيام في الشهر ، الى هنا ، الى الفندق . نعم من أجل هذه الاستشارات لدى الطبيب . آه ، ثلاثة أيام في الشهر . نعم ، كل شهر ، ثلاثة أيام ، الدكتور سامبايو يُعلِمني دائماً مقدماً ، كي احجز لهما غرفتين ، نفسهما دائماً . وهناك تحسن في هذه الأوقات الأخيرة . كي أحدثك بصراحة ، يا سيدي الدكتور ، لا أظن ذلك . مع الأسف ، فتاة في هذا الشباب . صحيح ، ولكنك قد تستطيع اعطاءهما رأيك ، في المرة القادمة ، اذا كنت ماتزال هنا ، يا سيدي الدكتور ، من المحتمل جداً أن أكون ، بعد ، هنا فعلاً ، ولكن هذه الحالة ليست لي ، أنا طبيب عام ، في التالي اهتممت بالأمراض المدارية ، ولكن لا شيء فيها يمكن أن يفيد في هذه الحالة . يجب أن يصبر المرء على دائه ، يقال أن المال لا يصنع السعادة ، هذا صحيح جداً ، الأب غني وابنته المسكينة هي هكذا ، لا أحد رآها تضحك ، ان اسمها مرساندا . نعم ، هو ذاك يا سيدي الدكتور . يا له من اسم غريب ، لم اسمع به قط . ولا أنا ، الى الغد يا سيد سلفادور . الى الغد يا سيدي الدكتور .

رأى ريكاردو ريس ، وهو يدخل غرفته ، السرير مفتوحاً وشراشف السرير والغطاء مطوية بتحفظ في زاوية قائمة ، لا شيء له علاقة بوقاحة فرش السرير المفتوح المحبطة ، هنا ما لا يكاد ان يكون اقتراحاً ، اذا اردت ان ترقد ، فهذا هو المكان . ليس بعد . قرأ ، أولاً ، البيت ونصف البيت اللذين كتبهما ، يتأملهما بقسوة ، يبحث عن الباب الذي يستطيع هذا

المفتاح ، اذا كان مفتاحاً ، ان يفتحه ، يتخيل أنه وجده وأنه سيقع على أبواب أخرى وراء هذا الأخير ، مغلقة ودون مفتاح ، أخيراً ، ثابر الى حد انتهى ، معه ، الى ايجاد شيء ، أو أن التعب ، تعبه ، تعب شخص آخر ، ولكن أي آخر ، هو الذي يسمح له بإنهاء القصيدة . كينونتي الهادئة تريد أن ترتفع ، لا مطمئنة ولا قلقة ، فوق المكان الذي يحس فيه البشر السرور والألم ، والباقي من النمط نفسه ، كان يمكن الاستغناء عنه . السعادة نير وكون المرء سعيداً يجوز لأنها حالة . ثم ذهب ليرقد ، ونام فوراً .

كان ريكاردو ريس قد قال للمدير ، ارسلوا إلى طعام الإفطار في غرفتي في الساعة التاسعة والنصف ، وليس ذلك لأنه فكر في ان يستيقظ في هذه الساعة المتأخرة ، ولكنه لم يكن يريد أن يتوجب عليه القفز من السرير وهو مايزال نعساناً تماماً وادخال يديه بسرعة في كمي ثوبه المنزلي وهو يتلمس بحثاً عن خفيه ، مرعوباً من فكرة ان لا يكون بالسرعة التي يستحقها الشخص الصابر الذي يمسك بيديه ، في الجانب الآخر من الباب ، الطبق الكبير الذي يحتوي على القهوة والحليب ، والخبز الساخن ، والسكرية ، ومربى الكرز أو البرتقال ، ومن يدري ، فربما كانت هناك أيضاً شطيرة من مربى السفرجل الداكن والحبيبي ، وحلوى السافوا وقطع من الأروفاداس* أو قطع خبز محمص ماتزال ساخنة ، كل الكرم الفندقي ، اذا كان مألوفاً في براغانسا ، سوف نرى ذلك حقاً ، أنه أول افطار لريكاردو ريس منذ وصوله . في الساعة التاسعة والنصف بالضبط ، كما وعده سلفادور . لم يكن وعداً في الهواء ، كان مضبوطاً ، ليديا هنا تقرع الباب ، سوف يحكم مراقب فطن بأن ذلك مستحيل ، اليست يداها مشغولتين ، ولكن أخيراً . أين سنصبح اذا كنا

* حلوى مصنوعة من الدقيق والبيض والسكر .

لا نجد ، بين كل خدمنا ، بعضاً منهم مزوداً بثلاثة أذرعة أو أكثر ، كخادمتك تماماً التي نجحت ، دون ان تريق ادنى قطرة حليب ، في قرع الباب برفق ، واحدى يديها ماتزال تسند الطبق ، يجب ان يرى المرء ذلك ليصدقه ، مع اعلانها ، الافطار يا سيدي الدكتور ، هكذا علموها ان تتكلم ، وعلى الرغم من أنها امرأة من الشعب ، فإنها على ما يكفي من الذكاء من أجل ان لا تنسى الدرس ، لو لم تكن هذه الليديا خادمة ، ومن نوعية جيدة ، لأمكنها أن تكون ، حقاً أيضاً ، بهلوانة ، حاوية أو مشعوذة ، فالاستعدادات اللازمة لا تنقصها ، وأغرب من ذلك بكثير هو أنها خادمة تدعى ليديا ، وليس ماريا . ريكاردو ريس كان جاهزاً من قبل ، مرتدياً ثيابه وذقنه محلوقة ، ارتدى ثوبه المنزلي وفتح النافذة نصف فتحة لتهوية الغرفة ، ذلك أنه يكره الروائح الليلية ، الشعراء أنفسهم لا يستطيعون تجنب إصدار هذه الروائح . دخلت الخادمة أخيراً ، نهارك سعيد يا سيدي الدكتور ، مضت لتضع الطبق الذي كان أقل امتلاء مما كان يتخيله ، ولكن البراغانسا يستحق ، مع ذلك ، شهرته ، لا عجب في أن لديه زبائنه الأوفياء الذين لا يريدون فندقاً آخر عندما يأتون الى ليشبونة . رد ريكاردو ريس على تحيتها ، ثم قال ، كلا ، شكراً جزيلاً ، لم أعد أريد شيئاً ، هذا هو الجواب على السؤال الذي لا يفوت مطلقاً خادمة غيور أن تطرحه ، أتريد شيئاً آخر ، واذا أجيب بلا فيجب ان تنسحب بهدوء ، القهقرى اذا أمكن ذلك ، فإدارة الظهر نقص في الاحترام حيال من يدفع ويتيح لنا العيش . ليديا التي أوصوها بمزيد من السهر على هذا الزبون قالت ، لا أدري ما اذا كان السيد الدكتور قد لاحظ ان رصيف سودريه مغمور بالمياه ، هؤلاء هم البشر حقاً ، الطوفان يقع عند بابهم ولا ينتبهون إليه ، لقد ناموا دفعة واحدة حتى الصباح ، وعندما يستيقظون ، يسمعون المطر تهطل كما لو كانوا يحلمون بأن

السماء تمطر ويشكّون ، في ذروة الحلم ، بحلمهم ، في حين ان السماء أمطرت الى حد غرق ، معه ، رصيف سودريه ، الماء يصل الى ركبتي الرجل الذي يعبر حافي القدمين ، مشمور السروال حتى فخذيه ، على ظهره سيدة مُسنّة يساعدها على عبور المخاضة ، وهي أخف بكثير من كيس الفاصولياء الذي نقله ، كما شوهد ، من العربة الى المخزن . عندما وصلت العجوز القصيرة الي أسفل شارع اليكريم ، فتحت محفظتها واخرجت قطعة لسان كريستوفها* الذي ، من أجل أن لا نكرر أقوالنا ، يمضي من جديد لأن رجلاً يرسل ، من الجانب الآخر للطريق ، اشارات استغاثة . ليس مسناً جداً ، يستطيع أن يعبر وحده ، فساقاه تتيحان له ذلك دون شك ، ولكنه من حسن اللباس بحيث يخشى أن يقع في الوحل ، الأمر يدور فعلاً حول وحل أكثر منه حول ماء ، وهو لا ينتبه الى كونه مضحكاً وهو جاثم هذا على محراك القدة ، مفتول الثياب بصورة لولبية ، وسرواله المشمور يكشف عن ربلتي ساقيه وعن مثبتين للجوربين خضراوين على السروال الداخلي الأبيض ، الساخرون لا ينقصون ، وحتى في الطابق الثاني من فندق براغانسا حيث يبتسم زبون في حوالي الخمسين من عمره وقد استطرف المشهد ، ووراءه ، اذا لم تخدعا عيوننا ، امرأة تضحك أيضاً ، انها امرأة ، بكل تأكيد ، ولكن العيون ترى أحياناً ما ينبغي أن لا تراه ، لأن الأمر يدور ، بشكل ظاهر ، حول خادمة ، وهو ما لا يسهل التسليم به ، لأن العلاقات والمراكز الاجتماعية ستهدم بصورة خطرة ، هناك خطر ، فلنكرر هذا ، ومع ذلك ، فهذه أمور تحدث ، واذا صح أن الفرصة تصنع اللص ، فلماذا بحق الشيطان لا تصنع الثورة ، وانها ، حقاً ، لثورة أن نرى ليديا وراء ريكاردو ريس تضحك معه من

* سان كريستوف هو حامي المبحرين . (المعرب)

المشهد الذي يسلي كليهما . هذه اللحظات العابرة من العصر الذهبي تموت حالما تولد ، لأن السعادة تنضب بسرعة . هذه اللحظة هربت فعلاً ، فقد أغلق ريكاردو ريس النافذة ، وتراجعت ليديا ، وقد كانت خادمة ، نحو الباب ، وكل شيء سيمضي الآن سريعاً جداً ، قطع الخبز المحمص بردت ، فقدت طراوتها ، قال ريكاردو ريس ، سوف أناديك من أجل الطبق ، وهذا ما فعله بعد نصف ساعة ، دخلت ليديا بتحفظ وخرجت دون ضجة ، الحمل أخف ، في حين يتصفح ريكاردو ريس في الغرفة « إله المتاهة » ، الكتاب الذي سبق ذكره ، دون أن يقرأه .

هذا اخر يوم في السنة ، في هذا العالم الذي يديره تقويمنا يدقق الناس في حساب الأعمال الطيبة التي ينوون انجازها خلال السنة القادمة ، ويقسمون لأنفسهم على أنهم سيكونون شرفاء وعادلين ، لن تعبر شفاههم أية غيبة ، أية اكذوبة ، أي تلميح حتى حين يستحقها الخصم . الأمر يدور حول بناء الشعب ، بالطبع ، الآخرون ، الكائنات الاستثنائية ، الأصليون ، يخضعون لمنطقهم الخاص الذي يسمح لهم بالنكوص عما قرروا ان يكونوه أو يفعلوه ، حسب نزوتهم أو حسب المناسبة ، انهم لا يدعون أنفسهم يخدعون ، بل يسخرون منا ومن نوايانا الحسنة ، وعلى كل حال ، وبمساعدة الخبرة ، نكون قد نسينا قسماً كبيراً من قراراتنا منذ الأيام الأولى من كانون الثاني ، وعندما ننسى هذا النصف الأول ، فلن يبقى أي مبرر لإنجاز الباقي ، كما لو كان ذلك قصراً من أوراق اللعب ، اذا نقصت أوراق القمة ، فالأفضل أن ينهار الكل بدلاً من خلط الألوان . من أجل هذا حقاً ، الاحتمال قليل في أن يكون المسيح قد غادر الحياة وهو يتلفظ بأقوال الكتب المقدسة ، أقوال متى ومرقص ، إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني ، أقوال لوقا ، يا ابتاه بين يديك أودع روحي ، أو أقوال يوحنا ، قد تم ، ما قاله

المسيح ، وأقسم بشرفي على ذلك ، وأي نفر يعرف هذه الحقيقة ، هو ، وداعاً أيها العالم الذي تزيد ، يوماً بعد يوم ، صعوبة تحمله . آلهة ريكاردو ريس مختلفة تماماً ، كيانات صامتة تنظر إلينا ، غير مبالية ، الخير والشر بالنسبة إليها أقل من كلمتين ، لأنها لا تتلفظ بهما أبداً ، وكيف تستطيع ذلك اذا لم تميز بين الخيروالشر ، وتابعت مثلنا مجرى الأحداث ، واذا كنا نختلف عنها ، فلأننا صنعنا منها آلهة نؤمن بها أحياناً . كل هذا الخطاب يرمي الى أن يوفر علينا الاعلان عن نوايانا الحسنة للسنة الجديدة ، فليس بموجبها ستحكم علينا الآلهة ، ولا كذلك على أعمالنا ، لا يوجد من يجرؤ على الحكم الا البشر ، الآلهة ، من جهتها ، لا تفعل ذلك ، فيفترض انها تعرف كل شيء ، الا اذا كان هذا أيضاً غير صحيح وأن الحقيقة الأخيرة للآلهة هي ، بالضبط ، جهل كل شيء ، وأن شاغلها الوحيد هو أن تنسى في كل لحظة ما علمتها إياه ، كل لحظة ، أفعال البشر الطيبة والسيئة ، وهي كلها متساوية في نهاية المطاف لأنها غير مجدية في عيون الآلهة . يجب ان لا نقول قط ، سوف نفعل ذلك غداً ، لأننا سنكون غداً ، بالتأكيد ، متعبين ، فلنقل بالأحرى ، بعد غد ، لنوفر لأنفسنا فاصل يوم من أجل أن نستطيع تغيير رأينا ومشروعنا ، ولنقل ، من أجل مزيد من الحذر ، سأقرر يوماً أنه قد حان الوقت لأن أقول بعد غد ، بل ربما لن يكون ذلك ضرورياً اذا جاء الموت الذي يضع نهاية لكل شيء ، قبل ذلك ، ليحررني من هذه الورطة التي هي اسوأ شيء في العالم ، حرية نرفضها .

توقفت المطر ، وانكشفت السماء ، يستطيع ريكاردو ريس ، دون ان يتعرض لخطر البلل ، ان يقوم بجولة قبل الغداء . لن ينزل الى البيكسا ، رصيف سودريه مازال مغموراً ، الحجارة مغطاة بوحل نتن الرائحة ، وعاء كثيف ودبق يحمله تيار النهر ، اذا لم يتحسن الطقس ، فسوف يأتي عمال

التنظيفات بخراطيمهم ، الماء وسخ ، الماء سينظف ، فليتبارك الماء . صعد ريكاردو ريس الى شارع اليكريم ، استوقفه ، وهو ما كاد ان يخرج من الفندق ، اثر من عصر آخر ، تاج عمود كورنثي ، مذبح نذري ، عمود جنائزي دون قاعدة ، من الطريف حقاً ان توجد مثل هذه الأشياء في ليشبونة ، مع كل تغيرات الأرض ذات المنشأ الطبيعي ، أو الناشئة عن أعمال الحفر .

ليس سوى حجر مستطيل الشكل في جدار يطل على شارع نوفا دوكارفالو . تقول الكتابة التي تعوزها الرشاقة ، عيادة علاج العيون وجراحتها ، وبحروف أبسط ، أسسها أ . ماسكارو عام ١٨٧٠ . الحجارة طويلة العمر ، ولادتها وموتها يقوتاننا ، كم سنة مضت على هذا ، وكم منها سيمضي أيضاً ، ماسكارو لم يعد موجوداً ، العيادة تهدمت ، وسليلو المؤسس ، الذين مازالوا دون شك أحياء المشغولون في مكان آخر بمهام أخرى ، نسوا ، احتمالاً ، أو يجهلون أن حجرهم الشعاري موجود في هذا المكان العام ، لو لم تكن الأسر كما هي ، تافهة ، غير مستقرة ، لجاءت هذه الأخيرة حتى هنا لتستدعي ذكرى الجد ، طبيب العيون والجراح ، ولكنه لا يكفي ان ينقش اسم على حجر ، الحجر يبقى ، أنه محمي ، ولكن الاسم الذي لا يأتي أحد لقراءته كل يوم ينسى ، يمحي ، يزول .

واصل الصعود في شارع اليكريم تائهاً في هذه التأملات ، خيوط ماء مازالت تجري بين سكتي الترامواي ، من المؤكد أن العالم يستقر في مكان ، الريح تهب ، الغيوم تهرب ، لا ضرورة للحديث عن المطر بعد كل ما أتى على الهطول . توقف ريكاردو ريس أمام تمثال ايساد كيروس أو كيروز*

* ايسادو كيروز (١٨٤٥ ـ ١٩٠٠) : دبلوماسي وقصصي برتغالي . رائد الواقعية ـ مارس تأثيراً كبيراً على الأدب البرتغالي والبرازيلي .

لنبقى أمينين على الكتابة الأصلية ، كم هي مختلفة طرائق الكتابة والاسم مازال الأقل تغيراً ، والمفاجيء هو ان هذين الاثنين يتحدثان باللغة نفسها ، وان احدهما ريس والآخر ايسا ، اللغة تختار ، احتمالاً ، الكتاب الذين يلزمونها ، تستخدمهم للتعبير عن قطعة من الواقع ، أحب أن أرى ما ستكون عليه الحياة عندما ستسكت اللغة بعد أن تكون قد قالت كل شيء . الصعوبات الأولى بدأت في الظهور ، أخيراً ، مازال الأمر لا يدور حول صعوبات حقيقية ، بل بالأحرى حول طبقات للمعنى لا تحصى ومتناقضة ، رواسب غير مستقرة ، تبلورات جديدة ، عندما يقال ، مثلاً ، على عري الحقيقة الكلي ، الستار الشفاف للخيال ، فإن التكبير يبدو واضحاً وجلياً ، يستطيع طفل أن يفهمه ويكرره في الامتحان ، كما هو ، كما يفهم ويكرر بالاقتناع نفسه هذا التعبير الآخر ، على العري الكلي للخيال الستار الشفاف للحقيقة ، هذا ما يحمل على التفكير ، ذلك لأنه ليس سعادة حقيقية ان نتصور الخيال كلياً وعارياً ، والحقيقة ستاراً شفافاً ، اذا شرّعنا انطلاقاً من صيغ مقلوبة ، فأي عالم يمكن أن نخترع ، انها لمعجزة ان لا يصبح البشر مجانين منذ أن يفتحوا أفواههم للكلام . النزهة تثقيفية ، دون ان يبتعد إيسا عن نظره ، يتأمل كامويس* على قاعدته التي لا يظهر عليها أي بيت شعر ، أيها كان يمكن اختياره ، في هذا المكان ، حيث يوجد حزن كبير ونشيد حزين ، يفضل ترك المحزون المسكين والتسلق حتى أعلى الشارع ، شارع ميزاريكورديا ، شارع موندو سابقاً ، لا يمكن للأسف أن يحصل المرء على كل شيء ، العالم والرحمة . هوذا ميدان ساوروك القديم ، والكنيسة المكرسة لهذا القديس المصاب بالطاعون الذي لحس جراحه كلب ، حيوان

* لويس فازدو كامويس (١٥٢٤ ـ ١٥٨٠) : جندي وشاعر ، مؤلف لوزيادس ، ملحمة شعرية عملاقة يروي فيها ، الاكتشافات والفتوحات البرتغالية في القرن السادس عشر .

ليس من جنس أوغولينا التي لا تعرف سوى التمزيق والالتهام . في هذه الكنيسة يوجد مصلى يوحنا المعمدان الذي أوصى عليه الايطاليين دون جاو الخامس ، العاهل المشهور ، الملك المعماري والمهندس الممتاز ، اذا حكمنا عليه بموجب دير مافرا* وقناة اغواس التي مازال ينبغي كتابة تاريخها . على الجانب ، بين كشكين يبيعان التبغ وبطاقات اليانصيب والكحول ، تنتصب اللوحة التذكارية الرخامية التي اقامتها الجالية الايطالية بمناسبة زواج دون لويس ، مترجم شكسبير ، ودونا ماريابيا دوسافوا ، ابنة فيردي ، اسو ، بصورة اضبط ، ابنة فيتوريو ايمانويل ، ملك ايطاليا ، وهو نصب فريد في كل ليشبونة ، يذكر ، بالأحرى ، بمقرعة أو مسطرة ، وهذا على كل حال الانطباع الذي يعطيه لبنات المياتم اللواتي ينظرن إليه ، عندما يمررن أمامه ، بالمريول والصف لطرد رائحة المهجع السيئة ، وأيديهن مازالت ملتهبة من الضربات الأخيرة التي تلقتها ، بعيون مذعورة ، حتى اللواتي منهن كانت عيونهن محرومة من النور ، واللواتي يسمعن رفيقاتهن يتحدثن عنه . هذا الحي الواقع في المدينة العليا ، الممتاز السمعة ولكنه سيء الأخلاق ، لا ينقصه المظهر ، واذا كانت أغصان الغار تتجاور على أبواب الحانات مع بنات الرصيف ، فإن الساعة الصباحية والطرق التي غسلتها الأمطار الغزيرة في هذه الأيام الأخيرة تعطي الجو نوعاً من نضارة بريئة ، نفحة عذرية . من كان يمكن ان يقول ذلك ، ربما طيور الكناري الموضوعة على الشرفات أو في مدخل الحانات ، التي تزقزق كالمجانين ، ينبغي الإفادة من الطقس الجميل ، خاصة عندما يفترض أنه لن يدوم ، أن السماء ستمطر من جديد ، والأغنية ستتلاشى ، والريش سينتفش من جديد . عصفور صغير

---

* تاريخ دير مافرا كتبه جوزيه ساراماغو نفسه في روايته السابقة ، ذكرى دير .

رقيق وضع رأسه تحت جناحه ، يتظاهر بالنوم ، صاحبته تحمله الى الداخل ، لم تعد تسمع سوى دوزنة غيتار ، من أين تأتي ، ريكاردو ريس يجهل ذلك ، التجأ تحت بوابة في أعلى ممر أغوادا فلور . غالباً ما قيل ان الشمس لن تلمع طويلاً عندما تغطيها الغيوم التي كشفتها من جديد ، يمكن أن يقال أيضاً ان هذه الزخة كانت قصيرة ، انها هطلت مدراراً ، وها هي قد انقضت ، كغسيل منشور ، حواف السقوف والمصاطب تقطر ماء ، الوابل كان من الفجائية بحيث لم يكن لدى النساء الوقت للاعلان عنه بالصراخ ، كالعادة ، انها تمطـ... ...ر ، يتبادلن تنبيه بعضهن كما يفعل الجنود في مخارسهم ، ليلاً ، أيها الحارس ، انذا ... ر ، انه الانذار ، انقله الى الآخرين ، حان وقت ادخال الكنار ، الجسد الصغير الطري محمي جداً لحسن الحظ ، قلبه يخفق ، يا يسوع ، يا لها من قوة ، يا لها من سرعة ، انه الخوف ، كلا ، الأمر هو هكذا دائماً ، القلب الذي لا يعيش طويلاً يخفق بصورة اسرع ، يجب حقاً أن تتوازن الأمور . اجتاز ريكاردو ريس الحديقة ، نظر الى المدينة ، الى القصر وأسواره المنهارة ، نظرية البيوت التي تتدحرج على طول المنحدرات . الشمس المغسولة تضرب القرميد الرطب ، الصمت يسيل على المدينة ، الأصوات خنقت ، خفتت ، ليشبونة القطنية تقطر ماء . تحته ، على مصطبة ، التماثيل النصفية لبعض الوطنيين ، باقات من البنقس ، وبعيداً جداً عن سموات اللاتيوم ، رؤوس رومانية متباينة ، الزي بوفينو دو بوردالو[٤] يبدو أنه قد وضع هناك كذراع تحيي ابولون المقصورة . عندما نتأمل أبولون ، تتحول أية شرفة الى مقصورة ، صوت ينضم الى الغيتار ، تغنى أغنية فادو . يبدو أن المطر ابتعدت نهائياً .

* رافاييل بوردالو بينيرو (١٨٤٦ ـ ١٩٠٥) : رسام ساخر . تمثاله زي بوفينو تركيب رائع للشعب البرتغالي .

عندما تستجر فكرة أخرى ، يتحدثون عن تداعي أفكار ، بل أن بعضهم يدعي أن كل فعالية عقلية تنجم عن تكرار هذه السيرورة ، اللاشعورية في معظم الوقت ، ولكنه يتفق ، ان تكون قهرية ، او تحاول ان تظهر بوصفها كذلك من أجل الاضافة الى المعنى أو الانحراف عنه ، ومهما يكن من أمر ، فإن تداعي الأفكار يقوم على تعددية علاقات بين المقولات التي هي وجوه لما يسمى ، بالمعنى الواسع ، تجارة الأفكار وصناعتها ، هذا هو السبب الذي لا يختلف من أجله الإنسان ، مهما كان متفوقاً ، أو تفوق ، أو مهما أمكنه ذلك ، في شيء عن مركز صناعي وتجاري ، منتج أولاً ، بائع مفرق بعد ذلك ، ومستهلك في النهاية ، وقد خلط نظام الأفكار وأعيد ترتيبه ليمكن الحديث ، حالياً ، عن تداعيها ، عن تنظيمها في شركات أو شركات توصية ، بل ربما في شركات تعاونية ، ولكن الأمر لا يمكن ان يدور حول شركات ذات مسؤولية محدودة ، أو شركة مغفلة ، لأن لكل منها اسماً . لن نتأخر في ان نتبين ان هناك حقاً علاقة قابلة للفهم بين هذه النظرية الاقتصادية والنزهة التثقيفية لريكاردو ريس ، في البرهة التي سيبلغ فيها بوابة ما كان سابقاً دير ساوبيدرو دو ألكانترا ، وما هو اليوم ملجأ للبنات المساقات بالعصا .

وقعت انظاره عند المدخل على لوحة آزوليجوس التي تمثل ايل بوڤيريلو ، الشيطان المسكين اذا تجرأنا على هذه الترجمة ، القديس فرانسوا داسيز ، جاثياً ، ذاهلاً ، ليتلقى الندوب التي ترمز الى خمسة خيوط دم تصل مباشرة من السماء ، من المسيح المصلوب الذي يحوم في الأعلى كنجمة ، كطيارة قوس اطلقها صبيان المزارع ، في هذا الفراغ الحر الذي لم يفقد بعد كل ذكرى عن الزمن الذي كان ، فيه ، البشر يطيرون . القديس فرانسوا الدامي القدمين واليدين ، المفتوح الخاصرة ، يمسك بيسوع

المصلوب ، يمنعه من الهرب الى الأعالي التي لا يمكن التنفس فيها حيث الأب ينادي ابنه ، تعال ، القديس يبدو هكذا ، متشنجاً تشنجاً مقدساً بتوتر الجهد المتطاول ، متمتماً بما يخيل لبعضهم أنه صلاة ، لن ادعك تذهب ، لن ادعك تذهب . أمام هذا الموقف الذي لا ينكشف في وضح النهار الا الآن ، يجب أن نسلم حقاً بأنه يجب الخلاص ، نهائياً ، من اللاهوت القديم وتصور لاهوت جديد معاكس للقديم . هذا هو ما يؤدي إليه تداعي الأفكار . قبل لحظة ، لأنه كانت هناك رؤوس رومانية على الشرفة ـ المقصورة ، تذكر ريكاردو ريس التحية الشعبية بالذراع والآن ، أمام دير قديم في ليشبونة ، ليس هو دير فيتنبرغ ، يفهم كيف ولماذا اعطى ابناء الشعب التحية بالذراع اسماً منسوباً الى القديس فرانسوا ، هذه فعلاً الحركة التي يوجهها القديس البائس الى الله الذي يريد أن يسلبه نجمه . ولن ينقص شكاكون محافظون ليدينوا هذه الفرضية ، وهذا ليس مفاجئاً ، أليس هذا المصير المحتوم للأفكار الجديدة المتصورة بالتداعي .

نقّب ريكاردو ريس في ذاكرته ليجد مقاطع من قصيدة كتبها قبل عشرين سنة ، كم ينقضي الوقت ، يا إلهي الحزين ، لأنك ضروري لنا دون شك ، لأن أي أحد آخر لا يشبهك ، لست أكثر ، لست أقل ، انت آخر ، أنت ، المسيح ، لا أكرهك ، ولا أزدريك ، ولكن اياك والسعي الى اغتصاب ماهو للآخرين ، الآلهة توحدنا ، نحن البشر . تمتم بهذه الكلمات وهو يسير على طول شارع دون بيدرو الخامس ، كما لو كان يفحص احفورات أو بقايا حضارات قديمة ، وأخذ يرتاب في قصائده ، من أين أتت ، لكونها لم يعد لها من معنى سوى هذا الركام من الأشياء المتباينة والمتلاحمة مع ذلك ، المثلومة فعلاً بفناء ما كان موجوداً في السابق ، ما يأتي فيا بعد ، والتي تثبت بهذا التناقض ، بهذا البتر نفسه ، وجود معنى آخر ، مساوٍ في

استعصاء فهمه ونهائيته لمعنى الشواهد التي تفتتح بها الكتب . تساءل عما اذا لم يكن في الإمكان تعريف وحدة تستطيع ، كالمشبك أو سلك التثبيت ، ان تحتوي التباينات ، التعارضات ، وبالدرجة الأولى هذا القديس الذي مضى الى الجبل نضراً وعاد منه فاقداً دمه من جراحه الخمسة ، ومازال سعيد الحظ لأنه استطاع ان يلف هذه الخيوط ويعود الى بيته عند طلوع الفجر ، وقد انهكه الكدح ، حاملاً تحت ذراعه طيارة القوس التي كادت تفلت منه ، والتي سيضعها في أعلى سريره ، انه غالب اليوم ، وربما سيكون مغلوباً غداً . ان ارادة تجميع انواع في هذا الاختلاف ضمن الوحدة نفسها عابثة دون شك عبث ارادة تفريغ البحر بسطل ، على الرغم من أن ذلك ليس مستحيلاً ، شريطة ان يتوفر الوقت والقوة اللازمة ، ولكنه ينبغي ، مسبقاً ايجاد حفرة على الأرض واسعة الى حد يكفي لاحتواء البحر ، وهذا مستحيل ، نحن نعرف ذلك ، فالبحر شاسع والأرض صغيرة .

غيّر انتباه ريكاردو ريس موضوعه ، فقد اتى على الوصول الى ميدان ، ريودو جانيرو ، ميدان الأمير الملكي سابقاً ، ربما سيستعيد ذات يوم اسمه ، من يعلم ، من يعش ير . في أيام القيظ ، يجب أن يكون ظل ، الأشجار ، القبقب والدردار والأرز ، ملاذ رطوبة . ومع ذلك ، فإن هذا الطبيب الشاعر ليس خبيراً في علم النبات ، الا انه يلزم ، حقاً ، ان يسد أحدهم فجوات وثغرات ذاكرة رجل متعود ، منذ ست عشرة سنة ، على نباتات المدار الأشد غرابة بكثير . الطقس ليس مناسباً أبداً للمتع الصيفية ، للاستشفاءات بالمياه المعدنية او لمرح الشاطىء ، الحرارة قريبة ، من عشر درجات ، ومقاعد الحديقة مبللة . شد ريكاردو ريس ثنايا معطفه بصورة أوثق ، مشى بصورة عشوائية ، عاد على اعقابه عبر دروب جديدة وتهيأ ، دون أن يعلم لماذا ، ليهبط شارع دوسوكولو ، وهو مكان مقفر وكئيب ،

بقصوره القديمة ، ببيوته الواطئة والضيقة ، التي يعيش فيها ابناء الشعب ، في الماضي ، لم يكن النبلاء متكبرين جداً ، كانوا يقبلون ان يعيشوا الى جانب العوام ، اما نحن ، وبالوتيرة التي تسير عليها الأمور ، فلن تبقى لدينا ، قريباً ، سوى أحياء فخمة ، بمرائب وحدائق خاصة ، بكلاب ستنبح نباحاً شريراً على المارة ، الكلاب نفسها تختلف ، في السابق كانت تعض كل الناس دون تمييز ، وكل ذلك سيحتفظ به للبورجوازية المالية والصناعية التي ستكون قد ابتلعت ما بقي من الارستقراطية .

هبط ريكاردو ريس الشارع دون تعجل ، يقرع على حجارة الرصيف بمظلته التي تحولت الى عصا ، انه صوت صافٍ ، دقيق وواضح ، صوت سائل نوعاً ما ، ان لم يكن من قبيل اللا معنى ان يستعمل هذا التعبير . اصطدام الحديد بالحجارة الكلسية ينتج ، اذن ، صوتاً سائلاً ، او يمكن ان يبدو كذلك ، هذه الأفكار الصبيانية سلت ريكاردو ريس الذي وعى فجأة خطواته ، بدا له انه لم يصادف نسمة حية منذ ان غادر الفندق ، لو طلب اليه أن يقسم لأقسم ، بكل صدق ، على أنه لم ير ، حتى الآن ، شخصاً ، كيف يمكن ذلك يا سيدي العزيز ، لسنا في مدينة في الملحقات ، أين ذهب الناس اذن . انه يعلم ، والحس المشترك ، المستودع الوحيد للمعرفة المؤكدة المزعومة ، يؤكد ذلك ، ان هذه ليست الحقيقة ، الناس ، لقد صادف بعضاً منهم على طول الطريق ، وهو يصادف المزيد الآن ، في هذا الشارع الهادىء تماماً الذي لا توجد فيه ، باستثناء بعض الورشات النادرة ، أية تجارة . تهبط الشارع جماعات ، كلها من الفقراء ، بعضهم له مظهر المتسولين ، توجد هنا أسر بكاملها ، مع المسنين الذين يجرون سيقانهم في المؤخرة ، والأطفال الذين تقطرهم أمهاتهم صارخات ، مزيداً من السرعة ، لن يبقى شيء ، ما انتهى حقاً ، بالمقابل ، هو الهدوء ، لم يعد الشارع هو

نفسه ، أما بالنسبة للرجال ، فيتخذون مظهراً منطلقاً ، يتظاهرون بالوقار الذي يناسب رب أسرة ، ويتقدمون كما لو كانت في رؤوسهم مشاغل كثيرة أخرى ، او كانوا يرفضون التسليم بهذا ، ثم يختفون ، الواحد بعد الآخر ، عند زاوية الشارع حيث ينتصب قصر بأشجار نخيل في باحته ، يخيل للمرء انه في العربية السعيدة ، التخطيطات القروسطية لهذه الطرق التي تحتفظ بمفاجآت عند كل منعطف ، لم تفقد شيئاً من فتنتها ، انها مختلفة جداً عن شرايين مدننا الحديثة المخططة بزوايا قائمة ، والتي تسمح برؤية كل شيء ، كما لو كان يمكن ارضاء الرؤية بسهولة . انبثق جمهور اسود أمام ريكاردو ريس وانتشر على كامل عرض الشارع وعلى الرصيف ، صابراً ومتلاطماً معاً ، هناك حركات جزر وتموجات تركض على الرؤوس ، شبيهة بلعب الأمواج في البحر أو بلعب الريح في حقول القمح . اقترب ريكاردو وطلب المرور من أول شخص توجه إليه ، بدأ حركة رفض ، التفت نحوه كما ليقول ، يا له من طلب ، انت مستعجل ، لم يكن عليك سوى أن تأتي في وقت ابكر ، ولكنه التقى وجهاً لوجه مع سيد حسن اللباس ، دون طاقية ولا عمرة ، بمعطف فاتح اللون ، وقميص أبيض وربطة عنق ، وهذا لم يكف ليفسح له في الحال ممراً فقط ، بل مضى أبعد من ذلك ، فضرب على كتف الشخص الذي يسبقه ، دع هذا السيد يمر ، الآخر اطاع ، وكان يمكن رؤية قبعة ريكاردو ريس الرمادية تعبر دون عائق المد البشري ، مثل بجعة لونغران على مياه البحر الأسود التي سكنت فجأة . لم يكن العبور لينتهي ، لأنه كان هناك كثير من الناس ، وكلما اقترب من مركز الجمهور قلت سهولة افساح طريق له طواعية ، وليس ذلك نتيجة لسوء ارادة مفاجيء ، بل لأن الجمهور من الكثافة بحيث لا يسمح بالحراك ، ما معنى هذا ؟ تساءل ريكاردو ريس الذي لم يغامر مع ذلك في طرح السؤال بصوت مرتفع . عندما

يجتمع هذا العدد من الناس لسبب معروف من الجميع ، فليس حسناً جداً في العيون ، بل ربما كان من قبيل انعدام اللباقة وحتى السماجة ان يدع المرء الآخرين يخمنون جهله ، فربما كان هذا مهيناً للآخرين ، فلا نعلم قط كيف ترتكس حساسية الأفراد ، وكيف يمكن ذلك عندما غالباً جداً ما تعمل حساسيتنا الخاصة التي يخيل إلينا مع ذلك أننا نعرفها جيداً بصورة لا يمكن التنبؤ بها . ريكاردو ريس بلغ منتصف الشارع ، اوجد نفسه تجاه مدخل بناية جريدة اوسيكولو ، الجريدة التي تطبع أكبر عدد من النسخ ، الأفضل انتشاراً ، تباعد الجمهور ، أصبح التنفس ممكناً ، فهم ريكاردو ريس لماذا كان يحبس تنفسه ، كان ذلك من أجل ان لا يشم الروائح السيئة . مازال هناك من يقول ان الزنوج نتنو الرائحة ، ولكن رائحة الأسود هي رائحة الحيوان البري ، ليس عفن البصل هذا ، وعفن الثوم ، والعرق الحامض التي تطلقها الملابس التي طال اكثر مما ينبغي أمد ارتدائها والأجساد التي لا تغسل إلا للذهاب لدى الطبيب ، أي غشاء بلغمي متوسط الرقة كان يمكن ان يعاني من هذا العبور المرعب . كان شرطيان يحرسان المدخل ، وآخران ، اقرب ، يضبطان الدخول . توجه ريكاردو ريس نحو أحدهما وسأل ، لماذا هذا التجمع ، اذن ، يا سيدي الشرطي ؟ ورد ممثل السلطة باحترام ، من الجلي ان الرجل الذي يسأله موجود هنا مصادفة ، انها أعمال سيكولو الخيرية . يا له من جمهور . بحق الشيطان ، هل تعلم ، يقدر أنه يوجد اكثر من ألف شخص هنا . كلهم فقراء . نعم يا سيدي ، كلهم فقراء ، انهم قادمون من الأزقة الضيقة والأكواخ . انهم كثر . وليسوا كلهم الموجودين هنا . طبعاً ، ومع ذك فهذا الجمهور مثير . ولكنه لم يعد يثيرني . اعتدت عليه . وماذا يعطونهم ، عشرة ايسكودوسات لكل واحد . عشرة ايسكودوسات . نعم ، عشرة ايسكودوسات ، وملابس دافئة ، لعباً

وكتباً للأطفال . كتب . نعم ، يا سيدي ، كتب ليتعلموا . لا يمكن صنع شيء كثير بعشرة ايسكودوسات . يبقى هذا دائماً أفضل من لا شيء . هذا صحيح حقاً . هناك من ينتظرون توزيع الأعمال الخيرية كل السنة ، هذا التوزيع والأخرى ، انها غير معدومة ، هيا ، يجب ان يركضوا من واحد الى الآخر ، كما لو كانوا ذاهبين الى القطاف ، الأسوأ هو عندما يذهبون الى حي لا يعرفونهم فيه ، الى ابرشيات اخرى مثلاً ، هناك ، يجب ان تنظر ، الآخرون لا يدعونهم يقتربون ، لكل فقير جاسوسه . هذا شيء محزن حقاً . آه ، نعم انه محزن ، ولكنه حسن من أجلهم ، هذا درس لهم ، لهؤلاء المستفيدين . شكراً جزيلاً على هذه المعلومات ، سيدي الشرطي . عفواً يا سيدي ، تعال ، مر من هنا . وعند هذه الكلمات ، تقدم الشرطي ثلاث خطوات ، متباعد الذراعين كما لوكان يطرد دجاجات قن ، هيا ، هيا ، هدوءاً ، اذا كنتم لا تريدون ان تروا الحطب الذي اصطلي به ، الجمهور تنحّى مطيعاً هذه الأقوال المقنعة ، النساء يعترضن كالعادة ، الرجال يتظاهرون بأنهم لم يسمعوا شيئاً ، أما بالنسبة للصغار ، فإنهم يفكرون في اللعبة ، ويتساءلون عما اذا ستكون سيارة صغيرة ، أو راكب دراجة ، او دمية من البلاستيك ، من أجل هذا يتخلون طواعية عن صدارة الصوف والكتاب . صعد ريكاردو ريس الكالسادادوس كايتانوس التي يمكنه منها ، على خط طيران طائر ، وشريطة ان يطير الحيوان منخفضاً ، تقدير التجمع ، انهم اكثر من ألف ، الشرطي كان على صواب . عسى ان يشاء الله ان لا تتوقف ممارسة الصدقة ، طالما استمر البؤس في الوجود على هذه الأرض الخصبة بالفقراء . الناس تغطوا بشالات أو خمارات ، وقد ارتدوا معاطف أو سراويل من النسيج المحبوك مرقّعة ، معظمهم حفاة او ينتعلون أحذية رياضية ، كل هذه الألوان المتنافرة الممتزجة تشكل بقعة رمادية ، سوداء ، وحلاً في رداءة

رائحة وعاء رصيف سودريه . الذين هنا لا يتحركون ، انهم ينتظرون دورهم ، واقفين ساعات كاملة ، وبعضهم وصلوا منذ الفجر ، الامهات يحملن اطفالهن الصغار او رضعهن الذين يغذينهم ، والآباء يتناقشون ، حديث رجال ، المسنون الذين لا يكادون يستطيعون الوقوف على سيقانهم ذاهلون ، صامتون وكئيبون ، انه اليوم الوحيد من السنة الذي لا يتمنون لهم ، فيه ، الموت ، فهو يسبب ضرراً أكبر مما ينبغي ، وكل هؤلاء الناس يجرون معهم حميات ، يسعلون ، يجري تداول قوارير صغيرة من الكحول تساعد على قضاء الوقت ونسيان البرد ، اذا عادت المطر الى الهطول ، فسوف يمسون كلهم ، لن يذهب أحد من هنا .

ريكاردو ريس اجتاز البيرو آلتو ، وهبط شارع دونورته ، وصل امام كامويس ، كما لو كان يسير في متاهة تعيده دائماً الى الموضع نفسه ، تجاه بونز حامل السيف المرفوع الى مرتبة النبالة ، هذا الدارتانيان الذي كان يمكن ان يتوج بالغار لأنه انتزع ، في آخر لحظة ، ماسات الملكة من مخالب الكاردينال الذي سينتهي الى الخدمة لديه ذات يوم ، الأزمنة تتغير ، ومعها السياسات ، اما بالنسبة للآخر ، الشاعر البرونزي ، فإذا لم يكن يستطيع استئناف الخدمة ، فيجب على الرغم من كل شيء أن يعرف ان السلطات ، بمن فيها الكرادلة ، يستخدمون اسمه ، كل واحد منه بدوره او بالتنسيق بينهم . انها ساعة الغداء . من نزهة الى اكتشاف ، هرب الوقت ، يبدو انه ليس لهذا الرجل ما يفعله سوى النوم والأكل والتنزه ، وكتابة الأشعار ، وليس ذلك دون صعوبة ، بكدحه على المقطع والقافية ، لا شيء يشبه مبارزة الفارس دارتانيان الأبدية ، اللوزياد وحدها تحتوي على أكثر من ثمانية آلاف بيت ، ومع ذلك فهو ، أيضاً ، شاعر ، حتى ولو لم يستمد مجداً من هذه الصفة ، كما يمكن ان نتبين من سجل الفندق ، ومع ذلك سيأتي يوم لن

يتذكروه فيه كطبيب ، ولن يتذكروا الفارو* كمهندس بحري ، وعندما سيتذكرون فرناندو ، فلن يكون ذلك بوصفه مراسلاً بلغات أجنبية ، فمهنتنا تسمح لنا بالعيش ، هذا صحيح ، ولكنها لا تحمل لنا شهرة الذين كتبوا ذات يوم ، في منتصف طريق حياتنا ، او مينينا وموسا أخذتاني من بيت أهلي** ، أو أيضاً ، في مكان من المانشا لا أريد تذكر اسمه ، الأسلحة والبارونات واعذرونا على هذه التكرارات . الانسان يجب ان يفعل ما يستطيع ليكون جديراً بهذا الاسم ، ولكنه ، أقل سيطرة على اسمه ومصيره مما يظن ، الزمن الذي لا يستطيع شيئاً حياله سيرفعه أو يهبط به لمزايا لم يفكر فيها أحياناً ، وبموجب آراء الآخرين مرات أخرى ، ماذا عنك عندما ستصل وقد هبط الليل الى نهاية دربك*** .

عندما أخلى فقراء شارع دوسيكولو الميدان ، كان الوقت ليلاً تقريباً . في هذه الأثناء ، تغدى ريكاردو ريس ، وقام بجولة بين مكتبتين ، وتردد أمام مدخل سينما تيفولي ، هل سيذهب ليرى فيلم «أحب كل النساء» لجان كييبورا ، كلا سيذهب فيما بعد ، عاد الى الفندق في تاكسي لأن ساقيه كانتا تؤلمانه لكثرة ما مشى... عندما عاد المطر إلى الانهمار ، كان قد وجد ملاذاً في مقهى ، قرأ صحف المساء ، ثم لمّع حذائيه ، وهو ما يمكن ان يبدو ، للوهلة الأولى تبذيراً ، مع هذه الطرقات التي اغرقتها بعنف دوامات الماء ، ولكن ماسح الأحذية كان قد شرح له ان الوقاية أفضل من العلاج دائماً ، وان الحذاء الذي يجعل كتيماً

---

* الفارودوكامبوس : أحد أسماء بيسوا البديلة .

** العبارات الأولى من قصة «مينينا وموسا» الشعرية لبرناردينو ريبيرو ، وهو مؤلف برتغالي من القرن السادس عشر .

*** الأبيات الأولى من «لوزياد» كامويس الذي يستعيد أول بيت من اينياد فرجيل .

يتحمل المطر بصورة أفضل بكثير ، وكان رجل الفن على صواب ، فعندما خلع ريكاردو ريس جذائيه في غرفته ، كانت قدماه دافئتين وجافتين ، القدمان دافئتان والرأس بارد ، لا يلزم المرء اكثر من ذلك ليكون في صحة جيدة ، وحتى حين لا تسلم الكلية بهذه المعارف الاختبارية ، فلا يخسر المرء شيئاً من تطبيقها . الفندق صامت كلياً ، لا يخبط أي باب ، لا يدوي أي صوت ، الجرس أبكم ، والشيء الاستثنائي هو أن المدير سلفادور ، ليس في الاستقبال ، بيمنتا الذي ذهب ليجلب المفتاح يتحرك بخفة جني صغير ولاماديته ، الصحيح هو أنه لم يحمل أية أمتعة منذ الصباح ، عبثاً يقال ، فهذا يؤثر .

عندما نزل ريكاردو ريس ليتعشى ، حوالي التاسعة كما كان قد وعد نفسه ، وجد الصالة فارغة ، الخدم الذين كانوا يثرثرون في احدى الزوايا ، نشطوا قليلاً عندما ظهر سلفادور ، كما يجدر ان يفعل المرء عندما يظهر شخص أعلى مرتبة ، وهكذا ، إذا كان الجسم يستند ، من قبل ، إلى الساق اليسرى فيكفي تحريكه الى اليمين ، لا يلزم اكثر من ذلك ، بل وأقل منه احياناً ، سأل الزبون المتردد ، هل استطيع أن أتعشى ، بالطبع ، لقد كانوا هنا من أجل ذلك ، كان سلفادور أول من أخذ في الشرح يجب أن لا يقلق السيد الدكتور ، انه آخر يوم في السنة ، أقل الأيام زبائن ، عندما يكون هناك زبائن فإنهم يتعشون خارجاً ، انه الريڤيون* ، أو بصورة أصح ، الريڤيلون ، هذه هي الكلمة التي استعملها ، في السابق كان العيد يجري هنا في الفندق ، ولكن المالكين وجدوا ان هذا كان يكلف غالياً ، أنه كان يخل بتنظيم الخدمة ، وباختصار انه كان مهمة شاقة ، دون الحديث عن الاضرار

---

* Reveillon ، وردت بالفرنسية في النص وتعني عشية عيد الميلاد أو رأس السنة .

التي يسببها سكر الزبائن ، أنت تعرف كيف تجري الأمور ، يشرب المرء كأس بيرة ثم كأسين ، وينتهي الى ان لا يسمع نفسه ، انها الضجة ، الهياج ، شكاوى الذين لا يحبون الضحك ، هناك من هؤلاء دائماً ، وأخيراً الغيت الريفيليون ، ولكني آسف عليها ، صدقني ، كانت سهرة رائعة تعطي الفندق سمعة أناقة وحداثة ، في حين أنه الآن ، أنت ترى ، صحراء حقيقية . قال ريكاردو ريس ليعزيه ، ما أهمية ذلك ، سننام في ساعة أبكر ، وأجاب سلفادور ، هل تظن ذلك ، التقليد الأسري ، لدي ، نريد ان نصغي الى دقات منتصف الليل الاثنتي عشرة آكلين اثنتي عشرة حبة من العنب ، حبة لدى كل دقة ، سمعت ان هذا يحمل الحظ في السنة الجديدة ، في الخارج هذا يجري كثيراً . إنها بلدان غنية ، اتعتقد أن هذا يجلب الحظ حقاً ، لا استطيع ان أقارن ، اذا لم آكلها ، فربما كانت السنة الجديدة أسوأ أيضاً . هذا هو أحد الأسباب الذي من أجله يبحث من لا يؤمن بالله عن الآلهة ، ويخترع الله من تخلى عن الآلهة ، ذات يوم سنتحرر من هذا وأولئك . ارتاب في ذلك . هذا الجواب المبدى على حدة ، أطلقه أحدهم قبل بضع لحظات أو بعدها ، ولكن ليس هنا ، في هذا الفندق ، لا تمارس مثل هذه الحريات مع الزبائن المحترمين .

ريكاردو ريس تعشى مخدوماً من مستخدم واحد ، رئيس الخدم المزروع كديكور في آخر القاعة ، كان سلفادور قد استقر في الاستقبال ، يقتل الوقت الذي يفصله عن سهرته الشخصية ، بيمنتا اختفى ، أما الخادمات ، فقد عدن دون شك الى سقيفاتهن ، اذا كانت موجودة ، ولكن الأكثر احتمالاً هو انهن موجودات في التخشيبات يرتشفن ، في انتظار الساعة ، مشروبات مسكرة مصحوبة بقطع حلوى صغيرة جافة ، ما لم يكنّ قد عدن ، ببساطة ، الى بيوتهن تاركات مناوبة ، كما في المستشفيات ،

أما بالنسبة للمطبخ ، فهو يشبه قلعة جرى الجلاء عنها . هذه مجرد افتراضات ، الزبون لا يهتم الا قليلاً جداً في معرفة كيف يعمل الفندق من الداخل ، ما يهمه هو أن تكون غرفته نظيفة ، ان تقدم الوجبات في موعدها ، انه يدفع ، ويريد ان يعامل جيداً . لم يكن ريكاردو ريس يتوقع ان توضع امامه ، في برهة الجلوس ، شطيرة كبيرة من حلوى الملوك ، ان مجاملات من هذا النوع هي التي تجعل من الزبون صديقاً ، الخادم ابتسم بطيبته المألوفة ، وقال ، يوم الملوك سيكون دورك في الدفع يا سيدي الدكتور ، حسناً يا رامون ، فليأت يوم الملوك* ، ولكن رامون لم يفهم لعبة الكلمات . لم تصبح الساعة العاشرة بعد ، الزمن يجر قدميه ، السنة القديمة تقاوم . نظر ريكاردو ريس الى الطاولة التي رأى عليها ، منذ يومين ، الدكتور سامبايو وابنته مرساندا ، واستولى عليه حزن مبهم ، لو كانا هنا اليوم لاستطاعوا أن يتناقشوا ، الفرصة سانحة بشكل رائع ، فهم الزبائن الوحيدون في ليلة النهاية والاستئناف هذه . يرى من جديد الحركة المؤثرة للفتاة وهي تمسك بيدها الجامدة ، يدها الصغيرة الثمينة ، لتضعها على الطاولة ، أما بالنسبة للأخرى ، السليمة الرشيقة ، فهي تساعد اختها ، ولكن لها حياتها الخاصة بها ، انها مستقلة ، لا تستطيع ان تساعدها دائماً ، انها ، مثلاً ، التي تصافح الأيدي عند التعارف ، مرساندا سامبايو ، ريكاردو ريس ، اليد اليمنى للدكتور ، اليد اليمنى لفتاة كوامبرا ، تستطيع يد ريكاردو ريس اليسرى ان تقترب ، اذا ارادت ، وتشارك في اللقاء ، ولكن يدها اليسرى ، من جهتها ، ستستمر في وضعها على طول الجسد ، بالضبط ، كما لو لم تكن موجودة . أحس ريكاردو ريس بالدموع تصعد الى

* لعبة كلمات تستند الى الجناس بين bolo rei (حلوى الملوك) و reis التي تعني (الملوك) .

عينيه ، ومع ذلك فإن بعضهم مازال يغتاب الأطباء ، يتهمهم بأنهم ذوو قلوب جافة لأنهم ألفوا المرض والمصائب ، الا أن هذا يكذب التأكيد ، لأنه شاعر دون شك ، ولو كان من النوع الريبي ، كما سبق وأمكن لنا أن نتبين ذلك . تاه ريكاردو ريس في تأملاته ، وبعضها يصعب صعوبة خاصة ان يوضح للذين ، مثلنا ، لا يشاطرونه إياها ، ورامون الذي يعرف تماماً كيف يميز هذه عن تلك يسأل ، أتريد شيئاً آخر يا سيدي الدكتور ، الصيغة مهذبة ، ومع ذلك فهي تعني عكس ما يفهم تماماً وتلتمس إجابة سلبية . نفهم بعضنا بعضاً تماماً دائماً ، انصاف الكلمات تكفي ، نهض ريكاردو ريس ، تمنى ليلة طيبة وسنة سعيدة لرامون ، كرر تمنياته ، وهو يمر أمام الاستقبال ، متوجهاً الى سلفادور ، وهو ما يكاد يفخم التحية والتمنيات الطيبة ، الشعور هو نفسه ، التعبير وحده اصرح ، لأنه المدير أخيراً . صعد ريكاردو ريس المتعب ببطء ، شبيهاً بشخصية كوميديا من الدرجة الثانية ، أو شخصية احدى هذه الرسوم التي ترى فيها السنة القديمة المغطاة بالجليد والشعور البيضاء تختفي ، في حين ان السنة الجديدة السمينة كالأطفال الذين يتغذون بالدقيق الملبن تقترب في أشعة نور ، كما لو كانت تدعونا الى رقصة ساعات ، وتصرح بلهجة طفلية ، أنا عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثون ، تعالوا معي ، أنا أجلب السعادة . دخل غرفته وجلس ، سريره مكشوف ، ماء الإبريق ، الماء الذي يروي ضروب الظمأ الليلية ، قد بدل ، الخفان على السجادة ، أحدهم يسهر علي ، أيها الملاك الطيب ، شكراً . رنين صفيح يصعد من الطريق ، دقت الساعة الحادية عشرة منذ قليل ، عند ذاك ، فجأة ، نهض ريكاردو ريس ، نهض بعنف تقريباً ، ماذا أفعل هنا ، في حين يتسلى الجميع ويلهون ، في بيوتهم وفي كل مكان ، في الطرقات ، في المراقص ، في المسارح ، في الكازينوهات ، في الملاهي ، استطيع على

الأقل ان أمضي حتى روسيو* لأشاهد ساعة المحطة المركزية ، عين الزمن ، العملاق ذا العين الواحدة الذي لا يلقي بحجارة بل بدقائق وثوانٍ ، ثقيلة وقاطعة هي أيضاً ، ينبغي ، مثل كل الناس ، ان تصل إلي أنا أيضاً ، حتى تجعلني الأخيرة ، وقد أضيفت الى السابقة ، انتقل من الحياة الى الموت ، ولكن أن أجلس هكذا ، انظر الى الساعة ، كلا ، لن أبقى جالساً هكذا منطوياً على نفسي ، وما ان انتهى من هذه المناجاة حتى ارتدى معطفه واعتمر قبعته وسحب مظلته بقوة ، انه رجل آخر ، لقد اتخذ قراراً . كان سلفادور قد رحل ، انه دون شك في بيته من قبل ، بيمنتا هو الذي سأله ، هل تخرج يا سيدي الدكتور ، بيمنتا رافقه حتى المنبسط ، عندما تعود يا سيدي الدكتور ، اضغط مرتين على الجرس ، ضغطة قصيرة وأخرى طويلة ، سأعرف انك أنت . هل ستبقى مستيقظاً . أنام بعد منتصف الليل ، ولكن لا تنشغل من أجلي يا سيدي الدكتور ، ارجع عندما تريد . سنة طيبة يا بيمنتا ، فلتحمل إليك السنة الجديدة الازدهار يا سيدي الدكتور ، لم يضيفا شيئاً الى كلمات بطاقات التمنيات هذه ، ولكن ريكاردو ريس تذكر ، عندما وصل الى اسفل الدرج ، ان العادة جرت على اعطاء شيء لصغار المستخدمين في هذه الحقبة من السنة ، انهم يعولون كثيراً على ذلك ، على كل حال ، لست هنا الا منذ ثلاثة أيام ، مصباح الوصيف الايطالي انطفأ ، لقد نام .

الطريق مبلل وزلق ، السكتان تبرقان ، الى اليمين ، في أعلى شارع اليكريم ، أية نجمة ، أية طيارة قوس تجمعهما في هذه النقطة الدقيقة من اللانهاية التي تعلمنا المدرسة ان المتوازيين يلتقيان فيها ، يجب ان تكون واسعة جداً ، هذه اللانهاية لتحتوي على هذا المقدار من الأشياء ، من كل

---

* الاسم الشائع لميدان دون بدرو الخامس ، اكثر ميدان في ليشبونة امتلاء بالحياة .

الأبعاد ، المتوازيات والخطوط البسيطة ، الخطوط المنحنية وتلك التي تتصالب ، الترامواتيات التي تصعد على طول السكتين ، الركاب داخل الترامواتيات ، النور في عيني كل واحد ، صدى أقوالهم ، حفيف أفكارهم الذي لا يُسمع ، الصفير الذي يصعد نحو نافذة ، اذن هل تنزل ، نعم ام لا ، أجاب صوت من الأعلى ، الوقت ليس متأخراً جداً ، صوت رجل أو امرأة ، لا أهمية لذلك ، سوف نلقاه في اللانهاية . هبط ريكاردو ريس الشيادو وشارع دوكارمو ، كثير من الناس كانوا يفعلون مثله ، جماعات ، أسر ، رجال وحيدون خاصة ، أولئك الذين لا ينتظرهم أحد في البيت أو الذين يفضلون ان يكونوا خارجاً في نهاية السنة هذه التي ربما ستمر فوق رؤوسهم ورؤوسنا ، كخط نور ، حدود ، وسوف يقال اذ ذاك ان المكان والزمان ليسا سوى شيء واحد ، هناك أيضاً النساء اللواتي أوقفن لساعة سعيهن البائس ، منحن أنفسهن هذه الوقفة ليكنّ حاضرات في حال ما اذا أعلن عن عهد جديد ، ولمعرفة النصيب الذي يعود اليهن والتحقق من ان الأمر يدور حقاً ، هنا ، حول حياة اخرى . على جوانب المسرح القومي ، كان الروسيو مزدحماً . هطلت زخة قصيرة ، فتحت المظلات التي كانت تلمع كهياكل حشرات ، يخيل للمرء أنه جيش يتقدم تحت حماية دروع ممتشقة فوق الرؤوس ، ويريد ان يقتحم قلعة لا مبالية . نجح ريكاردو ريس في ان يشق لنفسه درباً وسط الجمهور الذي كان أقل كثافة مما يظن من بعيد ، في هذه الأثناء توقفت المطر وانغلقت المظلات من جديد كطيور حطت وتهز اجنحتها قبل الراحة الليلية . أنوف الجميع مرفوعة في الجو ، العيون مثبتة على ميناء الساعة الأصفر . وصلت مجموعة فتيان من شارع بريميرو ديزمبرو ، كانوا يطرقون على أغطية قدور ، بوم ، بوم ، بوم ، أو يصدرون صفرات ثاقبة . داروا حول الميدان ، مروا أمام المحطة ، وأخذوا مكاناً لهم تحت قناطر

المسرح مستمرين في الصفير والخبط ، أضيفت هذه الضجة الى ضجة الخشخيشات التي كانت تدوي عبر الفناء ، را ، را ، را ، مازالت هناك أربع دقائق قبل منتصف الليل ، الرجال الحريصون جداً ، عادة ، على الزمن القصير الذي بقي لهم في الحياة ، الذين يشكون دائماً من قصر الحياة ، التي لا تترك في الذاكرات سوى بقبقة زبد ، في غاية الإثارة حالياً ، بقدرة أمل لا يقاس ، وفارغو الصبر الى رؤية هذه الدقائق الأخيرة تطير . بعضهم ، وكان بالغ العصبية ، كان يصرخ من قبل ، وزاد الصخب أيضاً حين سمع ، من النهر ، دوي الخوار الأجش للسفن الراسية ، ديناصورات يقلب صوتها الكهفي ، قبل التاريخي ، المعدة ، ثم عويل الصفارات الجارحة بمقدار عويل حيوانات تذبح ، وأخذت السيارات المارة عن قرب في التزمير ، كلها معاً ، كالمجانين ، وهاجت أجراس الترامواي محمومة دون ان يصدر عنها الكثير ، وأخيراً ، غطى عقرب الدقائق عقرب الساعات ، انه منتصف الليل ، انفجر الفرح ، برهة وجيزة ، الزمن اطلق سراح البشر ، ها هم أحرار ، أما بالنسبة إليه ، وهو مجرد مشاهد ، ساخر ومتعاطف ، فإنه كان ينظر اليهم يتعانقون ويقبّلون بعضهم بعضاً ، كما تشاء المصادفة ، معروفين ومجهولين ، يتبادلون قبلاً لا مستقبل لها ، وهي الأفضل بالتالي . اكتسح صخب الصفارات المكان الآن ، على واجهة المسرح ، اهتاج الحمام ، بعضها كان يرفرف بأجنحته وقد طاش صوابه ، الا انه لم تنقض دقيقة قبل ان يكون الصوت قد تلاشى فعلاً ، وبدا على السفن انها تبتعد الى عرض النهر وتضيع في الضباب ، الواقع انه يجب ان يوجد هنا ، في حجرة معدة لهذا الغرض ، الدون سيباستيو* ، الفتى المقنّع الذي ينتظر مجيء كرنفال ، ما لم يكن قد

* ملك البرتغال (القرن السادس عشر) الذي اختفى مع جيشه في «القصر الكبير» لدى معركة مع المغاربة . لم يعثر على بقاياه قط ، وهو ما ولّد اسطورة السيباستانية .

نقل ، وهي حالة يجب عندها اعادة تأمل أهمية السيباستانية ودروبها ، ربما سيأتي الديزيجادو* ، بضباب أو دون ضباب ، في قطار نعرف ان مواعيده لا تُحترم أبداً . كانت تجمعات ما تزال تتيه في الروسيو ، ولكن الهياج هبط فجأة وغادر الناس ، عارفين بما سيحصل ، الأرصفة ، عند ذلك بدأت الأقذار تمطر من الطوابق العليا ، انه التقليد ، هذه البنايات بريئة مع ذلك ، يعيش فيها قليل من الناس ، معظم الشقات قد تحولت الى مكاتب أو الى عيادات أطباء . غطيت الأرض ، من أعلى شارع دو أورو الى أسفله ، بالبقايا ، كانت ماتزال تلقى من النوافذ خرق ، علب فارغة ، أشياء قديمة ، فضلات طعام وضلوع ملفوفة في ورق جرائد تنتشر على الأرصفة ، جرّة صغيرة ملأى بالرماد المحرق تحطمت وسط حزمة من الشرارات ، والناس الذين يمرون ملتصقين بالبنايات ويحتمون في ظل الشرفات يصرخون ورؤوسهم مرفوعة نحو الأعلى ، دون احتجاج مع ذلك ، على كل واحد أن يحمي نفسه كما يستطيع ، هذا هو العرف ، وفي ليلة العيد هذه ، لم يوجد شيء آخر للتعبير عن الفرح . كان يلقى أيضاً بكل ما لم يعد ينفع في شيء ، حوائج أصبحت غير مفيدة ، لا تستحق عناء بيعها ، واحتفظ بها لهذه المناسبة ، كتعزيمات ، الوفرة ستأتي مع السنة الجديدة ، ويجب أن يكون المكان خالياً للأشياء الجيدة التي سوف تأتي ، شريطة أن لا يكون المرء قد نُسي بالتأكيد . أحدهم صرخ من أعلى بناية ، تكوّن لديه هذا الحذر ، هذا المساء ، انتبهوا ، الأشياء تهبط ، وذلك في حين كانت كتلة هائلة تنهال ، راسمة قوس دائرة ، كادت ان تصطدم بأسلاك الترامواويات الكهربائية ، يا له من جنون ، لو انحرفت قليلاً لوقع الحادث ، الشيء انسحق بعنف على

* اسم أعطي لدون سيباستياو ويعني «المرغوب» .

الحجارة ، أنه مانكان طوله ثلاثة أقدام ، أحد المانكانات التي تستخدم لسترات الرجال أو لأثواب النساء عندما يكنّ بدينات ، البطانة السوداء تمزقت ، والخشب المنخور الذي انشق هكذا بتأثير الصدمة لا يكاد يشبه جسما ، فينقصه الرأس ، ولم تعد له ساقان ، صبي كان ماراً قذف به ، بقدمه ، في القناة ، غداً ستمر العربة وتحمل كل شيء ، الأوراق والقشور ، الخرق الوسخة ، أواني المطبخ التي لا يمكن اصلاحها ، مشواة دون قعر ، اطار محطم ، زهور من قماش ذهب رونقها ، سرعان ماسيأتي المتسولون لينبشوا في القاذورات ، يوجد دائماً شيء يستعاد ، ما كف عن ان يخدم بعضهم مازال حيوياً بالنسبة للآخرين .

عاد ريكاردو ريس الى الفندق . كان العيد ، في كل مكان في المدينة مستمراً بأنواره ، بخمرته الفوارة ، بالشمبانيا الحقيقية أحياناً ، وكل هذه الحركة الهاذية التي لن يفوت الصحف ذكرها ، توجد أيضاً نساء سهلات وأخريات أقل سهولة ، واذا كانت الأولى مباشرات ومنطلقات ، فإن الأخريات لا يزدرين بعض طقوس التقرب ، ليس في رجلنا شيء من الساعي وراء التنانير ، واذا كان يعرف هذا ، فذلك انه قد سمع عنه ، لأن المرات النادرة التي جرب فيها ، فيما يتعلق به ، حظه ، كانت خسارة خالصة . مرت جماعة تغني نشازاً وصاحت به ، عيد سعيد أيها الكهل الصغير ، ورد عليهم باشارة من يده ، ما فائدة الكلام ، كانوا قد ابتعدوا من قبل ، وكانوا أصغر مني بكثير . تخطى القاذورات المنتشرة على الرصيف ، والتف على علب مقلوبة ، وكان الزجاج المكسور يصدر صريراً تحت قدميه ، لماذا لم يطوحوا بالمسنين من النوافذ ، في الوقت نفسه مع المانكان ، فبعد كل شيء ، ليس الفرق كبيراً الى هذا الحد ، وبعد عمر معين ، لا يبقى للمرء كل عقله ، والقدمان لا تعودان تعرفان ، أين تحملنا ، نحن دون دفاع كالأطفال

الصغار ، ولكن أمنا قد ماتت ، والرجوع اليها ، الى المنشأ ، الى هذا العدم الذي كان يسبق المنشأ مستحيل ، ومع ذلك فالعدم موجود ، انه يسبقنا ، نخرج منه ، فدخولنا العدم ليس بعد الموت ، فعنه صدرنا ، وعندما سنموت ، ونحرم من الشعور ، سوف نستمر في الوجود . لقد كان لكل منا أب وأم ، ولكننا ابناء المصادفة والضرورة ، هذا ما فكر فيه ريكاردو ريس ، ومهما يكن معنى عبارته ، فعلى عاتقه يقع أمر تفسيرها .

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل بقليل ، لم يكن بيمنتا قد نام بعد . نزل ليفتح الباب ، وهتف قائلاً ، ها أنت قد عدت ، الم تلهُ . أحس بالتعب ، أنا نعسان . لم تعد نهايات السنة هذه كما كانت . كلا ، بالفعل ، البرازيل هي التي يكون الأمر جميلاً فيها ، تبادلا عبارات المناسبة هذه وهما يصعدان الدرج ، وعلى المنبسط ، أستأذن ريكاردو ريس . الى الغد ، وباشر في صعود القسم الثاني من السلم . أجاب بيمنتا قائلاً ، ليلة سعيدة وأطفأ أنوار الطابق الأول ولم يدع سوى مصابيح الليل الصغيرة ، بعد قليل ، سيصعد الى الطوابق ليخفف الإنارة ، ثم سينام متأكداً من قضاء ليلة هادئة ، فلن يأتي أحد في هذه الساعة ، كانت خطوات ريكاردو ريس تسمع وهي ترن في صمت الممشى ، الصمت بلغ درجة تسمع معها ادنى ضجة ، لا أضواء في الغرف ، الناس نائمون او ان الغرف خالية ، في آخر الممشى ، كانت رقعة المائتين الصغيرة تلمع قليلاً ، في هذه اللحظة رأى ريكاردو ريس خطاً من النور يرشح من تحت الباب ، لقد نسي ان يطفيء الأنوار دون شك ، باه ، هذه أمور تحدث ، ووضع مفتاحه في القفل ، وفتح ، كان هناك رجل يجلس على الأريكة وعلى الرغم من أنه لم يره منذ سنوات فقد عرفه فوراً وكما لو لم يكن هناك أي شيء غريب في كون فرناندو بيسوا هناك ينتظره ، قال ، مساء الخير ، دون أن ينتظر جواباً ، ولكن اللامعنى لا يحترم المنطق

دائماً ، وأجاب زائره وهو يمد له يده ، مساء الخير ، وتعانقا . ما الذي صرت إليه ، طرح أحدهما السؤال ، أو طرحاه معاً ، ما أهمية ذلك ، الجملة عادية جداً . خلع ريكاردو ريس معطفه وخلع قبعته ، وأعاد اغلاق مظلته بعناية فوق المغسلة ، فيجب ان لا تقطر فوق الأرضية الملمعة ، ولمزيد من الأمان ، جس أولاً الحرير الرطب ، لم يعد يقطر ، لم تمطر السماء على درب العودة . سحب عند ذلك كرسياً ، وجلس تجاه زائره ، لاحظ ان فرناندو بيسوا لم يكن مغطى كثيراً ، وهو تعبير برتغالي يعني انه لا يرتدي معطفاً ولا واقياً من المطر ، لا شيء يحميه من الطقس الرديء ، حتى ولا قبعة ، فقط بذلة سوداء بسيطة جداً ، وسترة ، وصدارة وسروال ، قميص أبيض وربطة عنق سوداء ، وكان حذاؤه وجورباه سوداء أيضاً ، انه اللباس الكلاسيكي لمن هو في حالة حداد أو لمن كانت مهنته هي ان يدفن الآخرين . تبادلا النظر ، كلاهما ، بمحبة ، سعيدين باللقاء بعد هذا الغياب الطويل ، وفرناندو بيسوا كان البادىء في الكلام ، علمت أنك زرتني ، لم أكن هناك ، قيل لي ذلك بعد عودتي ، وأجاب ريكاردو ريس قائلاً ، فكّرت في انك هناك ، كنت أظن انك لا تستطيع الخروج . شرح فرناندو بيسوا الأمر قائلاً ، في الوقت الحاضر ، مازلت أستطيع ، مازالت أمامي ثمانية أشهر أتجول فيها على هواي . سأل ريكاردو ريس ، ولماذا ثمانية أشهر ، وأوضح فرناندو بيسوا ، انه المقدار المضبوط ، المتوسط العام هو تسعة اشهر ، الزمن الذي نقضيه في بطون امهاتنا بالضبط ، انها مسألة توازن ، كما أظن ، قبل ولادتنا لا نُرى ، ولكنه يجري التفكير فينا كل الأيام ، وبعد موتنا ، لا نعود مرئيين ، ويزيد نسيان الناس لنا ، الا في حالات استثنائية ، قليلاً كل يوم ، تسعة أشهر تكفي من أجل النسيان الكلي ، والآن قل لي ما الذي أتى بك الى البرتغال ، سحب ريكاردو ريس محفظته من جيب سترته الداخلي ،

واخرج منها ورقة ، وبدأ حركة مدها الى فرناندو بيسوا الذي رفض وقال ، لم أعد أحسن القراءة ، اقرأها لي ، وقرأ ، توفي فرناندو بيسوا ، نقطة . أنا ذاهب الى غلاسغو ، نقطة . الفارو دو كامبوس . عندما تلقيت هذه البرقية ، قررت ان أعود ، شعرت بأن ذلك نوع من الواجب . لهجة الرسالة طريفة جداً ، انه اسلوب الفارو دو كامبوس نفسه ، الحد الأدنى من الكلمات ولكنها مع ذلك تنم عن متعة خبيثة ، ابتسامة تقريباً ، انها كل الفارو . كان لدي أيضاً سبب آخر ، اكثر انانية ، للعودة ، في تشرين الثاني ، فقد اندلعت ثورة في البرازيل ، وقع كثير من القتلى والمعتقلين ، خفت ان يتفاقم الوضع ، كنت متردداً بين ان ارحل أو أن لا أرحل ، ثم وصلت البرقية ، وقررت ، اجريت اختياري كما كان يقول الآخر . يا عزيزي ريس ، انت منذور للهرب من الثورات ، في عام ألف وتسعمائة وتسعة عشر هربت الى البرازيل بسبب ثورة أجهضت ، بسبب ثورة اخرى فشلت هي الأخرى احتمالاً . في الحقيقة لم أهرب من البرازيل ، وربما كنت قد بقيت فيها لولا موتك . اذكر اني قرأت شيئاً عن هذه الثورة خلال أيامي الأخيرة ، كانت من تدبير بلاشفة ، على ما اعتقد ، نعم ، كانوا بلاشفة ، بضعة رقباء ، وجنود ، من لم يمت منهم سُجن ، كل شيء جرى في يومين أو ثلاثة . هل خفت حقاً . نعم . هنا ، في البرتغال ، حدثت لنا بعض الثورات . علمت بذلك . أما زلت ملكياً . دون ملك . يمكن للمرء أن يكون ملكياً ولا يريد ملكاً . هذه حالتك . نعم ، تناقض جميل . ليس أكثر من تناقضات أخرى كثيرة توجّب علي أن أعيشها . أن تريد الرغبة مالا تستطيعه الإرادة . بالضبط ، اعلم ايضاً من أنت . هذا طبيعي تماماً .

نهض فرناندو بيسوا من على الأريكة ، وخطا بضع خطوات في الحجرة الصغيرة ، في الغرفة ، حيث وقف تجاه المرآة ، ثم عاد . انه لانطباع غريب

ان ينظر المرء الى المرآة فلا يرى فيها نفسه . الا ترى نفسك . كلا لا أرى نفسي ، أعلم أني آخذ في النظر الى نفسي ولكني لا أراها . ومع ذلك فإن لك ظلاً . ليس لي الا هذا . جلس من جديد وصالب بين ساقيه ، والآن هل ستبقى في البرتغال أم أنك ستعود الى بيتك . لا أعلم بعد ، لم أجلب معي سوى الضروري ، قد أبقى ، قد افتح عيادة وابحث عن زبائن ، وقد أعود أيضاً الى ريو ، لا اعلم ، في الوقت الحاضر ، أنا هنا ، وفي نهاية المطاف ، اعتقد أني عدت لأنك مت ، وبعد موتك كنت أنا الوحيد الذي يستطيع ان يملأ المكان الذي كنت تشغله . لا يمكن لأي حي أن يحل محل ميت . ليس أي منا حياً حقاً ، ولا ميتاً حقاً . أحسنت القول ، تستطيع ان تكتب حول ذلك قصيدة . ابتسم كلاهما ، سأل ريكاردو ريس اذ ذاك ، قل لي ، كيف عرفت أني نزلت في هذا الفندق . عندما يكون المرء ميتاً ، يعلم كل شيء ، هذه احدى المزايا ، أجاب فرناندو بيسوا . وكيف فعلت لتدخل غرفتي . كما يفعل كل الناس . انك لم تأت في الهواء ، ولم تعبر الجدران . يا لها من فكرة عابثة يا عزيزي ، هذه الأمور لا تقع الا في كتب الأشباح ، الموتى يسيرون على دروب الأحياء ، وفضلاً عن ذلك لا يوجد درب آخر ، انطلقت من برازيريس ووصلت الى هنا . كأي انسان فان ، صعدت الدرج ، فتحت الباب ، جلست على هذه الأريكة وانتظرتك . ولم يلاحظ أحد دخول مجهول ، لأنك ، أخيراً ، مجهول هنا . لا نُرى الا اذا أردنا حقاً . ولكني أراك . لأني أرغب في أن تراني ، ثم ، اذا فكرنا في الأمر جيداً ، من أنت . السؤال البلاغي الخالص لم يكن يقتضي جواباً ، ريكاردو ريس لم يقدم جواباً ، وفضلاً عن ذلك لم يكن قد سمع السؤال .

خيّم صمت ثقيل ، سمعت ، كصدى من عالم آخر ، ساعة المنبسط تدق الثانية . نهض فرناندو بيسوا . أنا ذاهب . الآن . لا تظن ان هناك ساعة

ثابتة لعودتي ، أنا حر ، صحيح أن جدتي تنتظرني ، ولكنها لم تعد تضايقني . إبق قليلاً أيضاً . الوقت متأخر ، وأنت في حاجة الى الراحة . متى تعود . هل تتمنى أن أعود . سيسعدني ذلك سوف نستطيع ان نتحدث ، أن نعيد عقد الصداقة بيننا ، لا تنسَ أني ، بعد ست عشرة سنة من الغياب ، لم أعد أعرف شيئاً عن هذا البلد . تذكر اننا لن نستطيع رؤية بعضنا الا لمدة ثمانية أشهر ، هذا كل شيء ، لم أمنح أكثر من ذلك . ثمانية أشهر مرئية منذ أول يوم حياة كاملة . سوف أعود منذ أن يمكنني ذلك . الا تريد أن نضرب موعداً ، أن نحدد يوماً ، ساعة ، مكاناً . ليس هذا على الأخص . اذن الى اللقاء ، يا فرناندو ، لقد أسعدتني رؤيتك . وأنا أيضاً يا ريكاردو . لا أعلم اذا كنت استطيع ان اتمنى لك سنة سعيدة ، تمنَّ ، تمنَّ ، لا يستطيع هذا أن يسبب لي أي سوء ، ليست هذه سوى كلمات ، كما تعلم . سنة سعيدة يا فرناندو ، سنة سعيدة يا ريكاردو .

فتح فرناندو بيسوا باب الغرفة وخرج الى الممشى . لم تُسمع خطواته وهو يبتعد . وبعد دقيقتين ، وهما الوقت اللازم لهبوط الدرجات العالية ، صفق الباب الخارجي ، رن الجرس رنة قصيرة . ذهب ريكاردو ريس الى النافذة . كان فرناندو بيسوا يبتعد في شارع اليكريم . كانت السكتان تلمعان ، وما تزالان متوازيتين .

يقال ان الجرائد تكتب عن قناعة ، دون ان تتلقى الأمر ، أو لأن أحداً قاد يدها عندما تبقى الاقتراحات والتلميحات دون جدوى ، فهي تروي اذن ، بلهجة الرباعيات ، انه عندما ستكون الدول الكبيرة في حضيض الاندحار ، فإن دولتنا ، الدولة البرتغالية ، سوف تبرهن عن قوتها وذكائها الاستثنائيين ، وهما انعكاسان للرجال الذين يحكمونها . هذه الأمم الدعية ، التي يخنقها الزهو ، سوف تنهار اذن ، وما من كلمة اخرى غير الاندحار لتدلنا كيف ستنهار وضمن أي تقصف قيامي . وفضلاً عن ذلك ، فهي تعيش في الخطأ ، ويقترب اليوم ، اليوم المشهود بين كل أيام حوليات هذا الوطن الذي لا يرقى أحد الى التساوي به ، الذي سيأتي فيه رجال الدولة من وراء الحدود حتى الأراضي البرتغالية ، ليلتمسوا المساعدة ، الرأي ، المعارف ، الدعم وزيت مصابيح الرجال البرتغاليين المتفوقين الذين يحكمون البرتغاليين ، أي أعضاء الوزارة القادمة التي تتشكل من قبل في المكاتب ، وعلى رأسها أوليفير سالازار ، لرئاسة الوزارة والمالية ثم ، وعلى مسافة يقتضيها الاحترام وبترتيب ظهور صورهم في هذه الصحف نفسها ، مونتيرو للخارجية ، بيريرا للتجارة ، ماشادو للمستعمرات ، أبرانشيز للأشغال

العامة ، بيتنكور للبحرية ، باشيكو للتربية ، رودريغز للعدل ، سوزا للحربية ، سوزاباسوس بالطبع ، سوزا للداخلية ، ولكن الأمر يدور هذه المرة حول باي دوسوزا ، وكل ذلك مكتوب بالتفصيل من أجل أن يعرف مقدمو العرائض بسهولة الى من يتوجهون ، ويجب أن نذكر أيضاً للزراعة دوك ، الذي لم تكن حبة قمح تستطيع لولاه أن تنمو وتتضاعف في أوروبا والعالم ، وفي قعر الدرج وبين قوسين ، لومبراليس للمالية ، دون أن ننسى اندراد للتعاونيات ، لأن وكيل وزارة يكفي لدولة جديدة وتعاونية مازالت في مستهل عمرها .

تقول الصحف أيضاً إن البلد ، جملة ، حصد ، بوفرة ، أفضل ثمار ادارة ونظام عام نموذجيين ، واذا كان يحق للمرء ان ينتقد هذا التصريح لأنه صادر عن واحد من جماعتنا ، فلنقرأ جريدة «جورنال دو جنيف» ، السويسرية ، التي تتوسع مطولاً ، وبالفرنسية ، وهو ما يزيد من سلطتها أيضاً ، حول ديكتاتور البرتغال المذكور اعلاه ، وتصفنا بأننا سعداء لأن لدينا حكيماً في السلطة . كاتب المقال على صواب تام ، ونحن نشكره من أعماق القلوب ، الا أنه يجب ان نسلم ، مع ذلك ، بأن باشيكو لن يكون أقل حكمة اذا صرح غداً ، وسيفعل ذلك دون شك ، بأن من المناسب اعطاء التعليم الابتدائي حقه ، وليس اكثر من ذلك ، دون الاستسلام لحكة المعارف ، لأنها حين تكون قبل أوانها لا تفيد شيئاً ، وأخيراً ، بأن التعليم المادي والوثني الذي يخنق أفضل الارادات ، أكثر افساداً للقلب بكثير من ظلمات الأمية ، وسوف يخلص باشيكو الى ان سالازار هو أعظم المربين في قرننا ، اذا لم يكن الادلاء بهذا التصريح بالغ الجرأة والجسارة ، من حيث انه لم ينقض سوى ثلث قرن فقط .

أياكم أن تظنوا ان هذه الأخبار ظهرت مجمعة على هذا النحو في صفحة

واحدة من الجريدة وان النظرة اعطتها ، حين اعادت قراءتها ، المعنى المنطقي والتكميلي معاً الذي يبدو أنها تملكه . هذه الأحداث ، هذه الأخبار عن اسبوعين أو ثلاثة متراصفة هنا كحجارة دومينو ، وباستثناء تعلق الأمر بنسخة ثانية ، وهي حالة تتخذ فيها وضعية اخرى ، فإنها الأحداث الهامة ، تلك التي نراها من بعيد . قرأ ريكاردو ريس الصحف الصباحية وهو يتذوق قهوته بالحليب ويقضم شرائح براغانسا المدهنة والهشة ، التناقض ظاهر فقط ، فتوارد المصطلحين قد يبدو غير مناسب ، وهذه احدى متع عصر آخر نسيت اليوم . نعرف من قبل الخادمة التي تجلب الفطور ، انها ليديا ، التي ترتب السرير ايضاً ، تنظف الغرفة ، وتتوجه الى ريكاردو ريس منادية إياه دائماً سيدي الدكتور ، هو من جهته يقول ليديا ، دون سيدة ، وبما انه حسن التربية فإنه لا يخاطبها دون كلفة بصيغة المفرد ، بل يقول لها ، بصيغة الجمع ، افعلي هذا ، اعطني ذاك ، وهذا الأدب يروق لها ، فهي غيرمعتادة على ذلك ، في العادة يخاطبونها بالمفرد على الفور ، فالزبون يعتقد ، لأنه يدفع ، ان المال يعطيه كل الحقوق ، الا ان هناك من يجب انصافه ، زبونة اخرى تعاملها باحترام ، الآنسة مرساندا ابنة الدكتور سامبايو ، ليديا . ليديا في حوالي الثلاثين من عمرها ، انها امرأة مكتملة وحسنة التكوين ، سمراء برتغالية ، اقرب الى القصر ، اذا كان من المهم الاشارة الى العلامات الخاصة ، الى الخصائص الجسدية لخادمة بسيطة لم تفعل ، حتى الآن ، شيئاً سوى تنظيف الأرضية وجلب الفطور ، وضحكت ، ذات مرة ، وهي ترى رجلاً جاثماً على ظهر رجل آخر ، في حين كان هذا الزبون يبتسم ، انه لطيف ولكنه يبدو حزيناً ، يجب ان لا يكون رجلاً سعيداً ، حتى ولو كان وجهه يشرق احياناً ، نوعاً ما كما تشرق هذه الغرفة المظلمة حين تدع الغيوم الشمس تمر ، وعندما يدخل وميض ليس هو وميض النهار الغرفة ، نور ليس

سوى ظل من نور ، وبما ان ليديا كانت في زاوية مناسبة ، فقد لاحظ ريكاردو ريس الشامة قرب ارنبة الأنف ، فكّر في ان هذا يناسبها جيداً ، ولم يعد يعلم ما اذا كان يفكر بالشامة ، أم بالمريول الأبيض ، أم بغطاء الرأس المنشى أم بالشريط المطرز الذي يلتف حول عنقها . نعم ، تستطيعين ان تأخذي الطبق .

كانت أيام ثلاثة قد انقضت ولم يعد فرناندو بيسوا . لم يكن ريس يقول لنفسه لقد حلمت دون شك ، وهو التفكير الطبيعي في هذا النوع من الظروف ، كان يعلم تماماً ان الأمر لم يكن كذلك أبداً ، وان فرناندو بيسوا بلحمه وعظمه ، بكل ما ينبغي ليقبِّل ويقبَّل ، جلس في هذه الغرفة ليلة رأس السنة ، وانه وعده بالعودة . لم يكن يشك في ذلك ، ولكن التأخير كان يستنفد صبره . كانت حياته تبدو له معلقة ، اشكالية . كان يقرأ الصحف بالتفصيل ليجد فيها تعليمات ، خيوطاً موجهة ، سطور خطة ، سمات وجه برتغالي ، وليس ذلك بقصد رسم لوحة للبلد ، بل بقصد اعطاء مادة جديدة لوجهه الخاص ، لصورته من أجل أن يستطيع ، وهو يمسك بها بين يديه ، ان يتعرف على نفسه ، هذا أنا ، وأنا هنا في الصفحة الأخيرة ، وقع على اعلان بسعة راحتي يدين يظهر في اعلاه ، الى اليمين ، فرير ، النقاش ، بمونوكل وربطة عنق ، وجه جانبي لميدالية ، وتحته ، وحتى أسفل الصفحة ، سيل من رسوم اخرى تمثل الأصناف التي تصنعها ورشاته ، الورشات الوحيدة التي تستحق وصفها بالعالمية ، مصحوبة بملاحظات تفسيرية ومسهبة ، من الصحيح جداً ان العرض للنظر هو القول ، بل ربما اكثر من القول ، باستثناء أنه لا يمكن ان يقال بالقدر نفسه فيما يتعلق بالنوعية ، الجيدة للسلعة التي تبقى من جانبها غير قابلة للبرهان ، شركة أسسها منذ اثنتين وخمسين سنة مالكها الحالي ، معلم نقّاش ، عاش حياة محترمة ودون لطخة ودرس ، كما

فعل ابناؤه ، سنوات عديدة في مدن اوروبا الرئيسية الفنون والتجارة الضرورية لمنشآتهم ، الفريدة في البرتغال ، التي تلقت ثلاث ميداليات ذهبية ، والتي تدور فيها ست عشرة آلة كهربائيةتساوي الواحدة منها ستين كونتوس ، وما تقدر عليه هذه الآلات حري بالأعجاب ، ولا ينقصها سوى ان تتكلم ، يا إله السموات ، ولكن هذا عالم ينتشر امام عيوننا . وبما أننا لم نولد مبكرين الى درجة تكفي لرؤية كل ما هو موجود على الأرض وفي السموات ينعكس على درع آشيل وسط حقول طروادة ، فلا يبقى لنا سوى ان نتأمل ، في ليشبونة ، هذا الدرع البرتغالي الذي تظهر عليه كل عجائب المنطقة الجديدة ، رقاع مرقمة للبنايات ، والفنادق والغرف والخزائن والعلاقات ، جلود لأمواس الحلاقة متربصة بالشفرات ، مقصات ، أقلام حبر بريش ذهبية ، مكابس وموازين ، أطباق زجاجية بأطر من نحاس منكل ، ثقابات للشيكات ، سدادات معدنية ومطاطية ، حروف مرصعة ، اختام لتعليم الغسيل وشمع للأختام ، فيشات للمصارف والشركات والمقاهي والكازينوهات ، حدائد لدمغ الماشية وعلب خشبية ومُدى ولوحات بلدية للعربات والدراجات ، خواتم ، ميداليات لكل الرياضات ، شارات لعمرات مستخدمي محلات الألبان والمقاهي والكازينوهات ، هذا نموذج محل ألبان نيقيا الذي يجب عدم الخلط بينه وبين نموذج محل ألبان الينتيجانا الذي لا يحمل مستخدموه شارات ، صناديق ، شعارات مرصعة تثبت فوق أبواب الشركات ، دبابيس لختم الرصاص والصفيح ، مصابيح كهربائية ، سكاكين بأربع شفرات وأشياء كثيرة أخرى أيضاً ، وشارات ومخارز ومطابع للنسخ ، وقوالب حلوى وقطع صابون والنعال المطاطية ، حروف وشعارات من ذهب ، أو فضة ، أو معدن لكل الاستعمالات ، قداحات ، ملاقط شعر ، الحجر والحرف لأخذ البصمات ، رقاع للقنصليات البرتغالية والأجنبية ، ورقاع كثيرة

أخرى ، لطبيب ، لمحام ، للسجل المدني ، ولد ، عاش ، مات ، رقعة للجنة القرية ، رقعة القابلة ، مسجل العقود ، ممنوع الدخول ، وكذلك خواتم صغيرة للحمام ، واقفال ، الخ... الخ... الخ... وبما ان الخ... ثلاث مرات هذه تضم كل ما بقي ، وهو ما يلمحون إليه ، فيجب أن لا ننسى أنها الورشات العالمية الوحيدة ، ولذلك تصنع فيها شبكات حديدية لمغارات المقابر ، النهاية ونقطة النهاية ، ما الذي يساويه ، بالمقارنة ، عمل هيفايستوس ، الحداد الالهي الذي نسي كلياً ، بعد ان قص العالم كله ورد الى درع آشيل ، ان يحتفظ بأصغر مكان ، مهما كان ضئيلاً ، ليرسم عقب المحارب المشهور ، وينقش عليه سمة باريس المؤثرة ، الآلهة نفسها تنسى الموت ، ولا عجب في ذلك ، أليست خالدة ، ما لم يدر الأمر حول فعل احساني ، حول ضباب يلقى به على العيون الفانية للبشر الذين يكفيهم ، ليكونوا سعداء ، ان لا يعرفوا المكان ، ولا الطريقة ولا الساعة . فرير ، نفسه ، إله ونقّاش أقسى بكثير ، يرينا المكان الذي ينتهي فيه كل شيء . هذا الاعلان متاهة ، شلة خيوط ، لوحة . ريكاردو ريس الذي ضاع في تأمله ترك القهوة بالحليب تبرد والزبدة على الشرائح تتجمد . انتبهوا أيها الزبائن ، ليس لهذه المؤسسة فرع ، احذروا من الذين يدعون أنهم وكلاؤنا أو ممثلونا ، انهم لا يسعون الا الى خداع الجمهور ، وهناك اختام معدنية لوضع علامات على البراميل ، واختام للمسالخ ، بحيث ان ليديا تأوهت حين دخلت لأخذ الطبق ، السيد الدكتور لم يحب هذا ، وأجاب بلى ، كان طيباً ، ولكنه أخذ في قراءة الجريدة وهذا ما أنساه . اتريد أن اجعلهم يحضرون لك شرائح جديدة ويسخنون القهوة . لاداع لذلك ، كل شيء جيد ، لم تكن لدي شهية قوية ، وفي هذه الأثناء ، كان قد نهض ، وكي يطمئنها ، وضع يده على ذراعها ، أحس بحرير الكم ، وحرارة الجلد ، ليديا خفضت ابصارها ، وخطت

خطوة جانباً ، صاحبتها اليد ، بقيا هكذا بضع ثوانٍ ، ثم ترك ريكاردو ريس ذراعها ، أمسكت بالطبق ، وحملته ، كانت الأواني الخزفية تتصادم حتى ليخيل الى المرء ان هزة أرضية قد حدثت وأن مركزها كان في هذه الغرفة ذات الرقم مائتين وواحد ، وبعبارة أدق في قلب هذه الخادمة التي تبتعد ، سوف يلزمها وقت لتهدأ ، ثم سوف تدخل الى غرفة الخدمة وتضع الصحون ، ثم ستأتي يدها لتوضع في المكان الذي كانت فيه اليد الأخرى ، حركة رقيقة تبدو مستحيلة لدى شخص من هذا المستوى ، هذا ما يفكر فيه المرء حين يدع أفكاراً جاهزة ، مشاعر نمطية ، تقوده ، ربما كانت هذه هي الحال لدى ريكاردو ريس الذي كان ، في اللحظة نفسها ، يلوم نفسه بقسوة على كونه ترك نفسه يتصرف كأبله . ما فعلته لا يصدق ، خادمة ، وبما أنه لم يحمل طبقاً ولا صحوناً ، فحاولوا اذن ان تعرفوا لماذا أخذت يدا هذا الزبون ترتعش بدورها . المتاهات مصنوعة من طرقات ، من معابر ، من أزقة مسدودة ، بعضهم يقول ان أفضل وسيلة للخروج منها هي التقدم مع الانعطاف دائماً في الجهة نفسها ، الا انه يجب ان نكون جميعنا نعرف ان هذا معاكس للطبيعة البشرية .

خرج ريكاردو ريس الى الشارع ، شارع دو اليكريم كالعادة ، ثم سلك أول طريق يصعد نحو الأعلى ، نحو الأسفل أو نحو الجانبين ، ريمولاريس ، ارسنال ، فنتر اي كواترودوجولو ، هذه هي أول كرات المكب ، القماش ، بوافيستا ، كروسيفكسو ، ينتهي المرء بأن تؤلمه ساقاه ، العميان ليسوا وحدهم من يحتاجون الى عصا لجس الطريق أمامهم أو كلب ليتشمم الأخطار ، الرجل ذو البصر الجيد يحتاج هو نفسه الى نور من يسبقه ، الى اقتناع ، الى طموح أو ، اذا لم يتوفر ما هو أفضل ، الى شك . وها هو ريكاردو ريس ، مشاهد العالم ، الحكيم ، اذ دار الأمر حول الحكمة ،

الغريب واللامبالي نتيجة للتربية والاختيار ، يرتعش لأن مجرد غيمة قد مرت ، على وجه الاجمال ، ليس صعباً أن نفهم إغريق العصور القديمة ورومانهم الذين كانوا يعتقدون انهم يتحركون وسط آلهة ويعيشون في كل مكان ، في كل لحظة ، تحت رعايتهم ، سواء أكان ذلك في ظل شجرة أم عند نبع ماء أم في القلب الكثيف والصاخب لغابة ، أم على ضفاف البحر أو فوق الأمواج ، في الفراش مع المرأة المختارة ، البشرية ، أو الإلاهة ، عندما كانت هذه الأخيرة تريد ذلك حقاً . ما ينقص ريكاردو ريس ، هو كلب عميان صغير ، عصا ، ضوء يسبقه ، هذا العالم ، مدينة ليشبونة هذه هما ضباب مظلم يفقد فيه المرء الشمال والجنوب ، الشرق والغرب ، الدرب الوحيد الذي يمكن سلوكه ينحدر ، اذا لم ينتبه الإنسان الى نفسه ، فإنه يسقط الى الحضيض ، كما لو كان دون ساقين ولا رأس . ليس صحيحاً انه جاء من ريودوجانيرو عن جبن أو ، للتحدث بمزيد من الوضوح ، ومن أجل أن يذكر الشيء أخيراً ، عن خوف ، ولا لأن فرناندو بيسوا قد مات . لا شيء يستطيع أن يحل محل الشيء أو الشخص الذي رحل ، هذا معروف جيداً ، فرناندو أو البرتو ، كل منا فريد ولا يمكن إبداله ، هذا أمر متفق عليه بامتياز ، ولكننا عندما نقوله ، لا نعرف الى أي حد هو صحيح . حتى لو انبثق فرناندو بيسوا هنا في هذه اللحظة ، وانا أهبط شارع دالييرداد ، فإنه لن يكون فرناندو بيسوا ، ليس لأنه ميت ، بل لأنه لن يستطيع أن يضيف شيئاً الى ما كانه ، الى ما فعل ، الى ما عاشه وكتبه ، هذا ما هو خطير ونهائي ، واذا صدق فيما قاله في ذلك اليوم ، فإنه لم يعد ، منذ الآن ، قادراً على القراءة ، المسكين . فعلى ريكاردو ريس اذن ان يقرأ له هذا الخبر الآخر ، المنشور في مجلة ، مع صورته على ميدالية ، منذ أيام ، اختطف منا الموت فرناندو بيسوا ، الشاعرالشهير الذي عاش حياته القصيرة شبه مجهول

من الجماهير ، والذي بلغ عمله من الغنى بحيث يمكن انه كان يخفيه بحرص ، خشية ان يُسلب منه ، وعلى صورة عبقريات كبيرة أخرى اختفت اليوم ، سوف تنصف يوماً موهبته الساطعة ، نقاط تعجب ، أسوأ ما في الجرائد ، وهو ابن أمه ، أنها تظن ان كل شيء مسموح به لها وتمضي بالوقاحة الى درجة الطَرْق على رؤوس الناس بأفكار جاهزة ، كيف تجرؤ على القول ان فرناندو بيسوا ، كان يخبيء اعماله خوفاً من ان تسرق منه ، كيف تستطيع كتابة مثل هذه الغباوات ، وكان ريكاردو ريس يضرب بغضب حجارة الرصيف بطرف مظلته التي كان يستخدمها كعصا عندما لم تكن السماء تمطر ، لا يفلت الإنسان من الضياع لأنه يسلك الطريق القويم . وصل الى الروسيو وبدا له أنه وصل الى مفرق طرق ، الى ملتقى أربعة أو ثمانية طرق تؤدي كلها ، اذا سلكت واحداً منها بعد الآخر ، الى النقطة نفسها ، الى المكان نفسه ، اللانهاية ، لذلك لا جدوى ، حين تأتي الساعة ، من الاختيار ، فلندع هذا الأمر للمصادفة التي لا تختار هي الأخرى ، نحن نعلم ذلك جيداً ، بل تقتصر على الدفع ، مدفوعة بدورها بقوى نجهل كل شيء عنها ، وفضلاً عن ذلك ، فماذا كنا سنعلم لو كنا نعرف شيئاً . الأفضل هو أن نصدق هذه اللافتات المصنوعة دون شك في ورشات النقاش فرير العالمية ، التي تحمل اسماء أطباء ، ومحامين ، ومسجلي عقود ، وكلهم أناس لا غنى عنهم تعلموا أو علموا رسم ورود الرياح ، واذا صادف ولم يتطابق المعنى والاتجاه ، فليس لذلك أي نوع من الأهمية ، فيكفي هذه المدينة أن تعرف أن وردة الرياح موجودة ، ما من أحد مرغم على الرحيل ، ليس هنا محل انفتاح اتجاهات البوصلة ، ولا المكان الرائع الذي تلتقي فيه ، هنا ، أيضاً ، المكان الذي تُبدل فيه معناها واتجاهها ، المكان الذي يصبح فيه الشمال جنوباً والجنوب شمالاً ، الشمس توقفت بين الشرق والغرب ، المدينة كذب

موسوم ، محاصر بهزة أرضية ، كدمعة لا تنضب ولا تمسحها أية يد . فكّر ريكاردو ريس ، يجب ان افتتح عيادة ، ان أعود الى رداء الطبيب ، أن أصغي الى المرضى ، وحتى ولو لم يكن ذلك الا لتركهم يموتون ، فإنهم سيرافقونني طالما هم أحياء على الأقل ، سوف يكون ذلك عملهم الطيب الأخير ، كل منهم سيكون المريض الطبيب لطبيب مريض ، لا يمكن ان يقال ان هذه الأفكار هي أفكار كل الأطباء ، إنها تخص هذا الأخير لأسباب شخصية جداً ، مازالت لا تميز جيداً ، وأضاف ، أي نوع من الطب أمارس ، أين ولمن ، يظن أن أسئلة من هذه الطبيعة لا تقتضي شيئاً آخر خلاف إجابات ، هذا خطأ خالص ، لأننا اذا كنا نجيب دائماً بأفعال ، فبأفعال ، أيضاً ، نحن نسأل .

كان ريكاردو ريس يستعد لنزول شارع دوس ساباتيروس عندما لمح فرناندو بيسوا يراقبه ، واقفاً عند زاوية شارع سانتا جوستا ، دون فراغ صبر ، كما لو كان ينتظره . كان يرتدي بذلة اليوم السابق السوداء ، وكان عاري الرأس ولم تكن على وجهه ، وهو تفصيل لم يكن ريكاردو ريس قد لاحظه في المرة الأولى ، نظارتاه ، ويمكن ان نخمن لماذا ، فسوف يكون أمراً عابثاً وسقيم الذوق ان يدفن أحد مع النظارتين اللتين كان يستعملهما في حياته ، ولكن السبب مختلف مع ذلك ، ذلك أنه لم يتوفر الوقت لإعطائه أياً منها عندما طلبهما في لحظة موته ، قال اعطوني نظارتيَ ، ثم لم يعد يرى شيئاً ، ليس لدى المرء دائماً الوقت الكافي لتلبية رغباته الأخيرة . ابتسم فرناندو بيسوا وقال ، مساء الخير ، حياه ريكاردو ريس بدوره ، وتابع الاثنان طريقهما ، في اتجاه التيريرو دوباسو ، وبعد قليل ، بدأت السماء تمطر ، المظلة تحميهما ، وحتى لو كانت هذه المطر لا تهدد بتبليل فرناندو بيسوا ، فإن حركاته كانت حركات من لم ينس

بعد تماماً الحياة أو النداء الحار لسقف مشترك وقريب ، اقترب ، هناك مكان لإثنين ، يصعب ان يجيب ، لا ضرورة لذلك ، الأمر على ما يرام هكذا . سؤال كان يعذب ريكاردو ريس ، لو كان أحد ينظر إلينا ، فمن سيرى ، أنت أم أنا . أنه يراك ، أنت ، وبتعبير اضبط ، يرى شيئاً ليس أنت ولا أنا . المجموع الذي نمثله مقسوماً على اثنين . كلا ، أقول بالأحرى انه حاصل ضرب الواحد بالآخر . هذه العملية موجودة ، لا يضاف فردان ، مهما كانا ، الى بعضهما ، انهما يتضاعفان . المعلم يقول زيدوا وضاعفوا . ليس بهذا المعنى ، يا عزيزي ، هذا هو المعنى الضيق ، البيولوجي ، الذي يحتوي ، فضلاً عن ذلك ، على عدد كبير من الاستثناءات ، أنا ، مثلاً ، ليس لي أبناء . لا اعتقد أنه سيكون لي أبناء أنا الآخر . ومع ذلك ، فنحن متعددان . اتحدث ، في احدى قصائدي ، عن كائنات لا تحصى تسكننا . اذا كنت اتذكر جيداً ، فإن هذه القصيدة ليست من عصرنا . كتبتها منذ شهرين . كما ترى ، كل منا ، من جانبه ، يقول الشيء نفسه ، فقد كان من غير المجدي ، اذن ، ان نتضاعف . لو لم نكن قد تضاعفنا لما كنا نستطيع ان نتحدث على هذا النحو . محادثة قيمة ، بولية* ، مع استمرار هبوطهما شارع دوس سابا تيروس ، حتى الكونسيساو ، ثم يساراً نحو شارع أوغوستا ، وعلى خط مستقيم دائماً ، توقف ريكاردو ريس ، وسأل . نحن ندخل الى مارتينو** ، وقال فرناندو بيسوا بحركة خشنة ، سيكون ذلك أمراً ينقصه الحذر ، للجدران آذان وذاكرة جيدة ، سنعود الى هنا ذات يوم عندما لا أعود معرضاً لأن يتعرف

* ينسب ج . دوالمادا نيغريروس الى ف . بيسوا دور الرائد لثلاث تيارات تحدد أول حداثة برتغالية ، البولية ، التقاطعية ، والاحساسية .

** مارتينو ، مقهى ومطعم شهير في ليشبونة كان يرتاده ف . بيسوا وأصدقاؤه .

علي أحد ، انها مسألة وقت ، وقفا تحت القنطرة . اغلق ريكاردو ريس مظلته وقال دون ان يفكر طويلاً ، أفكّر في الإقامة ، في فتح عيادة . ألن تعود الى البرازيل . لماذا . الإجابة صعبة ، بل أني لا أعلم ما اذا كان هناك إجابة ، لنقل انني كالمسهد الذي وجد مكانه على الوسادة ، وأصبح أخيراً يستطيع ان ينام . اذا كنت قد جئت للنوم ، فهذه الأرض من أشد الأراضي ملاءمة لذلك . يجب ان أعكس مقارنتي ، وأقول إني اذا كنت أقبل النوم ، فذلك فقط كي ، استطيع ان أحلم . الحلم هو الغياب ، ينتقل المرء الى الجانب الآخر . ولكن للحياة جانبين ، بيسوا ، جانبين على الأقل ، والحلم وحده يقود الى الثاني .

أنت تتحدث الى ميت يستطيع ان يجيبك عن خبرة بأنه لا يوجد ، في جانب الحياة الآخر ، سوى الموت . لا أعلم ما هو الموت ، ولكني لا أعتقد انه الجانب الآخر للحياة ، كما تقول ، الموت ، في رأيي ، لا يمكن إلا أن يكون ، أنه لا يوجد ، أنه يكون . أليست الكينونة والوجود ، اذن ، الشيء نفسه . كلا ، يا عزيزي ريس ، ليسا الشيء نفسه على اعتبار اننا نستعمل مصطلحين مختلفين . ولكن الأمر على العكس من ذلك تماماً ، فنحن نستعلم هذين المصطلحين لأنهما ليسا الشيء نفسه . انهما هنا ، يتحدثان تحت القنطرة ، في حين كانت المطر تولد على أرض الشارع بحيرات صغيرة تتجمع فتشكل بحيرات أكبر تصبح مستنقعات ، بقاع مياه ، لن يكون هذا اليوم هو الذي يمضي فيه ريكاردو ريس حتى الرصيف ليرى تكسر الأمواج ، كان يتحدث عنها ، يذكر بأنه قد جاء الى هنا من قبل ، ولكنه ، عند القائه نظرة جانبية ، رأى فرناندو بيسوا يبتعد ، عند ذلك فقط لاحظ سرواله البالغ القصر ، كما لو كان يتنقل على عكازي بهلوان ، ثم سمع صوته ، قريباً منه تماماً على الرغم من كونه قد ابتعد من قبل . سوف نتابع هذه المحادثة في

مرة اخرى ، يجب ان اذهب الآن ، وكان ، فعلاً ، تحت المطر ، يلوح بيده دون ان يستأذن ، الى اللقاء .

السنة تمضي مع موكبها من الموتى ، لا فرق في أن يزيدوا واحداً او ينقصوا واحداً ، كل عصر يفعل ما يستطيع ، وهذا اسهل أحياناً بمساعدة الحروب والأوبئة ، أما باقي الوقت فهو الروتين ، الساعة المائية ، ولكن مثل هذا التراكم للموتى المواطنين والأجانب معاً ، في مثل هذا الوقت القصير ، ليس شيئاً بسيطاً ، دون الحديث عن فرناندو بيسوا الموجود فعلا هناك ، حيث لا يعرف أحد أنه يفلت منه ، من ليوناردو وكوامبرا ، مخترع الإبداعية ، وفال انكلان ، مولف أغنية لوبوس ، وجون جيلبرت الذي كان يمثل في الاستعراض الكبير ، ورودیارد كبلنغ ، شاعر «اذا» و«الأخير وليس الآخر» ، وملك انكلترا جورج الخامس ، الوحيد الذي ضُمنت خلافته . هناك مصائب كثيرة اخرى ، ولكنها أقل أهمية ، مثل هذا العجوز المسكين الذي دفنته العاصفة حياً أو أشخاص الألنتيجو الثلاثة والعشرين الذي نزلوا من السفينة ، وقد عضتهم قطة كلِبة ، سوداً كغربان تمزق ريشها ، المسنون ، النساء ، الأطفال ، هذه أول مرة يصورونهم فيها ، انهم لا يعرفون أين يوجهون نظراتهم ، عيونهم تتعلق بنقطة ما من الفراغ ، يائسين ، هؤلاء المساكين ، وليس هذا كل شيء . ما لا يعرفه السيد الدكتور هو أنه مات ، في مراكز هذه المقاطعة ، في تشرين الثاني من السنة الماضية ، ألفان وأربعمائة واثنان وتسعون شخصاً ، منهم السيد فرناندو بيسوا ، ليس هذا كثيراً ، انه لا شيء ، رقم طبيعي ، الأسوأ هو أن سبعمائة وأربعة وثلاثين منهم كانوا أطفالاً دون الخامسة من العمر ، عندما تبلغ النسبة المئوية في المراكز الثلاثين في المائة ، تصوروا ماذا يكون عليه الحال في القرى حيث القطط نفسها مصابة بداء الكلب ، يعزي المرء دائماً ،

أخيراً ، أن يقول لنفسه ان أغلبية ملائكة السماء الصغار برتغاليون . وعلى كل حال ، فالكلمات ليست عقيمة . فبعد تسمية الحكومة ، جاء الناس ، في جماعات صغيرة ، في حشود ، لتهنئة هؤلاء السادة الوزراء ، كل الناس يهرعون ، الأساتذة ، الموظفون ، ضباط الجيوش الثلاثة ، قادة الاتحاد القومي والمنتمون إليه ، النقابات ، مختلف الهيئات المهنية ، المزارعون ، القضاة ، الشرطة ، الحراس الجمهوريون والماليون ، الجمهور عامة ، وفي كل مرة ، يشكر الوزير ويرد بخطاب يتصف بوطنية حسب الطلب ، مكرسة لآذان من هم هناك ، المدّاحون يقفون بحيث يظهرون جميعهم في الصورة ، مداحو الصفوف الخلفية يمدون أعناقهم ، يرتفعون على رؤوس أصابع أقدامهم ، يراقبون من وراء كتف الجار ، سوف يقولون فيما بعد ، في بيوتهم ، للزوجة العزيزة ، هنا ، هذا أنا ، أما بالنسبة للذين في الأمام ، فهم يشدون صدورهم ، القطة الكلبة لم تعضهم ، ولكن لهم ، في ضوء الماغنيزيوم ، الصورة البلهاء التي كانت للكلبين السالف ذكرهم ، فالانفعال أفقدهم خيط المحادثة ، ولكن كلمة تجر أخرى ، ووزير الداخلية هو الآن الذي يقدم القدوة ، بهذه الكلمات التي تلفظ بها في مونتيمور ـ او ـ فيهوا ، لدى تدشين الإنارة الكهربائية ، هذا التقدم الهائل ، سأقول ، في ليشبونة ، ان الناس الطيبين في مونتيمور ـ أو ـ فيهوا أوفياء لسالازار ، نتخيل المشهد بسهولة ، نتخيل باس دو سوزا يشرح للحكيم ـ الديكتاتور ، أنه الاسم الذي منحته له جريدة «لاتريبون ذي ناسيون» ، ان الناس الطيبين في أرض فرنا ومنديس بينتو أوفياء ، جميعهم ، لسعادته ، وان هذا النظام قروسطي الى حد لا يمكن معه للعامة والعمال الا ان يستبعدوا من هذه الرعاية ، هم الذين لن يرثوا اية ملكية تحت الشمس والذين ليس لديهم بالتالي شيء من الطيبة ، ليسوا طيبين ولا بشراً ، انهم حيوانات شبيهون بتلك التي تعضهم ،

تلتهمهم ، تغير عليهم ، يجب ان يكون السيد الدكتور قد لاحظ من قبل من هم الناس الذين يشكلون شعب هذا البلد ، ونحن ، أيضاً ، في عاصمة الامبراطورية ، تذكر هذا الحشد الذي كان ينتظر ، في ذاك اليوم ، التوزيع أمام باب السيكولو ، واذا كان هذا لا يكفي ، فاذهب في جولة على الأحياء والخورانيات والكومونات ، وشاهد بعينيك توزيع الحساء ، حملة مساعدة الفقراء في الشتاء ، مبادرة ذات جمال خاص ، كما كتب ، في برقيته ، عمدة بورتو الذي نحتفظ له بأحسن ذكرى ، وقل لي ما اذا لم يكن من الأجدى تركهم يموتون ، كان ذلك سيوفر علينا هذا المشهد المخجل ، مشهد الناس الجالسين على حافة الرصيف يأكلون ويكشطون قصعاتهم ، هؤلاء الناس لا يستحقون النور الكهربائي ، يكفيهم ان يعرفوا الطريق الذي يمضي من الصحن الى الفم ، وهذا الطريق ، يجدونه ، حتى في الظلام .

داخل الجسم ، الظلام عميق أيضاً ، ومع ذلك فالدم يصل الى القلب ، الدماغ أعمى ويرى ، أصم ويسمع ، ليس له يد ويلمس ، الإنسان متاهة نفسه . في اليومين التاليين ، نزل ريكاردو ريس الي قاعة الطعام لتناول الإقطار ، ياله من رجل وجل ، خائف من نتائج حركة في بساطة وضعه يده على ذراع ليديا ، انه لا يخشى ان تكون قد ذهبت لتشتكي من جرأة هذا الزبون لأن ذلك لم يكن ، أخيراً ، شيئاً كبيراً ، حركة ، لا شيء اكثر من هذا ، ومع ذلك ، كان يحس ببعض القلق وهو يوجه الكلام ، من جديد ، الى المدير سلفادور ، ولكن ذلك كان جهداً ضائعاً ، فلم ير ، قط ، رجل أكثر لطفاً واحتراماً . في اليوم الثالث رأى انه مضحك ، فلم ينزل ، لعب دور الناسين وتمنى ان ينسوه . كان هذا يعني عدم معرفة سلفادور . ففي الدقيقة الأخيرة ، قرع الباب ، دخلت ليديا مع الطبق الذي وضعته على الطاولة ، وقالت ، نهارك سعيد يا سيدي الدكتور ، بأكثر ما هو طبيعي في العالم ،

الأمر هكذا دائماً تقريباً ، يعذب المرء نفسه ، يقلق ، يخشى الأسوأ ، يظن ان العالم سيحاسبه ، سيطلب أدلة ، والعالم بعيد فعلاً ، ويفكر في شيء آخر . إلا أنه ليس من المؤكد تماماً ان تكون ليديا جزءاً من هذا العالم ، ربما تركته وراءها ، منتظراً . كررت ، كما لو لم يكن هناك أي شيء ، الحركات المعتادة ، رفعت الطبق ، ابقته متوازناً ، ثم عادت الى الانتصاب ، رسمت قوس دائرة وابتعدت نحو الباب . يا إلهي ، هل سيتكلم ، نعم أم لا ، ربما لن يقول شيئاً وسيلمس ببساطة ذراعي ، كالمرة السابقة ، اذا حدث هذا ، فماذا سأفعل ، زبائن آخرون جرّبوا حظهم ، استسلمت مرتين ، لماذا ، لأن الحياة حزينة . قال ريكاردو ريس ، ليديا ، وضعت الطبق ، ورفعت عينين قلقتين ، حاولت ان تقول سيدي الدكتور ، ولكن صوتها بقي عالقاً في حنجرتها ، تلاشت شجاعتها ، كرر ، ليديا ، ثم ،كمغو مضحك وتافه بصورة بشعة ، تمتم ، اجدك جميلة جداً ، ونظر إليها لحظة ثم لم يستطع ان يتحمل المزيد ، فأدار لها ظهره ، هناك برهات يكون الموت فيها ، افضل . هل أنا المضحك الى هذا الحد في نظر الخادمات ، وأنت أيضاً ، يا الفارودو كامبوس ، كلنا جميعاً . اعيد اغلاق الباب بهدوء ، وقفة ، ثم خطوات ليديا تبتعد .

قضى ريكاردو ريس اليوم كله خارجاً ، يجتر عاره ، المخزي اكثر من أي عار آخر ، قرر ان يبدل الفندق منذ الغد ، ان يستأجر بضع غرف في شقة او ان يعود الى البرازيل على أول سفينة ، وهي نتائج دراماتيكية جداً من أجل مثل هذا السبب الصغير ، ولكن كلاً منايعرف أين يضربه الألم ، وكم يجرحه ، المضحك مثل حرق داخلي ، حامض يعاود النشاط كل لحظة ، جرح لا يشفى . عاد الى الفندق ، تناول طعام العشاء ، ثم عاد الى الخروج ، ذهب لرؤية فيلم «الصليبيون» في بوليتياما ، يا له من إيمان ، يا لها من

حماسة في المعارك ، كل هؤلاء القديسين ، كل هؤلاء الأبطال ، هذه الشعور البيضاء ، وعندما انتهى الفيلم ، هبت نفحة دين ملحمية على طول شارع أوجينيو دو سانتوس ، كان يخيل للمرء ان هالة كانت تحيط برأس كل مشاهد ، ومع ذلك ، مازال بعضهم يشك في كون الفن يحسّن البشر .

كان حادث الصباح المؤسف يستعيد بُعده الحقيقي ، يخف فعلاً . كنت مضحكاً اذ قلقت بهذا الشكل . وعندما وصل الى الفندق ، فتح له بيمنتا الباب ، لم تشهد قط بناية اكثر هدوءاً ، الخدم لا ينامون هنا طبعاً . دخل الى غرفته ، ودون أي تعمد نظر الى السرير . لم يكن كالعادة مكشوفاً في زاوية قائمة ، كان الشرشف والغطاء مرفوعين ، ولم تكن هناك وسادة واحدة ، بل وسادتان . لا يمكن ان يكون هناك اوضح من هذه الرسالة ، الا انه يجب ان يعرف الى أي حد يمكن تفسيرها ، ربما لم تكن ليديا هي التي رتبت السرير ، بل خادمة اخرى ظنت ان الغرفة مسكونة من زوجين ، نعم ، لنفترض ان الخادمات يغيرن ، دورياً ، طوابقهن ، سواء أكان ذلك لموازنة المنح ، أم لعدم خلق عادات أم أيضاً ، وابتسم ريكاردو ريس ، لتجنب كل رفع كلفة ، مع الزبائن ، أخيراً سنرى جيداً غداً ، اذا دخلت ليديا الى هنا بالإفطار ، فذلك يعني انها هي التي رتبت السرير بهذه الصورة ، وعند ذلك ، رقد ، أطفأ النور ، وأبقي الوسادة الثانية في موضعها ، واغمض أجفانه ، تعال أيها النوم ، تعال ، ولكن النوم لم يكن يأتي ، مر تراموايٍ في الطريق ، ربما كان الأخير ، من الذي لا يريد ان ينام فيّ ، الجسم القلق أم ما يقلق ، وهو ليس جسماً ، من أجل نفسه ، أأنا بكاملي أم القسم مني الذي يكبر ، لمن تنتمي أنت ، يا إلهي ، النوع من الأمور التي تحدث لرجل . نهض فجأة ، وفي الظلام ، يقوده النور المبثوث الذي يرشح من النوافذ فقط ، مضى يسحب زلاجة الباب ، ثم دفعه دفعاً خفيفاً ، يظن انه مغلق وهو ليس كذلك ،

يكفي ان تضغط اليد عليه قليلاً . عاد ليرقد ، ولدنات ، الرجل لا يترك عندما يريد شيئاً الصدفة تقرر ذلك ، يفعل كل شيء للحصول عليه ، عندما يرى المرء كيف فعل الصليبيون في زمانهم ، الحراب ضد السيوف العريضة ، الموت المحتمل ، والقصور ، والشعارات ، ثم دون ان يعود يعرف ما اذا كان ما يزال مستيقظاً أم انه نام من قبل ، فكّر في حزامات الطهارة التي كان الفرسان يحملون مفاتيحها معهم ، المخدوعون المساكين ، فتح باب الغرفة ثم اعيد اغلاقه بصمت ، ظل يتقدم متلمساً طريقه حتى حافة السرير ، يد ريكاردو ريس تتقدم وتلتقي يداً جليدية ، يجذبها اليه . ليديا ترتعش ، لا تعلم ماذا تقول ، أشعر بالبرد ، هو يصمت ، يتساءل ماذا كان يجب ان يقبّلها في فمها ، فكرة تدعو الى الرثاء .

الدكتور سامبايو وابنته يصلان اليوم ، هذا ما قاله سلفادور ، فرحاً كما لو كان قد وعد بجائزة مستحقة ، كنوتي يرى من مكتب في الاستقبال ، قطار كوامبرا يتقدم من بعيد ، في ضباب المساء ، تاتاتوم القليل من الأرض ، تاتا توم القليل من الأرض ، تناقض جميل في الواقع ، ذلك ان السفينة الراسية في المرفأ ، على حافة الرصيف ، هي فندق براغانسا ، والأرض تتقدم نحوها باصقة غيوماً من الدخان ، في كامبوليد ، تختفي تحت النفق وتنبثق مرة جديدة من الممر الضيق المظلم ناشرة بخارها ، مازال هناك متسع من الوقت لأن تستدعى ليديا ويقال لها ، اذهبي الى غرفتي الدكتور سامبايو والآنسة مرساندا وتحققي من أن كل شيء مرتب ، بالنسبة للغرفتين ، هي تعرف انهما المائتان واربع والمائتان وخمس ، دون ان يبدو عليها انها لاحظت وجود الدكتور ريكاردو ريس ، صعدت ليديا بسرعة الى الطابق الثاني ، كم من الوقت سيبقيان ، سأل الطبيب ، يبقيان ، عادة ، ثلاثة أيام ، بل انهما سيذهبان غداً الى المسرح ، حجزت لهما من قبل مكانيهما ، الى اي مسرح ، الى د . ماريا ، آه . هذا التعجب لا يعبّر عن المفاجأة ، لقد استعملناه لاختتام حوار لا يمكن ولا يراد له ان يتابع ، يجب

ان نعرف ، فضلاً عن ذلك ، ان الريفيين الذين يأتون الى ليشبونة ، وألف اعتذار إن لم تكن كوامبرا ريفاً ، يستفيدون من ذلك ليذهبوا الى المسرح ، الى حديقة ماير ، الى الأبولو ، الى الأفينيدا ، واذا كان الأمر يدور حول اشخاص رفيعي الذوق ، فإنه دائماً مسرح د . ماريا المسمى أيضاً القومي . انتقل ريكاردو ريس الى الصالة ، تصفح جريدة بحثاً عن البرامج ، عن اعلانات المسارح ، رأى تامار لألفريدو كورتيز ، وقرر فوراً أن يذهب إليه هو أيضاً ، البرتغالي الجيد يجب ان يعرف الفن البرتغالي ، كان على أهبة ان يطلب من سلفادور ان يحجز له مكاناً بالهاتف ، ولكن هاجساً استوقفه ، سيهتم هو نفسه بهذه القضية غداً .

بقيت ساعتان للعشاء ، اذا لم يتأخر قطار كامبرا سيصلون في هذه الأثناء ، ولكن ماذا يعنيني ذلك ، تساءل ريكاردو ريس وهو يصعد الدرج ليذهب الى غرفته ، وقال لنفسه انه من اللطيف دائماً ان يلقى المرء اناساً مختلفين ، اشخاصاً متعلمين ، وفوق ذلك ، فإن مرساندا حالة عيادية ذات أهمية ، ياله من اسم ، لم اسمع به قط ، يخيل للمرء انه تمتمة ، صدى ، ارتجاج قوس على الفيولونسيل Les sanglots longs de l'automne* ، تماثيل مرمر ، حواجز مفرغة ، شعر الشمس الغاربة والمكتئبة هذا يثير أعصابه ، مرساندا ، ما الذي لا نبحث عنه انطلاقاً من اسم بسيط ، مر أمام الغرفة مائتين وأربع ، الباب مفتوح ، وفي الداخل ليديا تمسح الغبار عن الأثاث ، التقت عيونهما ، ابتسمت ، اما هو فلا ، بعد لحظة كان في غرفته وسمع قرعاً خفيفاً على الباب ، انها ليديا التي دخلت متسللة وسألت ، أأنت غاضب ، ولم يكد أن يرد عليها ، بجفاء ، في ضوء النهار ، لا يعرف كيف

---

* زفرات الخريف الطويلة . بالفرنسية في الأصل ، وهو بيت من قصيدة لرامبو .

يعاملها ، انها خادمة ، يستطيع ، كماجن ، ان يداعب ، ردفيها ، ربما كان يمكن ان يتجرأ على مثل هذه الحركة من قبل ، ولكنه لم يعد يستطيع ذلك الآن وقد اتحدا ، قد ناما في السرير نفسه ، كان ذلك تشريفاً لنفسي ، لنا نحن الاثنين قالت ليديا ، سآتي هذه الليلة اذا استطعت ، ولم يجب ، الرسالة بدت له غير لائقة ، مع الفتاة المشلولة اليد التي ستكون هناك ، قريبة تماماً ، تنام جاهلة كل الأسرار الليلية للممشى والغرفة الأخيرة ، ولكنه سكت ، غير قادر على أن يقول لها بصيغة المفرد ، لأنه يخاطبها الآن بهذه الصيغة بالتأكيد ، لا تأتي . تمدد ، بعد ان خرجت ليديا ، على الأريكة ليستريح ، ثلاث ليال فائرة بعد تنسك طويل ، في أوج عمر حرج ، لا عجب في أن عينيه تغمضان نصف اغماضة . قطب حاجبيه قليلاً ، تساءل ، دون ان يجد جواباً ، ليعلم ما اذا كان يجب عليه ام لا ان يعطي مالاً لليديا ، ان يقدم لها هدايا ، جوارب ، خاتماً صغيراً ، هذه أشياء مصنوعة للذين يقضون حياتهم في الخدمة ، ليس ذلك كما لو كان يتساءل ما اذا كان يجب ان يقبلها في فمها ، الظروف هي التي تقرر ذلك ، نار الحواس كما يقولون ، في لحظة معينة ، دون ان يعرف كيف ، وجد نفسه آخذاً في تقبيلها ، كما لو كانت أجمل امرأة في العالم ، ربما يكون في مثل هذا بساطة حين سيستريحان ، سيقول لها ، اود أن أقدم إليك هدية ، وسوف تجد ذلك طبيعياً ، وربما تتعجب ، من قبل ، من تأخره .

أصوات في الممشى ، خطوات ، بيمنتا الذي يقول ، شكراً جزيلاً سيدي الدكتور ، ثم بابان يغلقان ، المسافران وصلا . بقي مستلقياً ، كاد ينام ، والآن يتأمل ، وعيناه محملقتان ، السقف بدقة ، كما لو كان يتابع باصبعه خطوط الجص المتعرجة ، تخيل فوق رأسه ، راحة يد الله ، التي يقرأ فيها الخطوط ، خط الحياة ، خط القلب ، حياة تتضاءل ، تتوقف ، تعود الى

الانبثاق ، وقد زاد رقة كل مرة ، قلب محاصر ، وحيد ، خلف الأسوار ، يد ريكاردو ريس اليمنى ، الموضوعة على الأريكة ، تنفتح وتكشف عن خطوطها الخاصة ، البقعتان في السقف كعينين ، هل نعرف من يقرؤنا عندما نقرأ ، ناسين انفسنا . النهار ترك ، منذ وقت طويل ، مكانه لليل ، انها دون شك ساعة العشاء ، ولكن ريكاردو ريس لا يريد ان يكون أول من ينزل . وماذا لو كانا قد خرجا من غرفتيهما دون ان انتبه الى ذلك ، يمكن ان اكون قد نمت دون ان ادري ولم أفهم ، عندما استيقظت ، اني اغمضت جفوني فقط ، وان أكون قد نمت قرناً ، انتصب قلقاً ، نظر الى ساعته ، جاوزت الساعة الثامنة والنصف ، في هذه اللحظة ، دوى في الممشى صوت رجل ، اني انتظرك يا مرساندا ، فتح باب ، سمع ضجات مبهمة ، خطوات تبتعد ، ثم ساد الصمت . نهض ريكاردو ريس ، ذهب الى المغسلة ليرطب وجهه ، ويتمشط ، بدا له عارضاه اليوم اكثر بياضاً ، يجب ان يستعمل أحد هذه المحلولات أو الصبغات التي تعيد ، تدريجياً ، الى الشعر لونه الطبيعي ، النامفادو مونديغو ، مثلاً ، مركّب معقد ومشهور لا يعود ، منذ ان يستعاد اللون الأصلي ، يوثر أو ، على العكس من ذلك ، يبقى مصراً حتى السواد العميق ، جناح الغراب ، اذا كان ذاك هو اللون الأولي . ولكن مجرد فكرة وجوب مراقبة الشعر كل يوم لتقويم تأثيرات المحلول او التساؤل عما اذا كان يجب استعماله من جديد ، ووجوب خلط اللون في الطشت الصغير امر يتعبه . توّجوني بالورود وكفى . بدّل سترته وسرواله ، يجب ان لا ينسى ان يطلب الى ليديا كيهما ، وخرج مع الانطباع البغيض ، الفظ ، بكونه سوف يصدر امراً بحيادية اللهجة التي تناسب من يأمر بصورة طبيعية من يطيعون بصورة طبيعية ، بقدر ما يكون الأمر والطاعة ، كما يقال ، طبيعيين أو ، بتعبير أدق ، لأن ليديا هي التي سوف ينبغي عليها أن تسخن المكواة ، وان

تمد السروال على اللوح لابراز طيته ، وتدخل يدها اليسرى في كم السترة ، قرب الكتف ، من أجل ان تستطيع المكواة ، وقد اقترنت بمحيطه ان تستدير به ، ومن البديهي انها ، وهي تقوم بهذه الحركات ، لن تستطيع ان يفوتها ذكر الجسد الذي تغطيه هذه الملابس ، اذا استطعت ، سوف آتي هذه الليلة ، وتكوي بقوة ، وحدها في غرفة الغسيل ، انها البذلة التي سوف يرتديها الدكتور ريكاردو ريس في المسرح ، ما الذي اعطيه كي ارافقه ، ايتها البلهاء ، ماذا تظنين ، وتمسح دمعتين لم توجدا بعد ، انهما دمعتا الغد ، في الوقت الحاضر ، ريكاردو ريس يهبط الدرج ، لم يقل لها بعد انه كان يريد ان تكوى بذلته ، وليديا لا تعرف بعد انها ستبكي .

كانت الطاولات كلها مشغولة تقريباً . توقف ريكاردو ريس عند العتبة ، جاء اليه رئيس الخدم وقاده ، طاولتك ، يا سيدي الدكتور ، كان يعرفها من قبل ، هنا يجلس دائماً ، ولكن الحياة لن تكون ما هي عليه دون طقوس من كل الأنواع ، الجثو للصلاة ، كشف الرأس لدى مرور العلم ، الجلوس ونشر المنشفة على الركبتين ، القاء نظرة متحفظة على الجوار لتحية الناس الذين يعرفهم المرء ، هذا ما يفعله ريكاردو ريس ، هذان الزوجان ، هذا الزبون الوحيد ، رأيتهم من قبل ، تعرّف أيضاً على الدكتور سامبايو وابنته مرساندا ، هما لم يتعرفا عليه ، نظر اليه المحامي شارداً ، كما لو كان ينقب في ذاكرته ، ولكنه لم يمل الى جهة ابنته ليقول لها ، حيي الدكتور ريكاردو ريس الذي وصل لتوه ، انها هي التي القت عليه ، بعد لحظة ، نظرة من فوق كم الخادم الذي كان يخدمها ، مرت حمرة خفيفة على وجهها ، لقد تعرفت عليه ، فكّر ريكاردو ريس ، واخيراً تذكرت ، وسأل رامون ، رافعاً صوته الى اكثر من الحد الضروري ، عما يوجد للعشاء . أمن أجل هذا السبب نظر اليه الدكتور سامبايو ، كلا ، قبل ثانيتين كانت مرساندا قد

قالت له ، هذا السيد ، هناك ، كان في الفندق في المرة الأخيرة ، ولذلك أبدى الدكتور سامبايو ، وهو يغادر طاولته ، هزة رأس لا تلمح ، وقلدته مرساندا ، ولكننا فعلت ذلك ، لأن مبادىء التربية الحسنة صارمة جداً ، بالطريقة الحذرة ، المتحفظة التي تناسب شخصاً من المرتبة الثانية . وللرد على تحيتهما ، نهض ريكاردو ريس قليلاً عن كرسيه ، يجب ان يكون المرء متزوداً بحاسة سادسة ليقوّم مثل هذه الدقائق في التصرف ، يجب على تبادل اللياقات ان يتوازن ، في هذه الحالة بالضبط ، جرى كل شيء بدرجة من التناغم يمكن ، حلها ، التفاؤل بمستقبل هذه العلاقة الوليد ، انسحب الاثنان ، ذهبا بالتأكيد الى الصالة ، مجرد افتراض ، ولكن كلا ، لقد عاد الى غرفتيهما ، يحتمل ان يخرج الدكتور سامبايو فيما بعد ليقوم بجولة على الرغم من الطقس الممطر ، مرساندا تنام باكراً ، هذه السفرات بالقطار تتعبها كثيراً . عندما سيدخل ريكاردو ريس الى الصالة ، لن يجد فيها سوى بضعة أشخاص صامتين ، بعضهم يقرأ الصحف ، وآخرون يتثاءبون ، في حين تصدر عن المذياع ، بصوت منخفض ، أغانٍ برتغالية مكرورة ، صارخة ، لا يتوصل خفض الصوت الى خنقها تماماً . في هذا الضوء ، أو ربما بسبب الوجوه المطفأة ، تشبه المرآة حوض أسماك ، وعندما اجتاز ريكاردو ريس الصالة من طرف الى الآخر ، كي لا يدير ظهره ويبدو عليه انه يهرب منذ المدخل ، وعاد بعد ذلك على أعقابه ، رأى نفسه في هذه الهوة المخضرة كما لو كان يسير في أعماق المحيط بين هياكل السفن والغرقى ، ينبغي له ان يخرج فوراً ، ويعود الى الهواء الحر ، ان يتنفس . صعد كئيباً الى غرفته الجليدية ، لماذا اذن تحزنه هذه المضايقات الصغيرة ، اذا كان الأمر يدور حول ذلك حقاً ، الى هذا الحد ، ذلك انهما ، أخيراً ، شخصان يعيشان في كوامبرا ويأتيان الى ليشبونة مرة كل شهر ، الطبيب لا يبحث عن مرضى ،

ولدى الشاعر اكثر مما ينبغي من ربات الشعر الملهمات ، والرجل لا يبحث عن خطيبة ، دون الحديث عن الفرق في العمر ، وهو هام في هذا الصدد ، اذا كان قد عاد الى البرتغال ، فليس ذلك بالتأكيد بهذا القصد . هذه الأفكار ليست أفكار ريكاردو ريس ولا أفكار اي واحد من الكائنات التي لا تحصى التي تسكنه ، ربما كانت الفكرة التي تفكر في نفسها . او تفكر ببساطة وهي تشهد ، مدهوشة ، كر الخيط الذي يقودها عبر طرق ومماشٍ مجهولة ، تنتظر في آخرها فتاة ترتدي الأبيض ، إنها لا تستطيع ان تمسك بباقة زهورها ، وضعت ذراعها تحت ذراع ريكاردو ريس ، وهما يغادران المذبح ويتقدمان فوق السجادة الحمراء على انغام النشيد العرائسي .

ريكاردو ريس ، كما نرى ، استعاد زمام فكره ، إنه يحكمه ويناور به حتى درجة السخرية بنفسه ، الأوركسترا والسجادة الحمراء تسليان خياله ، وعند ذلك ، ومن اجل ان تكون لقصة في هذه الشاعرية نهاية سعيدة ، يتوصل ، وهذه براعة عيادية حقيقية ، الى وضع باقة زهور في تجويف الذراع الأيسر لمرساندا التي تبقيه هكذا دون مساعدة ، يمكن للمذبح وللقيم على مراسيم الزواج ان يختفيا ، وللموسيقى ان تتوقف ، وللمدعوين إن يطيروا على صورة غبار ودخان ، ويستطيع الخطيب ، وقد انجز مهمته ، ان ينسحب ، لقد شفى الطبيب المرض ، والباقي من شأن الشاعر . هذه الأحداث العارضة لا تناسب أبداً قصيدة الكائية ، وهو ما يثبت ، إذا كان الامر مايزال يحتاج الى ذلك ، ان هناك غالباً فرقاً بين ما هو مكتوب وما ولّد الكتابة ، وهذا الفرق هو المعاش . فمن العبث اذن ان يسأل الشاعر عما فكر فيه أو شعر به على اعتبار انه ، على وجه الدقة ، قد كتب اشعاراً من اجل ان لا يقول ذلك . وكل الأغراض المعاكسة باطلة ، اذن ، ولاغية .

هبط الليل ، ليديا لم تنزل ، الدكتور سامبايو عاد متأخراً ، اما بالنسبة

لفرناندو بيسوا ، فلا أحد يعلم أين يتجول . عاد النهار ، ليديا اخذت البذلة لكيها ، وخرجت مرساندا وأبوها ، ذهبا الى الطبيب ، الى المعالجة الفيزيائية كما قال سلفادور الذي شوه الكلمة حسب عادته ، وللمرة الأولى ، تبين لريكاردو ريس ان هذه السفرات الى ليشبونة غريبة ، المريضة تعيش في كوامبرا ، وهي مدينة فيها ، على كل حال ، عدد كبير من الأطباء والاختصاصيين ، أما بالنسبة للمعالجات ، فيجب ان يكون في الامكان ان تتابع هناك كما هنا ، الأشعة فوق البنفسجية التي تطبق على هذا القدر من التباعد لا يسعها ، أبداً ، ان تؤدي الى تحسينات . كان ريكاردو ريس يتأمل في هذه الشكوك وهو يهبط الشيادو ليذهب لشراء بطاقته للمسرح القومي . اخرجه من هذه التأملات عدد كبير من الأفراد الذين كانوا في حالة حداد ، بضع نساء كن يضعن على وجوههن نقاباً ، ولكن ما هو اكثر لفتاً للنظر ايضاً ، هي ربطة العنق السوداء ، الهيئة الرزينة للرجال ، بل ان بعضهم مضوا في ابداء حزنهم يحملهم شرائط سوداً على قبعاتهم ، كان قد أتي على دفن جورج الخامس ملك انكلترا ، أقدم حليفاتنا . وعلى الرغم من الحداد الرسمي ، ابقي على المشهد ، لا يمكن المماحكة حول ذلك ، فالحياة مستمرة . موظف الكوة باعه بطاقة للصالة مع ايضاحه له ، هذا المساء ، الصيادون سيكونون هنا . سأل ريكاردو ريس ، اي صيادين ، وفهم فوراً انه اقترف خطأ لا يغتفر ، رفع موظف الكوة حاجبه وصوته ليقول ، صيادو نازاريه طبعاً ، طبعاً ، على اعتبار ان الأمر يدور حولهم في المسرحية ، ليس الآخرون ، صيادو كابا ريكا أو بوفوا هم الذين سيأتون ، لن يكون لهذا أي معنى ، وهناك معنى لاستقدام الأولين ، لقد دفعت تكاليف سفرهم واقامتهم من اجل ان يشارك الشعب ، هو أيضاً ، في الخلق الفني ، لا سيما وانه ذريعته ، ولذلك جرى اختيار بعض ممثليه ، رجال ونساء ، سنذهب الى

ليشبونة ، سنذهب الى ليشبونة ، سنرى كيف هي ، سنرى بحرهم هناك ، ونرى ما اذا كانوا على ما يكفي من الموهبة لجعل الأمواج تتدفق على الألواح ، سنرى ماذا ستعطي دونا بالميرا باستوس في دور تي جرترود ، دونا اميليا في دور ماريابيم ، دونا لالاند في دور روزا وامارانت في دور لافاغانت ، سنرى ما اذا كانت حياتهم ، هم ، تقلد حياتنا جيداً ، وطالما ستكون هناك ، سنفيد من ذلك لنطلب من الحكومة ان تبني لنا ، باسم أرواح المطهر الصغير ، المرفأ الذي تحتاج إليه كثيراً منذ ان غادر أول مركب الساحل الرملي ، منذ زمن طويل جداً .

تنقل ريكاردو ريس طيلة بعد الظهر من مقهى الى آخر ، ذهب ليقوّم حالة الأعمال في مسرح عدن الذي سترفع السياجات عنه قريباً ، الشاف دواورو جاهز للتدشين ، ليشبونة تعرف حالياً نهضة سرعان ما سوف تضعها في مصاف العواصم الأوروبية الكبرى ، هذا واضح لسكانها وضوحه للأجانب ، وليس في ذلك ما يدهش في عاصمة امبراطورية . لم يتعش في الفندق ، بل ذهب اليه ليبدل ملابسه ، كانت سترته وسرواله وصداره معلقة بعناية على علاقة ، دون ثنية ، لا تستطيع ان تفعل ذلك سوى يدين عاشقتين ، ولتغفر لنا المبالغة ، نظراً لأنه لا يمكن ان يكون هناك عشق في المعانقات الليلية بين زبون وخادمة ، هو شاعر ، وهي ، ليديا مصادفة ، محظوظة جداً على الرغم من كل شيء ، لأن ليديا القصيدة لم تعرف قط الأنّات والتنهدات ، ولم تفعل شيئاً خلاف الجلوس على ضفاف السواقي لتسمع نفسها تقول ، أنا أتألم ، يا ليديا ، من خشية القدر . تناول شريحة لحم في مارتينو ، مارتينو الروسيو ، شاهد مباراة بلياردو حامية ، على السجادة الخضراء يجري بهدوء عاج الكرة الهندي ، يا للغتنا من لغة رائعة وسخية معاً ، ويزيد في تعبيريتها انها تحرّف وتساء معاملتها ، وبما ان

موعد المسرح اقترب ، فقد خرج . نجح ، وهو يتقدم بتحفظ ، في ان يدس نفسه بين أسرتين عديدتين ، لم يكن يريد ان يرى قبل اللحظة التي يكون قد اختارها بموجب ستراتيجيات عاطفية لا يعرفها الا الله وحده . اجتاز دون توقف باحة المسرح التي ستسمى قريباً فناءً أو بهواً ، اذا لم تظهر ، في هذه الأثناء ، كلمة اخرى ، أتت من لغة أخرى لتقول الشيء نفسه ، أو أكثر ، أو لا شيء بالمرة ، مثل هذه ، كلمة أول مثلاً ، استقبله المرشد عند مدخل القاعة وقاده عبر الممشى الأيسر حتى الصف السابع ، هذا هو مكانك ، الى جانب السيدة ، هدوءاً ، شيئاً من الخيال ، الأمر يدور حول سيدة لا حول فتاة ، بما ان معلمي المرشد في المسرح القومي هم الكلاسيكيون والحديثون ، فهو يعبّر عن نفسه دائماً بوضوح وشكل مناسب ، ومع ذلك ، فإن مرساندا في القاعة حقاً ، ولكنها متقدمة عليه بثلاثة صفوف الى اليمين ، أبعد من أن تكون قريبة ، غير قريبة الى درجة كافية إذا لم تكن تستطيع أن تلمحني . انها جالسة الى يمين أبيها وهذا أحسن ، لأنه يرى ، عندما تدير رأسها لتتحدث اليه ، جانب وجهها الذي اطاله ، كما يبدو ، شعرها المحلول ، يدها اليمنى على مستوى الفك لتلح على الكلمة المتلفظ بها او على الكلمة التي ستقولها ، ربما كانت تتحدث عن الطبيب الذي يعالجها ، عن المسرحية التي سيرونها . من هو الفريدو كورتيز ، ليس لدى أبيها شيء كثير يعلمها به ، قبل سنتين ، رأى ، وحده ، «المصارعون» ولم يحبها ، هذه المسرحية تهمه لأنها تعالج العادات الشعبية ، قليلاً من الصبر بعد وسنعرف ما يدور الأمر حوله . هذه المحادثة ، اذا كانت قد جرت ، قوطعت بجر كراس في الشرفات ، بتمتمة غريبة جعلت كل الرؤوس في الصالة ترتفع وتلتفت ، كان هناك صيادو نازاريه الذين كانوايدخلون ويتخذون أماكنهم في المقصورات الثانية ، ظلوا واقفين من أجل ان يروا ويراهم الناس ، رجال

ونساء بألبسة اقليمية ، ربما كانوا حفاة ، لا يمكن ان يرى ذلك من تحت . صفّق اناس ، قلدهم آخرون ، متسامحين ، ريكاردو ريس الذي تضايق ، شدّ قبضتيه ، رزانة ارستقراطية من جانب الذي ليس في عروقه ، مع ذلك ، دم أزرق ، ولكن الأمر لا يدور حول هذا ، انها مجرد مسألة حساسية ورهافة ذوق ، في نظر ريكاردو ريس ، هذه التصفيقات غير لائقة على الأقل .

خفتت الأنوار ، اطفئت اضواء القاعة ، سمعت الضربات الثلاث المسماة ضربات موليير ، معضلة جديدة للصيادين ونسائهم ، الذين يظنون دون شك ان هذه آخر تحضيرات النجارين ، ضربات مطارقهم الأخيرة ، فُتح الستار ، امرأة تشعل ناراً ؛ مازال الوقت ليلاً ، هناك ، خلف المسرح ، يسمع صوت رجل ينادي مانيه زيه ، اوه مانيه زيه ، المسرحية بدأت ، القاعة تتنهد ، تموج ، تضحك أحياناً ، تتحرك في نهاية الفصل الأول لدى بلبلة النساء الكبيرة ، وعندما اشتعلت الأضواء ، كانت السحن بشوشة ، هذه علامة جيدة ، أصوات تعجب تنتشر في الشرفات العليا ، يتنادون من مقصورة الى اخرى ، يبدو أن الممثلين قد بلغوا الأعالي ، انها اللغة نفسها تقريباً ، أهي أحسن ، أهي اسوأ ، كل شيء يتوقف على معيار المقارنة . ريكاردو ريس كان يفكر فيما رآه وسمعه .

لا ينبغي لقصد الفن ، في رأيه ، ان يكون التقليد ، والمؤلف اقترف خطأ يدان عليه بكتابته مسرحيته بالعامية النازاريسة أو ما خيل إليه انه هذه العامية ، لقد نسي ان الواقع لا يطيق انعكاسه بل يرفضه ، وانه لا يستطيع سوى واقع آخر ، أي واقع ، أن يأخذ مكان ذاك الذي اريد التعبير عنه ، وان هذين الواقعين يتبادلان التعريف بتبايناتهما ، يفسر احدهما الآخر ، يفكان رموز الواقع كاختراع ماضٍ والاختراع كواقع مقبل . ريكاردو ريس فكّر في كل ذلك بصورة مبهمة ، لأن من الصعب اخيراً ان يفكر المرء وان يصفق في

وقت واحد ، القاعة تصفق ، يفعل الشيء نفسه ، عن تعاطف ، ولأن المسرحية ، باستثناء هذه اللغة البشعة من هذه الأفواه ، تروق له . نظر الى جهة مرساندا ، انها لا تصفق ، بالتأكيد ، ولكنها تبتسم . نهض المشاهدون ، الرجال منهم بصورة رئيسية ، اذا كان معظم النساء يبقين جالسات ، فهم في حاجة الى تحريك سيقانهم ، الى تلبية حاجاتهم ، الى تدخين سيغارة أو سيغار ، الى تبادل الانطباعات مع اصدقاء ، الى تحية معارف ، الى ان يروا ويراهم الآخرون في الباحة او انهم ، اذا بقوا في اماكنهم ، فذلك كي يغازلوا ، يقفون ونظراتهم ، كنظرات الصقور ، تبحث حولها ، ها هم يصبحون شخصيات مسرحيتهم الخاصة ، الممثلين الذين يلعبون ادوراهم خلال الاستراحة ، في حين ان الممثلين الحقيقيين يتحررون ، في مقصوراتهم ، من ادوارهم التي سيستأنفونها عما قريب ، وكلها ادوار مؤقتة . ريكاردو ريس ألقى ، وهو ينهض ، نظرة بين الرؤوس ، الدكتور سامبايو نهض بدوره ، مرساندا تحني رأسها في اشارة رفض ، انها باقية ، أبوها ، الذي كان قد وقف فعلاً ، يضع يده بعطف على كتفها ويخرج عبر الممشى . ريكاردو ريس ، الأسرع ، سبقه الى الباحة . خلال لحظة سيلتقيان وجهاً لوجه ، وسط تعليقات كل هؤلاء الناس الذين يمشون ويتحادثون ، في جو مدخن فجأة ، بالميرا جيدة جداً حقاً ، في رأيي انهم وضعوا على المسرح اكثر مما ينبغي من الشباك ، يا للنساء من شيطانات ، عندما تشاجرن ، فإن المرء يصدق مايراه ، ذلك انك ، يا عزيزي لم ترهنّ أبداً كما رأيتهن ، أنا في نازاريه ، انهن شريرات حقيقيات ، من الصعب احياناً فهم ما يقولون ، إيه حسناً ، هكذا يتكلمون هناك . كان ريكاردو ريس يتحرك وسط الجماعات ، منتصب الأذنين ، متنبهاً كما لو كان هو نفسه المؤلف ، مع مراقبته عن بعد حركات الدكتور سامبايو ، ينتظر اللقاء .

في برهة معينة ، فهم ان الآخر كان قد لمحه وجاء تلقائياً نحوه ، مبادراً إياه ، فضلاً عن ذلك ، بالكلام ، مساء الخير ، هل أحببت المسرحية ، هكذا سأل ريكاردو ريس الذي رأى ان لا جدوى من ان يتظاهر بالدهشة ، آه ، يا لها من مصادفة ، حيي بدوره وقال ، نعم ، يا سيدي ، المسرحية تروق لي . واضاف ، نحن زبونان في الفندق نفسه ، ثم قال وقد خيل اليه ان عليه ان يقدم نفسه ، إسمي ريكاردو ريس ، وتردد ، هل كان يجب أن يقول أنا طبيب ، عشت في ريو دو جانيرو ، وصلت الى ليشبونة منذ شهر ، ولكن الدكتور سامبايو كان لا يكاد ، وهو يبتسم ، ان يصغي الى ما كان يقوله ، كما لو كان يريد ان يقول له ، اذا كنت تعرف سلفادور منذ الزمن الذي عرفته أنا فيه ، فسوف تعلم انه قد حدثني عنك ، وبما أني اعرفه جيداً جداً ، فإني أحزر انه حدثك عني وعن ابنتي ، الدكتور سامبايو دون أدنى شك فطن ، هذه مزية حياة مسجل عقود طويلة . قال ريكاردو ريس ، لا حاجة عملياً لأن يقدم كل منا نفسه ، بالفعل ، وانتقلا مباشرة الى المسرحية والممثلين ، يعامل كل منهما الآخر بالاحترام الذي يسمح به تساوي الألقاب ، الدكتور ريس ، الدكتور سامبايو ، وتابعا على هذا المنوال حتى نهاية الاستراحة . عندما رن الجرس ، عادا معاً الى القاعة وهما يقولان لبعضهما ، الى اللقاء ، واستعاد كل منهما مكانه ، ريكاردو ريس جلس أولاً ، لاحظه ، رآه يتحدث الى ابنته ، ابتسم لها بدوره ، كان الفصل الثاني سيبدأ .

التقى ثلاثتهم في الاستراحة التالية . وعلى الرغم من انهم كانوا يعرفون ، من قبل ، من كانوا ، من اين اتوا ، وأين يعيشون ، فقد اقتضى الأمر إجراءات التقديم ، ريكاردو ريس ، مرساندا سامبايو ، ووصلت اللحظة التي كان كلاهما ينتظرانها اخيراً ، تصافحا ، اليمنى مع اليمنى ، ويده

اليسرى ممددة على طول جسده ، ساكنة ، تسعى الى ان يجري نسيانها ، خفية كما لو لم تكن موجودة . كانت عينا مرساندا لامعتين جداً ، عذابات ماريا بيم كانت قد أثّرت فيها دون شك ، الا اذا كانت لها أسباب حميمة ، سرية ، لفهم آخر كلمات زوجة لافاغانت حرفياً ، إذا كان الجحيم موجوداً ، فلا يمكن ان يكون أسوأ من هذا ، يا عذراء ، يا أم السيوف السبعة ، قالت هذا بلهجة كوامبرا ، إلا أنه إذا تغيرت اللغة ، فإن الشعور الذي هو وراء الكلمات لا يتغير ، أعرف جيداً لماذا لا تحركين هذه الذراع ، يا جارة الفندق ، موضع فضولي ، أنا الذي اشرت إليك بيدي الجامدة ، لا تسألين لماذا ، لم أطرح بعد هذا السؤال على نفسي ، ناديتك بكل بساطة ، سأعرف ذات يوم اللماذا والكيف في حركتي ، أو ربما لن أعرف ، الآن سوف تبتعد كيلا تبدو فضولياً ، متطفلاً ، من أجل أن لا تسرف كما يقال في العامية ، اذهب ، سنعرف جيداً كيف نلتقي ، لأنك لست هنا مصادفة . لم يتأخر ريكاردو ريس في الباحة ، سار في أروقة المقصورات الأولى ، ليلاحظ الصيادين عن كثب ، ثم رن الجرس ، هذه الاستراحة كانت أقصر ، عندما دخل الى القاعة ، كانت الأنوار مطفأة من قبل . خلال كل الفصل الثالث ، وزع انتباهه بين المسرح ومرساندا . لم تدر رأسها مرة واحدة ، ولكنها كانت قد عدلت وضعية جسمها تعديلاً خفيفاً بحيث تبدي ، وكأنه لم يجر شيء ، المزيد القليل من وجهها ، ومن وقت الى آخر ، كانت ترد بيدها اليمنى شعرها جانباً ، بصورة بطيئة جداً ، كما لو كانت تفعل ذلك بقصد دقيق . ماذا تريد هذه الفتاة ، من تكون ، هي ذات المظهر المتبدل . رآها تمسح خديها في البرهة التي كانت ، فيها ، ليانور تعترف انها اذا كانت قد سرقت مفتاح قارب النجاة ، فذلك لأنها تتمنى موت لافاغانت ، وعندما صرحت ماريا بيم وروزا ، الواحدة في البداية ، والأخرى في النهاية ، بأن

الأمر يدور هنا حول بادرة حب ، وان الحب اذا كان حقيقياً ولا يستطيع ان يتحقق ، يمزق نفسه بنفسه ، ثم في لحظة الحل ، عندما اقترب لافاغانت وماريا بيم اللذان سيقترنان من بعضهما ، وحين كانت الأنوار تضاء وتفرقع التصفيقات ، كانت مرساندا تمسح عينيها بمنديلها ، لم تكن الوحيدة ، فقد كانت نساء كثيرات في القاعة يبكين ويضحكن معاً ، قلوب حساسة ، كان الممثلون يشكرون ، يبدون حركة رد التصفيقات نحو المقصورات التي كان يجلس فيها الأبطال الحقيقيون لمغامرات البحر والسمك هذه ، الجمهور التفت إذ ذاك نحوهم ، هذا هو الاتصال الفني ، كانوا يصفقون للصيادين الخشنين ونسائهم الشجاعات ، ريكاردو ريس نفسه صفق ، في هذا المسرح ، من السهل التفاهم ، الطبقات ، الهيئات المهنية ، الفقراء ، الأغنياء ، البورجوازيون الصغار ، كلهم يتمتعون بالامتياز النادر الذي هو درس الإخاء الكبير هذا ، وها هم رجال البحر يدعون الى الصعود على المسرح ، تكرر جر الكراسي ، المشهد لم ينته بعد ، هذا هو تمجيد الأبطال . يا له من فرح ، يا لها من متعة ، يا له من ابتهاج ، ان نرى طبقة نازاريه الفولكلورية تهبط الممشى المركزي ، تصعد الى المسرح وتأخذ في انشاد أغاني منطقتها التقليدية وفي الرقص وسط الفنانين ، هذه الليلة ستبقى في حوليات كازا دوغاريت ، رئيس الطاقم يعانق الممثل روبليس مونتيرو ، أكبر النساء سناً تتلقى قبلة من الممثلة بالميرا باستوس ، الكل يتكلمون في وقت واحد ، كل بلغته ، كيفما اتفق ، ولا يكون التفاهم بينهم أسوأ لهذا السبب ، الأغاني والرقصات تستأنف ، الممثلات الشابات يرسمن بأقدامهن الصغيرة خطوة فيرا* ، المشاهدون يضحكون ويصفقون ، ثم دفع المرشدون

* فيرا : رقصة اقليمية برتغالية .

الجميع ببطء نحو المخرج ، ذلك انه سوف يقدم عشاء على المسرح ، وليمة عامة للمثلين والنماذج ، سدادات الخمرة الفوارة ، التي تفرقع ، ستطير ، وسوف يسخرون من نساء نازاريه عندما تأخذ رؤوسهن في الدوران بسبب عدم الاعتياد . غداً ، لدى رحيل السيارة ، في حضور الصحفيين ، والمصورين ، وقادة النقابات ، سوف يصرخ الصيادون ، عاشت الدولة الجديدة والوطن ، لا تعلم بالضبط ما اذا كان هذا من ضمن عقدهم ، ولنسلم بأن ذلك تعبير قلوب ممتنة ، فقد وعدوهم بالمرفأ الذي طالما تمنوه ، واذا كانت باريس تستحق حقاً قداساً* ، فربما دفع هتافان ثمن الخلاص .

في برهة الخروج ، لم يتهرب ريكاردو ريس من لقاء جديد . أخذ يثرثر على الرصيف سائلاً مرساندا ليعرف ما اذا كانت قد احبت المسرحية ، أجابت بأن الفصل الثالث قد أثر فيها الى درجة الدموع ، لمحت ذلك ، وتوقفا عند هذا الحد ، كان الدكتور سامبايو قد نادى سيارة تاكسي ، سأل ريكاردو ريس اذا كان يرغب في مصاحبتهما ، اذا كنت عائداً الى الفندق بالتأكيد ، هذا يسرنا ، ولكنه اعتذر عن تلبية الدعوة شاكراً ، ليلة سعيدة . الى الغد . اسعدني جداً ان اتعرف عليكما ، ابتعدت السيارة . لو لم يصغ الا الى رغبته ، لكان صاحبهما ، ولكنه تبين ان ذلك سيكون خطأ ، فقد كان من شأنهم ان يرتبكوا جميعاً ، ان يتضايقوا ، دون معرفة ما يمكن أن يقال ، من الصعب ايجاد موضوع آخر للمحادثة ، وفوق ذلك كانت مسألة الجلوس في التاكسي ستطرح ، ثلاثة على المقعد الخلفي ، مستحيل ، وليس موضع بحث أيضاً ان يجلس الدكتور سامبايو

* يلمح الكاتب الى عبارة هنري الرابع ملك فرنسا الذي تحول من البروتستانتية الى الكاثوليكية ليرقى الى عرش فرنسا .

في المقعد الأمامي ويدع ابنته مع مجهول تماماً ، مجهول ، في الظل المتواطىء الذي يمكن ان يقرب بينهما بيديه المخمليتين ، حتى ولو لم يكن بينهما اي اتصال جسدي ، تماماً كما يمكن ذلك ، بصورة أفضل مما في الظل ، لأفكارهما التي تتحول شيئاً فشيئاً الى سر لا يكاد ان يستر ، ولم يكن من اللائق أيضاً ترك ريكاردو ريس يجلس الى جانب السائق ، لا يدعى أحد لإجلاسه في الأمام ، هناك حيث يوجد العداد ، ذلك انه معروف فعلاً ان المدعو سيشعر بنفسه ، في نهاية الرحلة ، ولأنه الأقرب مرغماً على الدفع ، واكثر من ذلك أيضاً ، اذا تأخر المال في الظهور ، عن تعمد أو لأن الجيوب مزدحمة ، في حين ان الجالس في الخلف ، الذي صدرت عنه الدعوة ويتمنى حقاً أن يدفع الأجرة يحتج ، كلا يا سيدي ، طالباً الى السائق ان لا يقبل شيئاً ، أنا الذي أدفع ، والرجل ينتظر بصبر أن يقرر هذان السيدان مرة واحدة وأخيرة ، لقد سمع مائة مرة ، من قبل ، هذه المناقشة ، هذا النوع السخيف من الحوادث شائع في حياة سائقي التاكسي ، سار ريكاردو ريس نحو الفندق ، لا شيء ينتظره ، لا واجبات ولا متع ، الليل بارد ورطب ولكن السماء لا تمطر ، انه يرغب الآن في المشي ، نعم الآن ، هبط كل شارع اوغوستا ، اجتاز التيريرو دوباسو ، داس درجات الرصيف الذي يأتي ليتكسر عليه الزبد الليلي والقذر الذي يرتد الى النهر ليعود حالاً ، هو نفسه ، آخر ، مماثل ومختلف ، لا أحد سواه على الرصيف ، ومع ذلك فإن رجالاً آخرين يتفحصون الظلمة ، مصابيح الضفة الأخرى المرتعشة ، أضواء مواقع السفن الراسية ، هذا الرجل ، الذي هو اليوم هنا ، بلحمه وعظمه ، ولكن هناك أيضاً كائنات لا تحصى يدعي أنه اياها ، التي كانها في كل مرة أتى فيها الى هنا ، والتي تتذكر حتى ولو لم يكن هذا الأخير قد احتفظ بالذكرى . كانت عيناه

المتألفتان مع الظلمة تميز بعيداً ، هناك ، الظلال الرمادية لسفن الأسطول التي غادرت ملجأ الحوض .

مازال الطقس عاصفاً ، ولكن ذلك ليس الى حد يمنع المراكب من مغادرة المرفأ ، حياة البحار ، حياة مضحى بها . كل المراكب تتشابه مرئية من بعيد ، ومع ذلك فإن كاسحات الألغام التي تحمل اسماء أنهار يجب ان تكون هنا ، ريكاردو ريس نسي اسماءها التي كان العتّال يكرهها كصلاة ، التاج هو الذي على نهر التاج ، الفوغا ، الداو القريب جداً من هنا ، كما قال الرجل ، هوذا ، اذن ، التاج ، ها هي الأنهار التي تعبر قريتي ، تيارها ، هو هذا الماء الذي يهرب نحو البحر ، يتلقى ماء كل الأنهار ويعيده إليها ، عودة يراد لها أن تكون أزلية ، وليست هي كذلك ، ستدوم مادامت الشمس ، فانية مثلنا جميعاً ، موت مجيد لهؤلاء الرجال الذي سيختفون في موت الشمس ، انهم لم يروا اليوم الأول ، ولكنهم سيرون الأخير .

الطقس ليس مناسباً للفلسفة ، يحس المرء بقدميه تتجمدان ، توقف شرطي ، تردد ولاحظ ، ليس لمتأمل الأمواج هيئة معدم ولا متشرد ، ربما كان يريد الإلقاء بنفسه في الماء ، إغراق نفسه ، ولدى التفكير في المضايقة التي ستسببها له هذه المبادرة ، إطلاق الانذار ، استعادة الجثة ، كتابة التقرير ، تقدم ممثل السلطة ، وهو مازال يجهل ماذا سيقول ، على أمل ان يكفي وصوله لردع المرشح للانتحار ويوقف الحركة المجنونة . سمع ريكاردو ريس الخطوات ، أحس ببرد الحجر تحت قدميه ، يجب ان اشتري حذائين طويلي الساقين ، ربما حان الوقت للعودة الى الفندق اذا كنت لا أريد أن أصاب بالبرد ، وقال ، ليلة سعيدة يا سيدي الشرطي ، الحارس المدني سأله ، وقد أحس بالراحة ، أهناك شيء على غير ما يرام ، كلا ، كل شيء على مايرام ، أي شيء أكثر طبيعية في العالم من رجل على حافة

رصيف ، ينظر الى النهر والسفن في وسط الليل ، هذا التاج الذي لا يجتاز قريتي ، التاج الذي يجتاز قريتي اسمه الدورو ، لماذا ، لأنه لا يحمل الاسم نفسه ، التاج ليس أجمل من النهر الذي يجتاز قريتي . ابتعد الشرطي ، مطمئناً ، نحو شارع الفانديغا ، يتأمل في هوس بعض الناس بالظهور وسط الليل . ماذا كان يصنع هذا ، يتأمل النهر في مثل هذا الطقس ، لو اجبروهم مثلي على القيام بدوريات في هذه البقعة ، فسوف يرون ما اذا كان ذلك مضحكاً . سلك ريكاردو ريس شارع دو أرسنال ، وبعد عشر دقائق ، وصل الى الفندق . لم يكن الباب قد اغلق بعد ، ظهر بيمنتا على المنبسط مع رزمة مفاتيح ، ألقى نظرة ثم اختفى ، وعلى عكس عادته لم ينتظر انتهاء الزبون من الصعود ، لماذا اذن ، انتقل ريكاردو ريس من هذا السؤال الطبيعي جداً الى القلق ، ربما كان على اطلاع فعلاً ، فيما يتعلق بليديا ، يستحيل ان لا يعرف هذا ذات يوم ، الفندق بيت من زجاج ، بيمنتا لا يخرج من هنا ، يعرف كل الأسرار ، أنا متأكد من أنه يشك في شيء ما ، زايد قائلاً ، ليلة سعيدة ، يا بيمنتا ، اظهر المزيد من الود ، والآخر أجابه دون تحفظ ، دون عدائية ، فكّر ريكاردو ريس ، ربما كنت واهماً ، أخذ مفتاح الغرفة ، وكان سيبتعد ، ولكنه عاد على عقبيه ، فتح محفظته ، خذ يا بيمنتا ، هذا لك ، ودون أن يبين لماذا ، أعطاه ورقة عشرين اسكودوس ، ولم يطرح بيمنتا السؤال .

لا ضوء في الغرف . تقدم بحرص في الممشى ، من أجل ان لا يوقظ النائمين ، توقف ثلاث ثوانٍ امام باب مرساندا ، ثم تابع طريقه . كانت غرفته باردة ورطبة ، ما تكاد ان تقل في ذلك عن حافة النهر . ارتعش كما لو كان يتأمل المراكب الداكنة مصغياً الى خطوات الشرطي ، تساءل عما كان يمكن ان يحدث لو كان قد أجابه ، نعم ، هناك شيء على غير ما يرام ،

دون أن يحدد ماذا ، ولا ماذا كان يعني ذلك . عندما اقترب من السرير ، لاحظ انتفاخاً ، لقد وضع شيء بين الأغطية ، سخانة بالتأكيد . وضع يده فوقها ، كانت ساخنة ، هذه الليديا بنت طيبة ، فكّرت في تدفئة السرير ، لا تفعل ذلك بالتأكيد لكل الزبائن ، ربما لن تأتي هذه الليلة . رقد ، فتح الكتاب الذي كان على طاولة الليل ، كتاب هربر كوين ، تابع صفحتين دون أن يعير انتباهاً لما كان يقرأ ، يبدو انهم قد وجدوا ثلاثة دوافع للجريمة ، وكل منها كان كافياً لاتهام المشبوه الذي كانت تقع عليه كل الشكوك ، ولكن المشبوه المذكور ، استخداماً منه لحقه ومنجزاً واجبه الذي كان التعاون مع العدالة ، كان قد ابدى الفكرة القائلة انه اذا قبلت فرضية ذنبه ، فإن دافعاً رابعاً ، خامساً أو سادساً يمكن ان يوجد ، وكلها متساوية في صلاحها ، وان تفسير الجريمة ، دوافعها ، ربما ، وربما فقط ، كانت موجودة في تمفصل كل هذه الدوافع في تفاعلها ، في تأثير كل مجموعة على المجموعات الأخرى ، وعلى الكل ، في الإلغاء أو التغيير المحتملين والأكثر من محتملين لهذه التأثيرات بفعل تأثيرات أخرى ، وهو ما يفسر الوصول الى النتيجة النهائية ، الموت ، وكان ينبغي أيضاً فحص النصيب من المسؤولية الذي يقع على عاتق الضحية ، اي تحديد ما اذا كان من المناسب أخلاقياً وقانونياً اعتبارها الدافع السابع ، وربما ، وهذا مجرد افتراض ، أكثر الدوافع تحديداً . شعر بالارتياح ، السخّانة كانت تدفىء قدميه ، ودماغه كان يعمل دون صلة شعورية بالخارج ، ومشقة القراءة كانت تجعل أجفانه متثاقلة . اغمض عينيه بضع ثوان ، وعندما فتحهما من جديد ، كان فرناندو بيسوا هناك ، جالساً عند أسفل سريره كما لو كان يزور مريضاً ، بالتعبير الشارد الذي يمكن رؤيته في بعض الصور ، وقد تصالبت يداه فوق الفخذ الأيمن ، ومال رأسه الى الأمام قليلاً ، شاحباً . وضع كتابه جانباً بين الوسادتين ،

قال ، لم أكن أتوقعك ، وابتسم بتحبب ، من أجل ان يلاحظ فراغ صبر اللهجة ، إبهام الغرض الذي كان يمكن ان يعنيه قوله ، كان في إمكانك الاستغناء عن المجيء اليوم ، وكان لديه سببان جيدان لهذا ، الأول هو أنه لم يكن يرغب في الحديث الا عن شيء واحد ، السهرة في المسرح وما دار فيها ، ولكن ليس مع فرناندو بيسوا ، والثاني هو أنه كان يمكن لليديا ان تدخل ببساطة الى غرفته بين لحظة واخرى ، وليس ذلك انه معرض لخطر ان يسمعها تصرخ ، النجدة ، شبح ، بل لأنه كان يمكن لفرناندو بيسوا أن يرغب ، حتى ولو لم يكن ذلك يشبهه ، في أن يبقى هناك ، محتمياً بلا مرئيته المتناوبة الخاضعة لمزاج البرهة ، كي يشهد حميميتهما الجسدية والعاطفية ، لم يكن ذلك مستحيلاً . فالله ، وهو الله ، يفعل ذلك حقاً ، ولا يمكنه فضلاً عن ذلك ان لا يفعل على اعتبار انه في كل مكان ، ولكن أخيراً ، نحن معتادون عليه . انه يستدعي التواطؤ الذكوري ، لن نستطيع ان نتحدث أكثر من ذلك ، يمكن ان أتلقى زيارة ، وسوف توافق ان ذلك سيكون صعباً . أنت لا تضيّع وقتك ، لم تنقض ثلاثة أسابيع على عودتك ، وها أنت تتلقى فعلاً ، زيارات غرامية ، لأنني افترض انها غرامية . هذا يتوقف على ما تسميه غرامياً ، انها مستخدمة في الفندق . يا عزيزي ريس ، انت متذوق للجمال ، القريب من كل الاهات الأولمب ، تفتح أغطية فراشك لمستخدمة ، لخادمة ، وأنا الذي اسمعك تتحدث في كل مناسبة ، وبثبات جدير بالإعجاب ، عن ليدياتك ونيراتك وكلوياتك ، أجدك أسير خادمة ، يا لها من خيبة أمل قاسية . هذه الخادمة تدعى ليديا ، ولست اسيراً ، لست رجلاً يقيدونه : آه ، آه ، انها موجودة ، أخيراً ، هذه العدالة الشعرية العتيدة ، الموقف مضحك حقاً ، لقد ذكرت ليديا الى حد انتهت ، معه ، ليديا الى الظهور ، لقد كنت اوفر حظاً من كامويس ، توجب عليه ، هو ، ليحصل على

ناترسياه ، أن يخترع الاسم ، والأمر توقف هنا . الاسم وحده ظهر ، وليس المرأة . لا تكن جاحداً ، اتعلم حقاً أية امرأة ستكون ليديا قصائدك ، أتظن ان هذه الظاهرة التي تحقق التناغم المستحيل بين السلبية ، صمت الحكمة ، والروح الخالصة موجودة . هذا أمر مشكوك فيه فعلاً . مشكوك فيه بقدر الشاعر الذي كتب قصائدك . هذا ، هو أنا . اسمح لي ، أيها العزيز جداً ريس ، ان أعبّر عن بعض التحفظات ، اجدك تقرأ رواية بوليسية ، وعند قدميك سخانة ، تنتظر خادمة يجب ان تأتي لتدفىء ما بقي منك ، أعتذر إذا كانت لغتي فجة قليلاً ، وتريد أن أصدق ، ان هذا الرجل هو نفسه الذي كتب ، وهو صافي الذهن ، ينظر الى الحياة عن بعد ، يمكن ان نتساءل أين كنت ، وأنت تنظر الى الحياة من هذه المسافة . قلت ان الشاعر متظاهر . اعترف ، انها نبؤات هي التي تخرج من أفواهنا دون ان نعرف اي درب سلكته للوصول الى هنا ، الأسوأ هو أني مت قبل أن افهم ما اذا كان الشاعر هو الذي يتظاهر بأنه انسان ام ما اذا كان الإنسان هو الذي يتظاهر بأنه شاعر . التظاهر ، والتظاهر بكينونة ، ليسا الشيء نفسه . أهو تأكيد أم سؤال . إنه سؤال . بالتأكيد لا ، ليس الشيء نفسه ، أنا ، تظاهرت فقط ، أما أنت فتتظاهر بأنك كائن ، اذا اردت ان تعرف أين الفروق ، اقرأني وأعد قراءة نفسك . أنت بمثل هذا الخطاب تحضّر لي ليلة أرق . ربما ستأتي ليدياك لتهدهدك ، حسب ما سمعتهم يقولون ، الخادمات اللواتي يتعلقن بأسيادهن ودودات جداً . يخيل للمرء انه تعليق رجل مغتاظ ، احتمالاً . قل لي شيئاً واحداً فقط ، هل اتظاهر كشاعر أم كإنسان . ريس ، يا صديقي ، قضيتك يائسة ، أنت تتظاهر بأنك كائن فقط ، أنت تلعب لعبة الكينونة ، أنت ملفق نفسك ، وهذا لم يعد له أدنى علاقة بالإنسان ولا بالشاعر ، ليس هناك حل . إنه سؤال أيضاً . نعم . كلا ليس هناك حل لأنك لا تعرف من

أنت . وأنت هل عرفت ذلك قط . أنا لم أعد في الحساب ، أنا ميت ، ولكن اطمئن ، فلن يفوتهم ان يقدموا حولي كل انواع التفسيرات . ربما كنت قد عدت الى البرتغال لأعرف من أنا . حماقات يا عزيزي ، ولدنات ، هذا النوع من الوهم جيد للروايات الصوفية ، والدروب التي تؤدي الى دمشق ، لا تنسَ اننا في ليشبونة ، وان أي طريق لا ينطلق من هنا . لقد نعست . سأتركك كي تنام ، انه الشيء الوحيد الذي أرغب فيه ، أن أنام ، لا يوجد من يقول ، باستثناء الأغبياء ، ان النوم ابن عم الموت ، ابن عم أو أخ ، لقد نسيت . ابن العم كما اعتقد ، أما زلت ترغب في أن أعود ، بعد كل الأقوال غير اللطيفة التي قلتها لك . نعم ، ليس لدي أناس كثيرون لأتحدث إليهم . هذا سبب جيد ، دون أي شك . اسمع أسدِ إليّ خدمة سحب الباب فقط ، اعذرني على عدم نهوضي ، مع هذا البرد . انت تنتظر ايضاً رفقة . لا نعلم أبداً ، يا فرناندو ، لا نعلم أبداً .

بعد نصف ساعة ، فتح الباب . ليديا التي مازالت ترتعش من عبور السلالم والمماشي الطويل اندست في السرير ، انطوت على نفسها ، سألت ، اذن هل كان المسرح جميلاً ، وقال لها الحقيقة ، نعم ، كان جميلاً .

لم تتناول مرساندا وأبوها طعام الغداء في الفندق . لم يكن ريكاردو ريس في حاجة الى استخدام حيل ، ولا كذلك لإجراء تحقيق ، فقد كفاه ان يأخذ وقته ، وان يترك وقتاً لسلفادور ، وانتهى ، وهو يناقش كل شيء ولا شيء ، مستند المرفق الى المكتب في وضعية الزبون المألوف ، الى أن يكشف هكذا ، مروراً ، كما لو كان الأمر يدور حول استطراد كلامي قصير ، مجرد بداية ثيمة موسيقية انبثقت فجأة من ثيم اخرى ، بأنه ذهب الى د .ماريا ، في الليلة السابقة ، وانه صادف الدكتور سامايو وابنته ، انهما شخصان لطيفان جداً ومتميزان تعارف معهما . سلفادور فكر في أنهم اعلموه متأخراً جداً ، وانكمشت ابتسامته قليلاً ، لأنه رأى الأب والابنة يخرجان ، بل انه قد وجه اليهما الكلام ، ولم يخبراه شيئاً حول الليلة السابقة ، ولا حول لقائهما مع الدكتور ريس ، الآن ، اصبح يعرف ، بالتأكيد ، ولكن الساعة بلغت ، عملياً ، الثانية من بعد الظهر ، كيف أمكن الوصول الى هذه النقطة ، لم يكن ينتظر بالطبع أن يجد ، منذ وصوله الى الفندق ، رسالة تخبره بماكان قد حدث ، لقد تعارفنا مع الدكتور ريس ، تعرفت على الدكتور سامبايو وابنته ، كان يحس مع ذلك بما يشبه ظلماً

كبيراً لكونه قد بقي هذا الوقت الطويل في حالة الجهل ، بأن العالم جاحد ، أهكذا يعامل مدير بهذا الود . قلنا ان ابتسامته قد انكمشت ، هذا تسرع في القول ، ولكن شرح سبب ذلك يقتضي مزيداً من الوقت ، خاصة اذا أردنا تهدئة الشكوك التي يثيرها موقف غير متوقع الى هذا الحد ، وغير مفهوم للوهلة الأولى ، حساسية الأفراد سرية الى حد نجازف ، معه ، بعدم القدرة على الخروج منها بالسرعة التي من شأننا ان نريدها . ريكاردو ريس لم يجازف الى هذه الدرجة ، فكّر فقط في ان فكرة مفاجئة أتت على مضايقة سلفادور ، وكان هذا صحيحاً ، ونحن نعرف ذلك جيداً ، ولكنه لم يكن ليستطيع ، حتى لو أراد هذا ، أن يخمن أية فكرة هذه ، وهو ما يثبت اننا لا نعرف عن بعضنا بعضاً الشيء الكثير وان الصبر ، باستثناء ما يتعلق بتحقيق جنائي حقيقي ، كما بينت لنا ، صدفة ، رواية «إله المتاهة» ، ينفد بسرعة ، عندما يقرر ، من وقت الى آخر ، في كل مرة يحتفل الملك بعيد ميلاده ، توضيح الأسباب ، وتحليل الانطباعات : وفي وقت أقل من الذي ينبغي لقول ذلك ، صرّح سلفادور ، وقد سيطر ، حسب التعبير المكرس ، على غيظه ، وترك طبعه الطيب يقوده ، بأنه مسرور ، وبدأ في إنشاد المدائح في الدكتور سامبايو وابنته ، هو جنتلمان ، وهي فتاة رقيقة ، ذات تربية ممتازة ، حزينة مع الأسف ، بسبب هذه العاهة ، ذلك والأمر بيننا ، يا دكتور ريس ، ان مرضها غير قابل للشفاء . لم يكن ريكاردو ريس قد بدأ المحادثة ليدخل في مساجلة طبية ، كان قد أعلن انه غير مختص فيما يتعلق بهذا الموضوع ، فأنهى اذن الحديث عنه ، ومضى مباشرة الى ما كان يبدو له أساسياً ، أخيراً ، هاماً ، دون انه يعرف جيداً الى أي حد . لم يتناولا طعام الغداء وقال ، متذكراً فجأة إمكانية أخرى ، هل عادا الى كوامبرا ، سلفادور ، الذي كان جيد المعلومات حول هذه النقطة على

الأقل ، أجاب ، كلا ، لن يرحلا الا غداً ، اليوم تناولا الغداء في البيكسا ، عند مرساندا اليوم مراجعة للطبيب ، ثم عليهما القيام ببعض المهمات . وهل سيتعشيان هنا ، آه ، هذا مؤكد . ابتعد ريكاردو ريس عن المكتب ، ابتعد خطوتين ، ثم عاد ، اعتقد اني سأقوم بجولة ، يخيل للمرء ان الطقس قد ثبت ، صرّح سلفادور اذ ذاك ، كما لو كان يقتصر على نقل معلومة لا أهمية لها ، الآنسة مرساندا قالت انها ستعود الى الفندق بعد الغداء ، وانها لن تصحب أباها في روحاته ، جاء دور ريكاردو ريس في التظاهر بأنه لم يسمع شيئاً ، ذهب حتى الصالة ، نظر من النافذة كأنه كان يقدر تأثيرات النيازك ، ثم عاد على عقبيه ، بعد التفكير ، سأبقى هنا ، أقرأ الصحف ، السماء لا تمطر إلا أن الطقس يجب ان يكون بارداً ، واسرع سلفادور لتشجيع المخطط الجديد ، سأجعلهم يشعلون مدفأة الصالة ، ضغط مرتين على الجرس ، دخلت خادمة ، ليست ليديا ، بكل بداهة ، وهي بداهة سرعان ما تأكدت بهذه الكلمات ، كارلوتا ، اشعلي مدفأة في الصالة . على كل منا أن يقرر ما إذا كانت تفاصيل مثل هذه ضرورية أم لا لفهم الحكاية ، كل شيء يتوقف على انتباه كل واحد ، على مزاجه وصورة وجوده ، فبعضهم يحترم أكثر من كل شيء الأفكار العامة ، اللقطات الاجمالية ، البانورامية ، الجداريات التاريخية ، وبعضهم على العكس من ذلك مشغوفون بالصلات والتعارضات الدقيقة ، نعلم جيداً ان أرضاء الجميع غاية لا تدرك ، في الحالة التي تشغلنا ، يدور الأمر ببساطة حول أن يترك للمشاعر الوقت اللازم لتشق درباً ، لتفتح طريقاً بين البشر وداخلهم ، وفي أثناء ما كانت كارلوتا تروح وتجيء ، ويبرهن سلفادور من جديد على ملاحظة حادة وريكاردو ريس يتساءل ما اذا كان تغيير رأيه المفاجيء قد بدا مريباً ، لقد قال أولاً ، سأخرج ، وفي نهاية المطاف ، بقي .

دقت الساعة الثانية ، ثم الثانية والنصف ، صحف ليشبونة ، العارية من الأهمية ، قرئت وأعيدت قراءتها ، أخبار من الصفحة الأولى ، ادوارد السابع سيكون ملك انكلترا الجديد ، وزير الداخلية تلقى تهنئة من المؤرخ كوستا بروشادو ، الذئاب نزلت حتى القرى ، فكرة الأنشلوس ، يدور الأمر بالنسبة لمن يجهلون ذلك ، حول ضم النمسا الى المانيا ، رفضت من جانب الجبهة الوطنية النمسوية ، الحكومة الفرنسية قدمت استقالتها ، التباينات بين جيل روبليس وكالفوسوتيغو يمكن ان تهدد الكتلة الانتخابية لجماعات اليمين الإسباني ، في الإعلانات بارجيل هو أفضل أكسير للأسنان ، الباليرينا الشهيرة ماروجيتا فونتان تبدأ غداً في الأركاديا ، هذه نماذج سيارات ستوديبيكر الجديدة ، الرئيس ، الديكتاتور ، اذا كان العالم كله يظهر في اعلان فرير النقّاش ، فإننا نجد هنا ملخصاً كاملاً للعالم الحالي ، تدشين سيارة ، ديكتاتور ، هذه علامة الأزمنة والأذواق . رن جرس المدخل عدة مرات ، أناس يخرجون ، آخرون يدخلون ، زبون جديد ، جرس ملح من سلفادور ، بيمنتا الذي يحمل الحقائب ، ثم ساد صمت متطاول وثقيل ، ادلهم بعد الظهر ، جاوزت الساعة الثالثة والنصف ، انتزع ريكاردو ريس نفسه من الأريكة ، جرّ نفسه حتى الاستقبال ، سلفادور ينظر اليه بتعاطف ، وربما بإشفاق ، هل قرأت ، اذن ، كل الصحف ، لم يتيسر لريكاردو ريس الوقت للرد ، كل شيء جاء فجأة وسريعاً جداً ، الجرس ، الصوت ، في أسفل الدرج ، هل تستطيع ، يا سيد بيمنتا ، أن تساعدني في الصعود بهذه الرزم ، من فضلك ، هبط بيمنتا ، عاد الى الصعود ومرساندا معه ، ريكاردو ريس لم يعد يعلم ماذا يفعل ، هل يجب ان يبقى حيث هو ، أم يعود الى الجلوس ليتظاهر بالقراءة أو بالجلوس ناعساً في الحرارة العذبة ، ولكنه ان فعل هذا ، فما الذي سيفكر فيه سلفادور ، هذا الجاسوس الفطن ، كان عند

هذه النقطة من تأملاته ، متأرجحاً بين هذه الأفعال المتنوعة ، عندما دخلت مرساندا الى الاستقبال ، قالت ، مساء الخير ، ثم هتفت ، أنت هنا ، يا سيدي الدكتور ، أجاب ، كنت أقرأ الصحف ، مضيفاً في الحال ، أتيت على الانتهاء في هذه اللحظة ، جمل رهيبة يمكن ان تؤدي الى الابهام ، ذلك أني اذا كنت آخذاً في قراءة الصحف ، فأنا لا أرغب في الكلام ، واذا انتهيت ، فأنا ذاهب ، فأضاف اذن ، وأحس بنفسه مرة أخرى مضحكاً الى درجة لا متناهية ، المرء يرتاح جداً هنا ، في الدفء ، ابتذال التعبير أحزنه ، مازال يتردد ، غير قادر على العودة للجلوس ، لأنه إن فعل ذلك الآن ، فسوف تظن انه يرغب في البقاء وحيداً ، ولكنه اذا انتظر صعودها الى غرفتها ، فيخشى ان تعتقد انه قد خرج ، فيجب إذن أن يتصرف بحيث تفهم مرساندا انه ذاهب ليجلس في انتظارها ، حساب عقيم جداً ، لأن مرساندا قالت ببساطة ، سأضع كل هذا في غرفتي ، وسأعود الى النزول لأتحدث إليك قليلاً إذا كان لديك الصبر على الاستماع إلي ، وليس لديك شيء أهم تفعله . ليس في ابتسامة سلفادور شيء خارق للعادة ، انه يحب ان يرى زبائنه يتعاطفون ، هذا يخلق جواً مفيداً للفندق ، ثم حتى حين تبدو هذه الابتسامة مفاجئة ، فإن استنفاد الموضوع لايجعل الحكاية تتقدم في شيء ، لا سيما وانها اختفت حالما ارتسمت ، على اعتبار انه ليس لها أي مبرر . ريكاردو ريس ابتسم بدوره ، ابتسامة لم تدم طويلاً وأجاب ، بكل سرور ، أو أي شيء قريب من ذلك ، عبارة عادية ، تافهة ، من المؤسف أننا لا نأخذ الوقت الكافي لتحليل كل هذه العبارات الجوفاء التي تُكَرر والتي لم يعد لها اليوم بريق ولا لون ، ولكن فلنحاول مع ذلك ان نتذكر كيف أمكن أن تقال وتُستقبل في المرة الأولى ، سيكون هذا بكل سرور ، أنا تحت تصرفك ، يجب أن تكون جرأة هذه التصريحات الصغيرة قد حملت من أدلى بها على

التردد ، وجعلت الذي أو التي سمعاها يرتعشان انفعالاً وأملاً ، في الزمن الجميل ، زمن الكلمات الجديدة تماماً وزمن المشاعر الأولى .

لم تتأخر مرساندا في النزول ، وقد اعادت تمشيط شعرها وزينت شفتيها ، حركتان أصبحتا من الآليات ، من الانتحاءات في المرآة ، كما يقول بعضهم ، في حين يؤكد آخرون انه اذا حكمنا عليها بالنتائج ، فإن للمرأة ، في كل الظروف ، تحت غطاء خفة الروح ودراية الحركة ، سلوكاً واعياً ذا كفاية مرعبة . إلا أن هذه التأملات لا تستحق التوقف عندها . نهض ريكاردو ريس لاستقبالها ، قادها الى أريكة تشكل زاوية قائمة مع اريكته ، لأنه لم يجرؤ على ان يقترح عليها الجلوس على أريكة اخرى ، أوسع ، يستطيعان ان يكونا عليها جنباً الى جنب . جلست مرساندا ، وضعت يدها اليسرى على صدرها ، وابتسمت بهيئة مستغرقة ومتباعدة ، كما من أجل ان تقول ، الأمر هكذا انها لا تفعل شيئاً دوني ، كان ريكاردو ريس على أهبة ان يسألها ، هل أنت متعبة ، حين ظهر سلفادور على عتبة الباب ليسأل ما اذا كانا يرغبان في تناول شيء ، قهوة او شاي ، أجابا ، نعم ، مع هذا البرد ، القهوة فكرة حسنة . تحقق سلفادور ، قبل أن يذهب لإعطاء تعليماته ، من حسن عمل المدفأة التي كانت تنشر رائحة نفط معندة ، في حين كان اللهيب ، المصنوع من ألوف الألسنة ، الزرقاء الضئيلة ، يتمتم دون انقطاع . سألت مرساندا ريكاردو ريس عما اذا كان قد أحب المسرحية ، وأومأ هذا الأخير ايجاباً ، مع توضيحه ، بأن واقعية الاخراج بدت له مصطنعة ، وأضاف ، محاولاً ان يجعلها تفهمه بشكل أفضل ، في رأيي أنه لا ينبغي للإخراج ان يكون واقعياً أبداً ، ما يجري على الخشبة مسرح ، وليس الحياة ، لا يمكن تمثيل الحياة ، المرآة نفسها ، وهي مع ذلك اكثر انعكاساتها أمانة ، تحول اليمين الى يسار واليسار الى يمين . الحت مرساندا ، ولكن ذلك راق لك ،

نعم أم لا . لخص قائلاً ، نعم راق لي ، كان من شأن كلمة واحدة ان تكفي . دخلت ليديا في هذه اللحظة مع الطبق الذي وضعته على الطاولة الواطئة ، سائلة عما اذا كانا يريدان شيئاً آخر . اجابت مرساندا ، كلا ، شكراً جزيلاً ، ولكن ليديا كانت تنظر الى ريكاردو ريس الذي لم يكن قد رفع رأسه وكان يجذب الفنجان اليه بحذر ، مع سؤاله مرساندا ، كم ملعقة ، اجابت اثنتان ، كان جلياً انه لم يبق لليديا ما تفعله هناك ، فانسحبت اذن ، متعجلة قليلاً في نظر سلفادور الذي احتج ، من وراء معقله ، رفقاً بهذا الباب .

وضعت مرساندا الفنجان على الطبق ، ووضعت يدها اليمنى على اليسرى ، وكلتاهما باردتان ، وبينهما هذه المسافة التي تميز ما يعيش عما هو دون حركة ، الذي مايزال يمكن انقاذه عما فقد فعلاً . لن يحب أبي ان يعلم اني أفدت من لقائنا بالأمس لأسألك رأيك كطبيب . اتريدين رأيي حول حالتك . نعم ، حول هذه الذراع غير القادرة على التحرك وحدها ، حول هذه اليد المسكينة . آمل ان تكوني تستطيعين ان تعذريني لكوني غير مرتاح تماماً لمناقشة ذلك ، أولاً لأني لست اختصاصياً ، ثم ، لأني لا أعرف سوابقك ، وأخيراً ، بسبب الميثاق الأخلاقي للمهنة . اعرف كل هذا ، ولكنه لا يمكن منع مريض من ان يتخذ من طبيب صديقاً ، ومن التحدث إليه عن الأوجاع التي تعذبه . بالتأكيد كلا . حسناً ، أفعل كما كنت صديقي وأجبني . يسرني ان تعتبريني صديقك ، اذا استعدت تعبيرك ، أعرفك منذ شهر فعلاً . اذن ، أجبني . سوف أحاول ، إلا أنه ينبغي من أجل ذلك ان اطرح عليك بعض الاسئلة . بقدر ما تريد . ويمكن ان نضيف هذه الجملة الى القائمة الطويلة من الجمل التي غالباً ما تكررت في الماضي ، في طفولة الكلمات ، أنا تحت تصرفك ، بكل سرور ، سيكون ذلك متعة ، كل ما

تريدين . ليديا التي عادت رأت وجه مرساندا بلون النار وعينيها نديتين ، ألقت نظرة على ريكاردو ريس الذي كان خده الأيسر يستند الى قبضته المغلقة ، كلاهما صامتان ، كما لو ان محادثة هامة قد جرت تواً ، ولكن أية محادثة ، او كما لو كانا يتهيئان لواحدة ، ولكن أيها . حملت الطبق ، اذا لم توضع الفناجين وضعاً صحيحاً على الصحون ، فإنها ترتجف ، تعرف ذلك جيداً ، يجب على المرء الانتباه عندما لا يكون واثقاً من يديه ، إذا أراد تجنب سماع سلفادور يحتج ، رفقاً بهذه الأوعية .

توقف ريكاردو ريس برهة ، بدا يفكر ، ثم مال ، ممدود اليدين نحو مرساندا ، سائلاً إياها ، هل تسمحين ، انحنت بدورها ، انحناءة خفيفة ، ويدها اليمنى مازالت تمسك باليسرى ، وضعت هذه الأخيرة بين يديه ، كما لو كان الأمر يدور حول عصفور مريض ، مكسور الجناح ، مثقوب الصدر برصاصة . وببطء ، وبضغط رقيق ولكنه ثابت ، فحص اليد حتى القبضة ، متحسساً للمرة الأولى في حياته بما هو التسليم الكلي ، غياب الارتكاس الارادي او الغريزي ، العطاء دون دفاع ، أو أسوأ أيضاً ، الإحساس بجسم غريب قد لا يكون من هذا العالم . نظرت مرساندا الى يدها بثبات ، أطباء آخرون عالجوا بأيديهم هذه الآلة المشلولة ، هذه العضلات دون قوة ، هذه الأعصاب غير المفيدة ، هذه العظام التي ما تكاد تسند الهيكل المسكين ، اليوم جاء دور هذا ، الذي عهدت اليه طواعية بنفسها ، لفحصها . لو دخل الدكتور سامبايو في هذه اللحظة ، فإنه لن يصدق عينيه ، الدكتور ريس يمسك بيد ابنته دون ان تقاوم هذه ولا تلك ، ولكن أحداً لم يدخل ، صالة الفندق مكان غريب حقاً ، بعض الأيام ، هناك عرض دائم ، في أيام اخرى ، مثل اليوم ، يسود الهدوء الأجوف ، أرخى ريكاردو ريس برفق ضغطه ، نظر ، دون ان يعرف لماذا ، أصابعه ثم سأل ، منذ أية مدة حدث هذا .

مضى على ذلك أربع سنوات في كانون الأول . أحدث تدريجياً أم فجأة . شهر ، أهذا تدريجي أم فجائي . تريدين ان تقولي إنك ، في شهر ، انتقلت من الاستعمال الطبيعي لذراعك الى الجمود الكامل . هو ذاك . أكانت هناك علامات مرض سباقة ، توعكات . كلا . أكان هناك أي حادث ، سقطة عنيفة او ضربة . كلا . ماذا قال لك الأطباء . ان هذا نتيجة مرض قلبي . لم تقولي لي انك كنت تعانين من القلب ، سألتك إن كانت هناك أعراض ، توعكات . كنت أعتقد أنك تلمّح الى ذراعي . ماذا قالوا أيضاً . في كوامبرا ، انني لن اشفى ، وهنا الشيء نفسه ، ولكن الذي عالجني منذ سنتين تقريباً يقول إن هذا يمكن ان يتحسن . أية علاجات يطبق . تدليكات ، اشعة ، صدمات كهربائية . وهل يعطي هذا نتائج . ولا أية نتيجة . الا تستجيب الذراع للتيار الغالفاني . بلى ، انها تقفز ، تختلج ، ثم هذا كل شيء . سكت ريكاردو ريس ، ادرك في لهجة مرساندا عدائية مفاجئة ، غيظاً ، كما لو كانت تريد ان تطلب إليه وقف كل هذه الأسئلة ، أو أن يطرح اخرى ، آخر يحتوي على اثنين او ثلاثة ، كهذا مثلاً ، هل تذكرين شيئاً هاماً حدث في تلك الفترة ، أو أيضاً ، هل تعلمين ما هو ، أو ايضاً بصورة أبسط ، هل أصابك حزن . كان التوتر على وجه مرساندا يثبت أنهما كانا يقتربان من نقطة القطيعة ، كانت ، من قبل ، تمنع دموعها بصعوبة ، عند ذلك سأل ريكاردو ريس ، هل اعتراك حزن آخر غير الذي سببته لك حالة ذراعك . أبدت برأسها إشارة إيجابية ، بدأت حركة لم تستطع إنهاءها ، فقد هزّتها شهقة عميقة كتمزق ، وانبجست الدموع ، مستعصية على القمع ، سلفادور ، الذي قلق ، ظهر على العتبة ، ولكن ريكاردو ريس أبدى اشارة مفاجئة ، ملحة ، وابتعد ، متقهقراً حتى زاوية الباب ، حيث لا يمكن ان يُرى . كانت مرساندا قد تمالكت نفسها من قبل ، الدموع وحدها كانت مستمرة في السيلان ، ولكن ذلك

بصورة هادئة ، وعندما تكلمت ، كانت اللهجة المعادية ، ان كانت قد وجدت ، قد زالت . أمي ماتت ، وذراعي لم تعد تتحرك . كنت تقولين لي منذ قليل إن الأطباء كانوا يظنون أن شلل ذراعك نتيجة لإصابتك القلبية . بلى ، أنا أعاني . اذن ، كيف تستطيعين ان تكوني متأكدة من وجود صلة بين موت أمك وجمود ذراعك . أنا واثقة من ذلك ، ولكنني لا أستطيع تفسيره . توقفت قليلاً ، جمعت ما كان قد بقي لديها من عدائية وقالت ، لست طبيبة نفوس . ولا أنا ، لست طبيب نفوس ، لست سوى طبيب عام ، كان صوت ريكاردو ريس يبرز ، بدوره ، بعض الإثارة . رفعت مرساندا يدها الى عينيها وقالت ، سامحني ، انا آخذة في إزعاجك . انت لا تزعجينني ، أود أن أساعدك . لا أحد يستطيع ذلك ، ربما كنت في حاجة الى الفضفضة ، لا شيء أكثر من ذلك . قولي لي ، هل انت مقتنعة حقاً بأن هذه الصلة موجودة . اقتناعاً مطلقاً ، ان ذلك لا ينكر بقدر ما لا ينكر أننا ، نحن الاثنين ، هنا . ولا يكفيك ان تعرفي ، حتى ضد رأي اطبائك ، انه إذا كانت ذراعك قد كفّت عن الحركة ، فذلك فقط لأن امك قد ماتت . فقط . نعم ، فقط ، ولا أريد ان أقول بهذا إن ذلك شيء قليل ، ولكن فقط ، وكي ابقى وفياً لاقتناعك الخاص بأنه ليس هناك سبب آخر ، يجب اذن ان أطرح عليك سؤالاً مباشراً . ما هو . اذراعك لم تعد تتحرك لأنك لا تستطيعين أم لأنك لا تريدين تحريكها . جرى التلفظ بهذه الكلمات في نفثة ، كانت تخمن اكثر مما تسمع ، ولم تكن مرساندا لتفهمها و لم تكن تلك التي كانت تأمل فيها ، إما بالنسبة لسلفادور ، فقد نصب اذنه عبثاً ، كانت خطى تردد على المنبسط ، جاء بيمنتا . يسأل ما اذا كانت هناك فيشات يحملها الى الشرطة ، وهذا السؤال طرح عليه ، هو أيضاً ، بصوت منخفض ، وللأسباب نفسها يجب ان لا يسمع أحد الجواب . يتفق احياناً ان يعلق سؤال غير

مصاغ بين الشفتين والأسنان ، وأن يخرج غير مسموع ، عندما يجري التلفظ به أخيراً ، عند ذلك ، فإن الصوت الخافت الذي تحول الى نعم أو لا ينحل في ظلمة الصالة ، كنقطة دم في شفافية البحر ، نعرف انها هناك ، ولكنها لا ترى . لم ترد مرساندا بشيء ، نظرت ببساطة الى ريكاردو ريس وقالت ، هل لديك نصيحة تعطيني اياها ، اقتراح يستطيع ان يشفيني ، دواء ، علاج . قلت لك من قبل إني لست اختصاصياً ، وفي رأيي ، يا مرساندا ، اذا كنت مريضة في القلب ، فأنت ايضاً مريضة في نفسك . هذه اول مرة يقال لي فيها ذلك . نعاني جميعنا من مرض ، من مرض يمكن ان يقال انه أصولي ، غير قابل للفصل عما نحن عليه ، ويجعل منا ما نحن عليه ، وربما يكون من الأصح ان يقال ان كل واحد منا هو مرضه ، بسببه لسنا شيئاً كبيراً ، بفضله نحن كل شيء ، وبين الاثنين ، الشيطان يأتي ويختار كما يقول المثل . ولكن ذراعي لا يتحرك ، اما بالنسبة الى يدي ، فإنها كما لو كانت غير موجودة ربما لا تستطيع ذلك ، وربما لا تريده ، أنت ترى ، لم نصبح بعد هذه المحادثة أكثر تقدماً . سامحني . قلت لي انك لم تشعري بأي تحسن . هذا صحيح . إذن لماذا تستمرين في المجيء الى ليشبونة . لم أكن لآتي لو لم يكن أبي يتمسك بذلك ، إن لديه اسباباً خاصة به لرغبته في المجيء . أسباب . عمري ثلاثة وعشرون عاماً ، وأنا عازبة ، واذا كانت تربيتي تمنعني من الحديث عن بعض الأشياء ، فذلك لا يمنع كوني أفكر فيها ، ذلك اخيراً ، لأنه لا يمكن منعي من كل شيء . فسّري كلامك بصورة افضل . اهذا ضروري حقاً . ليشبونة ، على الرغم من ان ليشبونة بسفنها على البحر . ما هذا . بيتا شعر لم أعد أعلم لمن هما . في الوقت الحاضر ، أنا التي لا أفهم . حتى لو كانت هناك أشياء كثيرة ، فلا نجد فيها كل شيء ، ولكن بعضهم يعتقد انهم سيجدون في ليشبونة ما يحتاجون إليه او ما

يرغبون فيه . اذا كان كل هذا الخطاب يرمي الى جعلي اقول ان لأبي عشيقة في ليشبونة ، فالجواب هو نعم ، لديه عشيقة . لا اعتقد ان أباك يحتاج الى ذريعة مرض ابنته ليستطيع المجيء الى ليشبونة ، وفضلاً عن ذلك فأمام من يجب ان يبرر نفسه ، انه رجل مازال فتياً ، أرمل ، وحر بالتالي . كما سبق وقلت لك ، تربيتي ترغمني على السكوت عن بعض الأشياء ، ولكني أقولها تلميحاً ، أنا مثل أبي ، مع وضعه وتربيته ، كلما كان الأمر سراً كان ذلك افضل . لحسن حظي انه ليس لي ولد . لماذا . ما من خلاص في عيني ابن . أحب أبي . أصدقك ، ولكن الحب لا يكفي . سلفادور المرغم على البقاء وراء المكتب لم يكن يتخيل ما هو في طريقه الى فقدانه ، كشوفات ، مكاشفات ، بأكثر ما في العالم طبيعية ، بين شخصين ما يكادان يعرفان بعضهما ، ولكنه لا يكفي من اجل سماعها التمركز في وضعية الاصغاء ، فيجب ايضاً ان يكون المرء جالساً هناك ، على الأريكة ، محنياً الى الأمام ، يقرأ على الشفاه كلمات لا تكاد تلفظ ، يمكن سماع تمتمة المدفأة أفضل مما يسمع هذان الصوتان الخافتان ، يخيل الى المرء انه في حجرة الاعتراف ، فلتغفر خطايانا جميعاً .

وضعت مرساندا يدها اليسرى في راحة اليمنى ، كلا ، لم يقع الأمر هكذا ، هذه الجملة تجعل المرء يفترض ان اليد اليسرى مضت ، مطيعة امراً من الدماغ ، لتوضع فوق الأخرى . يجب ان يكون المرء حاضراً كي يفهم كيف جرت الأمور ، اليد اليمنى قلبت أولاً اليسرى ، ثم وضعت نفسها تحتها ، اخذ الخنصر والبنصر القبضة ، وهما الآن تقتربان ، متحدثين ، من ريكاردو ريس ، الواحدة تقدم الأخرى ، او تطلب المساعدة ، ما لم تكونا قد استسلمتا ببساطة للمحتوم ، قل لي ما اذا كنت تعتقد اني سأشفى . لا أعلم ، مضت عليكِ أربع سنوات وأنت هكذا ، دون تحسن ، تتوفر لطبيبك

عناصر تقويم تنقصني ، وفوق ذلك ، أكرر لك ، لست كفؤاً في هذا الصدد . سوف أتخلى ، لن أعود آتي الى ليشبونة ، سأقول لأبي إني سلمت ، انه لم يعد ينبغي ان ينفق مالاً من أجلي . لأبيك ، في الوقت الحاضر ، سببان للمجيء الى ليشبونة ، انت تسلبينه واحداً منهما . ربما سيجد الشجاعة ، ليستمر في المجيء وحده . يكون قد فقد ذريعة مرضك ، في الوقت الحاضر ، يعتبر نفسه أباً يريد أن يرى ابنته وقد شفيت ، الباقي في نظره غير موجود حقاً ، ماذا يجب ان أفعل . لا نكاد نعرف بعضنا بعضاً ، ليس لي الحق في أن أعطيك نصائح . أنا التي أطلبها منك . لا تتخلي ، استمري في المجيء الى ليشبونة ، افعلي ذلك من أجل أبيك ، حتى ولو لم تعودي تؤمنين بالمعالجات . كلا لم أعد أؤمن بها تقريباً . دافعي عما بقي لك ، ذريعتك ، أنت ، ستكون الإيمان . لماذا . للإبقاء على الأمل . أي أمل . الأمل ، لا شيء أكثر من ذلك ، إنه أحياناً كل ما يبقى لنا ، ولكننا إن امتلكناه امتلكنا كل شيء . غاصت مرساندا في الأريكة ، فركت ببطء ظاهر يدها اليسرى . كانت تدير ظهرها الى النافذة ، ولم يكن يمكن تمييز وجهها جيداً . في ظروف اخرى ، كان من شأن سلفادور ان يكون قد أتى ، من قبل ، لاضاءة الثريا الكبيرة ، مفخرة فندق براغانسا ، ولكنه بدا أنه كان يريد إبداء تضايقه من إبقائه في هذه العلانية مبعداً عن محادثة كان مع ذلك أول من سهّلها ، متحدثاً الى أسرة سامبايو عن ريكاردو ريس ، والى ريكاردو ريس عن أسرة سامبايو ، وهذه هي الطريقة التي كان هذان الاثنان يشكرانه بها الآن ، غارقين في حديثهما ، متهامسين في شبه ظلمة الصالة ، وما كاد يفكر في هذا حتى أضاءت الثريا ، كان ريكاردو ريس قد ضغط على الزر ، ذلك أنه لو دخل أحد في هذه اللحظة ، لكان يمكنه أن يجد ملفتاً للنظر أن يرى رجلاً وامرأة جالسين في الظلمة ، وحتى لو كان الأمر يدور حول طبيب

ومعاقة ، فقد كان ذلك اسوأ من المقعد الخلفي في تاكسي . وكما كان يجب ان ينتظر ، ظهر سلفادور على العتبة ليقول ، كنت آتياً لإشعال النور ، يا سيدي الدكتور ، وابتسم . ابتسما بدورهما ، حركات ووضعيات تشكل جزءاً من ميثاق المجاملات ، قشور نفاق ، قشور لباقة ، والباقي لإخفاء الحزن . مضى صمت طويل ، بعد ذهاب سلفادور . كان الحديث يبدو أقل سهولة مع كل هذا النور . قالت مرساندا اذ ذاك ، اذا لم يكن في ذلك اكثر مما ينبغي من التطفل ، هل أستطيع ان أسألك لماذا تعيش في الفندق منذ شهر . لم أقرر بعد أن أبحث عن بيت ، وفضلاً عن ذلك لا أدري إن كنت سأبقى في البرتغال ، ربما انتهيت الى العودة الى ريودو جانيرو . قال لي سلفادور إنك عشت فيها ست عشرة سنة ، فلماذا عدت . الحنين الى البلد . شفيت منه بسرعة كبيرة ، إذا كنت تتحدث منذ الآن عن الرحيل مجدداً . ليس الأمر هكذا تماماً ، عندما قررت أن أجيء الى ليشبونة ، كان يبدو لي ان لدي اسباباً ملحة ، قضايا على أعلى درجة من الأهمية يجب أن أصفيها هنا . والآن . الآن ، بقيت الجملة معلقة ، أخذ يتأمل نفسه في المرآة المواجهة له ، الآن ، أرى نفسي كالفيل الذي يحس باقتراب ساعة موته ، فيبدأ في السير نحو المكان ، الذي يجب ان يموت فيه . اذا عدت الى البرازيل ، ولم ترجع ، فهذا هو ، اذن ، المكان الذي سيذهب اليه الفيل ليموت . عندما يهاجر المرء ، يكون البلد الذي ربما سيموت فيه هو ، أيضاً ، الذي يجب ان يعيش ضمنه ، هذا هو كل الفرق . لن تعود هنا دون شك في الشهر القادم ، عندما سأعود الى ليشبونة . ربما ستكون لي شقة ، وعيادة ، وعادات ، وربما أكون قد عدت الى ريودو جانيرو ، ستعلمين ذلك بسرعة ، سلفادورنا سيخبرك . سوف آتي كي لا أفقد الأمل . اذا لم افقده فسوف أكون مازلت هنا .

مرساندا في الثالثة والعشرين من عمرها ، لا نعرف بالضبط الدراسات التي تابعتها ، ولكنها ، وهي ابنة مسجل عقود ، وفوق ذلك من كوامبرا ، انهت الدراسة الثانوية ، دون شك ، ولأنها مرضت بهذه الصورة الدراماتيكية فقط تركت كلية ما ، الحقوق أو الآداب ، الآداب بالأحرى ، لأن الحقوق ، الدراسة الشاقة للقوانين ، ليست مصنوعة حقاً من أجل النساء ، ثم هناك من قبل محام في الأسرة ، لو كانت صبياً لكان استطاع ، أيضاً ، تخليد السلالة ، استعادة المكتب ، ولكن القضية ليست هنا ، يجب مع ذلك ان نعترف بدهشتنا لرؤيتنا فتاة من هذا البلد ، من هذا العصر ، قادرة على اجراء محادثة عميقة ، بالمقارنة مع الخطابات العادية ، لم تبد بلهاء ولا مدعية ، لم تلعب دور النساء العالمات ، لم تحاول منافسة الذكر ، إذا سمح لنا بهذه الكلمات التافهة ، تحدثت بصورة طبيعية ، وهي ذكية ، لتعوّض دون شك نقصاً جسدياً يمكن ان يصيب رجلاً كما يمكن ان يصيب امرأة . نهضت الآن ، ويدها اليسرى على ارتفاع صدرها ، وابتسمت . أشكرك كثيراً على صبرك . لا تشكريني ، سرتني هذه المحادثة كثيراً . هل تتعشى في الفندق . نعم . اذن ، سوف نرى بعضنا قريباً . الى اللقاء . نظر اليها ريكاردو ريس تبتعد ، اقل طولاً مما كان يعتقد ، ولكنها نحيلة ، هذا ما خدعه . سمعها تقول لسلفادور ان تأتي ليديا الى غرفتها حالما تستطيع . ريكاردو ريس هو الوحيد الذي وجد الطلب غريباً ، ولكن ذلك لأن بعض المخالطات تثقل على ضميره ، فحتى الطبيعي جداً ، أخيراً ، ان تطلب زبونة خادمة ، خاصة إذا كانت في حاجة الى مساعدة لتغيير ملابسها . تأخر ريكاردو ريس قليلاً ، فتح المذياع في البرهة التي كانت تذاع فيها «البحيرة النائمة» ، مجرد مصادفة ، في القصص وحدها يستفاد من هذه المطابقة ، وتجري موازاة وهمية بين بحيرة صامتة وفتاة عذراء ، لأنها كذلك بالتأكيد ،

حتى ولم يقل ذلك ، وكيف يعرف ، على اعتبار انها لا تتحدث في الموضوع ، إنه من أخص الموضوعات ، خطيبها نفسه ، إذا انتهت بأن يكون لها خطيب ، لن يجرؤ على سؤالها ، هل أنت عذراء ، ذلك أنه يجري الانطلاق ، حتى اليوم ، في هذا الوسط الاجتماعي ، من المبدأ الذي يقول ، نعم ، يا سيدي ، إنها عذراء ، سوف تستطيع التأكد من ذلك عندما يحين الوقت ، واذا تبين ان الحال ليست كذلك ، فسوف تكون هناك فضيحة كبيرة . انتهت الموسيقى ، تبعتها أغنية نابولية ، سيريناد ، كان التينور يهدل بهذه الألحان العاطفية الرائعة عندما دخل زبونان الى الصالة ، كان هناك دبوس ماسي على ربطة العنق التي كانت عقدتها تختفي تحت ذقن مزدوجة ، جلسا واشعلا سيغارين . هل سيعالجان صفقة فلين أم أسماك معلبة ، كان يمكن حقاً ان ننتهي الى معرفة ذلك لو لم يخرج ريكاردو ريس ، شارد الذهن الى درجة نسيانه ان يقول كلمة لسلفادور ، أمور جميلة تحدث في هذا الفندق .

بعد قليل ، عاد الدكتور سامبايو . لم يغادر ريكاردو ريس ومرساندا غرفتيهما . أمضت ليديا وقتها في الركض على السلالم والمماشي ، لأنها طلبت كثيراً ، من أجل بلاهة ما ، تناقرت مع بيمنتا ، لحسن الحظ وقع الاحتكاك بعيداً عن الآذان الفضولية ، سلفادور لم يسمع شيئاً ، وإلا لاقتضى فوراً ان يفسر له بيمنتا ما الذي تعنيه تلميحاته الى الأشخاص الذين يعانون من السير أثناء النوم ، ويتيهون في المماشي في ساعات غير مناسبة . كانت الساعة الثامنة عندما جاء الدكتور سامبايو يطرق باب ريكاردو ريس . كلا ، إنه لن يدخل ، شكراً جزيلاً ، جاء فقط يدعوه الى العشاء معهما ، نعم الثلاثة معاً ، لأن مرساندا حدثته عن محادثتهما ، أشكرك شكراً لا حد له ، يا سيدي الدكتور ، ألح عليه ريكاردو ريس كي يجلس

لحظة ، لم أفعل شيئاً ، اصغيت إليها فقط ، واعطيتها النصيحة الوحيدة التي يمكن اعطاؤها لشخص لا نعرف جيداً جداً مشكلته ، الاستمرار في المعالجات ، وعدم فقدان الأمل . هذا أقوله لها دائماً ، ولكنها لا تصغي إلي كثيراً ، أنت تعرف كيف هم الأبناء ، نعم يا أبي ، كلا يا أبي ، ولكنها تأتي الى ليشبونة على كره منها ، ويجب حقاً ان تأتي ليستطيع الطبيب متابعة تطور المرض ، المعالجات تتم في كوامبرا . يجب حقاً ان يكون هناك اختصاصيون في كوامبرا . القليل منهم ، ودون نميمة ، الموجودون لا يوحون لي بالثقة ، فنأتي اذن الى لشبونة ، الطبيب الذي يعالجها بارع جداً ولديه خبرة . أيام الغياب هذه يجب احتمالاً ان تربك عملك . نعم ، بالتأكيد ، هذا يضرّ بي ، ولكن ما فائدة الأب إذا كان يرفض التضحية بقليل من وقته لولده . لم تتوقف المحادثة هنا ، بل استمرت على النمط نفسه ، تبادلا بضع عبارات أيضاً ، مكررين الكلمات نفسها ، متحفظين وكاشفين عن نفسيهما بالتناوب ، كما هي القاعدة في المحادثات ، وعلى الأخص في هذه ، للأسباب التي نعرفها من قبل ، الى أن وجد الدكتور سامبايو من اللائق أن ينهض . إذن ، في الساعة التاسعة ، سنأتي لنقرع بابك . كلا يا سيدي ، انا الذي سآتي ، لا أريد ازعاجكما . وفي الساعة المحددة ، قرع ريكاردو ريس باب الغرفة ذات الرقم مائتين وخمسة ، وهذه أيضاً لياقة متواضع عليها ، ذلك أنه كان منتهى قلة التهذيب ان ينادي مرساندا أولاً .

جرت تحية دخولهم الى قاعة الطعام اجماعياً بابتسامات وهزات رأس خفيفة ، سلفادور الذي نسي الاساءات ، أو كان دبلوماسياً بكل بساطة ، فتح الأبواب المزججة ذات المصراعين ، ريكاردو ريس ومرساندا مرّا أولاً ، كما ينبغي أن يكون عليه الأمر ، لأنه المدعو . من هنا لا يمكن سماع

المذياع ، كان يمكن للمصادفة ان تكون أجمل مما ينبغي حقاً ، لو كان يذاع ، في هذه اللحظة ، النشيد العرائسي للوهنغران ، أو لمندلسون ، أو نشيد لوسيا دولا ميرمور ، الأقل شهرة دون شك ، لأنه عزف بالضبط قبل وقوع مصيبة . الطاولة التي ذهبوا ليجلسوا عليها كانت بالطبع طاولة الدكتور سامبايو ، وفيليب هو الذي يخدم ، إلا أن رامون لم يتخل عن حقوقه ، فسوف يخدم بالاتفاق مع زميله ومواطنه ، ذلك أن كليهما قد ولدا في فيلاغار سيادوا روزا ، مسالك للمصير الإنساني لادواء لها ، بعضهم غادر غاليسيا ليأتي الى ليشبونة ، هذا الأخير ، المولود في بورتو ، عاش بعض الوقت في العاصمة ، ثم هاجر الى البرازيل ، التي عاد منها ، وهذان يروحان ويجيئان ، منذ ثلاث سنوات بين كوامبرا وليشبونة ، وكلهم يسعون وراء دواء ، أو صبر ، أو مال ، أو سلام ، أو صحة أو حتى ، لكل واحد متطلباته ، من أجل ذلك تصعب تلبية كل الحاجات الى هذا الحد . جرى العشاء بسلام . جلست مرساندا الى جانب ابيها ، وريكاردو ريس الى يمين مرساندا التي لم يكن يبدو على يدها اليسرى ، التي تستريح كالعادة الى جانب الصحن ، انها تختبىء ، بل يخيل الى المرء ، على العكس من ذلك تماماً انها تعرض نفسها ، ولا تقولوا لي ان التعبير ليس صحيحاً ، وإلا فإنكم ، إذ ذاك ، لم تسمعوا قط رجل الشارع يتكلم ، ويجب ان لا ننسى أن هذه اليد لامست يد ريكاردو ريس ، كيف لا تكون فخورة ، ان عيوناً أشد حساسية من عيوننا ستقدر انها متألقة ، ولكنه لا يوجد حقاً شيئاً يمكن الإفادة منه لدى عميان مثلنا . لا يدور الأمر حول عاهة مرساندا ، فقد سبق ان جرى الحديث أكثر مما ينبغي عن الحبل في بيت المشنوق ، الدكتور سامبايو يمتدح ضروب جمال اثينا البرتغالية ، هناك جئت الى العالم وكبرت ، وأنهيت دراستي ، وأعمل ، هذه المدينة فريدة . الأسلوب

يفرض نفسه ، إلا أنه لا يمكن أن يدور الأمر ، على هذه الطاولة ، حول مناقشة مزايا كوامبرا ، أو بورتو ، أو فيلا غارسيا دو أروزا ، أو اي مكان آخر ، ريكاردو ريس يسخر الى آخر حد من كونه ولد هنا او هناك ، لن يجرؤ فيليب ورامون على التدخل في محادثة السيدين الدكتورين هذه ، من اجل ذلك غالباً ما نسمع ، إبق في مكانك ، ثم إن لكل واحد منا مكانين ، المكان الذي ولد فيه والمكان الذي يحتله ، وليس من الضروري توضيح ذلك . الدكتور سامبايو كان يعرف ان ريكاردو ريس كان قد هاجر الى البرازيل لأسباب سياسية ، والطريقة التي عرف بها ذلك لم تكن فضلاً عن ذلك واضحة جداً ، لم يكن يمكن لسلفادور ، الذي يجهل ذلك ، ان يتحدث عن الموضوع ، اما بالنسبة لريكاردو ريس ، فإنه لم يقل شيئاً صريحاً ، ولكن بعض الأشياء تخمن ، يكفي صمت ، نظرة ، لهجة ما في القول ، ذهبت الى البرازيل عام ألف وتسعمائة وتسعة عشر ، سنة إعادة الملكية في الشمال ، من أجل أن لا يخطىء الفهم السمع الدقيق جداً لمسجل عقود ، معتاد على الأكاذيب والوصايا والاعترافات ، الدكتور وصل إذن ، وكان هذا محتوماً ، الى الحديث في السياسة . انتهى ريكاردو ريس ، لأنه لم يحس بأنه قادر على اقتراح موضوع آخر للمحادثة ، متحسساً الميدان ، سالكاً دروباً ملتوية ، محاولاً ان يرى ما اذا كان هناك ألغام أو شراك مخفية ، انتهى على الرغم من كل شيء بالكشف عن نفسه ، وقبل الحلوى ، كان قد صرح فعلاً بأنه لايؤمن بالديمقراطية ، وانه ينطوي على كراهية مميتة للاشتراكية ، قال الدكتور سامبايو ضاحكاً ، أنت من جماعتنا ، أما بالنسبة لمرساندا ، فلم يكن يبدو أبداً ان المحادثة تهمها ، ودون سبب ظاهر ، وضعت يدها اليسرى على ركبتيها . والرونق ، اذا كان هناك رونق ، سرعان مازال . يا عزيزي الدكتور ريس ، ان ما يصنع قوتنا ، نحن ، في بقعتنا

الصغيرة هذه في أوروبا ، هي أن لدينا ، على رأس الحكومة ، رجلاً متفوقاً ذا قبضة متينة ، بعد إطلاق هذه الكلمات ، تابع الدكتور سامبايو قائلاً ، لا توجد أية مقارنة ممكنة بين البرتغال التي غادرتها والبرتغال التي ستلقاها ، إعلم جيداً أنك وصلت منذ وقت قصير ، ولكنك اذا تجولت ، هنا وهناك ، فاتحاً عينك ، فلا يمكن إلا أن تكون قد لاحظت التغييرات الكبيرة ، زيادة الثروة القومية ، الانضباط ، العقيدة المتماسكة والوطنية ، احترام الأمم الأخرى لوطننا البرتغالي ، من أجل إدارته ، من اجل تاريخه القديم ، ومن أجل امبراطوريته . أجاب ريكاردو ريس ، لم أر بعد أشياء كثيرة ، ولكني مطلع بفضل الصحف . آه ، بالتأكيد الصحف ، يجب ان تقرأ ، ولكن هذا لا يكفي ، يجب ان تذهب لترى بعينيك ، الطرق ، المرافئ ، المدارس ، الأشغال العامة ، ولتقوّم الانضباط ، يا عزيزي الدكتور ، طمأنينة الطرقات والنفوس ، أمة بكاملها مكبة على العمل بإشراف رجل دولة عظيم ، يد حديدية حقيقية في قفاز مخملي ، كان هذا بالضبط ما يلزمنا . التشبيه رائع . ليس مني مع الأسف ، لقد نقش في ذاكرتي ، يقال ان صورة تساوي مائة خطاب ، هذا صحيح تماماً ، رأيت هذا منذ سنتين او ثلاثة في الصفحة الأولى من «سمبريه فيكس» أو ربما في «ريديكولوس» ، يد حديدية مغطاة بقفاز مخملي ، وكان الرسم متقناً الى درجة كان يرى ، معها ، عندما ينظر اليها عن كثب ، الحديد والمخمل بالدرجة نفسها من الوضوح . جريدة هزلية . الحقيقة ، يا عزيزي الدكتور ، لا تختار المكان الذي تعبر فيه عن نفسها . يبقى ان نعرف ما إذا كان المكان يختار الحقيقة دائماً . تغضن جبين الدكتور سامبايو تغضناً خفيفاً ، هذا التناقض أوقع فيه الاضطراب بصورة مبهمة ، ولكنه نسبه الى تفكير أعمق مما ينبغي ، أو ربما أبرع مسايرة من ان يمكن ان يناقش بين خمرة كورزيس والجبن .

مرسـاندا ، الشـاردة ، تعض على قطع صغيرة من لب الخبز ، رفعت صوتـها لتقول انها لا تـريد حلوى ولا قهوة ، ثم بـدأت جمـلـة كان يمـكن ، لو أكملتها ، ان تحول المحادثة الى «تـامار» ، ولكن أباها تابع ، نصح ، ليس هذا كتاباً كبيراً بـالضبط ، أحد الـكتب التي يؤرخ لها في تاريخ الأدب ، ولكنه بالتأكيد كتاب مفيد ، سهل القراءة ، ويمكن ان يفتح عيون كثير من النـاس . حول أي كتاب يـدور الأمر . عنوانه هو «الـمؤامرة» ، كتبه صحفي وطنـي وقومي ، شخص يدعى تـوميه فيبيرا ، لا أعلم إذا كنت قد سمعت به من قبل . كلا ، لم أسمع ابداً بهذا الاسم ، كنت أبعد مما ينبغي . صدر الـكتاب منذ بضعة أيام ، اقرأه ، اقـرأه ، وسوف نتحدث عنه . لـن تفوتني قراءته طالما انك تنصحني به . كان ريكاردو ريس قد تأسف فعلاً لأنه أعلن عن نفسـه معادياً للاشتراكيـة ، للديمقراطية ، وللبولشفية فوق ذلك ، وليس ذلك لأنه ليس كل هذا ، جملة وتفصيلاً ، ولكنـه ملّ هذه القومية المغالية ، وربما قد ملّ أكثر من ذلك أيضاً من كونه لم يستطع التحدث الى مرساندا ، هذا أمر شائع ، فغالباً ما يتعب المرء لـكونه لم يفعل ، وما يريح هو فعل الشـيء .

كان العـشاء يقتـرب من نهايته ، سحب ريكـاردو ريس كرسي مرساندا التي وقفت ، تـركها تمر أمام أبيها وتردد الثلاثة ، بعد ان خرجوا ، فيما إذا كانوا سيذهبون الـى الصالة أم لا ، كانـت هناك لحظة تردد عام ، ثـم صرحت مرساندا بأنـها تعاني صداعاً وعادت الى غرفتها . قالت ، لن نرى بعضنا على وجه الاحتـمال غداً ، فنحن راحلان في ساعة مبـكـرة ، وكـرر أبـوهـا القـول نفسـه ، تمنى ريكاردو ريس لهما سـفرة سعيدة ، ربما كنت باقياً هنا حين تعودان في الشـهر القادم . اذا لـم تعد هنا ، اترك عنوانك الجديد ، التوصية جاءت من الدكتور سامبايو .

لم يبق الآن ما يقولون لبعضهم . ذهبت مرساندا الى غرفتها ، أصابها صداع أو تظاهرت بذلك ، ريكاردو ريس لا يعلم ماذا سيفعل ، الدكتور سامبايو سيخرج مرة اخرى هذه الليلة .

خرج ريكاردو ريس بدوره ، تنزه في الأماكن المجاورة ، مر أمام دور السينما ليرى البرامج ، حضر مباراة في الشطرنج ، البيادق البيضاء انتصرت ، وكانت السماء تمطر عندما خرج من المقهى عاد الى الفندق في سيارة تاكسي . عندما وصل الى غرفته ، لاحظ ان السرير غير مكشوف وان الوسادة الثانية لم تكن قد غادرت الخزانة ، تمتم ، ليس هذا سوى شجن لا أهمية له . يتوقف لحظة على باب روحي ويبتعد بعد ان يكون قد نظر اليّ ، مبتسماً دون سبب .

يجب على الإنسان ان يقرأ قليلاً من كل شيء ، حسب امكانياته ، لن يطلب منه اكثر من ذلك ، نظراً لقصر الحياة وسعة العالم . سوف ينبغي عليه ان يبدأ بالمؤلفات التي يجب ان يكون كل الناس قد قرؤوها ، تلك التي تسمى بالعامية الكتب الدراسية كما لو لم تكن كل الكتب كذلك ، وسوف تتطور قائمته بموجب نبع المعارف الذي سيستقي منه والسلطة التي سوف تضبط منسوبه . بالنسبة لريكاردو ريس ، تلميذ اليسوعيين ، من السهل تخيل ما يكون عليه الأمر ، حتى ولو لم يعد معلمو الأمس هم معلمي اليوم . فيما بعد ستأتي غراميات الشباب ، مؤلفو قبل النوم ، العواطف العابرة ، امثال فرتر لينتحروا أو ليتحرروا من الانتحار ، وأخيراً القراءات الجدية للعمر الراشد ، عندما نقرأ كلنا ، وقد بلغنا مرحلة معينة من حياتنا ، الأشياء نفسها الى حد ما ، حتى ولو كانت اتجاهات بداياتنا لا تمحي كلياً أبداً ، ولدينا فوق ذلك هذه المزية العظيمة ، المشتركة بين كل الأحياء ، مزية ان نستطيع ان نقرأ ما لم يتوفر للآخرين ، الذين ماتوا قبل الأوان ، الوقت لمعرفتها . وكي نقتصر على مثال واحد ، لنأخذ هذا المسكين البرتو كاميرو* ، فبما انه مات

* واحد من اسماء بيسوا البديلة العديدة و«معلمها جميعها» في رأيه .

عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، فإنه لم يتوفر له الوقت لقراءة «اونوميه دوغويرا» ، والله يعلم كم ينقصه ذلك ، تماماً كما سيفوت كل هذا فرناندو بيسوا وريكاردو ريس اللذين لن يعودا من هذا العالم عندما سينشر المادا نيغريروس* قصته . لولا قليل لرأينا تكرر المغامرة اللطيفة للسيد دو لاباليس الذي كان مايزال حياً قبل ربع ساعة من موته ، هكذا على الأقل ينظر الهزليون المتعجلون الى هذا الأمر ، هم الذين لم يأخذوا أبداً الوقت الكافي لتأمل الواقعة الحزينة جداً فعلياً التي هي ان لا نكون بعد على قيد الحياة ، في الربع ساعة التي تلي موتنا . فلنتابع . سوف ينبغي على رجلنا ان يقرأ كل شيء بما فيه «المؤامرة» ، ولن يضيره في شيء أن ينحدر قليلاً من المرتفعات السامية التي اعتاد على العيش فيها ، ليرى كيف تصنع النماذج النمطية وكيف تغذي الحس المشترك ، ذلك انه هو الذي يتغذى الناس منه يومياً ، لا من شيشرون ولا من سبينوزا ، وما هو أكثر من ذلك ، ألم توصه كوامبرا بهذا الكتاب بحرارة ، اقرأ «المؤامرة» ، يا صديقي ، فسوف تجد فيها عقيدة ممتازة ، نوعية الرسالة تنسي ضروب ضعف الشكل والحبكة ، وكوامبرا تعرف عن أي شيء تتحدث ، هذه المدينة العالمة بين كل المدن ، الخصبة بحملة الشهادات . ذهب ريكاردو ريس ، منذ الغد ، لشراء الكتاب الصغير ، حمله الى غرفته ، ونزع عنه ورقة التغليف ، خلسة ، ليست السرية دائماً ما يظن أنها عليه ، أنها لا تكون أحياناً سوى الخجل الذي نحس به أمام هذه أو تلك من متعنا الخفية ، أصبع في الأنف ، قشرة نحكها ، وغلاف الكتاب ، مع هذه المرأة ذات المعطف الواقي من المطر ، التي تنحدر في

---

* جوزيه سوبرال دو الما نيغريروس ، رسام وكاتب برتغالي (١٨٩٣ ـ ١٩٧٠) أحد أصغر محرري مجلة أورفيو . نجد ، في روايته «اونوميه دوغويرا» (١٩٣٨) عقولاً ساذجة ممزوجة ببراعة تخيلية ستؤثر في المستقبليين والسرياليين .

شارع يحدّه سجن ، يستحق ان يخفى ، هو أيضاً ، ذلك ان الأمر يدور حقاً حول سجن ، بالقضبان على النوافذ ومحرس الحاجب ، الممثلة لغرض واحد هو تحذير المتآمرين مما ينتظرهم . ريكاردو ريس ، يجلس مستريحاً على اريكة ، السماء تمطر على الطريق وعلى الناس ، السماء مثل بحر معلق ، يسيل بلا نهاية على طول ميازيب لا تحصى . وفي حين لا يدور الأمر في كل مكان الا حول فيضانات ، وتخريبات ، ومجاعات ، فإن هذا الكتاب الصغير يروي لنا ، من جهته ، قصة هذه الحملة الصليبية التي قامت بها امرأة تحاول ان ترد الى العقل ، والى الروح القومية كائناً ضللته أفكار مفسدة ، كذا . هذا الدور يناسب النساء تماما او ذلك دون شك للتعويض عن ميولهن المعاكسة ، والأكثر انتشاراً بكثير ، والتي تقوم على إيقاع الاضطراب والضياع في نفوس الرجال ، الذين ظلوا سذجاً منذ آدم . كان قد قرأ فعلاً سبعة فصول ، أي عشية الانتخابات ، ثورة دون طلقة نارية ، أسطورة الحب ، عيد الملكة القديسة ، اضراب اكاديمي ، المؤامرة ، وابنة السناتور . وكي نلخص القصة ، مع التفصيل فيها قليلاً ، يدور الأمر حول طالب شاب ، ابن فلاح ، اعتُقل ، بسبب مخالطات رديئة ، وسجن في ألجوب . ولدوافع وطنية خالصة ، وبروح إنكار الذات ، سوف تحرك ابنة السناتور المشار اليها سابقاً السماء والأرض لتخرجه من هذا ، وهو ما لن يكون أصعب مما ينبغي ، لأنها تحظى بتقدير كبير في الدوائر العليا للسلطة ، أمام الدهشة الكبيرة ممن جاء بها الى الحياة ، سناتور من الحزب الديمقراطي ، متآمر مضلل اليوم ، تربية بنت تحتفظ دائماً بمفاجآت . الفتاة صرحت ، مثل جان دارك ، مع حفظ كل النسب ، منذ يومين ، بابا كاد أن يُعتقل ، اعطيت كلمة شرف بأن بابا لن يتملص من مسؤولياته ، وضمنت أيضاً أن بابا لن يشترك في أية مؤامرة ، آه ، هذا الحب البنوي ، ثلاث مرات كلمة بابا في مثل هذه الجملة القصيرة ،

أية ضروب فيض ، أية صلات عاطفية لا تقودنا ، واستأنفت الابنة الحنون كلامها ، تستطيع ان تشترك في اجتماعك غداً ، أضمن لك أن شيئاً لن يحدث لك ، أعلم ، والبوليس يعلم أيضاً ، أن المتآمرين سيجتمعون مرة اخرى ، ولكنه يسخر من ذلك . كم هو كريم وعطوف بوليس البرتغال الذي لا يقلق من شيء ، صحيح انه يستطيع ان يسمح لنفسه بذلك ، فهو يعرف كل شيء ، له جاسوسة في المعسكر المعادي ليست ، ومن كان يمكن ان يصدق ذلك ، سوى ابنة السناتور المعارض للنظام سابقاً ، هكذا تضيع التقاليد العائلية ، ومع ذلك ، وإذا صدقنا المؤلف ، سوف ينتهي كل شيء بأن يتدبر ، وفوق ذلك فعلاً ، ماذا يقول : وضع البلد يستثير تعليقات حماسية في الصحف الأجنبية ، سياستنا الاقتصادية يضرب بها المثل ، كل الإشارات الى شؤوننا توحي بأننا في وضع متميز ، في البلاد بكاملها ، ألوف العمال يشتغلون في إصلاح الطرق ، الصحف تنشر كل يوم توجهات الحكومة لمحاربة الأزمة التي تمسنا أيضاً بسبب الأحداث العالمية ، المستوى الاقتصادي لأمتنا من أكثر المستويات تشجيعاً ، بالمقارنة مع بلدان اخرى ، اسم البرتغال وأسماء رجال الدولة الذين يحكمونها يستشهد بها في كل مكان ، العقيدة السياسية التي أنضجناها أصبحت موضع دراسة بالنسبة لبعض البلدان ، الكون بأسره ينظر إلينا بتعاطف واعجاب ، الصحف الكبرى ذات الشهرة العالمية ترسل مختصين الى بلادنا ليجمعوا العناصر التي ستسمح لها بالكشف عن سر نجاحنا ، رئيس الحكومة ينتزع من معتكفه العصي على كل اعلان ، من تحفظه الأزلي ، ويرى نفسه مقذوفاً به عبر العالم في أعمدة الريبورتاجات ، لقد أصبح اليوم هدفاً ، وعقائده تتحول الى توجيهات رسولية ، أمام هذا ، الذي ليس هو سوى انعكاس شاحب لكل ما يمكن أن يقال ، يجب أن توافق حقاً ، يا كارلوس ، إن الذهاب للتدخل في

هـذه الإضرابـات كان جنـون إنـسـان غـيـر مسـؤول ، هل فـكـرت مـن قـبـل الصعوبـات التـي سـوف أواجـهها لإخراجك من هنـاك . أنتِ على صواب ، يا ماريليا ، والى أي حد ، ولكن البوليس لم يوجه إليّ أية تهمـة ، إنه يعلم فقط أني أنا الذي نـشرت العلم الأحمر ، الذي لم يكن له ، فضلاً عن ذلك ، لا من قريب ولا مـن بعيد ، علاقة مع علم ، كان مجرد منديل صغير ، صرحـوا ، بالإجمـاع ، في السجن او بصورة أدق ، كي نستعمل مفردات السجون ، في غرفة الاستجواب التـي جرت فيها هذه المحادثة ، انها مزحة غلمان . وفي القريـة ، الواقعة كما لو كان ذلك مصادفة في مقاطعة كوامبرا ، يشرح فلاح آخر ، والـد هذه الفتاة الطيبة التي سينتهي كارلوس الى الزواج بها في نهاية القصة ، لحلقة من المرؤوسين ان كون المرء شيوعياً هو أسوأ الأشياء ، ذلك انهم لا يريدون أرباب عمل ولا عمالاً ، لا قوانين ولا دين ، لا أحد يتلقى المعمودية ، لا أحد يتزوج ، الحب غير موجود ، المرأة شيء لا قيمة له يستطيع أي واحد أن يدعي امتلاكه ، ليس على الأبناء ان يؤدوا أي حساب لآبائهم ، كل الناس يفعلون ما يريدون . الفصول الأربعة الأخيرة والخاتمة كانت كافية لماريليا العذبة ، والمقاتلة أيضاً ، من أجل إنقاذ الطالب من السجن والبرص السياسي ، ولتعلم أباها الذي يتخلى نهائياً عن رذيلته كمتآمر ، وكي تعلن ان المسائل يمكن أن تحل ، بفضل الحل التعاوني ، دون أكاذيب ، ولا كراهية ولا ثورات ، وان الصراع الطبقي قد انتهى ، وحل محله التعاون بين رأس المال والعمل ، وهما عنصران متساويان في القيمة ، وخلص الى ان الأمة تشبه قليلاً بيتاً فيه ابناء عديدون ، ولذلك فعلى الأب أن يتصرف بحيث يحصل كل منهم على تربية حسنة ، ذلك لأن الأبناء اذا لم يتلقوا تربية مناسبة لم يكن لديهم اي احترام لآبائهم ، ويسوء كل شيء وينهار البيت . باسم هذه المبادئ التي لا تدحض سوف يسهم الملاكان ،

والدا الخطيبين ، بعد تسوية بعض النزاعات الصغيرة بينهما ، في تهدئة الخلافات بين العمال الذن يكسبون معيشتهم بخدمة أحدهما ، تارة ، وخدمة الآخر تارة أخرى ، ففي نهاية المطاف ، لم يكن من الضروري ان يطردنا الله من فردوسه على اعتبار اننا استغرقنا هذا الزمن القصير لاستعادته . اغلق ريكاردو ريس الكتاب الذي قرأه دفعة واحدة ، أفضل الدروس يجب ان تكون موجزة ، خاطفة . قال لينتقم من الدكتور سامبايو الغائب ، يا لها من بلاهة ، خلال بضع ثوان اخذ يكره العالم بكامله ، المطر الذي لا ينقطع ، الفندق ، الكتاب الملقى به على الأرض ، مسجل العقود ، مرساندا ، ثم ، دون ان يعرف تماماً لماذا ، استبعد مرساندا من هذه الإدانة العامة ، ربما لمتعة ، إنقاذ شيء ما ، كما نلم من حقل دمار قطعة خشب ، حجراً ، شكلهما اجتذبنا ، لا نستطيع الإلقاء بهما ، وننتهي الى وضعهما في جيبنا ، دون سبب ، مدفوعين بشعور مبهم بالمسؤولية لا سبب له ولا غرض .

كل شيء لدينا ، اذن ، يسير على أفضل وجه ممكن ، وهذه الجملة تساوي ما تساويه الروائع التي سبق لنا ان تحدثنا عنها . اخوتنا هم الذين تكون لديهم الحياة قاتمة ، والأسرة منقسمة على ذاتها ، سواء أكان جيل روبلس او لارغو كاباليرو هو الذي يكسب الانتخابات ، والكتائب أعلنت من قبل على كل حال انها ستصمد للديكتاتورية الحمراء حتى في الشارع ، من قلب واحتنا نشهد ، مضطربين ، أوروبا فوضوية وهائجة ، غارقة في خصوامات أبدية ، ومعارك سياسية لم تؤد ، على حد قول ماريليا ، الى اي شيء جيد ، في فرنسا ، أتى سارو على تأليف حكومة تكتل جمهوري ، وانقضت عليه الجماعات اليمينية فوراً ، مدافعة عن حججها الخاصة ، ورامية إياه بزخات لا تنقطع من الانتقادات ، والاتهامات ، والشتائم ، بلغة تقترب فظاظتها من لغة المتظاهرين أكثر منها من لغة بلد متمدن ، نموذج

للتصرفات اللائقة ومنارة الثقافة الغربية . لحسن الحظ ، مازالت هناك أصوات على هذه القارة ، وأصوات قوية ، لتنادي عالياً جداً بكلمات تهدئة ووحدة ، نعني هتلر والبيان الذي ادلى به أمام القمصان البنية ، هم المانيا الوحيد هوالعمل في سلام ، وكي يهدىء نهائياً الشك والريبة ، مضى أبعد من ذلك أيضاً بتأكيده الحاسم على ان العالم يعلم أن المانيا مسالمة ومشغوفة بالسلام الى درجة لم يصل إليها أي شعب قط . مائتان وخمسون ألف جندي ألماني مستعدون لاجتياح رينانيا ، وقبل بضعة أيام ، دخل جيش ألمانيا أرضاً تشيكوسلوفاكية ، نحن متفقون ، ولكن أخيراً ، اذا صح ان جونون يتخذ أحياناً صورة غيمة ، فليست كل الغيوم جونون ، حياة الأمم مصنوعة هكذا ، ينبحون كثيراً ، ولكنهم في نهاية المطاف قليلاً ما يعضون ، سوف ترون ان كل هذا سينتهي ، بعون الله ، نهاية جيدة بصورة رائعة ، وبالمقابل ، فحيث لا نعود موافقين ، هو حين يسمح لويد جورج لنفسه أن يقول إن للبرتغال ، بالقياس مع المانيا وايطاليا ، اكثر مما ينبغي من المستعمرات . لم يمض وقت طويل على لبسنا ثياب الحداد على ملكهم جورج الخامس ، ربطة عنق سوداء وعصابة بالنسبة للرجال ، ثياب سوداء للنساء ، وها هو يحتج لأنه قد يكون لدينا اكثر مما ينبغي من المستعمرات ، في حين انه تنقصنا في الحقيقة مستعمرات ، تذكروا الخريطة الوردية* ، لو كانت هناك عدالة لما وجد ، بين أنغولا والساحل الشرقي ، من يسد علينا الطريق ، لكان كل شيء برتغالياً ، الطرقات ، الأرض ، العلم . والانكليز أنفسهم هم الذين خدعونا ، ألبيون الماكر ، نحن نتعرف عليه جيداً هنا ، بل هل هم قادرون على التصرف خلاف ذلك ، أنهم

---

* الخريطة «ذات اللون الوردي» ، وهي نتاج استعمار القرن التاسع عشر البرتغالي ، يجب ان تقاتل لتشكل اقليم استعماري كبير يصل انغولا بموزامبيق ، وهو مشروع أدى الى انذار ١٨٩٠ .

فُجّار ، لا يوجد شعب في العالم ليس له مأخذ عليهم . عندما سيأتي فرناندو بيسوا ، يجب ان لا يفوت ريكاردو ريس ان يُحدثه عن هذه المسألة الفاتنة ، هل يجب ام لا ان تكون لنا مستعمرات ، وليس ذلك بالتأكيد من وجهة نظر لويد جورج ، المهتم حصراً بتهدئة المانيا بتقديمه اليها ما تعب الآخرون كثيراً في الحصول عليه ، بل من وجهة نظره هو ، بيسوا ، حول حلول الامبراطورية الخامسة* التي كرسنا مسبقاً لها ، وحول المسألة التي يطرحها التناقض بين كون البرتغال لا تحتاج أية حاجة الى مستعمرات لتحقق غرضها الامبراطوري وكونها ، دونها ، تصغر في نظرها ، هي ، وفي أنظار العالم ، مادياً ومعنوياً . واذا كان يجب ، من جهة أخرى ، كما يقترح لويد جورج ، ان نعطي مستعمراتنا لألمانيا وإيطاليا ، فما الذي تصبح عليه إذ ذاك امبراطوريتنا الخامسة عندما نقضم ، وننهب ، عندما سنكون قد اصبحنا سينور داكانا فيرديه** ، شعب آلام يمد يديه لتربط ، لن يعود هناك انسان يعترف بنا أباطرة ، السجن الحقيقي ، هو قبول المرء ان يكون سجيناً ، مهان اليدين ينتظر الصدقة التي مازالت تبقينا على قيد الحياة . ربما سيجيب فرناندو بيسوا ، من جانبه ، كما في كل مرة ، تعلم جيداً انه ليس لدي مبادىء ، اليوم أُدافع عن قضية ، وغداً أُدافع عن اخرى ، لا أؤمن بما أدافع عنه اليوم ، ولن أؤمن بما سأدافع عنه غداً ، وسيضيف ، دون شك ليبرر نفسه ، بالنسبة لي لم يعد هناك اليوم ولا غداً ، فكيف تريد أن أستمر في الايمان أو أن آمل في أن يستطيع الآخرون أن يؤمنوا ، واذا آمنوا ، فأنا اتساءل عما اذا كانوا يعرفون فقط على أي شيء يقوم إيمانهم ، إذا كانت الامبراطورية الخامسة بالنسبة لي شيئاً ضبابياً ، فكيف

---

* اسطورة ألفية ، يجب ان يكون على رأس الامبراطورية الخامسة الوجه الاسطوري للملك د . سيباستيو البابا .

** يدور الأمر حول المسيح حامل القصبة .

استطعت ان تجعل منها أمراً مؤكداً ، في نهاية المطاف ، أنت آمنت بأكثر مما ينبغي سهولة بما كنت أقول ، ومع ذلك فلست سوى شك لم يتنكر قط ، كان من الأفضل أن أسكت ، وأن أراقب بكل بساطة . سيجيب ريكاردو ريس ، كما فعلت أنا دائماً ، وسيقول فرناندو بيسوا ، لا نستطيع ان نلاحظ إلا عندما نكون أمواتاً ، ولسنا متأكدين من ذلك أيضاً ، أنا ميت وأطوف هنا وهناك ، أتوقف عند زوايا الطرق ، لو كان الناس يستطيعون رؤيتي لفكّروا في أني لم أفعل شيئاً خلاف النظر إليهم وهم يمرون ، بل أو أني إذا لمستهم ، فلن ينتبهوا الى ذلك ، وإذا وقع أحدهم ، فلن استطيع انهاضه ، ومع ذلك فليس لدي انطباع بأني هنا بصفتي مراقباً فقط ، واذا كان الأمر كذلك حقاً فلا أعلم من فيّ الذي يراقب ، كل أفعالي ، كل أقوالي مستمرة في العيش ، في التقدم الى ما وراء الجدار الذي أسندت ظهري اليه ، أراها تبتعد عن المكان الذي لا استطيع التحرك منه ، أرى الأفعال والأقوال ، وحتى لو كانت خاطئة ، فإني لا استطيع تصحيحها ولا تفسيرها ولا تلخيصها في فعل واحد ، في كلمة واحدة ،تكشفني كاملاً ، حتى حين يكون ذلك لإحلال نفي محل شك ، الظلمة محل الظل ، كلمة لا محل كلمة نعم ، ولكليهما المعنى ذاته ، وليست الكلمات المتلفظ بها ، والأفعال المنجزة هي الأسوأ ، الأسوأ ، الذي لا يمكن علاجه ، هو الحركة التي لم نقم بها ، الكلمة التي لم نقلها ، واللتان كان يمكن ان تعطي معنى لما فعلناه وقلناه . اذا كان ميت يتساءل بهذه الطريقة ، فالموت ليس راحة أبداً . لا راحة في العالم ، لا للأموات ولا للأحياء . أين اذن الفرق بين أولئك وهؤلاء . لا يوجد سوى فرق واحد ، مازال لدى الأحياء الوقت ليقولوا الكلمة ، ليجروا الحركة ، ولكن هذا الوقت محسوب عليهم اية حركة ، أية كلمة . لا أدري ، يموت المرء لأنه لم يقلها ، يموت المرء لأنه لم يفعلها ،

بهذا يموت المرء ، لا بالمرض ، ولهذا يصعب على الميت الى هذا الحد قبول موته . أنت تقرأ أكثر مما ينبغي ، يا عزيزي بيسوا . يا عزيزي ريكاردو ريس ، لم اعد اقرأ . هذه المحادثة غير المحتملة الوقوع ، نقلناها كما لو كانت قد جرت ، كانت تلك الطريقة الوحيدة لجعلها محتملة التصديق .

لم يكن يمكن لحرد الغيرة لدى ليديا ان يدوم ، فلم يكن ريكاردو ريس قد فعل بعد كل شيء سوى التحدث مع مرساندا والأبواب مفتوحة على مصاريعها ، بصوت منخفض حقاً ، ولكنه لم يكن اخيراً على هذا المقدار من الانخفاض ، قالا لها أولاً بصورة واضحة جداً انهما لم يعودا في حاجة الى شيء ، ثم انتظرا في صمت ان تنسحب مع الكوبين ، وكفى هذا من أجل ان ترتعش يداها . بكت خلال أربع ليالٍ معانقة وسادتها قبل ان تنام ، وليس ذلك لأنها كانت تعاني ظلماً ، فبأية صفة ، بأي حق تغار ، وهي مجرد خادمة ، انخرطت للمرة الثالثة في مغامرة مع زبون ، عندما يحدث هذا النوع من الأمور ، يجب نسيانه فوراً ، كلا ، ان ما يحزنها ، هو ان السيد الدكتور لم يعد يتناول افطاره في غرفته ، كما لو كان يريد ان يعاقبها ، وعلى أي شيء ، بحق الآلهة ، على اعتبار اني لم افعل شيئاً . في اليوم الخامس ، لم يكن ريكاردو ريس قد نزل في الصباح ، فقال سلفادور ، ليديا ، خذي القهوة بالحليب الى الغرفة مائتين وواحد ، وعندما دخلت ، مرتعشة قليلاً ، المسكينة ، لم تستطع تجنب ذلك ، نظر اليها برصانة ، ووضع يده على ذراعها ، وسألها ، ألنت غاضبة ، كلا يا سيدي الدكتور . ولكنك لم تأتي . لم تعرف بماذا تجيب ، رفعت كتفيها ، تعسة . عند ذلك ، جذبها اليه ، وفي تلك الليلة عادت الى النزول ، لم يذكر احدهما ولا الآخر دوافع هذا البعاد المؤقت ، لم يكن ينقص الا هذا ، أن تسمح لنفسها بأن تقول له ، كنت

غيورة ، وأن يتنازل الى الرد عليها ، يا لها من فكرة يا صغيرتي ، لم يكن يمكن أن تكون هناك محادثة بين متساويين ، وفضلاً عن ذلك ، بما ان العالم هو ما هو عليه ، فهذا هو أصعب شيء يمكن الحصول عليه .

الأمم تحارب لتدافع عن مصالح ليست مصالح بيير ولا هانز ولا جاك ولا مانولو ولا غيوسيب ، وهي ليست سوى أسماء رجال من أجل التبسيط ، ولكن هؤلاء ، وآخرين كثيرين يعدون هذه المصالح مصالحهم ، من أجل هذا سوف ينبغي ان يدفعوا الثمن غالياً عندما ستحين ساعة تسوية الحسابات ، نعلم جيداً ان هناك دائماً ، كقاعدة عامة ، من يسحبون الكستناء من النار لصالح الآخرين ، والناس يتقاتلون من أجل مايظنونه مشاعرهم الشخصية أو مجرد تجلي يقظة حواسهم ، كما هي الحال في الوقت الحاضر مع ليديا ، خادمتنا العتيدة ، وريكاردو ريس ، الطبيب في نظر الجميع ، إذا قرر أن يمارس من جديد ، الشاعر بالنسبة لبعضهم إذا انتهى وعرض للقراءة ذات يوم ما ينظمه بهذا المقدار من الكدح ، ويجري القتال أيضاً من أجل أشياء كثيرة أخرى ، هي نفسها لكنها في الصميم ، السلطة ، المكانة ، الكراهية ، الحب ، الحسد ، الغيرة ، مجرد الغيظ ، أراضي صيد مسيجة تدنس ، منافسة أو مزاحمة ، مجرد قصة كونتودوفيغاريو* ، كتلك التي أتت على الحدوث في الموراريا . الخبر فات ريكاردو ريس ، ولكن سلفادور ، الفرح والمستثار ، يقرأه له ، ومرفقاه على المكتب ، نصف ممدد فوق الجريدة المنشورة بعناية ، مجزرة حقيقية ، يا سيدي الدكتور ، إنهم شياطين حقيقيون ، ليس للحياة لدى هؤلاء الناس أية قيمة ، يتبادلون الطعن بالمدى دون شفقة لدى ادنى هفوة ، البوليس نفسه يخشاهم ، يحضر عندما ينتهي

---

* كونتودوفيغاريو ، يدور الأمر حول قصة يجهزها شخص محتال ليستولي على أملاك آخرين .

كل شيء ، يجمع القطع ، استمع قليلاً ، شخص يدعى جوزيه ريس ، ملقب بجوزيه رولا ، أطلق خمس طلقات نارية في رأس انطونيو ميسكيتا الأشهر باسم مورارايا ، قتله طبعاً ، كلا لم تكن تلك مسألة نسائية ، الجريدة تتحدث عن كونتو دو ـ فيغاريو ، أحدهما خدع الآخر ، هذه أشياء تحدث . خمس طلقات نارية ، كرر ريكاردو ريس هذه الكلمات ليبدو مهتماً بالقصة ، وبقي حالماً ، كان خياله يعمل ، السلاح الذي أُفرغ خمس مرات على الهدف ، الرأس ، الذي كان مستقيماً لدى الرصاصة الأولى ، ثم الجسد على الأرض والذي يفرغ من دمه ، وأخيراً الرصاصات الأربع الأخرى ، النافلة والضرورية مع ذلك ، الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، مشط كامل تقريباً قد أفرغ ، الكراهية التي تزيد لدى كل طلقة ، الرأس الذي ينتفض لدى كل طلقة ، على حجارة الطريق ، الذعر في المحيط ، ثم الصخب ، النساء على النوافذ اللواتي يأخذن في العويل ، لا احد تجرأ دون شك على الامساك بذراع جوزيه رولا ، ومن كان يمكن ان يبرهن على مثل هذه الجرأة ، يحتمل ان تكون الرصاصات في المشط قد نفدت ، الإصبع يتجمد فجأة على الزناد ، الكراهية تعود الى الهبوط ، المجرم هرب ، ولكنه لن يذهب بعيداً ، أين يمكن للمرء ان يختبىء عندما يعيش في المورارايا ، هنا كل شيء مباح ، ولكن كل شيء يدفع ثمنه ، قال سلفادور ، غداً الدفن ، لولا العمل لذهبت الى هناك حقاً . سأله ريكاردو ريس ، هل تحب الدفن . ليس هذا حقاً ، ولكن الدفن مع أناس من هذا النوع يستحق عناء ان يرى ، ولاسيما حين تكون قد حدثت جريمة ، رامون يسكن زقاق دوس كافاليروس ، وقد سمع قصصاً غريبة . عرف ريكاردو ريس قصص رامون على العشاء . يقال إن كل الحي سيكون هناك ، يا سيدي الدكتور ، بل يبدو أن أصدقاء جوزيه رولا قرروا أن ينسفوا النعش ، اذا فعلوا هذا ، سيكون النزاع المعمم ، يا يسوع . ولكن ، إذا كان

موريرا قد مات ومات حقاً ، فما الذي يريدونه اكثر من ذلك ، ليس هو الرجل الذي يعود من العالم الآخر لينجز ما بدأه هنا . مع افراد من هذا النمط ، لا يعرف المرء قط ، كراهيات النفس لا تسكن مع الموت . اشتهي حقاً ان اذهب لحضور هذا الدفن . إذهب ، ولكن ابق بعيداً ، لا تقترب ، وإذا وقعت مشاجرة ، ادخل الى بناية ، واغلق الباب ، دعهم يقتلون بعضهم بعضاً .

لم تصل الأمور الى هذا الحد . لم يكن التهديد دون شك سوى تبجح ، او انه قد كفى حضور شرطيين مسلحين ، وهي حماية رمزية تماماً ، لم تكن لتجدي في شيء لو كان مقترفو الاضطرابات قد أصرّوا على خطتهم الدامية ، ومهما يكن من امر ، فإن حضور السلطة يؤثر دائماً . ظهر ريكاردو ريس متحفظاً قبل الموعد المقرر لخروج القافلة الجنائزية بكثير ، وبقي بعيداً كما أوصي ، لأنه لا يرغب ان يقع وسط حشد صاخب ، الجمهور يرهبه ، أمام بوابة المشرحة ، كان مئات الأشخاص يزحمون الطريق ، يخيل الى المرء انه في أعمال سيكولو الخيرية ، لولا وجود كل هؤلاء النساء اللواتي كن يرتدين تنانير وقمصاناً وشالات ذات لون أحمر صارخ ، ولولا هؤلاء الرجال الذين يعرضون بذلات من اللون نفسه ، يا له من حداد طريف اذا كان الأمر يدور حول أصدقاء المتوفى ، وإذا كانوا اعداءه ، فالاستفزاز فاضح ، يخيل الى المرء انه مشهد كرنفالي ، ها هي العربة تخرج مترنحة في اتجاه المقبرة ، كان بغلان مسرجان ومزينان بالريش يجرانها ، تقدم الشرطيان كل منهما في أحد جانبي النعش كما لو كانا ، ويا لسخرية القدر ، حرس شرف لموراريا ، كلا ، ولكن انظروا اليهما ، الحربة تضرب على ربلات سيقانهما ، قِراب المسدس مفتوح ، الموكب الذي كان في حالة وجد يبكي ويتنهد ، كل الناس يعولون الآن ، الذين يرتدون الأحمر والذين يرتدون الأسود ،

الأولون من أجل الميت الذي يُحمل ، والآخرون من أجل من اعتُقل ، كان معظمهم حفاة ، يرتدون أسمالاً ، بعض النساء كنّ متبرجات بشكل فاخر ، سواعدهن المثقلة بسوارات الذهب تتعلق بأذرعة رجالهن الحليقين جيداً ، انهم يرخون عوارضهم ، ويلقون حولهم نظرات مرتابة ، بعضهم كان يبدي التعجرف بسحنة وقحة . إلا أن وراء المشاعر الزائفة أو الحقيقية ، كان يستشف الفرح المفترس برؤية الاصدقاء والأعداء مجتمعين هنا ، عشيرة أصحاب السوابق ، المومسات ، القوادين ، بنات الرصيف ، المحتالين ، النصابين ، النشالين ، تجار المسروقات ، إنه الفوج الملعون الذي يعبر المدينة ، وتفتح النوافذ لرؤيته يمر ، بلاط العجائب يسير في عرض ، جاعلاً ابدان السكان تقشعر ، من يعلم ما إذا كان أحدهم سيعود غداً للسطو علينا ، الأطفال الذين يعد كل شيء عيداً في نظرهم يقولون ، انظري يا ماما . تبع ريكاردو ريس الموكب الجنائزي حتى باسو دارينا ، حيث توقف ، بعض النساء كنّ يلقين فعلاً نظرات مختلسة الى هذا السيد الحسن اللباس الى هذا الحد ، من يمكن ان يكون هذا ، فضول نسائي طبيعي جداً من أجل من تقضي عمرها في تقويم الرجال . اختفى الموكب عند زاوية الطريق ، إنه يتجه الى الألتو دوساو جاو* احتمالاً ، مالم ينعطف شمالاً ، أبعد من ذلك بقليل ، في اتجاه بنفيكا* ، يا لها من محنة ، هناك شيء مؤكد ، هو انه لا يتجه نحو برازيريس* ، وهذا مؤسف حقاً ، فنحن نفقد على هذا النحو مثالاً مقنعاً على المساواة في الموت ، ماذا كان يمكن ان تكون المحادثات بين موراريا والشاعر فرناندو بيسوا المجتمعين ، في ظل أشجار السرو ، ينظران الى السفن في أوقات العصر الهادئة ، يفسر أحدهما

* ثلاث من مقابر ليشبونة الرئيسية .

للآخر كيف ترتب الكلمات لتأليف كونتو ـ دو ـ فيغاريو أو قصيدة . هذا المساء ، شرح رامون ، وهو يقدم الحساء ، للدكتور ريس أن الملابس الحمراء ليست علامة حداد ولا عدم احترام للمتوفى ، بل هي عرف في الحي ، فيرتدي هذا اللباس للمناسبات الكبرى ، الولادة ، الزواج والموت ، او من أجل السير وراء المواكب الكنسية ، عندما توجد ، ولكنه لا يتذكر انه رأى واحداً منها قط ، في هذه الفترة ، كان مايزال في غاليسيا ، سمع الحديث عنها فقط . لا اعلم ما اذا كان سيدي الدكتور قد لاحظ في الدفن امرأة رائعة ، اقرب الى طول القامة ، ذات عينين سوداوين ، حسنة اللباس ، كان ينبغي ان تتدثر بشال من صوف المورينوس . كان هناك الكثير منهن كما تعلم ، حشد حقيقي ، من هي ، عشيقة موراريا ، مغنية . كلا ، اذا كانت هناك ، فإني لم أرها . يا لها من امرأة رائعة ، ويا لصوتها من صوت ، أود حقاً ان أعرف من الذي سيضع يده عليها الآن . لن أكون أنا ، يا رامون ، ولا أنت كذلك كما أعتقد . ما الذي لاأعطيه لأحصل عليها ، يا سيدي الدكتور ، ولكن أنثى مثل هذه ، كثيرة المتطلبات ، أخيراً ، كل هذا هو مسألة كلام من أجل إزالة الصدأ عن اللسان ، أليس كذلك ، يجب حقاً ان يقال شيء ما . أنت على صواب ، ولكن ماذا اذن عن هذه الملابس الحمراء . في رأيي يجب ان تعود الى عصر المغاربة ، هذه عادات شيطانية ، ليست زياً مسيحياً . ذهب رامون لخدمة زبائن آخرين ، ثم عندما عاد ليغير الصحون ، طلب الى ريكاردو ريس ان يتحدث اليه الآن او فيما بعد ، عندما يكون لديه الوقت ، عن اخبار إسبانيا ، عن الانتخابات التي ستجري ، وان يقول له ايضاً من ، في رأيه ، سيكسبها ، الأمر سواء بالنسبة إلي ، كما تعلم ، انا على ما يرام هنا ، ولكنه ماتزال لي أسرة في غاليسيا ، على الرغم من ان معظمها قد هاجر . الى البرتغال . الى العالم اجمع ، أخيراً هذا مجرد

كلام ، ولكن الأسرة ، بين أخوة وأبناء أخوة وأبناء عمومة ، قد انتهت الى التبعثر ، من كوبا الى البرازيل والأرجنتين ، بل ان لدي فليوناً في شيلي . ريكاردو ريس قال له ما علمه من الصحف ، تروج الشائعة بأن الجماعات اليمينية سوف تنتصر وأن جيل روبلس قد اكد ، أنت تعرف من هو جيل روبلس ، سمعت عنه . انه قد أكد إذن أنه حين سيصل الى السلطة ، سيضع حداً للماركسية وللصراع الطبقي ، وانه سيقيم العدالة الاجتماعية . بفضل الله ، لم تقع لي مشكلة مع العدالة . حسناً ، بعد بضعة أيام سنعرف من الذي سيربح ، ولن يغير هذا على وجه الاحتمال شيئاً . إذاً سار كل شيء بصورة سيئة ، فنسأل الله ان لا يكون الأسوأ ، كما كان يقول جدي . جدك كان على صواب ، يا رامون ، جدك كان حكيماً .

حكيماً كان أم غير حكيم ، فاليسار قد انتصر . وفي اليوم التالي ، تابعت الصحف القول بأن اليمين كان قدانتصر ، حسب التقديرات الأولى ، في سبع عشرة ولاية ، الا انه كان يجب التسليم ، عندما فرزت الأصوات ، بأن اليسار كان قد انتخب نواباً يزيدون على الوسط واليمين . اشاعات عن انقلاب عسكري ، كان الحدث يجري عن الجنرالين غوديد وفرانكو ، بدأت تسري ، وسرعان ما كذبت . كلف الرئيس الكالازامورا آزانا بتشكيل الحكومة ، سوف نرى جيداً ما سوف يؤدي إليه ذلك ، يارامون ، اذا ما كان شيئاً جيداً أم غير جيد لغاليسيا . الوجوه التي نصادفها ، هنا ، ونحن نتنزه ، مهمومة . بعضهم ، وهم أندر ، يحاولون التكتم ، ولكن هناك وميضاً في عيونهم يشبه الفرح . وعلى كل حال ، عندما يقال هنا ، فهذا لا يعني ليشبونة بكاملها ، ولا يعني كذلك البلاد ، هل نعلم فضلاً عن ذلك هل نعلم مايجري هنا ، إنها فقط الثلاثون شارعاً الواقعة بين رصيف دو سودريه وساو بيدرو دوالكانترا ، بين الروسيو والكالاريز ، مدينة داخلية محاطة بجدران

غير مرئية تحميها من حصار غير مرئي يعيش فيه المحاصرون والمحصورون معاً ، بعضهم الى جانب بعضهم الآخر ، على اعتبار انهم يتبادلون تسمية بعضهم كذلك ، على اعتبار ان الاخرين هم الغرباء ، الذين ليسوا مثلنا ، الذين هم من مكان آخر ، وكلهم يراقبون بعضهم بعضاً بريبة ، الأولون يقدّرون سلطتهم ويرغبون في المزيد منها ايضاً ، والآخرون يحصون قواهم ويجدونها غير كافية ، ما الذي ستحمله إلينا هذه الريح التي تهب على اسبانيا ، أي حلف . فرناندو بيسوا يشرح ، لن يطول الوقت على مجيء الشيوعية ، ثم يضيف ساخراً ، لست حسن الحظ ، يا عزيزي ريس ، هربت من البرازيل لتستطيع العيش في سلام ما بقي من حياتك ، وها هو جارك في الشقة يتحرك ، في ذات يوم سيقتحمون بابك كم مرة يجب ان اكرر لك إني عدت من أجلك . لم تقنعني بعد . لا يدور الأمر حول اقناعك ، أطلب إليك فقط ان لا تعود الى التحدث معي عن هذا . لا تغضب . عشت في البرازيل ، واليوم أنا في البرتغال ، ينبغي حقاً أن أعيش في مكان ما ، عندما كنت حياً ، كنت على ما يكفي من الذكاء من أجل ان تفهم هذا ، وأشياء كثيرة اخرى . هذه هي المأساة ، يا عزيزي ريس ، ان تكون مرغماً على العيش في مكان ما ، فهمك ان ما من مكان لا يكون مكاناً ، ان الحياة لا تستطيع ان تكون اللاحياة . أخيراً ، أعثر عليك . وماذا يفيدني كوني لم أنسَ شيئاً . ما لا يستطيع الإنسان تحمله ، هو عدم بلوغه الأفق الذي يلمحه ، وفضلاً عن ذلك ، فإذا وصل إليه ، فسوف يريد ان يبلغ أفقه الخاص . السفينة التي لسنا فيها ، هذه هي سفينة سفرنا . آه الرصيف بكامله . هو حنين من حجر ، والآن وقد انصعنا للضعف العاطفي ، يجب ان نستشهد بهذا البيت لألفارو الذي يستحق ان يكون شهيراً وسيصبح كذلك ، متقاسمين اياه ، قم بتعزية نفسك بين ذراعي ليدياك اذا كان هذا الحب ما يزال مستمراً ، انا لم احصل

على شيء كهذا ، ليلة سعيدة يا فرناندو ، ليلة سعيدة ، يا ريكاردو ، هوذا الكرنفال ، تمتع ، لا تعتمد عليّ في الأيام القادمة . كانا قد التقيا على احدى ست طاولات مقهى صغير في الحي ، هناك لم يكن احد يعرف من كان ، فرناندو بيسوا عاد على عقبيه ، وجلس من جديد . لدي فكرة ، لماذا لا تتنكر بزي مروض ، بحذائين طويلين ، وسروال ضيق ، وسترة مزخرفة ، حمراء . نعم ، حمراء ، هذا هو الأفضل ، وأنا أتنكر في زي ميت بسروال لاصق أسود رُسمت عليه عظام ، ستفر قع بسوطك ، سأخيف العجائز ، سوف آخذكِ ، سوف آخذك ، وأجس بيدي البنات ، في الكرنفال سوف نربح الجائزة الأولى . لم أرقص قط ، ليس هذا ضرورياً ، لن يستمع الناس الا للسوط ، ولن يروا سوى العظام . لم نعد في عمر الممازحات . تحدث عن نفسك ، أنا توقفت عن ان يكون لي عمر ، وبعد هذه الكلمات الأخيرة ، نهض فرناندو بيسوا وخرج . كانت السماء تمطر في الخارج ، النادل على الكونتوار ، قال للزبون الذي بقي ، صديقك دون معطف واقٍ من المطر ولا مظلة ، سوف يتبلل . انه يحب هذا ، معتاد عليه .

كان هياج ، حمى ، يحومان في الجو عندما عاد ريكاردو ريس الى الفندق . يخيل الى المرء ان نحلات خلية قد اصبحت مجنونة فجأة ، وبما ان الثقل العتيد الذي نعرفه جيداً مازال يثقل على ضمير ريكاردو ريس ، فسرعان ما فكر ، لقد انكشف كل شيء . انه في الصميم رومنطيقي ، يعتقد ان البراغانسا سينهار تحت الفضيحة في اليوم الذي ستعرف فيه مغامرته مع ليديا . عاش في هذا الخوف ، أو ربما مع الرغبة المرضية في ان يحدث هذا ، وهو تناقض غير متوقع من رجل يعلن نفسه منفكاً كلياً عن العالم ويجرحه العالم مع ذلك . بل انه لم يرتب في ان قصته معروفة من قبل ، وانها يتمتم بها بين ضحكتين ، إن ذلك من عمل بيمنتا الذي ليس هو رجلاً

يكتفي بأنصاف الكلمات . المذنبان يجهلان كل شيء ، سلفادور نفسه ليس مطلعاً على شيء . يمكن فضلاً عن ذلك ان نتساءل كيف سيرد في اليوم الذي يأتي فيه واشٍ غيور ، رجل أو امرأة ، ليقول له ، هذا عار يا سيد سلفادور ، ليديا والدكتور ريس ، اذا كان فقط يستطيع ان يكرر الكلمة القديمة ، من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يلقي بحجر ، كل شيء سيجري على مايرام ، هناك اناس قادرون من أجل ان يشرّفوا الاسم الذي يحملونه على انبل الحركات . دخل ريكاردو ريس ، قلقاً ، الى الاستقبال . كان سلفادور يصرخ في الهاتف ، الا انه كان يفهم على الفور ان ذلك كان بسبب رداءة نوعية الخط ، يخيل إليك انك في نهاية العالم ، ألو ، أو ، نعم يا دكتور سامباريو ، أود أن اعلم متى تأتي ، ألو ، ألو ، اسمعك الآن بصورة أفضل ، ذلك ان الفندق امتلأ فجأة ، لماذا ، بسبب الاسبانيين ، نعم من اسبانيا ، عدد هائل من الناس يصل من هناك اليوم ، اذن في السادس والعشرين ، بعد الكرنفال ، حسن جداً ، غرفتاكما محجوزتان ، كلا يا سيدي الدكتور ، ليس هذا موضع بحث ، الزبائن أولاً ، ثلاث سنوات ليست ثلاثة أيام ، انقل تحياتي الى الآنسة مرساندا ، اسمع ، يا سيدي الدكتور ، هنا الدكتور ريس يحييك أيضاً ، وكان هذا صحيحاً ، فقد كان ريكاردو ريس يحيي هو أيضاً ، بحركات وكلمات تحزر على شفتيه ولكنها لم تكن تسمع . كان هناك سببان جيدان لهذا التصرف ، في ظروف اخرى ، كان من شأن ذلك ان يكون ليذكر نفسه بذكرى مرساندا ، حتى ولو كان ذلك عن طريق شخص آخر ، اما في هذه اللحظة بالضبط ، فهدفه كان التقرب من سلفادور ، لعب دور المساوي له من أجل ان ينتزع منه كل سلطة وهو ما ليس ، على الرغم من المظاهر ، تناقضاً ، فالعلاقة بين الأفراد لا تقتصر على مجرد عملية جمع او طرح بالمعنى الحسابي للكلمة ، كم من مرة خيل إلينا اننا نضيف

ونجد انفسنا وفي يدينا بقية ، وكم من مرات اخرى خيل إلينا أننا نطرح ونحصل على العكس من ذلك لا على جمع بل على ضرب . سلفادور أعاد ، منتصراً ، سماعة الهاتف ، لقد نجح في ان يقيم مع مدينة كوامبرا محادثة متماسكة وإيجابية ، وكان يرد الآن على ريكاردو ريس الذي كان قدساً له ، هل من جديد . نعم ، ثلاث أسر اسبانية وصلت للتو . هاربون . نعم ، الشيوعيون ربحوا الإنتخابات . ليس الشيوعيون ، انها الجماعات اليسارية المتنوعة . الأمر هو نفسه ولكنهم هاربون حقاً . الصحف نفسها تتحدث عن ذلك . لم انتبه . اعتباراً من هذه اللحظة ، لم يعد يستطيع ان يقول ذلك . فقد كان يجري الحديث بالقشتالية وراء كل باب ، ولا حاجة للتربص من أجل سماع لغة سرفانتس الرنانة تكتسح المكان ، تصوروا انه كانت هناك فترة كانت فيها منتشرة جداً ، لغتنا لم تصل قط الى هذا الحد . كان يتبين ، عند العشاء ، من طريقتهم في اللباس ، انهم كانوا أغنياء ، كان الرجال والنساء يعرضون عدداً وفيراً من الخواتم ، وأزرار الأكمام ، ودبابيس ربطات العنق ، والمشابك ، والسوارات ، وسلاسل العنق ، والمحابس ، والاقراط ، والعقود ، والسلاسل التي كان الذهب يمتزج فيها بالماسات ، مع لمسات من الياقوت والزمرد واللازورد والفيروز هنا وهناك ، وكانوا يصرخون من طاولة الى الأخرى ، ناشرين بليتهم المنتصرة ، اذا كان للجمع بين مصطلحين على هذا القدر من التعارض في مفهوم واحد من معنى . لم يجد ريكاردو ريس كلمات اخرى للتوفيق بين نبرتهم الملحة ونواحاتهم الحاقدة ، كانوا يقولون ، الحمر ، ويزمون شفاههم شاتمين . قاعة طعام البراغانسا تشبه الآن خشبة مسرح ، بعد لحظة ، سيدخل كلاران دوكالديرون اللطيف ليقول ، سأرى كل الحفلة وأنا مختبيء هنا* ، الأمر يدور حول العيد الاسباني

* بالاسبانية في الأصل .

مرئياً من البرتغال ، الحوت لن يجدني ، لدي تميمتان ضد الموت . الخدم ، فيليب ، رامون وثالث ، برتغالي من غواردا مستثارون تماماً ، عصبيون ، سبق لهم ان رأوا الكثير من هؤلاء في حياتهم ، ليست هذه المرة الأولى التي يخدمون فيها مواطنين ، أما ان يكون الأمر هكذا ، بهذا العدد ، وفي مثل هذه الظروف ، فهذا ما لم يحدث لهم قط ولم يلاحظوا ، لم ينتبهوا بعد الى كون الأسر من كاسيرس ومدريد لا تتوجه اليهم كمواطنين أعزاء جمعتها بهم المصيبة ، عندما يكون المرء في الخارج ، يلاحظ الأمور بصورة أفضل ويحللها بمزيد من السهولة . كان يمكنهم أن يقولوا الغاليسيون باللهجة نفسها التي يقولون بها «الحمر» ، يكفي ان تنتزع منها الكراهية ويوضع مكانها الإحتقار . رامون لاحظ ذلك ، نظرة غاضبة رمي بها . كلمة بغيضة ، بحيث انه لم يستطع تمالك نفسه ، وهو يخدم ريكاردو ريس ، كان يمكن ان يستغنوا عن حمل كل حلاهم الى قاعة الطعام ، لم يكن أحد ليسرقها منهم ، هذا الفندق بيت رصين ، ولحسن الحظ لن يكون رامون هنا ليؤكد ذلك ، ولكنه سيغير رأيه دون شك اذا علم ان ليديا تذهب الى غرفة الزبون ، المنظورات الأخلاقية تتعدل تعديلاً عظيماً ، وغيرها في المنظور أيضاً فضلاً عن ذلك ، إثر أحداث تافهة أحياناً ، ولكن ذلك في الأغلب بسبب اضطرابات عاطفية ، ورامون أفضى بما في قلبه لريكاردو ريس لأنه جرح منذ قليل . وأخيراً ، فلنكن عادلين ، بقدر ما نستطيع ، هؤلاء الناس الذين هم هنا طردهم الخوف ، فحملوا معهم اذن حلاهم ، مالهم الذي كان في المصرف ، كل ما استطاعوا استعادته قبل الهرب ، ذلك أخيراً من أين كان يمكن لهم ان يعيشوا ، لو كانوا قد وصلوا الى هنا فارغي الأيدي ، يمكن ان نشك بصورة مشروعة في كون رامون سيعطيهم او سيقرضهم ، اذا طلب منه ذلك ، دورو واحداً ، وباسم أي شيء يفعل ذلك ، هذا غير وارد في وصايا المسيح ، واذا

كان من المسموح به ، في قصص الإقراض أو الهبة هذه ، التذرع بالوصية الثانية ، أحب قريبك كنفسك ، فإن الفي سنة لم تكف من أجل ان يبدأ جيران مدريد وكاسبريس بمحبة رامون ، ومع ذلك فهذا لا يمنع من كوننا ، كما يقول مؤلف المؤامرة ، على الطريق الصحيح ، بفضل الله ، الى رأس المال والى العمل ، وفضلاً عن ذلك ، فمن المؤكد ان مدعينا العامين ونوابنا قد اجتمعوا في حمامات ايستوريل* من أجل عشاء اخوي ليعينوا من الذي سوف يرصف الطريق .

لولا رداءة الطقس الذي لا يدع لنا ، نهاراً وكذلك ليلاً ، أية فرصة للراحة ، ولا يدع مثل هذه الفرصة للفلاحين والمزارعين الآخرين ، ولولا هذه الفيضانات ، أسوأ ما عرف منها منذ اربعين عاماً على حد قول السجلات وروايات المسنين ، لكان كرنفال هذه السنة عظيماً ، وليس هذا فقط بفضل صفاته الخاصة بل أيضاً لأنه يقع في فترة يجب ان تُسجل في حوليات التاريخ . سبق لنا ان ذكرنا اللاجئين الاسبان الذين يصلون إلينا بالجملة ، يجب ان لا يفقدوا الشجاعة ، التسليات ، التي هي حرف ميت لديهم ، خاصة في هذه البرهة ، لن تفوتهم هنا . أما بالنسبة إلينا في أحسن حال ، سواء أدار الأمر حول الأمر الذي أصدرته الحكومة لدراسة جسر على نهر التاج ، أم حول المرسوم الذي سينظم استخدام العربات ، أم أيضاً حول مأدبة عمال دورو ، خمسة كيلوغرامات من الرز ، كيلوغرامان من سمك المورة ، وعشرة ايسكودوسات لكل فرد ، كرم مفرط ولكن لا شيء فاضحاً فيه ، المورة هو أرخص ما لدينا ، أم أخيراً حول الخطاب الذي سيلقيه وزير ، والذي سيوصي فيه بخلق حساء شعبي في كل قضاء ، الوزير نفسه سوف يصرح للصحافة ،

---

* محطة حمامات في ضواحي ليشبونة .

عند وصوله الى بيجا* ، استطعت ان أتبين في النتيجو آثار العمل الطوعي في امتصاص البطالة ، وهو ، إذا ترجم الى برتغالية كل يوم ، يعني ، الصدقة ، من فضلكم ، كرمى لله . وهناك ما هو أفضل أيضاً ، فالكاردينال باسيلي ، وهو مرجع أعلى على اعتبار إن موقعه محدد تحت الله مباشرة ، صرح بأن موسوليني أكبر معيد للامبراطورية الرومانية ، انظروا الى هذا المقرمز ، انه يستحق ان يكون بابا مع كل ما يعرفه فعلاً ، وما لن يفوته تعلمه ، شريطة ان لا ينساه الروح القدس ، الجيوش الايطالية ترمي اثيوبيا بالرصاص والقنابل ، وخادم الله يتنبأ بالامبراطورية والامبراطورة ، آفيه قيصر .

كرنفالنا البرتغالي مختلف جداً . هناك في اراضي ما وراء البحار وكابرال حيث يغرد السابيا** ، وحيث يلمع صليب الجنوب ، تحت السماء المجيدة ، في الحرارة المنهكة ، حتى في الطقس الغائم ، مدارس السامبا تهبط الشارع راقصة ، مغطاة بزجاجيات شبيهة بالماسات ، حجارة صغيرة تلمع كالحجارة الكريمة ، أقمشة ليست دون شك من الحرير ولا من الساتان وكلها تغطي الأجساد وتكشفها بالطريقة نفسها ، والريش وقنزعات أراس ، وطيور الجنة ، وديكة الخلنج تتماوج فوق الرؤوس ، والسامبا ، السامبا ، هزّة النفس هذه ، ريكاردو ريس ، هو مع ذلك رجل متحفظ ، أحس أكثر من مرة في داخله ضجات ديونيزية سرعان ما تكبت ، ولم يرفض أن يغوص بدوره في الدوامة الا خوفاً من جسده ، نعرف كيف تبدأ هذه الأشياء ، ولكننا لا نعرف أبداً كيف تنتهي . ليس في ليشبونة مثل هذه الأخطار . السماء مشابهة لنفسها ، ممطرة ، ولكنها غير ممطرة الى حد يكفي لمنع الكورسو من العرض ، وها هو ينحدر في شارع داليبرداد بين سياجات من اناس فقراء

---

* مركز النتيجو السفلي .

** سابيا : طائر برازيلي وتلميح الى بيت شعر للشاعر البرازيلي كاسترو الفيس .

جاؤوا من الأحياء التي سبق ان تحدثنا عنها . هناك كراسٍ للذين يستطيعون استئجارها ، انه ليس هناك زبائن كثر ، انها مبللة ، بل ويمكن ان تصنع منها مزحة جديرة بالكرنفال ، اجلسي هنا ، الى جانبي . أوه انا مبللة تماماً* ، العربات المغطاة بخربشات المزينة ، تئن ، تنزلق ، اناس جاثمون في الأعلى تماماً يضحكون تحت أقنعتهم المكشرة ، يلقون بتقتير نحو الجمهور بشرائط لولبية ، بأكياس صغيرة من الذرة والفاصولياء تجرح عندما يجري تلقيها ، ويردها الجمهور بحماسة حزينة . مرّت عربات ، مكشوفة ، مع مخزونات من مظلات داخلها ، آنسات وسادة يحيون ويلقون على بعضهم نثار الورق الملون . يتسلى الناس في الجمهور أيضاً ، فتاة تتأمل العرض ، في حين يظهر صبي وراءها ، ممتلىء اليد بنثار الورق الذي يضغطه على فمها وهو يفرك بشكل محموم ، ويفيد من مفاجآتها ليتحسس جسدها حيث يستطيع ، في حين تأخذ في العطاس والبصاق ، ويبتعد ضاحكاً ، هذه أساليب مغازلة على الطريقة البرتغالية ، بعض الزيجات بدأت هكذا وهي زيجات سعيدة . تستخدم اجاصات لاطلاق رشاشات مياه صغيرة في أعناق الناس أو وجوههم ، تسمى هذه مطلقة العطور ، وهذا الاسم هو كل ما بقي من العصر الذي كانت تستعمل فيه في ضروب عنف الصالونات العذبة ، ثم نزلت بعد ذلك الى الشارع ، ويجب ان يعد المرء نفسه سعيداً حين يكون الماء نظيفاً ولا يأتي من المجاري ، وهو ما شوهد فعلاً . ضحالة العرض سرعان ما أضجرت ريكاردو ريس ، ومع ذلك بقي حتى النهاية ، على اعتبار انه ليس لديه شيء ، أفضل يفعله ، أمطرت السماء رذاذاً مرتين ، في برهة معينة هطلت المطر مدراراً ، ومع ذلك فإن فهناك من ينشد المدائح في المناخ

* يدور الأمر حول لعب على الكلمات اذ يمكن للكلمة نفسها ان تعني «مبللة» و«متورطة» في الوقت نفسه .

البرتغالي ، ولمَ لا بعد كل شيء ، ولكن هذا الطقس ، في فترة كرنفال ، لا يساوي شيئاً . عند نهاية النهار ، انتهى العرض ، حصل انقشاع ، كان الوقت متأخراً فعلاً ، السيارات والعربات مضت الى شأنها ، سوف تجف حتى الثلاثاء ، ثم تصلح الدهانات الشاحبة ، وسوف تستعاد الشرائط المزخرفة ، أما بالنسبة للناس المقنعين ، بشعورهم الكثة والملابس التي تقطر ماء ، فسوف يتابعون العيد عبر الطرق والميادين ، الأزقة والممرات ، وحتى في أقفاص السلالم ، حيث سيفعلون ما لا يمكن الاعتراف به ولا ممارسته في وضح النهار ، هكذا يجري الأمر حين تكون هناك حاجة ملحة ويكون الشخص مفلساً ، الجسد ضعيف ، شربوا كثيراً ، الرماد والنسيان سيكونان ليوم الأربعاء . أحس ريكاردو ريس بنفسه محموماً قليلاً ، ربما التقط برداً وهو يشاهد عرض الكورسو ، أو ربما كان الحزن هو الذي يجعله محموماً ، كما يقود الاشمئزاز الى الهذيان ، ولكنه لم يصل الى هذا الحد بعد . اقترب منه مهرج مسلح بسكين خشبية كبيرة وعصا وضرب احداهما بالآخر بصخب مرعب ، انه سكران ، وطلب بصورة ملتبسة ، اعطني ضربة صغيرة على بطني ، وهو ينقض على الشاعر ، يتقدمه بطنه المضخم بشيء أضيف إليه ، وسادة أو خرقة ملفوفة ، ومن المضحك أن يرى هذا البورجوازي الحسن اللباس ، بقبعة ، ومعطف واقٍ من المطر ، يحاول الافلات من العجوز الذي يعتمد قبعة ذات قرنين ، بلباسه الحريري ، وسرواله وجرابيه ، اعطني ضربة صغيرة ، تعني ، مالاً من أجل الخمر . ريكاردو ريس أعطاه بضع بقطع ، رسم الآخر خطوة رقص فظة ضارباً السكين والعصا ببعضهما ، وتابع طريقه ، آخذاً في طريقه اشباهه وموكباً من الغلمان . في نوع من مهد طفل صغير ، شخص ضخم ثقيل الظل ، متدلي الساقين الى الخارج ، مزين الوجه ، على رأسه طاقية وحول عنقه مريلة ، يتظاهر بالبكاء ، أو ربما كان يبكي حقاً ، الى أن

وضع القذر الذي يقوم بدور مرضعته في فمه رضاعة خمر أحمر أخذ يرضعها بشراهة ، أمام الفرح الكبير من جانب الجمهور المتجمع ، وفجأة ، ينبثق غلام ، سريع كالبرق ، جس ثدي المرضعة الضخم الزائف وهرب حالاً ، في حين كان الآخر يخور بصوت أجش لا شك في أنه صوت رجل ، تعال الى هنا ، يا ابن السافل ، لا تهرب ، تعال والمس هذا ، وضم الفعل الى القول بتفاخر أدارت السيدات والنساء انظارهن بعد ان رأين ، ماذا ، لاشيء كبيراً ، للمرضعة ثوب يهبط حتى منتصف ساقيها ، في حجم العضو الممسك به باليدين ، مزحة . هكذا هو ، الكرنفال البرتغالي . يمر رجل دون ان ينتبه الى كونه يحمل قطعة ورق مثبتة على ظهره بدبوس ، حيوان للبيع ، لا أحد يرغب في معرفة السعر ، يضحك الرجل من مرح الذين يصادفهم ويقولون وهم يتجاوزونه ، هوذا الحيوان الذي لا يشعر بحمولته ، ويسخرون منه ، الآخر ، وقد شك في شيء ، يمد يده الى ظهره ، ينتزع الورقة التي يمزقها ، غاضباً ، هكذا هو الأمر في كل الأعوام ، المزحات نفسها وفي كل مرة يرد الناس كما لو كان ذلك جديداً ، ريكاردو ريس مطمئن ، من الصعب تثبيت دبوس على معطف واقٍ من المطر ، ولكن التهديدات نبعت الآن من كل الجهات ، رأس ذنب مربوط بخيط يهبط بسرعة من طابق أول ، يلقي بقبعته على الأعلى ، بنتا البيت الصغيرتان تضحكان ، تهتفان معاً أثناء الكرنفال ما من شيء سيء الحال ، والمثل كان من الوضوح ، والقسوة والإقناع ، بحيث لم يبق امامه سوى أن يلم قبعته المغطاة بالوحل ومتابعة طريقه دون ان يقول كلمة ، رأى كرنفال ليشبونة وتعرف عليه ، حان الوقت للعودة الى الفندق . لحسن الحظ ، هناك الأطفال . انهم يعرضون ، وهم يمسكون بأيدي امهاتهم أو عماتهم أو جداتهم ، أقنعتهم ، انهم يعرضون انفسهم ، أكبر سعادة لهم هي التظاهر بأنهم ما ليسوا عليه . طغمة غريبة تجتاح صالات وشرفات

المسارح التي اخذت تشبه المصحات العقلية ، ويجب ان يراهم المرء ، مع أكياسهم المليئة بالأوراق الملتفة ، وجوههم مدهونة بالقرمزي أو مغطاة ببياض الأسبيداج ، بالشامات ، محبوسين في أثواب طويلة من القماش الخشن ، أقدامهم تؤلمهم ، يزمون شفاههم للإمساك بغليون بين أسنانهم اللبنية ، شواربهم وعوارضهم تسيل ، الأطفال هم أفضل ما في البرية ، خاصة حين نحتاج الى قافية موازية لكلمة دورية . الله وحده يعلم ما اذا كانوا قد تنكروا كما كانوا يحلمون ان يكونوا أو ما اذا كانوا لا يفعلون شيئاً خلاف تمثيل حلم الراشدين الذين اختاروا اللباس ودفعوا أجرته . أنظروا الى هؤلاء الأبرياء ، هؤلاء هم هولنديون ، فلاحون ، غسّالات ، ضباط بحرية ، مغنو الفادو ، سيدات من الزمان القديم ، خادمات ، جنود ، جنيات ، ضباط جيش ، اسبانيون ، بائعات طيور ، مهرجون ، سائقو تراموايات ، بائعات بيض ، وصيفات ، طلاب بدثار الكتفين والعصا ، فلاحات ، شرطيون ، ومهرجون بيض ، قراصنة ، رعاة بقر ، مروّضون ، قوازق ، بائعو زهور ، دببة ، غجر ، بحارة ، رعاة ، حرّاس قطعان ، ممرضات ، مهرجون . بعد قليل ، سيذهبون الى تحرير الصحف من أجل أن يصوروهم ، وغداً سوف يمكن ان يرى بعض الأطفال المتنكرين الذين زاروا تحريرنا . من أجل المصور ، نزعوا القناع الذي يبرز تنكرهم ، كولومبين ، نفسها نزعت رقعة الدومينو الغامضة ، لأنه ينبغي ان يعرفوا ، وان تستطيع الجدة ان تذوب سعادة ، هذه حفيدتي ، وهي تقص بمقص عاشق الصورة ، التي ستمضي لتنهي حياتها في علبة الذكريات ، الخضراء التي هي على شكل صندوق يجب ان يقع يوماً على الرصيف ، اليوم نحن نضحك ، سيأتي يوم نشتهي فيه البكاء ، أصبح الوقت ليلاً تقريباً ، ريكاردو ريس يجر قدميه ، التعب ، الحزن ، وربما الحمى .

رعشة قصيرة صلبة ، لو لم يكن الفندق بهذا القرب لأخذ سيارة تاكسي ، خلال عشر دقائق سأكون في السرير ، بل أني لن أتعشى ، كان يتمتم بهذه الكلمات حين نبع ، من جهة الكارمو ، موكب ندابات ، رجال فقط متنكرون في هيئة نساء ، باستثناء أربعة دافني موتى يحملون على أكتافهم نعشاً ، تمدد داخله من يلعب دور الميت ، مربوط الفكين ، مضموم اليدين ، أفادوا من الهدوء المؤقت ليخرجوا ، متنكرين هكذا ، الى الطريق . أي ، صرخت بصوت أجش فزاعة مغطاة بالسواد ، ولعب آخرون دور اليتامى ، آي يا أبي العزيز الصغير ، سوف نشتاق إليك بقسوة ، وكان حولهم ، أناس يركضون طالبين صدقة للدفن ، البائس مات منذ ثلاثة أيام ، بدأت تفوح منه رائحة نتنة ، هذا صحيح ، أحدهم ألقى بكرات نتنة الرائحة ، لا تصدر عن الموتى رائحة بيض فاسد ، عادة ، ولكن هذا ما وجدوه اقرب ما يكون الى الواقع ، ريكاردو ريس أعطى بعض القطع ، لحسن الحظ انه فكّر في أخذ قطع نقدية صغيرة ، وتهيأ لمتابعة طريقه ، صاعداً في الشيادو ، عندما بدا له ، فجأة ، انه يرى ظلاً غريباً وسط الحشد ، ولكن ألسنا في جنازة زائفة حقاً ، ربما لم يكن ، بعد كل شيء ، سوى حضور الموت المنطقي جداً . كان الشخص يرتدي ثياباً سوداء ، والقماش يلتصق على جسده ، انه سروال لاصق دون شك ، وعلى الخلفية السوداء للباس ، كانت البنية العظيمة تنفك بشكل واضح ، من الرأس حتى القدمين ، هذا هو الحد الذي يبلغه الميل الى التنكر . ارتعش ريكاردو ريس ايضاً ، ولكنه يعلم هذه المرة لماذا ، انه يتذكر ما قاله له فرناندو بيسوا ، أيكون هذا هو ، تمتم قائلاً ، هذا عبث ، فرناندو لا يفعل شيئاً كهذا أبداً ، على كل حال ، لن يخالط قط حفاة ، سيعتصم بالأحرى امام مرآة ، فربما يستطيع أخيراً ان يرى نفسه في هذا اللباس . ان اقترب ، وهو يقول ذلك أو بعبارة أصح يفكر فيه .

للرجل قامة فرناندو بيسوا وقوامه ، ولكنه يبدو أرشق ، بسبب اللباس اللاصق دون شك ، هذا يجعل الجسم أشد نحولاً . ألقى الشخص عليه نظرة ، ثم ابتعد نحو ذيل الموكب . ابتعد ريكاردو ريس ، رآه يتسلق الكالسادو دو ساكرامنتو ، ظل مخيف ، العظام وحدها تلمع في شبه الظلمة ، كما لو كانت قد طليت بحبر فوسفوري يرسم وراءه ، حين يتحرك بمزيد من السرعة ، خطوطاً مضيئة . اجتاز اللارغو دوكارمو ، إنعطف راكضاً تقريباً الى زقاق أوليفيرا ، المظلم والمقفر ، ريكاردو ريس الذي لم يدعه يبتعد عنه ، يراه بوضوح ، هيكل عظمي يمشي ، شبيه بذاك الذي كان يتدرب عليه في كلية الطب ، استدارة العقب ، الظنبوب والشظية ، عظم الفخذ ، العظام الحرقفية ، العمود الفقري ، القفص الصدري ، عظام الكتفين الشبيهة بأجنحة لم تستطع ان تنمو ، عظام العنق التي تحمل الجمجمة الكامدة والمشعة . الناس الذين كان يصادفهم يصرخون ، ايه ، أيها الموت ، ايه ، أيتها الفزاعة ، ولكن القناع لا يجيب ، لا يدير رأسه ، ويصعد بخطواته السريعة درجات الاسكاديناس دو دول درجتين درجتين ، برشاقة ، ليس هذا فرناندو بيسوا الذي لم يكن قط ، على الرغم من تربيته البريطانية ، رجل انجازات جسدية ، لا هو ولا ريكاردو ريس أيضاً ، ولكن له أعذاره ، انه ليس سوى نتاج التربية اليسوعية . ها هو الآن قد تخلف ، ولكن الهيكل العظمي توقف عند أعلى الدرجة ، ألقى نظرة نحو الأسفل ، كما لو كان يترك له الوقت ليطرقه به ، ثم اجتاز الميدان الصغير ، ودلف الى الترافياداكيميدا ، الى أين يقودني بحق الشيطان هذا الموت البلية ، ولماذا اتبعه ، تساءل ، للمرة الأولى ، عما اذا كان الشخص المقنع رجلاً أم امرأة ام لا هذه ولا ذاك ، الموت ، بكل بساطة . فكّر قائلاً ، هذا رجل ، عندما رأى الظل يدخل الى حانة استقبلته فيها صرخات وتصفيقات . ايه أيها الموت ، ايه أيها الهيكل

العظمي ، وفي حين كان يرقب الهيكل ، رآه يستلقي الى الخلف ليشرب كأس خمر على الكونتوار ، صدره مسطح ، لا يمكن ان يكون امرأة . لم يتأخر القناع عن الخروج ، لم يتوفر لريكاردو ريس الوقت من أجل أن يبتعد ، أن يختبيء ، ركض قليلاً ، ولكن الآخر لحق به عند طرف الطريق ، كانت ترى أسنانه ، ولثتاه تلمعان تحت لعاب حقيقي جداً ، ليس صوته مذكراً بل مؤنثاً ، أو بعبارة أضبط في منتصف الطريق بين الذكر والأنثى . ماذا أيها البورجوازي ، انك تركض ورائي ، ألأنت غلماني أم أنك تتعجل النهاية . كلا ، يا سيدي ، من بعيد ظننتك أحد أصدقائي ، ولكني أفهم من صوتك ان الأمر ليس كذلك . ومن قال لك اني لا أزيفه ، الصوت مختلف كلياً ، متردد ، ولكنه من طبيعة اخرى . عند ذلك قال ريكاردو ريس ، اعذرني . الرجل المقنع أجاب قائلاً ، اذهب الى الشيطان ، وكان صوته يشبه هذه المرة صوت فرناندو بيسوا ، ثم أدار له ظهره واختفى في الليل الأسود . أثناء الكرنفال لا يسوء الحال ، كما كانت بنتا رأس الذئب الصغيرتان تقولان ، عاد المطر الى الهطول .

كانت ليلة حمى ، نوم مضطرب . كان ريكاردو ريس قد تناول ، قبل ان يتمدد على سريره ، متعباً ، قرصي اسبيرين ، ميزان الحرارة ارتفع تحت ابطه ، الى ما فوق الثمان والثلاثين درجة ، كان ينبغي توقع ذلك ، فهي بداية وافدة حرارة ، نام ، ثم استيقظ بعد أن حلم بسهول كبيرة تستحم في الشمس ، وانهار تتلوى بين الأشجار ، ومراكب رسمية وبعيدة ، تنحدر مع التيار ، وعلى كل واحد منها كان يوجه الى نفسه ، وقد تضاعف وانقسم ، اشارات باليد ، كواحد سيبتعد أو يستبق لقاء ، ثم دخلت المراكب الى بحيرة ، الى مصب هادىء المياه كانت تتجمد فيها ، عشرة ، عشرون ، لا يهم ، دون شراع ولا مجذاف ، البحارة ، على الرغم من كونهم قريبين من بعضهم بعضاً ، لم يكونوا يستطيعون ان يسمعوا بعضهم ، كانوا يتكلمون جميعاً في الوقت نفسه ، وبما أنهم كانوا يتلفظون في اللحظة نفسها بالكلمات نفسها ، فإنهم لم يكونوا يتفاهمون ، ثم ، ببطء ، غرقت المراكب ، ضعفت جوقة الأصوات ، كان ريكاردو ريس يبذل جهده من أجل ان لا تفوته أقوالهم الأخيرة ويظن أنه نجح في ذلك ، ولكن المقاطع ، التي تحررت أخيراً ، كانت تغلي ، بينما كان آخر مركب يغرق ، في الماء ، وهو

تجلٍ أخير للكلام الغريق ، ثم كانت تعود ، رنانة ولكنها مجردة من المعنى ، الى السطح ، لم يكن ذلك وداعاً ولا وعداً ولا وصية ، وعلى كل حال ، لم يبق أحد فوق المياه ليسمعها . كان ريكاردو ريس ، الذي مازال غارقاً في النوم أو المستيقظ من قبل ، يتساءل ما اذا كان الرجل المقنع فرناندو بيسوا حقاً ، بعد ان قرر أنه هو ، دحض ، بعد قليل ، هذا المنطق العميق ، في المرة القادمة التي سيلقاه فيها ، سوف يطرح عليه هذا السؤال ، يبقى ان نعرف ما اذا كان فرناندو بيسوا سيقول له الحقيقة ، أوه يا ريس ، لم تفهم اذن ان الأمر كان يدور حول مزحة ، هل تتخيلني في ثياب ميت من القرون الوسطى ، الميت شخص رصين ، متزن ، يعي وضعه ، انه متحفظ ، يكره عري الهيكل العظمي الجذري ، عندما يخرج ، يفعل مثلي ، يرتدي البذلة التي البسوه إياها من أجل الأبدية ، أو اذا كانت قد اعترته رغبة في أن يخيف أحداً ، فإنه يتغطى بكفنه ، ولكنك ستنصفني ، ان الرجل ذا الذوق الذي هو أنا ، الذي يحترم الناس ، ويرغب في أن يبقى كذلك ، لا يمكن أن يقبل القيام بهذه المهزلة . ما كان يجب ان اطرح عليك هذا السؤال . اشعل ريكاردو ريس النور ، وفتح كتاب « إله المتاهة » ، قرأ صفحة ونصف الصفحة ، وفهم ان الأمر كان يدور حول لاعبي شطرنج ، دون ان ينجح مع ذلك في ان يخمن ما اذا كانا يلعبان أم يتنافشان ، كانت الحروف تختلط أمام عينيه ، وترك الكتاب ، وجد نفسه الآن على نافذة بيته في ريو ، ونظر الى بعيد ، كانت الطائرات تلقي بقنابلها على أوركاوبرايا فيرميلا* ، الدخان يرتفع في زخرفات كبيرة مائلة إلى السواد ، ولكن أي صوت لا يصل إليه ، لقد أصبح أصم ، بل ربما لم تكن لديه قط حاسة السمع ، ولا يمكن ان يتصور عقلياً ، مع منفذ واحد هو الرؤية ، انفجار القنابل ، ونيران اطلاق

* شاطئان في ريو دو جانيرو .

الرصاص المتصالبة ، وصرخات الجرحى ، اذا كان يمكن سماعها من هذه المسافة . استيقظ مبللاً بالعرق ، كان الفندق غارقاً في الصمت الليلي الكبير ، كل الزبائن كانوا نائمين ، حتى الهاربون الاسبان الذين كان من شأنهم لو سئلوا ، أين أنتم ، أن يجيبوا ، وقد خدعتهم راحة السرير ، في مدريد ، في كاسيريس . في الطابق الأخير ، ليديا تنام دون شك ، في الوقت الحاضر ، لا تنزل كل ليلة ، انهما يرتبان مواعيدهما مسبقاً ، حماسة الأسابيع الأولى قد سكنت ، لا شيء أكثر طبيعية من ذلك ، زمن الهوى اقصر الأزمنة ، يمكن الحديث عن الهوى حتى في هذه الصلات الخدمية التي يجب ان تواجه الريبة والوشاية ، إنها تدوم ما دامت المظاهر سليمة ، يمكن ان تلميحه الخبيث ، ولكن اسباباً أخرى ، كلية القوة ، يمكن أن تكون قد أوقفت اللقاءات اليومية ، قد تكون ليديا في دورتها الشهرية ، في مدخل المرفأ ، هوذا الدفق القرمزي ، ساقية الجسد الأنثوي . استيقظ مرة أخرى ، فتح عينيه ، كان ضوء شاحب ، بارد وكامد ، أقرب الى الليل منه الى النهار ، يرشح عبر مغالق النوافذ ، والزجاج ، والستائر ، يرسم حواف السجف غير المسحوبة جيداً ، وميض مبلل ضعيف ينتشر على الأثاث المصقول ، الغرفة الباردة تستيقظ ، شبيهة بمنظر رمادي . ما أسعد الحيوانات التي تبيت البيات الشتوي ، مستمتعة حذرة ، سيدة لا شعورية ، حتى نقطة معينة ، لمصيرها ، لم يسمع قط عن واحد منها مات وهو ينام .

قاس ريكاردو ريس مرة اخرى حرارته ، مايزال محموماً ، ثم أخذ يسعل ، ما من شك هناك ، لقد التقطت برداً قوياً . النهار ، الذي طال أمد قدومه ، انبثق فجأة الى حد فتح معه باب ، ذابت تمتمة الفندق في ضجة المدينة ، الاثنين ، غداة الكرنفال ، في أية غرفة ، في أي قبر مازال هيكل بيرو ألتو العظمي ينام أو يستيقظ فيه ، ربما لم يخلع ملابسه بعد ، ومازال

تائهاً في الطريق ، مرتدياً ما كان يرتديه ، الطيب المسكين ينام وحده ، هو أيضاً ، أن امرأة حية حقاً ستعول دون شك اذا أخذت ذراع هيكلية في ضمها إليها ، بين الأغطية ، حتى ولو كان الأمر يدور حول ذراع عشيقها ، لسنا شيئاً له قيمة ولم نعد كذلك سوى عبثاً ، تلفظ ريكاردو ريس بهذه الكلمات المستعادة بصوت مرتفع ، وكررها متمتماً ، وقال لنفسه ، انهض ، لن تبقى راقداً طيلة النهار ، الزكام والسخونة لا يحتاجان الى أدوية ، يكفي أن يبقى المرء في حالة دفء ، أغفى قليلاً أيضاً ، وفتح عينيه ثانية وكرر ، يجب أن انهض ، واحلق ، كان يكره الشعرات البيض على وجهه ، ولكن الوقت أكثر تأخراً مما ظنه ، لم ينظر الى ساعته ، الباب يقرع الآن ، ليديا ، الإفطار . نهض ، ودوار خفيف يعتريه ، وضع الرداء المنزلي على كتفيه ، لم يتوصل الى انتعال خفيه ، ثم ذهب ليفتح . ليديا التي تعودت ان تراه مغتسلاً ، حليقاً وممشط الشعر ، ظنت أنه عاد متأخراً ، انه هرع الى حفلات الرقص والمغامرات ، سألته ، بينما كان يعود الى سريره متعثراً ، مع الرغبة الفجائية في أن يدلل ، يعتنى به كطفل ، هل تريد أن أعود فيما بعد ، أجاب ، أنا مريض ، لم يكن هذا ما سألته عنه ، ولكنها وضعت الطبق على الطاولة ، واقتربت من السرير ، كان قد عاد الى الرقاد ، وبحركة فيها إلفة ، وضعت يدها على جبينه ، أنت محموم ، كان ريكاردو ريس يعرف ذلك جيداً ، ليس طبيباً من أجل لا شيء ، ولكنه منذ ان أكد له ذلك أحد بصوت عال ، أشفق على نفسه ، وضع احدى يديه على يد ليديا ، أغمض عينيه ، لو وصلت دمعتين الى عينيه ، فسوف يستطيع منعهما ، تماماً كما يمسك بهذه اليد ، الخشنة ، الفظة تقريباً ، شوهتها الأعمال ومختلفة جداً عن أيدي كلويه ، ونيرا ، وليديا الأخرى ، بأصابعها الرشيقة ، وأظافرها المعتنى بها ، أو يد مرساندا ذات الراحة العذبة ، راحة يدها السليمة طبعاً ، اليسرى ستكون

بالأحرى الموت المستبق . إنها الوافدة بالتأكيد ، ولكني سوف أنهض . هذا كلا ، أمن أجل أن تصاب ببرد ، وتكون النزلة الصدرية بعد ذلك . أنا الطبيب ، يا ليديا ، أنا الذي أعلم ، لن أبقى في السرير كعاجز ، أنا أحتاج فقط الى أحد يذهب الى الصيدلية ليأتي لي بدوائين أو ثلاثة . نعم يا سيدي ، أحدهم سيذهب ، أنا أو بيمنتا ، ولكنك لن تخرج من السرير ، كُل قبل أن يبرد الطعام ، بعد ذلك سأرتب السرير ، واهوّي الغرفة .

كانت ليديا ، أثناء كلامها ، تدفع ريكاردو ريس بتمهل الى الجلوس ، متوردة الخدين سعادة ، تسوي وسادته ، تجلب الطبق ، تمزج القهوة والحليب ، تضع السكر ، تقطع الشرائح المحمصة ، تمد عليها المربى ، يسر النساء ان يرين الرجل المحبوب واهن القوى على سرير ألمه ، أن ينظرن إليه بالقلق أو بالرعاية التي تعطي لعيونهن بريقاً خاصاً ، كما لو كنّ يعانين ، هن أيضاً ، من الحمى التي تضعفه ، التعبير المليون عن المبدأ العتيد الذي يريد أن تكون لنتيجة واحدة أسباب مختلفة جداً . ترك ريكاردو ريس نفسه يدلل ، يهدهد ، لمسات الأصابع السريعة هي كمسحة الزيت المقدس ، وليس من السهل أن يعرف ما اذا كان الأمر يدور حول الأولى أم حول الأخيرة ، شرب قهوته بالحليب وأحس في نفسه بنعاس لذيذ ، افتحي الخزانة ، في الداخل الى اليمين ، هناك محفظة صغيرة سوداء ، أجلبيها لي . شكراً . اخرج من المحفظة دفتر وصفات يمكن أن يقرأ عليها ، ريكاردو ريس ، طبيب عام ، روا دو أوفيدور ، ريودو جانيرو ، عندما بدأ بهذا الدفتر ، كان بعيداً عن الشك في أنه سيأتي ليكمله أو ينهيه هنا ، على هذه المسافة من ريو ، انها الحياة ، لا شيء توقف ، او أنه توقف ، اذن ، بصورة من الغرابة لا نفهم معها شيئاً . كتب بضعة أسطر قائلاً لا تذهبي الى الصيدلية الا إذا طلب منك ذلك ، أعطي ببساطة الوصفة للسيد سلفادور ، دعيه يقرر ،

خرجت حاملة الوصفة والطبق ، وذلك ليس دون أن تكون قد قبلته على جبينه ، تجرأت على ذلك ، وهي خادمة ، لها الحق في ذلك بعد كل شيء ، المقصود هو الحق الطبيعي ، وليس الآخر ، وفضلاً عن ذلك فهذا هو الشرط الوحيد ، الذي يعطي لها الأول ضمنه . ابتسم ريكاردو ريس ، قام بحركة مبهمة بأصابعه التي دسها تحت الأغطية ، في مأمن من البرد ، والتفت نحو الجدار ، وسرعان ما نام دون أن يعود الى التفكير في مظهره ، في شعره الأشيب المنفوش ، في جلده الباهت والندي من الحمى . يمكن للمرء أن يكون أخطر مرضاً من هذا الرجل وان يعرف لحظة من السعادة ، أن يشعر مثلاً أنه في جزيرة مقفرة يطير فوقها طائر عابر خاضع لنزوات الريح .

لم يغادر ريكاردو ريس الغرفة لا في ذلك اليوم ولا في الغد . زاره سلفادور ، وبيمنتا سأل عن أخباره ، كل العاملين في الفندق يتمنون لك شفاء سريعاً ، يا سيدي الدكتور . ليديا تتولى ، باتفاق ضمني أكثر منه بأمر رسمي ، كل وظائف ممرضة مساعدة ، دون معرفة بالمهنة خلاف تلك التي أخذتها عن التراث التاريخي للنساء ، والتي تقوم على تغيير الأغطية ، ترتيب الثنيات ، الإتيان بالشاي بالليمون ، دون نسيان ساعة القرص ولا ساعة ملعقة الشراب ، وبحميمية تبعث على الاضطراب كانا الوحيدين اللذين يعرفانها ، وضع كمادات الخردل على ربلتي المريض ، بتدليكات قوية من أجل انزال الأخلاط التي تثقل على الصدر والرأس ، واذا لم يكن هذا هو هدف هذا العلاج ، فهو هدف آخر ، جيد بدوره . كانت ليديا تمضي أكثر وقتها في الغرفة مائتين وواحد ، دون ان يدهش أحد لذلك ، مع كل هذه المهمات الإضافية ، واذا طلبها أحدهم ، قيل له ، إنها لدى السيد الدكتور ، والخبث لا يكاد يصل إلى طرف أنفها ، اللذعات والعقصات والعضات ، ستكون فيما بعد . ومع ذلك ، فلا شيء أكثر براءة من حركاتهما وأقوالهما ،

ريكاردو ريس مستند الى الوسادة ، ليديا تلح ، ملعقة أخرى ، أنه حساء الدجاج الذي يرفض ان ينهيه ، بسبب نقص القابلية أو رغبة في أن ترجوه ذلك ، وهو ما يجري في الواقع ، لأن ريكاردو ريس ليس مريضاً الى حد لا يستطيع معه تغذية نفسه ، ولكن هذا من شأنهما . اذا اتفق وقرب بينهما اتصال أبعث على الاضطراب ، كملامسة يد للشدي مثلاً ، فإن طابع المرض المقدس ، كرامته ، تمنعان الأمور من أن تمضي أبعد من ذلك ، على الرغم من أن ضروب المس بهذا المذهب والهرطقات ليست نادرة في هذا الدين ، ليست أندر من الانحرافات العائدة إلى حميميتهما المتنامية ، ريكاردو ريس أصبح متزايد الجرأة فعلاً ، في حين كانت تتملص . هذا يمكن أن يؤذيك ، يجب الثناء على هاجس الممرضة وحياء العشيقة الذي تعلمته ، كما نعلم ، على حسابها . كان يمكن الاستغناء عن كل هذه التفاصيل ، إلا أنه لا وجود لشيء هام آخر نرويه ، إلا أن نذكر مرة أخرى الأمطار والعواصف التي ضاعفت حدتها خلال هذين اليومين الأخيرين ، وابلات حقيقية في يوم ثلاثاء المرفع أفسدت الكورسو ، ولكن هذا يضجر من يتحدث عنه بقدر ما يضجر من يستمع إليه ، أما بالنسبة للأحداث الخارجية ، فهي لا تنعدم ، ولكنه من المشكوك فيه ان تحمل أي شيء إلى حديثنا ، إذا دار الأمر مثلاً حول الرجل الذي وجد ميتاً في سنترا ، في حين كان قد اختفى في كانون الأول ، اسمه لويس أوريدا أولسينا ، سر آخر ـ سيبقى دون تفسير حتى يوم الدينونة ، وربما سيرفض الشهود ، حتى في تلك البرهة ، ان يتكلموا ، من أجل هذا نحن مرغمون على العودة الى هذين الاثنين ، الزبون والخادمة ، فيما بعد ، عندما سيكون الزكام قد زال ، سيعود ريكاردو ريس الى العالم وليديا الى مكانها ، سوف يستأنفان عناقاتهما الليلية ، البطيئة أو المتعجلة ، كل شيء سيتوقف على الترتيبات والجواسيس . غداً ، الأربعاء ، يجب أن

تأتي مرساندا ، ريكاردو ريس لم ينسها ، ولكنه اكتشف ، وهذا الاكتشاف فاجأه ، ان المرض أضعف خياله ، ليست الحياة في نهاية المطاف سوى نقاهة طويلة ، نحن جميعاً ننتمي الى مرض قديم ، متكرر وغير قابل للشفاء ، تقطعه فواصل نسميها صحة ، كان ينبغي اعطاؤها اسماً حقاً من أجل إبراز الفرق بين الحالتين . ستأتي مرساندا مع يدها المتدلية سعياً وراء دواء مستحيل وأبوها معها ، مسجل العقود سامبايو ، الذي يجتذبه خفيف تنورة أكثر من الأمل في شفاء ابنته ، وربما كان فقدانه هذا الأمل منذ زمن طويل هو الذي كان يلزمه ، من أجله ، أن يجد العزاء على ثدي ، لا يختلف أبداً دون شك عن ذاك الذي نجح ريكاردو ريس في هذه اللحظة في الاحتفاظ به الى جانبه ، ليديا لم تعد تتمنع الى هذا الحد ، بل انها وهي التي لا تعرف مع ذلك شيئاً في الطب تبينت أن صحة الدكتور أفضل بكثير .

الاستدعاء وصل الى ريكاردو ريس يوم الأربعاء ، صباحاً ، سلفادور تولى بنفسه ايصاله إليه ، نظراً لأهمية الوثيقة ومصدرها ، بوليس الرقابة وحماية الدولة ، وهو كيان لم يذكر اسمه كاملاً ، بعد ، أبداً ، وهو ما يثبت أن الأشياء التي لا يجري الحديث عنها موجودة هي نفسها حقاً ، عشية وصول مرساندا ، لم يكن يبدو ان هناك شيئاً أهم من مرض ريكاردو ريس وعناية ليديا ، وفي هذه الأثناء ، ودون أن يرتاب أحد في شيء ، كان كويتب يملأ مطبوعة كان يجب أن تصل الى هنا . هذه هي الحياة حقاً ، لا أحد يعلم ما الذي يحتفظ به المستقبل لنا . سلوك سلفادور تغير تماماً ، لم يعد وجهه منغلقاً كسحابة شتاء ، بل أصبح مرتبكاً ، بتعبير من يراجع حسابات الشهر ويكتشف رصيداً أقل من الذي حسبه ذهنياً . قال ، وصل استدعاء من أجلك ، مسلط العينين على الورقة كما لو كان يفحص ، مرتاباً ، عمود الأرقام ، أين الخطأ ، سبعة وعشرون وخمسة ، ثلاثة وثلاثون ، في

حين نعلم جيدا ان هذا لا يساوي سوى اثنين وثلاثين . استدعاء لي ، دهش ، عن حق ، ريكاردو ريس الذي كانت جريمته الوحيدة ، التي لا تقع عادة في اختصاص هذه السلطة ، هي أنه يستقبل أمرأة في سريره في ساعات غير مناسبة ، ولكن هل هذه جنحة ، تعبير سلفادور يقلقه أكثر بكثير من الورقة التي لم يأخذها بعد ، يده ترتجف قليلاً . من أين أتت ، لا جواب على سؤاله ، بعض الكلمات يجب أن لا يجري التلفظ بها بصوت مرتفع ، بل يجب أن يهمس لها ، أن تنقل بإشارات أو أن تقرأ في صمت ، وهذا ما يفعله ريكاردو ريس الآن ، حاذفاً الحروف الكبيرة التي يراها مغالية في تهديدها ، بوليس المراقبة وحماية الدولة ، سأل ، مبالغاً في استيائه ، ماذا يريدون مني ، ثم أضاف ليهدىء ريبة سلفادور ، هذا خطأ بالتأكيد ، أخيراً ، أوقع هنا ، ها أنا أعلم أن علي أن أمثل هناك في الساعة العاشرة من صباح الثاني من آذار . شارع انطونيو ماريا كاردوزو ، الى جانبنا تماماً ، تصعد أولاً شارع اليكريم حتى زاوية الكنيسة ، ثم تنعطف الى اليمين ، ثم الى اليمين مرة اخرى ، بعد ذلك بقليل ، ترى دار سينما ، الشيادو تيراس ، في الجانب الآخر من الشارع ، هناك مسرح سان لويس ، ملك فرنسا ، مكانان جيدان للتسلية ، فنون الشاشة وفنون المسرح مجتمعة فيهما ، لا يمكن أن تخطىء ، ولكن ربما يكون قد استدعي إلى هناك لأنه ، على وجه الضبط ، قد أخطأ كثيراً .

انسحب سلفادور ، الوقور جداً ، ليقدم الى الرسول المبعوث البرهان القاطع على كون الرسالة قد وصلت حقاً ، وقرأ ريكاردو ريس الذي نهض من السرير ليجلس على الأريكة ، الاستدعاء وأعاد قراءته . يرجى التفضل بالمثول للإجابة عن بعض الأسئلة ، ولكن أية أسئلة ، يا للآلهة ، لم أفعل شيئاً ، يمكن أن يؤخذ علي ، لا أدين لأحد بشيء ، لم أعقد أي قرض ، لا

أتآمر ، وأنا فضلاً عن ذلك متزايد الاقتناع بأن التآمر لا يجدي فتيلاً منذ ان قرأت «المؤامرة» ، المؤلف الذي أوصت به كوامبرا ، مازلت أسمع صوت ماريليا يتردد من اذنيّ ، كادوا يعتقلون بابا منذ يومين ، عندما تحدث هذه الأمور لأب ، فما هي الأشياء التي لا يستطيعون صنعها لمن ليسوا آباء . كل العاملين في الفندق يعلمون الآن أن زبون المائتين وواحد ، الدكتور ريس ، الذي وصل من البرازيل منذ شهرين ، قد استدعى إلى البوليس ، لقد فعل بالتأكيد شيئاً هناك ، أو هنا ، لا أحب أن أكون في مكانه ، سوف يدهشني أن يدعه بوليس السهر على الدولة وحمايتها يخرج ثانية ، لو كان الأمر خطيراً حقاً لما ارسلوا إليه استدعاء ، كان من شأنهم أن يأتوا لاعتقاله مباشرة . عندما نزل ريكاردو ريس في بداية السهرة ، ليتناول طعام العشاء ، كان يحس أنه على قدر من الصلابة في ساقيه يكفي لعدم التزامه غرفته ، سوف يلاحظ أن المستخدمين ينظرون إليه خلسة ، كما لو كانوا يتجنبونه ، ليديا هي الوحيدة التي لم تأخذ بهذا السلوك المتحدي ، فما كاد سلفادور يصل إلى الطابق الأول ، حتى ظهرت في الغرفة ، يقال ان بوليس الحدود قد استدعاك ، الصغيرة المسكينة كانت مضطربة تماماً ، نعم ، هذا هو الاستدعاء ، إلا أنه ما من سبب ليجعلك قلقة ، إنها بالتأكيد مسألة ورقيات . فليسمع الله منك ، لا ينبغي ، بموجب ما يقولون ، توقع أي شيء طيب من هؤلاء الناس ، أخي روى لي أشياء غريبة حولهم . لم أكن أعلم أن لك أخاً . لم تسنح لي فرصة التحدث إليك عنه ، لا وقت لدينا للكلام حول حياتنا . لم تقولي لي شيئاً أبداً عن حياتك . لو كنت قد سألتني لفعلت ، أنت على حق ، لا أعرف عنك شيئاً خلاف أنك تعيشين في الفندق ، أنك تخرجين حين يكون لديك عطلة ، أنك عازبة ، ولا يعرف لك خطيب . أجابت ليديا ، الأمر هو كذلك بالضبط ، وهذه الكلمات المتواضعة هصرت قلب

ريكاردو ريس ، من الحماقة أن يقال ذلك ، ولكن الأمر هو هكذا ، لقد سمعها بقلب مهصور . ليديا لم تنتبه ، احتمالاً ، لما كانت تقوله ، كانت تريد أن تشكو قليلاً ، دون شك ، ولكن من أي شيء ، ربما كانت تريد ببساطة أن تؤكد له واقعة لا تدحض ، كما عندما يقال ، السماء تمطر ، ثم ، كما يقال في القصص ، السخرية المرة قد ذابت ، أنا ، يا سيدي الدكتور ، خادمة بسيطة ، لا أكاد أعرف القراءة والكتابة ، لا احتاج إلى أن تكون لي حياة ، ولو كانت لي حياة ، فلماذا كانت ستعنيك ، يمكن أن نضيف أيضاً كلمات كثيرة الى تلك التي جرى التلفظ بها ، هذا هو الأمر بالضبط ، ولو كان الأمر يدور حول مبارزة بالسيف ، فقد كان من شأن ريكاردو ريس أن يصاب . تهيأت ليديا للخروج ، كما لو كان ذلك لتثبت أنها لم تقل أي شيء ، بعض العبارات تبدو عفوية ، يخيل إلى المرء أنها النتاج البسيط للظروف ، والله يعلم أية قوالب قد أنضجتها ، أية مصاف قد طهرتها ، في اللامرئي ، من أجل أن تقع هكذا ، شبيهة بأحكام سليمان ، كي تدع مكاناً إلا للصمت . المثل الأعلى اذن هو أن يختفي أحد المتحاورين ، الذي تحدث أو الذي استمع ، لا أهمية لذلك ، ولكن الأمور لا تجري هكذا ، الناس يتكلمون ويتكلمون ، وينتهون الى نسيان معنى ما كان ، قبل لحظة ، نهائياً ولا يرد ..

سأل ريكاردو ريس ، ماذا روى لك أخوك ، ومن هو ، ليديا لم تغادر الغرفة ، السؤال المحرج الصاعق كان قد دام لحظة برق ، عادت ، طيعة ، لتشرح ، أخي في البحرية . أية بحرية . البحرية الحربية ، إنه بحار على الأفونسو البوكيرك . أهو أكبر منك أم أصغر . لقد أتم الثالثة والعشرين منذ قليل ، اسمه دانييل . لا أعرف اسم أسرتك كذلك . اسم أسرتي هو مارتينز . من جهة أبيك أم من جهة أمك . من جهة أمي ، ولدت من أب مجهول .

ولكن ، ماذا عن أخيك إذن . إنه نصف شقيقي ، أبوه مات . آه . دانييل في المعارضة ، وقد روى لي أشياء كثيرة ، عليك أنت أن تقرري إذا ما كنت تثقين بي إلى حد كاف . أوه ، يا سيدي الدكتور ، لو لم أكن أثق فيك . هناك شيئان لا ثالث لهما ، أما أن يكون ريكاردو ريس مبارزاً رديئاً جداً لا يحمي نفسه جيداً ، أو أن ليديا مارتينز هذه محاربة مسلحة بقوس ، برمح ، بسيف ، ما لم تكن هناك فرضية ثالثة ، هي أن يتحدث كلاهما ، دون خوف ، دون أن يسعيا الى قياس قواهما أو ضروب ضعفهما المتبادلة ، ولا الى تحليلات دقيقة ، وأن يكونا ببساطة منخرطين في محادثة بريئة ، هو جالس ، وهذا حقه ، فهو في طور الثقافة ، وهي واقفة ، وهذا واجبها كتابعة ، وكلاهما مدهوشان لعثورهما فجأة على هذا المقدار من الأشياء يقولانها لبعضهما ، ذلك أنهما يدليان حالياً بخطابات حقيقية ، بالقياس مع اقتضاب محاوراتهما الليلية ، التي هي تمتمات الجسدين الأولية والبدائية . عرف ريكاردو ريس على هذا النحو أن للمكتب الذي سوف ينبغي عليه أن يذهب إليه منذ يوم الإثنين القادم سمعة قذرة ، انه تجري فيه أشياء مروعة ، الويل لمن يقع بين أيدي هؤلاء الناس ، الذين يعذبون ، يعاقبون ، يجرون في كل ساعة استجوابات ، دانييل لم يجرب ذلك ، بالطبع ، إنه يكرر مثل كل الناس ما سمعه ، ومع ذلك ، اذا كان ما تقوله الأمثال صحيحاً ، وان الأيام تتوالى ولا تتشابه ، وان أحداً لايقاتل ضد القدر ، وان أحداً لا يعرف ما يحتفظ له به المستقبل ، فعندئذ يستطيع الله ، الذي يمسك بالمستقبل بين يديه ، ان يطلعنا حقاً على خططه ، من أجل أن نحاذر جيداً ، ولكنه يخشى أن تكون إدارته لرأس ماله سيئة جداً ، على اعتبار أنه لم يكن قادراً حتى على التنبؤ بقدره الخاص . اذن ، الأمر هو كذلك ، لا يحبون الحكومة في البحرية ، كان هذا تلخيص ريكاردو ريس ، واقتصرت ليديا على هز كتفيها ، هذه الآراء

الهدامة ليست آراءها ، إنها آراء دانييل ، وهو بحار ، نصف شقيق لها ، ولكنه رجل ، مثل هذه الجسارات مذكرة ، ليست من شأن النساء ، انهن ، من جانبهن ، اذا كنّ مطلعات على شيء ما ، فذلك لأنه روي لهن ، الآن .

كوني حذرة ، لا تمضي لاعلان ذلك فوق كل السقوف ، ان ذلك قد جرى فعلاً ، ولكن ذلك من أجل القضية العادلة .

نزل ريكاردو ريس قبل أن تدق الساعة ، غير مدفوع بالجوع ، بل بفضول مفاجىء ، يريد أن يعرف ما اذا كان اسبان آخرون قد وصلوا ، ما إذا كانت مرساندا وأبوها هناك ، كان يفكر فيها ، بل يتلفظ باسمها بصوت منخفض ، مع مراقبته نفسه بانتباه ، مثل الكيميائي المتدرب الذي أتى على خلط حامض بأساس ، ويحرك الأنبوب ، ولكنه لا يكتشف الكثير ، إنها القصة نفسها دائماً ، اذا لم يأت الخيال للنجدة ، فالنتيجة التي يتم الحصول عليها مخيبة للآمال ، ها هي الوف السنين التي أمضينا وقتنا خلالها في مزج العواطف ، الحوامض والأسس ، الرجال والنساء . تذكر الانفعال المراهق الذي نظر به إليها ، في المرة الأولى ، وسعى الى إقناع نفسه بأن ما أحس به آنذاك لم يكن سوى تعاطف ، عطف أمام الإعاقة المؤثرة ، اليد الصغيرة الجامدة ، الوجه الشاحب والحزين ، ثم كان هذا الحوار أمام المرآة ، شجرة معرفة الخير والشر . لا شيء ينبغي فهمه ، يكفي النظر ، أية أقوال خارقة أمكن لانعكاسيهما أن يتبادلاها حقاً ، لم تستطع الأذن التقاطها ، الصورة وحدها كررت حركة الشفاه ، ولكن ربما كانا يتحدثان لغة أخرى ، في المرآة ، ربما كانت الكلمة التي يجري التلفظ بها في هذه الساحة البلورية مختلفة ، ومعناها مختلف أيضاً ، وحتى إذا تكررت الحركات ، شبيهة بالظلال ، فإن الخطاب مختلف تماماً ، ضائع في بعد لا يمكن قوله ، لم تحتفظ الذاكرة عما قيل في هذا الجانب من المرآة ، والذي ضاع ، إلا

بمقاطع متفرقة ، لا تستطيع أن تتكامل لتعيد تكوين الخطاب بكامله ، ذلك الذي جرى التلفظ به أمام المرآة ، ويجب أن نذكر بذلك ، من أجل هذا لا تلتقي مشاعر الأمس في مشاعر اليوم ، لقد ضاعت على الطريق ، نهائياً ، شظايا مرآة محطمة ، ذاكرة . ارتجفت ساقا ريكاردو ريس قليلاً وهو يهبط الدرج ، ليس في ذلك شيء مفاجئ ، إنه تأثير السخونة ، ويجب أن يكون المرء جاهلاً حقاً في هذا الصدد من أجل أن يظن أن هذه الرجفة هي نتيجة تأملاته ، المعادة هنا الى هذا الحد من الجدية ، ليس شيئاً سهلاً أن يفكر المرء وهو يهبط درجاً ، أي واحد يستطيع أن يجرب ذلك ، انتبه الى الدرجة الرابعة .

كان سلفادور يتحدث في الهاتف ، وراء الكونتوار ، وهو يسجل ملاحظات بقلمه . حسن جداً ، نعم يا سيدي ، أمرك ، وكان يرسم ابتسامة آلية وباردة تكشف ، وراء مظهره الشارد ، قسوة نظرة ثابتة ، شبيهة بنظرة بيمنتا الذي نسي فعلاً الإكراميات الجيدة . سيدي الدكتور في حالة أحسن إذن ، إلا أن عينيه كانتا تعبران عن شيء مختلف تماماً ، كان يبدو لي جيداً أنه كان هناك شيء عكر في حياتك ، مثلاً ، والى أن يعود ريكاردو ريس من مكتب البوليس ، إذا عاد ، فإن هاتين العينين لن تعبرا عن شيء آخر . دخل المشبوه الآن الصالة التي تضج ، والمرة الوحيدة ليست عادة ، بالكلمات القشتالية ، يخيل الى المرء أنه في فندق في الغران فيا ، التمتمة بتعابير برتغالية ، المتواضعة ، صوت البلد الصغير الذي هو بلدنا ، الوجل حتى في بيته ، كانت تنجح ، ضمن فواصل ، في السماء ذاتها ، وتتسلق إذ ذاك الى ارتفاع مساو لصوت نشاز لتظهر جيداً معارفها المزعومة أو الحقيقية في لغة التجار . لا يكون المرء برتغالياً جيداً ما لم يتحدث باللغات الأجنبية أفضل مما يتحدث بلغته . لم تكن مرساندا هناك ، الدكتور سامبايو كان غارقاً في

محادثة من أهم المحادثات مع إسبانيين كانا يصفان له الوضع السياسي في بلدهما ، مع رواية أوديسة هربهما ، أنتم تعيشون لحسن الحظ في وضع مختلف تماماً ، كما كان يقول الآخر . مضى ريكاردو ريس ، بعد أن اعتذر ، ليجلس على طرف الأريكة ، بعيداً عن الدكتور سامبايو ، كان هذا أفضل ، لم يكن لديه أبداً رغبة في التدخل في هذه المحادثات الإسبانية - البرتغالية ، الشيء الوحيد الذي كان يهمه ، هو معرفة ما إذا كانت مرساندا هنا ، أو ما إذا كانت قد بقيت في كوامبرا . كان الدكتور سامبايو يتصرف كما لو أنه لم يكن قد رآه يدخل ، كان يهز رأسه بوقار وهو يصغي الى دون ألونسو ، ويضاعف الانتباه حين كان دون لورنزو يضيف تفصيلاً منسياً ، بل إنه لم يهتز حين حدثت لريكاردو ريس ، الذي مازال يعاني من مخلفات الوافدة ، نوبة سعال تركته لاهثاً ، والدموع في عينيه . فتح ريكاردو ريس الآن جريدة ، وعلم أن تمرداً لضباط الجيش ، الراغبين في إعلان الحرب على روسيا ، قد جرى في اليابان ، كان يعرف الخبر منذ الصباح ، ولكنه كان يتأمله حالياً بمزيد من الاهتمام ، يأخذ وقته ، إذا كانت مرساندا قد أتت ، فسوف تنزل ، سوف ينبغي عليك حقاً ، أردت ذلك أم لم ترده ، يا دكتور سامبايو ، ألا تكلمني ، أريد أن أرى ما إذا كانت لك نظرة بيمنتا الجامدة ، ذلك أنني متأكد من أن سلفادور قد حدثك فعلاً عن استدعائي الى البوليس .

دقت الساعة الثامنة ، الجرس الذي لا حاجة إليه تردد ، نهض بعض الزبائن ، خرجوا ، ضعفت المحادثة ، كان الإسبانيان يفردان سيقانهما المتصالبة بفراغ صبر ، ولكن الدكتور سامبايو كان يستوقفهما ، يعدهما بأنهما سيستطيعان أن يعيشا في البرتغال في سلام بقدر ما يرغبان . البرتغال واحة ، السياسة ليست هنا من شأن أي كان ، ولذلك نحن متفقون الى هذا الحد ، طمأنينة شوارعنا تعكس طمأنينة نفوسنا . ولكن ، بما أنه

قد سبق للإسبانيين أن سمعا مرات عديدة ومن أفواه عديدة أخرى هذه الترحيبات ، هذه التعبيرات عن المودة ، وبما أن المعدة ليست عضواً يكتفي بذلك ، فإنهما لم يضيفا سوى كلمتين ، قبل أن يبتعدا في اتجاه الغرفة التي كانت أسرتاهما تنتظرانهما فيها .

الى اللقاء القريب . وقع نظر الدكتور سامبايو إذّاك على ريكاردو ريس ، هتف قائلاً ، أكنت هنا ، لم أكن قد رأيتك ، كيف حالك ، ولكن ريكاردو ريس فهم فوراً أن بيمنتا أيضاً هو الذي كان ينظر إليه ، أو سلفادور ، لا يوجد أي فرق بين المدير والدكتور والمستخدم ، كل منهم كان يرتاب فيه ، رأيتك ولكني لم أرد مقاطعتك ، هل كانت سفرتك مريحة ، كيف حال ابنتك . كما هي ، لا أفضل ولا أسوأ ، إنه صليبنا ، أنا وهي . ذات يوم ستريان كلاكما صبركما يتلقى مكافأته ، العلاج طويل جداً . بعد هذه الكلمات القليلة ، سكتا ، الدكتور سامبايو مرتبكاً ، وريكاردو ريس ساخراً ، ولكنه وضع بحرص غصناً في النار التي كانت تموت ، قرأت الكتاب الذي أوصيتني به . أي كتاب . «المؤامرة» ، ألا تتذكر . آه نعم ، بالتأكيد ، ربما لم تحبه ، لم تعجب به . على العكس تماماً ، لقد أعجبتني كثيراً العقيدة القومية الممتازة ، مذاق اللغة ، قوة المقابلات ، رهافة المشرط ، وخاصة كرم هذه الروح الأنثوية ، يخرج المرء من هذه القراءة وكأنه قد خرج من حمام مطهر ، بل أعتقد أن هذا الكتاب سيكون للبرتغاليين بمثابة معمودية ثانية ، أردناً جديداً ، وختم ريكاردو ريس امتداحه للكتاب متخذاً تعبيراً متحولاً بتحفظ أنجز وقوع الحيرة لدى الدكتور سامبايو ، الذي أربكه التعارض بين هذه المدائح والاستدعاء الذي حدثه عنه سلفادور من قبل ، هتف قائلاً ، آه ، لقد قلت لك هذا حقاً ، قال ذلك متأهباً للاستسلام لحركة التعاطف الأولى هذه ،

ولكن الريبة تغلبت ، واختار أن يحتفظ بتباعده ، أن يقطع الجسور ما لم تتوضح القضية ، أنا ذاهب لأرى ما إذا كانت ابنتي جاهزة ، وخرج فوراً . ابتسم ريكاردو ريس ، وعاد الى الجريدة مصمماً على أن يكون الأخير الذي يدخل قاعة الطعام . بعد ذلك بقليل ، سمع صوت مرساندا ، فلنتناول عشاءنا مع الدكتور ريس ، وصوت أبيها الذي أجابها ، هذا أمر لم يكن محسوباً ، وإذا كانت المحادثة لم تتوقف عند هذه الكلمات ، فإن ما بقي منها جرى في الجانب الآخر من الأبواب المزججة ، ويجب الى حد ما أن تشبه ما يلي ، إنه ليس هنا ، كما ترين ، وفوق ذلك ، أعلموني ببعض الأشياء حوله ، أفضل أن لا يرانا أحد في صحبته علناً . ما هي هذه الأشياء يا أبي . لقد استدعي الى بوليس حماية الدولة ، هل تتبينين ذلك ، من أجل أن أحدثك بصراحة ، هذا الأمر لم يفاجئني ، فكرت دائماً أنه كان يخفي شيئاً . عن البوليس . نعم عن البوليس ، وليس عن أي بوليس كان . ولكنه طبيب ، لقد وصل من البرازيل . من يعلم ، ربما كان هذا ما يدعيه ، ولكنه ربما كان هارباً . لا تبالغ يا أبي . أنت طفلة ، لا تعرفين شيئاً عن الحياة ، هيا ، فلنذهب للجلوس على هذه الطاولة ، إنهما زوجان إسبانيان ، يبدوان لي جيدين كثيراً . أفضل أن أبقى وحيدة معك يا أبي . الطاولات كلها مشغولة ، إما أن نجلس مع الذين يتعشون ، وإما أن ننتظر ، ولكنني أفضل أن نجلس حالاً ، أود أن أحصل على أخبار عن إسبانيا . حسن جداً ، يا أبي ، كان ريكاردو ريس قد عاد الى غرفته . فقد غيّر رأيه وطلب أن يحمل عشاءه إليه في غرفته . قال ، مازلت أشعر بنفسي ضعيفاً قليلاً ، وهز سلفادور رأسه ، دون أن يلح . في تلك الليلة ، كتب ريكاردو ريس ، أثناء سهره ، بضع كلمات ، كحجارة وضعها القدر على حافة الطرقات ، وهذا كل شيء ، هذان البيتان فقط ، سيرى ، فيما

بعد ، إذا كان يستطيع أن يصنع منهما قصيدة ، إذا استمر في أن يسمي كذلك هذه المنظومات الشعرية التي لا يستطيع أحد أن يغنيها ، أو التي لا يمكن غناؤها إلا على موسيقى شبيهة بموسيقى قدماء الإغريق . بعد نصف ساعة ، أضاف ، نحن ننجز ما نحن عليه ، لم يعط لنا أكثر من ذلك ، ودفع بالورقة متمتماً ، كم مرة سبق لي أن كتبت ، بصور مختلفة ، الشيء نفسه . كان جالساً على الأريكة ، تجاه الباب ، كان الصمت يثقل على كتفيه كشيطان خبيث . سمع إذّاك حفيفاً حريرياً في الممشى ، إنها ليديا التي أتت ، ولكن الوقت مازال مبكراً ، ولكنها ليست هي ، ورقة بيضاء ، مطوية ، تظهر تحت الباب ، تتقدم ببطء شديد ، ثم دفعت بنقفة الى مسافة أبعد . لم يفتح ريكاردو ريس الباب ، فهم أنه لا ينبغي له أن يفعل ذلك . إنه يعرف من كان هناك ، من كتب هذه الكلمة ، إنه يعرف ذلك الى حد لم يتعجل معه ، في النهوض ، بل ثبت نظره على الورقة التي كانت تنفتح ، فكّر ، لقد طويت بصورة سيئة ، كتبت على عجل ، بخط عصبي ، مقرن ، هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها مثل هذا النمط ، كيف فعلت لتكتب ، هل وضعت ثقلاً لتثبيت القسم الأعلى من الورقة ، أم أنها تستعمل يدها اليسرى كثقالة ورق ، الأولى جامدة جمود الثانية ، ولكن ربما كانت تستعمل أحد هذه الدبابيس الفولاذية التي تستعمل في المكاتب لجمع الوثائق ، كانت تقول ، أسفت لعدم رؤيتي إياك ، ولكن هذا أفضل دون شك ، لم يعد أبي يتحمل سوى الإسبان ، ولسبب بسيط جداً ، فمنذ وصولنا ، حدثوه عن استدعائك الى البوليس ، وهو يفضل تجنب صحبتك ، ولكني أنا أود أن أتحدث إليك ، لن أنسى قط مساعدتك لي . غداً ، بين الثالثة والثالثة والنصف سأمر بألتوسانتا كاتارينا ، إذا أردت ، سوف نستطيع أن نتحدث قليلاً . آنسة من كوامبرا تعطي موعداً ، بواسطة رقعة

سرية ، لطبيب كهل وصل من البرازيل ، ربما كان هارباً ، وهو مشبوه على الأقل ، يجب أن نتوقع أن تسيل هنا قريباً شلالات دموع .

في الغد ، تناول ريكاردو ريس طعام الغداء في الباكسيا ، عاد الى الإيرماوس ينيدوس ، دون سبب خاص ، اسم المطعم* هو الذي يجتذبه دون شك ، عندما لا يكون للمرء أخ ، وعندما يجد نفسه دون أصدقاء ، يميل الى ضروب حنين من هذا النوع ، أكثر ميلاً أيضاً إذا كان الجسم قد ضعف قليلاً ، وافدة البرد لا تجعل الساقين يرتعشان ، بل والروح أيضاً ، كما سبق أن تبين لنا . السماء مغطاة ، هناك قليل من البرد . صعد ريكاردو ريس ببطء شارع دوكارمو متفرجاً على الواجهات ، مازال الوقت مبكراً جداً على موعده ، حاول أن يتذكر ما إذا كان قد عاش قط موقفاً مماثلاً ، أخذت فيه المرأة مبادرة أن تقول له ، كن في هذا الموضع ، في تلك الساعة ، لم يعرف أبداً شيئاً مشابهاً ، الحياة مليئة بالمفاجآت . إلا أن ما يدهشه ، أكثر من مفاجآت الحياة ، هو أنه لا يحس بنفسه عصبياً ، وكان من شأن هذا أن يكون طبيعياً حقاً ، كل هذه الاحتياطات ، السرية والخفاء ، تغلفه كضباب وتمنعه حتى من أن يركز انتباهه ، لم يكن ، في قرارة نفسه ، متأكداً حقاً من أن مرساندا ستأتي ، دخل الى البرازيليرا** ليستريح قليلاً ، ويشرب فنجان قهوة ، ويستمع الى الناس ، الذين هم رجال أدب بالتأكيد ، يغتابون شخصاً أو حيواناً ، إنه حيوان ، تختلط بهذه محادثة أخرى يدعمها صوت متسلط ، لا ينضب ، تلقيت مباشرة من باريس ، في حين كان أحدهم يعلق ، يقولون العكس ، ولم يعد ريكاردو ريس يعلم لمن كانت توجه هذه الجملة ، ولا ما تعنيه ، أليس هذا حيواناً ، أيأتي أم لا من باريس . خرج .

---

* إيرماوس يونيدوس تعني : الإخوة المتحدون .

** مقهى شهير في ليشبونة واقع في مركز المدينة ، في ميدان روسيو .

الساعة هي الثالثة إلا الربع ، لديه الوقت للوصول الى الموعد على قدميه ، اجتاز الميدان حيث نصب تمثال الشاعر ، كل الطرق البرتغالية تقود الى كامويس ، مختلف كل مرة ، بموجب العين التي تراه ، ذراعه ، في حياته ، كانت مصنوعة للسلاح ، وروحه لربات الشعر ، وها هو الآن ، سيفه في غمده ، كتابه مغلق ، وعيناه عمياوان متروكتان لنقرات الحمام ونظرات المارة اللامبالية . لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة حين وصل إلى الألتودو سانتا كاتارينا . كانت أشجار النخيل تبدو ، تحت تأثير الريح التي تأتي من عرض البحر ، مرتعشة ، غصون النخيل الصلبة ما تكاد أن تتحرك . لم يتوصل ريكاردو ريس إلى أن يتذكر ما إذا كانت هذه الأشجار موجودة ، فعلاً ، منذ ست عشرة سنة ، عندما رحل إلى البرازيل . ما لم يكن موجوداً ، بالمقابل ، هي هذه الكتلة الحجرية الكبيرة غير المصقولة جيداً ، نصب يشبه نتوءاً صخرياً ، اداماستور* الغاضب ، وإذا كان قد وضع هنا ، فذلك لأن رأس الرجاء الصالح ليس بعيداً . في الأسفل ، على النهر ، كانت تسير حراقات ، قاطرة تجر وراءها مركبين ، السفن الحربية راسية على عواماتها ، مقدماتها الموجهة نحو مدخل المرفأ ، تدل على أن المد يعلو . داس ريكاردو ريس على القرميد الرخو ، وعلى حصى الممرات الضيقة الرطب ، ما من متأمل آخر على هذا المير ـ تاج** ، باستثناء عجوزين صامتين ، جالسين على المقعد نفسه ، يعرفان بعضهما دون شك منذ سنوات طويلة إلى حد لم يعد لديهما معه ، ما يقولانه وينتظران ببساطة ليريا من منهما سيموت أولاً .

* اداماستور : هذا العملاق اشترك في الحرب ضد الآلهة ، وبدّل إلى رأس الأعاصير الذي سمي ، فيما بعد رأس الرجاء الصالح .

** لعبة كلمات على ميرا دورو (شرفة) ، والكلمة الثانية (دورو) هي اسم نهر بورتو الذي استبدل به هنا التاج ، نهر ليشبونة .

رفع ريكاردو ريس ياقة معطفه مرتعشاً ، اقترب من السياج الذي يحيط بمنحدر أقرب تلة ، عجباً أن تكون قد انطلقت من هذا النهر أية سفينة ، أي جيش ، أي أسطول ، بحثاً عن الممر ، أي ممر وإلى أين ، إني لأتساءل . أوه ، ريس ، أنت هنا ، أتنتظر أحدهم ، كان ذلك صوت فرناندو بيسوا ، اللاذع ، الساخر ، التفت ريكاردو ريس نحو الرجل المتسربل بالسواد والذي يقف قريباً منه ، ويداه البيضاوان متشبثتان بالسياج ، ليس هذا بالتأكيد ما حلمت به على البحر ، وأنا قادم إلى هنا ، انتظر شخصاً ، نعم . آه ، ولكنك لا تبدو بصحة جيدة . أصبت ببداية وافدة ، ولكن هذا انتهى فعلاً . هذا المكان لا يناسب أبداً شخصاً في طور النقاهة ، إنه معرض لأكثر مما ينبغي لرياح عرض البحر . ليس هذا سوى نسيم يصعد من النهر ، وهذا لا يضايقني . والشخص الذي تنتظره هو امرأة . نعم ، عوفيت ، أرى أنك قد مللت نماذجك الأنثوية المجردة من الجسد ، قايضت ليدياك الأثيرية بليديا حية حقاً ، لقد رأيتها ، هناك ، في الفندق ، وها أنت تنتظر سيدة أخرى ، دون جوان حقيقي امرأتان في هذا الوقت القصير ، أقدم لك تهانئي ، إنها بداية حسنة . شكراً ، أتبين ان الموتى أسوأ بكثير من العجائز ، ما من وسيلة لإسكاتهم ، عندما يترك لهم الكلام . معك حق . هذا دون شك ليأسهم من كونهم لم يقولوا ما كانوا يريدون قوله في حينه . ها أنا قد علمت . كونك قد علمت لا يعطي شيئاً ، على الرغم من كل ما سوف تستطيع قوله ، وعلى الرغم مما نقوله جميعنا ، سوف تنقص دائماً كلمة . لا أسألك أية كلمة هي . حسناً تفعل ، طالما نحن لا نطرح اسئلة ، نحافظ على وهم كوننا نستطيع أن نعرف الإجابات يوماً . لا أحب ، يا فرناندو ، أن يراك الشخص الذي انتظره . اطمئن ، أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تراك من بعيد ، تكلم نفسك ، ولكن هذا ليس النوع من

الأشياء الذي ينتبه إليه المرء عندما يكون عاشقاً . لست عاشقاً . حسناً ، آسف من أجلك ، دعني أقول لك شيئاً ، دون جوان ، من جهته ، كان صادقاً ، طائشاً ، ولكنه صادق ، أما أنت ، فمثل الصحراء دون أي ظل ، أنت الذي دون ظل . عفواً ، لي ظل إذا أردت ، ما لا أستطيعه ، هو أن انظر إلى نفسي في المرآة . الآن ، وقد ذكرتني ، قل لي هل تنكرت بزي ميت في الكرنفال . أوه ، يا ريس ، ألم تفهم إذن أن الأمر كان يدور حول مزحة ، اتتخيلني متنكراً في زي ميت من القرون الوسطى ، الميت شخص رصين ، متوازن ، يعي حالته ، إنه يكره عري الهيكل العظمي ، عندما يخرج ، يفعل مثلي ، يرتدي البذلة التي ألبسوه إياها من أجل الأبدية ، وإذا اعترته رغبة في إخافة أحدهم ، فإنه يتغطى بكفنه ، ولكنك سوف تنصفني ، الرجل المحترم وصاحب الذوق السليم الذي أتمسك في أن أبقاه لا يستطيع أن يدع نفسه لهذه المهزلة . كنت أتوقع أن تجيبني هكذا ، أو بشيء قريب من ذلك ، والآن اطلب منك أن تدعني ، الشخص الذي انتظره قد وصل . هذه الفتاة . نعم . لا بأس بها ، نحيلة قليلاً بالنسبة لي . لا تجعلني أضحك ، هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أسمعك فيها تتحدث عن النساء ، أيها الشبق الخفي ، أيها الداعر المنافق . وداعاً ، يا عزيزي ريس ، إلى اللقاء ذات يوم ، أدعك تغازل الصغيرة ، أنت تخيب أملي في نهاية المطاف ، يا هاوي الخادمات ، يا مغوي البنات ، كان تقديري لك أكبر حين كنت ترقب الحياة عن بعد . الحياة قريبة دائماً ، يا فرناندو . إذن ، إذا كانت هذه هي الحياة ، فإني أدعها لك . كانت مرساندا تهبط بين الأحواض الخالية من الزهور ، مضى ريكاردو ريس إلى لقائها ، سألته ، أكنت تتحدث إلى نفسك ، بمعنى ما ، نعم ، كنت أتلو بعض أبيات الشعر ، كتبها أحد أصدقائي الذي مات منذ بضعة أشهر ، ربما كنت

تعرفينه . ما اسمه ، فرناندو بيسوا ، الاسم يعني لي بصورة مبهمة شيئاً ، ولكني لا أذكر أني قرأت له . بين من يعيش والحياة ، بين ما أنا عليه ومن أنا ، أرقد في منتصف المنحدر ، ولكني لا أهبط منه ، أأنت تتلو هذه الأبيات . نعم . إذا فهمت جيداً ، فقد كان يمكن أن اكتبها ، تبدو بسيطة جداً . أنت على صواب ، يمكن لأي كان أن يكتبها . ولكن الأمر اقتضى أن يأتي هذا الشخص ليفعل ذلك . ككل شيء ، جيداً وسيئ ، ينبغي دائماً شخص ليفعله . خذي حالة «اللوزياديات» ، لو لم يكن لدينا كامويس ، هل تستطيعين ما كان يمكن أن تكون عليه برتغالنا دون كامويس ودون اللوزياديات . يخيل للمرء أنها لعبة ، حزورة . لا شيء أكثر جدية إذا فكرنا فيه جيداً ، ولكن لنتحدث بالأحرى عنك ، قولي لي ، كيف حالك الآن ، كيف حال يدك . كالعادة ، إنها هناك ، في جيبي ، كطائر ميت . لا تفقدي الأمل . افترض أني فقدته من قبل ، في أحد هذه الأيام ، أنا قادرة على الذهاب إلى فاطمة ، لأرى ما إذا كان الإيمان مايزال يستطيع إنقاذي . أنت مؤمنة . أنا كاثوليكية . ممارسة . نعم ، أنا أذهب إلى القداس ، أعترف ، أتناول ، أفعل كل ما يفعله الكاثوليكيون ، لا يبدو عليك أنك مقتنعة جداً . هذه طريقتي في الوجود ، لا أدخل أبداً كثيراً من العاطفة فيما أقوله . لم يجب ريكاردو ريس . منذ أن يجري التلفظ بالعبارات ، تكون مثل أبواب تركت مفتوحة ، ندخل معظم الوقت ، ولكننا نبقى أحياناً خارجاً ، في انتظار أن يفتح باب آخر ، أن تقال جملة أخرى ، كهذه مثلاً ، اطلب منك أن تغفر لأبي ، نتائج الانتخابات في اسبانيا جعلته عصبياً ، في الأمس لم يتحدث إلا مع أناس قادمين من هناك ، وفوق هذا مضى سلفادور حالاً ليروي له أنك قد استدعيت إلى البوليس ، لا نكاد نعرف بعضنا بعضاً ، أبوك لم يفعل شيئاً يستحق أن يغفر له من أجله ، لا أهمية لهذه القضية ،

سأعرف منذ الإثنين ماذا يريدون مني ، سأجيب عن اسئلتهم ، وهذا كل شيء . لا تبدو قلقاً ، هذا أفضل . ليس لدي أي سبب للقلق ، لا علاقة لي بالسياسة ، عشت كل هذه السنوات الأخيرة في البرازيل ، لم يقلقني فيها شيء ، وهناك أسباب أقل من ذلك لأن أقلق هنا ، كي أحدثك بصراحة ، لم أعد ، بالفعل ، أشعر بأني برتغالي . فلتكن مشيئة الله أن يجري كل شيء على ما يرام . لا يحب الله أن يعلم أننا نفكر في أن الأمور ستجري سيئة لأنه لم يرد أن تجري جيدة . ليست هذه سوى طريقة في الكلام ، يسمع المرء شيئاً ويكرره دون أن يفكر ، يقال ، فلتكن مشيئة الله ، ليست هذه سوى كلمات ، لا أحد يستطيع أن يتخيل الله وإرادته ، ولكن سامحيني على وقاحتي ، ليس لي الحق في أن أحدثك على هذا النحو . الأمر هو معه نفسه بالنسبة للحياة ، المرء يولد ، يرى الآخرين يعيشون ، يأخذ في العيش بدوره ، في تقليدهم ، دون أن يعرف لماذا ولأي هدف . ما تقوله حزين جداً ، أسألك العفو ، لا أملك اليوم أي نفع لك ، بل إني نسيت واجبي كطبيب ، يجب أن اشكرك لمجيئك إلى هنا لتعتذري عن موقف أبيك . جئت خاصة لأني كنت أريد أن أراك وأكلمك ، غداً نعود إلى كوامبرا ، خفت أن لا أجد فرصة أخرى . الريح بدأت تهب قوية ، أحم نفسك . لا تقلقي من أجلي ، أسأت اختيار مكان لقائنا ، كان يجب أن أتذكر أنك كنت مريضاً ، أنك لازمت السرير . إنها وافدة دون تعقيد ، بل ولا هذه ، مجرد برد . لن أعود إلى ليشبونة إلا بعد شهر ، كالعادة ، لن أعلم ما سيحدث يوم الاثنين . سبق وقلت لك أن لا أهمية لذلك . ومع هذا ، أود أن أعرف ، لا أرى كيف يكون هذا . اكتب لي ، سأترك لك عنواني ، كلا ، اكتب لي على عنوان البريد المركزي ، يمكن لوالدي أن يكون في البيت في ساعة توزيع البريد . اتعتقدين أن هذا يستحق العناء ، رسالة غامضة مرسلة من ليشبونة

لها طابع السرية . لا تسخر مني ، سيكون أمراً شاقاً علي إذا كان يجب أن انتظر شهراً لأعرف ما الذي قد حدث ، كلمة تكفي .

اتفقنا ، إلا أنه إذا لم تتلقي أخباراً ، فسوف يعني هذا أنه قد ألقي بي في زنزانة مظلمة ، أو حُبست في أعلى برج في هذه المملكة ستحملك طيبتك إلى المجيء لتحريري منه . الأسوأ ليس مؤكداً دائماً ، والآن يجب أن أذهب ، لدي موعد مع أبي ، سوف نذهب الى الطبيب . ساعدت يد مرساندا اليمنى يسراها للخروج من الجيب ، مدت اليدين ، لماذا فعلت هذا ، اليد اليمنى كانت تكفي للاستئذان ، وها هما مجتمعتان معاً في تجويف يدي ريكاردو ريس ، كان العجوزان ينظران ولا يفهمان ، هذا المساء سأنزل للعشاء ، ولكني سأقتصر على تحية والدك من بعيد ، لن أقترب ، سيكون على هذا النحو أكثر راحة مع أصدقائه الإسبان الجدد . كنت سأطلب منك ذلك . أن لا أقترب . ان تأتي للعشاء في قاعة الطعام ، هكذا سوف أستطيع رؤيتك . مرساندا ، لماذا تريدين رؤيتي ، لأي سبب . لا أدري . . ابتعدت ، تسلقت المنحدر ، توقفت في الأعلى لتضع يدها في جيبها . بمزيد من الطمأنينة ، وتابعت طريقها دون أن تلتفت . نظر ريكاردور ريس إلى النهر ، دخل في هذه اللحظة مركب كبير ، ليس الهايلاند بريغاد ، فقد توفر له الوقت للتعرف على هذا الأخير . كان العجوزان يتناقشان . قال أحدهما ، يمكن أن يكون أباً لها . الشيء الوحيد الذي لم أفهمه ، هو ماذا كان يفعل الشخص الذي يرتدي الأسود خلال كل هذا الوقت . لا أرى أحداً . أنت في حاجة إلى نظارتين . وأنت سكران . إنها دائماً القصة نفسها مع العجوزين ، يبدآن في المناقشة ، يتخاصمان ، وفي النهاية يجلس كل منهما على مقعده ، قبل أن يتصالحا بعد لحظة . ترك ريكاردو ريس السياج ، ودار حول الأحواض ، عاد من الطريق التي

جاء منها . رأى ، وهو يلقي نظرة الى يساره ، بيتاً ، مع لافتة في الطابق الثاني ، هبت ريح هزّت أشجار النخيل . نهض العجوزان ، لم يعد هناك ، ظاهراً ، أحد على التودوسانتا كاتارينا .

القول بأن الطبيعة لا تبالي بآلام البشر وضروب قلقهم ، معناه عدم فهم شيء عن البشر ولا عن الطبيعة . أن حزناً ، مهما كان عابراً ، وصداعاً ، حتى ولو كان مقبولاً ، يقلبان فوراً مجرى النجوم ، يوقعان الاضطراب في انتظام المد ، يؤخران ظهور القمر ويزرعان ، خاصة ، الفوضى في التيارات المناخية ، وحركة الغيوم ، وإذا نقص توستاو واحد من الاسكودوسات التي جمعت لتسديد سند ، فإن الرياح سرعان ماتهب ، وتنفتح مصاريع السماء ، وترثي الطبيعة بكاملها للمدين التعس . الريبيون ، الذين يمارسون ، لنقص الأدلة ، مهنة الشك في كل شيء ، سيقولون أن القضية غير قابلة للبرهان عليها ، وأن عصفور سنونو ضائعاً لا يصنع الربيع ، بل أنه قد أخطأ في الفصل ، ولن يروا أنه لا يمكن أن نفسر بغير ذلك الطقس الرديء الذي يدوم منذ شهور أو سنوات ، لم نكن هنا لنرى ذلك ، الأعاصير ، الطوفانات ، الفيضانات ، لقد تحدثنا عن أناس هذا البلد إلى حد يكفي للتعرف في أشجانهم على تفسير عدم انتظام النيازك ، فلنذكّر النسّائين فقط بكُلَب الألتيجانوس* ، وجدري لوباساو وفاتيلا ، وتيفوس

* الألتيجانو هو الشخص الذي يقيم في منطقة التيجو .

فالبوم ، وكي لايقتصر حديثنا على الأمراض ، بالمائتي شخص الذين يعيشون دون نور في ثلاثة طوابق من بناية في ميرغايا ، في بورتو ، الذين ينامون على سعادتهم الصغيرة ويستيقظون صارخين ، النساء واقفات في الصف ليفرغن السطول ، ولكم أنتم أن تتخيلوا ما بقي ، فيجب حقاً أن يفيد الخيال في شيء ما . وإذا كان الأمر حقاً كما أتينا على البرهان عليه ، فإن هذا الفيض من الأشجار المقتلعة ، والسقوف المنتزعة ، وأعمدة البرق الساقطة هي العلامة على كون ريكاردو ريس ذاهباً الى البوليس مهصور القلب ، ممسكاً بقبعته كما لو أن الإعصار سينتزعها منه ، وإذا أمطرت السماء والريح تهب ، فليحمنا الله . الريح لتي تهب من الجنوب تصعد وهي تصفر شارع اليكريم ، مهما قيل ، فإنها دائماً أكثر كفاية من القديسين الذين لا يعرفون كيف يساعدوننا الا على النزول . نعرف المسار من قبل ، الإنعطاف أمام كنيسة إنكارناساو ، ستون خطوة حتى الطرف الآخر من الشارع ، الخطأ مستحيل ، الريح تهب الآن مواجهة ، هل هي التي تعيق المشي أم أن القدمين هما اللتان ترفضان أن تمضيا أبعد من ذلك ، ولكن الساعة هي الساعة ، هذا الرجل هو الدقة في المواعيد بالذات ، لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة بعد عندما كان يجتاز ، فعلاً ، الباب العتيد ويبرز الاستدعاء الذي تلقاه ، تفضلوا بالمثول وها هو قد مثل ، قبعته في يده ، وقد ارتاح لحظة لتوقف احساسه بالريح ، أرسل الى الطابق الأول ومضى إليه ، حاملاً الاستدعاء أمامه كشمعدان مطفأ لن يعرف دونه أين يضع قدميه ولا كيف يتوجه ، هذه الورقة تعويذة لا تفك طلاسمها ، تقدم كالأمي الذي يرسل به الى الجلاد يحمل الأمر القائل اقطع رأسه ، والذي يذهب وهو يغني ، وربما كان ذلك لأنه قد استيقظ طيب المزاج ، الطبيعة بدورها لا تعرف القراءة ، عندما سيفصل الفأس الرأس عن الجذع ، فسوف تثور

النجوم ، ولكن ذلك سيكون بعد فوات الأوان . جلس ريكاردو ريس على مقعد ، قيل له أن ينتظر ، وها هو مضطرب ، سحب منه الاستدعاء ، أشخاص آخرون ينتظرون هم أيضاً ، لو كان الأمر يدور حول قاعة الانتظار لدى طبيب فإن الجميع سيتناقشون ، مسألتي هي الرئتان ، أنا الكبد أو الكليتان ، ولكن ما يعانيه هؤلاء الناس مجهول ، لأنهم صامتون ، لو تكلموا لقالوا ، أشعر فجأة أني في حالة أفضل ، استطيع الذهاب ، سيكون هذا سؤالاً بالتأكيد ، ليس هناك مثل عتبة طبيب الأسنان لشفاء ألمها . مضت نصف ساعة ولم يأتوا بعد ليأخذوا ريكاردو ريس ، كانت الأبواب تفتح وتغلق ، والهواتف ترن ، توقف رجلان قريبين جداً منه ، احدهما قال وهو يضحك عالياً ، لا يعرف ماذا ينتظره ، ثم اختفى كلاهما وراء حاجز ، فكّر ريكاردو ريس ، ربما كانا يتحدثان عني ، وأحس بمعدته تنقبض ، سنعرف على الأقل مم يشكو ، وضع يده في جيب صدارته ليرى الوقت في ساعته ، منذ متى وهو ينتظر ولكنه أوقف حركته ، لم يكن يريد أن يروا صبره يفرغ . استدعي أخيراً ، ولكن ذلك ليس بصوت مرتفع ، فتح رجل الحاجز ، ابطأ في المشي مدفوعاً بغريزة عزة النفس ، اذا كانت عزة النفس غريزة ، كانت تلك علامة الاحتجاج المتنكر التي كانت في متناول يده ، تبع الرجل الذي كانت تفوح منه رائحة البصل على طول رواق لا نهاية له بأبواب مغلقة على الجانبين ، عندما وصل إلى نهاية الممشى ، قرع الدليل قرعاً خفيفاً على أحدها ، فتحه وأمر ، ادخل ، ودخل بعده . الرجل الذي كان جالساً وراء مكتب قال له ، ابق هنا ، قد تحتاج إليك ودل ريكاردو ريس على كرسي ، أجلس ، وجلس ريكاردو ريس ، عصبياً ، وقد ثارت أعصابه الآن ، وأصبح سيىء المزاج ، ولكنه دون سلاح . فكر ، كل ذلك يرمي الى ارهابي ، أخذ الشخص الجالس وراء المكتب الاستدعاء ، قرأه ببطء ، كما لو كان لم ير في حياته مثل هذه

الورقة ، ثم وضعها برفق على ورقة النشاف الأخضر ملقياً عليها نظرة أخيرة كما يفعل من يخشى اقتراف خطأ فيتحقق مرة أخيرة ، الآن نعم ، إنه جاهز . أوراقك ، من فضلك . قال من فضلك ، وهاتان الكلمتان هدأت عصبية ريكاردو ريس ، فماذا لو كانت التربية الحسنة تستطيع ، حتى هنا ، السماح بالحصول على مايراد . اخرج بطاقة الهوية من محفظته ، نهض عن كرسيه ليمدها ، فوقعت قبعته ، أحس بنفسه مضحكاً ، عصبياً من جديد . قرأ الرجل كل سطر في البطاقة ، قارن الصورة بالوجه الذي كان أمامه ، أخذ بعض الملاحظات ثم وضع البطاقة الصغيرة إلى جانب الاستدعاء بالعناية نفسها ؛ قال ريكاردو ريس لنفسه ، إنه مهووس ، مع رده بصوت مرتفع على سؤال ، نعم يا سيدي ، أنا طبيب ووصلت من ريودو جانيرو منذ شهرين . هل بقيت في فندق براغانسا منذ وصولك . نعم يا سيدي . على أية سفينة سافرت . على الهايلاند بريغاد من الاسطول الملكي الانكليزي ، نزلت في ليشبونة في التاسع والعشرين من كانون الأول . أسافرت وحدك أم مصحوباً بأحد . وحدي ، هل أنت متزوج . كلا يا سيدي ، لست متزوجاً ، ولكني أحب أن تفسر لي لماذا استدعيت إلى هنا ، لماذا يرغب البوليس في سماعي لأني لم أفكر أبداً في أني سأستدعى ذات يوم إليكم . كم سنة عشت في البرازيل . ذهبت إليها عام ألف وتسعمائة وتسعة عشر ، أود أن أعرف الأسباب . أجب عما تسأل عنه فقط ، الأسباب من شأني ، وهذه أفضل وسيلة لتسيير الأمور بيننا على ما يرام . نعم يا سيدي . بما أننا نتحدث عن الأسباب ، فقد ذهبت الى البرازيل لسبب خاص . هاجرت ، هذا هو كل شيء . الأطباء عامة لا يهاجرون . أنا فعلت . لماذا ، ألم يكن يوجد مرضى هنا . بلى ، ولكني كنت أريد أن أعرف البرازيل ، أن اشتغل هناك ، هذا هو السبب الوحيد . والآن عدت . نعم لقد عدت . لماذا . المغتربون

البرتغاليون يعودون أحياناً . لا يعودون من البرازيل أبداً تقريباً . أنا أعود . ألم تكن الأمور جيدة . على العكس من ذلك ، بل كانت لي عيادة جيدة . وعدت . نعم عدت . لتفعل ماذا اذا كنت لا تمارس الطب . كيف تعلم إني لا أمارس . أعرف ذلك . في الوقت الحاضر ، لا أمارس ، ولكني أفكر في فتح عيادة ، في إيجاد جذور جديدة ، بلدي هو هنا . أتريد أن تقول أنك شعرت فجأة ، بعد ست عشرة سنة من الغياب ، بالحنين الى الوطن . هو ذاك ، ولكني مازلت لا أفهم ما هو هدف هذا الاستجواب . ليس استجواباً كما تستطيع أن تتبين ، تصريحاتك لا تسجل . زادت قلة فهمي . كنت راغباً في معرفتك ، طبيب برتغالي كان يكسب معيشته جيداً في البرازيل ويعود بعد ست عشرة سنة ، ويعيش في فندق منذ شهرين ، ولا يعمل . شرحت لك من قبل أني سأعود الى الممارسة . أين . لم أبحث بعد عن عيادة ، يجب أن أبحث بعناية عن الموقع ، هذه أمور لا تقرر بخفة . قل لي شيئاً آخر ، هل عرفت كثيراً من الناس ، في ريودو جانيرو ، في المدن البرازيلية الأخرى . لم أسافر كثيراً ، كان كل أصدقائي من ريو . أي أصدقاء . اسئلتك تمس حياتي الخاصة ، لست ملزماً بإجابتك أو اقتضي ، اذ ذاك ، وجود محاميّ . ألك محام... كلا ، ولكني استطيع توكيل احدهم . المحامون لا يدخلون إلى هذا البيت ، وفضلا عن ذلك ، يا سيدي الدكتور ، أنت لست متهماً بأية جريمة ، إنهامحادثة فقط . ربما كانت محادثة ، ولكني لم اخترها وبموجب نوعية الأسئلة التي تطرح علي ، فإنها تشبه استجواباً أكثر منها محادثة . لنعد إلى حديثنا المتعلق بأصدقائك . لن أجيبك . أيها السيد الدكتور ريكاردو ريس ، لو كنت مكانك لأجبت ، هذا أفضل لك ، انه يجنب حالتك تعقيداً لا ضرورة له . برتغاليون ، برازيليون ، أناس سعوا إلي أولاً كطبيب ، وأصبحوا على علاقات معي ، علاقات من النوع الذي يعقد في الحياة

الاجتماعية ، اعطاء أسماء لا تعرفها لن يفيد شيئاً . أنت مخطىء ، أعرف كثيراً من الأسماء . لن اذكر أي اسم . حسن جداً ، لدي وسائل اخرى لمعرفتها اذا كانت هناك حاجة . كما تريد . هل كان بين أصدقائك عسكريون أو سياسيون . لم أعاشر هؤلاء الناس . أي عسكري ، أي سياسي . لا أستطيع أن أضمن أنه لم تكن لهم علاقة بي كطبيب . ولكنكم لم تصبروا أصدقاء . الذي حدث هو ذاك . ولا مع أي منهم . كلا يا سيدي ولا مع أي واحد منهم . مصادفة غريبة . الحياة مصنوعة بكاملها من مصادفات . كنت في ريودو جانيرو في البرهة التي حدث فيها التمرد الأخير . نعم . ألا تجد أن الأمر يدور حول مصادفة غريبة أخرى حين تكون قد عدت الى البرتغال بعد محاولة ثورة مباشرة . غريبة غرابة رؤية الفندق الذي نزلت فيه مليئاً بأسبان بعد الانتخابات التي جرت مؤخراً في اسبانيا . آه ، أتريد أن تقول أنك هربت من البرازيل . ليس هذا ما قلته . قارنت حالتك بحالة الإسبان الذين جاؤوا الى البرتغال . كان ذلك فقط لأريك أن علة ما تنتج دائماً معلولاً . وماذا كانت علة معلولك . قلتها لك من قبل ، الحنين الى البلد ، قررت أن أعود . تريد أن تقول أنك لم تعد عن خوف . خوف مماذا . من أن تضايقك السلطات هناك ، مثلاً . لم يضايقني أحد لأقبل التمرد ولا بعده . الأمور تقتضي أحياناً وقتاً ، لم نستدعك نحن أنفسنا إلا بعد شهرين . مازلت أتساءل لماذا . قل لي شيئاً آخر ، هل كنت تبقى أم تعود لو كان المتمردون قد انتصروا . كما سبق وقلت لك ، لا علاقة لسبب عودتي بالسياسة أو الثورات ، وفضلاً عن ذلك فليست هذه الثورة الوحيدة التي جرت في البرازيل خلال الزمن الذي عشته فيها . هذا جواب جيد ، ولكن الثورات ليست كلها الشيء نفسه ولا تطالب جميعها بالشيء نفسه . أنا طبيب ، لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف شيئاً عن الثورات ، الشيء

الوحيد الذي يهمني هو المرضى . ليس كثيراً في هذه البرهة . سأهتم بهم من جديد . أثناء الزمن كله الذي عشته في البرازيل ، هل كانت لك في بعض الأحيان مسائل مع السلطات . أنا شخص مسالم . وهنا ، هل عقدت صلات صداقة منذ عودتك . ست عشرة سنة كافية للمرء لينسى ويكون منسياً . لم تجب عن سؤالي . أجيبك ، نسيت الناس ونسوني ، ليس لي أصدقاء هنا . ألم تفكر قط في التجنس بالجنسية البرازيلية . كلا يا سيدي . هل وجدت البرتغال مختلفة عما كانت عليه عندما رحلت الى البرازيل ، لا أستطيع أن أجيبك ، لم أخرج بعد من ليشبونة . وليشبونة ، هل وجدتها متغيرة . ست عشرة سنة ، هذا يستلزم تغيرات . الطرق هادئة . نعم ، لقد لاحظت ذلك . حكومة الديكتاتورية القومية وضعت البلاد في العمل . لا ارتاب في ذلك . إنها الوطنية ، الاهتمام بالصالح المشترك ، الأمة أولاً . هذا شيء جيد للبرتغاليين . إنه شيء جيد لك ، لأنك منهم . لن أرفض النصيب الذي يعود إلي من توزيع الأرباح ، خاصة الآن ، وقد بدأ خلق الحساء الشعبي . لست فقيراً . يمكن أن أصبح كذلك . فليحمك الله من هذا . شكراً ، ولكن اذا حدث شيء كهذا ، فسأعود إلى البرازيل . لن تحدث قريباً ثورة في البرتغال ، الأخيرة جرت منذ عامين ، وانتهت نهاية سيئة جداً بالنسبة لمن تورطوا فيها . لا أفهم إلى أي شيء تلمح ، لن أعود أجيبك منذ الآن ، لا يهمني ، طرحت عليك كل الأسئلة . نعم ، هذه هويتك ، فيكتور ، رافق السيد الدكتور الى الباب ، اقترب فيكتور ، اتبعني ، كان فمه مايزال تفوح منه رائحة البصل ، تساءل ريكاردو ريس ، كيف يمكن لهذه الرائحة أن توجد في مثل هذه الساعة ، إذا وجدت ، فهي إفطاره . قال فيكتور في الرواق ، رأيت حقاً ان سيدي الدكتور كان يستفز ضابطنا المعاون ، هذا ليس حسناً ، لحسن الحظ إنه كان طيب المزاج . كيف تقول هذا ، أكنت

استفزه . رفضت الإجابة ، حولت المحادثة ، ليس هذا حسناً ، حظك جيد لأن ضابطنا المعاون يحترم جداً السادة الدكاترة . مازلت لا أعلم لماذا أمرت بالمجيء إلى هنا . لست في حاجة الى المعرفة ، أشكر السماء على كون كل شيء قد جرى على مايرام . آمل حقاً أن أكون قد انتهيت فعلاً ونهائياً . آه ، هذا ، لا يمكن ضمان أي شيء ، حسناً ، لقد وصلنا ، انتونز ، السيد الدكتور يستطيع أن يخرج ، نهارك سعيد يا سيدي الدكتور ، إذا احتجت أي شيء كان ، الأمر سهل ، اطلبني ، أنا فيكتور ، مد يده ، لامسها ريكاردو ريس بأطراف أصابعه ، وأحس انه سيكون مشبعاً برائحة البصل ، وانقلبت معدته ، هيا ، ها أنا في سبيلي إلى التقيؤ ، ولكن لا ، جاءت الريح لتضرب وجهه ، دفعته ، طردت الغثيان . ودون أن يعرف كيف عاد الباب الى الانغلاق ، وجد نفسه في الطريق . قبل أن يبلغ ريكاردو ريس زاوية كنيسة انكارناساو ، انهمرت زخة عنيفة من الماء ، غداً ، ستقول الصحف أن زخات قوية قد انهمرت ، حشو صحفي . لأن الزخة هي ، فعلاً ، مطر ضخم وشديد ، كنا نقول إذن أن زخات ماء قد انهمرت ، وأن المارة لجؤوا الى كل البوابات ، ينفضون الماء عنهم كجراء مبللة ، ما من قطة في الخارج ، ولا توجد أيضاً قطة مبللة لأن من المعروف جيداً أن القطط تكره الماء ، رجل واحد نزل على الرصيف من جهة مسرح سان لويس ، لديه موعد بالتأكيد وهو متأخر ، تقدم مهصور القلب بقدر ما كانه ريكاردو ريس منذ قليل ، هذا هو السبب الذي من أجله تمطر السماء بقوة عليه ، يمكن للطبيعة أن تبدو متضامنة بطريقة اخرى ، بتسببها مثلاً بهزة أرضية تبتلع في ركامها فيكتور والضابط المعاون ، تاركة إياهما يتعفنان إي أن تكون رائحة البصل قد زالت ولم يعد هناك سوى عظام نظيفة ، اذا كان ذلك ممكناً في أجساد من هذا النوع .

عندما عاد ريكاردو ريس إلى الفندق ، كانت قبعته تقطر ماء كميزاب سقف ومعطفه الواقي من المطر يسيل كقناة ماء ، وقد تحول الى مزراب ، إلى كاريكاتور ، لم يبق له شيء من وقار طبيب ، أما بالنسبة لوقار الشاعر ، فلم يكن سلفادور ولا بيمنتا يستطيعان تخمينه ، وفضلاً عن ذلك فإن المطر ، وهذه عدالة سماوية ، يسقط للجميع . ذهب الى الاستقبال ليأخذ مفتاحه منه ، قال المدير ، أوه لا لا ، يا للحالة التي انت عليها ، كانت اللهجة مرتابة ولكن التفكير كان يستشف من تحت الكلمات ، يا لها من حالة تعود عليها حقاً ، كيف عاملوك هناك ، أو ، بصورة أكثر دراماتيكية إذ ذاك ، لم أكن انتظر أن أراك ثانية بهذه السرعة . إذا كنا نخاطب الله بصيغة المفرد ، فما هي الحرية التي لا نأخذها عقلياً مع زبون مشبوه بأعمال تخريبية ، ماضية ومقبلة ، ريكاردو ريس أجاب ببساطة على ما سمعته أذناه ، مقتصراً على التمتمة ، يا لها من زخة مطر ، وركض على الدرج مبللاً ، في طريقه ، السجادة ، بعد قليل ، لا يكون على ليديا سوى أن تتبع الأثر ، غصن صغير مكسور ، عشب منفوش ، ها نحن والخيال يجرنا في الغابة العذراء ، في حين كان واقفاً في الممشى الذي يقود الى الغرفة مائتين وواحد ، اذن كيف جرت الأمور ، هل آذوك ، وريكاردور ريس يجيب ، كلا ، يا لها من فكرة ، كل شيء جرى بصورة جيدة ، إنهم أناس ربوا تربية حسنة جداً ، مهذبون جداً ، إنهم يجلسونك . ولكن لماذا اجبروك على الذهاب الى هناك . يبدو أنها العادة عندما يصل أشخاص من الخارج بعد هذا العدد من السنوات ، يريدون أن يعلموا ما اذا كانت حالنا جيدة ، إذا لم يكن ينقصنا شيء . أنت تسخر مني ، ليس هذا ما قاله لي أخي . أنت على صواب ، كنت أمزح ، ولكن اطمئني ، لقد جرت الأمور جيداً ، كانوا يريدون فقط أن يعرفوا لماذا عدت من البرازيل ، ما كنت أفعل هناك ، ما

هي مشاريعي هنا ، يستطيعون ، إذن ، أن يسألوا عن هذا أيضاً . لدي الانطباع بأنهم يستطيعون أن يسألوا عن كل شيء ، والآن اذهبي ، يجب أن أغير ملابسي للغداء . في قاعة الطعام ، رافقه رئيس الخدم واسمه أفونسو ، الى طاولته ، محافظاً على مسافة أكبر بقليل مما كان ضرورياً ، ولكن رامون الذي كان قد خدمه في الأيام الأخيرة بهذه الطريقة مبتعداً فوراً لخدمة زبائن آخرين أقل حملاً للوباء ، أخذ وقته ليصب مغرفة حساء ، مرق قادر على ايقاظ ميت ، سيدي الدكتور ، وكان هذا صحيحاً ، فبعد عفن البصل هذا ، كانت أية رائحة عطراً . فكر ريكارد وريس ، يجب تحديد نظرية للروائح ، ما هي رائحتنا بالنسبة لكل واحد وفي كل لحظة ، بالنسبة لسلفادور ، رائحتي مازالت رديئة ، رامون يتحملني من جديد ، أما بالنسبة الى ليديا ، الخديعة الجميلة والرائحة الرديئة ، فأنا بالنسبة إليها ، مغطى بالورود . حيى ، وهو داخل ، دون لورنزو ودون الونسو ، وكذلك دون كاميليو الذي وصل منذ ثلاثة أيام ، والذي لجأ على الرغم من مناوراتهم للتقرب منه ، إلى تحفظ متكتم ، ما يعرفه عن الوضع في اسبانيا ، سمعه يقال هنا ، أو عن طريق الصحف ، حصادات وفيرة من النخيل تلمح بصراحة الى الدعاية الشيوعية الفوضوية والنقابية التي تعمل في كل الجهات بين الطبقات العاملة ، والجنود والبحارة ، يفهم جيداً الآن لماذا استدعي ريكاردو ريس ، إلى بوليس الرقابة وحماية الدولة الشهير ، إنه يحاول دون التوصل الى ذلك ان يتذكر سمات الضابط المعاون الذي استجوبه ، يرى فقط خاتماً بحجر أسود في بنصر يده اليسرى ، وكما في ضباب ، وجهاً مستديراً وشاحباً شبيهاً بقطعة بسكويت لم تنضج الى درجة كافية ، أما بالنسبة للعينين ، فإنه لا يتوصل الى تمييزهما ، لم يكن للرجل عينان ، ربما كان قد تحدث مع أعمى . وقف سلفادور ، بتحفظ ، على عتبة الباب ليرى كيف كانت تجري

الخدمة الآن وقد أصبح الفندق دولياً ، وخلال هذا الفحص السريع ، التقت عيناه بعيني ريكاردو ريس ، ابتسم له من بعيد ، ابتسامة دبلوماسية ، ما يريده ، هو أن يعرف ما جرى في البوليس . دون لورنزو يكرر ، لدون الونسو خبراً منشوراً في جريدة «اليوم» ، وهي جريدة فرنسية من باريس ، وردت فيه إشارة الى رئيس الحكومة البرتغالية ، أوليفيرا سالازار ، الرجل القوي والبسيط الذي رد تبصره وحكمته الى البلاد الازدهار والشعور بالكبرياء القومية ، علق دون كاميليو قائلاً ، هذا ما نحتاجه نحن* ، ووجه وهو يرفع كأس خمر أحمر أشارة من رأسه لريكاردو ريس الذي شكره بدوره بهزة استحسان ، على الرغم من أنها متعالية ، بسبب الجوباروتا ، فليحتفظ بها الله في حراسته المقدسة** . انسحب سلفادور ، وقد اطمأن ، والسلام في روحه . فيما بعد ، غداً ، سيروي له الدكتور ريكاردو ريس ما جرى في شارع انطونيو ماريا كاردوزو ، واذا لم يقل أو إذا بدا أنه لا يقول كل شيء ، فالوسائل لا تنقص للوصول إلى المصدر الصحيح ، فيكتور ، الذي هو من معارفه ، يعمل هناك . عند ذلك فقط ، اذا كانت الأخبار جيدة ، واذا غسل ريكاردو ريس من كل شبهة ، فإن الأيام يمكن أن تعود ، إلا أنه ينبغي أن يقترح عليه بلباقة ولطف أكبر قدر من التكتم في هذه القصة مع ليديا ، سمعة الفندق يا سيدي الدكتور ، السمعة فقط ، هذا ما سيقوله له . سنأخذ فكرة أصح عن أريحية سلفادور إذا فكرنا في الصفقة الجيدة التي كان من شأنه أن يحصل عليها إذا شغرت الغرفة مائتان وواحد حيث كان يستطيع أن يضع أسرة كاملة من اشبيلية ، كبيراً من أكابر اسبانيا ، الدوق دالب

---

* بالإسبانية في النص .

** الجوباروتا : منطقة في البرتغال واقعة في الاستريادور حيث غلب الملك جاو الأول البرتغالي ، عام ١٣٨٥ ، منافسه خوان الأول ملك قشتالة .

مثلاً ، يرتعش المرء ، لمجرد التفكير في ذلك . انهى ريكاردو ريس غداءه وخرج موجهاً اشارة برأسه الى سلفادور الذي تركه متشوقاً بنظرة رطبة لكلب يرجو وصعد الى غرفته ، كان متعجلاً للكتابة الى مرساندا ، على عنوان البريد المركزي ، في كوامبرا .

السماء تمطر في الخارج في العالم الفسيح ، والضجة من الكثافة بحيث يستحيل أن لا تكون السماء تمطر ، في الساعة نفسها ، على الأرض بكاملها . الكرة ، الخذروف الطنان ، تطوف في الفضاء بتمتمتها المائية ، وضجة المطر الغامضة تسكن فكري ، وجودي هو المنحنى غير المرئي الذي رسمته ضجة الريح التي تعصف مجنونة ، كحصان دون خطام ولا لجام ، حوافر غير مرئية تصدم الأبواب والنوافذ ، في حين أن رجلاً محاطاً بجدران عالية وقاتمة يكتب رسالة في هذه الغرفة حيث لا تكاد تتحرك حركة خفيفة سوى الستائر ، يصوغ ويكيف روايته بحيث يبدو ما لا معنى له منطقياً ، وغير المتماسك صحيحاً ، ما هو ضعيف قوياً ، ما هو مهان عزيزاً ، ويتحول الخوف الى جرأة ، لما كنا عليه القيمة نفسها لما كنا نريد أن نكونه شريطة أن نكون قد تجرأنا على كونه قبل ساعة تصفية الحسابات الكبيرة ، عندما نعرف هذا ، نكون قد اجتزنا فعلاً نصف الطريق ويكفي أن نتذكر ذلك وأن نحتفظ بكل هذه القوى سليمة لنستطيع أن نجتاز النصف الآخر . تردد ريكاردو ريس طويلاً أمام الكلمة التي يبدأ بها الرسالة ، الرسالة فعل من أدق الأفعال ، الصيغة المكتوبة لا تقبل المصطلحات الوسيطة ، الابتعاد أو التقرب العاطفي ينزعان الى تحديد جذري ، يقوي ، في حالة كما في الأخرى ، الطابع المهذب أو المتواطئ للصلة التي نقيمها والتي تنتهي بأن تكون ، حتماً ، نوعاً من صلة موازية للصلة الواقعية ، دون تطابق . التباسات عاطفية بدأت هكذا على وجه الدقة . لم يتوقف ريكاردو ريس بالطبع عند

فرضية مناداة مرساندا سيدتي العزيزة جداً أو المحترمة جداً ، فهو لم يصل باحترام المراسم الى هذا الحد ، ولكنه لم يستطع ، بعد استبعاد هذه اللاشخصانية السهلة ، أن يجد مصطلحاً لا يكون يتصف برفع الكلفة والحميمية الى درجة خطيرة ، عزيزتي مرساندا ، مثلاً ، أو مرساندا العزيزة ، لماذا عزيزته ، لماذا العزيزة مرساندا ، وحاول ذلك ، ولكن كلمة آنسة بدت له مضحكة ، وبدت له العزيزة أكثر إضحاكاً أيضاً ، وبعد أن مزق عدة أوراق وجد نفسه مع الاسم وحده ، وهو وحده الذي يجب أن يدل علينا ، سموا بعضكم بعضاً ، من أجل هذا أطلق علينا اسم ، ومن أجل ذلك احتفظنا به . كتب إذن ، مرساندا أبعث إليك ، كما وعدت ، بأخباري ، وبعد أن كتب هذه الكلمات ، توقف للتفكير وتابع ، معطياً الخبر العتيد الذي نعرفه من قبل ، منضجاً ومكيفاً ، موحداً الأجزاء ، ساداً الفراغات ، إذا كان لم يقل الحقيقة ، الحقيقة الكاملة على الأقل ، فقد قال حقيقة ، ما يهم خاصة ، هو أن تسعد رسالة من يكتبها ومن يقرؤها ، وأن يتعرف كل منهما على نفسه فيها ، وأن يجد نفسه مرتاحاً للصورة ، حتى ولو كانت صورة مثالية ، التي يعطيها أحدهما ويتلقاها الآخر ، صورة فريدة فوق ذلك ، لأن البوليس لم يحتفظ بالتصريحات التي لم تكن إذن تحت طائلة المحاكمة ، كان الأمر يدور حول مجرد محادثة ، كما لاحظ تهذيب الضابط المعاون . صحيح أن فيكتور كان شاهداً ، ولكنه لم يعد منذ الآن يتذكر كل شيء ، وسيكون ما سيتذكره غداً أقل أيضاً ، فهناك شؤون أخرى أكثر أهمية بكثير تشغله . إذا رويت هذه القصة ذات يوم ، فلن توجد شهادة أخرى خلاف رسالة ريكاردو ريس ، إذا لم تفقد في هذه الأثناء ، ما هو أكثر احتمالاً ، هو أن هناك أوراقاً من الأفضل أن لا يحتفظ بها . كل المصادر الأخرى التي قد تكشف ستكون مشكوكاً فيها لأنها مزيفة على الرغم من كونها محتملة

التصديق ، على كل حال فهي لن تطابق منفصلة ولا معاً حقيقة الوقائع التي نجهل عنها فوق ذلك كل شيء لأنها تنقصنا ، من يعلم ما إذا لم يكن علينا أن نخترع حقيقة ، حواراً يكون فيه بعض التماسك ، شخص يدعى فيكتور ، ضابط معاون ، صبيحة مطر وريح ، طبيعة عطوف ، كل شيء حقيقي وزائف معاً . أنهى ريكاردو ريس رسالته بكلمات تقدير محترم ، وتمنيات صادقة بالصحة الجيدة ، فلنغفر له ضعف الأسلوب ، وأعلمها ، في حاشية ، بعد أن تردد ، أنه يمكن حقاً أن لا يكون بعد في الفندق لدى إقامتها القادمة في ليشبونة لأنه بدأ يمل هذا الروتين ، كان يحس بحاجة الى أن يكون له بيته الخاص ، الى أن يفتح عيادة ، حان الوقت لمعرفة أين ستنمو جذوري الجديدة ، كل جذوري الجديدة ، كان سيضع خطاً تحت الكلمات الثلاث الأخيرة ولكنه فضل أن يدعها هكذا في شفافية إبهامها ، إذا كنت قد غادرت الفندق ، فسوف أكتب لك الى هذا العنوان نفسه ، البريد المركزي ، كوامبرا . أعاد قراءة الرسالة ، طواها ودسها في مغلف ثم خبأها وسط الكتب ، سيحملها غداً الى البريد ، اليوم ، مع هذه العاصفة ، سعداء من لهم سقف فوق رؤوسهم ، حتى ولو كان سقف فندق براغانسا ، ريكاردو ريس اقترب من النافذة ، سحب الستارة ، كان ما يجري في الخارج يرى بصورة سيئة ، كان المطر ينهمر مدراراً ، كان نفسه يغطي الزجاج بالبخار ، فتح محتمياً بالمغالق النافذة ، رصيف دو سودريه كان غارقاً فعلاً ، مخزن بيع التبغ والكحول يشبه جزيرة ، العالم انفك عن الرصيف ، جنح مع التيار . رجلان يدخنان ملتجئين الى زاوية حانة في الجانب الآخر من الشارع . لا شك في أنهما قد شربا فعلاً ويلفان لفافتيهما ببطء ، بروية ، يتحدثان عما يعلمه الله من ميتافيزيائيات ، وربما عن المطر الذي لا يسمح لهما بالمضي الى شؤونهما ، سرعان ما سيختفيان في ظل الحانة ، على اعتبار أن عليهما

الإفادة من ذلك ليشربا كأساً . رجل آخر ، يرتدي الأسود ، عاري الرأس ، يأتي الى العتبة يسائل السماء ثم يختفي بدوره ، لقد اقترب بالتأكيد من الكونتوار ، مليئة جداً ، كان يتحدث عن الكأس ، وليس عن السماء بالتأكيد ، خادم المقهى لم يخطئ في فهم ذلك . أغلق ريكاردو ريس النافذة ، أطفأ الضوء ، وعاد للاستلقاء على الأريكة ، كان يصغي ، وعلى ساقيه غطاء ، الى صوت المطر الرتيب وغير المفهوم ، غير المفهوم ، من قال ذلك كان على صواب . لم يكن ، وهو مفتوح العينين ، تلفه الظلمة كدودة حرير في شرنقتها ، نائماً ، أنت وحيد ، لا أحد يعرف ذلك ، أصمت وتظاهر ، هذه الكلمات ، المكتوبة في أزمنة أخرى ، تمتم بها ورفضها لأنها لم تكن قادرة على التعبير عن الوحدة ، بل عن قولها فقط ، وكما أنه لا يمكن للصمت والازدواجية أن يكونا شيئاً آخر خلاف ما يقولانه ، فهما ليسا ما يعلنان عنه ، كون المرء وحيداً شيء مختلف عن قوله ، عن سابق الحديث عنه .

حوالي نهاية بعد الظهر ، هبط الى الطابق الأول بغرض أن يقدم لسلفادور ما كان يأمل فيه كثيراً ، عاجلاً أو آجلاً ، يجب أن يتحدثا عن ذلك حقاً ، فالأفضل إذن هو أن يقرر بنفسه متى وكيف ، كلا يا سيد سلفادور ، كل شيء جرى جيداً جداً ، كانوا لطفاء جداً ، كان السؤال قد طرح بأكبر قدر من التحفظ ، قل لي ، إذن ، يا سيدي الدكتور ، حدثني عن هذه الصبيحة ، هل أزعجوك كثيراً . كلا يا سيد سلفادور ، كل شيء جرى بصورة جيدة جداً ، كانوا مهذبين جداً ، كانوا يريدون فقط بعض المعلومات عن قنصليتنا في ريو دو جانيرو التي كان يجب أن تزودني بوثيقة ما ، أخيراً مسألة ورقيات ، بدا أن سلفادور يقبل التفسير ، ولكنه ، وهو المتشكك مثل الذي يعرف الفنادق والحياة ، احتفظ في سريرته الداخلية بشك ، غداً ،

سيذهب للاستعلام ، سيقول لصديقه فيكتور ، أنت تفهمني يا فيكتور ، يجب أن أعرف من يأوي عندي في الفندق ، وفيكتور ، الحذر ، سيجيب ، سلفادور يا صديقي ، انتبه الى هذا الرجل ، ضابطنا المعاون قال لي ذلك بعد الاستجواب مباشرة . الدكتور ريس يخفي لعبته ، هناك سرّ لدى هذا الرجل ، يجب مراقبته ، كلا ، ليست لدينا أدلة قاطعة حالياً ، إنه انطباع فقط ، راقب بريده . لم يتلق أية رسالة . هذا أيضاً شيء غريب ، سنقوم بجولة في البريد المركزي ، وهل لديه مواعيد . ليس في الفندق على كل حال . أخيراً ، إذا بدا لك أن وراء الأكمة ما وراءها ، أخبرني . غداة هذا الحديث المتحفظ ، ثقل الجو مجدداً ، بدا كل ما في الفندق من مستخدمين يوجهون أبصارهم في الاتجاه الذي كان يحدده تصويب سلفادور بقدر من الانتباه كان من الأنسب ، معه ، أن نتحدث عن مراقبة ، حتى تحية رامون بدت باردة ، فيليب يتذمر ، هناك استثناء ، طبعاً ، ولكنها ، المسكينة ، لا تستطيع إلا أن تقلق ، والى أي حد ، بيمنتا قال اليوم ضاحكاً ، الشخص القذر ، لم ينتهوا من الحديث عن هذه القضية ، سوف نرى ما سوف نراه ، قل لي ما الذي يجري ، أرجوك ، سأحفظ السرّ . لا يجري شيء ، إنها حماقات ، من تلك الحماقات التي يخترعها من ليس لهم من عمل سوى التدخل في حياة الآخرين . حماقات ، نحن متفقان ، ولكنها ستجعل حياتنا مستحيلة مع هذا ، أعني حياتك ، لا حياتنا . لا تقلقي ، كل هذه الشائعات ستتوقف منذ أن أغادر الفندق . سترحل ، لم تقل لي ذلك . عاجلاً أو آجلاً ، يجب أن يحدث هذا ، لن أبقى هنا طيلة حياتي . لن أعود أراك ، وتركت ليديا التي كان رأسها يستريح على كتف ريكاردو ريس دمعة تنحدر . أحس بها ، هيا ، حسناً ، لا تبكي ، هذه هي الحياة ، الناس يلتقون ويفترقون ، من يعلم ما إذا كنت ستتزوج غداً . بالنسبة للزواج ، تجاوزت السن ، وأين ستذهب .

سوف أبحث عن بيت ، يجب أن أجد بيتاً يناسبني . إذا أردت ، إذا أردت ماذا ، أستطيع أن أذهب لرؤيتك في أيام عطلتي ، ليس في حياتي شخص آخر . لماذا تحبينني يا ليديا ، لا أعلم ، ربما بسبب ما قلته لك ، لأنه ليس لدي شيء آخر في حياتي . لديك أمك ، أخوك ، كان لك بالتأكيد عشاق ، سيكون لك آخرون ، وأكثر من واحد ، أنت جميلة ، ذات يوم سوف تتزوجين ، ثم سيأتي الأطفال . ربما ، ولكن كل ما أعلمه اليوم هو هذا . أنت فتاة طيبة . لم تجب عن سؤالي . ماذا كان . إذا ما كنت تريد أن أذهب إليك في أيام عطلتي عندما يصبح لك بيت . أتريدين ذلك . نعم . إذن ستأتين . حتى تجد شخصاً من محيطك . لم يكن هذا ما أردت قوله . عندما سيحدث هذا ، قل لي ببساطة ، لا تعودي الى بيتي يا ليديا ولن أعود . هناك برهات لا أعرفك فيها . أنا خادمة . ولكن اسمك ليديا وتقولين أشياء بطريقة فريدة جداً . عندما يبدأ المرء في الكلام ، هكذا ، كما أنا الآن ، ورأسي يستريح على كتفك ، الكلمات تأتي بصورة مختلفة ، أنا نفسي أشعر بذلك . أود أن تجدي يوماً زوجاً صالحاً . وأنا أيضاً أود هذا ، ولكني أسمع النساء الأخريات ، أولئك اللواتي يقلن إن لديهن أزواجاً صالحين ، وهذا يحملني على التفكير . هل تظنين أنهم ليسوا أزواجاً صالحين . بالنسبة لي كلا . ما هو الزوج الصالح في نظرك . لا أعلم . إرضاؤك صعب . ليس الأمر كذلك ، ما لدي حالياً يكفيني ، أن أكون راقدة هنا ، دون أي مستقبل . سأكون دائماً صديقك . لا أحد يعلم بما يحتفظ به المستقبل من أجلنا . هل تشكين إذن في أن تبقي دائماً صديقتي . أوه أنا ، هذا شيء آخر . أوضحي أفكارك بصورة أفضل . لا أعرف التوضيح ، لو كنت أعرف هذا ، لعرفت كيف أوضح كل شيء . أنت توضحين أكثر مما تعتقدين بكثير . لست سوى أمية . تعرفين القراءة والكتابة . بصورة سيئة ، القراءة لا بأس بها ، أما عندما أكتب

فإنني أرتكب أخطاء كثيرة . ضمها ريكاردو ريس الى صدره بانفعال لا يعرّف ، مؤلم تقريباً ، من أجل ذلك فعلا برقة بالغة ما فعلاه فيما بعد ، وما لا يجهله أحد .

في الأيام التالية ، أخذ ريكاردو ريس يبحث عن بيت . كان يخرج صباحاً ويعود عند هبوط الليل ، يتغدى ويتعشى خارجاً ، كانت صفحات إعلانات دياريو دونوتيسياس* دليله ولكنه لم يكن يذهب بعيداً ، فلم يكن يحب الأحياء الطرفية ، كان من شأنه أن يكره العيش في جهة روادوس هيروا دوكيونغا مثلاً ، أو في موراسي سواريز حيث دشنت مؤخراً شقق قليلة الكلفة ، بخمس غرف أو ست ، بأجرة منخفضة حقاً ، بين مائة وخمسة وستين ومائتين وأربعين اسكودوس شهرياً ، لم تكن لتعرض عليه ، وعلى كل حال ، فإنه لم يكن يريدها ، فهي أبعد مما ينبغي عن البيكسا ولا تطل على النهر . كان يبحث عن بيوت مفروشة ونحن نفهمه جيداً ، كيف يمكن لرجل وحيد أن يعرف كل ما يحتاج إليه في بيت ، أثاث ، بياضات ، أدوات مطبخ ، يستحيل أن نتصور ليديا تدخل الى محلات وتخرج منها بصحبته ومدلية له برأيها ، المسكينة ، أما بالنسبة لمرساندا ، فحتى لو كانت هنا ووافق أبوها على ذلك ، فماذا تعرف عن هذا الوجه من الحياة ، إنها لا تعرف بصدد البيوت إلا بيتها الذي ليس في الحقيقة بيتها بالمعنى الدقيق للكلمة ، أي يخصها وتديره ، وهاتان المرأتان هما الوحيدتان اللتان يعرفهما ريكاردو ريس ، فرناندو بيسوا بالغ عندما سماه دون جوان . فليس من السهل في نهاية المطاف مغادرة الفندق . الحياة ، أية حياة ، تفرز صلاتها الخاصة التي تختلف من حياة الى أخرى وتستجر جموداً باطنياً ، غير مفهومة من جانب

* جريدة واسعة الانتشار .

الناقد الذي يراقب من الخارج ، أمينة لقوانينها الخاصة ، غير القابلة هي الأخرى للفهم من جانب المراقَب ، أخيراً ، فلنكتف بالقليل الذي نحن قادرون على فهمه من حياة الآخرين ، وهم ممتنون لنا على ذلك وربما يبادلوننا إياه . سلفادور ليس من الأولين ولا من الآخرين ، كانت غيابات الزبون الطويلة ، البعيدة الى هذا الحد عن العادات الأولى تجعله فارغ الصبر ، كان قد فكر من قبل في التحدث عن ذلك الى صديقه فيكتور ، ولكن خوفاً نافذاً منعه من ذلك في اللحظة الأخيرة ، الخوف من أن يجد نفسه متورطاً في قصص يمكن ، إذا ساءت الأمور ، أن تلوثه أو أسوأ من ذلك أيضاً . ضاعف أمام ريكاردو ريس المجاملات ، محيراً بهذه الخطة المستخدمين الذين لم يعودوا يعرفون كيف يتصرفون ، فلتغفر لنا هذه التفاصيل التافهة ، فإذا غاب السمّن ، أكل المرء الشحارير .

هذه هي حقاً مفارقات الوجود ، علم في تلك الفترة أن لويس كارلوس بريستس قد اعتقل ، لحسن الحظ أيضاً أن البوليس لم يأت ليأخذ ريكاردو ريس لسؤاله عما إذا كان قد عرفه في البرازيل أو ما إذا كان من مرضاه ، وعلم أيضاً أن ألمانيا كانت قد نقضت ميثاق لوكارنو واحتلت منطقة رينانيا ، لكثرة ما هددت انتهت الى الفعل ، علم أيضاً أن منهلاً كان قد دشن في سانتا كلارا مع سعادة السكان الذين توجب عليهم حتى ذلك الحين التزود بالماء من فتحات الحريق ، وهو ما كان مناسبة لاحتفال جميل ، طفلان بريئان ، صبي صغير وبنت صغيرة ، كانا قد ملآ إبريقي ماء ، جرى تصفيق قوي جداً ، أطلقت هتافات ، أيها الشعب النبيل الخالد* ، علم كذلك أن رومانياً شهيراً اسمه مانوالسكو كان قد وصل الى ليشبونة وأنه كان قد

* كلمات من النشيد الوطني البرتغالي .

صرح ، الفكرة الجديدة التي تروج حالياً في البرتغال جعلتني أجتاز حدودكم باحترام تلميذ وفرح مؤمن عميق ، وفي تلك الفترة أيضاً ، ألقى تشرشل خطاباً صرح فيه بأن ألمانيا هي اليوم الأمة الأوروبية الوحيدة التي لا تخشى الحرب ، وفي هذه الفترة دائماً ، أعلن أن حزب الكتائب الإسبانية الفاشي غير شرعي وسجن قائده ، خوزيه بريمو دو ريفيرا وفي الفترة نفسها كذلك نشر «مطول اليأس» لكيركغارد وعرض في التيفولي فيلم بوغامبو ، حيث يرى الجهد الممتاز الذي ينجزه البيض لاستئصال الروح الحربية المروعة لدى الشعوب البدائية ، وأخيراً ، ففي كل هذه الفترة ، لم يفعل ريكاردو شيئاً خلاف البحث يوماً بعد يوم عن شقة . بدأ ، فضلاً عن ذلك ، ييأس ، يتصفح بشرود الجرائد التي تتحدث عن كل شيء ما عدا الشيء الذي يهمه ، عن موت فينيزيلوس مثلاً ، وعن أن أورتنز دو بيتنكور قد صرح بأن العسكري ، والبرتغالي فوق ذلك ، لا يمكن أن يكون أممياً ، يقولون أيضاً إن السماء قد أمطرت بالأمس ، وإن الموجة الحمراء تمتد في إسبانيا ، بأنه يمكن بسبعة ايسكودوسات وخمسين سنتافوس شراء «رسائل الراهبة البرتغالية» ، ولكن كل هذا لا يقول له أين هو البيت الذي يحتاج إليه . على الرغم من تصرفات سلفادور الحسنة ، أصبح لا يطيق تنفس جو البراغانسا ، وفضلاً عن ذلك ، فإذا رحل عنه ، فإنه لن يخسر ليديا ، لقد وعدته ، ضامنة على هذا النحو تلبية الحاجات التي نعرفها . لم يفكر أبداً في فرناندو بيسوا ، كما لو كانت صورته قد تلاشت مع الذكرى التي يحتفظ بها عنه أو ، وهو أفضل أيضاً ، كما لو كانت صورته قد تعرضت للنور وأن سماتها قد امحت بسبب ذلك ، إكليل جنائزي بزهور من قماش متزايد الشحوب ، قال تسعة أشهر ، يبقى أن نعرف ما إذا كان سيستطيع الصمود حتى ذلك الحين . فرناندو بيسوا لم يظهر ثانية ، نزوة أم سوء مزاج ، شجن عاطفي أو إذن ، وهذه مجرد

فرضية ، يجب أن يصعب على ميت الإفلات من التزامات حالته ، ذلك أننا في نهاية المطاف لا نعرف شيئاً عن الحياة في العالم الآخر ، وكان يمكن لريكاردو ريس أن يسأله عن هذا وأهمل ذلك ، نحن الأحياء ، أنانيون وقساة القلوب . الأيام تجري ، ميالة للرمادي ، رتيبة ، يتحدثون عن عواصف جديدة في الريباتيجو ، عن فيضانات مميتة ، عن قطيع حمله التيار ، عن بيوت تنهار وتعود الى الوحل الذي كانت قد خرجت منه ، لم يبق شيء من المحاصيل ، على البحيرة الهائلة التي تغطي حواف الأنهر يرى الماء يلامس ذرى أشجار الصفصاف المتهدل وفروع الدردار الشعثاء وأشجار الحور ، وترى الأعشاب مقتلعة وسيقان الذرة معلقة على أعلى الأغصان ، عندما سيهبط مستوى الماء ، سيمكن أن يقال ، الفيضان ارتفع حتى هنا ، وسيبدو هذا مستحيلاً . ليس ريكاردو ريس ضحية لهذه الكوارث ولا شاهداً عليها ، إنه يقرأ الصحف ، يشاهد الصور ، صور المأساة ، هذا هو العنوان وهو يجد صعوبة في الإيمان بالقسوة الصابرة للسماء التي تختار بغبطة ، وهي التي تمتلك هذا القدر من الوسائل لاقتلاعنا من هذا العالم ، الحديد ، والنار وهذا الماء الغزير . كان جالساً على أريكة في الصالة ، التدفئة تعمل ، الفندق مريح ، نحن نجهل الأفكار المؤلمة التي تشغله ، بؤس القريب ، الداني جداً ، على مسافة خمسين ، ثمانين كيلومتراً ، وأنا هنا ، أتأمل حول قسوة السماء ولامبالاة الآلهة في حين أن كل هذا هو الشيء نفسه ، مع إصغائي الى سلفادور يأمر بيمنتا بالذهاب لجلب الجرائد الإسبانية من مخزن التبغ ، والآن الى خطوات ليديا الوحيدة التي تصعد الى الطابق الثاني ، تجاوزت ، وأنا شارد الذهن ، صفحات الإعلانات ، هاجسي الدائم ، بيوت للإيجار ، أتابع بسبابتي خلسة العمود من أجل الحالة التي قد يأتي سلفادور المتربص ليفاجئني ، فجأة توقفت ، بيت مفروش ، شارع سانتا كاتارينا ، للتسليم ،

صورة البناية انبثقت أمام عيني بدقة صور الفيضانات ، الطابق الثاني ، مع اللافتات بعد الظهيرة الذي قابلت فيه مرساندا ، كيف أمكن لهذا أن يُمحى من ذاكرتي ، سأذهب إليه فوراً ، ولكن هدوءاً ، مهلاً ، فلنكن طبيعيين ، أتيت على الانتهاء من قراءة دياريو دونوتيسياس ، أعيد فيها بعناية ، كما وجدتها ، لست من الذين يبعثرون الأوراق ونهضت ، قلت لسلفادور ، سأقوم بجولة ، السماء لا تمطر ، أي تفسير أقل اصطلاحية أعطيه لو طلب مني ، عن طريق هذا التفكير ، اكتشف أن علاقته بالفندق أو بسلفادور علاقة تبعية ، رأى نفسه من جديد تلميذاً لليسوعيين ، يخرق الانضباط والقاعدة فقط لأن هناك قاعدة وانضباطاً ، والأمر أسوأ اليوم ، لأنه لا يملك حتى الشجاعة من أجل أن يقول ، بست ، سلفادور ، سيكون لي منزلي ، إذا جرت الأمور كما يرام ، سأغادر الفندق ، مللت منك ، من بيمنتا ، ومن الجميع ، ما عدا ليديا التي تستحق حياة أخرى بالتأكيد . لم يقل كل هذا ، قال فقط ، الى اللقاء وكما لو كان يعتذر ، الجبن لا ينكشف في ميادين المعارك أو أمام سكين مفتوحة ومصوبة الى أحشائنا التي ترتعد فقط ، شجاعة بعضهم هلامية ، ليس هذا خطأهم ، لقد ولدوا هكذا .

وصل ريكاردو ريس الى الألتو دو سانتا ماريا في بضع دقائق . كان العجوزان يتأملان النهر ، جالسين على المقعد نفسه ، التفتا عندما سمعا وقع خطى ، أحدهما قال للآخر ، هذا هو الشخص الذي كان هنا منذ ثلاثة أسابيع ، لم يكن في حاجة الى أن يضيف المزيد ، فالآخر وافق ، صاحب الفتاة ، كثير من الرجال والنساء مروا من هنا ، توقفوا ، ولكن العجوزين يعرفان عما يتكلمان ، من الخطأ الاعتقاد بأن الإنسان يفقد الذاكرة وهو يكبر ، بأنه لا يحتفظ إلا بالذكرى القديمة التي تبرز من وقت الى آخر شبيهة بالأوراق عندما تهبط المياه ، هناك ذاكرة رهيبة للشيخوخة ، ذاكرة

الأيام الأخيرة ، صورة العالم النهائية ، آخر لحظة في الحياة ، كانت هكذا عندما غادرتها ، لا أعلم ما إذا كان هذا سيدوم ، هكذا يقول العجائز عندما يصلون الى الجانب الآخر ، هذان سيقولان الشيء نفسه دون شك ، ولكن صورة اليوم ليست الأخيرة . على باب الشقة المعروضة للإيجار لافتة ، توجهوا من أجل الزيارة الى الوكيل ، العنوان كان يشير الى البيكسا ، كان لديه وقت ، ركض ريكاردو ريس الى الكاتاريز ، وأخذ سيارة تاكسي ، وعاد مصحوباً برجل ضخم . نعم ، يا سيدي ، أنا الوكيل ، كان معه المفتاح ، صعدا ، هذه هي الشقة ، واسعة ، فسيحة ، لأسرة كبيرة العدد ، أثاث من خشب الأكاجو القاتم ، سرير عميق ، خزانة عالية ، قاعة طعام كاملة ، خزانة أدوات مطبخ ، خزانة فضيات أو صحون ، هذا يتوقف على ما يملكه المرء ، للمائدة وصلات ، والمكتب من الخشب الفاخر وذو حواف حلزونية ومحفورة ، يشبه طاولة البلياردو بالقماش الأخضر الذي يغطيه ، إحدى زواياه مخلعة من الاستعمال ، المطبخ ، حمام بدائي ولكنه مقبول ، كل قطع الأثاث عارية وفارغة ، لا وجود لأية أدوات مطبخ ، ما من غطاء ولا منشفة ، الشخص الذي كان يسكن هنا سيدة مسنة ، أرملة ، ذهبت لتعيش لدى أبنائها ، حملت معها كل حاجياتها ، البيت مؤجر بالأثاث فقط . اقترب ريكاردو ريس من النافذة ، من خلال الزجاج الذي لا ستائر عليه ، رأى أشجار نخيل الميدان ، واداماستور ، والعجوزين الجالسين على المقعد ، والنهر الطمي ، أبعد من هناك بقليل ، كانت السفن الحربية ، لن تستطيع ، ومقدماتها متجهة الى البر ، أن تعلمنا ما إذا كان المد يرتفع أم ينزل . ما هو مقدار الإيجار ، كم من أجل تسليم الأثاث ، في أقل من نصف ساعة ، بعد مساومة متحفظة ، اتفقا ، كان الوكيل قد فهم أنه يتعامل مع شخص جدي وموثوق ، غداً ، إذا أراد سيدي أن يمر بمكتبي من أجل تسوية

الأجرة ، ها أنا ، يا سيدي الدكتور أدع لك المفتاح ، أنت هنا في بيتك . شكره ريكاردو ريس وألح على أن يدفع عربوناً يتجاوز قليلاً القيمة المصطلح عليها في مثل هذا النوع من الصفقات ، وقّع له الوكيل فوراً إيصالاً مؤقتاً ، جلسا أمام المكتب ، سحب قلمه ذا الغطاء المزين بنقوش ، أوراق وأغصان ذهبية ، لم يكن يسمع ، في صمت المنزل ، سوى احتكاك الريشة بالورقة ، وتنفس الرجل ، الصافر ، الربوي ، حسناً ، لا ضرورة لأن تزعج نفسك ، سآخذ سيارة تاكسي ، أتخيل أنك ترغب في أن تبقى قليلاً لتقويم مسكنك الجديد ، أفهم ذلك ، الناس يحبون جداً منازلهم ، السيدة التي كانت تعيش هنا بكت كثيراً يوم رحلت ، المسكينة ، لم يستطع أحد أن يعزيها ، ولكن للحياة أحياناً بعض هذه الالتزامات ، المرض ، الترمل ، ما يجب أن يحدث يحدث ، ولا شيء يمكن عمله ضد هذا ، إذن اتفقنا ، أنتظرك غداً . اجتاز ريكاردو ريس ، وقد بقي الآن وحده ، والمفتاح في يده ، كل البيت مرة أخرى ، إنه لا يفكر في شيء ، ينظر بكل بساطة ، ثم مضى الى النافذة ، نصبت مقدمات السفن في اتجاه الغرب ، المد يهبط . العجوزان مايزالان هنا جالسين على المقعد نفسه .

في تلك الليلة ، أعلن ريكاردو ريس لليديا أنه استأجر منزلاً . سكبت بضع دمعات ، وقد أحزنتها فكرة أن لا يعود في كل لحظة تحت أبصارها ، هذه مبالغة ، مغالاة ، لأنها لا تراه بهذه الكثرة ، ففي الليل تطفأ الأنوار دائماً بسبب الجواسيس ، وينبغي لهما ، بقية الوقت ، في ساعات الصباح والغروب أن يختبئا أو أن يتظاهرا باحترام مبالغ فيه في حضور شهود ، أن يقوما بقليل من الإخراج لسيئي القصد الذين ينتظرون فرصة لينتقموا . هدأ من روعها ، لا تقلقي ، سنرى بعضنا في أيام عطلتك ، وبطمأنينة أكبر ، إذا شئت ، كان يعرف الجواب سلفاً ، أريد بالتأكيد وكثيراً ، سبق أن قلت ذلك ، ومتى تنتقل . منذ أن يجهز المنزل ، الأثاث موجود فيه فعلاً ، ولكن كل الباقي ينقصه ، البياضات ، أواني المطبخ ، لا أحتاج الى الكثير ، الحد الأدنى في البداية ، مناشف ، شراشف ، أغطية ، الباقي سيأتي شيئاً فشيئاً . إذا كان المنزل قد بقي مغلقاً ، فهو يحتاج الى تنظيف ، سأذهب لتنظيفه . يا لها من فكرة ، سآخذ أحداً من الحي . لا أريد ، أنا هنا ، لا ضرورة لدعوة شخص آخر . أنت فتاة طيبة . أنا كما أنا ، وهذه الجملة هي من تلك الجمل التي لا تقبل رداً ، فكل منا يعرف من هو ، ولم تنقصنا النصائح في هذا الصدد منذ

الإغريق واللاتينيين ، اعرف نفسك بنفسك ، قالت ليديا التي يبدو أنها تجهل الشك .

غداة ذلك اليوم ، ركض ريكاردو ريس الى المحلات ، اشترى طقمين للسرير ، ومناشف للنظافة ، وأغطية للحمام ، لم يكن عليه لحسن الحظ أن ينشغل بالماء والغاز والكهرباء التي لم تقطع ، كان الوكيل قد قال له ، سندع كل شيء باسم المستأجر السابق إذا لم تكن تريد عقداً جديداً ، ووافق على ذلك . اشترى أيضاً آنية مطبخ ، وعاء لتسخين الحليب ، إبريق للقهوة ، شاياً ، سكراً ، كل ما يحتاج إليه المرء للإفطار ، لأنه سيتغدى ويتعشى خارجاً . سلته هذه المهمات ، ذكّرته بإقامته في ريو دو جانيرو ، عندما كان عليه أن يجري هذا التأثيث دون مساعدة من أحد . أثناء هذه الروحات والغدوات ، كتب رسالة قصيرة الى مرساندا ليعلمها بعنوانه الجديد الذي يقع ، وهذه مصادفة غير عادية ، قرب المكان الذي التقيا فيه ، هكذا يمضي العالم ، للبشر كالحيوانات ميدان صيدهم ، حرمهم ، قنهم ، نسيج العنبكوت الخاص بهم ، وهذه المقارنة الأخيرة ممتازة ، العنكبوت مدّ خيطاً حتى بورتو ، وآخر حتى ريو دو جانيرو ، مجرد نقطتي استناد ، إشارات ، أعمدة ، مرابط رسو ، ذلك أن في وسط النسيج يتقرر مصير العنكبوت والذباب . في نهاية بعد الظهر ، أخذ ريكاردو ريس سيارة تاكسي ، طاف بالمحلات ثانية ليستلم بضاعته مضيفاً إليها ، في اللحظة الأخيرة ، حلوى جافة ، مربيات فواكه وثلاثة أنواع من البسكويت ، ماريا ، تورادا ، أراروتا . حمل كل شيء الى شارع سانتا كاتارينا ، ووصل في الوقت الذي كان العجوزان يعودان فيه الى بيتيهما ، في طرف الحي ، ولكنهما لم يتحركا أثناء تناوله رزمه وصعوده بها ، ونظرا الى الأنوار تُشعل في الطابق الثاني ، انظر ، شقة دونا لويزا قد شغلت ، ولم يبتعدا إلا بعد أن رأيا الساكن

الجديد وراء زجاج إحدى النوافذ ، ذهبا إذذاك عصبيين ، مستثارين ، هذه أمور تحدث أحياناً ، وهذا جيد ، إنه يقطع رتابة الوجود ، كان المرء يظن أنه وصل الى نهاية الطريق ولم يكن ذلك في الواقع سوى انعطاف يطل على منظور آخر ، طرائف جديدة . كان ريكاردو ريس ينظر ، من نافذة دون ستارة ، الى النهر العريض ، ومن أجل رؤية أفضل ، كان قد أطفأ نور الغرفة التي كان فيها ، كان نثار من النور الرمادي يتكاثف وهو يهبط من السماء ، المراكب الذاهبة الى كاسيلاس تنزلق ، فوانيسها مشتعلة ، على المياه الرمادية ، ملاصقة للسفن الحربية ، وسفن الشحن الراسية نصف المختفية تتقدم السقوف ، وفرقاطة أخيرة تعود الى المرفأ ، شبيهة برسوم الأطفال ، هنا بالذات ، في حالة انفصال عن العالم ببخار التنفس الذي يتركز على السطح الأملس والبارد ، نهاية بعد الظهر هذه حزينة الى حد تصعد معه رغبة في البكاء من أعماق النفس في حين ينحل ببطء الوجه المكشر لأداماستور الذي يفقد الغضب من التمثال الأخضر الصغير الذي يتحداه ، غير مرئي من المكان الذي يوجد المشاهد فيه ، وغير العاقل مثله ، كل معنى . سادت ظلمة سوداء حين خرج ريكاردو ريس . تعشى في شارع دوس كوريروس ، في مطعم يقع في الطابق الأول من بناية ، منخفض السقف ، وحيداً بين وحيدين ، من كان يمكنهم أن يكونوا ، ما هي حياتهم ، ما الذي يجذبهم إذن الى هنا ، من أجل أن يمضغوا سمكة المورة أو الميرلان المسلوقة ، أو شريحة اللحم المقلية ، يصبون لأنفسهم الخمر الأحمر ، ملابسهم أكثر تهذيباً من تصرفاتهم ، لأنهم يضربون على كؤوسهم لمناداة النادل ، ينكشون أسنانهم واحداً بعد الآخر ، جاذبين بين الإبهام والسبابة العرق الليف المقاوم ، ويتجشؤون كل منهم بدوره ، يحلون أحزمتهم ، يفكون أزرار صداراتهم يرخون حمالات سراويلهم . فكّر ريكاردو ريس ، هكذا

ستجري وجباتي من الآن فصاعداً ، في صخب الصحون والنداءات التي تتنقل بين الخدم والمطابخ ، طبق حساء ، نصف من الكالامار ، وهو اختصار لنصف زجاجة ، الأصوات متعبة ، الجو كئيب ، الدهن يتجمد على الصحن البارد ، لم ترفع الأطباق عن الطاولة المجاورة ، هناك بقع خمر على الغطاء ، فتات خبز ، لفافة لم تطفأ جيداً يصعد منها الدخان ، آه ، كم الحياة مختلفة في البراغانسا ، وهو مع ذلك ليس من الدرجة الأولى ، بدأ ريكاردو ريس فجأة يفتقد رامون الذي سوف يراه مع ذلك غداً ، اليوم هو الخميس ، ولن يرحل إلا السبت ، ومع ذلك فهو يعرف قيمة هذا النوع من الحنين ، ليس كل شيء سوى مسألة عادة ، يفقد المرء بعضها ويكتسب أخرى ، إنه في ليشبونة منذ أقل من ثلاثة أشهر ، وريو تبدو له فعلاً تنتمي الى ماضٍ قديم ، الى حياة أخرى ، حياته أو ببساطة واحدة من ضروب حياته التي لا تحصى ، وإذا سلّمنا بهذا المبدأ ، فإننا نستطيع أن نقبل فكرة كون ريكاردو ريس يتعشى في هذه الساعة في بورتو ، ويتغدى في ريو أو في أية بقعة من العالم يقوده إليها تشتته . لم تمطر السماء في النهار ، استطاع أن يقوم بمشترياته بطمأنينة ، وبطمأنينة أيضاً عاد الى الفندق ، سيقول لسلفادور لدى وصوله ، إنه سيرحل يوم السبت ، لا شيء أبسط من ذلك ، ارحل السبت ، ولكنه أحس قليلاً كمراهق تجرأ على أخذ مفتاح البيت من تلقاء ذاته ، لأن أباه رفض إعطاءه إياه ، معتمداً على سلطة الأمر الواقع الاعتيادية .

سلفادور مازال هناك ، وراء الكونتوار ، ولكنه أخبر بيمنتا ، من قبل ، أنه سيعود الى بيته ، أبكر من المعتاد ، حالما يخرج آخر زبون من قاعة الطعام ، فزوجته أصيبت ببرد . أجاب بيمنتا دون كلفة ، هذا هو موسم ذلك ، وتذمر سلفادور ، أنا ، ليس لي الحق في أن أمرض ، تصريح مبهم متعدد المعاني ، شكوى من الذي يتمتع بصحة حديدية ، أو إعلان موجه الى

قوى الشر لتحذيرها من الخسارة العظيمة التي سيكونها غياب المدير بالنسبة للفندق . دخل ريكاردو ريس ، حيى ، ثم تردد ثانية ليعلم ما إذا كان عليه أم لا أن يحدث سلفادور على حدة ، قدر أن الإنفراد سيكون مضحكاً ، لم يكن يرى نفسه أبداً يتمتم ، يا سيد سلفادور ، لم يكن ذلك من قصدي ، وأرجوك أن تغفره لي ، ولكنك تعرف كيف تجري الأمور ، الحياة تتغير ، الأيام تتوالى ولا تتشابه ، سوف أغادر عما قريب فندقكم الممتاز ، وجدت بيتاً ، يجب أن لا يضايقك هذا الخبر ، فلنبق صديقين ، كما من قبل ، وأحس إذاك بنغمة قلق كما لو كان قد عاد المراهق ، تلميذ اليسوعيين ، الجاثي أمام كوة كشك الاعتراف ، يتمتم ، لقد كذبت ، كنت حسوداً ، راودتني أفكار غير نقية ، لامست جسمي ، واقترب عند ذاك من الكونتوار ، رد سلفادور تحيته ، والتفت ليأخذ المفتاح ، وألقى ريكاردو ريس بنفسه في الماء ، بسرعة ، فلنطلق الكلمات المحددة قبل أن يلتفت شخص آخر ، فلنفاجئه ، غيلة ، والآن ، الضربة الغادرة ، سيد سلفادور ، تلطف بتحضير حسابي ، لن أبقى في الفندق إلا حتى يوم السبت ، وسرعان ما ندم على خشونته ، سلفادور ، ضحية الخيانة هو ، حاملاً المفتاح ، بالذات ، صورة الرجل الذي جُرح فجأة ، ليس هكذا يعامل مدير بدا على هذا القدر من الود ، كان يجب أن يناديه على حدة ، استمع إلي ، يا سيد سلفادور ، لم يكن ذلك من قصدي ، اعذرني ، ولكن لا ، الزبائن كلهم جاحدون ، وهذا الذي جاء يجنح هنا كحطام والذي عاملته جيداً دائماً على الرغم من قصته مع خادمة ، هو أسوأ الجميع ، كان من شأن شخص غيري أن يطردهما كليهما ، كان من شأنه أن يوجه شكوى ، فيكتور قال لي ذلك حقاً ، ولكن هذا هو الأمر ، قلبي أطيب مما ينبغي ، كل الناس يسخرون مني ، آه ، ولكن هذه هي المرة الأخيرة حقاً ، لن يعودوا يصيدونني ، أقسم

على ذلك . إذا كانت الثواني والدقائق مساوية كلها لثواني الساعات ودقائقها ، فلن يكون لدينا دائماً الوقت لأن نكشف عن الجوهر ، لحسن حظنا أن أكثر الأحداث دلالة تقع في أطول الثواني ، في أكثر الدقائق استعصاء على الانتهاء ، وهو ما يسمح بفحص بعض الحالات مطولاً وبالتفصيل ، دون أن نبالغ في انتهاك أدق الوحدات الدرامية الثلاث ، التي هي على وجه الدقة وحدة الزمن . مد سلفادور ببطء المفتاح إليه ، اكتسب وجهه تعبيراً وقوراً ، وتحدث بلهجة رصينة ، أبوية ، آمل أن لا يكون ذلك لأن شيئاً في خدمتنا ساء السيد الدكتور ، كلمات متواضعة ، مهنية ، يمكن أن تنتج التباساً ، لأنهم إن فكروا في ليديا ، فيمكن بسهولة تمييز سخرية فظة هنا ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك ، سلفادور يبدي الآن أسفه وخيبته فقط . احتج ريكاردو ريس بحرارة ، أبداً يا سيد سلفادور ، على العكس من ذلك تماماً ، قررت نهائياً أن أبقى في ليشبونة ، وليعيش المرء فيها ، يحتاج الى مكان ما . آه ، وجدت شقة ، حسناً ، أضع بيمنتا تحت تصرفك إذا أردت ، سيساعدك على نقل حوائجك إذا كانت الشقة في ليشبونة طبعاً . نعم ، إنها في ليشبونة ، ولكنني سأتولى الأمر ، شكراً جزيلاً ، أي حمال سيكون كافياً . بيمنتا الذي جعله عرض السلطة الكريم جريئاً ، الفضولي بطبيعته ، والواعي لفضول سلفادور ، أين سيسكن ، سمح لنفسه بأن يلح ، لماذا تدفع أجرة حمال ، يا سيدي الدكتور ، سأتولى أمر حوائجك . كلا يا بيمنتا ، شكراً ، وكي يقطع ريكاردو ريس الطريق على الإلحاحات ، ألقى ، مبكراً قليلاً ، خطبة وداعه الصغيرة ، دعني أقول لك ، يا سيد سلفادور ، إني أحمل أفضل ذكرى عن فندقكم ، حيث عوملت جيداً دائماً ، أحسست بنفسي دائماً كما لو كنت في بيتي ، محاطاً بالعناية والرعاية اللطيفتين ، أشكر كل العاملين ، دون استثناء ، على الجو الحار الذي أحطتم به عودتي

الى الوطن الذي لم أعد أفكر في مغادرته ، شكراً جزيلاً وللجميع . لم يكونوا كلهم هنا ، ولكن لم يكن لهذا أية أهمية ، لن يكرر ريكاردو ريس هذه الخطبة لأي سبب في العالم ، شعر بنفسه مضحكاً كثيراً ، وأكثر من مضحك ، فقد قال لاإرادياً أشياء كان من شأنها إيقاظ أفكار ساخرة لدى المستمعين إليه ، يستحيل أن لا يكونوا قد فكروا في ليديا عندما تحدث عن العناية ، عن اللطف والرعاية ، لماذا تملكنا الكلمات غالباً ، ومع ذلك فنحن نراها تأتي ، تهددنا ، ونحن عاجزون عن السيطرة عليها ، عن إسكاتها ، ونحن ننتهي الى أن نقول ما كنا نريد السكوت عنه ، إن ذلك مثل هوة لا تقاوم ، نعلم أننا سنسقط فيها . ومع ذلك نتقدم . شكره سلفادور ببضع كلمات ، لقد شرفنا حصولنا عليك كزبون ، يا سيدي الدكتور ، ونحن لم نقم بغير واجبنا ، العاملون وأنا سنفتقدك ، يا سيدي الدكتور ، أليس كذلك يا بيمنتا ، وهذا السؤال المفاجئ ، الذي يقطع رسمية اللحظة ، يبدو أنه يستدعي شعوراً إجماعياً ، في حين أن الأمر لم يكن كذلك ، في الحقيقة ، غمزة العين التي تكشف أخيراً عن المكر تعني ، لا أدري إذا كنت قد فهمتني جيداً ، فهم ريكاردو ريس ، تمنى لهما ليلة سعيدة وصعد الى غرفته ، مخمناً أنهما سيواصلان الحديث خلف ظهره ، إنه يسمعهما فعلاً يتلفظان باسم ليديا ، عن أي شيء آخر يمكنهما الحديث حقاً ، في حين أن سلفادور قال ، في الحقيقة ، بعد غد ، أريدك أن تعرف من هو هذا الحمال ، أريد أن أعرف أين سيذهب .

أوقات الساعة ، إذا وضعنا على حدة تلك المحتفظ بها ، كهذه ، لأكثر الأحداث دلالة ، فارغة فراغاً مخيفاً ، حتى عندما تنقضي ، كما يقال بسرعة ، وهي حالياً فارغة الى حد يبدو ، معه ، عقربا الساعة كأنهما يجران نفسهما بصورة لا نهاية لها ، الصبيحة لا تنقضي ، بعد الظهر يخلد ، الليل لا

نهاية له ، هكذا كانت ساعات ريكاردو ريس الأخيرة في الفندق ، لقد أراد ، بهاجس لاشعوري ، كي لا يبدو مغالياً في الجحود واللامبالاة ، أن يكون حاضراً ، وقد كان مشكوراً على ذلك بصورة ما . قال له رامون ، وهو يصب الحساء في صحنه ، إذن سيدي الدكتور ذاهب ، كلمات مطبوعة بحزن كبير يعرف التعبير عنه الخدم البسطاء فقط . استعمل سلفادور وتعسف في استعمال اسم ليديا ، ناداها بكل مناسبة ، أعطاها أوامر متناقضة ، وفي كل مرة كان يراقب بانتباه ردود فعلها ، وجهها ، عينيها ، على أمل أن يكتشف فيها علامات حزنها الكامنة ، آثار دموع ، ما ينتظر من امرأة على أهبة أن تُهجر وتعلم ذلك . إلا أنه لم يرَ مثل هذا الهدوء والصفاء ، يخيل الى المرء أن لاشيء يثقل على ضمير هذه المخلوقة ، لا ضروب ضعف جسدي ولا حساب ، ونقم سلفاذور على نفسه لأنه لم يعاقب اللاأخلاقية منذ الشكوك الأولى ، التمتمات الأولى الآتية من المطبخ وغرفة الخدمة ، قبل أن يصبح الأمر علنياً ، الآن ، فات الأوان ، الزبون ذاهب ، الأفضل هو عدم تحريك الوحل ، لاسيما وأنه إذا فكر في الموضوع ، ليس هو نفسه دون خطيئة ، كان مطلعاً ولم يقل شيئاً ، جعل من نفسه شريكاً ، أشفقت عليه ، كان قادماً من البرازيل ، لا أسرة له تستقبله ، عاملته كقريب وهذه هي النتيجة ، خطرت له هذه الفكرة المملة ثلاث أو أربع مرات ، وهو يقول الآن ، بصوت مرتفع ، عندما تصبح الغرفة مائتان وواحد شاغرة ، أريد تنظيفاً كبيراً ، إن أسرة محترمة من غرناطة سوف تقيم فيها ، وأخذ ، وليديا تبتعد ، وقد تلقت الأمر ، يتأمل في استدارة ردفيها ، حتى هذا اليوم ، تصرف كمدير شريف ، غير قادر على الخلط بين العمل والمجون ، ولكن له ثأراً في هذه المرة ، إما أن تقبل وإما الشارع ، لنأمل في أن لا ينتقل الى الأفعال ، كثير من الرجال يتراجعون حين تأتي البرهة .

يوم السبت ، ذهب ريكاردو ريس ، بعد الغداء ، الى الشيادو حيث اتفق مع حمالين ، ومن أجل أن لا يكون عليه هبوط شارع اليكريم مع حرس الشرف هذان ضرب لهما موعداً في الفندق . انتظرهما في الغرفة بإحساس التمزق نفسه الذي شعر به لدى رؤيته الحبال التي كانت تربط الهايلاند بريغاد برصيف ريو دو جانيرو ، جلس على الأريكة ، وحده ، ليديا لن تأتي ، هكذا قررا . وقع خطوات في الممشى ، وصل الحمالان ، يصحبهما بيمنتا ، اليوم ، لا حاجة به الى أن يتعب نفسه ، كل ما يطلب إليه هو أن يبدي الإشارة التي صدرت عن ريكاردو ريس وسلفادور ، يوم كان هو نفسه يحمل الحقيبة الضخمة ، الكبيرة ، وإحدى يديه تحتها ، يكفي أن يطلق تحذيراً عند الدرج ، أن يدلي بنصيحة لا تفيد من يعرف مهنته تماماً . ريكاردو ريس ذهب ليودع سلفادور ، وترك إكرامية سخية للعاملين ، وزّعها كما تشاء . شكره المدير ، الزبائن الذين كانوا في الجوار ابتسموا ، سعيدين برؤية الصداقات الجميلة التي تنعقد في هذا الفندق ، مصافحة ، عناق تقريباً ، انفعل الإسبان لدى رؤية هذا التناغم ، لا عجب في ذلك ، عندما نفكر ببلادهم المنقسمة ، واحد آخر من هذه التعارضات في شبه الجزيرة . في الطريق ، كان بيمنتا قد سأل فعلاً الحمالين عن مقصدهما ، ولكنهما يجهلانه ، المعلم لم يقل شيئاً ، أحدهما يرى أن المكان يجب أن لا يكون بعيداً جداً ، الآخر لا يعلم ، ليس الأمر خطيراً ، بيمنتا يعرف الحمالين ، سبق لأحدهما أن أدى خدمات للفندق ، إنهما في الشيادو ، عندما سيريد الاستيضاح حول هذا الموضوع ، لن يكون عليه أن يذهب بعيداً جداً . قال ريكاردو ريس ، تركت لكم شيئاً صغيراً ، أجاب بيمنتا ، شكراً يا سيدي الدكتور ، إذا احتجت الى أي شيء كان ، يكفي أن تطلبه مني ، كلمات غير مفيدة هي أيضاً أفضل ما يمكن أن يقال ، على اعتبار أن

معظمها كاذب ، الفرنسي الذي قال إن الكلام قد أعطي للإنسان من أجل أن يخفي تفكيره كان على حق ، أخيراً ، يبدو أنه كان على حق ، هذه مسائل يفضل أن لا يطلق بشأنها حكم سريع ، المؤكد هو أن الكلمات التي تخوننا هي أيضاً أفضل ما وجد للتعبير عما يسمى ، بمساعدة الكلمات ، التفكير . علم الحمالان الآن أين يجب أن يسلما الحقائب ، ريكاردو ريس قال لهما ذلك بعد رحيل بيمنتا ، صعدا إذن الشارع ، ماشيين على قارعة الطريق من أجل تسهيل النقل ، ليست هذه حمولة ضخمة بالنسبة لمن سبق وحمل بيانوهات ووحوشاً أخرى . سبقهما ريكاردو ريس بمسافة ، من أجل أن لا يعطي الانطباع بكونه دليلاً لهذه الحملة ، ولكنه بقي مع ذلك على درجة كافية من القرب من أجل أن لا يشعر الحمالان بنفسهما مهجورين ، لا شيء أدق من العلاقات بين الطبقات ، السلم الاجتماعي مسألة لباقة ، وتهذيب ، وسيكولوجية ، وبكلمة واحدة كما بثلاث كلمات ، على اعتبار أننا سبق أن عدلنا عن توضيح مسألة معرفة ما إذا كانت الكلمات أمينة للتفكير أم لا . كان على الحمالين ، وقد بلغا منتصف الطريق ، أن يتوقفا جانباً ، واستفادا من ذلك لينزلا حمولتهما ويستريحا قليلاً ، كان يمر شريط من التراموايات التي تكدس فيها أناس شقر الشعور ومتوردو البشرة ، وهم سواح ألمان ، عمال من الجبهة الألمانية للعمل ، يرتدون جميعهم تقريباً ملابس بافارية الزي ، سراويل قصيرة بحمالات ، قبعة صغيرة ضيقة الحافة ، لوحظوا فوراً ، بعض التراموايات كانت مكشوفة ، أقفاص جوالة يدخل إليها المطر على هواه ، ستارات القماش المقلم غير مجدية أبداً ، من هم هؤلاء العمال الآريون ، سليلو العرق الصافي هؤلاء سيستطيعون حقاً أن يقولوا عن حضارتنا البرتغالية ما يفكرون فيه حالياً عن الأفظاظ الذين ينظرون إليهم وهم يمرون ، الرجل الأسمر ذو المعطف الواقي من المطر الفاتح اللون ،

والقذران الأخيران ، سينا الحلاقة واللباس ، اللذان يعيدان وضع حمولتهما على أكتافهما ويستأنفان تقدمهما ، في حين تمر التراموايات الأخيرة ، ثلاثة وعشرون ، إذا كان لدى أحدهم الصبر على تعدادها ، في طريقها الى برج بيليم ، ودير جيرونيموس ، وروائع أخرى من ليشبونة ، مثل الجيس ، دافوندو وكروز ليبرادا .

اجتاز الحمالان ، محنيي الرأسين ، بسبب الحمولة ، الميدان الذي ينتصب فيه تمثال الملحمي* ، وريكاردو ريس في أعقابهما ، محني الرأس ، مرتبكاً لمضيه هكذا ويداه في جيبيه ، سعيداً أيضاً لأنه لم يجلب معه من البرازيل ببغاء ، لم يكن من شأنه أن يجد الشجاعة على اجتياز الطرقات مع هذا الحيوان الأبله ، في ظل سخريات المارة ، هات قائمتك ، أيها الأشقر الصغير ، تحريات كان من شأنها أيضاً أن توجه الى مسافري الترامووايات ، مزحة برتغالية نموذجية . اقتربوا من غايتهم . تشاهد في طرف الطريق ، أشجار نخيل سانتا كاتاريتا ، غيوم ثقيلة كنساء ضخمات على النافذة يهرعن من الضفة الأخرى ، وهذا المجاز يجب أن يجعل ريكاردو ريس يهز كتفيه ، يقشعر بدنه ، الغيوم لا تكاد أن توجد بالنسبة للشاعر ، إنها أحياناً مائعة ، ومنفلتة ، غير مجدية وبيضاء أحياناً ، وإذا أمطرت السماء ، فذلك أن السماء قد أظلمت لأن أبولون غطى وجهه . هو ذا مدخل بيتي ، ها هو المفتاح والدرج ، لم تفتح النوافذ من أجل دخولنا ، الأبواب بقيت مغلقة ، يخيل للمرء أن أقل سكان ليشبونة فضولاً قد تجمعوا في هذه البناية ، ما لم يكونوا يراقبون الآن ، والبؤبؤ ملتصق بالعين السحرية ، والآن ، فلندخل ، الحقيبتان الصغيرتان ، الكبيرة ، كان الجهد قد وزع بصورة صحيحة ، دفع

* نعت يعطى لكامويس .

السعر المركب كما ينبغي ، وفوقه الإكرامية الاعتيادية ، تفوح رائحة التعرق . عندما ستحتاج إلينا ، أيها المعلم ، فسوف نكون في خدمتك دائماً ، قالا هذا بدرجة من الاقتناع لم يستطع معها ريكاردو ريس أن يضع كلمتهما موضع شك ، ولكنه لم يجب ، وأنا سأكون دائماً هنا ، الرجل المثقف تعلم أن يرتاب في كل شيء ، لاسيما وأن الآلهة عديمة الثبات بشكل مخيف ، الاقتناع الوحيد المكتسب ، الحكمة فيما يتعلق بها والخبرة من أجلنا ، هو أن لكل شيء نهاية ، وضروب دائماً تقبل الباقي . نزل الحمالان ، أغلق ريكاردو ريس الباب ، ثم اجتاز ، دون أن يشعل المصابيح ، كل المنزل ، كانت خطواته تسمع على الأرضية العارية ، بين بضع قطع أثاث فارغة التي كانت تصدر عنها رائحة النفتالين القديم ، وورق الحرير القديم المفروش في الأدراج ، وكان غبار الزوايا يختلط بما يصدر عن أقنية المجاري الذي يزداد قوة بقدر ما كان يقترب من المطبخ ، مستوى الماء انخفض في السيفونات . فتح ريكاردو ريس الحنفيات ، سحب طرادة الماء مرتين ، امتلأ البيت بالصخب ، جريان الماء ، اهتزاز الأقنية ، تكات العداد ، ثم شيئاً فشيئاً ، يعود الصمت . توجد ، وراء البناية ، حدائق خضراوات يجفف فيها الغسيل ، مربعات صغيرة من الخضار بلون الرماد ، سطول ، أحواض إسمنت ، كشك كلب ، جحور أرانب ، أقنان دجاج ، فكر ريكاردو ريس ، وهو ينظر إليها بالسر الدلالي الذي صنع من كولهو كولهيرا ، ومن غالينها غالينهيرو* ، قلب الجص ، أصبح كل واحد عكسه ، مقابله أو مكمله حسب وجهة النظر ومزاج اللحظة . عاد الى مقدمة الشقة ، في الغرفة ، نظر من النافذة القذرة الى الطريق المقفر ، السماء المغطاة

* في البرتغالية ، كولهو(الأرنب) مذكر ويعطي كولهيرا (جمع الأرنب) المؤنث . وغالينها (الدجاجة) مؤنثة وتعطي غالينهيرو (القن) المذكر .

والكامدة الآن ، أداماستور الذي يزمجر في صمت ضد الغيوم ذات لون الرصاص ، بضعة أشخاص يتأملون المراكب ويرفعون رؤوسهم بين وقت وآخر ليسائلوا السماء ، هل ستمطر ، العجوزان الجالسان على المقعد نفسه يتناقشان ، ابتسم ريكاردو ريس ، الأمر جيد بالنسبة إليهما ، إنهما مستغرقان الى حد لم يلاحظا ، معه ، وصول الأمتعة ، هو الذي لم يتذوق المزاح يوماً ، يتسلى بذلك كما لو كان قد لعب عليهما لعبة بارعة . مازال يرتدي معطفه الواقي من المطر ، كما لو كان قد دخل ليخرج ثانية حالاً ، زيارة طبيب ، كما يقول المثل الشعبي ، أو كما لو كان قد جاء لإلقاء نظرة سريعة على مكان ربما سيسكنه ذات يوم ، وأخيراً ، وبصوت مرتفع كما لو كان يردد لنفسه رسالة يجب أن لا ينساها ، قال ، أنا أسكن هنا ، هنا أسكن ، هذا هو منزلي ، ليس لي منزل آخر ، وسيطر عليه خوف مفاجئ ، خوف الحالم الذي يدفع في كهف قديم باباً ينفتح على ظلمة كهف آخر أعمق أيضاً أو على الفراغ ، الغياب ، العدم ، الانتقال الى اللاوجود . أصابه البرد ، عندما خلع معطفه . وكما لو كان يكرر حركات منجزة في حياة أخرى ، ذهب لإخلاء حوائجه ، أفرغها بمنهجية ، ملابس ، أحذية ، أوراق ، كتب ، كل الأشياء الصغيرة الأخرى الضرورية أو غير المفيدة التي ننقلها معنا من بيت الى آخر ، خيوط شرنقة مضفورة ، وجد رداءه المنزلي ، ارتداه ، هو الآن في بيته حقاً . أشعل المصباح الذي كان يتدلى من السقف ، سوف ينبغي التفكير في شراء خزامية ، عاكس للنور ، مصباح مكتب ، مصباح سقف ، أي من هذه الكلمات يمكن أن يستعمل ، شريطة أن لا تجرح عيناه كما هما مجروحتان الآن . استغرق في ترتيباته ، فلم ينتبه حالاً الى أن السماء عادت تمطر من جديد ، عندما قذفت هبة ريح بزخة ماء على الزجاج ، يا له من طقس ، اقترب من النافذة لينظر الى الطريق ، كان العجوزان متروكين على

الرصيف المقابل ، كحشرتين انبهرتا بالنور ، وصامتين مثلهما ، الأول طويل ، والثاني قصير ، كل منهما يحمل مظلته ، رفعا رأسيهما كما لو كانا يشكران المولى ، الظل الذي انبثق وأخذ يراقبهما لم يرهبهما ، وكان يجب أن يتضاعف المطر من أجل جعلهما يقرران أن يهبطا على الطريق ، أن يهربا من الماء الذي كان يسيل من حواف السقوف ، عندما سيصلان الى منزليهما ، سوف توجه زوجتاهما ، إن كانتا موجودتين ، اللوم ، أنت مبلل تماماً ، سوف تصاب بنزلة صدرية ، وبعد ذلك لن يكون أمام العبد سوى الاعتناء بالسيد ، وسوف يجيبان ، منزل الدونا لويزا قد سكن ، سيد وحيد تماماً ، لا يُرى شخص آخر . أتتصورين هذا ، بيت مثل هذا لرجل وحيد ، يا له من تبذير ، يمكن أن نتساءل عما إذا كانتا تعرفان أن البيت كبير ، الجواب ليس سهلاً ، ربما كانتا قد خدمتا فيه في عهد الدونا لويزا ، نساء هذا الوسط ، اللواتي لا يكسب رجالهن شيئاً بالمرة ، وينفقون كل شيء على الخمر والعشيقات ، يأخذن ما يجدن ، ويذهبن لفرك السلالم وغسل الثياب ، بعضهن يتخصصن ، إما أن يغسلن الثياب وإما أن يفركن السلالم ، فيصبحن على هذا النحو مختصات في الموضوع ، يصورن قواعد ويلزمن شرفهن في بياض الشراشف أو لمعان الدرجات ، يقال عن الأولى إنها يمكن أن تستخدم أغطية للمذبح ، وعن الثانية إنه يمكن أن يؤكل ، دون قرف ، المربى الذي قد يسقط عليها ، وهذا ما يؤدي إليه الاستطراد الشفهي . هبط الليل سريعاً مع هذه السماء المغطاة . عندما كان العجوزان على الرصيف ، وأنفاهما في الهواء ، كان يمكن أن يظن أن ضوء النهار هو الذي كان يضيء وجهيهما ، في حين كان الأمر يدور فقط حول بياض لحية عمرها ثمانية أيام ، ولن يمضيا للجلوس عند الحلاق لأن اليوم هو السبت ، وفضلاً عن ذلك ، فهل ذهبا إليه قط ، إنهما يحلقان بنفسهما احتمالاً ، وغداً ، إذا

انكشفت السماء ، سيظهران والوجهان محلوقان جيداً ، متموجان بسبب الغضون والشبة ، والشعر أبيض تماماً ، فيما يتعلق بالقصير ، لأنه لم يبق للطويل سوى بضع خصل بائسة ، وراء الأذنين ، وأخيراً ، وكي نعود الى نقطة انطلاقنا ، كان الوقت نهاراً ، عندما كانا هناك ، على الرصيف ، وعندما تضاعف المطر ، بعد أن راقبا ساكن الطابق الثاني ، انفصلا ، مبتعدين في الطريق في حين كانت السماء تظلم ، وفي اللحظة التي بلغا فيها زاوية الشارع ، كان قد حلّ ليل أسود من قبل . لحسن الحظ ، أشعلت الفوانيس ذات التربيعات الزجاجية المغطاة بالزخارف ، إلا أنه يجب أن نوضح أن هذه الفوانيس لا تعمل دون تدخل بشري ، سيكون الأمر كذلك ، فيما بعد ، عندما ستصل الجنية الكهرباء مع عصاها السحرية الى آلتو دوسانتا كاتارينا والى الأزقة المجاورة ، التي ستضاء عند ذلك كلها معاً بصورة مجيدة ، مازال حالياً ينبغي انتظار أن يأتوا ليشعلوها واحداً بعد الآخر ، الرجل يفتح بعصاه المعقوفة زجاج الفانوس ، يدير حنفية الغاز ، هذا المرحوم سانت إيلم يترك آثار مروره بطرقات المدينة ، أما بالنسبة للرجل الذي يحمل النور معه ، فإنه مذنّب هالي مع ذيله النجمي ، هكذا يجب أن يكون الآلهة قد راقبوا بروميثيوس من فوق ، ولكن هذا الحباحب يدعى أنطونيو . تجمد رأس ريكاردو ريس ، أسنده الى الزجاج ، وبقي هناك ، ينظر الى هطول المطر ، وسرعان ما لم يعد يدرك منها سوى ضجتها ، والى أن يصل مشعل الفوانيس ، ويستعيد كل مصباح إذّاك بريقه وإشعاعه ، كان نور محتضر يسقط على ظهر أداماستور ، الجذع الهرقلي يلمع ، هل هو ماء السماء أم عرق احتضار سببته وشاية تيتيس العذبة وسخريتها ، ماذا كان يجب أن يكون عليه حب الحرية من أجل الرد على حب العملاق الذي يعرف الآن ماذا تساوي الروائع الموعودة . ليست ليشبونة سوى صمت كبير يتمتم .

عاد ريكاردو ريس الى مهماته المنزلية ، رتب كل شيء بعد الآخر ، البذلات ، القمصان ، الأغطية ، الجوارب ، كما لو كان يرتب قصيدة غنائية ، مناضلاً بجدية ضد الوزن العنيد ، ولكن ربطة العنق هذه تقتضي ، بعد تعليقها ، شراء بذلة من اللون نفسه . على الفراش الذي كان لدونا لويزا والذي ليس هو بالتأكيد الذي فقدت عليه عذريتها ، منذ سنوات طويلة ، ولكنه الذي عانت عليه من أجل ابنها الأخير ، والذي احتضر عليه الزوج العزيز ، القاضي في الاستئناف ، قبل أن يموت ، على هذا الفراش ، مدد ريكاردو ريس الشراشف التي مازالت رائحة القماش تنبعث منها ، وضع الوسادة والمخدة في بيتيهما ، باذلاً جهده ، مع خرق ذكري تماماً ، ستأتي ليديا ذات يوم ، ربما غداً ، وبيديها السحريتين ، يدي امرأة ، سوف تصلح هذه الفوضى ، هذا الحزن المستسلم للأشياء السيئة الترتيب . حمل ريكاردو ريس الرزم الى المطبخ ، علّق المناشف في الحمام الجليدي ، رتب أدوات زينته في خزانة بيضاء يفوح منها العفن ، هذا الرجل ، ونحن نعلم ذلك ، حريص على المظهر ، مجرد الشعور بالكرامة ، لم يبق عليه ، أخيراً ، إلا أن يضع الكتب والأوراق على رف المكتب المجدول والأسود ، وفي الخزانة السوداء والمجدولة ، الآن ، هو في بيته ، يعلم أين هي نقاط الاستناد ، وردة الرياح ، شمال ، جنوب ، شرق ، غرب ، ربما ستهب عاصفة مغناطيسية ذات يوم هنا ، وتبعث الجنون في هذه البوصلة .

الساعة السابعة والنصف ، المطر لم ينقطع . جلس ريكاردو ريس على حافة السرير المرتفعة ، ينظر الى الغرفة الحزينة ، النافذة دون ستائر ، تذكر أنه ربما كان الجيران المواجهون يتجسسون عليه الآن ، فضوليين ، هامسين ، يرون كل ما يجري ، وتمضي الألسنة الخبيثة في مجراها ، مراهنة على متع مقبلة أكثر إثارة من مشهد هذا الرجل الوحيد الجالس على حافة

سرير قديم ، نهض ريكاردو ريس وعلى وجهه سحابة ، مضى لإغلاق المصراعين الداخليين . تشبه الغرفة الآن زنزانة ، أربعة جدران عمياء ، إذا فتح الباب فإنه سيطل على باب آخر ، وعلى كهف مظلم وعميق ، سبق أن قلنا ذلك ، لا ضرورة للتكرار ، بعد قليل ، سيدق المعلم أفونشو ، في فندق براغانسا ، ثلاث ضربات على الصنج الهزيل ، الزبائن البرتغاليون والإسبان ، إخوتنا ، إخوتهم* ، سينزلون ، سلفادور سيبتسم لكل منهم ، السيد فونسيكا ، السيد الدكتور باسكوال ، سيداتي ، دون كاميليو ، دون لورانزو ، وزبون المائتين والواحد الجديد ، دوق ألب احتمالاً أو ميدانيسيلي ، الذي يجر سيفه ويضع دوكا في اليد الممدودة لليديا التي تنحني ، بوصفها خادمة نموذجية ، تتحمل ، والابتسامة على شفتيها ، قرصة في زندها ، رامون سيحمل حساء الدجاج ، اليوم ، هذه وصفة خاصة ، وهو لا يكذب ، فيصعد من أعماق وعاء الحساء شذى فواح ، ومن صحون عميقة يصعد بخار مسكر ، لا عجب في أن تحتج معدة ريكاردو ريس ، إنها ساعة العشاء . ولكن السماء تمطر . تسمع ، والمصراعان مغلقان ، طقطقات المطر الذي يسقط من أطراف السقوف ، وانسكابات المزاريب على الصيف ، من هو إذن من يملك الجرأة الكافية للخروج في هذا الطقس ، ما لم يكن مرغماً على ذلك ، لينقذ أباه من المشنقة ، مثلاً ، وهي مجرد فرضية ولا تتعلق إلا بالذين مازال آباؤهم على قيد الحياة . مطعم فندق براغانسا هو الفردوس المفقود ، وإذا كان ريكاردو ريس يود حقاً أن يذهب إليه ، فإنه لا يريد ، في أية حالة ، أن يبقى فيه . من أجل أن يخدع جوعه ، أخذ يبحث عن علب البسكويت والفواكه المجففة ، لم يكن هناك من مشروب سوى ماء

* بالإسبانية في الأصل .

الصنبور المالح والمرء يجب أن يكون آدم وحواء قد عانيا حرماناً مماثلاً ، في الليلة الأولى ، بعد طردهما من جنة عدن ، وكانت السماء تمطر كما تمطر اليوم ، كانت تلك إرادة الله ، كانا يقفان متلاصقين عند ركن الباب عندما سألت حواء آدم ، هل تريد قطعة بسكويت ، وبما أنه لم يكن معها سوى قطعة واحدة ، فقد قسمتها الى قسمين ، ومدت إليه الكبير منهما ، وتخلدت العادة . آدم يمضغ ببطء ، وهو ينظر الى حواء تقضم قطعتها الصغيرة ، حاني الرأس كعصفور فضولي . في الجانب الآخر من هذا الباب المغلق الى الأبد ، كانت هي التي أعطته التفاحة ، المقدمة دون قصد خبيث ولا نصيحة أفعوانية ، كانت عارية ، وفي هذه اللحظة ، كما يقال ، وهو يعض التفاحة ، انتبه آدم الى ذلك ، لم يكن لديها الوقت بعد لترتدي ملابسها ، وكانت تشبه زنابق الكحول التي لا تغزل ولا تنسج . على عتبة الباب ، مع قطعة بسكويت واحدة ، أمضى الإثنان ليلة طيبة ، من الجانب الآخر ، كان الله يصغي إليهما حزيناً ، مستبعداً من وليمة لم يكن قد دعي إليها ، ولم يتوقعها ، فيما بعد ، صنع من ذلك مثل ، حيث يوجد رجل وامرأة مجتمعين ، يكون الله حاضراً ، وهذا القول الجديد يكشف لنا أن الفردوس ليس في نهاية المطاف حيث قيل لنا ، بل هنا ، حيث يأتي الله ، في كل مرة يشتهي ذلك . ليس الى هذا المنزل على كل حال . ريكاردو ريس وحيد ، الإجاصة المجففة ، المبالغة في حلاوتها ، قززته ، الإجاصة ، لا التفاحة ، لم تعد الإغراءات ما كانت عليه ، ذهب الى الحمام ليغسل يديه الدبقتين ، وفمه ، وأسنانه ، إنه لا يتحمل هذه الموسيزا ، وهي ليست كلمة برتغالية ولا إسبانية ، بل مشتقة من الإيطالية ، الوحيدة التي تناسبه الآن ، العزلة ، كالليل ، تثقل عليه ، هو عالق في هذا الليل كما في دبق ، حيواناً بحرياً ذا حركات ثقيلة ، سلحفاة دون دفاع ، دون درع ، في رواق طويل وضيق تحت

النور البارد الذي ينزل من السقف . ذهب ليجلس الى مكتبه ، فتش في الأوراق التي اجتمعت فيها أشعاره ، قصائده الغنائية كما سماها ، والاسم بقي لها ، كان يلزمها اسم ، قرأ بصورة عشوائية ، تساءل عما إذا كان هو الذي كتبها ، لأنه لم يتعرف على نفسه فيها ، هذا الرجل المتجرد ليس هو ، ليس هو ، هذا الرجل الهادئ والمستسلم ، شبه الإلهي ، لأن الآلهة هي هكذا ، مستسلمة ، هادئة ، متجردة ، موتى حاضرون . فكر بصورة مبهمة في أن عليه أن ينظم حياته ، أن يقرر ما سوف يفعله غداً ، بعد الظهر ومساء ، ينام باكراً ، يستيقظ باكراً ، ينهض باكراً ، يقوم بالبحث عن مطعم أو إثنين يقدمان غداء صحياً ، يراجع أشعاره ويصححها من أجل الكتاب القادم ، يبحث عن مقر لعيادته ، يلتقي أناساً ، يسافر عبر البلاد ، يذهب الى بورتو ، الى كوامبرا ، يزور الدكتور سامبايو ، ويقع مصادفة على مرساندا في شوبال* ، توقف إذّاك عن التفكير في مشاريعه وخططه ليشفق على المعاقة ، ثم انصبت هذه الشفقة عليه ، إنه يشفق على نفسه ، كتب ، وهو جالس هنا ، هاتين الكلمتين كما لو كان الأمر يدور حول بداية قصيدة ، ثم سرعان ما تذكر أنه كان قد كتب في الماضي ، أتخذ ، واثقاً من نفسي ، مكاناً على عمود الأشعار المتين الذي أقف عليه ، عندما يكون المرء قد حرر مثل هذه الوصية ، فلا يمكنه أن يكتب أخرى تكون عكسها .

لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة عندما ذهب ريكاردو ريس لينام ، كانت السماء ماتزال تمطر . حمل كتاباً الى السرير ، كان قد أخذ إثنين ، ولكنه تخلى في الطريق عن « إله المتاهة » ، بعد عشر صفحات من « موعظة أول أحد من الصيام » ، أحس بيديه تتجمدان خارج الأغطية ، وقراءة الأقوال

* يدور الأمر حول حديقة نزهة كوامبرا حيث يتواعد الطلاب .

الحارة ، نقبوا في بيتكم ، ابحثوا فيه عن أدنأ الأشياء ، وسوف تتبينون أنه نفسكم ، لا تدفئ ، وضع الكتاب على طاولة الليل ، وتكوم على نفسه مرتجفاً ، سحب الغطاء حتى فمه وأغمض عينيه . إنه يعلم أن عليه أن يطفئ النور ، ولكن ليس فوراً ، وإلا فسوف يشعر بنفسه مرغماً على النوم ، وهو لا يريد ذلك بعد . عندما كانت الليالي باردة كهذه ، اعتادت ليديا على وضع سخانة حارة بين أغطيته ، لمن تفعل ذلك الآن ، للدوق دو منديناسيلي ، هدوءاً أيها القلب الغيور ، الدوق أتى معه بالدوقة ، الذي قرص ذراع ليديا هو الآخر ، دوق ألب ، وهو عجوز ، مريض وعنين ، يحمل سيفاً من صفيح ، ويقسم أنه كولادا سيد كامبيادور ، المنتقل من الأب الى الإبن في أسرة ألب ، حتى كبير من إسبانيا يستطيع أن يكذب ، نام ريكاردو ريس دون أن ينتبه ، فهم ذلك حين استفاق مذعوراً ، كان الباب قد قرع ، ربما كانت هذه ليديا التي استطاعت أن تفلت من الفندق وأتت لتمضي الليلة معي ، المتهورة ، ثم فكّر ، لقد حلمت ، وكان يبدو حقاً أن الأمر كذلك ، لأنه لم يعد يسمع شيئاً خلال دقيقة ، ربما كان البيت مسكوناً ، هذا هو السبب الذي لم يكونوا يستطيعون من أجل تأجيره ، هذا البيت الحسن الموقع الى هذا الحد ، قرع الباب مرة أخرى ، طق ، طق ، طق ، بهدوء ، من أجل عدم إخافته ، نهض ريكاردو ريس ، دس قدميه في خفيه والتف بمئزره ، واجتاز الغرفة بخطوات صامتة ، خرج الى الرواق مرتعداً ، وسأل وهو ينظر الى الباب ، كما لو كان أحد يهدده ، من هناك ، كان صوته أجشّ ومرتجفاً ، تنحنح ثم طرح السؤال من جديد ، جاءه الجواب في تمتمة ، هذا أنا ، ليس شبحاً ، بل فرناندو بيسوا ، لقد أحسن اختيار يومه . فتح الباب ، كان هو حقاً ، في بذلته السوداء الصغيرة ، عاري الرأس ، دون معطف ، غير محتمل من رأسه حتى قدميه ، لم يتلق أدنى نقطة ماء . سأل ، هل أستطيع الدخول ،

لم تطلب مني أبداً ، حتى الآن ، الإذن ، لا أدري أي هاجس استولى عليك فجأة . الوضع مختلف ، أنت في بيتك الآن ، وكما يقول الانكليز الذين ربوني ، بيت الإنسان هو قلعته . أدخل ، كنت نائماً ، كما تعلم . كنت نائماً . أعتقد أني نمت . لا تتمسك بالرسميات معي ، كنت في السرير ، عد إليه ، لن أبقى سوى بضع لحظات . اندس ريكاردو ريس بسرعة داخل الأغطية ، كانت أسنانه تصطك من البرد ، وكذلك من الخوف الذي أحسه ، بل ولم ينزع عنه رداءه المنزلي . جلس فرناندو بيسوا على كرسي ، صالب بين ساقيه ، متشابك الأصابع فوق ركبتيه ، ونظر الى ما حوله بعين ناقدة . إذن ، سوف تعيش هنا . هكذا يبدو لي جيداً . هذا محزن قليلاً . البيوت التي بقيت شاغرة لفترة طويلة هي كذلك دائماً . وسوف تسكن هنا وحدك ، أنت فقط . ليس تماماً ، ما أكاد أن أكون قد انتهيت من الانتقال ، وها أنت فعلاً في زيارتي . أنا غير محسوب ، لست رفيقاً . أنت محسوب الى درجة كانت كافية لإرغامي على الخروج من سريري وأذهب لأفتح لك الباب ، سوف أنتهي الى إعطائك مفتاحاً . لن أستطيع أن أستخدمه ، لو كنت أستطيع أن أعبر الجدران لتجنبت إزعاجك . هيا ، هيا ، لا تأخذ هذه الأقوال مأخذ الجد ، يسعدني جداً أنك أتيت ، لم تكن هذه الليلة الأولى تبدو سهلة . الخوف . قليلاً ، عندما سمعت قرع الباب ، لم أظن أنه كان يمكن أن تكون أنت ، لم يكن الخوف على وجه الدقة ، إنها بالأحرى الوحدة . آه ، الوحدة ، سوف يلزمك الكثير لتتعلم معرفة ما هي . لقد عشت دائماً وحيداً . أنا أيضاً ، ولكن الوحدة ليست أن يعيش المرء وحيداً ، هي أن يكون عاجزاً عن مصاحبة أحد أو شيء هو في أعماقنا ، الوحدة ليست الشجرة المعزولة وسط السهل ، بل هي المسافة بين النسغ العميق واللحاء ، بين الورقة والجذر . أنت تهذي ، هذه الأشياء التي تتحدث عنها مترابطة فيما بينها ، لا أرى هناك

أية وحدة . فلندع الشجرة وانظر داخل نفسك ، سوف تجد فيها الوحدة .
كما قال الآخر ، السير وحيداً وسط الجمهور . وهناك ما هو أسوأ من ذلك ،
أن كون المرء وحيداً هو أن نكون حيث نحن أنفسنا غير موجودين . أنت
ذو مزاج قاتل اليوم . إن لي أيامي السيئة . ليست هذه هي الوحدة التي
كنت أتحدث عنها ، بل كنت أتحدث عن الأخرى ، عن تلك التي ترافقنا ،
التي يمكن تحملها ، التي تصحبنا . لا نتحمل هذه الأخرى جيداً دائماً ، نحن
نرغب في وجود ، في صوت ، وفي أوقات أكثر ، لا يفيد هذا الصوت ، هذا
الحضور ، إلا في جعل الوحدة أقسى . وكيف ، في ذلك اليوم ، عندما التقينا
تحت الشرفة ، هل تتذكر ذلك ، كنت تنتظر معشوقتك ، سبق أن قلت لك
إنها ليست معشوقتي . حسناً ، لا تغضب ، يمكن أن تصبح كذلك ، هل
تعلم بما يحتفظ لك به المستقبل . أنا ، عملياً ، في عمر أبيها . وماذا في
ذلك . فلنغير الموضوع ، قص عليّ نهاية قصتك . نزلة البرد التي أصابتك
ذكرتني بحادثة صغيرة في مرضي ، الأخير ، الختامي والأخير . أوه لا لا ، يا
لها من ضروب حشو ، أسلوبك لا يتحسن . الموت حشو ، هو الآخر ، بل
إنه أكثر الأمور حشواً . أين هذه القصة . جاء طبيب الى المنزل . كنت راقداً
في غرفتي ، فتحت أختي . أختك نصف الشقيقة ، الحياة مليئة بأنصاف
الأشقاء فضلاً عن ذلك . ماذا تعني بهذا . لا شيء خاصاً ، استمر . فتحت
الباب وقالت للطبيب ، أدخل يا سيدي الدكتور ، هذا العديم الجدوى هنا ،
عديم الجدوى كان أنا ، بالطبع ، ليس للوحدة كما ترى من حد ، إنها في
كل مكان . سبق أن شعرت بنفسك غير مفيد حقاً . يصعب الجواب ، لا
أذكر على الأقل أني شعرت بنفسي مفيداً حقاً . بل أعتقد أن الأمر هكذا ،
الوحدة الأولى هي أن لا تحس بنفسك مفيداً . حتى لو ظن الآخرون عكس
ذلك ، وحملناهم على أن يظنوا ذلك . الآخرون يخطئون في أغلب الأحيان .

وأنا أيضاً ، نهض فرناندو بيسوا ، فتح المصراعين ونظر الى الخارج . أي نسيان لا يغتفر هو عدم وضع أداماستور في مانساغيم* ، عملاق بهذا الخلق الرضي ، بهذه الرمزية ، أنت تراه من هنا ، شخص مسكين ، كامويس استخدمه للتعبير عن آلام القلب التي امتلأت نفسه بها والتنبؤ ، بصورة أكثر من ملتبسة ، بغرق الذين كانوا في البحر ، كما لو كانت تلزم من أجل ذلك مواهب نبوية خاصة . كان التنبؤ بالمصائب دائماً علامة على الوحدة ، لو كانت تيتيس قد ردت على حب العملاق ، لكان خطابه مختلفاً تماماً . عاد فرناندو وبيسوا الى الجلوس ، في الوضعية التي كان عليها منذ قليل . سأله ريكاردو ريس ، هل أنت باق . لماذا . أنا نعسان . لا تنشغل بي ، نم إذا أردت ، ما لم يكن وجودي يزعجك . ما يزعجني هو أن أراك جالساً هكذا في البرد . لست في حاجة الى أن أغطي نفسي ، بل يمكنني أن أبقى بالقميص وحده ، لا ينبغي أن تنام بردائك المنزلي ، لن تكون مرتاحاً . سأخلعه . نشر فرناندو بيسوا الرداء المنزلي على الغطاء العلوي للسرير ، رتب الأغطية ، وصحح بشكل أمي ثنية الشرشف . نم الآن . اطفئ النور ، يا فرناندو ، إذا سمحت ، ينبغي أن لا يكون البقاء في الظلام مزعجاً لك . مضى فرناندو بيسوا الى المصباح ، غاصت الغرفة فجأة في الظلام ، ثم ، ببطء ، تسلل ضياء الفوانيس عبر شقوق المصاريع ، شرائط مضيئة خفيفة ، تسقط على الجدار نوراً متذبذباً . أغمض ريكاردو ريس عينيه ، وتمتم ، ليلة سعيدة يا فرناندو ، بدا له أن برهة طويلة قد انقضت قبل أن يصله الجواب ، ليلة سعيدة يا ريكاردو . عد أيضاً حتى المائة ، أو ظن أنه فعل ذلك ، فتح عينين ثقيلتين ، فرناندو بيسوا مايزال جالساً على الكرسي

* مجموعة شعرية ملحمية لفرناندو بيسوا .

نفسه ، ويداه متصالبتان فوق ركبتيه ، بدا له كصورة للتخلي ، للوحدة القصوى ، وربما كان ذلك لأنه لم يكن يحمل نظارتيه ، كما فكر ريكاردو ريس ، وفي إبهام نعاسه ، بدا له ذلك أرهب البلايا . استيقظ وسط الليل . كان المطر قد انقطع وكان العالم يسافر عبر الفراغ الصامت . لم يكن فرناندو بيسوا قد غير وضعه ، كان ينظر نحو السرير دون أي تعبير ، كتمثال دون عينين . بعد ذلك بكثير ، استيقظ ريكاردو ريس ثانية ، كان باب قد صفق . لم يعد فرناندو بيسوا في الغرفة ، كان قد خرج مع أول شعاع الفجر .

لا تنقص الحياة ، كما أمكننا أن نتبين في أزمنة وأمكنة أخرى ، المضايقات . كان الصباح متأخراً عندما أفاق ريكاردو ريس وأدرك حضوراً في المنزل ، ربما لم تكن الوحدة بعد ، بل الصمت ، نصف شقيقه . خلال بضع دقائق أحس بالشجاعة تخونه ، كان ذلك كما لو أنه يشهد سقوط رمل في ساعة رملية ، وهي مقارنة مبتذلة مازالت مع ذلك تستعمل ، ذات يوم ، عندما ستكون أمامنا مائتا سنة نعيشها ، وقد أصبحنا نحن أنفسنا ساعات رملية متنبهة للرمل الذي يسيل فينا ، سنتوقف عن استعمالها ، أما الآن فليس الأمر كذلك ، ليس لدينا الوقت للتأملات . كنا نتحدث عن مضايقات . عندما استيقظ ريكاردو ريس ، وذهب الى المطبخ ليشعل سخانة الماء والغاز ، تبين له أنه ليس لديه كبريت ، كان قد نسي أن يشتريه ، وربما أن نسياناً واحداً لا يأتي أبداً وحده ، فقد رأى أنه كانت تنقصه مصفاة للقهوة ، الرجل الوحيد لا يساوي شيئاً ، هذا صحيح حقاً . أبسط حل ، إنه الأسرع ، كان من شأنه أن يقوم على ذهابه ليقرع على باب الجيران في الأسفل أو في الأعلى ، أرجو المعذرة ، يا سيدتي ، أنا الساكن الجديد في الطابق الثاني ، انتقلت أمس ، كنت أتأهب لأخذ حمام ، للحلاقة ، وها أنا

وليس لدي كبريت ، تنقصني أيضاً مصفاة قهوة ، ولكن ذلك ليس خطيراً ، أستطيع أن أستغني عنها ، لدي شاي على الأقل ، لم أنسه ، الأكثر إزعاجاً هو الحمام ، هل تستطيعين إعارتي كبريتاً ، أعتذر عن إزعاجكم . وبما أن البشر كلهم إخوة ، نصف إخوة بعد ، فقد كان سيبدو أمراً طبيعياً تماماً أن يأتوا لسؤاله ، وكان من شأن ذلك أن يوفر عليه الخروج الى برد السلم ، هل تحتاج شيئاً ، لاحظ أنك انتقلت أمس ، نعرف ما هي الانتقالات ، إذا لم يكن ما ينقص هو الكبريت ، فسيكون الملح ، إذا كان لدينا الصابون ، فقد أضعنا المنشفة ، هذه المناسبات هي التي نحتاج فيها الى الجيران . لم يمض ريكاردو ريس لطلب مساعدة ، ولم ينزل أحد أو يصعد ليعرض خدماته ، لم يكن أمامه حل آخر سوى أن يرتدي ملابسه ، وينتعل حذائيه ، ويضع شالاً ليموه لحيته الوليدة ويعتمر قبعة ، متذمراً من هذا النسيان الذي كان يجبره على الخروج وقد لبس كيفما اتفق سعياً وراء كبريت . ذهب أولاً الى النافذة ليستشير السماء ، التي كانت مغطاة ، لم تعد تمطر ، إن أداماستور وحيد ، الوقت مبكر على أن يكون الجيران هناك يرقبون السفن ، هم في بيوتهم في الوقت الحاضر ، ويحلقون بالماء البارد ، ما لم تكن زوجاتهم الضجرات قد قمن بتسخين الماء قليلاً ، ذلك أن رجولة الرجال البرتغاليين ، المتفوقة على كل رجولة أخرى ، لا تسمح بأي تهاون ، يجب أن لا ننسى أننا ننحدر في خط مباشر ، من هؤلاء البرتغاليين الذين كانوا يستحمون في بحيرات جبال هيرمينوس الجليدية ثم يركضون مباشرة ليصنعوا أطفالاً على الطريقة البرتغالية . اشترى ريكاردو ريس من بائع فحم في الحي السفلي كبريتاً ، نصف دزينة من العلب ، من أجل أن لا يعتبر الفحام هذا الشراء الصباحي أهزل مما ينبغي ، وهو ما يخطئ خطأ ثقيلاً بصدده ، ذلك أنه منذ أن كان العالم عالماً ، لا يتذكر الإنسان مثل هذا الحظ غير المتوقع ، هنا ، مازال

الناس معتادين على الذهاب لطلب النار من الجارة . انتعش ريكاردو ريس بالهواء البارد ، وطمأنه الشال وإقفار الطريق ، فصعد ليرى النهر ، وهضاب الضفة الأخرى ، المنخفضة انخفاضاً لا يصدق مرئية من هنا ، وخط الشمس الذي يظهر ويختفي على المياه حسب جريان الغيوم المنخفضة . دار حول التمثال ، ليعرف من كان الذي نحته ، ومتى نُحت ، هو ذا التاريخ ، ألف وتسعمائة وسبعة وعشرون ، ريكاردو ريس مصنوع هكذا بحيث يسعى دائماً الى اكتشاف تناظرات في ضروب عدم انتظام العالم ، اداماستور نصب هنا بعد رحيلي الى المنفى بثمان سنوات ، وبعد ثمان سنوات من هذا التاريخ ، عدت الى الوطن ، أيها الوطن ، إن صوت أسلافك العظام قد ناداني ، ظهر العجوزان في هذه اللحظة ، حليقين ، متموجي الجلد بالغضون والشبة ، المظلة في الذراع ، بسترتي السامارا* المفكوكتي الأزرار ، دون ربطة عنق ، وقبة القميص مغلقة بصرامة ، وليس ذلك لأن اليوم هو الأحد ، يوم التقوى ، بل لأنه من المناسب ، حتى بالأسمال ، احترام بعض الرصانة في اللباس . واجه العجوزان ريكاردو ريس ، متعجبين من هذا الطواف حول التمثال ، متزايدي الاقتناع بأن هناك سراً في هذا الرجل ، من هو ، ماذا يعمل ، من أي شيء يعيش . قبل أن يجلسا ، مدا فوق المقعد الرطب قماشاً خشناً ، ثم جلسا ، بحركات موزونة ، رصينة ، حركات من ليسوا على عجل ، سعلا بضجة ، أخرج الضخم من الجيب الداخلي للسامارا جريدة ، إنها «سيكولو» الأعمال الخيرية ، هما يشتريانها كل يوم أحد ، يشتريها أحدهما تارة ، والآخر تارة أخرى ، الأسبوع القادم سيكون دور النحيل . دار ريكاردو ريس حول التمثال مرتين ، ثلاث مرات ، أدرك فراغ صبر

* السامارا : سترة من القماش الخشن يرتديها فلاحو التيجو وريباتيجو .

العجوزين ، هذا الحضور الذي لا يستقر في مكان يمنعهما من التركيز على قراءة الأخبار التي يجب أن يقوم بها الضخم بصوت مرتفع ، ليفهم هو نفسه ، ولأن النحيل أمي ، يصطدم بالكلمات الصعبة ، القليلة العدد مع ذلك ، أولاً لأن الصحفيين لا ينسون أبداً أنهم يكتبون للشعب ، ثم لأنهم يعرفون جيداً جداً لأي شعب يكتبون . نزل ريكاردو ريس حتى السياج ، وجعل نفسه ينسى ، سمع العجوزين يتمتمان ، غائصين في القراءة ، أحدهما يقرأ ، والآخر يصغي ويعلق . وجدوا ، في محفظة لويس أوسيدا صورة بالألوان لسالازار ، أهي مصادفة أم قرينة طريفة ، هذا البلد محشو بالألغاز البوليسية ، رجل وجد ميتاً على طريق سانترا ، مخنوقاً ، كما قيل ، ولكنه خدر بالإيتير قبل ذلك ، بل يبدو أنه تُرك يموت جوعاً كل مدة احتجازه ، وأن الأمر قد يدور حول جريمة دنيئة ، وهو مصطلح يهبط حتماً بمكانة الجنحة ، وفوق ذلك ، فقد كانت في محفظة الضحية ، كما ترون ، الصورة الفوتوغرافية لحكيمنا ، ديكتاتورنا الأبوي ، كما سماه بصورة دينية ، إذا سمح لنا بهذه الموازاة ، المؤلف الفرنسي الذي سيدخل اسمه في التاريخ ، شارل أولمون ، هكذا يدعى ، وخلال بضعة أيام سيثبت التحقيق أن لويس أوسيدا كان من كبار المعجبين برجل الدولة البارز ، وسوف نعلم أنه كانت توجد في المحفظة الجلدية العتيدة شهادة أخرى على وطنية أوسيدا ، المحلقة ، مع قصورها وشعاراتها ، رمز الجمهورية ، وكذلك الكلمات التالية ، اختاروا المنتجات البرتغالية . ابتعد ريكاردو ريس خفية ، ترك العجوزين الوادعين ، المستغرقين في اللغز الدراماتيكي الى حد لم يرياه معه ، يرحل .

جرت بقية الصباح دون مشاكل ، باستثناء المقاومة المعتادة لسخان ماء لم يستعمل منذ أسابيع ، لزم فيض من أعواد الكبريت قبل أن يرى اللهيب مشتعلاً ، ولن نتوقف كذلك عند الابتلاع الكئيب لكوب من الشاي

وثلاث قطع من الحلوى الجافة ، بقايا عشاء الأمس ، ولا عند الاستحمام في الحوض العميق المكسو قليلاً بمادة صلصالية ، وسط غيوم من البخار ، ولا عند الوجه المحلوق بعناية ، مرة ، مرتين ، كما لو كان عنده موعد في مكان ما مع امرأة ، أو كما لو كانت ستأتي لزيارة سرية ، مختفية وراء نقاب أو ياقة عالية ، نافدة الصبر الى أن تتنفس رائحة الصابون هذه ، أثر الكولونيا ذا الرائحة ، قبل أن تأتي عطور أخرى أعنف ، أكثر طبيعية ، لتمزج بين كل هذه الروائح في رائحة واحدة ، رائحة الجسد التي تنتشقها الخياشيم المرتعشة والتي تجعل الصدور تلهث بعد السباق الكبير . هكذا يتشرد ذهن الشعراء ، على مستوى الأرض ، مداعبين بشرة نساء بعيدات نفسها ، كما أن كل ما قلناه حالياً ، هو إذن من الخيال ، السيد الكثير القوة والممتلئ خيبة . ريكاردو ريس مستعد الآن للخروج ، لا أحد ينتظره ، لن يذهب الى قداس الساعة الحادية عشرة ليقدم الماء المقدس للمجهولة الأزلية ، الحس السليم يأمره بالبقاء في بيته حتى ساعة الغداء ، لديه أوراق يرتبها ، كتب يقرؤها وقرار يتخذه ، أية حياة سيعيش ، ما العمل الذي سيقوم به ، ماذا سيكون مبرر حياته ، عمله ، وبكلمة واحدة ، لماذا . لم يكن قد قرر الخروج هذا الصباح ، ولكنه سوف ينبغي عليه أن يفعل ، سيكون من المضحك أن يبدل ثيابه مرة أخرى ، أن يقول لنفسه إنه ارتدى ملابسه للخروج دون أن ينتبه الى ما كان يفعله . غالباً ما يحدث هذا ، حلم يقظة ، شرود ذهن ، بعد اجتياز هاتين الخطوتين ، لا يبقى لنا سوى الإقدام على الثالثة ، مع معرفتنا بأن هذا خطأ أحمق ، الإنسان حيوان لاعقلاني ، هذه هي الحقيقة الحقيقية . دخل الى الغرفة ، فكر في أنه ربما كان عليه أن يرتب السرير قبل الخروج ، يجب أن لا يدع نفسه للتراخي ، ولكن ذلك لا يستحق العناء ، إنه لا ينتظر أحداً ، جلس إذ ذاك على الكرسي الذي قضى

عليه فرناندو بيسوا ليلته ، صالب مثله بين ساقيه ، حاول أن يرى بعين التمثال السرير الخالي ، ولكن عرقاً انتفض على صدغه الأيسر ، تهيج جفنه الأيسر برجفات ، أنا حي ، تمتم بذلك ثم قال بصوت مرتفع ، رنان ، أنا حي ، وبما أنه لم يكن هناك من يكذبه ، فقد صدق ذلك ، اعتمر قبعته وخرج . لم يعد العجوزان وحدهما . كان هناك أطفال يلعبون بحجر القدم ، قافزين على رسم مخطط بالطبشور على الأرض ، من خانة الى أخرى ، وكل خانة تحمل رقمها ، أعطيت أسماء كثيرة لهذه اللعبة ، الهجرس ، الطائرة ، السماء والجحيم ، يمكن أيضاً إضافة أخرى ، الروليت أو المجد ، ولكن لعبة الرجل تبقى أنسب ، ذلك لأن هذا ما يوحي به خط الطبشور ، جسم مستقيم ، ذراعان مفتوحتان ، قوس الدائرة الأعلى يشكل الرأس أو الفكر ، إنه ممدد على الحجارة وينظر الى الغيوم في حين يدوسه الأطفال ، المعتدون اللاواعون ، فيما بعد ، عندما يحين دورهم ، سيعرفون ما يكلفه ذلك .

وصل بعض الجنود مبكرين جداً ، ليستكشفوا الميدان احتمالاً ، ذلك أن الخادمات سيأتين للتنزه هنا ، بعد الغداء ، حوالي منتصف بعد الظهر ، إذا لم تكن السماء تمطر ، في الحالة المعاكسة ستقول سيدة المنزل ، انظري كيف يهطل ، يا ماريا ، يفضل أن لا تخرجي ، ابقي بالأحرى من أجل أن تكوي البياضات ، سوف أعطيك ساعة إضافية حين يأتي يوم عطلتك ، بعد خمسة عشر يوماً ، وهو توضيح أضيف من أجل الذين لم يعرفوا متع هذه الفترة ، أو لم يكن لديهم قط الفضول لمعرفة المزيد . انحنى ريكاردو ريس لحظة ، مستنداً الى السياج ، لم يكن العجوزان ينتبهان إليه ، من جديد سمحت السماء المكشوفة برؤية ثقب كبير من الزرقة ، من جانب مدخل المرفأ ، استقبال جميل لمن يصل اليوم من ريودوجانيرو ، إذا كان هذا يوم البخار . بدأ ريكاردو ريس ، معتمداً على الانفراج الذي تعد به السماء ،

نزهته بالكالاريز ، نزل حتى كامويس وانتابته ، فجأة ، رغبة في الذهاب الى فندق براغانسا ، كهؤلاء الفتيان الخجولين الذين اجتازوا امتحان الدراسة الابتدائية ويستمرون ، وهم الذين لم يعد لهم ما يفعلونه في مدرسة طالما كرهوها ، في زيارة الأساتذة ورفاق الصفوف الأخرى ، الى أن يتعب الجميع من هذا الحج الذي هو في عقم ضروب الحج الأخرى ، الحاج يتعب ، يبدؤون في مكان العبادة في تجاهله ، ماذا سيفعل في الفندق ، أيذهب لتحية سلفادور وبيمنتا ، السيد الدكتور اشتاق إلينا إذن ، أتريد أن تقول بضع كلمات لليديا ، المسكينة ، إنها عصبية جداً ، وسوف تستدعى عمداً ، عن خبث ، الى الاستقبال ، تعالي يا ليديا ، الدكتور ريس يريد أن يكلمك . مررت دون سبب ظاهر ، كنت أريد فقط أن أشكركم على الطريقة التي عاملتموني وعلمتموني بها ، في المدرسة الابتدائية ، كما في الثانوية ، لم أكن قادراً على أن أتعلم المزيد ، الخطأ هو خطأ رأسي الرديء ، وليس خطأ أساتذتي . تنفس ريكاردو ريس ، وهو ينزل من على الرصيف تجاه كنيسة الشهداء ، هواء بلسمياً ، عبقاً ثميناً من التقيات في الداخل ، القداس من أجل الناس الذين هم من هذه النوعية والذين ينتمون الى الدوائر العليا أتت على بدايتها ، وإذا كانت حاسة الشم دقيقة لدى المرء ، فسوف يحدد بيسر الأسر والروائح . يعرف من العطر الذي يطلقه المذبح أنه مفروش بشرابات ، بكرات مسحوق الرز ، المنتج أضاف بالتأكيد جرعة سخية من الباتشولي الى شمع شموعه ، لأن هذا المزيج عندما يخلط ويسخن ويطحن ويضاف إليه بكمية البخور الاعتيادي ، يسبب سكراً لا يقاوم في النفس ، نشوة للحواس ، الأجساد تثقل ، النظرات تبتهج الى آخر حد ، إنه الافتتان . ريكاردو ريس ، المشايع للديانات الميتة ، لا يعلم ما يخسره ، نجهل فضلاً عن ذلك ما إذا كان يفضل اليونانية أم الرومانية ، على اعتبار أنه يستدعي ،

في أشعاره ، هذه وتلك دون تمييز ، ما يهمه في نهاية المطاف ، هو أنها تتحدث عن آلهة بصورة عامة ، وليس عن إله . نزل نحو المدينة السفلى من الطريق التي نعرفها من قبل ، في هدوء أيام الآحاد الريفية ، سكان هذا الحي لا يأتون ليتفرجوا على الواجهات إلا بعد الظهر ، بعد الغداء ، إنهم ينتظرون هذه الساعة كل الأسبوع ، الأسر بكاملها ، مع الأطفال على السواعد ، أو وقوفاً على سيقانهم ، متعبين حين يقترب المساء ، أوجعت أعقابهم الأحذية الرديئة ، إنهم يطلبون إذّاك بولو دو آروز* ، إذا كان الأب طيب المزاج ، وإذا أراد عرض ازدهاره ، فسوف يوجدون جميعاً في محل حلويات ، قهوة بالحليب للجميع ، وها هو عشاء قد تم توفيره ، يقول الشعب ، من لم يأكل لأنه أكل ، غير مهدد بالمرض ، سيكون هذا غداً . سوف يتغدى ريكاردو ريس في الساعة المعتادة ، شريحة لحم ، بالشاف دو أورو هذه المرة ليمرر السكريات . ثم ، ولأن بعد الظهر يعلن عن نفسه طويلاً ، كم من ساعات بقيت قبل الليل ، اشترى بطاقة وذهب ليشاهد فيلم «نوتية الفولغا» ، وهو فيلم فرنسي بطله بيير بلانشار ، أيّ فولغا هذا الذي استطاع الفرنسيون حقاً أن يخترعوه ، السينما ، كالشعر ، فن إلهام ، مجرد انعكاس مرآة ، والمستنقع يصبح محيطاً . وفي هذه الأثناء ، تغير الطقس ، عندما خرج من السينما ، كان المطر يهدر ، من أجل ذلك أخذ سيارة تاكسي وحسناً فعل ، ذلك أنه ما كاد يصل الى بيته ، ويعلق قبعته ويخلع معطفه ، حتى سمع ضربتين على مطرقة باب الطريق ، الطابق الثاني ، هو ذاك ، تساءل ما إذا كان هذا فرناندو بيسوا الذي أتى في وضح النهار ويعلن عن نفسه ، على عكس عادته ، بصخب ، معرضاً لأن يجتذب الى النافذة جاراً يتساءل ، من

* حرفياً : حلوى الرز .

هذا ، قبل أن يرتفع عويله ، النجدة ، روح من العالم الآخر ، إلا أنه يجب معرفة أرواح هذا العالم لمعاينتها بهذه السهولة . فتح النافذة وألقى نظرة على الطريق ، كانت هذه ليديا التي فتحت مظلتها ، كانت أول القطرات تسقط ، ضخمة ، ثقيلة . ماذا جاءت تفعل هنا ، ولماذا ، قبل لحظة ، كانت الوحدة تبدو له أكثر طرائق العيش كارثية ، والآن تربكه الدخيلة ، وستربكه حتى ولو كان يستطيع أن يتصرف بها على هواه ، ليسلي جسده في شوط شبقي يهدئ أعصابه ويعطي السكينة لأفكاره . مضى حتى الدرج وسحب الحبل ، نظر الى ليديا تصعد ، عصبية وحذرة معاً ، إذا كان هناك تناقض بين الكلمتين ، فلتحله وحدها . تراجع الى المدخل في حركة ليست مفاجئة ولكنها تنم عن تحفظ يمكن للمفاجأة أن تبرره ، لم أكن أتوقعك ، سألها وهو يدخل ، هل من جديد ، وما إن أعيد إغلاق الباب ، هذا لا يصدق ، لم ير مثل هؤلاء الجيران ، مازلنا لا نعرف أسماءهم ، خطت ليديا خطوة من أجل أن يعانقها ، ونفذ رغبتها ، قائلاً لنفسه إنه يتصرف على هذا النحو كمجرد مجاملة ، ولكنه ، بعد لحظة ، شدها إليه باندفاع ، وقبلها في عنقها ، ذلك لأنه لم يكن يتوصل دائماً الى تقبيلها ديمقراطياً على فمها ، إلا عند المضاجعة ، وفي اللحظة القصوى التي يفقد فيها المرء كل سيطرة ، لا تجرؤ على أن تفعل ذلك ، بل تستسلم لرغباته ، وأكثر من ذلك أيضاً ، ولكن اليوم كلا ، جئت فقط لأرى ما إذا كنت قد تدبرت أمورك ، لأرى كيف رتب المنزل ، تعلمت هذه الكلمات في الفندق ، أرجو أن لا يكونوا قد لاحظوا غيابي . أراد أن يجرها الى الغرفة ، ولكنها أفلتت منه . ليس هذا ممكناً ، ليس هذا ممكناً ، كان صوتها يرتجف ، ولكن إرادتها كانت ثابتة ، أخيراً ، هذه طريقة في الكلام ، ذلك أن رغبتها الحقيقية كانت أن تتمدد على هذا السرير ، أن تقدم نفسها لهذا الرجل ، أن تحس برأسها على كتفه ، هذا ،

لا أكثر ، أن تلمس شعره ، ملاطفة لا تجرؤ على المضي الى ما هو أبعد منها ، وربما كانت فعلاً أجرأ مما ينبغي ، هذا ما كانت تريده ، ولكن وراء مكتب الاستقبال في فندق براغانسا سلفادور . أين ذهبت بحق الشيطان هذه الليديا ، إذن ، اجتازت المنزل كما لو كانت قد أرادت تسجيل كل ما ينقصه بنظرة خبير ، المكانس ، السطول ، المماسح ، خرق مسح الغبار ، الصابون ، الأبيض والأزرق ، صابون اللوز ، ماء جافيل ، حجر الخفان ، المنفضة ، الفرشاة ، الورق الصحي ، الرجال مهملون بقدر الأطفال ، إنهم يجرون الى أقصى العالم بحثاً عن طريق الهند والأساسي ينقصهم ، ما هو ، ولكنه لون الحياة البسيط ، نعم ، ولكن أي لون ، وما لا ينقص ، بالمقابل ، هذا البيت ، هو الغبار ، وبر القطن والخيوط ، وحتى الشعور الرمادية التي فقدتها الأجيال المتعاقبة ، التي كان بصرها يضعف ، دون أن تشعر بذلك . العناكب نفسها تهرم في شبكاتها ، الغبار يثقلها ، ذات يوم تموت الحشرة ، جسمها يجف ، قوائمها تنطوي على نفسها في قبرها الجوي على بقايا الذباب الزغبية تقريباً ، ما من شيء يفلت من قدره ، هذه هي الحقيقة الكبرى .

ليديا أعلنت أنها ستأتي يوم الجمعة ، يوم عطلتها ، من أجل تنظيف البيت ، وأنها ستجلب معها كل ما ينقص . ولكنك ، إذن ، لن تذهبي لرؤية أمك . سأخبرها ، ثم سوف نرى كيف العمل ، يمكن أن أهتف الى البقال المجاور لها ، سيخبرونها . سوف تحتاجين الى المال للمشتريات . سآخذه من مالي ، ثم سوف نتحاسب . يا لها من فكرة ، خذي مائة ايسكودوس ، يجب أن تكفي . يا يسوع ، مائة ايسكودوس ، إنها ثروة . أنتظرك ، إذن ، يوم الجمعة ، يضايقني كثيراً أن تأتي للتنظيف . هيا ، ماذا يمكن أن يفعل هذا فيّ ، لا يمكنك أن تبقى في البيت في هذه الحالة . سأقدم لك

هدية صغيرة . لا أريد هدية ، افعل كما لو كنت خادمتك . كل عمل يستحق أجراً . أجري هو لطفك ، كانت هذه الكلمة تستحق حقاً قبلة ، ريكاردو ريس قبّلها ، هذه المرة على فمها . كانت يده على قبضة الباب ، لم يعد هناك ما يضاف ، العقد ختم ، عندما أفضت ليديا فجأة بالخبر ، كانت الكلمات تتزاحم كما لو كانت لم تعد تستطيع أن توقفها أو كما لو كانت تريد التخلص منها بأسرع ما يمكن ، الآنسة مرساندا تصل غداً ، لقد هتفا من كوامبرا ، أتريد أن أقول لها أين تسكن . أجاب ريكاردو ريس بسرعة ، هو أيضاً ، كما لو كان قد تهيأ لذلك سلفاً ، كلا ، لا أريد ، افعلي كما لو كنت لا تعلمين شيئاً ، وليديا ، الساذجة المسكينة ، مضت سعيدة لكونها المستودع الوحيد للسر ، نزلت بخفة على الدرج ، وبما أن باب الطابق الأول قد فتح أخيراً ، إذ كان ينبغي حقاً في لحظة أو أخرى أن تذعن البناية للفضول ، ألقت بنظرة نحو الطابق الأعلى ، كما لو كانت تكرر اتفاق عرض خدمات ، إذن الى الجمعة يا سيدي الدكتور سآتي لتنظيف البيت ، وكانت تلك طريقة في القول للنمامة ، لا تبدئي في تخيل أشياء ، لا أعرف مائدة ولا سريراً ، وحيت بأدب شديد ، مساء الخير يا سيدتي ، لم تكد الأخرى ترد ولاحظتها بعين مرتابة ، ليست للخادمة هذه المشية المليحة والخفيفة ، إنهن دائماً كئيبات الهيئة ، يسحبن وراءهن ساقاً تصلبت من جراء الروماتيزم أو الدوالي ، نظرت نظرة باردة وجافة الى ليديا وهي تنزل ، ما هذه المتصنعة ، على المنبسط الأعلى ، كان ريكاردو ريس قد أغلق الباب ثانية ، واعياً لازدواجيته ومحاولاً تحليلها ، كلا ، لا تعطي عنواني الجديد لمرساندا ، لو كان صادقاً ووفياً لأضاف ، إنها تعرفه فعلاً ، أرسلت إليها رسالة سرية ، على عنوان البريد المركزي ، من أجل أن لا يشك أبوها في شيء . ولو كان يريد أن يمضي أبعد من ذلك أيضاً في اعترافه ، أن يفتح

قلبه ، لكان ينبغي عليه أن يقول ، من الآن فصاعداً ، سأبقى في البيت ، لن أخرج إلا لتناول الطعام ، وهذا أيضاً بسرعة كبيرة ، ناظراً الى ساعتي لأني سوف أقضي وقتي هنا ، في الليل ، في الصباح ، بعد الظهر ، طالما هي في لشبونة ، إنها لن تأتي بالتأكيد غداً ، الإثنين ، القطار يصل متأخراً ، ولكنها ربما أتت الثلاثاء أو الأربعاء أو الخميس أو الجمعة ، ليس الجمعة لأن ليديا ستكون هنا للتنظيف . وأية أهمية لذلك ، خذ الاثنتين ، لكل منهما مكانها ، الخادمة والآنسة ابنة الأسرة الراقية ، لا خطر في أن تمتزجا ، مرساندا لا تبقى أبداً طويلاً جداً في لشبونة ، إنها تأتي فقط لرؤية الطبيب ، هناك أيضاً بالتأكيد علاقات أبيها ، حسن جداً ، وأنت ، ماذا تظن أنه سيحدث إذا أتت إليك ، لا آمل شيئاً ، أرغب فقط في أن تأتي ، أتعتقد أن آنسة مثل مرساندا ، مع التربية القاسية التي تلقتها والميثاق الأخلاقي الصارم لوالدها مسجل العقود ، ستأتي وحدها لزيارة عازب ، أتعتقد أن الأمور تجري هكذا في الحياة ، ذات يوم سألتها عن السبب الذي تريد رؤيتي من أجله ، فأجابتني بأنها لا تعرف عن ذلك شيئاً ، في هذا النوع من المواقف ، هذا هو الجواب الذي يعطي أكبر الأمل ، في رأيي ، الواحدة لا تعلم ، والآخر يجهل ، تماماً كآدم وحواء في الفردوس ، إذا أردت ، أنت تبالغ ، نحن لسنا في الفردوس ، وكما تعلم ، مرساندا ليست حواء ، وأنا لست آدم ، آدم كان أكبر قليلاً من حواء ، بينهما فرق صغير ، بضع ساعات أو بضعة أيام ، لا أعلم جيداً ، كل رجل آدم ، وكل امرأة حواء ، متساوين ، مختلفين ومتكاملين ، كل واحد منا أول رجل وأول امرأة ، فريدين جميعنا ، وإذا كنت أيضاً لا أخدع نفسي ، فالمرأة مستمرة في كونها حواء أكثر من استمرار الرجل في كونه آدم ، لحسن الحظ ، أنت تتكلم على هذا النحو لأنك تستند الى خبرتك الشخصية ، كلا ، أتكلم هكذا لأنه من الأفضل

للجميع أن يكون الأمر كذلك ، رغبتك الحقيقية ، يا فرناندو ، هي في العودة الى الأصول ، اسمي ليس فرناندو ، آه .

لم يخرج ريكاردو ريس للعشاء . شرب كوباً من الشاي وأكل قطع بسكويت على طاولة غرفة الطعام الكبيرة بصحبة سبعة كراسٍ خالية ، تحت ثريا بخمسة فروع مصباحان منها محروقان ، أكل ثلاث قطع حلوى ، وبقيت واحدة في الصحن ، أعاد التعداد ورأى أنه ينقصه رقمان ، الأربعة والستة ، وجد الأربعة بسهولة في زوايا الغرفة المستطيلة الشكل ، ولكن عليه العثور على الستة ، أن ينهض ، أن يبحث هنا وهناك ، وانتهى الى إيجاد الثمانية ، الكراسي خالية ، الستة ستكون هو ، بما أنه لا يحصى ، فهو يستطيع أن يكون أي رقم . هزّ رأسه ، تمتم ، وابتسامة ساخرة وحزينة معاً على شفتيه ، أعتقد أني أصبح مجنوناً ، ثم ذهب الى غرفته ، كانت تسمع ، من الخارج ، التمتمة المستمرة للمياه ، تلك التي كانت تسقط من السماء ، وتلك التي تجري في السواقي حتى شارع بوافيستا وكوند باراو . ذهب ليأخذ من كومة الكتب غير المرتبة «إله المتاهة» ، وجلس على الكرسي الذي كان فرناندو بيسوا قد جلس عليه ، وضع غطاء فوق ركبتيه وأخذ يقرأ ، راجعاً من جديد الى الصفحة الأولى ، الجثة التي اكتشفها أول لاعب شطرنج كانت تحتل ، متصالبة الذراعين ، خانتي الملك والوزير والخانتين التاليتين ، في معسكر الخصم . تابع قراءته ، ولكنه بدأ ينعس حتى قبل أن يصل الى الموضع الذي ترك القصة عنده . رقد ، قرأ صفحتين جديدتين بصعوبة ، ونام في الفراغ بين مقطعين ، بين النقلتين السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين ، عندما كان اللاعب الآخر يفكر في مصير القلعة . لم ينهض ليطفئ المصباح المتدلي من السقف ، ولكنه كان مطفأ عندما استيقظ في أواسط الليل ، ربما كان قد نهض ليطفئ المصباح ، هذه أشياء نفعلها في شبه لاوعي ، الجسد قادر على

تجنب العقبات وحده تماماً ، وهذا ما يسمح لنا بالنوم عشية معركة أو إعدام ، وهذا ما يقتلنا عندما لا نعود نتوصل الى تحمل ضوء الحياة العنيف .

كانت السماء ماتزال في لون الرصاص ، وبما أنه قد نسي إغلاق مصراعي النافذة ، فقد كان ضوء الصباح الكئيب يملأ الغرفة . كان يمتد منظور نهار طويل ، أسبوع طويل ، ولكنه لم يكن يتمنى إلا شيئاً واحداً ، أن يبقى راقداً في دفء الأغطية ، ترك لحيته تطول ، أن يصبح نبتة ، في انتظار أن يأتي أحد ليقرع بابه . من ، أنا مرساندا ، سيهتف ، مخلوب اللب ، لحظة ، وفي لمحة بصر ، تصبح اللحية والشعر مقبولين ، تفوح منهما رائحة الحمام الطيبة ، سيكون ، وهو لابس بشكل لا غبار عليه ، مستعداً لتقبل الزيارة التي طالما انتظرها تفضلي بالدخول ، يا لها من مفاجأة لطيفة . لم يقرع بابه مرة ، بل مرتين ، بائعة الحليب أولاً ، لمعرفة ما إذا كان السيد الدكتور يريد حليبه كل صباح ، ثم الخباز ، لمعرفة ما إذا كان السيد الدكتور يريد خبزه كل صباح ، أجاب بنعم مرتين ، إذن فليدع السيد الدكتور كل مساء جرة الحليب على الممسحة ، إذن فليدع السيد الدكتور كل مساء كيس الخبز الصغير معلقاً بقبضة الباب ، ولكن من الذي قال لكما إني أسكن هنا ، السيدة في الطابق الأول ، آه ، وكيف تسديد الحساب ، ماذا سنفعل ، كما تريد ، أسبوعياً ، أو شهرياً ، أفضل أسبوعياً ، حسناً يا سيدي ، الدكتور . لم يسأل ريكاردو ريس كيف عرفا من كان ، هذا سؤال يجب عدم طرحه أبداً ، فضلاً عن ذلك ألم تناده ليديا وهي تهبط الدرج ، الجارة كانت هناك ، لقد سمعتها ، هي أيضاً . بفضل الحليب والشاي ، تناول ريكاردو ريس إفطاراً مرمماً ، كانت تنقصه الزبدة والمربى ، إلا أنه يمكن جيداً جداً الاستغناء عن هذه اللذائذ ، لو حصلت الملكة ماري أنطوانيت في زمانها على خبز كهذا لأمكنها الاستغناء عن الفطيرة . الآن ، لا ينقصه سوى

الجريدة ، ولكنها ستنتهي حقاً الى الوصول هي الأخرى . كان ريكاردو ريس في غرفته عندما سمع صوت البائع ، اطلبوا السكولو ، اطلبوا النوتيسياس ، فتح النافذة بسرعة ووصلت إليه الجريدة عن طريق الجو ، مطوية ككتاب استدعاء ، الحبر الذي مازال رطباً بسبب رداءة الطقس ، المدهن قليلاً ، كالغرافيت ، لوث أصابعه ، هذه الحمامة الزاجلة ستأتي ، من الآن فصاعداً ، كل صباح ، لتطرق على الزجاج كي يفتح لها ، يسمع صوت البائع من أول الشارع ، وإذا لم تفتح النافذة في الوقت المناسب ، كما هي الحال دائماً تقريباً ، ترتفع الجريدة وهي تدور كأسطوانة ، تضرب الزجاج ، في المرة الأولى ، ثم ترتد من جديد . ريكاردو ريس ظهر ، يفتح المصراعين ، ويستقبل الرسول الطيار الذي يحمل إليه أخبار العالم بين ذراعيه ، ينحني على النافذة ليقول ، شكراً يا سيد مانويل ، والبائع يجيب ، الى الغد يا سيدي الدكتور ، ولكن ذلك سيكون فيما بعد ، في الوقت الحاضر مازال يفاوض على الاتفاق ، الدفع سيجري شهرياً ، هذه هي العادة مع الزبائن الأوفياء ، هذا يوفر الوقت ، وهذا يجنب المضي للمطالبة بثلاثة فلوس بائسة كل يوم .

الآن ، الانتظار . يقرأ الصحف ، صحف المساء أيضاً ، في هذا اليوم الأول ، عاد لقراءة قصائده ، تأملها وصححها ، أحصى الأبيات منذ البداية ، عاد الى المتاهة وإلهها ، راقب السماء من النافذة ، سمع جارة الطابق الأول وجارة الطابق الثالث تتناقشان على السلم ، وفهم أن هذين الصوتين الحادين يتحدثان عنه ، إنه ينام ، يغفو ويصحو ، يخرج لقليل من الوقت ، ما يكفي بالضبط ليتغدى في الجوار المباشر ، في مطعم حقير في كالاريز ، يستعيد الجرائد التي قرئت سابقاً ، والقصائد التي بردت ، الفرضيات الست لنمو الضربة التاسعة والأربعين ، يمر أمام المرآة ، يعود على أعقابه ليعرف ما إذا

كان الذي أتى على المرور أمامه مازال فيها ، يقرر أن هذا الصمت دون موسيقى لم يعد يمكن أن يستمر ، إنه يجب شراء مذياع ، يستعلم إذاك عما يمكن أن يكون مناسباً ، يبحث في الإعلانات عن الماركات ، بلمون ، فيليبس ، ر . س . ا ، ستيوارت وارنر ، يأخذ ملاحظات ، يكتب سوبر مضخم ، وهو يكاد أن لا يفهم معنى سوبر ، يقع عند توقفه ، وهو الرجل الوحيد المسكين ، على إعلان يعد النساء بصدر لا غبار عليه ما بين ثلاثة وخمسة أسابيع ، إذا اتبعت الطرائق الباريسية التي تلبي الرغبات الثلاثة الأساسية ، تقوية النصف الأعلى من الجسم ، تنمية هذا النصف ، تصغيره ، نتائج تضمنها السيدة هيلين دوروا ، من شارع ميرومسنيل ، في باريس ، بالتأكيد ، حيث تطبق النساء الرائعات الطرائق التي تقوي ، تنمي وتصغر معاً . فحص ريكاردو ريس إعلانات عجائبية أخرى ، إعلانات المقوي باناساو ، خمرة فياند المغذية ، السيارة جيوت ، اكسير بارجيل للفم ، صابونة الليل الفضي ، خمرة ايفيل ، أعمال مرسيدس بلاسكو ، إعلانات سيلفا ، كتب بلاسكو ايبانيز ، فرشاة أسنان تيك ، فيرامون للآلام ، صبغة العروس للشعر ، مزيل الرائحة لما تحت الإبطين ، وعاد ، مستسلماً ، الى الأخبار التي قرأها من قبل ، ألكسندر غلازونوف ، مؤلف كتاب «ستينكا رازين» ، قد مات ، سالازار ، الدكتاتور العتيد ، دشن مطاعم المؤسسة الوطنية للفرح في العمل ، ألمانيا أعلنت أنها لن تسحب قواتها من رينانيا ، عواصف جديدة دمرت الريباتيجو ، أعلنت حالة الحرب في البرازيل واعتقال مئات الأشخاص ، كلمات هتلر هذه ، إما أن نسيطر على مصيرنا وإما أن نهلك ، أرسلت قوات عسكرية الى مقاطعة باراجوز ، حيث اكتسح ألوف من الفلاحين الملكيات الريفية ، في مجلس العموم ، بعض الخطباء أكد أنه يجب الاعتراف للرايخ بالمساواة في الحقوق ، أحداث جديدة مؤثرة في قضية

أوسيدا ، بدأ تصوير فيلم «ثورة أيار» ، وهو قصة هارب جاء الى البرتغال ليقوم بثورة ، ليست هذه ، ثورة أيار ، وحولته الى المثل العليا القومية ابنة صاحبة النزل الذي آوى إليه ، ريكاردو ريس يقرأ ثلاث مرات متوالية هذا الخبر ، على أمل تحرير صدى غير دقيق يدوي في أكثر ثنايا ذاكرته خفاء . هذا يذكرني بشيء ، ولكن القراءات الثلاث لم تجدِ شيئاً ، وكان قد انتقل فعلاً الى خبر آخر ، إضراب عام في كورونيا ، عندما تحددت التمتمة ، توضحت ، بل إن تلك لم تكن ذكرى قديمة ، إنها «المؤامرة» ، الكتاب العتيد ، ماريليا العتيدة ، قصة تحويل آخر الى القومية ومثلها العليا ، التي تجد مؤكداً في شخص النساء داعيات متحمسات ، إذا تأملنا الأدلة المتعاقبة التي أعطيت لنا ، ونتائجهن خارقة الى حد استولى ، معه ، الأدب والفن السابع عليها فعلاً ، رافعين الى الأوج ملائكة النقاء وإنكار الذات هؤلاء ، وسعيهن المتحمس وراء أرواح ذكرية ضالة أو ، وهو الأفضل أيضاً ، ضائعة ، لا شيء يقاومهن ، تكفي يد موضوعة على الكتف ، نظرة فائقة النقاء تحت دمعة معلقة ، لا حاجة لاستدعاء ، إنهن لا يستجوبن كالضابط المعاون ، بل يبقين غامضات ، لا يراقبن مثل فيكتور ولكنهم يبقين يقظات . هذه الفنون النسوية ، الكثيرة ، تتجاوز الأخرى وتضاعفها ، تلك التي تحدثنا عنها من قبل والتي تسمح بالتقوية والتنمية والتصغير ، وربما كان ، فضلاً عن ذلك ، من الأصح أن نقول إنها كلها تختصر في نهاية المطاف الى هذا ، بالمعنى الحرفي للكلمة كما بالنسبة للنتائج والحالات البعيدة ، جسارات وتجاوزات في المجاز ، دعارات تداعي الأفكار . أية رسائل نجمية وتخاطرية تبادلتها إذن النساء القديسات ، عوامل الخلاص ، الراهبات البرتغاليات ، الأخوات المريميات والتقيات ، حيثما وجدن ، في الأديرة ، أو في دور البغاء ، في القصور أو في الأكواخ ، كائنات من كنّ ، ابنة صاحبة نزل أوسيناتور ،

المختلفات تماماً عن الأخريات حسب معاييرنا الأرضية، لإنتاج عمل في تنسيق ونجاح عمل افتداء الرجل الضائع ، الذي كان ينتظر نصائحهن ، على عكس ما يؤكد المثل الشعبي ، وأخيراً ، وهي المكافأة الأسمى ، يقدمن لهم محبة الأخت ، حبهن ، أجسادهن ، وما يحظون به من زوجة مشغوفة . هذا هو السبب الذي من أجله يبقى الرجل صلباً ويخلد الأمل بالسعادة التي سوف تأتي ، إذا أتت ، شبيهة بملاك نزل من الأعالي والمذابح ، لأن كل هذا ، ولنعترف بذلك مرة واحدة والى الأبد ، ليس ، أخيراً ، سوى تجلٍ ثانوي ، فائق الثانوية ، إذا صح هذا القول ، للعبادة المريمية ، ماريليا وابنة صاحبة النزل ليستا سوى التجليين البشريين للعذراء المقدسة جداً اللذين يسهران بتقوى ويضعان أيديهما الشافية على الجراح الجسدية والمعنوية ، محدثين معجزة الصحة والتحويل السياسي ، ستكون البشرية قد خطت خطوة كبيرة الى الأمام عندما ستبدأ نساء من هذا النوع في الحكم . ابتسم ريكاردو ريس وهو يقرأ هذه البذاءات ، رؤية رجل وحيد يبتسم أمر ليس مسلياً ، خاصة عندما تكون المرأة هي التي يبتسم لها ، لحسن الحظ أن الباب بينه وبين العالم كان مغلقاً . فكر ، ومرساندا ، أية امرأة إذن ، سؤال مجانين ، مجرد تسلية لمن ليس له من يتحدث إليه ، يجب أن يعرف ما إذا كانت ستجرؤ على المجيء ، لأنه سوف ينبغي عليها ، إذاك ، حقاً أن تقول ، أرادت ذلك أم لم ترده أم لم تكن تعرف التعبير عنه بكلمات لماذا أتت ، بأي هدف ، الى هذا المكان البعيد والمغلق ، شبكة عنكبوت ضخم تنتظرها داخلها رتيلاء جريحة .

اليوم هو آخر يوم في مهلة لم يحددها أحد . نظر ريكاردو ريس الى ساعته ، لقد تجاوزت الساعة الرابعة ، النافذة مغلقة ، بضع غيمات نادرة تنزلق ، عالياً في السماء ، إذا لم تأت مرساندا فلن يكون لها حتى العذر

المريح ، غدر الطقس الرديء في هذه الأيام الأخيرة ، ليس خطئي ، كانت السماء تمطر قليلاً ، كيف كان يمكن أن أخرج من الفندق ، وفضلاً عن ذلك ، وحتى لو كان أبي غائباً ، مشغولاً بغرامياته دون شك ، فلم يكن ليفوت سلفادور المدير أن يسأل ، أتريد الآنسة مرساندا الخروج في هذا المطر . نظر ريكاردو ريس مرة ، عشر مرات الى الساعة ، بلغت الساعة الرابعة والنصف ، ومرساندا لم تأت ، إنها لن تأتي ، أظلم المنزل ، اختفت قطع الأثاث في الظلمة المرتعشة ، الآن نعم ، تفهم عذاب اداماستور . ولأنه كان من شأن معاناته المزيد أن تكون قاسية ، رنت ضربتان على مطرقة الباب في الدقيقة الأخيرة . وكما لو أن هزة أرضية قد هزت الأساسات ، بدت البناية ترتجف من أعلى الى أدنى . ريكاردو ريس لم يركض الى النافذة ، فقد كان يجهل ، إذن من سيدخل عندما توجه نحو الدرج ليسحب الحبل ، ولكنه سمع جارته الأعلى تفتح بابها وتقول ، أوه عفواً ، كنت أظن أن بابي هو الذي طرق ، لازمة معروفة ، تتناقلها وتتوارثها أجيال الجارات المتربصات دائماً بحياة الآخرين ، يكفي تعديل المصطلحات تعديلاً خفيفاً ، فإذا حل الجرس محل المطرقة يقال قرع بدلاً من طرق ، ولكن الأكذوبة تبقى نفسها . إنها مرساندا . نظر إليها تصعد وهو منحنٍ على الدرابزين . في أول مجموعة من الدرجات ، ألقت نظرة نحو الأعلى لتتأكد من أن الشخص الذي أتت لرؤيته موجود حقاً هناك ، ابتسمت ، وهو أيضاً ، لهذه الابتسامات هدف ، فهي ليست مكرسة للمرآة ، هذا هو كل الفرق . تراجع ريكاردو ريس نحو الباب ، صعدت مرساندا الدرجات الأخيرة ، في هذه اللحظة فقط ، فطن الى أنه لم يشعل ضوء الدرج ، إنه سوف يستقبلها في نصف الظلمة ، وبينما كان يتردد ، أيشعل أم لا يشعل ، فاجأ نفسه يفكر في شيء مختلف تماماً ، كيف جرى أن بدت لي ابتسامتها ، مرئية من

أعلى ، في هذا الإشراق ، ماذا سأقول لها عندما ستصبح أمامي ، لا أستطيع طبعاً أن أقول ، أن أسألها ، كيف حالك ، ولا أن أهتف بغباء ، يومك سعيد يا زهرتي ، وأستطيع أقل من ذلك أيضاً أن أنتحب رومنطيقياً ، لم أعد أتوقعك بعد ، كنت يائساً ، لماذا تأخرت الى هذا الحد ، إنها تدخل ، أنا أغلق الباب ، لم يكن أحدنا قد قال شيئاً بعد . أمسك ريكاردو ريس بيدها اليمنى ، ليس ليضغط عليها ، بل ليرشدها في هذه المتاهة المنزلية ، نحو الغرفة ، كلا ، سيكون هذا غير لائق ، نحو غرفة الطعام ، سيكون ذلك مضحكاً ، على أي كرسيين سيجلسان ، وكيف ، جنباً الى جنب ، أم متقابلين في جهتي الطاولة الشاسعة ، وكم سيكونان ، هو الذي لا يحصى ، وهي التي ليست بالتأكيد فريدة ، فليكن المكتب ، هي في مقعد ، وأنا في الآخر ، دخلا ، أشعلت كل الأضواء أخيراً ، ضوء السقف ، ضوء المكتب ، نظرت مرساندا حولها ، الى قطع الأثاث الثقيلة ، الى الرفين ببضعة الكتب فوقهما ، في النشافة الخضراء ، قال ريكاردو ريس إذاك ، سوف أقبلك ، لم تجب ، وبحركة بطيئة أمسكت يدها اليمنى بمرفقها الأيسر ، ماذا يعني ذلك ، أهو احتجاج ، طلب هدنة ، استسلام ، هذه الذراع المتصالبة أمام جسدها حاجز ، وربما كان رفضاً ، تقدم ريكاردو ريس خطوة ، لم تتحرك ، ثم أخرى ، لامسها تقريباً ، عند ذلك تركت مرساندا مرفقها ، وتركته يأخذ يدها اليمنى ، التي أصبحت فجأة ميتة كالأخرى ، ما كان حياً فيها كان يتأرجح إذاك بين قلبها الذي يطرق وركبتيها اللتين ترتجفان ، رأت وجه الرجل يقترب ببطء ، تكونت شهقة بكاء في حنجرتها ، في حنجرة ريكاردو ريس ، التقت شفاههما ، فكرت ، هذه قبلة ، ولكنها ليست سوى البداية ، ضغط فمه على فمها ، انفرجت شفتاه ، الانفتاح هو قدر الجسد ، ضمتها ذراعا ريكاردو ريس الآن عند قامتها وكتفيها ، جذبتاها ، ثديها مضغوط ،

للمرة الأولى ، على صدر رجل ، فهمت أن القبلة لم تنته ، ولم يكن فضلاً عن ذلك ، يمكن ، في هذه اللحظة ، تصورها منتهية ذات يوم ، وتصور العالم يعود الى بدايته ، الى الجهل الأصلي ، فهمت أيضاً أن عليها شيئاً تفعله أفضل من ترك ذراعيها يتمايلان ، صعدت يدها اليمنى حتى كتف ريكاردو ريس ، اليسرى ميتة ، ربما كانت نائمة ، فهي إذن تحلم ، وتتذكر ، وهي تحلم ، الحركات التي كانت تقوم بها سابقاً ، اختارت ، ربطت ، بدأت تلك التي تسمح لها من بينها ، في الحلم ، بأن ترتفع حتى اليد الأخرى ، تشابكت أصابعها ، تصالبت وراء نقرة الرجل ، إنها غير مدينة بشيء لريكاردو ريس ، ردت على القبلة بقبلة ، على ملامسة اليدين بملامسة يدين ، كنت أفكر في ذلك عندما قررت المجيء ، كنت أفكر في ذلك عندما خرجت من الفندق ، كنت أفكر في ذلك وأنا أصعد الدرج ، وعندما رأيتك منحنياً على الدرابزين ، سوف يقبلني ، تركت اليد اليمنى الكتف ، انزلقت منهكة ، اليسرى لم توجد قط هناك ، إنها اللحظة التي يجري فيها الجسم حركة انسحاب . بلغت القبلة هذا الحد الذي لم تعد فيه ، من قبل ، تستطيع الاكتفاء بنفسها ، لننفصل قبل أن يجبرنا التوتر المتراكم على الانتقال الى المرحلة التالية ، الى انفجار قبلات أخرى مستعجلة ، قصيرة ، لاهثة ، عندما لم يعد الفم يكتفي بالفم ، مع العودة إليه باستمرار ، من له خبرة بالقبلات يعلم أن الأمر هو هكذا ، ولكن مرساندا لا تملك هذه الخبرة ، إنها المرة الأولى التي يعانقها ، فيها ، رجل ويقبلها ، ومع ذلك فهي تحس بجسدها كاملاً ، داخل جلدها وخارجه ، تفهم أنه كلما طالت القبلة ، زاد توجب تكرارها بنهم ، في تصاعد دون نضوب ممكن ، أو أنه سينبغي عليها ، إذاك ، أن تجد شيئاً آخر ، شهقة البكاء هذه في الحنجرة التي لا تصعد ولا تنتهي ، مثلاً ، أو صوتها المحتضر الذي يتمتم ، دعني ، وتضيف مدفوعة

بما لا ندريه من هاجس ، ربما كان الخوف من أن تكون قد جرحته ، دعني أجلس . قادها ريكاردو ريس نحو الأريكة ، سندها ، دون أن يعرف ماذا سيفعل بعد ذلك ، ماذا سيقول ، ما إذا كان سيدلي لها بتصريح حب ، ما إذا كان سيطلب منها المغفرة فقط ، ما إذا كان سيجثو عند قدميها ليفعل هذا أو ذاك ، أو ما إذا كان سيحتفظ بالصمت في انتظار أن تتكلم ، بدا له كل شيء زائفاً ، غير صادق ، كان فعله الصادق الوحيد هو قوله لها ، سأقبلك ، وقيامه بذلك . جلست مرساندا ويدها اليسرى في حجرها ، مرئية جيداً كما لو كانت تشهدها ، جلس ريكاردو ريس بدوره ، نظرا الى بعضهما ، أدركا في جسديهما ما يشبه تمتمة بوق ، قالت مرساندا أخيراً ، ربما لم يكن يجب أن أقول لك ذلك ، ولكني كنت آمل في أن تقبلني ، مال ريكاردو ريس نحوها ، أمسك بيدها اليمنى ، وحملها الى شفتيه ، وتكلم أخيراً ، لا أدري ما إذا كنت قد قبلتك عن حب أم عن يأس ، أجابت ، لم يقبلني أحد قط ، وكذلك لا أستطيع التمييز بين اليأس والحب . ولكنك تعلمين على الأقل ما شعرت به . أحسست بهذه القبلة كما يجب أن يحس البحر الموجة ، إذا كانت هذه الكلمات تشير الى شعور ما ، أو بالأحرى ، هذا ما أحسه حالياً ، ليس ما أحسست به منذ قليل . انتظرتك طيلة هذه الأيام ، متسائلاً عما سوف يجري إذا جئت ، ولم أتخيل دقيقة أن الأشياء يمكن أن تجري هكذا ، عند دخولي الى هذه الغرفة فهمت أن الحركة المعقولة الوحيدة هي أن أقبلك ، وعندما قلت لك ، منذ لحظة ، إني لم أكن أعلم ما إذا كنت قد قبلتك عن حب أم عن يأس ، إذا كنت قد عرفت إذ ذاك ما كان يعنيه هذا ، فإنني لم أعد أعرفه . هل تريد أن تقول إنك في نهاية المطاف لست يائساً وإنك لا تحبني . أعتقد أن كل رجل يحب المرأة التي أتى على تقبيلها ، حتى لو كان ذلك عن يأس . أية أسباب لديك من أجل أن

تكون يائساً . سبب واحد هو هذا الفراغ . رجل يستطيع استعمال يديه الاثنتين ويشكو . ولكني لا أرثي لنفسي ، أقول فقط إنه يجب أن يكون الرجل يائساً تماماً ليقول لامرأة ، كما قلت لك ، سأقبلك . ربما قلته عن حب . عن حب ، كان من شأني أن أقبلك ، لم أكن لأبدأ بقول ذلك ، إذن فأنت لا تحبني . أنت تروقين لي . أنت أيضاً تروق لي . ومع ذلك ، فليس هذا هو السبب الذي قبلنا بعضنا من أجله ، كلا ، فعلاً . ماذا سنفعل الآن ، بعد ما جرى . أنا جالسة هنا ، في بيتك ، أمام رجل تحدثت إليه ثلاث مرات في حياتي ، أتيت لأراك ، لأتحدث إليك ، وكي أقبل ، لا أريد أن أفكر في الباقي . سأحضر لك كوباً من الشاي ، لدي بعض قطع البسكويت . سوف أساعدك ، ثم سأذهب ، يمكن أن يعود أبي الى الفندق ويسأل . اجلسي مرتاحة . إنني مرتاحة جداً هكذا .

شربا الشاي في المطبخ ، ثم طاف بها ريكاردو ريس غرف البيت من العتبة ، ما كادا أن يلقيا نظرة في الغرفة ، ثم عادا الى المكتب . سألت مرساندا ، هل بدأت تعطي استشارات . ليس بعد ربما سأحاول في عيادة ، حتى ولو كان ذلك لبعض الوقت ، من أجل أن أعيد التكيف . ستكون البداية . هذا ما نحتاج إليه جميعاً ، بداية . هل ضايقك البوليس من جديد ، كلا ، وهم لا يعلمون الآن أين أسكن . لو أرادوا ذلك ، فسوف يعرفون بسرعة . وذراعك . ذراعي ، يكفي أن تنظر إليها . كففت عن الإيمان بشفاء ممكن ، أما بالنسبة لأبي . أبوك . أبي يفكر في أنه يجب أن أذهب الى فاطمة ، قال إن الإيمان يستطيع أن يفعل المعجزات ، وإنه كانت هناك معجزات غيرها . عندما يؤمن المرء بالمعجزات ، لا يعود هناك شيء ينتظر من الأمل . اعتقد بالأحرى أن غرامياته دامت أكثر مما ينبغي وتقترب من نهايتها . قولي لي ، يا مرساندا ، بماذا تؤمنين . في هذه اللحظة . نعم . في

هذه اللحظة ، لا أؤمن إلا بالقبلة التي أعطيتني إياها . نستطيع أن نعود من جديد . كلا . لماذا . لأني لست واثقة من الشعور بالشيء نفسه ، والآن ، أنا ذاهبة ، نرحل غداً . صحبها ريكاردو ريس ، مدت له يدها . أكتب إلي ، سأجيبك . الى اللقاء بعد شهر . إذا كان أبي مايزال يريد ذلك . إذا لم يأتِ ، سأذهب الى كوامبرا . دعني أذهب ، يا ريكاردو ، قبل أن أكون أنا التي تطلب منك أن تقبلني . أبقي ، يا مرساندا . كلا . نزلت على الدرج بسرعة ، دون نظرة الى الوراء . صفق الباب الخارجي . عندما دخل ريكاردو ريس الى البيت ، سمع خطوات ، فوق رأسه ، ثم نافذة تفتح ، جارة الطابق الثالث تريد أن تتوضح لها الأمور . سوف نرى حالاً ، من طريقتها في المشي ، أية امرأة زارت المستأجر الجديد ، إذا كان ردفاها يتماوجان ، فسوف نعرف جلية الأمر ، إما أن أكون مخطئة كثيراً ، وإما أن الناس لم يعودوا يحترمون شيئاً ، في بناية بهذا الهدوء ، بهذا الاحتشام .

حوار وحكم ، أمس كان الأول ، واليوم الثاني ، قالت جارة الطابق الثالث ، امرأة أمس فاتتني ، ولكنني رأيت وصول امرأة اليوم ، جاءت للتنظيف ، قالت جارة الطابق الأول ، ليس فيها شيء من خادمة للتنظيف . أنت على حق في هذا ، تبدو بالأحرى خادمة من مستوى عال ، ومع ذلك فهي تحمل رزماً ، صابوناً باللوز ، عرفته من رائحته ، ومكانس ، كنت على الدرج أنفض المسّاحة ، عندما دخلت . امرأة الأمس كانت فتية جداً ، كانت تعتمر قبعة جميلة كالتي نراها الآن ، ولم تبق طويلاً ، ما رأيك في كل هذا ، أيتها الجارة . بصراحة ، لا أعلم شيئاً ، لقد نقل من حوالي ثمانية أيام واستقبل ، منذ الآن ، امرأتين . هذه تأتي للتنظيف ، هذا طبيعي ، الرجل الوحيد يحتاج الى من يهتم بمنزله ، لابد أن الأخرى قريبة له ، يجب أن تكون له قريبة . ولكن الأمر مع ذلك غريب ، هل لاحظت ، أنه لم يتحرك طيلة الأسبوع ، كان يخرج للغداء فقط ، أما باقي الوقت فهو ملازم لبيته دائماً . أتعلمين ، أنه دكتور . هذا شيء عرفته حالاً ، الأحد ، عندما جاءت الخادمة ، نادته بدكتور . أهو ، في رأيك ، طبيب أم محام . لا أعلم عن ذلك شيئاً ، يا جارة ، ولكن لا تهتمي ، فمنذ أن أذهب لدفع الأجرة ، سأسأل

الوكيل ، أثناء مروري ، يجب حقاً أن يكون عالماً بذلك . سوف تقولين لي ما الأمر ، من المفيد دائماً أن يكون هناك طبيب في البيت ، من يعلم . إلا أنه ينبغي أن نستطيع الوثوق به أولاً . أنا ، سأحاول أن أقول كلمتين للخادمة ، من أجل أن تنظف درجه كل أسبوع ، يجب أن يبقى الدرج نظيفاً . ذلك أنه لا ينبغي أن تتخيل أنها ستجعل منا خادمات لها . لم يعد ينقص إلا هذا ، سوف تجد من يكلمها ، هذه الكلمات الأخيرة من جارة الطابق الثالث ختمت الحوار والحكم . يجب أيضاً أن نشير الى مشهد صامت ، عندما عادت للصعود الى بيتها ، بخطوات محسوبة ، لا يكاد خفاها اللباديان يمسان الدرجات ، توقفت عند باب ريكاردو ريس ، ألصقت أذنها على المصراع لتصغي الى صوت الماء الذي كان يسيل ، والى صوت الخادمة التي كانت تدندن بصوت منخفض تماماً .

أمضت ليديا يوماً شاقاً . ارتدت البلوزة التي كانت قد أحضرتها ، وعقدت شعرها وغطته بشال ، وبدأت العمل ، بفرح ، مشمرة كميها ومتملصة من حركات أيدي ريكاردو ريس الذي رأى ، خطأ ، وعن نقص في التجربة ، أنه يجب أن يتصرف هكذا ، في حين أن كل ما كانت تريده هذه المرأة ، الآن ، هو أن تنظف ، وتغسل ، وتكنس ، ولديها خبرة كبيرة الى حد لا يكلفها ، معه ، هذا الجهد شيئاً ، من أجل ذلك كانت تغني بصوت منخفض ، من أجل أن لا تصدم الجارات ، إنه يوم عملها الأول لدى الدكتور ، هذه الخادمة تسمح لنفسها بحريات كثيرة . عندما حانت ساعة الغداء ، لاحظ ريكاردو ريس الذي كان قد طرد ، طيلة الصباح ، على التوالي ، من الغرفة الى المكتب ، ومن المكتب نحو الصالة ، ومن الصالة نحو المطبخ ، ومن المطبخ نحو غرفة المهملات ، ومن غرفة المهملات الى الحمام ، وتوجب عليه أن يهجر هذا الملجأ الأخير ، ليعيد مساره في الطريق

المعاكس ، وذلك ليس دون بعض التسللات القصيرة الى الغرف الخالية ، لاحظ أن ساعة الغداء كانت تقترب وأنه ليس لدى ليديا ، بشكل قاهر ، النية في أن تقطع عملها . قال لها ، بشيء من الارتباك في الصوت كان يفضح ضيقه ، أتعلمين ، لا شيء يؤكل في البيت ، ولو لم تكن هذه الكلمات قد شوهت فكره ، أو ، بالأحرى ، لو لم تكن أقنعة كوميديا ، لكان يمكن أن تفسر العبارة بصورة أخرى ، على هذا النحو احتمالاً ، سأمضي لأتغدى ، ولكني لا أستطيع أن آخذك الى مطعم ، فهذا سيسيء الى سمعتي ، ماذا ستفعلين ، وكان من شأنها أن تجيبه بما تقوله الآن ، ليس لليديا على الأقل وجهان ، اذهب لتتغدى ، اذهب ، جلبت معي قدراً صغيراً من الحساء ويخنة من الفندق ، سوف أسخنهما ثم ، وأنا أقول هذا دون أن أريد إغضابك ، لا تستعجل في العودة ، وهكذا لن يضايق أحدنا الآخر ، وضحكت وهي تقول هذا ، ومسحت العرق عن وجهها بظاهر يدها اليسرى ، ممسكة باليمنى بالشال الذي كان ينزلق . قال ريكاردو ريس الذي لامس كتفها ، إذن الى اللقاء ، في منتصف الدرج ، سمع بابي الطابقين الأول والثالث يفتحان ، جاءت الجارتان معاً لتقولا لليديا ، إيه أيتها الصغيرة ، لا تنسي تنظيف درج معلمك ، ولكنهما ، إذ لمحتا الدكتور ، أدخلتا رأسيهما بسرعة ، عندما سيصل الى أعلى الشارع ، ستنزل جارة الطابق الثالث الى الأول ، وسوف تتهامسان . أوه لا لا ، يا للشيء المخيف ، كلا ، ولكننا لم نرَ قط شيئاً كهذا ، يخرج ويترك الخادمة وحدها في البيت ، هذه علاقة ثقة لا تصدق . ربما كانت تعمل في خدمته من قبل . ربما أيتها الجارة ، ربما ، لا أقول العكس ، الرجال لا يساوون شيئاً ، إنهم يفيدون من كل شيء . أخيراً ، ولكنه مع ذلك دكتور . أتعلمين ، أيتها الجارة ، إذا كان هذا واقعاً ، فهو دكتور مثلي ، الرجال لا يصلحون إلا للذي لا يفهم شيئاً ، الأمر مايزال مقبولاً

مع زوجي ، ومع زوجي أيضاً . الى اللقاء يا جارة ، لا تدعي العصفور يطير ، اطمئنني ، لن تذهب قبل أن تصل الرسالة . إلا أنه لم تكن هناك أية حاجة لرسالة . فعند منتصف ما بعد الظهيرة ، خرجت ليديا ، مسلحة بمكنسة ، ومجرود ، وسطل ، وصابون ، وممسحة ، وفرشاة ، فتحت جارة الطابق الثالث بابها بهدوء لتراقبها ، كان الدرج يدوي بالضربات على خشب الدرجات بالفرشاة الثقيلة ، الممسحة تعتصر الماء القذر وتعصر في السطل ، بدّل الماء ثلاث مرات ، من أعلى البناية الى أسفلها ، كانت تشم رائحة صابون اللوز الطيبة ، لا شيء يقال ، هذه الخادمة تعرف مهنتها ، جارة الطابق الأول اعترفت بذلك صراحة عندما جاءت لتستعلم ، وبذريعة إدخال ممسحة الأقدام ، في اللحظة التي كانت ليديا تعود فيها الى المنبسط أمام الباب . حسناً أيتها الصغيرة ، هو ذا درج تبهج رؤيته ، إنه لحظ أن يأتي ليسكن هنا شخص مدقق في الطابق الثاني . السيد الدكتور يريد أن يكون كل شيء نظيفاً ، إنه شديد المطالب . هو ذا ما يخلق الرغبة في العمل . نعم إذن . هاتان الكلمات لم تتلفظ بهما ليديا ، بل جارة الطابق الثالث ، المنحنية فوق الدرابزين ، وكانت هناك شهوة وحسية في طريقتهما في النظر الى الخشب الرطب ، في استنشاق رائحة الخشب النظيف ، أخوة نسائية تماماً ، أعمال منزلية ، غفران متبادل سيدوم أقل من عمر الورود . حيت ليديا ، وحملت السطل ، والفرشاة والممسحة والصابون الى داخل الشقة ، أغلقت الباب ، وغمغمت ، يا لهما من مدعيتين ، كلا ، ولكن من تظنان نفسيهما ، لتأتيا لمراقبتي بهذه الطريقة . انتهى عملها ، كل شيء نظيف ، يمكن لريكاردو ريس أن يمرر إصبعه على قطع الأثاث ، أن ينظر في كل الزوايا ، كما تفعل ربات المنازل المتصنعات ، عند ذلك فقط ، أحست ليديا بحزن كبير ، بيأس ، يستوليان عليها ، ليس هذا تعباً ، كلا ، إن الأمر هو ،

حتى ولو لم تكن تعرف كيف تعبر عنه في كلمات ، أنها قد فهمت أن دورها قد انتهى ، أنه لم يبق لها سوى أن تنتظر عودة رب المنزل ، الذي سيقول لها كلمة لطيفة ، يشكرها ، يحاول أن يكافىء جهدها وعنايتها ، في حين تصغي إليه مبتسمة ، شاردة ، تقبل نقوده أو لا تقبلها ، ثم ستعود الى الفندق ، بل إنها لم تذهب ، اليوم ، لرؤية أمها لتحصل على أخبار أخيها ، لا تأسف على ذلك ، الأمر كما لو أن ليس لها شيء . نزعت الثوب ، ارتدت من جديد قميصها وتنورتها ، برد العرق على جسدها . جلست على أحد مقاعد المطبخ ، شبكت يديها ، وانتظرت . خطوات على السلم ، مفتاح في القفل ، إنه ريكاردو ريس الذي سيتقدم في الممشى قائلاً ، بمرح ، يخيل الى المرء أنه يدخل الى فردوس الملائكة . نهضت ليديا ، ابتسمت ، فخورة ، سعيدة فجأة ، منفعلة لأنه يتقدم ممدود اليدين ، مفتوح الذراعين . لا تلمسني ، كلي عرق ، أنا ذاهبة حالاً . لا تفكري في هذا ، مازال الوقت مبكراً ، ستشربين كوباً من القهوة ، لقد أتيت لك بباستيس دوناتا* ، ولكن اذهبي أولاً واستحمي كي تنتعشي ، آخذ حماماً عندك ، أنت لا تقصد ذلك ، لم يرَ أبداً شيء كهذا ، حسناً سوف نراه ، افعلي ما أقوله لك . لم تعد تحتج . كانت عاجزة حقاً عن ذلك ، على الرغم من اللياقات ، هذه اللحظة هي إحدى أفضل لحظات حياتها ، إسالة المياه الساخنة ، تعريها دون عجلة ، الدخول في حوض الحمام ، الإحساس بأطرافها المتعبة في عذوبة الحمام المشهية ، ثم فرك جسدها ، الساقين ، الفخذين ، الذراعين ، الثديين ، بالصابون والإسفنجة ، مع علمها بأن رجلاً ينتظر في الجانب الآخر من الباب ، ماذا يفعل ، إنها تخمن ما يفكر فيه ، إذا دخل الى هنا ورآني عارية ، يا للعار ،

* نوع من الفطائر المستديرة .

هل هو الخجل ، إذن ، هو الذي يجعل قلبها يخفق بمزيد من السرية ، أم أنه القلق ، خرجت الآن من الماء ، كل الأجساد جميلة عندما تخرج من الماء الذي يقطر منها ، هكذا فكر ريكاردو ريس الذي أتى على فتح الباب ، ليديا عارية ، غطت صدرها وعضوها بيديها وقالت ، لا تنظر إلي ، هذه هي المرة الأولى التي ترى نفسها فيها أمامه هكذا ، اذهب ، دعني أرتدي ملابسي ، قالت هذا بصوت منخفض ، قلق ، ابتسم ، عن حنان ، عن رغبة ، عن خبث أيضاً وقال ، لا ترتدي ملابسك ، جففي نفسك فقط ، وقدم لها المنشفة الكبيرة مفتوحة لف بها جسمها ، ثم خرج ، توجه الى الغرفة حيث خلع ثيابه ، كانت الشراشف قد بدلت ، كانت تبدو جديدة ، عند ذلك دخلت ليديا إذاك ، وهي مازالت تمسك بالمنشفة مشدودة إليها ، كوزرة ، لتختبئ ، تركتها تنزلق الى الأرض وهي تقترب من السرير ، وظهرت أخيراً عارية بشجاعة ، في يوم كهذا ، لا يبرد المرء ، جسدها يحترق ، في الداخل والخارج ، جاء دور ريكاردو ريس ، اقترب منها كطفل ، للمرة الأولى ، بعد هذا الوقت الطويل ، كلاهما عاريان ، انتهى الربيع أخيراً الى الوصول ، طال انتظاره ، ولكن ربما كان هذا يستحق المشقة . في الطابق الواقع تحت طابقه ، الجارة التي تسلقت منضدتي مطبخ عاليتين وضعتهما فوق بعضهما ، متحدية خطر السقوط وانخلاع الكتف ، تحاول أن تفسر ضجات مبهمة ، شبيهة بمكبة من الأصوات تجتاز السقف ، ووجهها محتقن من الفضول والإثارة ، وعيناها تشع برذيلة مضغوطة ، هكذا تعيش وتموت كل هؤلاء النساء ، سوف ترون أن الدكتور وهذه البنت ، ولكن ربما تكون تقلب الفرش وتنفضها ، وهي مهمة مشرفة تماماً ، أخيراً لنا حق مشروع في الشك بذلك . بعد نصف ساعة ، عندما خرجت ليديا ، ولم تجرؤ جارة الطابق الأول على فتح الباب ، للوقاحة على الرغم من لكل شيء حدود ، اكتفت بأن ترقب

من فرجة الباب ، كسنورة بعيني صقر ، الصورة الهاربة التي كانت تمر ، هوائية ، تحمل رائحة الرجل كدرع ، هذا هو الأثر الذي يتركه فينا الآخر .
في الأعلى ، كان ريكاردو يغمض عينيه ، في سريره ، مازال يستطيع في هذه اللحظة أن يضيف الى متعة الجسد الراضي متعة ألطف وأكثر انفلاتاً ، متعة الوحدة التي بدأت تقلب حتى المكان الذي كانت تشغله ليديا ، رائحة غريبة ، عادية ، لحيوان طريف ، ليست رائحتها ولا رائحته ، بل الرائحتان ممتزجتين ، لا كلمة فوق ذلك ، هذه المسألة ليست من شأننا .

الصباح يفتتح النهار ، والإثنين يفتتح الأسبوع . ريكاردو ريس الذي استفاق مبكراً ، كتب رسالة الى مرساندا رسالة طويلة جداً ، فكر فيها كثيراً ، ماذا يكتب فعلاً لامرأة قبلها المرء دون أن يحدثها قبلاً عن الحب ، الاعتذارات ستهينها ، لاسيما وأنها ، كما يقال ، تلقت هذه القبلة وردتها بحرارة ، وإذا كان لم يدل إليها بأي قسم ، ولا قال لها أحبك في اللحظة التي كان يقبلها فيها ، فلماذا بحق الشيطان الآن ، تحت تهديد أن لا يصدّق ، اللاتينيون أكدوا من قبل أن الأفعال التي تبقى أفضل من الأقوال التي تطير ، فلنحتفظ ببعضها للعمل ، وبالأخرى للمجون ، وأكثر من ذلك أيضاً ، إذا استعملناها بمعناها الأول ، ثم ، قبل أن نبدأ في انتزاع غلافها الأول ، المخرب ، الضعيف ، الهش ، فلنستعمل منها ما لا يعد ولا يقتضي ، تلك التي لا توحي بشيء وتغطي مؤخراتنا ، التي هي هنا لتموه استسلاماتنا الأخيرة ، هذه الشذرات التافهة من الجمل التي لا تورطنا أبداً ، فلنستمتع باللحظة ، فلنكن احتفاليين وخفيفين في الفرح الذي تعيد إليه الخضرة الأوراق المبعوثة حية ، أحس أن من هو أنا ومن كنته حلمان مختلفان ، السنوات قصيرة ، الحياة وجيزة ، ولكن الأمر يستحق العناء ، إذا لم يكن لدينا سوى الذكريات ، فالأفضل أن يكون لدينا الكثير منها ، وذاكرتي لم

تحتفظ بغير ذكراك ، فلنكن ما نحن عليه ، لم يعط لنا أكثر من ذلك ، هكذا تنهي رسالة ، كانت كتابتها تبدو صعبة ، وجاءت بيسر ، يكفي أن لا نهتم أكثر مما ينبغي بما نقوله ، أن لا نفكر أكثر مما ينبغي فيما نكتبه ، الباقي سيتوقف على الجواب . خلال بعد الظهر ، أخذ ريكاردو ريس ، كما وعد نفسه ، بالبحث عن وظيفة ، ساعتان في اليوم ، ثلاث مرات في الأسبوع ، أو حتى مرة واحدة ، المهم أن لا ينسى معلوماته ، لا يهم إن كانت النافذة تطل على باحة خلفية ، أو إذا كانت الغرفة صغيرة ، مغلقة ، مليئة بقطع الأثاث القديمة ، مع أريكة بدائية خلف الحاجز للفحوص ، ومصباح فوق المكتب لملاحظة شحوب المريض بصورة أفضل ، ومبصقة على الأرض عند أقدام المصابين بنزلة صدرية ، والشهادة تحت الزجاج والتقويم لتذكيرنا بأن أيامنا معدودة . بدأ بالأحياء البعيدة ، الكانتارا ، بامبولا ، لأنه كان قد سلك هذا الطريق يوم وصوله ، سائلاً ما إذا كانت هناك وظائف شاغرة ، تحدث مع أطباء لم يكن يعرفهم ولم يكونوا يعرفونه بدورهم ، شاعراً بأنه مضحك في كل مرة كان يقول فيها ، أيها الزميل العزيز ، وبالخجل عندما كان الآخرون يفعلون ذلك ، هنا ، توجد وظيفة حقاً ، ولكنها مؤقتة ، الزميل متغيب ، نأمل في أن يعود خلال هذا الأسبوع . لا وجود لمكان واحد ، من كونديه باراو الى الروسيو ، البرتغال لا ينقصها أطباء ، وهذا لحسن الحظ ، ذلك أن المصابين بالزهري وحدهم بلغوا ستمائة ألف فعلاً ، أما بالنسبة الى وفيات الأطفال ، فالأمر أخطر أيضاً ، فمن بين كل ألف طفل ، يموت مائة وخمسون ، تصوروا الكارثة لو لم يكن هناك أطباء جيدون . يجب أن نعتقد ، أن نؤمن بأن القدر يتدخل ، ذلك أن ريكاردو ريس ، بعد أن بحث باستماتة وبعيداً جداً ، وجد منذ الأربعاء ما يمكن أن نسميه مربط فرس ، على بعد خطوة ، عملياً ، من

بابه ، في كامويس ، ولم يتوقف الحظ هنا ، على اعتبار أنه وجد نفسه في مكتب تطل نافذته على الميدان ، صحيح أنه لم يكن يرى إلا ظهر دارتانيان ، ولكن التنقلات مضمونة ، والرسائل مؤمنة ، والدال على ذلك هو هذه الحمامة التي أخذت تطير دفعة واحدة حتى رأس الشاعر لتسر له ، بخبثها الحمامي ، أن هناك ، خلفك ، منافساً ، ذهناً مكرساً مثل ذهنك لربات الشعر ، ولكن ذراعه لا تصلح إلا لمعالجة الحقن ، حصل لدى ريكاردو ريس الانطباع بأن لويس دو كامويس هز بكتفيه ، لم يكن ذلك إلا العدل . لم يكن الأمر يدور حول وظيفة ثابتة ، بل حول الحلول محل زميل اختصاصي في القلب والرئتين والذي انهار ، على وجه الدقة ، قلبه ، وحتى لو كان التشخيص مطمئناً ، فإن أمامه مع ذلك ثلاثة أشهر . لم يكن ريكاردو ريس بارعاً جداً في مثل هذه الاختصاصات النبيلة ، فلنتذكر أنه سبق له أن أشار الى عدم كفاية معارفه حيال المسائل القلبية لمرساندا ، القدر حرفي ظريف . فأمكن إذن أن نرى الاختصاصي الجديد يركض في الشوارع بحثاً عن كتب حديثة مكرسة لإنعاش ذاكرته وتوجيهه في شؤون تطور المعالجة الحديثة والوقائية . ذهب لزيارة الزميل المريض ، طمأنه الى أنه سيفعل كل ما كان في وسعه ليشرّف ممارسة ومواهب من كان مايزال ، ولوقت طويل ، صاحب المهمة في العيادة الطبية الشهيرة ، ولن يفوتني أن آتي لاستشارتك في أخطر الحالات ، من أجل الإفادة من معارفك الواسعة وخبرتك ، وإفادة المرضى منها . الزميل قدر هذه الثناءات التي وجدها أحياناً في غير موضعها ، ووعد بالتعاون ، بكل صراحة ووفاء ، ثم انتقلا الى تسوية حسابات التأجير الطبي الثانوي ، نسبة مئوية لإدارة العيادة ، مبلغ ثابت لأجر الممرضة التي لا يستغنى عنها ، نسبة مئوية أخرى للمواد والنفقات الجارية ، مبلغ ثابت للزميل المصاب في قلبه حالياً ، مريضاً كان أم

في صحة جيدة ، لم يكن ريكاردو ريس مهدداً بالاغتناء مع ما يبقى له ، لا أهمية لذلك ، فالليرات البرازيلية لم تنضب بعد ، بل كانت عكس ذلك تماماً . زادت المدينة طبيباً . وبما أنه ليس لديه شيء آخر يفعله ، فقد كان يذهب بمواظبة ثلاث مرات في الأسبوع الى عيادته ، أيام الإثنين والأربعاء والجمعة ، لينتظر الزبائن الذين كانوا في البدء لا يأتون ، ليعمل بحيث يحافظ عليهم فيما بعد ، وأخيراً ، وعند انقضاء طور التكيف المثير ، تربع في الروتين الهادئ للرئة الكهفية ، والقلب المريض ، باحثاً في الكتب عن أدوية لما لا يمكن إصلاحه ، ومن وقت الى آخر ، كان يهتف لزميله ، عندما قال له ، سأتي لاستشارتك في الحالات الصعبة ، كانت تلك كلمات في الهواء ، مجرد خطة ، كل منا يحضر لموته بعمل ما يستطيعه في حياته ، وهذا عمل جيد ، دون أن ننسى أنه سيكون من سقم الذوق أن نسأل ، حسناً أيها الزميل ، ما رأيك ، في رأيي إن قلب هذا المريض معلق بخيط ، هل ترى مخرجاً آخر خلاف المخرج الطبيعي نحو العالم الآخر ، سيكون هذا مثل الحديث عن حبل في بيت مشنوق ، وهذا قول مأثور يظهر للمرة الثانية .

لم تكن مرساندا قد ردت بعد . سبق أن كتب ريكاردو ريس رسالة ثانية يحدثها ، فيها ، عن حياته الجديدة ، طبيب ممارس أخيراً ، اختصاصي بالوكالة ، أقدم استشارات في عيادة طبية في ميدان كامويس ، على مسافة خطوتين من فندقك ومنزلي ، ليشبونة ببيوتها ذات الواجهات المتعددة الألوان تبدو مدينة صغيرة . وأحس ريكاردو ريس كأنه يكتب لشخص لم يره قط ، شخص يعيش ، إذا وجد ، في مكان مجهول ، وإن كان يعلم أن هذا المكان واقعي حقاً ، بل وله اسم ، كوامبرا ، وأنه رآه هو نفسه بعينيه ، في عصر آخر ، فذلك لأن دماغه يقول له هذا ، كما كان

يمكن أن يقول له شيئاً آخر ، هذا الشيء مثلاً ، وهو دون شك على القدر نفسه من العبث ، السماء تولد في الغرب ، سوف يمكن أن ننظر بقدر ما نشاء في هذا الاتجاه ، فلن نرى فيه ولادة الشمس ، ستراها تموت فيه ، والأمر هو نفسه بالنسبة لكوامبرا والذين يعيشون فيها . إذا كان صحيحاً أنه قبل تلك التي يتصور اليوم أنه لم يرها قط ، فإن الذكرى التي مازال يحتفظ بها لهذه القبلة تتلاشى تحت كثافة الأيام ، الكتب القادرة على إنعاش هذه الذاكرة لا توجد في المكتبات ، ما يباع فيها صالح فقط للإصابات القلبية والرئوية ، وهي غير كافية أيضاً ، أليست العادة أن يقال إنه ليس هناك أمراض بل مرضى ، وهو ، كي نشرح قولنا ، ما يعني أنه ليست هناك قبلات بل أشخاص ، ليديا تأتي ، بالطبع ، كل مرة تكون فيها حرة ، وبموجب كل القرائن الخارجية والداخلية ، فإن ليديا شخص ، ولكننا تكلمنا عن تحفظات ريكاردو ريس ومستبقاته الى درجة تكفي لنعرف أنه إذا كان ينبغي أن يكون هناك شخص ، فلا يمكن لليديا أن تكون هذا الشخص .

تحسن الطقس ، ولكن العالم تفاقم . بموجب التقويم ، الربيع قد جاء ، ظهرت أزهار وأوراق جديدة فعلاً على أغصان الأشجار ، ولكن الشتاء مازال يتجلى من وقت الى آخر ، وتنهمر أمطار شلالية لتحمل معها الأوراق والأزهار ، ثم تعود الشمس ، التي تنسي المحصول المفقود ، والثور الغارق الذي ينحدر مع التيار منتفخاً ومتعفناً ، والبيت التعس الذي لم تقاوم جدرانه ، والفيضان المفاجئ الذي جر رجلين الى مجاري المدينة المظلمة بين الأقذار والجرذان الضخمة ، يجب أن يكون الموت مجرد حركة انسحاب ، هذه الحركة من ممثل الدرجة الثانية الذي يغادر المسرح دون أن يكون قد تلفظ بالكلمة الأخيرة ، ليس هذا دوره ، والذي أصبح بلا فائدة فاختفى .

ولكن العالم واسع ، ويعرف أحداثاً أكثر دراماتيكية بكثير ، من أجل ذلك فإن الانتحابات التي يجري تداولها من فم الى أذن حول اللحم الذي أتى على النقصان لدينا ليس لها في نظره أية أهمية ، وهذا ليس النوع من الأخبار الذي سيعلن على الجمهور . أما في الخارج ، فليس للآخرين ، بالمقابل ، التواضع البرتغالي ، أنظروا الى الانتخابات في ألمانيا ، في برونشفيك ، تجول فريق دراجات القوميين ـ الاشتراكيين بثور عبر الشوارع يحمل لافتة كان يمكن أن يقرأ عليها ، هذا لا يقترع ، إنه ثور . لو كان هذا قد جرى عندنا ، لكانوا جروه أولاً لينتخب ، ثم التهموه بعد ذلك كلياً ، الشرائح ، الظهر ، الكرش ، بل لكانوا صنعوا حساء بذيله . ولكن الألمان شعب آخر ، بالتأكيد . هنا ، الناس يصفقون ، يهرعون الى المسيرات ، يحيون على الطريقة الرومانية ، يحلمون بمدنيين بأزياء رسمية ، ولكننا لسنا ، على مسرح العالم الكبير ، حتى ممثلين من الدرجة الثالثة ، دور الكومبارس ، هذا ما يناسبنا ، من أجل ذلك ، فإننا ، عندما نذهب الى الشارع لنمد أذرعتنا نحو الشبيبة التي تسير ، لا نعرف أين نضع أقدامنا ، أين نضع أيدينا ، والطفل البريء بين ذراعي أمه ، الذي يظن أنه من المسموح به أن يمزح مع حميتنا الوطنية ، يشد على راشدنا ، أسهل الراشدين على الإمساك به ، لا سبيل الى أن يكون للمرء الهيئة الرسمية والمقتنعة مع شعب كهذا ، يستحيل أن يقدم حياته على مذبح الوطن ، يجب أن نقتدي بالألمان ، رأيتم الطريقة التي يهتفون بها لهتلر في ولهلم بلاتز ، العاطفة التي يتضرعون بها إليه ، نريد أن نرى الفوهرر ، كن لطيفاً أيها الفوهرر ، تعال أيها الفوهرر ، هكذا يصرخون بأعلى أصواتهم ، العجائز الصغيرات ذوات الشعور البيضاء يدمعن حناناً ، النساء الخصبات يرتعشن ، خافقات الرحم والثدي ، الرجال ينفخون عضلاتهم وإرادتهم ،

والجميع يزأرون ، الى أن يظهر الفوهرر على النافذة ، قاطعاً السدود الأخيرة ، متعرق الوجه ، عند ذلك يسود الهذيان ، لا يعود الجمهور سوى صرخة ، هايل ، هذا شيء جميل ، ما الذي لا أعطيه لأكون ألمانياً . ربما لا يكون من الضروري أن يرنو المرء الى هذه الدرجة العالية ، أليس الإيطاليون في طريقهم الى كسب حربهم ، ليس هذا الشيء نفسه بالتأكيد ، ولكنهم مع ذلك أغاروا على هاراري ، منذ بضعة أيام ، طائراتهم نجحت في الوصول الى هناك ، لتحول كل شيء الى رماد ، إذا كانوا ، وهم يقومون على التارانتيل والسيريناد ، قد استطاعوا النجاح في هذا ، فربما لم تعد الفادو والفيرا عقبتين ، ما تنقص هي الفرصة ، الإمبراطورية ، لدينا واحدة ، وليست أية إمبراطورية ، إنها كبيرة الى حد يكفي لتغطية كل أوروبا ، بل وأكثر منها ، لا نستطيع مع ذلك أن نمضي لغزو الأقاليم المجاورة ، ولو كان هذا لاستعادة أوليفنسا* ، الى أين ستقودنا هذه الضروب من الجرأة ، فلنهتم بالأحرى بما يجري لدينا ، حيث لا نتوقف عن أن نستقبل ، في البيت أو في الفندق ، إسبانيين أثرياء يهربون من الاضطرابات ، هذه هي حقاً الضيافة البرتغالية الأسطورية ، إذا نجح الآخرون في الهرب يوماً ، فسوف نعيد تسليمهم الى السلطات ، هي التي عليها أن تحسم ، يجب احترام القانون ، ومع ذلك فلدينا ، نحن البرتغاليين ، ظمأ كبير الى الاستشهاد ، الى التضحية ، جوع ملتهم الى إنكار الذات ، في ذلك اليوم أيضاً ، أحد هؤلاء السادة الذين يحكموننا صرح قائلاً ، أية امرأة تلد ابناً لن تستطيع أن تربيه لمصير أعلى وأنبل من المصير الذي يقوم على الموت في سبيل بلاده مدافعاً عن وطنه ، انظروا إليه ، ابن

* أوليفنسا في استرامادور ، موقع قديم تنازعت عليه طويلاً البرتغال وإسبانيا التي ضمته إليها عام ١٨٠١ .

العاهرة ، يزور دور الولادة ، يجس بطون النساء الحوامل ، يسألهن متى سيلدن ، لأنه قد بدأ ينقصنا جنود للخنادق التي ليست ، وسنعرف ذلك قريباً حقاً ، دون شك ، مشاريع مستقبلية . وبما أن هذه الأمثلة القليلة قد سمحت لنا بأن نتبين أن العالم لا يمضي الى ما هو أحسن ، فهذا ، الآن ، الكالازامورا يخلع من رئاسة الجمهورية ، وتنتشر شائعة انقلاب عسكري في إسبانيا ، وإذا تأكدت ، فإن أياماً حزينة تعلن عن نفسها لكثير من الناس . وبالطبع ، فليست هذه الأسباب هي نفسها التي يهاجر الناس من أجلها هنا طبعاً . لا أهمية للوطن والعالم ، ما نريده ، هو موضع يمكن أن نأكل فيه ونكسب شيئاً من المال ، سواء أكان ذلك في البرازيل التي هاجر إليها ستمائة شخص في آذار ، أم في الولايات المتحدة الأمريكية التي رحل نحوها تسعة وخمسون شخصاً ، أم أيضاً في الأرجنتين التي زاد المهاجرون فيها خمسة وستين شخصاً ، الى باقي أنحاء العالم هاجر إثنان فقط ، ولم يهاجر الى فرنسا أحد ، هذا البلد ليس مصنوعاً من أجل الفلاحين البرتغاليين ، إنها حضارة أخرى .

بما أننا دخلنا في أوج فترة الفصح ، فقد أمرت الحكومة بتوزيعات عامة في كل البلد ، فجمعت هكذا بين الذكرى المسيحية لآلام سيدنا وانتصاراته والتسكين المؤقت للمعدات الموجعة . الفقراء يصطفون أمام أبواب اللجان الأبرشية ولجان الإحسان ، وليس بصبر شديد دائماً ، عيد كبير متوقع ، منذ الآن ، في نهاية أيار ، على أرض الجوكي ـ كلوب ، لمصلحة ضحايا فيضانات ريباتيجو ، هؤلاء المساكين الذين ابتلت قعور سراويلهم منذ شهور ، يرعى اللجنة أفضل ما يمكن إيجاده في المجتمع الراقي ، نساء ورجال هم زهرة أمتنا ، لمجرد قراءة أسمائهم ، يمكن فعلاً التساؤل عمن سيكون الأكثر بريقاً في الصفات الأخلاقية وفي الثروة ، ما ير

أولريش ، بيريستريلو ، لافراديو ، ايستاريجا ، دون ولورينا ، انفانتي دو كامارا ، التوسياريم ، موزينو دو البوكيرك ، روك دو بينوء، كوستا ماسيدو ، بينا ، بومبال ، سيابرا وكونا ، سيكون سكان ريباتيجو محظوظين جداً إذا استطاعوا الصمود حتى ذلك الحين . لا يمنع ذلك أن للسلطات ، حتى عندما تكون في كمال سلطاتنا ، في امتيازها الكبير ، مسائل نظر ، كثيراً من الاجتهاد في الدراسة دون شك ، أكثر مما ينبغي من السهر واليقظة ، إنها تعيش على مرتفعات لا تميز معها جيداً إلا ما هو بعيد ، ولا تتبين أن الخلاص يوجد في أغلب الأحيان ، إذا أمكن قول ذلك ، في متناول اليد ، أو أيضاً في إعلانات الصحف ، لاسيما في ذاك الذي ليس لها أي عذر في تركه يفلت منها ، على اعتبار أنه يمثل سيدة ممددة ترتدي تنورة داخلية بحمالتين هابطتين تكشف حتى النصف عن صدر رائع يدين دون شك بالكثير لمعالجات السيدة هيلين دوروا ، على الرغم من أن المخلوقة اللذيذة شاحبة قليلاً ، يرقانية قليلاً جداً ، ولكن ذلك ليس كافياً مع ذلك من أجل أن يكون مرضها مميتاً ، فلنثق بالطبيب الجالس جانب سريرها ، أصلع بلحية رفيعة يقول لها ، بلهجة لوم محترمة ، نرى جيداً أنك لا تعرفينه ، لو أنك تناولت منه ، لما كنت في هذه الحالة ، ويمد إليها خلسة حنجور بوفريل . لو كانت الحكومة تنتبه أكثر بقليل الى الصحف ، التي تعمل على التدقيق فيها جميعها كل صباح وكل مساء ، لكان أمكنها أن تتبين أن مسألة الجوع البرتغالي ، حاداً كان أم مزمناً ، سهلة الحل ، الحل هنا ، بوفريل ، حنجور بوفريل لكل برتغالي ، جرة سعتها خمسة ليترات للأسر الكبيرة العدد ، طبق وحيد ، منّ وترياق عام ، لو أخذنا منه باكراً في البرهة المناسبة ، يادونا كلوتيلد ، لكان لدينا شيء آخر غير الجلد والعظام .

تابع ريكاردو ريس الاستعلام ، أخذ علماً بهذه الوصفات المفيدة ، إنه ليس مثل الحكومة البرتغالية التي تثابر على فقئها لعيونها على ما بين السطور والإضرابات ، مفضلة الشك على المؤكد . عندما يكون الصباح لطيفاً ، يغادر المنزل ، الكئيب قليلاً ، رغم عناية ليديا وهمتها ، ويمضي لقراءة الصحف ، جالساً في الشمس في ظل أداماستور الحامي ، ويجب حقاً أن نعترف بأن لويس دو كامويس قد بالغ كثيراً ، هذا الوجه المكشر ، هذه اللحية البشعة ، هاتان العينان الغائرتان في محجريهما ، هذا الموقف الذي ليس مخيفاً ولا شريراً ، تحمل علامة عذاب حب ، العملاق المخيف ، المشغول بعذابه ، يسخر الى آخر حد بمعرفة ما إذا كانت السفن البرتغالية قد اجتازت الرأس أم لم تجتزه . يتذكر ريكاردو ريس ، وهو يتأمل النهر المتألق ، أبياتاً من رباعية برتغالية قديمة ، من نافذة غرفتي ، أرى سمكة البوري تقفز ، ومضات الموج هذه مثل سمكات قفازة ، سكرى بالنور ، أجسادها تقطر ماء ، تخرج بحيوية أو ببطء من الماء ، كلها رائعة ، سواء أكانت في متناول اليد ، كجسد ليديا في ذلك اليوم ، أم بعيدة عنا كهذه السمكات غير المرئية . على مقعد آخر ، العجوزان يتناقشان ، منتظرين أن ينتهي ريكاردو ريس من قراءة الجريدة ، إنه يتركها عامة وهو راحل ، وهما يخرجان من البيت كل يوم على أمل أن يأتي السيد الى الحديقة ، الحياة منجم لا ينضب من المفاجآت ، يعتقد المرء أنه وصل الى عمر لم يعد لديه فيه ما يفعله سوى النظر من ألتودو سانتا ماريا الى السفن وهي تمر ، وها هو يجد نفسه وقد منح جريدة ، عدة أيام متوالية أحياناً ، كل شيء يتوقف على الطقس . رأى ريكاردو ريس ذات يوم قلق العجوزين ، بل رأى أحدهما يقوم بركضة قصيرة ، مرتجفة ، وغير واثقة نحو المقعد الذي كان جالساً عليه ، وجه إليه بضع كلمات ، وقدم له ، بإحسان ، الجريدة التي قبلها الآخر

بالتأكيد ، وليس ذلك دون شيء من الضغينة ، إنهما مدينان له الآن . يتلقى ريكاردو ريس المستند براحة الى المقعد ، متصالب الساقين ، وعلى جفونه نصف المغلقة حرارة الشمس الخفيفة ، أخبار العالم الواسع ، مراكماً على هذا النحو العلم والمعرفة ، موسوليني صرح بأن التدمير الكلي للقوات العسكرية الأثيوبية لا يمكن أن يتأخر ، أرسلت أسلحة سوفياتية الى البرتغاليين اللاجئين الى إسبانيا ، فوق الأموال والأعتدة المكرسة لتحقيق اتحاد الجمهوريتين الايبيريتين السوفياتيتين المستقلتين ، حسب تصريحات كومبرالس ، من شأن الله أن يكون قد بنى البرتغال من أجيال عديدة من القديسين والأبطال ، مسيرة الشمال التعاونية كانت تضم أربعة آلاف وخمسمائة عامل ، أي ألفي عامل من المستودعات ، وألف وستمائة وخمسين عامل براميل ، ومائتي عامل من عمال تعبئة الزجاجات ، وأربعمائة عامل منجم من ساو بيدرو دو كوفا ، وأربعمائة عامل تعليب من ماتوسينوس ، وخمسمائة عضو من نقابات ليشبونة ، سفينة الدرجة الأولى أفونسو دو البوكيرك التي تتوجه الى ديكسويس حيث سيجري عيد عمالي ستتوقف هنا ، عُلم أيضاً أن التوقيت سيُقدم ساعة ، وأن هناك إضراباً عاماً في مدريد ، وأن جريدة «الجريمة» ستصدر في ذلك اليوم نفسه ، وأن وحش بحيرة لوش نيس الشهير ظهر مرة أخرى ، وأن أعضاء الحكومة ذهبوا الى بورتو ليحضروا توزيعاً لأرزاق على ثلاثة آلاف ومائتي فقير ، وأن أوتورينو ريسبيغي ، مؤلف «ينابيع روما» قد مات ، في العالم لحسن الحظ ما يرضي كل الأذواق ، هكذا فكر ريكاردو ريس الذي يملك ، ككل واحد ، تفضيلاته ولا يقرأ كل الجريدة باهتمام متساو ، إلا أنه ينبغي عليه حقاً ، لأنه لا يستطيع أن يختار كل الأخبار ، أن يقبل ما تقدمه . الأمر مختلف تماماً مع هذا العجوز الأمريكي الذي يتلقى كل صباح نسخة من نيويورك تايمس ،

جريدته المفضلة التي يقدر تحريرها عالياً جداً قارئها القديم ، الذي بلغ عمر السابعة والتسعين الجميل ، وتهتم بصحته الركيكة وبحقه في نهاية هادئة الى حد تهيئ له ، معه ، كل صباح ، طبعة خاصة بنسخة وحيدة ، مزيفة من أحد طرفيها الى طرفها الآخر ، مع أخبار جيدة حصراً ، ومقالات متفائلة ، من أجل أن لا يكون على العجوز المسكين أن يعاني من هذا العالم الرهيب الذي يهدد بأن يتفاقم وضعه ، من أجل ذلك ، تشرح الجريدة وتبرهن على أن الأزمة الاقتصادية في حالة ركود ، إنه لم يعد هناك عملياً عاطلون عن العمل ، وأن الشيوعية الروسية تتطور نحو الأسلوب الأمريكي ، إذ اقتنع البلاشفة أخيراً بالفضائل الأمريكية . هذه هي الأخبار الممتازة التي تقرأ لجون د . روكفلر على الفطور ، وفيما بعد ، حين طرد سكرتيره ، سوف تستمر عيناه المتعبتان اللتان لم تعودا تميزان بعيداً جداً ، في تذوقها ، هذه الفقرات الصافية تلذ له ، التناغم يسود العالم أخيراً ، هناك حقاً بضعة حروب ، ولكنها وحدها اللازمة للأرباح ، أرباح الأسهم متينة ، المعدلات مضمونة ، عندما تحين الساعة ، سيموت كشخص عادل ، وتستطيع نيويورك تايمس أن تستمر في أن تطبع له كل صباح السعادة ذات النسخة الوحيدة . إنه الوحيد في العالم الذي يتمتع بسعادة شخصية ولا يمكن أن تنقل الى أحد ، الآخرون يجب أن يكتفوا بالبقايا ، ريكاردو ريس ، المفتون بما أتى على معرفته ، وضع على مهل الجريدة البرتغالية على ركبتيه ، وحاول أن يتخيل جون د . روكفلر العجوز فاتحاً بيديه المرتعشتين والعظميتين الأوراق السحرية ، غير مرتاب لحظة فيما تعلنه له ، في حين أن العالم بأسره يعلم ، من قبل ، أنهم يكذبون عليه ، وكالات الأنباء تتبادل برقياً ، من قارة الى أخرى ، الخبر الذي سرعان ما يصل الى تحرير نيويورك تايمس التي أمرت بالصمت عنه ، انتبهوا ، يجب ، بأي ثمن ، أن لا يظهر في جريدة جون د .

روكفلر ، مخدوع البيت ، الذي سيكون آخر من يعلم ، رجل غني وقوي مثله يدع نفسه يخدع على هذا النحو ، وبصورة مزدوجة فوق ذلك ، ذلك أن الأمر لا يقتصر على كوننا نعلم أن ما يخيل إليه معرفته خاطئ ، بل إنه يجهل أيضاً أننا نعرف ذلك . يتظاهر العجوزان بالاهتمام بمحادثتهما ، ويحاكمان بوقار ، مع تحويل أنظارهما جانباً ، أنهما ينتظران جريدة نيويورك تايمس الخاصة بهما ، فطورهما قطعة خبز جافة مع قهوة شعير ، ولكن الأخبار السيئة لن تنقصهما ، الآن وقد صار لهم جار على ما يكفي من الغنى ليترك وراءه الجرائد على المقعد .

نهض ريكاردو ريس ، أشار الى العجوزين اللذين هتفا ، آه ، شكراً جزيلاً ، سيدي الدكتور ، تقدم الضخم مبتسماً ، رفع الجريدة المطوية ، كما لو أنها جديدة على طبق من فضة ، هذا هو ما يعنيه أن يكون للمرء يدا طبيب ، يد طبيب ، يد سيدة ، وعاد ليجلس الى جانب النحيل ، لن يبدآ بالصفحة الأولى ، بل سيستعلمان قبل كل شيء عن ضروب الفوضى ، والاعتداءات ، والحوادث ، والوفيات ، والجرائم من كل نوع ، وخاصة ، يا للرعشات ، يا للرعب ، موت لويس أوسيدا الذي لا تفسير له ، والقصة الشنيعة ، قصة هذا الطفل الشهيد القاطن في أسكارينا داس أولارياس ، رقم ثمانية ، الطابق الأرضي .

لاحظ ريكاردو ريس وهو داخل الى بيته على ممسحة الأقدام مغلفاً ذا لون بنفسجي خفيف ، دون اسم المرسل عليه ، لا ضرورة لذلك ، لأن بقعة الختم السوداء على الطابع تدع للمرء أن يخمن عليها كلمة كوامبرا ، وفضلاً عن ذلك ، فلو كان لسبب غامض قد قرأ فيزو أوكاستيلو برانكو ، فلم يكن ذلك ليغير شيئاً كثيراً ، فاسم المدينة التي أتت هذه الرسالة منها هو مرساندا ، والباقي ليس سوى سوء تفاهم جغرافي ، مجرد خطأ . مرساندا

تأخرت في الرد ، فسوف ينقضي قريباً شهر على إقامته هنا ، في هذا المنزل الذي ، حسب تعابيرها الخاصة ، كان حيث قبلت لأول مرة ، ومع ذلك ، فإن هذا الاضطراب العميق ، هذا التهيج في الحواس ، في أكثر أليافها حميمية ، لم يدفعها ، حال وصولها الى بيتها ، لكتابة سطرين كانت ستخفي بهما مشاعرها بعناية ، وحيث ربما خانتها كلمتان أقرب مما ينبغي الى بعضهما ، في البرهة التي لا تعود فيها اليد المرتعشة تستطيع احترام المسافات ، تتأخر الى هذا الحد ، وتكتب الآن ، لتقول ماذا ، وضع الرسالة على طاولة الليل فوق «إله المتاهة» ، وكان يود أن يدعها هناك ، تحت ضوء المصباح الضعيف ، كان قد وصل الآن ، متعباً من سماعه ، احتمالاً ، أكثر مما ينبغي من اللهاثات ، من أنفاس متكسرة صادرة من رئات برتغالية سلية ، أو منهكاً من اجتيازه الساحة المحددة في قلب المدينة ، الساحة نفسها دائماً ، التي قد يستطيع اجتيازها معصوب العينين ، مثل بغل يدير ناعورته ، وعلى الرغم من هذا ، أو بسببه ، يشعر ، في بعض البرهات ، بدوار الزمن ، بتذبذب الهندسات المهددة ، بعجينة الأرض الدبقة ، برخاوة الحجارة . ومع ذلك ، فإذا لم يفتح الرسالة الآن ، فربما لن يفتحها أبداً ، وإذا سئل فسوف يكذب ، لم تصلني ، يحتمل أن تكون قد ضاعت خلال الرحلة الطويلة بين كوامبرا وليشبونة ، أو أنها سقطت من حقيبة الرسول ، عندما كان ينفخ في بوقه وهو يجتاز السهل مسرعاً على حصانه ، ستقول مرساندا ، المغلف كان بنفسجياً ، لا توجد رسائل كثيرة من هذا اللون . آه ، إذا لم تقع وسط زهور كان يمكن أن تختلط معها ، فربما وجدها أحدهم ، وسوف يرسلها لتتابع طريقها ، يوجد أناس شرفاء ، غير قادرين على الاحتفاظ بما لا يخصهم ، مهما يكن ، إنها لم تصل بعد ، ربما فتحها أحدهم وقرأها ، لم تكن موجهة له ، ولكنه حدث أن الكلمات التي كانت فيها هي ، بالضبط ، الكلمات التي

كان يحتاج إلى سماعها ، إنه يتجول دون شك مع الرسالة في جيبه ويقرؤها من وقت الى آخر لمتعته ، ستقول مرساندا ، كان هذا ليدهشني كثيراً ، فالرسالة لا تحتوي على شيء من هذا . ويرد ريكاردو ريس ، هذا حقاً ما كان يبدو لي ، ولذلك استغرقت وقتاً لفتحها . جلس على حافة السرير ليقرأها ، صديقي ، تلقيت رسائلك التي سرتني كثيراً ، خاصة الثانية ، حيث تقول لي إنك بدأت تعطي استشارات ، الأولى راقت لي أيضاً ، ولكني لم أفهم كل الذي كنت تتحدث عنه ، أو أني خفت من فهمه ، لا أود أن أبدو جاحدة ، عاملتني دائماً باحترام واعتبار ، أتساءل فقط عما يعنيه ذلك ، أي مستقبل هو ذاك الذي يمكن أن يكون موضع بحث ، لا أقول لنا ، بل لي أنا ، لا أعلم ماذا تريد أنت ولا ماذا أريد أنا ، دون أن يكون لدي كثير من الخبرة ، فسأكون قد حصلت ، على الأقل ، على خبرة اللحظة المتميزة ، يجب أن لا تكون الحياة كاملة مصنوعة إلا من لحظات كهذه ، ولكن الحياة ليست هذا ، الحياة ، هي ذراعي اليسرى الميتة ، والتي ستبقى كذلك ، السنتان هما اللتان تفصلان بيننا ، إحداهما جاءت متأخرة ، والأخرى أتت مبكرة ، لم يكن أمراً يستحق العناء أن تجتاز كل هذه المسافة من البرازيل حتى هنا ، المسافة لا تغير شيئاً ، الزمن لا يمكن أن يردم ، إلا أني أود أن أحتفظ بصداقتك ، سيكون ذلك أثمن ما أملكه ، ما فائدة الرغبة في المزيد . مرّ ريكاردو ريس بيده على عينيه ، وتابع ، سأذهب قريباً الى ليشبونة كالعادة ، سآتي لأراك في عيادتك ، سنتحدث قليلا ، لا أريد أن أستغل وقتك ، وفضلاً عن ذلك ، فربما لن أعود ، لم يعد أبي راغباً في ذلك ، فقد شجاعته ، وهو يسلم بأنه ربما لن يحدث شفاء ممكن ، أعتقد أنه صادق ، ليست له أدنى حاجة الى هذا المبرر ليأتي الى ليشبونة حين يرغب في ذلك ، هوايته الجديدة ، هي الذهاب للحج في فاطمة ، في أيار ، إنه مؤمن ، ولست

أنا كذلك ، ولكن إيمانه ربما كان كافياً وحده في عيني الله . وانتهت الرسالة ببضع كلمات مودة ، الى اللقاء يا صديقي ، سأبعث إليك بإشارة منذ وصولي ، لو كانت الرسالة قد ضاعت في الطريق ، وسط الحقول المزهرة ، لو كانت الريح قد كنستها كتويجة كبيرة ذابلة ، لاستطاع ريكاردو ريس في هذه اللحظة ، وهو مستند الى وسادته ، أن يدع خياله يسرح ، ماذا تقول ، ما الذي لا تقوله ، وأن يخترع لنفسه أجمل الأشياء الممكنة ، ألسنا نتصرف هكذا دائماً حين نشعر بحاجة الى ذلك . أغمض عينيه ، وقال لنفسه ، أريد أن أنام ، وألح بصوت منخفض كما لو كان يسعى الى تنويم نفسه مغناطيسياً ، هيا ، نم ، نم ، نم ، كان مايزال يحتفظ بالرسالة بين أصابعه المخدرة ، ولكنه تركها تقع ليجعل الحيلة التي تسمح له بإيهام نفسه أقرب الى التصديق ، إنه ينام الآن ، سدت تجعيدة قلقة جبينه علامة على أنه لم يكن نائماً حقاً ، ارتعشت أجفانه ، لا أهمية لذلك ، لا شيء من هذا بحقيقي . التقط الرسالة الواقعة ، وضعها في المغلف ، وخبأها بين الكتب ، يجب أن لا ينسى البحث عن مكان أكثر أمناً ، في ذات يوم ، يمكن لليديا أن تقع عليها وهي تنظف البيت ، وعند ذلك ، ليس لديها بالتأكيد ما تقوله ، إنها تأتي الى هنا لأنها ترغب في ذلك ، وليس لأني أطلبه منها ، ولكن آمل أن تستمر ، ماذا يريد هذا الرجل الجاحد أخيراً ، إن امرأة قد دخلت بكامل رضاها سريره ، موفرة عليه بذلك عناء الركض في الطرقات مهدداً بالتقاط مرض ، هناك محظوظون حقاً ، وها هو يجد وسيلة للشكوى لأنه لم يتلقَّ رسالة حب من مرساندا ، على الرغم من أنه يعرف أن كل رسائل الحب مضحكة ، هذا على الأقل ما يكتبه المرء قبل أن يكون الموت على السلم ، عندما يبدو واضحاً فجأة أن ما هو مضحك حقاً هو أن لا يكون المرء قد تلقى رسالة حب أبداً . قال ريكاردو ريس أمام مرآة الخزانة التي كانت تعكسه من

رأسه الى قدميه ، أنت على حق ، لم أتلق رسالة كانت رسالة حب حصراً ، ولا كتبت كذلك مثلها مطلقاً ، حتى ولا نصف واحدة ، مكتوبة بأحد أنصافي ، عندما أكتب ، تراقبني الكائنات التي لا تحصى التي تسكنني ، عند ذلك تسقط يدي ، لا حراك فيها ، ولا أعود أستطيع الكتابة . أخذ محفظته السوداء ، المهنية ، وتوجه الى مكتبه ، جلس أمام طاولته ، وسجل ، خلال نصف ساعة ، على جزازات التاريخ العيادي لبضعة مرضى جدد ، ثم ذهب ليغسل يديه ، فركهما مطولاً ، كما لو كان قد أتى على جس أحدهم أو على تحليل بصقات ، وهو ينظر الى نفسه في المرآة ، فكر ، أبدو متعباً . عاد الى غرفته ، فتح فرجة في مصراعي نافذته . قالت ليديا إنها ستأتي بستائر في المرة القادمة التي ستجيء فيها ، سيكون ذلك مفيداً جداً ، الغرفة مكشوفة أكثر مما ينبغي . هبط الليل . بعد بضع دقائق ، خرج ريكاردو ريس للعشاء .

لو حدث ذات يوم فضول لدى أحدهم للتحقيق في تصرفات ريكاردو ريس على المائدة ، ليعرف ما إذا كان يرتشف حساءه بصوت مرتفع أو يغير مكان أطباقه ، ما إذا كان يمسح فمه قبل الشرب أو يلوث كأسه ، إذا كان يسرف في استعمال نكاشات الأسنان ، يفك أزرار صدريته في نهاية الوجبة ويعيد التدقيق نقطة نقطة في حسابه ، فإن الخدم الغاليسيين ـ البرتغاليين سيجيبونه على وجه الاحتمال بأنهم لم يلاحظوا شيئاً خاصاً ، هناك من كل شيء ، كما تعلم ، ومع الزمن لا نعود ننتبه أبداً ، كل يأكل كما تعلم ، إلا أن الفكرة التي بقيت لنا عنه ، هي فكرة شخص حسن التربية ، كان يدخل ، ويقول دائماً طاب يومكم أو مساء الخير ، وكان يعلن على الفور ماذا يريد أن يأكل ، ثم لم نكن نعود نسمعه ، كما لو كان لم يعد هناك ، كان يأكل وحيداً دائماً ، إلا أنه كانت لديه عادة ، ما هي ، عندما كنا نريد سحب

الطبق الآخر ، الذي كان أمامه على الطاولة ، كان يوقفنا ، قائلاً لنا إن الطاولة كانت ألطف هكذا ، بل إنه حدث مرة شيء ما بينما كنت أخدمه ، أي شيء ، عندما سكبت له الخمر ، ملأت له ، خطأ ، كأسين ، كأسه وكأس الشخص الآخر الذي لم يكن هنا ، لا أعلم إذا ما كنت تفهمني ، أفهمك ، أفهمك جيداً ، ثم ، قال إن ذلك جيد جداً هكذا ، ومنذ ذلك اليوم ، كانت الكأس الأخرى مليئة دائماً ، وكان يشربها دفعة واحدة في نهاية الوجبة ، بل كان يغمض عينيه ليشربها ، هذا طريف ، وهل يفعل مثل ذلك في المطاعم الأخرى التي كان يذهب إليها . آه ، هذا ، لا أعلم ، يجب سؤال الآخرين ، هل تذكر أنك رأيته يوماً مع صديق ، أو مع أحد المعارف ، بل أحد جالس على مائدة أخرى ، أبداً ، كان كما لو أنه أتى على الوصول من بلد أجنبي ، مثلي أنا حين أتيت من كسنكيرا دو أمبيا ، لا أعلم إذا كنت تفهمني ، أفهم جيداً جداً ، كلنا مررنا بهذا ، أتريد شيئاً آخر يا سيدي ، يجب أن أذهب لخدمة هذا الزبون في الزاوية . اذهب ، اذهب ، شكراً على المعلومات . انتهى ريكاردو ريس من شرب قهوته التي تركها تبرد ، وطلب الحساب . أثناء انتظاره ، أمسك بيديه الكأس الأخرى التي كانت مليئة تقريباً ، رفعها كما لو كان يحيي أحدهم أمامه ثم شرب ، ببطء ، وعيناه نصف مغمضتين . دفع دون أن ينظر ، ترك إكرامية ليست حقيرة ولامبالغة في كرمها ، هل رأيت يا سيدي ، هكذا يفعل . توقف ريكاردو ريس على حافة الرصيف ، نظر متردداً ، الهواء رطب ، الغيوم منخفضة جداً ، ولكن المطر لا يهدد . هذه اللحظات هي التي تخطر له فيها ، مؤكدا ، ذكريات فندق براغانسا ، لقد أتى على إنهاء عشائه ، الى الغد يا رامون ، ويذهب ليجلس على مقعد في الصالة ، مديراً ظهره للمرآة ، بعد قليل ، سوف يأتي سلفادور المدير ليسأله ما إذا كان يريد أن تقدم له قهوة أخرى أو كونياك ، للهضم ، يا

سيدي الدكتور ، صنع هنا ، وسوف يجيب ، كلا ، إنه نادراً ما يشرب ، في أسفل الدرج ، رن الجرس ، الوصيف يرفع مصباحه ليرى من أتى على الدخول ، ربما كانت مرساندا ، قطار الشمال تأخر كثيراً اليوم . اقترب تراموای ، كان يمكن أن يقرأ على رقعته المضيئة «استريلا»* كان متوقفاً ، هكذا حدث الأمر ، رأى السائق السيد على حافة الرصيف لا يبدي أية حركة لإيقافه ، ولكن كان من الواضح لسائق خبير أنه كان ينتظر . صعد ريكاردو ريس ، وجلس ، في هذه الساعة ، يكون الترامواي شبه فارغ ، درن ، درن ، السائق رن الجرس ، إنها سفرة طويلة عبر هذا المسار ، يصعد شارع داليبيرداد ، ثم طريق ألكسندر هيركولانو ، يجتاز ميدان البرازيل ، فطريق داس أموريراس ، ثم في أعلى طريق سيلفا كارفالوا ، وحي كامبوس دو أوريك ، طريق فيريرا بورجيس ، وريكاردو ريس نزل هناك ، عند زاوية طريق دومنغوس سيكيرا . تجاوزت الساعة العاشرة ، قليل من الناس يتيهون خارج بيوتهم ، في أعالي واجهات البنايات ، لا ترى عملياً أضواء ، ليس هذا عجيباً ، الناس في الغرف الداخلية ، النساء في المطبخ ، ينهين غسيل الصحون ، الأطفال ناموا من قبل ، الرجال يتثاءبون أمام الجريدة أو يحاولون التقاط إذاعة إشبيلية بين أنواع الأزيز والزئير وغياب التردد ، دون سبب خاص ، ربما بكل بساطة لأنهم لم يستطيعوا الذهاب إليها قط . سلك ريكاردو طريق ساريفا دو كافالو في اتجاه المقبرة ، وبقدر ما كان يقترب منها ، كان المارة يصبحون أكثر ندرة ، مازال بعيداً عن هدفه ، وأصبح فعلاً وحده ، يختفي في مناطق الظلمة بين مصباحين ليظهر ، بعد ذلك ، تحت الضوء الرطب ، يسمع صوت مفاتيح في الظلام ، إنه حارس الحي الذي بدأ

* استريلا : اسم حي في ليشبونة .

جولته . اجتاز ريكاردو ريس الميدان مباشرة نحو البوابة المغلقة ، الرجل ينظر إليه من بعيد ويتابع طريقه ، إنه واحد ذاهب ، في هذه الساعة ، ليذرف دموعاً ، إنها امرأته التي ماتت حتماً ، أو طفل ، المسكين ، أو أمه ، يمكن جيداً جداً أن تكون أمه ، الأمهات آخذات في الموت دائماً ، عجوز صغيرة ، مسنة جداً حقاً ، لم تر ، وهي تغمض عينيها ، ابنها ، فكرت ، أين ذهب إذن ، وماتت ، هكذا ينفصل الناس . الحارس موضوع لهذه التأملات العاطفية لأنه ، دون شك ، مسؤول عن هدوء الطرقات ، لأنه لم يعد يذكر أمه ، غالباً ما يحدث هذا ، نشفق على الآخرين ، وليس على أنفسنا . اقترب ريكاردو ريس من السياجات ، انغلقت يداه على القضبان ، وصلت تمتمة غير مسموعة تقريباً من الجهة الأخرى ، إنه النسيم الذي يمر بين أغصان شجر السرو ، الأشجار المسكينة التي لا أوراق فيها ، أو ربما مجرد وهم حواس ، هذه الضجة هي لتنفس الذين ينامون في البنايات الكبيرة وهي البيوت المنخفضة الواقعة خارج الجدران ، إنها لحن موسيقي صغير ، نفثة كلمات ، امرأة تمتمت ، إني متعبة ، أنا ذاهبة لأنام ، هذا ما قاله لنفسه ريكاردو ريس أيضاً ، ليس كل هذه الكلمات ، فقط ، أنا متعب ، مرر يديه بين القضبان ، رسم حركة ، ولكن ما من يد أخرى جاءت لتضغط على يده ، في النقطة التي وصلوا إليها ، لا يستطيعون حتى أن يرفعوا ذراعاً .

عاد فيرناندو بيسوا الى الظهور بعد ليلتين ، كان ريكاردو ريس عائداً من المطعم ، حساء ، سمك ، الخبز ، الفاكهة ، القهوة ، على الطاولة كأسان ، الخمر ، كما نعلم ، آخر مذاق يحمله ، ولكن خادماً واحداً لا يستطيع أن يقول عنه إنه كان يفرط في الشرب ، نهض من على الطاولة وهو على أهبة الوقوع ، تعبير نهض من على الطاولة وهو على أهبة الوقوع تعبير طريف ، اللغة فاتنة حقاً ، هناك تناقض لا يمكن تجاوزه ، فلا أحد يستطيع فعلاً أن ينهض ويقع في الوقت نفسه ، ومع ذلك ، فقد شهدنا هذا عدداً لا يحصى من المرات ، بل وأمكن للمرء أن يختبر ذلك بنفسه ، ولكن ريكاردو ريس غير وارد في تاريخ السكر . في كل مرة ظهر فيها فرناندو بيسوا ، كان هو صاحياً ، وهو كذلك أيضاً ، الآن وهو يرى ظهره ، جالساً على أقرب مقعد من أداماستور ، يستحيل الخطأ ، هذا العنق الطويل والنحيل ، هذا الشعر المبعثر على قمة الجمجمة ، ثم ، لا يوجد كثير من الناس يتنزهون هكذا دون قبعة ولا معطف واق من المطر ، الطقس تحسن دون شك ، ولكن الليل مازال بارداً ، جلس ريكاردو ريس الى جانب فرناندو بيسوا ، شحوب وجهه ويديه يبرز فوق ظلمة الليل ، الباقي لا يكاد يدرك ، البذلة السوداء لا

تتميز جيداً عن الظل الذي يسقطه التمثال ، لا أحد في الحديقة ، في الضفة الأخرى ، جملة أنوار غير ثابتة تغمز كما لو كانت ستنطفئ ، ومع ذلك تستمر ، تتلألأ على صفحة الماء كالنجوم . قال ريكاردو ريس ، ظننت أنك لن تعود البتة ، جئت لزيارتك منذ بضعة أيام ، ولكني فهمت عندما وصلت الى بابك أنك كنت مع ليديا ، فعدت إذذاك ، لم أكن قط هاوياً كبيراً للوحات الحية ، هكذا كان جواب فرناندو بيسوا ، وكان يمكن تخمين ابتسامته المتعبة . كانت يداه متصالبتين فوق ركبتيه ، بهيئة من ينتظر بصبر أن يستدعى أو أن يطرد ، ويناقش خلال الفاصل لأن الصمت أصعب وقعاً من الكلمات ، ما يدهشني هو أن تكون ، وأنت الرجل المتقلب الذي غازل ثلاث ربات شعر ، نيرا وكلويه وليديا ، عاشقاً في هذا الوفاء ، أن تقتصر جسدياً على واحدة ، في هذا ما يفاجئ ، قل لي ، ألم تظهر لك الاثنتان الأخريان أبداً . كلا ، وما من عجب في هذا ، إنها أسماء لم تعد مستعملة اليوم . وهذه الفتاة اللطيفة ، النحيلة ، ذات الذراع المشلولة ، كنت قد ذكرت لي اسمها . مرساندا . اسم جميل ، هل رأيتها . التقيت بها في المرة الأخيرة التي جاءت فيها الى ليشبونة ، في الشهر الماضي . هل تحبها . لا أعلم . وليديا ، هل تحبها . هذا أمر مختلف . ولكن هل تحبها أم لا . حتى الوقت الحاضر لم يضعف جسدي قط . وماذا يثبت ذلك . لا شيء ، على الأقل فيما يتعلق بالحب ، ولكن كف عن استجوابي بصدد حياتي الخاصة ، وقل لي بالأحرى لماذا لم تعد . بكلمة واحدة ، بسبب الملل . مني . نعم ، منك أيضاً ، لا لأنك أنت ، ولكن لأنك من هذا الجانب . أي جانب . جانب الأحياء ، الحي يجد مشقة في فهم الأموات . أعتقد أنه لا يمكن أن يكون فهم الأحياء أقل صعوبة على ميت . للميت مزية هي أنه كان حياً ، أنه يعرف كل شيء عن هذا العالم والعالم الآخر ، ولكن الأحياء عاجزون عن التعلم ،

عن الإفادة من الشيء الأساسي . أي شيء . إن المرء يموت . ولكن الأحياء يعرفون جيداً أنهم سيموتون . أنت لا تعرف ، لا أحد يعرف ، كما أني لم أكن أعرف بدوري عندما كنت أعيش ، ما نعرفه بالمقابل هو أن الآخرين يموتون . من وجهة نظر فلسفية ، يبدو لي أن لا معنى لذلك . لا معنى له بالتأكيد ، أنت لا تستطيع أن تتخيل الى أي حد لا يكون لكل شيء معنى ، مرئياً من جانب الموت . ولكني أنا من جانب الحياة . يجب أن تعرف إذن إذا ما كانت توجد أم لا توجد أشياء ذات معنى في هذا الجانب . كون المرء حياً هو ذو معنى . انتبه يا عزيزي ريس الى الكلمات ، ليدياك حية ، وكذلك مرسانداك ، وأنت لا تعرف شيئاً عنهما ، ولن تعرف شيئاً ، حتى ولو حاولتا تفسيره لك ، الجدار الذي يفصل بين الأحياء ليس أقل إعتاماً من ذاك الذي يفصل الأحياء عن الأموات . من أجل من يحاكم هكذا ، يجب أن يكون الموت خلاصاً ، في نهاية المطاف . كلا ، لأن الموت توهج من ضمير ، قاضٍ يزن كل شيء ، نفسه والحياة . انتبه يا عزيزي فرناندو الى الكلمات ، أنت تتقدم كثيراً . إذا لم نقل كل الكلمات ، حتى ولو بدت عابثة ، فلن نقول الضرورية مطلقاً . وأنت تعرفها . بدأت فقط في أن أكون بلا معنى . كتبت ذات يوم أن الموت غير موجود . كنت مخطئاً ، الموت موجود . أنت تقول ذلك الآن لأنك ميت . كلا ، بل لأني كنت حياً ، أقوله خاصة لأني لن أكون حياً أبداً ، إذا استطعت أن تتصور ما يعنيه هذا ، أن لا يعود المرء حياً أبداً . هذا ما كان يعلمنا إياه بيدرو غرولو . لم يكن لدينا قط فيلسوف أفضل منه .

نظر ريكاردو ريس الى الضفة الأخرى . كانت بعض الأنوار قد انطفأت ، ولم تكن الباقية ، التي تتلاشى ، ترى جيداً ، كان ضباب خفيف يحوم فوق النهر . قلت إنك لم تعد لأنك مللت . هذا صحيح . مني . ليس

منك بقدر ما مللت من هذه الروحات والغدوات المملة والمتعبة ، من هذه اللعبة بين الذاكرة التي تدفع والنسيان الذي يسحب ، لعبة لا أهمية لها ، النسيان ينتهي دائماً الى الكسب . أنا لا أنساك . دعني أقول لك شيئاً ، في هذا الميزان ، ليس لك ، أنت ، وزن ثقيل . ما هي إذن تلك الذاكرة التي تستمر في استدعائك . الذكرى التي أحتفظ بها عن هذا العالم . كنت أعتقد أنها الذكرى التي احتفظ بها العالم عنك . يا لها من فكرة مضحكة ، يا عزيزي ريس ، العالم ينسى ، سبق أن قلت لك ذلك ، العالم ينسى كل شيء . أتعتقد أنه قد نسيك . العالم ينسى قدراً من الأشياء لا يعود معه ينتبه الى ما ينساه . هذا ما هو ادعاء حقاً . بالتأكيد ، الشاعر الصغير ، وحده ، أكثر ادعاء من شاعر . في هذه الحالة يجب أن أكون أكثر ادعاء منك . إذا استطعت أن أسمح لنفسي ، ودون أن أريد التملق إليك ، أنت لست سيئاً أبداً كشاعر . أقل جودة منك . أعتقد ذلك . عندما سنكون كلانا ميتين ، سيكون من الطريف أن نرى الى أي طرف يميل هذا الميزان الآخر ، إذا كان الناس مازالوا يتذكروننا ، أو على الأقل طالما يتذكروننا . في تلك البرهة ، سنسخر الى آخر حد من الأوزان والوزانين ، الموت موجود . نعم ، شد ريكاردو ريس طرفي معطفه . الجو يبرد ، أنا عائد ، رافقني إذا أردت ، سنتحدث قليلاً أيضاً . ألا تنتظر أحداً اليوم . كلا ، وتستطيع أن تبقى مثل ذلك اليوم . أأنت تحس بالوحدة هذه الليلة ، أنت أيضاً . ليس الى حد أستجدي معه الصحبة ، كلا ، يبدو لي بالأحرى أن الميت يمكن أن يشتهي أحياناً أن يجلس على كرسي ، في مقعد ، أن يأوي تحت سقف . لم تكن قط ساخراً ، يا ريكاردو . لست أكثر سخرية حالياً . نهض ، وسأل ، هل تأتي إذن . تبعه فرناندو ، أدركه عند أول مصباح ، البناية كانت أخفض ، في الجانب الآخر من الطريق . كان أمام الباب رجل ، أنفه في الهواء ، يبدو

كأنه يقيس النوافذ ، كان يحزر من ميل جسمه غير المستقر أنه كان يتظاهر بالمرور من هناك مصادفة ، كان قد أتى على تسلق الطريق الوعر والمنهك ، وكان من شأن من يراه أن يظنه أحد هؤلاء المارة الهائمين على وجوههم ليلاً الذين تغص بهم ليشبونة ، فلا ينام كل الناس كالدجاج ، تلقى ريكاردو ريس ، وقد تقدم أكثر من ذلك ، في وجهه مباشرة رائحة بصل عنيفة ، إنه فيكتور ، العميل ، تعرف عليه فوراً ، هناك روائح من البلاغة بحيث تساوي مائة خطاب ، روائح طيبة أو كريهة ، هي كصور للجسم بكامله ، ترسم سماته وتوضحها ، ماذا جاء هذا الشخص يفعل هنا ، وبما أن فرناندو كان معه ، فلم يرد أن يكون متجهماً ، وأخذ مبادرة مخاطبته ، هنا ، في مثل هذه الساعة ، يا سيد فيكتور ، وأجاب الآخر مرتجلاً ، هذه المراقبة هي طفولة الفن ، لم يكن قد هيأ تفسيراً ، فقال ، إنها المصادفة ، يا سيدي الدكتور ، المصادفة ، ذهبت لزيارة قريبة لي تسكن في كوندي باراو ، لديها نزلة صدرية ، المسكينة ، لم يسئ فيكتور التخلص كثيراً ، إذن سيدي الدكتور لم يعد يسكن في الفندق ، هذا السؤال الأرعن كان يكشف حيلته ، يمكن للمرء أن يقيم في فندق براغانسا وأن يتنزه ليلاً في التودو سانتا كاتارينا ، أين هو عدم التوافق ، تظاهر ريكاردو ريس بأنه لم يلاحظ شيئاً ، وربما لم يكن قد لاحظ شيئاً فعلاً . كلا ، الآن أسكن هنا ، في الطابق الثاني . آه ، الآهة الكئيبة نشرت ، على الرغم من كونها قصيرة ، عفونة خانقة في الجو ، كانت الريح لحسن حظ ريكاردو ريس في ظهره ، للسماء أحياناً رحمتها . استأذن فيكتور ، ناشراً من جديد رائحته ، آمل أن يسير كل شيء على ما يرام يا سيدي الدكتور ، عند الحاجة ، لا تتردد في القدوم إلي ، السيد الضابط المعاون قالها لي في ذلك اليوم ، لو كان كل الناس كالدكتور ريس ، في هذا التهذيب وحسن التربية ، لكان العمل شيئاً محبباً الى النفس ،

سيكون مسروراً جداً عندما سأقول له إني صادفتك . ليلة سعيدة ، يا سيد فيكتور ، كان من شأن قوله أقل من ذلك أن يكون غير لائق ، كان يدين بذلك لسمعته حقاً . اجتاز ريكاردو ريس الطريق ، وفرناندو بيسوا على أعقابه ، خُيل لفيكتور إنه رأى ظلين على الأرض ، تأثير ضوئي ، وهم ، اعتباراً من عمر معين ، لا تعود العينان تميزان بين المرئي وغير المرئي . انتظر فيكتور قليلاً أيضاً على الرصيف ، لم يعد لذلك أهمية الآن ، رأى النور يضاء في الطابق الثاني ، مجرد روتين ، مجرد تأكد ، كان يعرف أن ريكاردو ريس يسكن هنا ، لم يكن عليه أن يجتاز طريقاً طويلاً ولا أن يطرح كثيراً من الأسئلة ، فقد صعد بمساعدة المدير سلفادور حتى العتالين ، وبمساعدتهما وصل الى هذا الشارع والى هذه البناية ، عن صواب قيل إن كل الدروب تؤدي الى روما ، ومن المدينة الخالدة الى التودو سانتا كاتارينا لا توجد سوى خطوة .

سأل فرناندو بيسوا ، وهو جالس مرتاحاً في مقعد المكتب ، مصالباً بين ساقيه ، من كان صديقك . ليس صديقاً . لحسن الحظ ، يا لها من رائحة ، أرتدي البذلة نفسها والقميص نفسه منذ خمسة أشهر ، ناهيك عن ثيابي الداخلية التي لم أستطع تبديلها ، ومع ذلك فليست لي هذه الرائحة ، إذا لم يكن صديقاً فمن هو ، ومن هو هذا الضابط المعاون الذي يقدرك الى هذا الحد . كلاهما من البوليس ، في يوم سابق ، استدعيت الى استجواب . كنت أظنك شخصاً مسالماً ، غير قادر على إرباك النظام العام . أنا مسالم فعلاً . ماذا فعلت إذن لتستدعى . جئت من البرازيل ، هذا هو كل شيء . إذا كان الأمر كذلك ، فإن ليدياك كانت عذراء وذهبت ، حزينة وفاقدة شرفها ، لتقدم شكوى . حتى لو كانت ليديا عذراء وفضضت أنا بكارتها ، فليس بوليس المراقبة وحماية الدولة هو بالتأكيد الذي كان سيسجل

الشكوى . أهو الذي استدعاك . نعم . وأنا الذي كنت أعتقد أن شأنك كان مع بوليس الأخلاق . أخلاقي ممتازة ، أخيراً هي تصمد للمقارنة مع الأخلاق المحيطة . لم تحدثني قط عن هذه المغامرة البوليسية . لم تسنح لي الفرصة ، وأنت انقطعت عن المجيء . هل أساؤوا معاملتك ، هل اعتقلت ، هل ستقدم للمحاكمة . كلا ، اقتضى الأمر ببساطة أن أجيب عن بعض الأسئلة ، من كان الناس الذين عرفتهم في البرازيل ، لماذا عدت ، ما العلاقات التي أعدت عقدها في البرتغال منذ عودتي . لو كنت قد حدثتهم عني لبدا الأمر غريباً ، كان من شأن ذلك أن يكون أغرب أيضاً لو قلت لهم إني ، من وقت الى آخر ، ألتقي شبح فرناندو بيسوا . عفواً ، يا عزيزي ريس ، لست شبحاً بالمرة . ما أنت إذن . لا أستطيع أن أجيبك ، ولكني لست شبحاً على أية حال ، الشبح يأتي من العالم الآخر ، أنا آتي بكل بساطة من مقبرة دوس برازيرس . أخيراً أنت فرناندو بيسوا الميت ، المماثل لفرناندو بيسوا الحي . بصورة معينة وذكية ، هذا صحيح . مهما يكن من أمر ، فسوف يكون من الصعب تفسير لقاءاتنا للبوليس . هل تعلم أني كتبت يوماً بضعة أبيات ضد سالازار . وماذا بعد ، هل فهم الأهجية ، لأني أفترض أنها كانت أهجية . ليست كذلك على حد علمي . قل لي يا فرناندو ، من هو سالازار هذا الذي أعطانا إياه القدر . إنه الديكتاتور البرتغالي ، الحامي ، الأب ، الأستاذ ، السلطة الحاذقة ، ربع من قندلفت كنيسة ، وربع من عراف ، وربع من سيباستيو ، وربع من سيدونيو* ، ذاك الأفضل ملاءمة لعاداتنا ولمزاجنا . بضعة حروف ب ، وأربعة حروف س** .

---

* سيدونيو بايس ، برنار دينودا سيلفا ، عالم رياضيات ورجل دولة برتغالي ، جمهوري ، حل محل الرئيس ماشادو إثر انقلاب كانون الأول ١٩١٧ ، ولكنه قتل بعد أقل من عام .

** يتحدث المؤلف عن الأحرف التي تبدأ بها الكلمات بالبرتغالية طبعاً .

محض مصادفة ، لن تمضي الى حد الاعتقاد بأني بحثت إرادياً عن كلمات تبدأ بالحرف نفسه . هناك من لديهم هذا الهوس ، ينتشون بالجناسات اللفظية والتكرارات الحسابية ، يعتقدون أنهم ، بفضلها ، يرتبون فوضى العالم . لا ينبغي أن ننتقدهم ، إنهم ، ككل المتعصبين للتناظر ، أناس قلقون . يا عزيزي فرناندو ، الميل الى التناظر يلبي حاجة حيوية الى التوازن ، إنه دفاع ضد السقوط . مثل ميزان بهلوانات الحبال . بالضبط ، ولكن الصحافة الأجنبية ، إذا عدنا الى سالازار ، تقول كثيراً من الخير عنه . بالطبع ، أتذكر أني سمعت أنها مقالات دعاية ، دفع ثمنها من مال دافعي الضرائب . ولكن الصحف المحلية تفيض بالمدائح ، هي أيضاً ، يكفي أن نفتح جريدة لنفهم فوراً أن الشعب البرتغالي هو أكثر شعوب الأرض ازدهاراً وسعادة ، أو أنه سيكون كذلك قريباً ، ولا يبقى على الأمم الأخرى سوى أن تقلدنا . يبدو أن الريح تهب في هذا الاتجاه فعلاً . أنت لا تصدق الصحف أبداً ، أليس كذلك . مع ذلك كنت أقرؤها في السابق . تقول هذا بلهجة تبدو لي مستسلمة جداً . كلا ، إنه ما لا يكاد أن يكون أثراً لتعب دام أكثر مما ينبغي ، أنت تعلم ما هو ، بعد جهد متطاول ، تتعب العضلات ، يكل المرء ، يشتهي أن يغمض عينيه وينام . هل نعست . مازلت أحس بهذه الحاجة التي كنت أعرفها وأنا حي . الموت شيء فريد . أكثر بكثير مما نلاحظه من وجهة نظري ، ذلك أننا نتبين إذّاك أنه لا يوجد ميتان متماثلان ، ليس الموت هو نفسه لكل الناس ، بعضهم يحملون معهم ، الى الجانب الآخر ، كل أعباء وجودهم . أغمض فرناندو بيسوا عينيه وأسند رأسه الى ظهر المقعد ، خيل الى ريكاردو ريس أنه يرى دمعتين تتلألآن تحت أجفانه ، كانتا ، دون شك ، مثل ظلي فيكتور ، لعبتين ضوئيتين ، الموتى لا يبكون ، كل الناس يعرفون ذلك . هذا الوجه الذي يبدو عارياً ، دون نظارتين ،

وبالشارب الذي يستطيل ، الوبر والشعر يعيشان أطول مما نعيش ، كان هذا الوجه يعبر عن حزن كبير ، من الأحزان التي لا دواء لها ، مثل أحزان الطفل هذه التي يظن ، خطأ ، أنها عابرة . فتح فرناندو بيسوا فجأة عينيه ، وابتسم . أتعلم أني كنت أحلم بأني حي . كان ذلك وهماً . بالطبع ، ككل الأحلام ، ولكن الطريق هو أن حياً يحلم بأنه ميت ، هو الذي لا يعرف ما هو الموت . بعد قليل ستقول لي إن الموت والحياة شيء واحد . قلت ، من قبل ، ثلاثة أشياء مختلفة ، إن الموت غير موجود ، إنه موجود ، وتقول لي الآن إن الموت والحياة شيء واحد . لم أكن أستطيع أن أحل ، بخلاف ذلك ، التناقض الذي يشكله التأكيدان الأولان ، بعد هذه الكلمات ، علت شفتي فرناندو بيسوا ابتسامة فطنة ، هذا أقل ما يمكن أن يقال ، نظراً للأقوال المتبادلة .

نهض ريكاردو ريس ، أنا ذاهب لتسخين القهوة ، سأعود . قل لي ، يا ريكاردو ، طالما نحن نتحدث عن الصحف ، لدي فضول لمعرفة آخر الأخبار ، ستكون تلك طريقة جيدة لإنهاء السهرة . لن تفهم شيئاً كثيراً ، أنت الذي تجهل كل شيء عن العالم منذ خمسة أشهر . أنت لم تفهم ، دون شك ، شيئاً أكبر عندما عدت بعد ست عشرة سنة من الغياب ، عندما كان عليك أن تعيد عقد حبل الزمن من طرفيه ، فلابد أنه قد بقيت بين يديك أطراف دون عقد ، وعقد دون أطراف . قال ريكاردو ريس ، الصحف في الغرفة ، سآتي بها . ذهب الى المطبخ ، وعاد منه بعد قليل ، مع إبريق قهوة صغير من الخزف الأبيض ، وكوب وملعقة ، وبالسكر ، وضع كل شيء على المنضدة ، التي كانت تفصل بين المقعدين ، خرج من جديد ، وعاد مع الصحف ، سكب القهوة في الكوب وأضاف السكر . أنت لا تشرب طبعاً . لو كان مايزال لي ساعة أحياها لقايضتها طواعية هذه اللحظة بقهوة ساخنة جداً .

ستكون أكرم من الملك هنري الذي لم يدفع سوى مملكة مقابل حصان . وكي لا يفقد المملكة ، ولكن دعنا من قصة الانكليز هذه ، وقل لي كيف يسير عالم الأحياء . شرب ريكاردو ريس نصف كوبه ، فتح إحدى الجرائد وسأل ، أكنت تعلم أن هتلر أتى على الاحتفال بعيد ميلاده السابع والأربعين . لا أعتقد أنه خبر عظيم . لأنك لست ألمانياً ، وإلا لكنت أقل ازدراء . ماذا أيضاً . يروون أنه استعرض ثلاثة وثلاثين ألف جندي في جو ، وأنا أقرأ ما كتب ، من الاحترام شبه ديني ، وكي أسمح لك بتكوين فكرة ، سأقرأ لك مقطعاً من خطاب غوبلز في هذه المناسبة . اقرأ إذن . عندما يتكلم هتلر ، فإنه كما لو أن قبة هيكل قد انغلقت ثانية على رأس الشعب الألماني . عجباً ، هذا شاعري . وهذا ليس شيئاً إذا قورن بأسلوب بالدور فون شيراخ . من هو فون شيراخ هذا ، لا أتذكره . قائد شبيبة الرايخ . وماذا يقول . إن هتلر هو هدية الله للشعب الألماني ، رجل العناية الإلهية ، عبادة شخصه فوق الانقسامات الطائفية . هذا شيء لم تكن فكرته لتخطر للشيطان نفسه ، عبادة رجل توحد ما قسمته عبادة الله . وفون شيراخ يمضي أبعد من ذلك ، إنه يؤكد أنه إذا كانت الشبيبة الهتلرية تحب هتلر ، إلهها ، وتجهد لخدمته بأمانة ، فذلك لإنجاز وصية من الأب الخالد . يا له من منطق فخم ، هتلر إله للشبيبة ، وهي ، إذ تخدمه بأمانة ، تنجز وصية من الأب الخالد ، فلدينا إذن إله يعمل كوسيط لهدف خاص به ، والابن قد غدا قاضياً وحكماً على سلطة الأب ، القومية ـ الاشتراكية هي ، في نهاية المطاف ، مشروع فائق الدينية . أنت تعلم ، لسنا سيئين ، نحن الآخرين بدورنا ، في موضوع الخلط بين الإلهي والبشري ، بل إنه يخيل للمرء أننا قد عدنا الى آلهة العصور القديمة . آلهتك . لم أستعر منهم سوى ما تركوه لنا ، الكلمات التي كانت تدل عليهم . اشرح لي هذا الخلط بين الإلهي والبشري . حسناً ،

على حد قول التصريح الرسمي لأحد رؤساء الأساقفة ، رئيس أساقفة ميتيلين ، البرتغال هي المسيح ، والمسيح هو البرتغال . كلا ، أكتب هذا حقاً . حرفياً . إن البرتغال هي المسيح والمسيح هو البرتغال . بالضبط . ظل فرناندو بيسوا بضع لحظات ساهماً يفكر ، ثم انفجر ضاحكاً ، ضحكة جافة ، ساعلة ، يؤلم سماعها ، يا للبلد المسكين ، يا للناس المساكين ، وأرغم على التوقف ، كانت الدموع في عينيه . كرر ضاحكاً بشكل أقوى ، يا للناس المساكين . وأنا الذي كنت أعتقد أنني مضيت الى أبعد مما ينبغي بحديثي في «منساغيم» عن القديسة البرتغال ، وها هو أحد أمراء الكنيسة المدعوم بسلطته الفائقة الرسولية يصرح بأن البرتغال هي المسيح . وأن المسيح هو البرتغال ، يجب أن لا ننسى ذلك . ضمن هذه الشروط ، يجب أن نعرف بأسرع ما يمكن أية عذراء ولدتنا ، أي شيطان أغوانا ، أي يهوذا قد خاننا ، أية مسامير صلبتنا ، أي قبر يؤوينا ، وأية قيامة تنتظرنا . نسيت المعجزات . أية معجزة تريد أكبر من كوننا نعيش ، ونواصل العيش ، لا أتحدث عن نفسي بالطبع . بالسرعة التي تسير عليها الأمور ، لا أعلم متى وحتى أين سنعيش . مهما يكن من أمر ، فيجب أن نسلم حقاً بأننا نتجاوز ألمانيا تجاوزاً واسعاً ، الكنيسة نفسها تؤكد ذلك ، الأمر هو أكثر من قرابة ، إنه تماهٍ ، كان بإمكاننا ، بوصفنا المسيح ، أن نستغني عن هدية سالازار . ما كان ينبغي أن تموت في هذا العمر المبكر ، يا عزيزي فرناندو ، هذا مؤسف حقاً ، ذلك أن البرتغال ستتحقق الآن . لا يبقى علينا سوى أن نصدق رئيس الأساقفة ونتمنى أن يصدقه العالم أيضاً . على كل حال ، لا يستطيع أحد أن ينكر أننا نفعل المستحيل لبلوغ السعادة ، أتريد الآن أن تسمع ما قاله الكاردينال سيريجيرا لتلامذة الدير ، لا أعلم إذا ما كنت سأتحمل الصدمة . لست تلميذ دير . هذا سبب إضافي ، ولكن فلتكن إرادة الله ،

هيا ، اقرأ . كونوا أنقياء ملائكياً ، ورعين قربانياً ، ومندفعين بحماسة . أقال هذه الكلمات ، بهذا الترتيب . نعم . لم يبق لي سوى أن أموت . أنت ميت من قبل . يا لي من مسكين ، لم يبق لي حتى هذا . ملأ ريكاردو ريس كوبه من جديد ، حذره فرناندو بيسوا قائلاً ، إذا شربت هذا المقدار من القهوة ، فلن تنام . دعك من هذا ، ليلة أرق لم تضر بأحد أبداً ، بل إن هذا يساعد أحياناً . اقرأ لي أخباراً أخرى . نعم ، ولكن قل لي قبلاً ، ألا تجد أن هذا الهوس البرتغالي والألماني الجديد باستعمال الله كسند سياسي أمر مقلق . إنه مقلق بالتأكيد ، ولكنه ليس جديداً ، العبرانيون رفعوا الرب من قبل الى رتبة قائد جيوش ، الباقي ليس سوى تنويع على الثيمة . هذا صحيح ، العرب اكتسحوا أوروبا على صيحة هذه إرادة الله ، بالنسبة للانكليز ، الله يحمي الملك ، أما الفرنسيون فيقسمون على أن الله منهم . ولكن صاحبنا جيل فنسنته* ، قد قالها ، الله برتغالي . إنه بالتأكيد هو الذي على حق ، على اعتبار أن المسيح هو البرتغال . حسناً ، اقرأ لي قليلاً أيضاً قبل أن أذهب . ألا تريد أن تبقى هنا . لدي قواعد يجب أن أحترمها ، في المرة السابقة ، خرقت ثلاث مواد بكل بنودها . كرر ذلك اليوم . كلا . إذن ، استمع إلي ، سأقرأ بصورة متوالية ، إذا كان لديك تعليقات ، فاتركها الى النهاية . بيوس الحادي عشر يدين انعدام الأخلاق في بعض الأفلام ، ماكسيمو كوريرا صرح بأن أنغولا أكثر برتغالية من البرتغال على اعتبار أن ديوغوكامو لم يعترف بسيادة أخرى خلاف سيادة البرتغاليين في أولهاو ، توزيع خبز على الفقراء في باحة ثكنة الحرس الوطني الجمهوري يتحدثون عن جمعية سرية إسبانية مؤلفة من عسكريين في جمعية الجغرافيا بمناسبة الأسبوع الاستعماري

---

* جيل فنسنته ، كاتب مسرحي برتغالي من القرن السادس عشر ، خالق المسرح البرتغالي ومؤلف كوميديات ، مهازل الخ...

جلست سيدات من أفضل المجتمعات الى جانب أناس من الشعب تقول جريدة «بوبيلو غاليغو» إن خمسين ألف إسباني لجؤوا الى البرتغال . في تافاريو يباع سمك السومون بستة وثلاثين ايسكودوس للكيلوغرام . سعر رخيص . أتحب السومون . أكرهه . هذا هو كل شيء ، إلا إذا أردت أن أقرأ لك قصص الفوضى والاعتداءات ، الجريدة انتهت . كم الساعة الآن . إنه منتصف الليل تقريباً . أو لا لا ، كيف يمر الوقت . أتصدق هذا . نعم . أتريد أن أرافقك . الوقت مازال مبكراً بالنسبة إليك . تماماً . لم تفهمني ، أردت أن أقول إن الوقت مازال مبكراً عليك من أجل أن تذهب حيث أذهب . في التركيب الطبيعي للأمور ، أنا أكبر منك بسنة كاملة . ما هو الترتيب الطبيعي للأمور . هذه طريقة للكلام ، ولكنه كان ينبغي ، بموجب هذا الترتيب الطبيعي ، أن أموت قبلك . حسناً ، أنت ترى أنه ليس هناك من ترتيب طبيعي . نهض فرناندو بيسوا من على مقعده ، زرر سترته ، وصحح وضع ربطة عنقه ، في الترتيب الطبيعي ، كان يجب أن يفعل العكس . أنا ذاهب ، الى اللقاء ذات يوم ، وشكراً على صبرك ، العالم أسوأ مما تركته عليه ، وهذه الإسبانيا ، سوف ينتهي هذا بالتأكيد بحرب أهلية . هل تظن ذلك . إذا لم يكن يوجد من الأنبياء الجيدين غير بين الموتى ، فأنا أحقق الشرط . تجنب أن تحدث ضجة وأنت تهبط الدرج ، بسبب الجيران . سأهبط مثل ريشة . ولا تصفق الباب . اطمئن ، لن يسمع الصدى الكهفي لغطاء القبر . ليلة سعيدة يا فرناندو . نم جيداً يا ريكاردو .

ريكاردو ريس لم ينم جيداً ، سواء أكان ذلك لأنه أفرط في شرب القهوة أم لأن المحادثة كانت بالغة الجدية ، استيقظ عدة مرات ، كان يخيل إليه أنه يسمع قلبه يخفق في الوسادة التي كان يستريح عليها رأسه ، دار على جنبه كي لا يعود يسمع شيئاً ، ولكن الضجة كانت تعود شيئاً فشيئاً ،

من جهة الصدر ، المحبوس في قفص الأضلاع ، كان يرى من جديد إذّاك التشريحات التي كان قد شهدها ، وكان يتخيل قلبه الحي يخفق بيأس ، كما لو كانت كل حركة يجب أن تكون الأخيرة ، ثم عاد إليه النوم خفيفاً ، ثم عميقاً عندما كان النهار يطل . كان مازال نائماً عندما قذف البائع بالجريدة في اتجاه الزجاج ، ولم ينهض ليفتح له النافذة . في هذه الحالات ، كان البائع يصعد السلم ويضع الصحف على ممسحة الأقدام ، أحدثها من فوق ، فيغطي أقدمها على هذا النحو الوحل الذي تركته نعال الأحذية ، هكذا تمر أخبار العالم* ، بورك من اخترع اللاتينية . جانباً ، عند ركن الباب ، كانت الجرة الصغيرة بربع ليترها اليومي من الحليب ، وكيس الخبز الصغير معلق على قبضة الباب ، عندما ستأتي ليديا بعد الساعة الحادية عشرة ، فسوف تدخل كل شيء . اليوم عطلتها ، ولكنها لم تستطع أن تحضر في وقت أبكر ، ففي اللحظة الأخيرة ، أرسلها سلفادور لتنظيف وترتيب ثلاث غرف ، هذا المدير يبالغ . لن تبقى أطول من ذلك ، يجب أن تذهب لرؤية أمها التي تهملها وتعرف أخبار أخيها الذي ذهب الى بورتو وعاد منها على متن أفونسو دو البوكيرك . سمعها ريكاردو ريس تدخل ، ناداها بصوت ناعس ، ظهرت عند فرجة الباب ، وفي يديها المفتاح والخبز والحليب والجريدة ، نهارك سعيد يا سيدي الدكتور ، نهارك سعيد يا ليديا ، هكذا تبادلا التحية في المرة الأولى ، ولم يغيرا ذلك أبداً ، فهي لن تستطيع ، حتى إذا طلب منها هذا ، أن تقول له نهارك سعيد يا ريكاردو ، وفضلاً عن ذلك فهو لم يفعل ذلك قط ولن يفعله أبداً ، يكفي أن يظهر أمامها مهملاً ، أشعث الشعر ، ذقنه غير محلوقة ، وفمه كريه الرائحة . ذهبت ليديا الى المطبخ لتضع

---

* باللاتينية في الأصل .

الحليب والخبز ، عادت مع الجريدة ، ثم خرجت ثانية لتعد الإفطار ، في حين كان ريكاردو يفتح الجريدة ويفرد الأوراق ، منتبهاً جداً الى الإمساك بها من الهوامش البيضاء من أجل أن لا تسودّ أصابعه ، وأمسك بالجريدة في الهواء كي لا تلوث طرف الغطاء ، حركات هوسية صغيرة يمارسها عن وعي كما لو كان يحيط نفسه بشواخص ، بنقاط استناد ، بحدود . وعندما فتح الجريدة ، رأى من جديد الحركة المشابهة بالضبط للتي بدرت عنه قبل بضع ساعات ، ومرة أخرى حصل لديه الانطباع بأن فرناندو بيسوا كان يجلس هنا منذ زمن طويل جداً ، كما لو أن أحدث ذكرياته لم تكن ، في نهاية المطاف ، سوى ذكريات قديمة جداً ، ذكريات فترة كان فرناندو بيسوا ، وقد تحطمت نظارتاه ، قد طلب إليه فيها ، اقرأ لي يا ريس أهم الأخبار . أخبار الحرب . كلا ، إنها لا تستحق العناء ، سأقرؤها غداً ، ستكون الشيء نفسه . كان ذلك عام ألف وتسعمائة وستة عشر ، وكان ريكاردو ريس قد كتب قبل بضعة أيام أطول قصائده الماضية والمقبلة ، تلك التي تبدأ كما يلي ، سمعتهم يقولون إنه في السابق ، عندما كانت فارس . وصلت رائحة طيبة لخبز محمص من المطبخ ، كانت تسمع ضجة غسيل صحون ، وخطوات ليديا في الممشى ، حملت الطبق ، مشرقة ، الحركة مهنية ، لا ضرورة لقرع الباب ، إنه مفتوح . كانت تستطيع ، دون أن تبدو مبالغة في تطفلها ، أن تسأل هذا الزبون الذي تعرفه منذ أسابيع ، إذن ، نمت الى وقت متأخر اليوم . لم أنم جيداً هذه الليلة ، أرق كل الشياطين . ذلك لأنك خرجت ونمت متأخراً . ليت ذلك كان صحيحاً ، ولكنني آويت الى سريري قبل منتصف الليل ، بل إني لم أغادر المنزل . سواء أصدقت ليديا ذلك أم لم تصدقه ، فنحن نعلم أن ريكاردو ريس قال الحقيقة . الطبق على ركبتي زبون المائتين والواحد ، الخادمة تصب القهوة والحليب ، تقرب شرائح الخبز ،

والمربى ، وتصحح وضع المنشفة وقالت ، لن أبقى طويلاً اليوم ، سأنظف قليلاً ثم أذهب ، يجب أن أرى أمي التي تشكو لأني لم أعد أزورها ، أو أمر دائماً كهبة ريح ، بل إنها سألتني عما إذا كنت قد وجدت عاشقاً ، وعما إذا كنت سأتزوج . ابتسم ريكاردو ريس مرتبكاً ، لا يعرف كيف يرد ، لا يمكن أن تتوقع سماعه يجيبها ، العاشق ، لديك واحد الآن ، أما بالنسبة للزواج ، فتفعلين جيداً إذا تحدثت عنه ، ففي أحد الأيام سوف ينبغي أن نفكر جدياً في مستقبلنا ، اقتصر إذن على الابتسام ، ونظر إليها بتعبير أبوي فجأة ، ليديا انسحبت الى المطبخ دون أن تكون قد حصلت على إجابة ، كانت هذه الكلمات قد خرجت من فمها بصورة لاإرادية ، أمها لم تحدثها قط عن خطيب ولا عن عاشق . أنهى ريكاردو ريس إفطاره ، دفع بالطبق الى أسفل السرير ، وجلس ليقرأ الجريدة ، المسيرة النقابية الكبيرة برهنت على أنه ليس من الصعب تحقيق اتفاق شريف وموثوق بين أرباب العمل والعمال ، وتابع قراءته بحذر ، لأنه يتساءل ، في سريرته الداخلية ، عما إذا كان موافقاً أو غير موافق على ما يقرأ . النقابية ، تنظيم الطبقات في المكان والحدود الخاصة بها ، تلك هي الوسيلة الجيدة لتحويل المجتمعات الحديثة ، بهذه الوصفة لفردوس جديد تنتهي قراءة المقال الرئيسي ، وعند ذلك انتقل ، بنظرة مبهمة ، الى أخبار الخارج . غداً تبدأ في فرنسا الجولة الأولى من الانتخابات التشريعية ، قوات بادوغليو تستعد لاستئناف تقدمها نحو أديس أبابا ، ظهرت ليديا إذّاك على عتبة الباب ، مشمرة الكمين وسألت ، هل رأيت المنطاد أمس . أي منطاد . الزبلاين ، مر بالضبط فوق الفندق . كلا ، لم يكن قد رآه ، ولكنه يستطيع الآن أن يرى على صفحة الجريدة المفتوحة منطاد غراف زبلاين الأدماستوري العملاق ، يحمل اسم ولقب صانعه الكونت زبلاين ، الجنرال والملاح الألماني ، ها هو يطير فوق مدينة

ليشبونة ، فوق النهر ، والمنازل ، الناس يقفون على الأرصفة ، يخرجون من الدكاكين ، ينحنون من نوافذ التراموايات ، من الشرفات ، يتنادون للتشارك في الإعجاب ، لا يستطيع شخص مزوح أن يمتنع عن الهتاف ، إيه أيها البليد ، انظر ، المنطاد أسود ورمادي على الجريدة ، قال ريكاردو ريس ، انظري ، لتري صورته ، واقتربت ليديا من السرير ، الى حد كان يبدو ، معه ، من غير اللائق أن لا يضم وركيها بذراعه الحرة ، إذ تمسك الأخرى بالجريدة ، ضحكت ، ابق هادئاً ، ثم قالت ، كم هو كبير ، يبدو أيضاً أكبر منه في الحقيقة ، وهذا الصليب في الخلف . إنه الصليب المعقوف ، السفاستيكا . إنه قبيح . هناك أناس يرونه أجمل الصلبان جميعاً ، هل تعلمين ذلك . يخيل للمرء أنه عنكبوت . كان هذا الصليب يرمز في بعض ديانات الشرق الى السعادة والخلاص . كل هذا . نعم . إذن لماذا وضعوه على ذيل الزبلاين . إنه منطاد ألماني ، والسفاستيكا هي اليوم شعار ألمانيا . شعار النازيين . كيف تعلمين ذلك . إنه أخي الذي أخبرني . أخوك البحار . نعم ، دانييل ، ليس لي أخ سواه . أعاد فعلاً من بورتو . لم أره بعد ، ولكنه عاد ، نعم . من أخبرك . سفينته مقابل التيريرو باسو ، أعرفها جيداً . ألا تريدين أن تضطجعي ، برهة صغيرة فقط ، ثم سأدعك تذهبين ، هبطت يد ريكاردو ريس حتى منحنى الساق ، رفعت التنورة وانزلقت تحت ربطة الساق ، تداعب البشرة العارية ، قالت ليديا ، لا ، ولكنها بدأت تنصاع ، كانت ركبتاها ترتعشان ، تبين ريكاردو ريس إذاك أن عضوه لا يستجيب ، إنه لن يستجيب . هذه أول مرة تقع فيها الحادثة المرهوبة ، أحس بنفسه وقد استولى عليه الهلع ، سحب يده ببطء ، تمتم ، افتحي الماء ، سوف آخذ حماماً ، لم تسمعه ، بدأت تحل حزام تنورتها ، تفك أزرار قميصها ، كرر وقد أصبح صوته ثاقباً فجأة ، أريد أن آخذ حماماً ،

افتحي الماء . ألقى بجريدته أرضاً ، غاص تحت الأغطية ، وكاد أن يقلب طبق الإفطار وهو يستدير نحو الحائط . نظرت إليه ليديا ، حائرة . تساءلت ، ما الذي فعلته ، كنت مستعدة للنوم ، ولكنه أدار لها ظهره ، يداه ، اللتان لم تكن تستطيع أن تراهما ، كانتا تحاولان إثارة عضوه الرخو ، وكان كيساً صغيراً خالياً من الدم ، دون إرادة ، واستمات عبثاً ، بعنف ، بغضب ، بيأس . ابتعدت ليديا ، تعيسة ، تحمل الطبق ، ذهبت لتغسل الأواني ، ولكنها أشعلت قبلاً سخانة الماء ، أسالت الماء في الحوض ، اختبرت الحرارة عند مخرج الماء من الصنبور ، ثم مرت بيديها المبللتين على عينيها الرطبتين ، ما الذي فعلته ، كنت سأنام . هناك ضروب جهل قاتلة ، لو قال لها ، لا أستطيع ، لفهمت ، وكانت ستضطجع دون شك ، على الرغم من كل شيء ، وكانت بعد أن تتمدد ستطمئنه بصمت على مركز هذا الخوف الكبير نفسه ، ربما كانت ستبدر منها هذه الحركة المثيرة للتأثر ، والتي هي أن تضع يدها على عضوه ، دون أي خبث ، فقط لتقول له ، لا تقلق ، ليس هناك موت رجل ، وكان من شأنهما ، كليهما ، أن يناما مطمئنين ، وقد نسيت هي أن أمها تنتظرها ، أن الغداء قدم ، وأنها انتهت الى أن تقول لابنها البحار ، فلنأكل ، لا يمكن ، بالتأكيد ، الاعتماد على اختك ، لقد تغيرت كثيراً ، تلك هي مضايقات الحياة وضروب ظلمها ، ولم يكن ليوجد أي سبب لدى ريكاردو ريس للتلفظ بكلمات الإدانة الأخيرة هذه .

ظهرت ليديا على عتبة الباب ، مستعدة للخروج ، قالت ، الى الأسبوع القادم ، ومضت حزينة ، لا تعرف أية خطيئة أمكنها اقترافها ، وبقي ، تعيساً ، يعرف جيداً جداً أية مصيبة قد أتت على الحلول به . كان صوت سيلان الماء يسمع ، رائحة البخار الساخن تنتشر ، ظل ريكاردو ريس

مستلقياً بضع دقائق أيضاً ، الحوض كبير ، عندما يمتلئ ، هو بحر متوسط حقيقي ، نهض أخيراً ، وضع رداءه المنزلي فوق كتفيه ، ودخل الى الحمام يجر قدميه ، نظر الى المرآة الكامدة حيث لا يرى ، لحسن الحظ ، نفسه ، هذا هو إحسان المرايا ، ثم فكّر ، كان ينبغي حقاً أن ينتهي هذا ، ذات يوم ، الى الحصول لي أنا تعيساً . ما هو رأيك يا سيدي الدكتور ، لا تقلق ، سأصف لك بعض الأقراص التي ستحل مسألتك ، ولكن تجنب بكل ثمن أن تكتئب بهذه القصة ، اخرج ، سلِّ نفسك ، اذهب الى السينما ، وإذا كانت هذه حقاً المرة الأولى التي يحدث لك فيها هذا ، فإنك تستطيع أن تعد نفسك رجلاً سعيداً . سد ريكاردو ريس الصنبور ، خلع ملابسه ، عدل بقليل من الماء البارد البحيرة الكبيرة التي كانت في حالة غليان ، وكما لو كان ليتخلى عن العالم الهوائي ، ترك نفسه يغرق ببطء . أطرافه المتروكة المجتذبة الى السطح ، تطفو بين مائين ، عضوه الذابل يتحرك كطحلبة سجينة جذرها ، لم يجرؤ ريكاردو ريس على مد يده حتى يصل إليه ، يلمسه ولكنه نظر إليه كأنه لم يكن ينتمي إليه ، من ، لِمَن ، هل هو لي ، أم أنا الذي له ، ولكنه لم ينشغل بالجواب ، السؤال يقلقه ، من قبل ، بصورة كافية .

بعد ثلاثة أيام ، جاءت مرساندا لتراه في مكتبه . كانت قد قالت للمساعدة إنها لم تأت كمريضة وإنها كانت ترغب في أن تكون آخر من يستقبل ، ستقولين ، من فضلك ، للسيد الدكتور إن مرساندا سامبايو هنا ، ولكن عندما لا يعود هناك مرضى فقط ، ودست في جيبها ورقة بعشرين اسكودوس . عندما حلت اللحظة ، نقلت السكرتيرة الرسالة الى ريكارو ريس ، كان قد خلع فعلاً رداءه الأبيض ، الذي لم يكن في طوله وما يكاد أن يصل الى منتصف ربلتي ساقيه ، هذا هو السبب الذي لا يستطيع لأجله أن يكون الكاهن الأكبر لهذه الديانة الصحية ، إنه مجرد قندلفت فقط ، يفرغ

القوارير وينظفها ، يشعل الشموع ويطفئها ، ينظم الوثائق ، وثائق الوفيات حصراً ، أحس أحياناً بأسف مبثوث ، باشمئزاز تقريباً ، لأنه لم يختص في التوليد ، وليس ذلك لأن هذه الأعضاء هي أثمن أعضاء المرأة وأكبرها حميمية ، بل لأن الأطفال يصنعون عن طريقها ، أطفال الآخرين ، هذا تعويض عندما ينقصنا أطفالنا أو لا نعرفهم . كان من شأنه أن يسمع خفقان قلوب العالم الجديدة ، بل ربما أمسك في بعض المرات في يديه ، بين الدم والمشيمة ، الدموع والعرق ، المخلوقات الصغيرة القذرة والدبقة التي كان قد سمع صرختها الأولى ، الصرخة التي لا تعني شيئاً ، التي لا نفهمها ، استعاد رداءه الأبيض الذي عرقله كماه المقلوبان ، الرديئا التفصيل ، تردد لمعرفة ما إذا كان سيستقبل مرساندا على الباب أم ما إذا كان سينتظرها وراء مكتبه ، ويده موضوعة مهنياً على القاموس الطبي ، مصدر كل معرفة ، انجيل الأوجاع ، انتهى الى الاقتراب من النافذة التي تطل على الميدان ، أشجار الدردار والزيزفون مزهرة ، تمثال الفارس ، هو ذا المكان الذي يود أن يستقبل فيه مرساندا ، ولو لم يكن يخشى أن يبدو هذا السلوك بلا معنى ، لكان يود أن يقول لها ، إنه الربيع ، انظري كم هي جميلة ، هذه الحمامة على رأس كامويس والأخريات على كتفيه ، التبرير الوحيد ، الفائدة الوحيدة لهذه التماثيل هي أن تستخدم مكان وقوف للحمام . ولكن اللياقات كانت الأقوى ، ظهرت مرساندا على العتبة . قالت المساعدة باحترام ، ادخلي من فضلك ، إنها شخص بارع ، وهي كفوؤة جداً في فن تمييز المراكز الاجتماعية ومستويات الغنى ، نسي ريكاردو ريس الدردارات والزيزفونات ، وطار الحمام ، شيء ما قد أفزعها وأثار فيها الرغبة في تحريك أجنحتها ، أن تنطلق على ميدان لويس كامويس ، الصيد ممنوع كل السنة ، لو كانت هذه المرأة حمامة ، لمنعها جنحها الجريح من الطيران ، كيف حالك يا مرساندا ، أنا

سعيد لرؤيتك ، وكيف حال أبيك . على مايرام ، شكراً ، يا سيدي الدكتور ، لم يستطع أن يحضر ، ولكنه يهديك تحياته . انسحبت السكرتيرة راضية ، مغلقة الباب على مهل . كانت يدا ريكاردو ريس مازالتا تضغطان على يد مرساندا ، صمت كلاهما ، أبدى حركة الإشارة عليها بكرسي ، جلست ، لم تسحب يدها اليسرى من جيبها ، كان من شأن المساعدة نفسها ، على الرغم من نظرتها النافذة ، أن تكون مستعدة للقسم على أن السيدة التي أتت على الدخول الى مكتب الدكتور ريكاردو ريس شخص ليس لديه أية عاهة ، وغير قبيحة بالمرة ، ربما كانت نحيلة قليلاً ، ولكنها من الصبا بحيث يناسبها ذلك ، قال ريكاردو ريس ، أخبريني إذن عن صحتك ، وأجابت مرساندا ، لم يتغير شيء ، إلا أنه يحتمل أن لا أعود الى الطبيب ، في ليشبونة ، على الأقل . ألا توجد أية علامة على عودة الحياة ، على حركة ، أي تطور في الحساسية . لا شيء يستحق عناء القتال في سبيل الأمل . لست طبيبك . ولكنك أصبحت الآن مختصاً في أمراض القلب ، فيجب أن تكون قد امتلكت المزيد من المعارف ، فأستطيع إذن أن أستشيرك . السخرية لا تناسبك أبداً . أحاول أن أفعل أفضل ما يمكنني ، وهو ليس شيئاً كثيراً . إني ، كما قلت لك في رسالتي ، بديل لزميل بصورة مؤقتة . في إحدى رسالتيك . تظاهري كما لو كنت لم تتلقي الثانية ، أو كما لو كانت قد ضاعت في الطريق . هل ندمت على كتابتها . الندم أقل الأشياء في العالم جدوى ، لأننا نقول عامة إننا نادمون لنستطيع التمتع بالمغفرة والنسيان ، كل واحد منا يستمر سراً في التعلق بأخطائه . فيما يتعلق بي ، لم أحس بأي ندم لذهابي الى بيتك ، ومازلت غير نادمة على ذلك اليوم ، وإذا كان تركي نفسي أقبل خطيئة ، وإذا كان تقبيلي إياك خطيئة أخرى ، فأنا أتعلق إذن بهاتين الخطيئتين . لم يحدث بيننا سوى قبلة ، ما هي القبلة ، ليس فيها

شيء من خطيئة مميتة . كانت قبلتي الأولى ، من أجل ذلك ، دون شك ، لست نادمة عليها . ألم يقبلك أحد أبداً من قبل . كانت قبلتي الأولى . ستحين بعد قليل ساعة إغلاق المكتب ، ألا تريدين المجيء الي بيتي ، سيمكننا أن نتحدث بمزيد من الحرية . كلا . لن ندخل معاً ، سنمشي وبيننا مسافة جيدة ، لن تطولك شبهة . أفضل أن أبقى هنا طالما كان ذلك ممكناً . لن أسبب لك أي أذى ، أنا رجل عاقل . ماذا تعني هذه الابتسامة . لا تعني شيئاً خاصاً ، إنها فقط لبرهان على تعقلي أو ، إذا فضلت أن أحدثك بمزيد من الصراحة ، إن الحياة نائمة هذا ما كانت تعنيه ابتسامتي . أفضل أن لا نذهب الى بيتك ، أن نبقى هنا ، نتناقش ، تصرف كما لو كنت مريضة . من أي شيء تعانين إذن . أفضل هذه الابتسامة . وأنا أيضاً لم أكن أحب الأخرى . أخرجت مرساندا يدها اليسرى من جيبها ، وضعتها فوق ركبتيها ، ووضعت اليد الأخرى فوقها ، كان يمكن أن يقال إنها ستبدأ في عرض أوجاعها ، تخيل ، يا سيدي الدكتور ، أن القدر زودني بهذه الذراع ، كانت الحياة قد أعطتني ، من قبل ، قلباً مختلاً ، بل بدلاً من أن تقول هذا ، قالت فقط ، الحياة اختلال للمصير ، نحن أبعد مما ينبغي أحدنا عن الآخر ، فرق العمر والمصير أكبر مما ينبغي . تكررين ما كتبته في رسالتك . ذلك أني أحبك ، يا ريكاردو ، ولكني لا أعلم الى أي حد . الرجل الذي يدلي ، في مثل عمري ، بتصريحات حب مضحك . أحببت قراءتها ويروقني سماعها . لست آخذاً في الإدلاء بتصريح حب . أنت تدلي به . نحن نتبادل اللياقات ، الزهور فقط ، صحيح أنها ، أي الزهور ، جميلة ، ولكنها ميتة ، مقطوفة ، إنها تجهل ذلك ونحن نتظاهر بأننا نجهله . أضع زهوري في الماء وأظل أتأملها حتى تزول ألوانها . لن يكون لديك الوقت لإتعاب عينيك . أنت الذي أنظر إليك الآن . لست زهرة ، أنت رجل ، أنا قادرة على إدراك الفرق ، رجل

عاقل ، جالس على ضفة النهر وينظر الى الموجة تمر ، متمنياً على وجه الاحتمال أن يرى نفسه يمر في هذه اللحظة ، عيناك تقولان لي إني أنا التي تراني . هذا صحيح ، أراك تبتعدين كغصن مزهر يشدو فوقه عصفور ، لا تبكني . ذهب ريكاردو ريس الى النافذة ، أزاح الستارة ، لم تكن هناك حمامة واحدة على التمثال ، كانت تطير في دوائر بعيدة فوق الميدان ، زوبعة تبعث على الدوار . اقتربت مرساندا منه ، عندما وصلت ، كانت هناك حمامة واقفة على الذراع ، قريباً من القلب . إنها تفعل هذا جميعها ، إنه مكان مضمون . من هنا لا يرى شيء . أدار ظهره ، سقطت الستارة من جديد . ابتعدا عن النافذة ، وقالت مرساندا ، يجب أن أذهب . أخذ ريكاردو ريس يدها اليسرى ، حملها الى شفتيه ، وداعبها بعذوبة شديدة ، كما لو كان ينعش عصفوراً يرتعد من البرد . وبعد ثانية ، كان فم مرساندا هو الذي قبله ، وقبلته هي أيضاً ، قبلة ثانية ، إرادية هذه المرة . عند ذلك ، تسارع دم ريكاردو ريس ، كشلال عال هادر ، في أكثر كهوفه حميمية ، وهو مجاز يعني أن عضوه قد انتصب ، لم يكن ميتاً نهائياً . أحست مرساندا بذلك ، وابتعدت ، ثم اقتربت لتجسه مرة أخرى ، ولو كانت هذه العذراء المجنونة قد سئلت ، لكانت أقسمت أن الأمر لم يكن كذلك ، ولكن فميهما لم ينفصلا . أنت ، يجب أن أذهب ، انتزعت نفسها من ذراعيه لتعود الى السقوط دون قوة على كرسي . قال ريكاردو ريس ، مرساندا تزوجيني . نظرت إليه ، شاحبةً فجأة ، ثم قالت ببطء شديد ، كلا ، كان كل هذا الوقت الذي استغرقته كلمة بهذا الإيجاز شيئاً لا يصدق ، وقت أطول بكثير من وقت الكلمات التالية ، لن نكون سعيدين . سكتا بضع لحظات . قررت مرساندا للمرة الثالثة ، يجب أن أذهب ، ونهضت ، واتجهت نحو الباب . تبعها ، أراد أن يستبقيها ، ولكنها كانت قد أصبحت ، من قبل ، في الممشى حيث

تبعت المساعدة . عند ذلك قال ريكاردو ريس بصوت مرتفع ، آتي أصحبك ، وصحبها . وبعد أن صافحها ، انفصلا ، تحياتي لوالدك . تحدثت عن شيء آخر ، يوماً ، دون أن تكمل جملتها . أحدهم سوف يتابعها دون أن نعرف متى ولا لماذا ، أحدهم سيكلمها فيما بعد ، ولكن أين . في الوقت الحاضر ، لم يقل سوى ، يوماً . انغلق الباب ثانية . سألت المساعدة ، هل مايزال سيدي الدكتور في حاجة إلي ، كلا . إذن ، إذا سمحت ، كلهم ذهبوا ، الأطباء أيضاً . سأبقى بضع دقائق ، الوقت اللازم لتصنيف أوراقي . مساء الخير يا سيدي الدكتور . مساء الخير يا آنسة كارلوتا ، كان هذا اسمها .

عاد ريكاردو ريس الى مكتبه ، أزاح الستارة ، لم تكن مرساندا قد وصلت بعد الى أسفل السلم . كان شبه ظلمة ، الليل يغطي الميدان . كان الحمام يعود الى أغصان الدردار العالية ، صامتاً كالأشباح أو كظلال حمامات أخرى جاءت ، في السنة الماضية ، الى هذه الأغصان أو الى الخرائب التي كانت هناك قبل أن تسوى الأرض لتنقية الميدان ونصب التمثال . اجتازت مرساندا في هذه اللحظة الميدان في اتجاه شارع اليكريم ، لم تلتفت لترى ما إذا كانت الحمامة ماتزال واقفة على ذراع كامويس ، ميزت ظلاً أبيض وراء الزجاج ، بين أغصان الزيزفونات المزهرة . لو أن أحداً لاحظ هذه الحركات ، فإنه لم يكن سيفهم معناها ، وهذه هي الحال مع كارلوتا التي بقيت لتتجسس في زاوية من السلم ، معتقدة أن الزائرة ستعود الى المكتب لتتحدث باطمئنان مع الدكتور . لم تكن هذه فكرة سيئة ، ولكن مرساندا لم تفكر فيها ، وريكاردو ريس لم يطرح على نفسه حتى سؤال معرفة ما إذا كان قد بقي لهذا السبب .

بعد بضعة أيام ، وصلت رسالة ، اللون البنفسجي نفسه ، الختم الأسود نفسه على الطابع ، الكتابة المقرنة نفسها الناجمة عن عدم وجود يد أخرى

تمسك بالورقة ، الوقفة الطويلة نفسها قبل أن يفتح ريكاردو ريس المغلف ، النظرة المطفأة نفسها ، الكلمات نفسها ، كان تهوراً كبيراً مني أن أزورك ، هذا لن يتكرر أبداً ، لن نعود نرى بعضنا ، ولكن صدقني ، سأفكر فيك طالما أنا حية ، لو كانت الأمور مختلفة ، لو كنت أكبر سناً ، لولا هذه الذراع التي لن تتحرك ، نعم ، أعلم كل شيء ، فتحوا عينيّ ، انتهى الطبيب الى الاعتراف بأنه لم يكن هناك أمل ، بأن حمامات الضوء ، والتيارات الغالفانية ، والتدليكات ، بأن كل هذا كان وقتاً ضائعاً ، كنت أتوقع ذلك ، بل إني لم أستطع أن أبكي ، لا أشفق على نفسي ، بل على ذراعي ، أعتني بها كطفل لن يستطيع قط أن يغادر مهده ، أداعبها كما لو لم تكن لي ، حيوان صغير عثر عليه في الطريق ، يا للذراع المسكينة ، ماذا كانت ستصبح دوني ، وداعاً يا صديقي ، أبي مازال يتحدث عن الذهاب الى فاطمة ، وسوف أذهب ، فقط من أجل إرضائه ، ولأنه ربما يحتاج الى هذا ليكون في سلام مع ضميره ، سينتهي دون شك الى الاعتقاد بأن هذه إرادة الله ، وكل يعلم أنه لا يمكن فعل شيء ضد إرادة الله ، وأنه لا ينبغي أن يحاول ذلك ، لا أطلب إليك أن تنساني ، يا صديقي ، على العكس من ذلك ، فكر فيّ كل يوم ، ولكن لا تكتب إلي بعد ، لن أعود أذهب أبداً الى البريد المركزي ، والآن أدعك ، انتهى الأمر ، قلت كل شيء . ليس هذا أسلوب مرساندا التي تخضع بحرص لقواعد التركيب ، ذات التنقيط الدقيق ، ولكن ريكاردو ريس الذي يقفز من سطر الى آخر بحثاً عن الأساليب لم يعلق أهمية على هذا النسيج في الوصل ، على نقطة أو نقاط التعجب ، بعض نقاط الوقف التي تدعي البلاغة ، قراءة ثانية ، ثم ثالثة ، لم تضيفا شيئاً الى الأولى ، قرأ كل شيء ، ومرساندا قالت كل شيء . رجل يتلقى ، في اللحظة التي يغادر فيها المرفأ ، رسالة مختومة سيفتحها وسط المحيط ، الماء والسماء في كل

مكان ، وتحت قدميه ألواح الخشب ، وعلى الرسالة كتب أنه لن يكون له ، من الآن فصاعداً ، مرفأ يأوي إليه ، أراض مجهولة يكتشفها ، مصير آخر خلاف مصير الهولندي الطائر ، إنه لم يبق له سوى أن يمخر البحر ، يرفع ، يتدارك أمر الأشرعة ، ينزح المياه ، يرقّع ويعيد الخياطة ، يحك الصدأ ، ينتظر . اقترب من النافذة والرسالة في يده ، نظر الى أداماستور العملاق ، العجوزين الجالسين في ظله ، وتساءل عما إذا لم يكن يلعب دور الشجن ، عما إذا لم يكن يمثل ، ذلك أنه ظن أنه يحب مرساندا قط ، هل تمنى حقاً في أكثر زوايا وجوده أسراراً أن يتزوجها ، ولماذا ، أليس ذلك بالأحرى النتيجة المعتادة للوحدة ، مجرد الحاجة الى الإيمان بأنه مازالت توجد أشياء جيدة في الحياة ، الحب مثلاً ، السعادة التي يتحدث عنها البؤساء في طرف كل حقل ، ولكن هل الحب والسعادة ممكنان من أجل شخص مثل ريكاردو ريس أو فرناندو بيسوا ، صحيح أن هذا الأخير قد مات من قبل . مرساندا موجودة ، لا شك في ذلك ، هذه الرسالة هي التي كتبتها ، ولكن من هي مرساندا ، وما المشترك بينها وبين الفتاة التي مازالت مجهولة والتي لمحها للمرة الأولى في قاعة طعام فندق براغانسا ، والتي سوف تتبلور حولها فيما بعد أفكاره ، أحاسيسه ، الكلمات التي عبر عنها ، أحسها ، وفكر فيها . من كانت إذ ذاك ، ومن هي اليوم ، مرساندا ، نقطة بؤرية ، خط يعود الى الانغلاق بعد مرور السفينة ، زبد ، إعصار على الدفة ، من أين مررت ، ماذا جرى فيّ . أعاد ريكاردو ريس مرة أخرى القسم الأخير من الرسالة ، الذي كتب فيه ، لا تكتب إليّ بعد ، وهو يعلم أنه لن يحترم رجاءها ، وأنه ، على العكس من ذلك ، سيرد ، ليقول لها ما لا يدري كثيراً ، سوف يرى فيما بعد ، وأنها إذا تمسكت بوعدها ، إذا لم تعد تذهب الى البريد المركزي ، فإن الرسالة سوف تبقى في حالة عذاب ، المهم ، هي أن تكتب ، لا أن

تقرأ . تذكر حالاً تقريباً أن الدكتور سامبايو يجب أن يكون معروفاً جداً في كوامبرا ، مسجل العقود شخصية هامة ، وأنه يجب أن لا يستبعد ، على اعتبار أن البريد المركزي مليء بالموظفين من أصحاب الضمير والحمية كما يعرف كل واحد ، فرضية انتهاء الرسالة السرية الى بيت مسجل العقود ، أو أسوأ من ذلك أيضاً ، الى مكتبه ، مهما كانت هذه الفرضية قليلة الاحتمال ، مسببة فضيحة كبيرة . لن يكتب ، كان من شأنه أن يضع في هذه الرسالة كل ما لا يمكن أن يقال ، وليس ذلك على أمل لتغيير مجرى الأشياء ، بل من أجل توضيحها ، إسماعها جيداً ، حتى وإن لم يقل كل شيء ، إنها كبيرة العدد ، والقليل الذي كان من شأنه أن يقوله لم يكن ليغير مجرى الأشياء . إلا أنه كان يجب أن تعرف مرساندا أن الدكتور ريكاردو ريس ، الشخص نفسه الذي قبّلها وطلب أن يتزوجها ، شاعر ، قبل أن يكون طبيباً عاماً ، وبديلاً لاختصاصي في القلب والسل ، وهو عمل قام به فضلاً عن ذلك ، دون معارف خاصة ، بصورة شريفة على اعتبار أنه لن تسجل زيادة دراماتيكية للوفيات في هذين الفرعين الطبيين منذ استلامه العمل . تخيل ردود فعل مرساندا ، دهشتها ، إعجابها ، لو كان قد قال لها ذلك في تلك الفترة ، متبنياً الهيئة اللامبالية لمن لا يعلق على الأمر أهمية أبداً . أنا شاعر ، يا مرساندا ، أكنت تعرفين ذلك ، كانت بالطبع ستقدر تواضعه ، وكان يمكن ، وهي تسائله وقد أصبحت رومنطيقية فجأة ، أن تنظر إليه بعذوبة لامتناهية ، هذا الرجل الذي بلغ الخمسين تقريباً والذي يحبني شاعر ، يا لها من روعة ، كم أنا محظوظة ، أن يحبني شاعر أمر مختلف كثيراً ، سأطلب إليه أن يقرأ لي الأشعار التي كتبها ، أفترض أنه سوف يهديني بعضها ، هذه عادة لديهم جميعاً ، إنهم يهدون كثيراً . عند ذلك ، ولتجنب ضروب غيرة محتملة ، كان من شأن ريكاردو ريس أن يشرح لها أن الصبايا اللواتي ستسمع الكلام

عنهن لسن نساء حقيقيات ، بل تجريدات شاعرية ، ذرائع ، محاورات وهميات ، وإذا كان يمكن أن نطلق هذه التسمية على ما ليس له صوت ، فإنه لا يطلب الى ربات الشعر أن يتكلمن ، بل أن يكنّ نييرا ، ليديا ، كلويه ، أية مصادفة طريفة ، لقد أمضيت سنوات أكتب فيها قصائد لليديا مجهولة ، لامادية ، وها أنا ألتقي ، في فندق ، خادمة تحمل هذا الاسم ، الاسم فقط ، لأنهما لا يتشابهان في الباقي . ريكاردو ريس يفسر ويفسر ، ليس ذلك لأن الموضوع ملتبس ، ولكنه كان يخشى الطور التالي ، أية قصيدة يختار ، ماذا ستقول مرساندا ، ماذا سيكون تعبير وجهها ، ربما سترقب في أن ترى بعينيها ما تكون قد سمعته ، أن تقوم بقراءتها الخاصة بصمت ، كما يفعل النهر بأمواجه ، أنظر الى مرور أيامك في التيار المتردد ، وإذا رأيت نفسك تمر ، فلا تقل كذلك شيئاً . قرأت وأعادت القراءة ، فهمتْ ، يرى ذلك من نظرتها ، لأنها تذكرت دون شك شيئاً ، كلمات تلفظ بها في مكتبه ، لدى لقائهما الأخير ، أحدهم جالس على ضفة النهر لينظر الى مرور التيار ، منتظراً أن يرى نفسه يمر ، بين الشعر والنثر ، تلاحظ ، بالتأكيد ، بعض الفروق ، لذلك فهمت الى هذه الدرجة في المرة الأولى ، في حين وجدت كثيراً من العناء هذه المرة . سأل ريكاردو ريس ، هل أعجبك ، أجابت ، نعم ، كثيراً ، لا شيء أكثر إطراء ، ولكن الشعراء عديمو رضى أزليون ، وجهت الى هذا الأخير أجمل الإطراءات ، كان من شأن الله نفسه أن يحب أن يقال له القدر نفسه عن العالم ، ومع ذلك فإن الكآبة تغطي نظرته ، ها هو يتنهد ، أداماستور الذي لا يستطيع أن ينتزع نفسه من الرخام الذي سجنه الخطأ والخيبة فيه ، لحم وعظم أحفوريان ، لسان متحجر ، سألت مرساندا ، لماذا هذا الصمت ، ولم يجب .

أحزان شخصية في الساعة التي تحتفل فيها البرتغال . احتفل مؤخراً فعلاً

بعيدين ، الأول يتعلق بدخول البروفسور أنطونيو دو أوليفيرا سالازار الى الحياة العامة ، منذ ثمان سنوات ، كان ذلك في الأمس ، كم يجري الزمن ، جاء لينقذ بلده وبلدنا من الهوة ، أصلحه ، فرض عليه عقيدة جديدة ، مصنوعة من الإيمان والحماسة والثقة بالمستقبل ، كما تقول الجريدة ، أما العيد الثاني ، فإذا كان مايزال يتعلق بالبروفسور ، فإنه مرتبط بحدث أكثر خصوصية ، على اعتبار أنه سيحتفل غداً بسنواته السبع والأربعين ، فهو ولد إذن في السنة نفسها التي ولد فيها هتلر ، بفرق لا يتجاوز بضعة أيام ، يا لها من مصادفة ، رجلان عامان على هذا القدر من الأهمية . وسوف نحتفل قريباً بالعيد القومي للعمل ، ألوف من العمال سيسيرون في ليشبونة ممدودي الأذرعة على الطريقة الرومانية ، وهي حركة تعود الى الزمن الذي كانت فيه براغا تسمى براكار أوغستا ، وستكون هناك عربات ، حوالي مائة ، ستمثل كل واحدة منها مشهداً من العمل القروي ، القطافات ، العصر ، العزق ، الحلج ، الدرس ، أو أيضاً الخزافون الذين يقولبون ديكة وصفارات ، الطرّازات ومغازلهن ، الصيادون بشباكهم ومجاذيفهم ، الطحان مع حماره وكيس دقيقه ، الغزالة مع مغزلها ، هذا لا يساوي سوى عشر عربات ، مازال ينقص تسعون منها ، أخيراً البرتغاليون يفعلون كل ما يقدرون عليه ليصبحوا عمالاً جيدين ، تشجعوا ، ستتوصلون الى هذا لاسيما وأنه لن تنقص ، للتعويض عن ضروب اللهو ، حفلات المجموعات الفيلهارمونية ، والرقصات الفولكلورية ، الألعاب النارية ، معارك الزهور ، المآدب ، إنه عيد دائم . من واجبنا أن نعلن ، أمام هذا الفرح الفائض ، أن احتفالات أول أيار فقدت ، في كل مكان آخر ، أهميتها الأصلية ، وإذا كان يحتفل بالشيء في مدريد بإنشاد «الأممية» وبالهتاف في الطرقات بحياة الثورة ، فلا يمكن أن تقبل هذه المبالغة في وطننا . يرد الخمسون ألف إسباني الذين وجدوا ملجأ في

واحة السلام هذه ، شكراً لله . ما هو مؤكد الآن ، على اعتبار أن اليسار قد ربح أيضاً الانتخابات في فرنسا ، وأن الاشتراكي بلوم أعلن استعداده لتشكيل حكومة جبهة شعبية ، إننا سنرى كمية من الفرنسيين تتوافد الى هنا . غيوم منذرة بعاصفة تتراكم على جبين أوروبا المهيب ، وكما لو لم يكفها أن تخطف على ظهر الثور الاسباني الغاضب ، فقد جاء الآن دور شانتكلر ليسمع صوته ، إلا أنه إذا كانت أول ذرة للشحارير ، فإن أفضل محصول هو لمن يستحقه* ، فلنعر أذناً صاغية للماريشال بيتان الذي لا يلوك كلماته على الرغم من كبر سنه ، من أربعة وثمانين شتاء محترماً . أكد العجوز قائلاً ، في رأيي أن كل ما هو أممي ضار ، وكل ما هو قومي مفيد وخصب ، رجل يعبر عن نفسه بهذا الشكل لا يمكن أن يموت دون أن يقدم برهاناً أوضح ما على مزاجه .

حرب أثوبيا انتهت . هذا ما أتى على إعلانه موسوليني من شرفة قصره ، أعلن للشعب الإيطالي وللعالم أن الحرب قد انتهت ، وللرد على هذا الصوت الرجولي ، أخذت جماهير روما ، وميلانو ، ونابولي ، جماهير إيطاليا كاملة ، ملايين من الأفواه ، بالهتاف باسم الدوتشي ، الفلاحون تركوا حقولهم ، والعمال مصانعهم من أجل أن يرقصوا ويغنوا في الشوارع ، مأخوذين بالحمى الوطنية ، كان بنيتو على حق ، لإيطاليا روح إمبراطورية ، من أجل هذا انتصبت في قبورها الظلال الجليلة ، أغسطوس ، تيبريوس ، كاليغولا ، نيرون ، فيسبازيانوس ، نيرفا ، سبتيموس سيفيريوس ، دوميسيانوس ، كاراكلا ، وأشباههم ، وقد عادوا الى مقامهم العالي القديم ، ليشكلوا سياج شرف للخليفة الجديد ، الفائق الجلال فيتوريو إيمانويل

* لعبة لفظية لا يمكن أن تؤدى باللغة العربية تعتمد على التجانس بين premier maïs (أول ذرة) وpremier mai (أول أيار) .

الثالث ذي الهيئة الشامخة ، الذي أتى على إعلانه ، حرفياً وبكل اللغات ، إمبراطوراً لإفريقيا الشرقية الإيطالية ، مع بركة ونستون تشرشل ، في الوضع الحالي للأمور ، يمكن أن تكون نتيجة الإبقاء على العقوبات على إيطاليا أو زيادتها حرب مخيفة ، دون أية فائدة للشعب الإثيوبي . ها نحن قد اطمأنّينا . إذا كان يجب أن تكون هناك حرب ، فستحدث واحدة ، إذا كان يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها ، ولكنها لن تكون أرهب مما كانت عليه الحرب ضد الأحباش .

أديس أبابا ، يا لها من روعة لغوية ، أيتها الشعوب الشاعرية ، أديس أبابا تعني الزهرة الجديدة . أديس أبابا تحترق ، الطرقات مفروشة بالجثث ، اللصوص يقتحمون أبواب المنازل ، يغتصبون ، ينهبون ، يذبحون النساء والأطفال ، في حين تقترب قوات بادوغليو . النجاشي هرب الى الصومال الفرنسية التي سيمضي منها على ظهر طراد بريطاني الى فلسطين ، ثم ، قريباً ، في نهاية الشهر ، الى جنيف ، أمام مجمع حكماء عصبة الأمم الرسمي ، سيطرح السؤال التالي ، أي جواب يجب أن أحمله الى شعبي ، لن يجيب أحد ، بل وقبل أن يفتح فمه ، سوف يهزأ به الصحفيون الإيطاليون الحاضرون ، فلنكن متسامحين ، ضروب التحمس القومية تعمي الذكاء ، كل الناس يعرفون ذلك ، من لم يقع قط في هذا النوع من الإغراء ، فليكن أول من يقذف بحجر . أديس أبابا تحترق ، الطرقات مفروشة بالجثث ، اللصوص يقتحمون أبواب المنازل ، يغتصبون ، يذبحون النساء والأطفال ، في حين تقترب قوات بادوغليو ، موسوليني صرح ، الحدث الكبيرالذي يمهر مصير إثيوبيا قد وقع ، ماركوني الحكيم أطلق تحذيره ، الذين سيغرون باستبعاد إيطاليا سيقعون في أرهب أنواع الجنون ، في حين أن أيدن يلمح ، الظروف تنصح برفع العقوبات ، وأن المانشستر غارديان ، الناطقة بلسان الحكومة

الانكليزية ، تتبين أن من الصواب أن ترد الى ألمانيا مستعمراتها ، غوبلز يؤكد من جهته ، عصبة الأمم شيء ممتاز ، ولكنها لا تساوي أسراب المقاتلات . أديس أبابا تحترق ، الطرقات مفروشة بالجثث ، اللصوص يقتحمون أبواب المنازل ، يغتصبون ، في حين تقترب قوات بادوغليو . أديس أبابا تلتهب ، البيوت تحترق ، الأقواس والأسوار دمرت ، الأطفال الذين اخترقتهم الرماح يدمون الطرقات . مرّ ظل على جبين ريكاردو ريس المتشنج والمهموم ، ما هذا ، من أين يأتي هذا التشابك ، الجريدة تقول لي ببساطة إن أديس أبابا تحترق ، وإن قطاع الطرق ينهبون ، يغتصبون ويذبحون ، وإن قوات بادوغليو تقترب ، الدياريو دو نوتيسياس لا تتحدث عن نساء سقطن في أسفل جدرانها منهارة ، وعن أطفال اخترقتهم الرماح ، لا يوجد في أي مكان ذكر للاعبين منخرطين في مباراة شطرنج في أديس أبابا . ذهب ريكاردو ريس ليحضر « إله المتاهة » من على طاولة الليل ، إنه هنا ، في الصفحة الأولى ، الجسد الذي عثر عليه اللاعب الأول كان يحتل ، مفتوح الذراعين ، خانتي بيدقي الملك والوزير ، وكذلك الخانتين التاليتين في معسكر الخصم ، اليد اليسرى على خانة بيضاء ، واليد اليمنى على خانة سوداء ، لا ميت آخر في هذه الصفحات ، قوات بادوغليو لم تمر من هنا . أعاد ريكاردو ريس « إله المتاهة » الى حيث وجده ، يعرف الآن ما يبحث عنه ، فتح درجاً من الخزانة التي كانت تخص قاضي محكمة الاستئناف والتي كانت تؤوي التعليقات المخطوطة على مجموعة القانون المدني ، سحب منه الملف الذي يحتوي على قصائده ، الأبيات السرية التي لم يحدث عنها مرساندا أبداً ، أوراقه المخطوطة التي ليست ، هي أيضاً ، سوى تعليقات ، ولكن كل شيء ليس تعليقاً ، ستكتشفها ليديا ذات يوم ، عندما يحين وقت الغياب الذي لا دواء له ، كتب على أول ورقة ، يا رب إنهنّ هادئات ، وفي

هذا اليوم نفسه ، على أوراق أخرى ، الآلهة منفيون ، توجوني بالورود ، الإله يان ليس ميتاً ، عربة أبولون درجت ، ومرة أخرى هذه الدعوة التي نعرفها جيداً ، تعالي اجلسي معي ، يا ليديا ، على حافة النهر ، شهر حزيران محرق ، لن تتأخر الحرب ، بعيداً ، تحت الشمس ، الجبال مغطاة بالثلج ، ليس هناك سوى زهور على مدى النظر ، شحوب النهار ما يكاد أن يكون مذهباً ، لا شيء في يديك لأنه حكيم ذاك الذي يكتفي بمشهد العالم . بما أن الأيام تمر على الأوراق ، والبحر يستريح ، والرياح تئن سواً ، إذا كانت الأيام تتعاقب فكل شيء يأتي في ساعته ، يقلب الصفحات بإصبع مبللة ، ها نحن ، سمعت يقال إنه سابقاً في فارس ، هنا ، وليس في أي مكان آخر ، لعبة الشطرنج هي هنا ، ونحن اللاعبون ، أنا ريكاردو ريس ، وأنت قارئي ، البيوت تحترق ، الأقواس والأسوار مدمرة ، ولكن عندما يكون ملك العاج مهدداً ، ما أهمية لحم الأخوات والأمهات والأطفال وعظامهم ، أصبحنا نحن أنفسنا صخوراً ، لم نعد سوى لاعبين ، لاعبي شطرنج . أديس أبابا تعني الزهرة الجديدة ، الباقي سبق أن قيل . رتب ريكاردو ريس قصائده ، أغلق عليها بالمفتاح ، المدن تسقط ، الشعوب تعاني ، لم تعد هناك حياة ولا حرية ، لم يبق علينا سوى أن نقلد فرس التاريخ ، لو كنا إيطاليين ، لكنا نحن أيضاً صفرنا للنجاشي في عصبة الأمم ، ولكن بما أننا برتغاليون ، فمن المسموح به لنا أن ندندن في النسيم اللطيف عندما نمر أمام عتبة بيتنا ، ستقول جارة الطابق الثالث ، الدكتور في مزاج طيب ، هناك موجب لذلك ، وستضيف جارة الطابق الأول ، ليس المرضى هم الذين ينقصون ، وبما أنهما لا تعرفان شيئاً ، فقد اعتمدتا على المظاهر ، دكتور الطابق الثاني ابتعد وهو يكلم نفسه .

ريكاردو ريس مضطجع ، رأس ليديا يستريح على ذراعه اليمنى ، يغطي

شرشف جسديهما المتعرقين ، هو عار ، وهي في قميص ملفوف حول قامتها ، نسي كلاهما الصباح الذي فهم فيه أنه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً في حين تساءلت عن الخطأ الذي أمكنها أن تقترفه من أجل أن تصد ، إذا كانت هذه الذكرى قد لامستهما ، فسرعان ما طرداها من ذهنيهما . على الشرفات ، خلف البناية ، الجارات يتناقلن كلمات ذات معنى مزدوج ، ويتبادلن حركات موحية ، يلقين على بعضهن غمزات ، ها هما يبدآن من جديد ، العالم يمضي نحو ضياعه ، هذا لا يصدق حقاً ، يا للعار ، لم يكن الأمر ينقضي معي هكذا ، لا بالذهب ، ولا بالفضة ، ولا بخيوط القطن* ، هذا ما كان يمكن أن تضيفه هؤلاء النساء المغيظات والغيورات لو كنّ قد احتفظن بشيء من فتنة فتيات الماضي الصغيرات اللواتي كن يرقصن بثياب قصيرة ، مغنيات دوارات ، في حديقة زمن الألعاب البريئة . ليديا سعيدة ، المرأة التي تهب نفسها بهذا المقدار من المتعة ليس لها أذنان ، فليثرثروا في الباحات والحدائق ، فلتلق عليها الجارات الغافلات والمنافقات نظرات غاضبة ومهددة وهن يصادفنها على السلالم ، إنها تسخر من ذلك . بعد قليل ، ستنهض لترتيب المنزل وغسل الأواني القذرة التي تتراكم ، ولتكوي مناديل هذا الرجل المضطجع الى جانبها وقمصانه ، من كان يمكن أن يقول لي إني سأكون ، ماذا أقول ، الصديقة ، العشيقة ، لا هذه ولا تلك ، عن هذه الليديا لن يقول أحد ، ليديا هي صديقة ريكاردو ريس الصغيرة ، أو أيضاً ، أتعرف ليديا ، عشيقة ريكاردو ريس ، إذا تحدثوا عنها يوماً ، فسيكون ذلك بهذه الكلمات ، كان لريكاردو ريس خادمة لطيفة جداً ، صالحة لكل المهمات ، ولم تكن تكلفه غالباً . تمطت بساقيها ، واقتربت منه بحركة متعة حنون

* كلمات أغنية من التي تغنى في دوارات الأطفال .

أخيرة ، قال ريكاردو ريس ، الطقس حار ، عند ذلك ابتعدت قليلاً ، حررت ذراعها ، ثم جلست على السرير وفتشت عن تنورتها ، جاء وقت البدء في العمل . في هذه اللحظة قال ، غداً سأذهب الى فاطمة . خيل إليها أنها لم تسمع جيداً ، وسألت ، أين أنت ذاهب . الى فاطمة . لم أكن أعتقد أن قصص الكنائس هذه من نوعك . أنا ذاهب الى هناك لمجرد الفضول . إيه ، حسناً ، أنا لم أذهب إليها قط ، ليسوا مؤمنين في أسرتي . أجاب ، هذا عجيب ، يريد بذلك أن هذا النوع من التقوى عملة رائجة لدى أبناء الشعب ، لم تجب ليديا بشيء ، نزلت من على السرير وارتدت ملابسها بسرعة ، كانت تفكر فعلاً في شيء آخر عندما سمعته يضيف ، ستكون بالنسبة لي نزهة ، أنا لا أتحرك أبداً من هنا . سألت ، هل ستبقى عدة أيام ، كلا ، ذهاب وإياب فقط . وأين ستنام ، يقال إن هناك زحاماً كبيراً ، إن الناس ينامون في الخلاء . سأرى جيداً ، لم تقتل ليلة بيضاء أحداً قط . ربما التقيت بالآنسة مرساندا ، قالت لي إنها ستذهب الى فاطمة هذا الشهر . آه حسناً . وقالت لي أيضاً إنها لن تعود بعد الى رؤية طبيب ليشبونة ، وإنها تعلم أنها لن تشفى أبداً ، يا للآنسة المسكينة . تعرفين أشياء عن حياة الآنسة مرساندا . كلا ، ليس الكثير ، فقط أنها ستذهب الى فاطمة ، وأنها لن تعود بعد الى ليشبونة . وهذا يؤلمك . كانت دائماً طيبة معي . هناك احتمال ضعيف في أن أصادفها وسط كل هذا الجمهور . يمكن أن يحدث ذلك ، من كان يمكن أن يتنبأ بأني سأكون في بيتك ، كان يمكن أن تنزل في فندق آخر عندما وصلت من البرازيل . إنها مصادفات الحياة . لا شيء أكثر تأكيداً من القدر . الموت أكثر تأكيداً أيضاً . الموت قسم من القدر أيضاً ، والآن سأذهب لأكوي قمصانك ، وأغسل الآنية ، وإذا بقي لدي قليل من الوقت ، فسوف أذهب لزيارة أمي التي تشكو من أنها لم تعد تراني .

فتح ريكاردو ، وهو يستند الى الوسادة ، كتاباً ، ليس كتاب هربرت كوين الذي كان يشك في كونه سينهيه ذات يوم ، بل ديزاباريسيدو* لكارلوس كيروس ، وهو شاعر كان يمكن ، لو شاء القدر أن يكون ابن أخ فرناندو بيسوا** . بعد دقيقة ، تبين له أنه لا يقرأ ، بل يحتفظ بعينيه مشدودتين الى صفحة ، على بيت واحد ، بدا له معناه مستعصياً فجأة ، يا لها من فتاة غريبة ليديا هذه ، تقول أشياء بسيطة جداً ، ولكنها تقولها بطريقة يمكن أن تعتبر معها غلاف كلمات أعمق ، لا تستطيع أو لا تريد أن تتلفظ بها ، لو لم أخبرها بسفرتي الى فاطمة ، فإني أشك كثيراً في أنها كانت ستحدثني عن مرساندا ، كانت ستسكت احتمالاً ، محتفظة بسرها ، غيظاً وغيرة ، كما فعلت في الفندق ، وفضلاً عن ذلك ، فماذا يمكن أن تكون حقاً المحادثات بين هاتين المرأتين في موضوعي ، الزبونة والخادمة ، الغنية والفقيرة ، فإما أن كلاً منهما تجهل دور الأخرى ، وإما أنهما تعرفان ما هو عليه الأمر ، وتلعبان إذّاك لعبة حواء وحواء ، مستعملتين حيلاً وخدعاً ، لاجئتين الى تلميحات خجلة ، ضروب صمت ضمنية ، ولكن ربما تناسب لعبة السيدات هذه ، بعد كل شيء ، جيداً الرجال الذين يخفون ميلهم تحت قناع العنف العضلي ، كان يمكن لمرساندا أن تعبر عن نفسها على هذا النحو ، الدكتور ريس قبلني ، وتوقف هذا هنا ، في حين أنه كان من شأن ليديا أن تجيب ببساطة ، ولكني أنام معه ، وهذا بدأ قبل أن يقبلني بوقت طويل ، ثم كان يمكن أن تستمرا في التخاطب حول أهمية ودلالة هذه الفروق في المعاملة ، لا يقبلني إلا عندما نكون نائمين معاً ، قبل ما تعلمين وبعده ، أنا ، قال لي ، سأقبلك ، أما ما تتحدثين عنه ، فأنا أعلم فقط أن هذا

---

* المختفي

** كان كارلوس كيروس ابن أخ أوفيليا كيروز التي كانت ، لفترة ما ، « خطيبة » فرناندو بيسوا .

يجري ، لا أعرف ما هو ، لأن أحداً لم يفعله معي . في ذات يوم ستتزوجين ، يا آنسة مرساندا ، ومنذ أن يصبح لك زوج ، ستعرفين ماهو . أنت التي تعرفين هذا ، قولي إذا كان لذيذاً ، عندما يروق لك الآخر ، نعم ، وهل يروق لك أنت ، نعم ، ولي أيضاً ، ولكنني لن أعود أراه . تستطيعين أن تتزوجيه ، إذا تزوجته ، فربما كف عن أن يروق لي . أنا أعتقد أنه سيروق لي دائماً ، المحادثة تستمر ، الصوتان يبدآن في التمتمة خفية ، تتكلمان دون شك عن أكثر أحاسيسهما خصوصية ، وهذه هي النقطة الضعيفة لدى كل النساء ، الآن حديث حواء لحواء حقاً ، فلينسحب آدم ، إنه زائد على اللزوم . كف ريكاردو ريس عن القراءة ، وكأن تسليته الخاصة لا تكفيه ، أتى على الوقوع على صفحة يدور الأمر فيها حول فارينا ، اسم علم هنا ، أو فارينا مرّي ، مرّي أنت التي هي زهرة العرق ، جمال البلد الأسمى ، أولاً ، لا تغفر لهم ، يا رب ، لأنهم يعلمون ماذا يفعلون ، كان يمكن للمناقشات الشعرية بين العم وابن الأخ أن تكون مخيفة ، أنت ، يا بيسوا ، أنت يا كيروس ، أما بالنسبة لي ، فإن الآلهة السيدة أعطتني ضمير الكائنات والأشياء الواضح والرسمي . نهض ، ارتدى سترته الداخلية ، أو رداءه المنزلي كي نستخدم المصطلح الفرنسي الأرقى ، وبالجوربين ، وكان طرف ردائه يداعب ساقيه ، ذهب يبحث عن ليديا . كانت في المطبخ تكوي ، دون قميص ، لتخفف من حرارة جسمها ، عندما رآها ريكاردو ريس هكذا ، رأى البشرة البيضاء التي توردت بالجهد ، قدر أنه يدين لها بقبلة ، أحاط بكتفيها بحنان ، جذبها إليه ، ودون مزيد من التفكير ، أخذ يقبلها ببطء ، تاركاً بين حين وآخر ، مكاناً للشفاه ، انبهرت أنفاس ليديا من جراء ذلك ، كانت تلك أول مرة منذ لقائهما التي يقبلها ، فيها ، مثل هذه القبلة ، إذا رأت مرساندا من جديد ، فسوف يمكنها أن تقول لها ، لم يقل لي سأقبلك ، بل فعل ذلك .

في الغد ، ذهب ريكاردو ريس الى فاطمة مبكراً الى درجة وجد ، معها ، من المناسب أن يضبط المنبه . كان القطار يغادر الروسيو في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والخمسين ، ولكن الرصيف كان أسود من كثرة الناس قبل أن يأخذ مكانه على السكة نصف ساعة ، كان هناك أناس من جميع الأنواع يحملون سلالاً وأكياساً وأغطية ومقششات ، ويتحدثون بصوت مرتفع ، منادين بعضهم بعضاً . كان ريكاردو ريس قد اتخذ احتياطاته ، بطاقة للدرجة الأولى ، مكان محجوز ، حياه المراقب ، وعمرته في يده ، كان معه القليل من الحوائج ، مجرد حقيبة صغيرة ، لم يكن قد أراد سماع نصيحة ليديا ، هناك غالباً ما ينبغي النوم في العراء ، سوف يرى جيداً عندما يصل ، المسافرون والحجاج الراقون يجدون دائماً حلاً . تأمل ريكاردو المشهد ، وقد جلس مرتاحاً قريباً من النافذة ، نهر التاج بعرضه الكبير ، بضفتيه المغمورتين بالمياه في بعض المواضع ، الثيران التي ترعى ، الطرادات التي تصعد صفحة النهر المتلألئة ، ست عشرة سنة من الغياب كفت لجعله ينسى كل شيء ، وها هي الصور الجديدة تطابق تلك التي تنبعث من ذاكرته ، كما لو كان بالأمس فقط قد مرّ من هنا . في كل محطة ، في كل موقف ، كان أناس يصعدون ، هذا القطار قفة حقيقية ، لم يعد هناك مكان شاغر واحد في الدرجة الثالثة منذ الروسيو ، والمسافرون يتكدسون في الممرات المزدحمة ، ربما بدأ غزو عربات الدرجة الثانية ، وعما قريب سيتدحرجون حتى هنا ، لا فائدة من الاحتجاج ، إذا أراد المرء الراحة والسلام ، فما عليه سوى أن يسافر في سيارة . بعد اجتياز سانتاريم ، في الساحة الطويل الذي يقود الى فاليه دو فيغيرا ، القطار ينفخ ، يبصق نفثات من البخار ، يلهث ، الحمل ثقيل ، وهو يتقدم بدرجة من البطء يمكن ، معها ، للمرء أن يذهب ليقطف زهوراً من الحفر ثم يعود في ثلاث قفزات للصعود على المرقاة . علم

ريكاردو ريس أن راكبين فقط من المقصورة لن ينزلا في فاطمة . كان الحجاج يتحدثون عن الوعود المحققة ، يتنازعون لمعرفة من منهم كان الأكثر حجاً ، بل إن هناك من صرح ، وربما كان ذلك صحيحاً ، بأنه لم يفته سوى حج واحد خلال السنوات الخمس الأخيرة ، في حين زايد آخر ، مع هذه يكون قد حج ثمان مرات ، ربما كان يكذب ، في الوقت الحاضر ، لم يتباه أحد بعد بمعرفة الأخت لوسيا* ، بالنسبة لريكاردو ريس ، كل هذه الثرثرات تذكره بتلك التي يسمعها في غرفة انتظاره ، حيث يجري تبادل إسرارات مظلمة حول فوهات الجسم التي يأتينا منها كل الخير ، أو التي ينتج فيها كل الشر . لم يصعد أحد في محطة ماتودو ميراندا ، التوقف كان أطول ، يسمع من بعيد ، هناك في المنعطف ، نفس الآلة ، سلام كبير يخيم على أشجار الزيتون . أنزل ريكاردو ريس زجاج النافذة ، ونظر خارجاً . كانت امرأة مسنة حافية القدمين ، ترتدي السواد كاملاً ، تقبل غلاماً نحيلاً ، في حوالي السادسة عشرة من عمره ، قائلة له ، يا صغيري الحبيب ، كانا ينتظران أن يبتعد القطار كي يقطعا السكة ، إنهما غير ذاهبين الى فاطمة ، العجوز جاءت لتنتظر صغيرها الحبيب ، وحسب رأي المختصين في العواطف ، لا حب يتجاوز هذا الأخير . دوى بوق رئيس المحطة ، صفرت القاطرة ثلاث مرات بف ، بف ، بف ، متباعدة ، ثم تحركت ببطء ، السكة مستقيمة الآن ، ويمكن للمرء أن يظن نفسه في قطار سريع . شحذ الهواء الصباحي الشهيات ، وعلى الرغم من أن ساعة الغداء ماتزال بعيدة ، فقد نشرت أولى المؤن . كانت عينا ريكاردو ريس مغمضتين ، ينعس في تأرجح العربة كما في سرير ، حلم بحدة ، ولكنه حين أفاق لم يتذكر سوى شيء

* يدور الأمر حول إحدى الراعيات التي شاهدت ظهور العذراء ثم دخلت الدير باسم الأخت لوسيا .

واحد ، هو أنه لم يتوفر له الوقت لتنبيه فرناندو بيسوا الى أنه ذاهب الى فاطمة ، إذا جاء ليطل على المنزل ولم يجدني فيه ، فما عساه يظن ، سيعتقد أني عدت الى البرازيل دون كلمة وداع أخيرة . تخيل إذذاك مشهداً ، سيناريو بطلته مرساندا ، إنها جاثية ، يداها مضمومتان الى بعضهما ، أصابعها متشابكة ، وتمتشق وزن ذراعها الميت ، تمثال العذراء يمر ، ولم تحدث المعجزة ، لا عجب في ذلك ، امرأة قليلة الإيمان ، اقترب ريكاردو ريس في اللحظة التي كانت مرساندا المستسلمة تنهض فيها ، لمس بالبنصر والسبابة ثديها من جانب القلب ، وحدثت المعجزة ، معجزة ، معجزة ، هتف الحجاج الذين نسوا آلامهم الخاصة وهرعوا ، تحملهم الجمهرة ، العرج ، المشلولون ، المسلولون ، المصابون بالغدة الدرقية ، المصروعون ، العميان تقدموا بمشقة ، وهذه الجمهرة التي تحيط بريكاردو ريس تستجدي الرحمة مرة أخرى ، في حين تشير إليه مرساندا ، وراء غابة الرؤوس المزمجرة ، رافعة ذراعيها ، وتختفي ، يا لها من مخلوقة جاحدة ، ما كادت أمنيتها أن تتحقق حتى هربت . فتح ريكاردو ريس عينيه ، تساءل عما إذا كان قد أغفى ، وسأل جاره ، كم بقي علينا من الوقت . وصلنا ، نام إذن ، ونام طويلاً .

أخلي القطار عند محطة فاطمة . تزاحم الحجاج الذين أتوا على تلقي عطر المقدس في وجوههم ، الأسر التي تفرقت فجأة تصرخ بهتافات ، ميدان المحطة يشبه معسكراً عسكرياً يتهيأ لمعركة . معظم هؤلاء الناس سيجتازون على أقدامهم هذه المسافة الطويلة التي تبلغ عشرين كيلومتراً حتى كوفادا ايريا ، أما بالنسبة للآخرين ، المخلعين ، المصابين بالربو ، فقد أسرعوا الى صفوف انتظار السيارات ، وهو مجهود أخير ينهيهم . السماء صافية ، الشمس عالية وحارة ، أخذ ريكاردو ريس يبحث عن مكان لتناول طعام

الغداء . كان باعة متجولون كثيرون يبيعون أرغفة خبز صغيرة مستديرة ، فطائر بالجبن ، بسكويت كالداس ، تيناً يابساً ، أباريق ماء ، ثماراً ، أطواق بصل ، فستقاً وترمساً ، أما بالنسبة للمطاعم ، فهي لا تستحق أبداً هذا الاسم ، فهي ليست سوى حوانيت حقيرة مزدحمة الى درجة التصدع ، حانات لا يمكن حتى الدخول إليها ، يجب أن يتسلح المرء بالصبر إذا أراد الوصول الى شوكة أو سكين أو طبق مليء . إلا أن ريكاردو ريس استطاع الإفادة من المد الروحي الذي يحرك الأمكنة ، بعض الزبائن رأوه في هذا اللباس الحسن ، في ثياب المدينة ، فانتهوا الى إفساح مكان له ، وهو تهذيب سمح لريكاردو ريس بأن يتغدى قبل الوقت المتوقع ، سمكاً مقلياً ، بطاطا بالخل ، بيضاً مخفوقاً من أجل حب الله ، ذلك أنه ليس لأبناء الشعب وقت يضيعونه في ضروب الترف . شرب خمراً كان يمكن أن يكون خمر قداس ، وأكل خبزاً ريفياً طيباً رطباً وثقيلاً ، وبعد أن شكر ندماءه ، راح يبحث عن وسيلة نقل . كان الفناء قد فرغ قليلاً في انتظار قافلة قادمة من الشمال أو الجنوب ، ومع ذلك ، فإن الحجاج الذين قدموا مشياً على الأقدام من بعيد جداً كانوا يتوافدون باستمرار . دوى صوت زمور أجش يعلن أنه مازالت هناك أماكن في السيارة ، أخذ ريكاردو ريس يركض ، وتوصل الى بلوغ مقعد صاعداً فوق السلال ورزم الحصر والأغطية ، وهو مجهود هائل بالنسبة لمن بدأ يهضم ، وقد أنهكته الحرارة . ارتعدت السيارة بعنف وتحركت ، رافعة غيوماً من الغبار على الطريق المرصوف المنقوب . كان يخمن ، من وراء زجاج النوافذ القذر ، منظر متموج ، قاحل ، في وحشية غابة عذراء في بعض المواضع .

كان السائق يزمر باستمرار ، من أجل أن يصد جماعات الحجاج عن جانب الطريق ، ويقوم بدورات بمقوده ليتجنب الأخاديد ، وكان كل ثلاث

دقائق يبصق بصخب من النافذة المفتوحة . كان الطريق يشبه منملة ، طابوراً طويلاً من المشاة ، والعربات ، والعجلات التي تجرها الثيران ، وكل واحد يتقدم بإيقاعه ، من وقت لآخر ، كانت تمر سيارة فخمة بسائق في ثياب رسمية هادرة ، وفي داخلها ، سيدات مسنات يرتدين الأسود ، الرمادي أو الكحلي ، وسادة بدينون ببذلات قاتمة كانوا يبدون الهيئة المتحفظة للذين تزيد ثروتهم لدى كل تقدير ، كان يمكن تأمل المشهد على مهل ، لأن العربات السريعة كانت تجد نفسها أحياناً مجبرة على الإبطاء ، أمام زحمة الحجاج الذين يسدون الطريق ، وعلى رأسهم الكاهن ، ومن العدل أن يحمد تضامن هذا المرشد الروحي والزمني ، على درب التضحية المشتركة الذي يمضي إليه على قدميه كرعيته ، في الغبار وعلى الحجارة . معظمهم يمضون حفاة ، بل إن بعضهم فتح مظلات ليحتمي من الشمس ، ولأنه ليس من النادر أن نصادف في الشعب أناساً رؤوسهم رقيقة ويمكن أن يغمى عليهم . كانت أناشيد تدوي ناشزة ، وأصوات النساء الحادة تتردد في شكاة لا تنتهي ، مثل شهقة بكاء دون دموع ، في حين أن الرجال الذين يجهلون كل الكلمات تقريباً ، يكتفون بالإلحاح على المقاطع القرارية ، مشكلين على هذا النحو نوعاً من طبقة منخفضة مستمرة ، مرضية للجميع . هنا وهناك ، أناس يجلسون في الحفر ليرتاحوا في ظل الأشجار ، ويستعيدوا قواهم قبل القسم الأخير من الرحلة ، وهم يقضمون قطعة خبز وسجقاً ، فطيرة من سمك الموره ، سمكة سردين قُليت منذ ثلاثة أيام ، هناك في القرية . وبعد أن يستعيدوا قواهم ، يستأنفون الطريق ، النساء اللواتي يحملن سلال المؤونة على رؤوسهن ، يرضعن أحياناً أطفالاً ، دون أن ينقطعن عن السير . وها هم ، في كل مرة تمر فيها سيارة ، يغطيهم الغبار ، ولكن أحداً لا يبالي ، لكن أحداً لا يحس ، هذا هو نصيب الراهب والحاج ، العرق يسيل من

جباههم ، يحفر أخاديد في الغبار ، عند ذلك يمسح الواحد منهم بظاهر يده وجهه الذي يتحول من ملوث الى قذر . الحرارة تكسب الوجوه سمرة ، لكن النساء لا يحللن خماراتهن ، والرجال لا ينزعون ستراتهم ، أو معاطفهم المصنوعة من القماش الخشن ، القمصان تبقى مزررة والياقة مضغوطة ، هذا الشعب يحتفظ لاشعورياً في ذاكرته بعادات الصحراء ، مازال يؤمن بأن ما يحمي من البرد يحمي أيضاً من الحرارة ، من أجل ذلك يغطي نفسه من رأسه الى قدميه كما لو كان ذلك ليتخفى . تشكل تجمع صغير في المنعطف حول شجرة ، كانت تسمع صرخات ، النساء ينتفن شعرهن ، هناك رجل ممدد على الأرض ، أبطأت السيارة سيرها لتعطي الوقت للركاب لتقدير المشهد ، صرخ ريكاردو ريس إذ ذاك بالسائق ، توقف ، دعني أرى ما يجري ، أنا طبيب . ارتفعت تمتمات احتجاج ، كل الناس مستعجلون على الوصول الى أمكنة المعجزات ، ولكن بما أنهم لا يجرؤون على أن يبدوا لاإنسانيين ، انتهوا الى الهدوء . نزل ريكاردو ريس ، شق طريقاً ، جثا في الغبار أمام المريض ، بحث عن نبضه ، إنه ميت ، قال ، إنه ميت ، لم يكن من الضروري قطع الرحلة من أجل إعلان هذا ، وبما أن الأسرة عديدة ، فقد تضاعفت ضروب البكاء ، الأرملة وحدها ، وهي عجوز أكبر سناً من الميت أيضاً ، ولا عمر لها الآن ، كانت تنظر إليه بعينين جافتين ، وشفتين مرتعشتين ، تلوي بيديها أطراف شالها . صعد إثنان من الأسرة في السيارة للذهاب من أجل أن يطلبا من سلطات فاطمة أخذ الجسد ودفنه في أقرب مقبرة . ريكاردو ريس الذي عاد الى مكانه ، أصبح الآن مرمى الانتباه والنظرات ، طبيب في السيارة ، هذه صحبة مطمئنة جداً ، حتى ولو لم تفد حتى الآن إلا في التحقق من وفاة . أخبر الرجلان محيطهما أنه كان مريضاً جداً ، كان عليه البقاء في بيته ، ولكنه تعنت ، كان يقول إنه لو ترك ، فسوف يشنق نفسه على عمود

المطبخ ، وها هو الآن ، قد جاء ليموت هنا ، لا يفلت الإنسان من قدره . هز ريكاردو ريس ، حتى دون أن ينتبه ، رأسه موافقاً ، نعم يا سيدي ، القدر ، فلنتمنَ أن يزرع تحت هذه الشجرة صليب لإعلام المسافرين المقبلين ، فلتتل صلاة «أبانا الذي...» على روح من مات دون اعتراف ولا زيوت مقدسة . ولو كان اسم هذا العجوز اليعازر ، فإنه كان من شأن يسوع المسيح الذي كان ذاهباً الى كوفا دا ايريا لحضور المعجزات أن يظهر عند منعطف الطريق ، وبطرفة عين فهم كل شيء ، الخبرة هي التي تريد هذا ، كان سيقول ، وهو يشق درباً وسط المتسكعين ، للذي كان يحتج ، هل تعرف مع من تتكلم ، وكان ، إذ يقترب من العجوز غير القادرة على البكاء ، سيعزيها ، لا تحزني ، سأهتم بالأمر ، ثم كان سيخطو خطوتين الى الأمام ويرسم إشارة الصليب ، إحساسه الداخلي المنذر غريب ، ذلك أنه إذا كان هناك ، أخيراً ، فهذا يعني أنه لم يكن قد صلب بعد ، وكان سيأمر اليعازر ، قم وامشِ ، وكان اليعازر سيقوم ، اليعازر آخر ، كان سيقبل امرأته التي تستطيع أخيراً أن تبكي ، وكانت الأمور ستستأنف سيرها الطبيعي ، وعندما ستأتي العربة ، بعد قليل ، لتحمل الجسد ، فلن يفوتهم أن يقولوا لحملة المحفات والسلطات ، لماذا تبحثون عن الحي بين الأموات ، أو أيضاً ، ليس هنا ، لقد بعث حياً . لم يجر شيء مشابه في كوفا دا ايريا ، على الرغم من كل الجهود .

وصلوا . توقفت السيارة ، بصق العادم مرة أخيرة ، كان جهاز تبريد السيارة يغلي كمرجل جهنمي ، وفي حين كان الركاب ينزلون ، ذهب السائق ليحل غطاء الجهاز ، حامياً يديه من غيوم البخار التي كانت تتصاعد نحو السماء ، بخار الميكانيك يفلت من المجمرة ، لا عجب في أن يدور رأسنا قليلاً مع مثل هذه الشمس . ريكاردو ريس ، الذي اختلط بموجة

الحجاج ، تخيل ما يجب أن يعطيه ، مرئياً من السماء ، مثل هذا المشهد ، هذا الازدحام من الناس القادمين من كل النقاط الأصلية والجانبية يشكل ما يشبه نجمة شاسعة ، عند هذه الفكرة ، رفع رأسه الى السماء ، ما لم يكن هدير محرك قد جذبه حتى هذه الأعالي وهذه الرؤى السامية . في الأعلى تماماً ، كانت طائرة تلقي ، راسمة دائرة واسعة ، بمنشورات ، ربما كانت صلوات سترفع ، أو رسائل من سيدنا وإلهنا يعتذر فيها لأنه لم يستطع الحضور ويرسل ابنه الإلهي مكانه ، ابنه الذي صنع ، فعلاً ، معجزة ، وليست أية معجزة ، هناك ، عند منعطف الطريق ، هبطت الأوراق ببطء في الهواء الساكن ، دون نسمة ، استولى الحجاج ، وأنوفهم في الهواء ، بشراهة ، على النشرات البيضاء ، والصفراء ، والخضراء والزرقاء ، التي ربما تدل على طريق أبواب الفردوس ، كان عدد من الرجال والنساء جامدين ، والأوراق في أيديهم ، إنهم الأميون ، الأغلبية الساحقة في هذا المجمع الصوفي ، رجل بمريول قدّر من هيئة ريكاردو ريس أنه يجب أن يعرف القراءة سأله ، ما المكتوب هنا يا سيدي ، أجاب ريكاردو ريس ، إنها دعاية لبوفريل ، نظر إليه السائل ، مرتاباً ، تردد في سؤاله حول أي بوفريل يدور الأمر ، ثم طوى الورقة أربع طيات ، وضعها في جيب سترته ، احتفظ بما لا يفيد اليوم ، وسوف ترى ما هو ضروري لك ، ورقة حرير صغيرة يمكن أن تفيد دائماً .

إنه محيط بشري حقيقي . حول الفناء المقعر الشاسع ، تشاهد مئات الخيم ، إنه مليء بقدور على النار ، وكلاب تراقب الأملاك ، وأطفال يبكون ، وذباب يفيد من كل شيء . تجول ريكاردو ريس ، مفتوناً ببلاط المعجزات هذا الذي له أبعاد مدنية ، يخيل الى المرء أنه معسكر غجر لا تنقصه العجلات ولا البغال ولا الحمير المغطاة بالجراح التي هي وليمة لذيذة للذباب الكبير . لم يعرف ، وحقيبته في يده ، الى أين يتجه ، لا ينتظره أي

سقف مهما كان بدائياً ، يعلم من قبل ، أنه لا يوجد نزل في هذه النواحي ، ولا فندق طبعاً ، وإذا كان هناك نزل ما للحجاج ، غير مرئي من المكان الذي يوجد فيه ، فلا ينبغي أن يكون فيه سرير واحد في هذه الساعة ، حتى ولا سرير معسكر ، كل شيء يجب أن يكون قد حجز ، والله يعلم منذ كم من الزمن . مهما يكن من أمر ، فلتكن إرادة الله . الشمس محرقة ، الليل مازال بعيداً ، ولا شيء يبشر بأنه سيكون بارداً ، وإذا كان ريكاردو ريس قد جاء الى فاطمة ، فليس ذلك للاهتمام براحته ، ولكن ليلقى مرساندا . الحقيبة الصغيرة خفيفة ، فهي لا تحوي سوى أدوات الزينة ، الموس ، الصابون ، الفرشاة ، وملابس داخلية للغيار ، وجوارب ، وحذائين طويلي الساقين ضخمين ، حان فضلاً عن ذلك الوقت لانتعالهما من أجل تجنيب الآخرين ، المصنوعين من الجلد المبرنق ، أضراراً لا يمكن إصلاحها . إذا كانت مرساندا قد أتت ، فلا توجد بالتأكيد تحت هذه الخيام ، يحق لابنة مسجل عقود أن تأمل في مأوى آخر ، ولكن أي مأوى ، وأين . بما أنه كان يجب البدء بأي شيء ، فقد أخذ ريكاردو ريس يبحث عن المستشفى ، نجح في الدخول إليه ، بوصفه طبيباً ، وفي شق طريق له وسط البلبلة ، لم يكن يوجد في كل مكان سوى مرضى ممددين على الأرض مباشرة ، على فرش ومنصات موضوعة كيفما اتفق في القاعات والأروقة ، ومع ذلك كانوا يظلون صامتين في حين كانت الأسر المرافقة لهم تنتج طنيناً متصلاً من صلوات تجتازه من وقت الى آخر أنات ممزقة ، توسلات الى العذراء ، كان صوت هذه الجوقة يتضخم ، يصعد ، حاداً ، يبعث على الصمم ، ثم يعود الى الهبوط ، ويصبح من جديد تمتمة ، في ظرف لحظة . كان هناك أكثر بقليل من ثلاثين سريراً في المستوصف ، وحوالي ثلاثمائة مريض مرتبين حسب أوضاعهم ، كان عشرة منهم في وسط الطريق تماماً ، وكان يجب المرور من فوقهم ، لحسن

الحظ لم يعد أحد يبالي اليوم بطقس السحر هذا ، أنت سحرتني ، فك السحر عني الآن ، وتعاد الحركة في الاتجاه المعاكس ، مؤسف أن لا يمكن إزالة كل الشرور بالطريقة نفسها . مرساندا لم تكن هناك ، كان يتوقع ذلك ، فهي ليست طريحة الفراش ، إنها تمشي على قدميها الإثنتين ، مرضها في ذراعها ، بل إنه لا يلاحظ ذلك إذا لم تنزع يدها من جيبها . لم يكن الجو في الخارج أكثر حرارة ، والشمس لحسن الحظ ، لا تبعث رائحة العفن .

يمكن للمرء أن يقسم بأن الجمهور قد زاد أيضاً ، إنه يتكاثر بالانقسام . إنه جماعة نحل سوداء تنتقل ببطء ، تلجمها كتلتها الخاصة ، يستحيل العثور على أحدهم في هذا المرجل ، الذي يشتعل مع أنه ليس مرجل بيرو بوتيلو ، كما قال ريكاردو ريس ، وفهم إذاك أنه أتى على التسليم ، إيجاد مرساندا أو عدم إيجادها يبدو له الآن قليل الأهمية ، في هذا النوع من الأمور الأفضل هو ترك الأمر للقدر ، إذا كان يريد فسوف نلتقي ، حتى ولو بذلنا كل جهدنا في تجنب بعضنا ، ثم حكم على صياغته للموقف على هذا النحو بأنها بلهاء ، إذا كانت مرساندا هنا ، فهي تجهل حضوري ، ولن تسعى إذن الى تجنبي ، وبالتالي لدينا فرصة أكبر في أن نلتقي . مازالت الطائرة تدور ، الأوراق الملونة تنزل محومة ، ولكن أحداً ، باستثناء آخر الوافدين ، لم يعد ينتبه إليها ، مؤسف أن لا تمثل هذه النشرات رسم الجريدة الأكثر إقناعاً ، مع الدكتور ذي اللحية الرفيعة والسيدة المريضة بالتنورة الداخلية ، لو كنت قد تناولت البوفريل لما وصلت الى هذا ، هنا ، في فاطمة ، معظم الناس في حالة من الحرج كان يمكن ، معها ، لهذا الحنجور السحري أن يكون بالنسبة إليهم هبة سماوية حقاً . خلع ريكاردو ريس سترته ، وأخذ يهوي بقبعته وجهه المحتقن ، ثم أخذ ، وقد

أحس بساقيه ثقيلتين ، يبحث عن ظل يستريح فيه ، كان جيرانه المنهكون من السير والصلوات غير المنقطعة في قيلولة ويستعيدون قواهم من أجل عرض تمثال العذراء ، ومسيرة الشموع ، والسهرة الليلية الطويلة على ضوء النيران والفوانيس . أغفى هو أيضاً ، مستنداً الى جذع شجرة الزيتون ، ورقبته على الطحلب الطري . عندما فتح عينيه ، رأى السماء الزرقاء بين الأغصان ، وتذكر صبي المحطة النحيل الذي كانت جدته ، لا يمكن أن تكون نظراً لعمرها إلا جدته ، قد قالت له ، يا صغيري الحبيب ، ما عساه يفعل في هذه الساعة ، لقد خلع حذائيه بالتأكيد ، هذا أول شيء يفعله المرء عندما يصل الى القرية ، والشيء الثاني هو النزول الى النهر ، عبثاً صاحت جدته به ، لا تذهب حالاً ، الحرارة مرتفعة ، إنه لا يصغي إليها ، وهي لا تتوقع ذلك من جهتها ، الغلمان في هذا العمر يريدون أن يكونوا أحراراً ، بعيداً عن تنانير النساء ، إنهم يرشقون حجارة على الضفادع دون أن يفكروا في شر ، ذات يوم ، بعد فوات الأوان ، سيأتي تبكيت الضمير ، ولكنه لا توجد قيامة لهذه الحيوانات المسكينة . كل شيء يبدو بلا معنى لريكاردو ريس ، كونه أتى من ليشبونة الى فاطمة كما لو كان يركض خلف سراب عارفاً مقدماً أنه ليس سوى سراب ، كونه جالساً في ظل شجرة زيتون وسط أناس لا يعرفهم ، في انتظار لاشيء ، كونه يفكر في هذا الصبي الصغير الذي لمحه بسرعة في محطة هادئة ، وهذه الرغبة المفاجئة في أن يشبهه ، في أن يمسح أنفه مثله بذراعه اليمنى ، في أن يتخبط في هذه الغدران ، يقطف زهوراً ، في أن يرغب في قطفها ، وفي أن ينساها ، في أن يسرق فواكه من البساتين ، في أن يهرب باكياً وصارخاً بسبب الكلاب ، في أن يلاحق البنات ، ويرفع تنانيرهن ، لأنهن يخفن من ذلك ، فضلاً عن ذلك ربما كان هذا يروق لهن ، ولكنهن يتظاهرن بالعكس ، وريكاردو ريس يكتشف

إذ ذاك أنه كان يحب لو أنه فعل كل هذا ، وأنه لم يعترف لنفسه بذلك أبداً ، تمتم ، متى عشت إذن ، وظن الحاج المجاور له أن الأمر كان يدور حول موعظة جديدة ، حول صلاة ماتزال تجريبية .

مالت الشمس ، ولكن الحرارة لم تهبط . في الفناء الذي لم يعد يمكن وضع إبرة فيه ، الحشد مازال يتلاصق في دفق متصل ، جريان يبدو من بعيد بطيئاً ، بعضهم ، من هذا الجانب ، مازال يحاول أن يكسب أفضل الأمكنة ، يجب أن يكون هذا صحيحاً في الجانب الآخر . تبين لريكاردو ريس الذي ذهب ليقوم بجولة ، فجأة ، وجود حج آخر ، حج التجارة والتسول ، وإذا لم يكن جديداً ، فهو أكثر جلاء فجأة . هناك فقراء يتسولون ومتسولون ، التمييز ليس شكلياً فقط ويجب احترامه بدقة ، ذلك أنه إذا تسول الفقير ، فإن المتسول يجعل من التسول ، بالمقابل ، نمط حياته ، وليس نادراً أن نرى بعضهم يغتني بهذه الطريقة . تقنيتهم هي نفسها ، وعلمهم أيضاً ، الأول ينتحب ، الثاني يتوسل ممدود اليد ، والطريقتان معاً في بعض الأحيان ، وهي ذروة مسرحية يصعب جداً أن تقاوم ، صدقة صغيرة ، إذا كان لديك قلب ، الله إلهنا سيعوض عليك ، أشفق على الأعمى المسكين ، أشفق على الأعمى المسكين ، آخرون يعرضون ساقهم المغطاة بالقروح ، ذراعهم المشوهة ، ليست تلك التي نبحث عنها ، وفجأة ، وكما لو أن أبواب الجحيم قد فتحت ، إن مثل هذه المسوخ لا يمكن أن تنبثق إلا من الجحيم ، سمعت أغنية كئيبة تئن ، في حين كان باعة اليانصيب يصرخون بالأرقام الرابحة ، بلغت الجلبة حداً توقفت ، معه ، اندفاعة الصلوات في منتصف طريقها الى السماء ، أحدهم قطع صلاته الربانية ليجس الثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وتسعين ، ممسكاً بيد خفية المسبحة ، ويروز بالأخرى البطاقة كما لو كان يقدر في الوقت نفسه وزنها وحظوظها ، يخرج من المنديل الايسكودوسات

المطلوبة ويستأنف ، بمزيد من الأمل ، صلاته حيث تركها ، أعطنا خبزنا اليومي . الآن جاء دور باعة الأغطية وربطات العنق والمناديل والسلال ، والعاطلين عن العمل الذين يبيعون ، وحول ذراع كل منهم عصابة ، بطاقات بريدية ، أي أن الأمر لا يدور حول بيع فعلاً ، يعطونهم المال أولاً ، وبعد ذلك فقط يعطون البطاقة ، هذه أفضل طريقة وجدوها للمحافظة على كرامتهم ، فهؤلاء المساكين ليسوا متسولين ، وإذا كانوا يجمعون الإعانات فلأنهم عاطلون عن العمل ، هذه العصابات فكرة ممتازة فضلاً عن ذلك ، كلمات «عاطل عن العمل» تبرز كاملة وبحروف بيضاء على عصابة النسيج الأسود ، يمكن هكذا أن يروا عن بعد ، هذا يسهل التعداد ، ويمنع من نسيانهم . الأسوأ هم الباعة المتجولون ، إنهم عديدون الى حد ينتهون ، معه ، الى إيذاء سلام النفوس وتعكير صفاء المكان . تجنب ريكاردو ريس المرور قريباً منهم لأنهم موهوبون في أن يضعوا تحت أنفك أطباقاً مزينة بصور العذراء ، تماثيل صغيرة ، كميات من المسابح ، دستات من الصلبان ، ألوفاً من الميداليات الصغيرة ، قلوب يسوع ، قلوب مريم المضطرمة ، عشاءات سرية ، صور ميلاد ، زهور فيرونيك ، وفي كل سنة ، في ذكرى يوم الظهور ، الرعاة الصغار الثلاثة ، جاثين ، مضمومي الأيدي ، أحدهم صبي لا يذكره كتاب القديسين ، وليس موضع بحث أن يطوّب قديساً ، لأنه فوجئ سابقاً وهو يرفع تنانير البنات . كل أعضاء هذه الأخوية التجارية يزأرون كمن به مس ، الويل ليهوذا الذي سيسرق فنه المداهن زبون التاجر المجاور ، ستار الهيكل سيتمزق ، الشتائم واللعنات سوف تنهال على رأس غير النزيه والأمين ، لا يتذكر ريكاردو ريس أنه قد سمع ، في البرازيل أو هنا سابقاً ، قداساً أطيب مذاقاً ، هذا الفرع من الفن الخطابي تطور تطوراً عظيماً . فاطمة ، جوهرة الكاثوليكية الثمينة ، تشع بكل

نيرانها ، نيران العذاب بالنسبة للذين يكون خلاصهم الوحيد هو المجيء الى هنا ، كل سنة ، ينتظرون دورهم ، نيران الإيمان السامي والمتضاعف ، نيران المحبة عامة ، نيران الإعلان لبوفريل ، نيران صناعة الكتافيات وأشباهها ، نيران الخردوات ، الوشم والنسج ، نيران الحانات ، نيران الأشياء المفقودة والمستعادة بالمعنيين الحقيقي والمجازي ، هذا ما يبعث الهمة في ريكاردو ريس ، فيما يتعلق بالبحث ، إنه يبحث ، يبقى أن نعرف ما إذا كان سيجد . سبق وزار المستشفى ، واجتاز كل المعسكر ، أجتاز السوق في كل الاتجاهات ، وها هو ينزل الآن الى الفناء الصاخب ، يغوص في الجمهرة الكثيفة ليحضر التمارين ، التدريبات العملية على الإيمان ، للصلوات المؤثرة ، لهذه الوعود المحققة على الركب ، في حين أن التائبة المسنودة من تحت إبطيها ، برضفتيها الداميتين ، تنهار من الألم والنشوة غير المحتملة ، ولاحظ إذّذاك أن المرضى قد غادروا المستشفى وحملوا ورتبوا في طوابير ، من أجل أن يستطيع تمثال السيدة العذراء المغطى بزهور بيضاء أن يمر وسطهم ، مضت نظرات ريكاردو ريس من وجه الى آخر ، كانت تبحث ولا تجد ، كحلم معناه الوحيد ، على وجه الدقة ، أن لا معنى له أبداً ، كما عندما يحلم المرء بطريق دون بداية ، بظل على الأرض لا جسد ينتجه ، بكلمة يلفظها الهواء ، والهواء يحلها . الأناشيد بسيطة ، كلها من مقام سول ومقام دو ، إنها جوقة أصوات مرتعشة ، حادة ، تتوقف باستمرار لتعود حالاً . في الثالث عشر من أيار في كوفادا ايريا ، عندما يحل الصمت فجأة ، يغادر التمثال كنيسة الظهورات الصغيرة ، مسبباً القشعريرة للجمهور ، الشعر ينتصب ، ما فوق الطبيعي أتى على الانبثاق ويهب على مائتي ألف رأس ، سوف يجري شيء ما حتماً . المرضى الذين لهم خشوع صوفي يمدون مناديل ، سبحات ، مداليات يأخذها الشمامسة ، يمسون بهذه

الأشياء التمثال ، قبل أن يردوها للبؤساء الذين يستمرون في التوسل ، يا سيدتنا عذراء فاطمة أعيدي لي الحياة ، يا سيدتنا عذراء فاطمة اجعليني أمشي ، يا سيدتنا عذراء فاطمة ، اجعليني أرى ، يا سيدتنا عذراء فاطمة اجعليني أسمع ، يا سيدتنا عذراء فاطمة اشفيني ، يا سيدتنا عذراء فاطمة ، يا سيدتنا عذراء فاطمة ، يا سيدتنا عذراء فاطمة ، البكم لا يطلبون شيئاً ، يكتفون بالنظر ، إذا كان لهم عيون بالتأكيد ، عبثاً نصب ريكاردو ريس أذنه ، إنه لم ينجح في سماع ، يا سيدتنا عذراء فاطمة ألقي نظرتك على ذراعي اليسرى ، واشفيني إذا استطعت ، إنك لن تجرب الرب إلهك ، ولا العذراء أمه ، وبعد التفكير في كل شيء ، يجب أن لا تطلب شيئاً ، بل أن تقبل ، هذا ما يأمر به الخشوع ، الله وحده يعلم ما يناسبنا .

لم تحدث معجزة ، التمثال خرج ، قام بجولة ثم عاد ، العميان ظلوا عمياناً ، والبكم بدون صوت ، والمشلولون دون حركة ، والأطراف المبتورة لم تنم من جديد ، مصيبة الحزانى لم تنقص ، وراح كل يجرّم نفسه ، يتهم نفسه باكياً ، كان لدي أقل مما ينبغي بكثير من الإيمان ، إنها غلطتي ، غلطتي الكبيرة جداً . كانت العذراء قد غادرت الكنيسة مصممة على إنجاز فعل عجائبي ما ، ولكنها وجدت مؤمنين غير ثابتي الإيمان ، ولم تر سوى سراجات مرتعشة حيث كانت تحلم بأدغال مضطرمة ، لا شيء يمكن عمله في هذه الشروط ، عودوا في العام القادم . استطالت ظلال المساء ، نزل الغسق ببطء كما لو كان في موكب هو الآخر ، فقدت السماء شيئاً فشيئاً زرقة النهار الفاقعة ، إنها الآن بلون اللؤلؤ ، عند الأفق ، على الهضاب البعيدة ، تنفجر الشمس التي تختفي ، فوق ذرى الأشجار بلون أحمر ، وردي وبنفسجي ، لم تعد كرة بل بركاناً ، ويصعب فهم كون كل شيء يمكن أن يجري في صمت . الليل قريب ، النيران تشعل ، الباعة المتجولون صمتوا ،

المتسولون يعدون قطعهم ، الأجساد تتغذى تحت الأشجار ، تفتح رزم المؤن التي نقصت كثيراً من قبل ، يعض الخبز اليابس ، يحمل البرميل الصغير أو المطرة الى الفم الظامئ ، كل الناس يفعلون الشيء نفسه ، المتغيرات تتوقف على ثروة كل واحد . انضم ريكاردو ريس الى مجموعة جلست تحت خيمة ، لا مجال لرفع الكلفة ، ما يكاد أن يكون الأمر هو الأخوة الناجمة عن الصدفة ، لمحوه ، تائه الهيئة يحمل حقيبته الصغيرة في يده ، ويلف غطاء أتى على شرانه حول ذراعه ، في اللحظة التي كان يتأمل فيها الليل الذي لم يكن يبدو عليه أنه يريد أن يبترد ، وفي كونه سيرتاح جيداً إذا آوى تحت واحدة من هذه الخيم ، عند ذلك قالوا له ، تصرف كما لو كنت في بيتك ، يا سيدي ، رفض بالطبع ، كلا شكراً ، ولكنهم ألحوا ، الدعوة من قلوبنا حقاً ، أنت تعلم ، وكان هذا صحيحاً ، تبين له ذلك سريعاً ، المجموعة ، وهي كبيرة ، أتت من حوالي ابرانتس . هذه التمتمة التي تتردد في كل كوفا دا ايريا هي تمتمة المضغ والصلوات الأخيرة ، الأول يشبع معداتهم ، في حين تهدئ الأخرى ضروب قلق نفوسهم ، ثم تتبادل الأدوار . ريكاردو ريس لن يلتقي مرساندا في شعاع النيران الضعيف ولا بعد ذلك ، لا في برهة موكب الشموع ، ولا في نومه فضلاً عن ذلك ، لم يعد جسده سوى تعب ، إحباط ، إرادة زوال . كان سيرى في نفسه كائناً مزدوجاً ، رجلاً نظيفاً ، حليقاً ، محترماً ، ريكاردو ريس كل الأيام ، ولكن أيضاً هذا الآخر الذي لم يعد له من ريكاردو ريس إلا الاسم ، المتشرد الأشعث ، ذو الملابس المدعوكة والقميص المجعد ، والقبعة المبقعة بالعرق ، بالحذائين المغطيين بالغبار ، الذي لا يستطيع أن يكون هو ، وهذان الرجلان يتبادلان طلب الحساب ، يأمر كل منهما الآخر بتقديم تفسير لهذا الجنون الذي قادهما الى فاطمة دون الإيمان ، فقط لتلبية أمل غير عقلاني ، وما الذي كنت ستقول لها لو

صادفتها ، هل تخيلت ما كان يمكن أن تكون عليه لو ظهرت فجأة الى جانب أبيها ، أو وحدها ، وهو أسوأ أيضاً ، انظر الى نفسك ، أتعتقد أن هناك فتاة تستطيع ، حتى ولو كان فيها عيب جسدي ، أن تعشق طبيباً بدون عقل ، أنت لا تفهم إذن أن الأمر كان يدور حول عواطف ظرفية ، هيا ، قليلاً من الاتزان ، أشكر بالأحرى سيدتنا عذراء فاطمة لأنك لم تصادفها ، لو جاءت ، فإنني ما كنت لأعتقد أنك ستكون قادراً على مشاهد في هذا الإضحاك . قبل ريكاردو ريس بتواضع الانتقادات ، سلم بالاتهام ، وخجل خجلاً مخيفاً لرؤيته نفسه في هذه الوساخة ، في هذه القذارة ، فسحب الغطاء الى ما فوق رأسه وواصل النوم . قريباً جداً منه ، كان أحدهم يشخر دون مبالاة ، ومن وراء شجرة الزيتون الضخمة ، كانت تصل إليه تمتمات ليس فيها شيء من صلاة ، ضحكات صغيرة بعيدة جداً عن جوقة الملائكة وليس لها مظهر النشرات الروحية . بزغ الفجر ، المستفيقون المبكرون يتمطون ويأتون لإنعاش النار ، إنه يوم جديد يبدأ ، مثقل ، منذ الآن ، بجهود جديدة يجب بذلها لكسب السماء .

في وسط الصباح ، قرر ريكاردو ريس الرحيل . لم يبق ليودع العذراء ، كانت وداعاته قد تمت من قبل . مرت الطائرة مرتين رامية منشورات بوفريل أخرى . كانت السيارة تنقل القليل من الركاب ، التشبث الكبير سيأتي فيما بعد . عند المنعطف ، كان هناك صليب خشبي مغروس في الأرض . لم تحدث ، في نهاية المطاف ، معجزة .

من أفونسو هنريكه الى الحرب الكبرى ، وضعنا ثقتنا في الله والعذراء ، هذه العبارة تتسلط على ريكاردو ريس منذ عودته من فاطمة ، لم يعد يذكر ما إذا كان قد قرأها في جريدة أو كتاب ، ما إذا كان سمعها خلال موعظة أو خطاب ، أم ما إذا كانت واردة في الإعلان عن بوفريل ، الشكل يفتنه بقدر ما يفتنه المضمون ، الأسلوب ، وهو بليغ ، أحسن صنعه ليؤثر في القلوب ويلهبها ، أما بالنسبة لمظهرها الوقور وقاراً خاصاً ، فيثبت ، إذا كانت هناك حاجة لذلك ، أننا شعب مختار ، وإذا كان هناك شعوب مختارة أخرى في الماضي ، فما من أحد منها دام بقدر ما دام شعبنا ، ثمانمائة سنة من الثقة غير المنقطعة ، من الصلة الحميمة مع القوى السماوية ، وإذا صح أننا متأخرون في بناء الإمبراطورية الخامسة ، إذ سبقنا موسوليني ، فإن السادسة أو السابعة لن تفلتا منا ، إنها مسألة صبر ، وهذا الأخير لا ينقصنا ، إنه جزء من طبيعتنا . وفضلاً عن ذلك ، إذا صدقنا تصريحات رئيس الجمهورية ، سعادة الجنرال أنطونيو أوسكار دو فراغوزو كارمونا ، فنحن على الطريق الصحيح . أسلوب خطابه يستحق ، من جهته ، أن يكون نموذجاً لكبار مسؤولي الأمة المقبلين ، ألا يصرح فعلاً بأنه لشيء ممتاز ،

في الساعة التي اعترف فيها أخيراً بالبرتغال في العالم أجمع ، أن يكون المرء برتغالياً . يجب حقاً أن نسلم بأن هذه الحكمة قوية قوة الأولى ومثيرة بقدرها للحمية ، فشهوة العالمية ، والنشوة التي تقوم على جعل الآخرين يتحدثون عنا لم تنقصانا أبداً منذ أن قطعنا البحار ، بصفة حليف في معظم الأحيان ، لأن العالم كله يطلبنا ، وعن حق ، فنحن لا نبالي أبداً بمعرفة من نخدمه ، ما يهمنا هو الولاء ، فكيف يمكن العيش دونه . ريكاردو ريس الذي عاد من فاطمة متعباً ومحروقاً من الشمس ، الذي لم ير معجزة ولا مرساندا ، والذي بقي محبوساً في غرفته مدة ثلاثة أيام ، استأنف اتصاله بالعالم الخارجي عن طريق هذا التأكيد الوطني . ذهب ، والجريدة تحت ذراعه ، ليجلس في ظل أداماستور ، العجوزان هناك ينظران الى دخول السفن التي جاءت تزور الأرض الموعودة التي يجري الحديث عنها عالمياً ، مدهوشين فقط من عددها الكبير بأعلامها الكبيرة المرفوعة ، وصفاراتها التي تزأر ، وطواقمها التي تقدم على الجسور التحية العسكرية ، ولكن ذهني هذين الحارسين بعد أن أعطاهما ريكاردو ريس الجريدة قرآها وأعادا قراءتها ، في نهاية المطاف ، تستحق معرفة كبرياء أن تكون برتغالياً عناء انتظار ثمانمائة سنة . من آلتو دو سانتا كاتارينا ، ثمانية قرون ترنو إليك ، أيها البحر ، مسح العجوزان ، الضخم والنحيل ، دمعة عابرة ، أسفهما الوحيد هو لأنهما لا يستطيعان أن يبقيا على هذه الشرفة الى الأبد لينظرا الى السفن تدخل وتخرج ، هذا ما يهمهما ، أما قعر الحياة ، فهما لا يباليان به . يلاحظ ريكاردو ريس من المقعد الذي جلس عليه جندياً وخادمة يتغازلان ، كل شيء هو مسألة لعبة أيد ، الفتى يبدو جريئاً جداً ، وهي تثيره بضربات صغيرة على أصابعه . جاء وقت إنشاد هللوليا ، عندما لا يكون المرء يونانياً ، يهلل كما يستطيع ، الأحواض مغطاة بالزهور ، يوم مثل هذا يجب

أن يكفي لصنع سعادة رجل ، وذلك ، بالطبع ، شريطة أن لا تغذي روحه طموحات لا يمكن إشباعها . تبين لريكاردو ريس ، وهو يراجع قائمة طموحاته ، أنه لا يتمنى شيئاً خلاف تأمل النهر والسفن ، الهضاب والسلام الذي يهدهدها ، إلا أن ما يحس به ليس سعادة ، بل هو بالأحرى فخر أصم كنخر حشرة تقضم دون توقف ، تمتم ، حان الوقت ، ثم تساءل عما كان سيحسه الآن ، لو أنه التقى مرساندا في فاطمة ، لو ارتمى كل منهما ، كما يقال ، بين ذراعي الآخر ، اعتباراً من هذا اليوم ، لن نفترق أبداً ، عندما خيل إلي أني فقدتك ، فهمت كم كنت أحبك ، كانت ، دون شك ، ستقول الشيء نفسه ، ثم ، بعد انتهاء التبادل ، لم يكونا سيعرفان بعد ماذا يقولان لبعضهما ، حتى ولو ذهبا يختبئان وراء شجرة الزيتون ويكرران ، لحسابهما الخاص ، تمتمات كل منهما وضحكاته وتنهداته . هذه المرة أيضاً ، ريكاردو ريس يخشى بقية القصة ، دقة الحشرة في عظامه من جديد ، لا جواب على الزمن ، نحن فيه ، مجرد شهود . العجوزان انتهيا من قراءة الجريدة ، إنهما يقترعان لمعرفة من منهما سيأخذها الى بيته ، الأمر يدور ، حتى لمن لا يعرف من بينهما القراءة ، حول هدية ذات قيمة ، فهذا النوع من الورق جيد لفرش صفائح النفايات .

بعد الظهر هذا ، عندما وصل الى مكتبه ، قالت له الآنسة كارلوتا ، وصلت رسالة لك ، إنها على طاولتك ، شعر ريكاردو ريس بضربة موجهة الى قلبه ، أو الى معدته ، من السهل ، في مثل هذه الظروف ، أن يفقد المرء هدوء أعصابه ، وحاول إذن أن تعين نقطة التأثير عندما تكون المسافة التي تفصل بين المعدة والقلب في هذا الاختزال ، وإذا كان الحجاب الحاجز ، الواقع في الوسط تماماً ، حساساً لخفقات الواحد حساسيته لتقلصات الأخرى ، وإذا كان يجب أن يعاد الأمر ، فما من أدنى شك في أن الله ، وقد

عرف الآن كل ما يعرفه ، سيجعل الجسد البشري أقل تعقيداً . لا يمكن أن يرد إلا من مرساندا ، إنها تكتب لتقول له إنها لم تستطع ، في نهاية المآل ، أن تذهب الى فاطمة ، أو أنها ذهبت إليها ، لمحته من بعيد وأشارت له بذراعها السليمة ، وقد انتابها يأس مزدوج ، أولاً لأنه لم يرها ، ثم لأن العذراء لم تشفِ ذراعها المشلولة ، الآن يا حبيبي ، إذا كنت لاتزال تريدني ، سأنتظرك في الكوانتا داس لاغريماس . الرسالة من مرساندا ، الغلاف ، ذو اللون البنفسجي المتلاشي ، الموضوع في مركز مستطيل النشافة الأخضر ، يبدو أبيض مرئياً من الباب ، ولكن هذا تأثير ضوئي ، وهم ، نتعلم ذلك في الثانوية ، الأزرق والأصفر يعطيان اللون الأخضر ، الأخضر والبنفسجي يعطيان اللون الأبيض ، الأبيض والقلق يعطيان الشحوب . المغلف ليس بنفسجياً ولا يأتي من كوامبرا . فتحه ريكاردو ريس ببطء ، لمح ورقة صغيرة ، مكتوبة بخط رديء جداً ، خط طبيب . زميلي العزيز . أكتب هذه الرسالة لأعلمك بأني ، وقد شفيت تماماً ، سوف أستأنف فعالياتي في العيادة اعتباراً من أول الشهر القادم ، وأغتنم هذه الفرصة لأعبر لك عن امتناني العميق ، أشكرك على الفضل الذي أبديته بقبولك الحلول محلي خلال عجزي المؤقت ، وأتمنى لك أن تجد سريعاً المكان الذي يسمح لك بممارسة معرفتك الكبيرة وكفاءتك المهنية ، وتلت ذلك بضعة أسطر ، مجرد صيغ مهذبة كتلك التي نجدها في كل الرسائل . أعاد ريكاردو ريس قراءة العبارات المدروسة ، قدّر لباقة الزميل الذي حول الخدمة التي أداها له الى خدمة أديت له شخصياً يستطيع إذن أن يترك العيادة مرفوع الرأس ، سوف يستطيع أن يبرز هذه الشهادة عندما سيعود للبحث عن عمل ، لاحظوا جيداً ، المعرفة الكبيرة والكفاءة المهنية ، ليست هذه رسالة توصية ، إنها كتاب اعتماد ، مصدقة عن خدمات جيدة وأمينة ، شبيهة بتلك التي سيعطيها

فندق براغانسا ذات يوم لليديا ، مستخدمته ، عندما ستغادر الفندق من أجل عمل آخر أو من أجل أن تتزوج . لبس رداءه الأبيض ، أدخل أول مريض ، خمسة آخرون ينتظرون من قبل ، لن يتوفر له الوقت لشفائهم ، ولكن وضعهم الصحي ليس خطيراً الى حد يهددون ، معه ، بأن يموتوا بين يديه خلال الأيام الاثني عشر التي تسبق نهاية الشهر ، وهذا يبقى مكسباً له .

لم تظهر ليديا . صحيح أنه ليس يوم عطلتها ، ولكنه كان يمكنها ، وهي تعرف قصر سفرته الى فاطمة ، وأن ريكاردو ريس يمكن أن يكون قد التقى هناك بمرساندا ، أن تقوم بذهاب وإياب بين الفندق وآلتو دو سانتا كاتارينا ، لم يكن ذلك ليستغرق منها حتى نصف ساعة ، أو كان يمكنها ، وهذا أفضل أيضاً ، أن تأتي الى عيادة ريكاردو ريس في موعد الاستشارات لتسأله عن أخبار صديقتها ونجيتها ، اعذرني على الإزعاج ، أرغب فقط أن أحصل على أخبار الآنسة مرساندا ، أن أعلم ما إذا كانت على مايرام ، ما إذا كانت ذراعها قد شفيت . لم تأت ، لم تسأل عن شيء ، كون ريكاردو ريس قد قبّلها دون أن يكون مضطرباً بنار الحواس لم ينفع شيئاً ، ربما ظنت أن هذه القبلة كانت مكرسة لشرائها ، ولكن هل يستطيع أفراد من وضعه أن يفكروا على هذه الشاكلة . ريكاردو ريس وحده في بيته ، يخرج في موعدي الغداء والعشاء ، ينظر من نافذته الى النهر ومولنتيجو البعيدة ، وكتلة أداماستور الحجرية ، والعجوزين الدقيقي المواعيد دائماً ، وأشجار النخيل ، ومن وقت الى آخر ، ينزل الى الحديقة ليقرأ صفحتين من كتاب ، ينام مبكراً ، يفكر في فرناندو بيسوا الميت من قبل ، في ألبرتو كاييرو الذي مات في زهرة العمر والذي كان واعداً جداً ، في ألفارو دو كامبوس الذي كانت برقيته تقول إنه ذاهب ليقيم في غلاسكو ، ليبني فيها سفناً حتى نهاية

أيامه ، حتى التقاعد ، يذهب أحياناً الى السينما ، وهكذا رأى «خبزنا اليومي» لكينغ فيدور و«الدرجات التسع والثلاثون» مع روبيردونا ومادلين كارول ، لم يستطع أن يقاوم الرغبة في الذهاب لرؤية فيلم مجسم ، جلب معه ، على سبيل الذكرى ، نظارتي السيلولوييد ، جانب منهما أخضر والآخر حمر ، هاتان النظارتان شيء شاعري ، العينان الطبيعيتان لا تكفيان لرؤية بعض الأشياء . يقال إن الزمن يتوقف ، إن لا شيء يمكن أن يوقف سيره ، الكلمات نفسها دائماً ، ومع ذلك سيبدي بعض الناس فراغ صبر من بطئه ، هل ترون ذلك ، أربع وعشرون ساعة لصنع يوم ، وما إن نصل الى النهاية حتى نكتشف أن ذلك لم يكن يستحق العناء ، وأنه سوف ينبغي ، في الغد ، معاودة كل شيء ، من الأفضل القفز من فوق الأسابيع غير المجدية وعيش ساعة واحدة مليئة ، دقيقة واحدة كثيفة ، إذا كانت الكثافة تستطيع أن تدوم هذا الوقت . فكّر ريكاردو ريس في العودة الى البرازيل . لقد ظن أن موت فرناندو بيسوا كان سبباً كافياً من أجل عبور الأطلسي والعودة للإقامة هنا ، بعد ست عشرة سنة غياب ، يمارس الطب ، يكتب أشعاراً ، يتقدم في السن محتلاً ، الى حد ما ، المكان الذي تركه الميت ، حتى عندما يلاحظ أحد التبديل ، الآن ، لم يعد يعلم . هذا البلد ليس بلده ، ولكن هل هو لأحد ، تاريخه ، المنذور لله والعذراء ، صورة فورية ذات خطوط ممحوة ، دون تضاريس ، حتى عندما ينظر إليها بنظارات مجسمة . فرناندو بيسوا ، أو الشيء الذي أعطي هذا الاسم ، الظل ، الروح ، الشبح الذي يسمع ويفهم ، وإن كان لم يعد يعرف القراءة ، فرناندو بيسوا كان يظهر بين وقت آخر ، يطلق مزحة ، يبتسم بعطف ، ثم يرحل ، لم يكن أمراً يستحق العناء أن يعود من أجله ، إنه في حياة أخرى ، وفي هذه الحياة أيضاً لا يهم ما كانه في حياة أخرى ، ما من شيء حقيقي ، كل شيء مجازي . مرساندا كفت عن الوجود ،

إنها تعيش في كوامبرا ، في شارع مجهول ، تفتت أيامها الواحد تلو الآخر دون شفاء . إذا كانت قد تجرأت على الذهاب الى البريد المركزي ، فربما خبأت رسائل ريكاردو ريس في زاوية من الأهراء ، في القعر المزدوج لقطعة أثاث ، في الدرج السري الذي كانت أمها تستخدمه مخبأً أو ، مقابل نقود ، في خزانة خادمة لا تعرف القراءة ويمكن الوثوق بها ، ربما كانت تعيد قراءتها ، كما لو كان ذلك لاستظهار حلم لا تريد أن تنساه ، دون أن ترى أنه ليس هناك ، في نهاية المطاف ، أي شيء مشترك ، بين حلم وذكراه . ستأتي ليديا غداً على اعتبار أنه يوم عطلتها ، ولكن ليديا هي مدبرة منزل آنا كارينينا ، إنها هنا لترتيب المنزل وملء بعض النواقص ، حتى لو كانت ، وهذه سخرية قصوى ، تملأ وحدها كل القسم من الفراغ الذي يمكن أن يملأ ، لأن العالم أجمع ، إذا سلمنا بفرضية ريكاردو ريس عن تعدديته ، لن يكفي بالنسبة لما بقي . اعتباراً من أول حزيران ، سيكون عاطلاً عن العمل ، سوف ينبغي عليه أن يركض من جديد بين العيادات سعياً وراء وظيفة ، وراء الحلول محل متغيب ، وليس ذلك من أجل المال ، فهو لا ينقصه لحسن الحظ ، مازالت رزمة الليرات الانكليزية لم تمس ، دون حسبان حساب ما لم يسحبه من المصرف البرازيلي ، بل ببساطة من أجل أن تبدو الأيام أقل طولاً . إذا جمع كل أمواله وقصر طموحاته على الطب العام الكلاسيكي الطيب الذي يحتاج إليه كل الناس ، تاركاً جانباً طب القلب والسل ، فيمكنه أن يفتح بسهولة عيادته الخاصة ، أن يشكل زبائنه الخاصين به ، بل سوف يمكنه توظيف ليديا لاستقبال الزبائن ، إنها ذكية ، نشيطة ، ستطلع بسرعة على الأمور ، وبعد بضعة دروس ، ستكف عن اقتراف أخطاء إملائية ، سيسمح لها هذا أخيراً بالتحرر من حياتها كخادمة . الآن لا يدور حتى حول حلم ، بل حول هذيان شخص يسره الاستغراق في

أفكار متكاسلة ، لن يبحث ريكاردو ريس عن عمل ، الأفضل له أن يعود الى البرازيل ، أن يعود للصعود الى الهايلاند بريغاد عندما ستعود الى المرور في المرة القادمة ، وإعادة «إله المتاهة» سراً الى مالكه الشرعي أوبريان ، الذي لن يفهم شيئاً من العودة المفاجئة لظهور الكتاب المختفي .

وصلت ليديا ، قالت مساء الخير بلهجة حتفالية قليلاً ، متباعدة ، ولم تطرح أسئلة ، تحدث إذن هو أولاً ، ذهبت الى فاطمة ، أجابت متنازلة ، آه ، هل راقك هذا إذن . ماذا يجيب عن ذلك ، ليس مؤمناً حتى درجة اختباره النشوة والشعور بأنه ملزم على شرح هذا ، ولم يذهب كذلك كمجرد فضولي ، عند ذلك قرر أن يلخص ، أن يعمم ، كثير من الناس ، كثير من الغبار ، وكنت على حق ، أجبرت على النوم في الخلاء ، لحسن الحظ ، كانت الليلة حارة . هذا النوع من المغامرات ليس لك ، يا سيدي الدكتور . كان ينبغي أن أذهب الى هناك لأعرف . كانت ليديا قد ذهبت ، من قبل ، الى المطبخ ، أسالت الماء الساخن لتغسل الآنية ، أفهمته بكلمات مقتضبة أنه لا يمكن أن تكون لهما علاقات اليوم ، وهو مصطلح ليس بالطبع من مفرداتها ، ومن المسموح به الشك حتى في استعمالها إياه في برهات بلاغتها الكبرى . لم يسع ريكاردو ريس الى الاستيضاح عن دوافع المنع ، توعك كلاسيكي ، ردة فعل حساسية مجروحة ولقاء لا يقمع بين الدم والدموع ، نهران لا يمكن اجتيازهما ، بحر مظلم . جلس على أحد كراسي المطبخ ليشاهد الأعمال المنزلية ، لم يكن هذا من عادته ، بل بادرة إرادة طيبة ، علم أبيض مرفوع فوق الأسوار لاختبار مزاج الجنرال الذي يحاصر . وأخيراً ، لم أصادف الدكتور سامبايو ولا ابنته ، ولا عجب في ذلك للحشد ، الجملة التي أطلقت مجردة تجمدت كما لو كانت تنتظر أن تعار انتباهاً ، الكلمات الحقيقية أو الزائفة ، عاجزة عن كشف كل شيء ، أو أنه ينبغي لنا ،

على العكس من ذلك ، أن ندينها على ازدواجية منتظمة ، الكلمة نفسها تكذب وتقول الحقيقة ، لسنا الكلمات التي نستعملها ، بل الرصيد الذي يمنح لها ، ما هو الرصيد الذي يتمتع به ريكاردو ريس ، نجهل ذلك ، اكتفت ليديا بسؤاله ، هل حصلت معجزة . على حد علمي ، لا ، الصحف لم تتحدث عن شيء . يا للآنسة مرساندا المسكينة ، لو كانت قد ذهبت الى هناك على أمل الشفاء ، فيجب أن يكون أملها قد خاب بصورة بشعة . لم يكن لديها ، هي ، أمل في الشفاء . وما أدراك ، وألقت ليديا على ريكاردو ريس نظرة سريعة سرعة نظرة عصفور . فكر ، أتظنين أنك توقعينني في الشرك ، وأجاب ، عندما كنت في الفندق ، كانت هي وأبوها يفكران فعلاً في الذهاب الى فاطمة . آه ، هذا النوع من المبارزات الصغيرة هو الذي من أجله يتعب الناس أنفسهم ويهرمون ، يفضل الحديث عن شيء آخر ، الصحف موجودة من أجل هذا ، يجب أن يحتفظ المرء دائماً ببعض الأخبار في ذاكرته ، هذا يغذي المحادثات ، عجوزا آلتو دا سانتا كاتارينا يتصرفان هكذا ، وريكاردو ريس وليديا كذلك ، لعدم وجود صمت يكون أفضل من الكلمات ، إذن ، وأخوك ، هذه بداية فعلاً . أخي على مايرام ، لماذا هذا السؤال . تذكرته ، بسبب مقالة قرأتها في الجريدة واحتفظت بها ، خطاب مهندس اسمه نوبر غيدس . لا أعلم من هو هذا السيد . نظراً للطريقة التي يتحدث بها عن البحارة ، أشك كثيراً في أن يرغب أخوك في تسميته سيداً . ماذا يقول . انتظري ، سآتي بالجريدة . خرج ريكاردو ريس ، ذهب الى مكتبه وعاد بجريدة سيكولو ، كان الخطاب يحتل صفحة كاملة تقريباً ، كان خطاباً معادياً للشيوعية ألقاه النوبر غيدس المذكور في الإذاعة الوطنية ، يتحدث ، في برهة ما ، عن البحارة . هل يتحدث عن أخي . كلا ، لا يقول شيئاً عن أخيك ، ولكن ذلك كما لو كان يتحدث عنه ، يقول مثلاً ، توزع

سراً ورقة الملفوف المقززة المسماة «مارينيرو فيرميلو»* . ماذا تعني كلمة مقززة . إنها كلمة قذرة ، إنها تعني منفّرة ، مقيّئة ، مقرفة . توجع القلب . بالضبط ، مقززة تعني التي توجع القلب . سبق أن رأيت المارينيرو فيرميلو ، ولم يوجع هذا قلبي بالمرة . أأخوك هو الذي أطلعك عليها . نعم ، إنه دانييل . أخوك شيوعي إذن . آه ، هذا شيء لا أعرفه ، ولكنه الى جانبهم . ما الفرق . عندما أنظر إليه ، أرى فرداً ككل الآخرين . أتعتقدين أنه لو كان شيوعياً لكان مختلفاً . لا أعلم ، لا أتوصل الى الشرح . لا بأس ، المهندس غيدس يقول أيضاً إن بحارة البرتغال ليسوا حمراً ولا بيضاً ولا زرقاً ، بل هم برتغاليون . هيا ، كما لو كان البرتغالي لوناً . هذا غريب ، عندما ينظر إليك ، يقول المرء لنفسه إنك غير قادرة على تحطيم صحن ، وها أنت ، بين حين وآخر ، تقلبين خزانة الآنية . يدي ثابتة ، لم أكسر أبداً أي صحن ، أنت ترى ، أنا أغسل آنيتك ولا يفلت مني شيء ، كنت دائماً هكذا . أنت واحدة خارجة على المألوف . هذه الواحدة الخارجة على المألوف خادمة ، وهذا الغيدس ، أيقول شيئاً آخر حول البحارة . كلا ، هذا كل شيء . أتذكر الآن أن دانييل حدثني عن بحار قديم يدعى غيدس هو أيضاً ، ولكن اسمه هو مانويل ، مانويل غيدس ، يجب أن يحاكم مع أربعين متهماً آخر . هناك كثير من الغيدس . هذا نعم ، ولكن اسم هذا هو مانويل بكل بساطة . الآنية نظيفة ، تقطر ماء ، لدى ليديا مهمات أخرى ، تغيير الشراشف ، ترتيب السرير ، فتح النافذة على مصراعيها لتهوية الغرفة ، تنظيف الحمام ، وضع مناشف نظيفة قبل العودة الى المطبخ لتجفيف الآنية ، وهذه هي اللحظة التي اختارها ريكاردو ريس للاقتراب منها من خلف ، أمسك بها ، في حين بدأت

---

* البحّار الأحمر .

حركة تملص ، عند ذلك قبلها في عنقها ، انزلق الصحن من يديها ، وتحطم على الأرض . حسناً ، ها أنت ، مع ذلك ، قد انتهيت الى تحطيم شيء . كان يجب أن يحدث هذا ذات يوم ، لا يفلت المرء من قدره . ضحك ، أدارها نحوه وقبّلها من فمها ، لم تعد تقاوم بل قالت ببساطة ، ليس هذا ممكناً اليوم ، أنت تعلم . المانع كان إذن فيزيولوجياً ، إذا كان هناك من آخر ، فقد زال . أجاب ، لا بأس ، سندع ذلك لمرة أخرى ، مستمراً في تقبيلها ، سوف ينبغي ، بعد قليل جمع البقايا المبعثرة في المطبخ .

بعد بضعة أيام ، زار فرناندو بيسوا بدوره ريكاردو ريس . كان ذلك حوالي منتصف الليل ، وكان الجيران نائمين من قبل أن يظهر ، صاعداً الدرج بتحفظ ، غير واثق كل الوقت من عدم قابليته للرؤية ، وكان يتفق له أحياناً أن يصادف أناساً تجتاز نظرتهم جسده دون أن يروا شيئاً ، وكان انعدام التعبير في وجوههم الدليل المباشر على ذلك ، ولكن آخرين ، أندر حقاً ، كانوا يرونه تماماً ، بل ويحدقون إليه بإلحاح ، واجدين فيه شيئاً غريباً دون أن يستطيعوا تحديده ، ولو قال لهم أحد إن هذا الرجل الذي يرتدي الأسود هو شبح ، فيحتمل أنهم لم يكونوا ليصدقوه ، فنحن متعودون على طبقات الهيولى والشراشف البيضاء التي لا يمكن لمسها ، في حين أن الميت الذي لا يراقب نفسه هو أكثر ما في العالم تشخيصاً ، من أجل ذلك يصعد فرناندو بيسوا الدرج ببطء ، يقرع الباب حسب الإشارة المتفق عليها ، ويجب أن لا يفاجئنا هذا الحذر ، تخيلوا قليلاً الفضيحة لو اجتذبت ضربة عنيفة جارة تستيقظ فزعة وتأخذ في العويل ، النجدة ، لص . مسكين فرناندو بيسوا ، أهو لص ، وهو الذي لم يبق لديه شيء ، حتى الحياة نفسها . كان ريكاردو ريس حيث يحاول كتابة بضعة أبيات ، لا نرى الحواجز تدمرنا ، ننساها كما لو لم تكن موجودة ، في صمت المنزل

الكبير ، سمع الحك الخفيف ، وعرف فوراً من هو زائره ، ذهب ليفتح ، تسعدني رؤيتك ، أين اختفيت ، الكلمات شيطانية ، تلك التي أتى ريكاردو ريس على التلفظ بها يمكن أن تصلح ، في أقصى الظروف ، لمحادثة بين أحياء ، أما في الظروف الحالية ، فهي تعبر عن فكاهة جنائزية ذات مذاق سيئ كئيب ، أين اختفيت ، في حين يعلم ، مثلنا ، أن فرناندو بيسوا يصل من بيته الصغير في برازيرس ، حيث لا يسكن وحده ، على اعتبار أن جدته الرهيبة ، ديونيزيا ، تسكن معه وتقتضي تقارير مفصلة عن روحاته وغدواته ، اعتاد حفيدها على أن يرد بجفاء ، كنت أقوم بجولة ، وهذا ما ردّ به ، ناقصاً الجفاء ، على ريكاردو ريس ، أقوال ممتازة لا تعني شيئاً . جلس فرناندو بيسوا على المقعد ، وبحركة متعبة ، رفع يده الى جبينه كما لو كان يسعى الى تسكين وجع أو طرد سحابة ، ثم اجتازت أصابعه وجهه ، تاهت على العينين ، شدت ملتقى شفتيه ، مرت على شاربيه ، مسّت ذقنه الحادة ، كما لو كان يريد إعادة تشكيل سماته ، ردّ شكلها الأصلي إليها ، تعديل رسمها ، ولكن ما يحركه الفنان هو الممحاة لا القلم ، إنه يمحو كل شيء حيث يمر ، أحد جانبي الوجه فقد محيطه فعلاً ، هذا طبيعي ، ستمر قريباً ستة أشهر على موت فرناندو بيسوا ، شكا ريكاردو ريس قائلاً ، رؤيتي لك تتناقص . أنذرتك منذ أول يوم ، كلما مرّ الزمن ، زاد نسياني لنفسي ، منذ قليل ، في الكالاريز ، لزمني جهد ذاكري لأجد من جديد طريق بيتك . ومع ذلك فليس هذا معقداً ، يكفي أن تفكر في أداماستور . لو كنت قد فكرت في أداماستور لكنت أكثر اضطراباً بكثير أيضاً ، كان سيخيل إليّ أني عدت الى دوربان ، في فترة سنواتي الثمان ، وكنت سأضيع ضياعاً مزدوجاً ، في المكان وفي هذه الساعة ، في الزمان وفي هذا المكان . تعال مرات أكثر . فهذا سيغذي ذاكرتك . ما ساعدني اليوم هو رائحة بصل . رائحة بصل .

نعم ، رائحة بصل ، لا يبدو على صديقك فيكتور أنه تخلى عن مراقبتك . ولكن لا معنى لهذا . أنت الذي تقول ذلك . يجب أن لا يكون لدى البوليس ما يفعله ليضيع وقته مع أناس ليسوا مذنبين في شيء ولا يفعلون شيئاً ليصبحوا كذلك . يصعب تصور ما يدور في نفس شرطي ، أحدثت لديه انطباعاً جيداً احتمالاً ، ربما يتمنى أن يصبح صديقك ، ولكنه يعلم أنكما تعيشان في عالمين مختلفين ، أنت في عالم المختارين ، وهو في عالم المرفوضين ، لهذا السبب يمضي وقته تحت نوافذك يرقب ضوءك كعاشق . هيا ، اسخر . أنت لا تتخيل كم يجب أن يكون المرء حزيناً ليتسلى على هذا النحو . ما يثير أعصابي هو هذه المراقبة التي لا يبررها شيء . ربما عبرت عن نفسك بطريقة أكثر تعجلاً مما ينبغي بقليل ، لا أعتقد أن تلقيك الزيارات المستديمة لفرد قادم من العالم الآخر يبدو لك شيئاً طبيعياً . ولكن أحداً لا يراك . هذا يتوقف على الظروف ، عندما يموت المرء ، لا يكون لديه دائماً الوقت ليجعل نفسه غير مرئي ، كل شيء يتوقف على الظروف ، ما ينقص أحياناً هو الطاقة ، دون حسبان لكون بعض الأحياء يملكون عيوناً قادرة على أن تميز اللامرئي نفسه . لا يبدو أن هذه هي الحال مع فيكتور . دون شك ، على الرغم من أنك ستوافق على أنه لا يوجد شرطي أكثر منه موهبة وفضيلة ، أرغوس ذو الألف عين ليس سوى حسير البصر بالمقارنة معه . أمسك ريكاردو ريس الورقة التي كان يكتب عليها ، لدي هنا بضعة أبيات ، لا أعلم ماذا ستعطي . اقرأ . ليست هذه سوى بداية ، يمكن أن أبدأ من جديد بطريقة أخرى . اقرأ إذن . لا نرى الحواجز التي تدمرنا ، ننساها كما لو لم تكن موجودة . إنها مكتوبة جيداً ، ولكنك ، إذا كانت ذاكرتي جيدة ، قلت ذلك من قبل ألف مرة ، بصور مختلفة ، قبل أن ترحل الى البرازيل ، المدارات لم تغير شيئاً من قريحتك . لم يعد لي ما أقوله ، لست مثلك .

سيأتي ذلك ، لا تقلق . لدي ما يسمى وحياً منغلقاً . الوحي ليس إلا كلمة . أنا أرغوس بتسعمائة وتسع وتسعين عيناً عمياء . مجاز ممتاز ، هذا يعني أنك ستكون شرطياً رديئاً جداً . بالمناسبة ، هل عرفت ، يا فرناندو ، شخصاً يدعى أنطونيو فيرو ، سكرتير في الدعاية الوطنية . نعم ، كنا صديقين ، أدين له بخمسمائة كونتوس جائزة منساغيم ، لماذا هذا السؤال . ستعرف عما قليل ، تحت نظري خبر يتعلق بتوزيع الجوائز الأدبية للسكرتارية المذكورة ، أكنت تعلم ذلك ، اشرح لي كيف كان يمكن أن أكون على علم . أعذرني ، أنسى دائماً أنك لم تعد تستطيع القراءة . من حصل على الجائزة هذا العام . كارلوس كيروس . كارلوس . هل كنت تعرفه . كارلوس كيروس كان ابن أخ فتاة ، أوفيلينا ، غازلتها سابقاً ، كانت تعمل في مكتبي . لا أتوصل الى تخيلك تغازل . ولكن كل الناس يفعلون ذلك ، مرة واحدة في حياتهم على الأقل ، فلماذا لا أفعل أنا . أود جيداً أن أقرأ رسائل الحب التي كتبتها لها . أعتقد أنها كانت أكثر بلاهة من المتوسط بقليل . متى كان ذلك . بدأ بعد رحيلك الى البرازيل فوراً . ودام وقتاً طويلاً . ما يكفي من أجل أن أستطيع أن أقول مع الكاردينال غونزاغا* إني ، أنا أيضاً ، قد أحببت . يصعب عليّ تصديق ذلك . أتعتقد أني أكذب . كلا ، يا لها من فكرة ، وفضلاً عن ذلك فنحن ، من جهتنا ، لا نكذب ، بكل بساطة ، وعندما يكون ذلك ضرورياً ، نستعمل كلمات تكذب . ما الذي يصعب إذن فهمه . أن تكون قد أحببت ، لأنك كما أعرفك وكما أراك على وجه الدقة نموذج الرجل غير القادر على الحب . مثل دون جوان . نعم ، مثل دون جوان ، ولكن ليس للأسباب نفسها . فسّر ما تقول . كان لدى

---

* شخصية من مسرحية لجوليو دانتاس .

دون جوان مخزون مليء جداً من طاقة العشق كان يجب أن ينتهي ، بالضرورة ، الى الضياع في موضوعاته . ولكن هذه لم تكن في حدود ما أذكر حالتك أبداً . وأنت . أنا ، في الوسط ، فرد ما ، لا قيمة له ، أنتمي الى النوع العادي ، لا أكثر ولا أقل . الهاوي المتوازن نوعاً ما . ليست المسألة بالضبط مسألة هندسة أو ميكانيك . سوف تقول لي إن الحياة لم تكن كريمة جداً معك . الحب صعب يا عزيزي فرناندو . ليس لك أن تشكو ، لديك ليديا . ليديا خادمة . وأوفيليا كانت ضاربة على الآلة الكاتبة . ها نحن نتحدث عن وظائف النساء بدلاً من أن نتحدث عنهن . وهناك أيضاً تلك التي قابلتها في الحديقة ، ماذا كانت تدعى ، مرساندا . نعم ، هذا اسمها . مرساندا ليست شيئاً بالنسبة لي . إدانة في هذه الجذرية تشبه الغيظ شبهاً قوياً . تجربتي المسكينة تقول لي إن الغيظ عاطفة عامة للرجال حيال النساء . كان يجب أن نعاشر بعضنا أكثر مما فعلنا . الإمبراطورية قررت خلاف ذلك .

نهض فرناندو بيسوا ، خطا بضع خطوات في المكتب ، أمسك بالورقة التي كتب عليها ريكاردو ريس البيتين اللذين قرأهما . ماذا قلت . لا نرى الحواجز تدمرنا ، ننساها كما لو أنها لم توجد . يجب أن يكون المرء أعمى كي لا يرى الحواجز تدمرنا يوماً بعد يوم . كما يقال عامياً ، لا يوجد أعمى أسوأ من الذي لا يريد أن يرى . وضع فرناندو بيسوا الورقة . كنت تحدثني عن فيرو . المحادثة انحرفت . فلنستأنفها . صرح أنطونيو فيرنو ، بمناسبة تسليم الجوائز ، بأن المثقفين الذين يظنون أنفسهم رهائن الأنظمة القوية ، حتى عندما تكون هذه القوة عقلية خالصة ، كما هي الحال مع نظام سالازار ، هؤلاء المثقفون ، إذن ، ينسون أن الإنتاج الثقافي ينمو دائماً خلال الأنظمة السلطوية . قصة القوة العقلية هذه ممتازة ، البرتغال منومة مغناطيسياً ،

المثقفون ينتجون كيفما داروا تحت رقابة فيكتور . ألست موافقاً . يصعب على المرء أن يوافق ، بل إني قد أقول إن التاريخ كذب فيرو ، هل تذكر فترة شبابنا ، أورفو وكل الباقي ، أتعتقد أننا كنا نعيش إذّاك في عهد نظام ، على الرغم من أن قصائدك ، يا عزيزي ريس ، يمكن ، إذا فكرنا فيها جيداً ، أن تعتبر صياغة شعرية للنظام . لم أرها قط من هذه الزاوية . ومع ذلك ، فهذا ما كانت عليه ، هياج البشر عقيم دائماً ، الآلهة عاقلة ولامبالية ، إنها تعيش وتزول داخل النظام الذي خلقته ، الباقي مفصل من القماش نفسه . هناك القدر فوق الآلهة . القدر هو النظام الأسمى الذي تتوق إليه الآلهة نفسها . والبشر ، ما هو الدور الذي تنسبه للبشر . إرباك النظام ، تعديل القدر . من أجل أن يكون أفضل . أفضل أو أسوأ ، ليس لهذا أهمية ، المهم هو منع القدر من التحقق . أنت تذكرني بليديا ، هي أيضاً غالباً ما تتحدث عن القدر ، ولكن ذلك بتعابير مختلفة جداً . لحسن الحظ يمكن أن يقال كل شيء عن القدر . ولكننا كنا نتحدث عن فيرو . فيرو أحمق ، إنه يعتقد أن سالازار هو قدر البرتغال . المسيح . حتى ولا المسيح ، الخوري الذي يعمّد ، يثبت ، يزوّج وينصح . باسم النظام . بالضبط باسم النظام . إذا كنت أتذكر جيداً ، فقد كنت أقل تخريباً عندما كنت حياً . عندما يكون الموت هنا ، ترى الحياة بصورة أخرى ، ولدى هذه الكلمات الحاسمة والتي لا ردّ عليها ، أستأذن ، قلت لا ردّ عليها لأنك كحي لا تستطيع أن تجيبني . لماذا لا تقضي الليلة هنا ، سبق أن اقترحت عليك ذلك في المرة السابقة . كما أنه ليس جيداً أن يعتاد الموتى على الحياة مع الأحياء ، ليس جيداً أن يريك الأحياء أنفسهم بالأموات . ولكن البشرية مصنوعة من أولئك وهؤلاء . هذا صحيح ، إلا أنه لو كان الأمر على هذا النحو موضوعياً ، لما كنت وحدي عندك ، كان قاضي الاستئناف وباقي الأسرة سيوجدون هنا . كيف تعرف أن

قاضياً في محكمة الاستئناف قد عاش هنا ، لا أعتقد أني حدثتك عن ذلك . إنه فيكتور . أي فيكتور ، فيكتوري . كلا ، فيكتور آخر ميت من قبل ، ولكنه اعتاد ، هو الآخر ، على التدخل في حياة الآخرين ، الموت نفسه لم يستطع أن يشفيه من هذا الهوس . تفوح من ذلك رائحة البصل . نعم ، ولكنها أخف بكثير ، الرائحة تخف بقدر ما يمر الزمن . مساء الخير فرناندو ، مساء الخير ريكاردو .

بضع قرائن جدية تنزع الى البرهان على أن قوة سالازار لا تتجلى في كل مكان بالقوة نفسها . وقع منذ قليل مثال فاضح على هذا الضياع على ضفة التاج ، عندما دشنت الجاو دو ليسبوا ، وهي قطعة حربية من الدرجة الثانية ، خلال احتفال رسمي ترأسه رئيس دولتنا الموقر . كانت السفينة المغطاة بالشرائط ، تستريح على المزلق ، وهي كلمة تنتمي الي المصطلحات البحرية ، وقد ارتفع عليها علم كبير وشحمت الزلاقات وسويت الركائز ، في حين كان يتقدم رئيس الجمهورية ، سعادة الجنرال أنطونيو أوسكار دو فراغوزو كارمونا ، وهو ذاته الذي صرح بأن المرء يستطيع أخيراً أن يفتخر بكونه برتغالياً ، مصحوباً بحاشيته ، بعسكريين في لباس الحفلات وبورجوازيين بالردنجوت والقبعة العالية ، وكان ، وهو يمر بيده على شاربه ، يمنع نفسه ، بقدر ما يستطيع ، لأنه قيل له إن المكان والزمان غير مناسبين لذلك ، من الإدلاء بالجملة التي كان يدلي بها لدى كل تدشين ، لطيف جداً ، لطيف جداً ، هذا ما يروق لي كثيراً . كان ينهي صعود الدرجات التي تؤدي الى المنبر الذي جلس فيه كبار وجهاء الأمة الذين لا يستغنى عنهم لدى أي إطلاق لسفينة ، في حين كان ممثل للكنيسة ، الكاثوليكية بالطبع ، يعطي بركته الأخيرة ، فليسمح الله بأن تزرع هذه السفينة الموت دون أن يجرح واحد من أفراد طاقمها ، وكان الحضور المؤلف من

شخصيات ، وأفراد من الشعب ، وفضوليين ، وعمال من الورشة البحرية ، ومصورين صحفيين ، ومخبرين ، يتملى ذاته في الموكب اللامع ، وكانت زجاجة خمر بيرادا الفوار تنتظر ساعتها المجيدة ، ولنقل الانفجارية ، عندما أخذت الجاو دو ليسبوا ، فجأة ، أمام الذهول العام ، ودون أن يلمسها أحد ، في الانزلاق على المزلقة . ارتعش شارب الرئيس الأبيض ، وهاجت القبعات العالية حائرة ، في حين كانت السفينة تبتعد ، تدخل في المياه المظفرة في ظل الهتافات التقليدية للطاقم ، في الطيران المذعور للنوارس التي أفزعتها صفارات السفن ودوي الضحكة العملاقة التي هزت شاطئ ليشبونة . لا ضرورة للبحث عن المجرمين بعيداً ، إنهم عمال الترسانة ، الأفراد الأكثر صنعاً للمقالب في العالم ، بدأ فيكتور تحقيقه فوراً ، هبط المد حالاً ، فاحت رائحة بصل عفنة من فوهات المجاري ، وانسحب الرئيس الذي كان على شفا السكتة الدماغية الى حاشيته الغاضبة والمقهورة ، إنه التشتت ، كل واحد يريد أن يعرف فوراً من هم المسؤولون عن هذا المس الدنيء بشرف هذا القسم من البحارة ، في شخص رئيسهم الأعلى ، يجيب النقيب أغوستينو لورنسو ، معلم فيكتور ، نعم ، يا سيدي رئيس الوزراء . إلا أنهم لا يستطيعون الإفلات من السخرية ، المدينة بكاملها تهزأ بهم ، لا حديث في كل مكان إلا عن هذه الحادثة التي تضحك حتى إسبان براغانسا ، على الرغم من أن هؤلاء الأخيرين يعبرون عن أنفسهم بكلمات مستورة ، احذروا أيها السادة ، إنها من ألاعيب الشيطان الأحمر* ، وتتوقف تعليقاتهم هنا . وبما أن هذه القضية لا تعني ، بعد كل شيء ، سوى السياسة البرتغالية ، فقد قرر دوقا ألب وميديناسيلي أن يحضرا حفلة مصارعة حرة ، وهي سلسلة من

---

* بالإسبانية في الأصل .

المعارك الوحشية تجمع بين مواطنهما جوزيه بونز والكونت كارول نووينا ، وهو نبيل بولوني ، اليهودي آب ـ كابلان والروسي زيكوف ، وهو روسي أبيض ، التشيكي ستريسناك والإيطالي نيرون ، البلجيكي فيرم والفلمنكي ريك دو غروت ، الانكليزي ريكس غابل ومصارع يدعى ستروك لم تحدد جنسيته ، وها هم ، بفضل ضربات القبضات وضربات الأرجل ، وضربات الرأس والمقصات ، والخنق واللصق بالأرض ، قد أصبحوا بدورهم سادة مشهد العالم ، لو كان غوبلز يشارك هو أيضاً في البطولة مرسلاً بأسرابه الخجولة ، لربح بالتأكيد .

والأمر سيدور ، على وجه الدقة ، حول طائرات ومآثر جوية في المدينة العاصمة ، بعد أن تصرفت البحرية بالصورة التي لا توصف والتي نعرفها ، ولنشر بصورة عابرة ، كي لا نعود الى ذلك مرة أخرى ، أن من كان أصل الحادثة مازال مجهولاً على الرغم من همة فيكتور ، فقضية الجواو دو ليسباو ليست ، بالتأكيد ، من عمل مقلفط أو مبرشم بسيطين . ونظراً لكون غيوم الحرب تتجمع ، كما يستطيع كل واحد أن يرى ، في السماوات الأوروبية ، فقد قررت الحكومة أن تشرح للسكان ، مستندة الى بيان عملي ، المسار الذي يجب اتباعه في حالة غارة جوية . ليس موضع بحث المضي باحتمال الصدق الى درجة تعيين العدو الإمكاني ، إلا أنه يوحي بأنه لا يمكن أن يدور الأمر إلا حول القشتاليين ، العدو التقليدي ، الأحمر اليوم . فمدى عمل الطائرات الحديثة ، وهو مايزال ضعيفاً جداً ، لا يسمح ، فعلاً ، للطائرات الفرنسية بأن تهاجم ، أما بالنسبة للانكليز ، فهذا أقل احتمالاً أيضاً ، أليسوا حلفاءنا ، وفيما يتعلق بالإيطاليين والألمان ، فإن براهين الصداقة التي يقدمها هذان الشعبان ، الشقيقان في المثل الأعلى ، هي من الكثرة بحيث يمكن أن نتوقع منهما مساعدة ، لا إبادة . فعن طريق الصحف والإذاعة ، إذن ، أعلنت

الحكومة أن ليشبونة ستصبح في السابع والعشرين من الشهر الحالي ، عشية الذكرى العاشرة للثورة القومية ، مسرح مشهد جديد ، تمثيل هجوم جوي على قسم من البيكسا أو ، كي نستعمل مصطلحات أكثر تقنية ، بيان عملي لهجوم كيميائي ـ جوي ، هدفه تدمير محطة الروسيو وإغلاق طرق الدخول باستعمال الغازات . سوف تبدأ طائرة استطلاع بالتحويم فوق المدينة ، وسوف تطلق دخاناً على محطة الروسيو ، مشيرة على هذا النحو الى موقع الهدف الذي ينبغي الوصول إليه . أنصار النقد المنتظم أكدوا حالاً أن النتائج ستكون أكثر كفاية بما لا يقاس لو ألقت القاذفات بحمولاتها دون إنذار مسبق ، دون مهل ، إلا أن الأمر يدور حول أفراد فاسدين يزدرون قوانين الفروسية الحربية التي تحدد أنه لا ينبغي ، في حال من الأحوال ، مهاجمة العدو دون إنذاره بذلك مسبقاً . وهكذا ، فمنذ أن يرتفع الدخان ، سوف يدخل الدفاع الجوي حيز العمل ، وهذه الإشارة التي ستطلق عويل صفارات الإنذار ، وهو إنذار لا يمكن جهله ، سيسمح لأفراد الدفاع الإيجابي والسلبي بأخذ مواقعهم . وسوف يتدخل البوليس ، والحرس الوطني الجمهوري ، والصليب الأحمر والإطفائيون إذذاك ، داعين الجمهور الى مغادرة الشوارع المهددة ، وبعبارة أخرى الشوارع المجاورة ، في حين ستسارع فرق الإنقاذ والنجدة بكل عجلة الى أماكن الخطر ، وتتجه سيارات الإطفاء ، وقد أخرجت كل خراطيمها ، نحو بؤر الحريق المحتملة . وفي هذه الأثناء ، سوف تنسحب طائرة الاستكشاف دون أن يفوتها التأكد من أن الدخان في مكانه حقاً ، ومن أن المنقذين قد وصلوا فعلاً الى المواقع ، وفضلاً عن ذلك نتعرف من بينهم على ممثل السينما والمسرح أنطونيو سيلفا على رأس إطفائيي أجودا* المتطوعين . وسوف

---

* حي في ليشبونة .

يتقدم سرب القاذفات المعادية ، وهي أسطول صغير من طائرات بمقعدين ترغمها حجرات طياريها المفتوحة على المطر والريح على أن تطير منخفضة جداً في حين تدخل رشاشات الدفاع والمدفعية المضادة للطائرات في العمل ، ولكن ، بما أن الأمر يدور حول تدريب تمثيلي ، فلن تصاب أية طائرة ، وسوف تواصل ، قريباً من الغيوم ، تحويماتها ، أما بالنسبة للقصف ، فلا ضرورة للتظاهر ، القنابل تتفجر وحدها ، في الأسفل ، على البراسادوس ريستورا دوريس* ، الذي لن ينقذه اسمه الوطني لو كان ذلك قد حدث حقاً . لا خلاص أيضاً لفرقة المشاة التي أبيدت عن بكرة أبيها وهي تتجه الى الروسيو . ونتساءل ، اليوم أيضاً ، لمعرفة ماذا كانت هذه الفرقة ذاهبة لتفعل في مكان سوف يقصف بقسوة ، كما كان العدو قد أعلن بمحبة ، والذي قصف فعلاً . يجب أن نتمنى أن لا تسقط هذه الحادثة ، التي جلبت العار على جيشنا ، في النسيان ، وأن تقدم هيئة الأركان الى مجلس عرفي ، من أجل إعدام جماعي وسريع معاً . فرق الإنقاذ أنهكت ، حملة المحفات والممرضون والأطباء يناضلون تحت النار بإنكار للذات ، يلتقطون الموتى ، ينهضون الجرحى الذين يدهنونهم بالميركوركروم وصبغة اليود ويغطونهم بضمادات وعصابات ستغسل فيما بعد ، من أجل أن تستخدم من جديد ، في جراح حقيقية هذه المرة ، حتى ولو كان علينا أن ننتظر ثلاثين عاماً . على الرغم من الجهود البطولية للدفاع ، عادت الطائرات المعادية الى الهجوم ، أصابت قنابلها الحارقة محطة الروسيو ، جبل من الركام ترك لنهم اللهب ، إلا أن الأمل لم يفقد في إحراز النصر النهائي ، على اعتبار أن تمثال الملك سباستيو ، العاري الرأس مازال منتصباً ، سليماً بصورة عجائبية . دمر

---

* ميدان المصلين ، سمي كذلك تمجيداً لأبطال استقلال البرتغال نتيجة لثورة كانون الأول عام ١٦٤٠ .

الكثير من الأبنية ، تركت خرائب دير كارما القديمة مكانها لخرائب جديدة جداً ، أعمدة كبيرة من الدخان تفلت من المسرح القومي ، الضحايا تتضاعف ، بيوت تحترق في كل مكان تقريباً ، الأمهات ينادين أبناءهن ، الأبناء يطلبون أمهاتهم ، لا أحد يبالي بالآباء والأزواج ، هذا الوحش هو الحرب . الطيارون الشيطانيون يحتفلون ، ضائعين بين الغيوم ، بنجاح مهمتهم بشرب أقداح صغيرة من كونياك فونداتور الذي يدفئ أطرافهم المتجمدة ، الآن وقد هبطت حمى المعركة . رسموا مخططات ، أخذوا ملاحظات وصوراً ثم ابتعدوا ، وقد مالوا بسخرية على الجناح ، في اتجاه باداجوز ، في حين كانوا قد وصلوا الى كيا . يخيل الى المرء أن هزة أرضية أخرى أتت على الوقوع ، المدينة محيط من اللهب ، الموتى يعدون بالألوف ، الدفاع الجوي يطلق دفعة أخيرة ، عادت صفارات الإنذار تدوي ، انتهى التدريب . غادر السكان الأقبية والملاجئ ، عادوا الى بيوتهم ، لم يكن هناك ميت ولا جريح ، الأبنية مازالت واقفة ، كل ذلك لم يكن سوى لعبة .

هذا هو برنامج المشهد . حضر ريكاردو ريس قصف أوركا وبرايا فيرميلا* ، على مسافة كان يمكنه معها ، لو لم تتحدث الصحف ، منذ الغد ، عن موتى حقيقيين وجرحى حقيقيين ، أن يظن أنه ، هو أيضاً ، حضر سلسلة تدريبات ، من أجل ذلك قرر أن يذهب ليرى بعينيه المشهد والممثلين . اختار ، متجنباً مركز العمليات ، من أجل أن لا يفسد الاحتمال ، أن يأخذ مصعد سانتا جوستا ، آخرون فكروا في ذلك قبله ، وعندما وصل الى الموقع أخيراً ، لم يعد المرور ممكناً ، توجب عليه أن يعود الى النزول من

---

* شاطئان في ريو دو جانيرو .

الكالسادا دو كارمو ، حج حقيقي ، ولولا الطرق التي لا تتشابه ، ذلك أنه ينقص الغبار والحجارة المرصوفة ، ليخيل إليه أن قدميه تعيدانه مرة أخرى الى فاطمة ، الطائرات ، الباسارولات ، الظهورات ، كل ذلك هو من ميدان السماء . تساءل لماذا خطر في باله طير* الأب بارتولوميو دو غوسماو ، حار لحظة ، ثم سلم أخيراً ، بعد تفكير ناضج ، إن تداعي أفكار تحت عقلانية هو وحده الذي قاده من تدريب اليوم الى قصف أوركا وبرايا فيرميلا ، ومن هذين الأخيرين الى الخوري الطائر والى الآلة التي خلدته والتي لم تطر أبداً ، حتى ولو ادعى آخرون عكس ذلك ذات يوم . لمح ، من فوق مجموعتين من الدرجات التي تهبط نحو شارع بيريميرودو ديزمبرو ، الحشد في الروسيو ، دهش للسماح للمتفرجين بالاقتراب الى هذا الحد من القنابل والمفرقعات ، ولكنه سرعان ما ترك نفسه ينجر مع فيض الفضوليين الذين يهرعون ، فرحين ، الى مسرح الحرب . ولدى وصوله الى الميدان ، تبين له أن الجمهور كان أشد كثافة أيضاً مما بدا من بعيد ، وأنه من المستحيل عليه أن يقترب ، إلا أنه تقدم ، وقد توفر له الوقت ليتعلم عادات البلد ، وهو يقول ، عفواً ، عفواً ، أنا طبيب ، دعوني أمر ، لم يكن ذلك خطأ تماماً ، ولكن أليس أكثر الأكاذيب زيفاً تلك ، على وجه الدقة ، التي تستخدم الحقيقة للوصول الى مآربها . نجحت الحيلة ، ها هو الآن في الخط الأول ، من هنا يستطيع أن يرى كل شيء . على الرغم من عدم وجود أدنى طائرة مرئية ، فأفراد الشرطة كانوا عصبيين ، أصحاب الرتب يوزعون ، في الساحة التي تركت حرة ، تجاه المسرح والمحطة ، الأوامر والتعليمات ، مرت سيارة حكومية وداخلها وزير الداخلية وأعضاء أسرته ، هؤلاء السيدات

* إشارة الى إحدى شخصيات رواية ج . ساراماغو السابقة ، « مذكرات الدير » ، مخترع الباسارول ورمز الكلمة البرتغالية باسارولا : طائر ضخم .

لا يردن تفويت هذا ، تبعتهم سيارات عديدة ، كل هذا العالم الصغير سيحضر التدريب من نوافذ فندق أفينيدا بالاس . فجأة دوت طلقة إنذار ، أخذت صفارات الإنذار في العويل ، طار حمام الروسيو ، وصفق بأجنحته كالمفرقعات ، القصة نفسها دائماً ، كان يجب على الطائرة المعادية أن تلقي في البدء بدخانها ، وبعد ذلك فقط كان على الصفارات أن تدوي بجوقتها المحزونة ، وعلى المدفعية المضادة للطيران أن تدخل في العمل ، وأخيراً ، فكل هذا ليس خطيراً ، فسوف يأتي ، بفضل ضروب تقدم العلم ، اليوم الذي سوف يمكن للقنابل ، فيه ، أن تجتاز عشرة آلاف كيلومتر ، وعند ذلك سوف تعلم أخيراً ما يحتفظ به المستقبل لنا . ظهرت الطائرة ، ماج الجمهور ، ارتفعت أذرعة ، ها هي ، ها هي ، صوت أجوف ، انفجار ، ثم أسطوانة دخان أسود تصعد ببطء في السماء ، بلغت الإثارة الذروة ، بحت الأصوات من القلق ، أمسك الأطباء بسماعاتهم ، هيأ الممرضون حقنهم ، وكان حملة المحفات الذين فرغ صبرهم يفلحون الأرض . سمعت من بعيد الزمجرة المستمرة لمحركات القلاع الطائرة ، الساعة التي طالما انتظرت تقترب ، كان هناك مشاهدون ، أكثر جبناً من الآخرين ، قلقون لمعرفة ما إذا لم يكن هذا ، في نهاية المطاف ، حقيقياً ، ذهب بعضهم ليحتمي ، ولجأ آخرون الى ما تحت المداخل ليحتموا من الشظايا ، ولكن معظمهم لم يتحرك قيد أنملة ، وما إن عرف أن القنابل غير مؤذية ، حتى تضخم الجمهور بسرعة . انفجرت المفرقعات ، وضع العسكريون أقنعة الغاز ، وإذا لم يكن هناك منها ما يكفي للجميع ، فليس هذا خطيراً ، المهم هو إعطاء الانطباع بأن كل ذلك حقيقي ، كل واحد يعرف ، منذ البداية ، من الذي سيموت ومن الذي سيخرج سليماً من هذا الهجوم الكيميائي ، الموت العام لن يأتي حالاً . اكتسح الدخان كل شيء ، المتفرجون يسعلون ، يعطون ، يخيل للمرء أن

وراء المسرح القومي بركاناً يغلي أو يشتعل . ومع ذلك ، فيصعب أخذ هذه المهزلة مأخذ الجد . رجال الشرطة يدفعون المتفرجين الذين اقتربوا أكثر مما ينبغي فأربكوا عمل المنقذين ، بل شوهد جرحى محمولون على محفات يضحكون ، وقد نسوا الدور الدراماتيكي الذي عهد إليهم به ، كأن بهم مساً ، هذا بدون شك تأثير الغازات المثيرة للضحك ، أما بالنسبة لحملة المحفات ، فقد كان يجب أن يتوقفوا غالباً ليمسحوا دموعاً لا علاقة لها بالغازات المسيلة للدموع ، وأخيراً ، كانت الذروة عندما شوهد ، في وسط هذه البلبلة التي عانى فيها كل واحد تجربة خطر وهمي ، ظهور كناس مع عربته المعدنية الصغيرة ، يدفع الأوراق على طول حافة الرصيف ، يجمعها مع أوساخ أخرى في المجرفة التي يفرغها بعد ذلك في حاوية الأقذار ، ويتابع طريقه ، غير مبال بالصخب ، بالضوضاء ، بضروب التدافع ، دون أن يرفع رأسه مرة واحدة لينظر الى الطائرات الإسبانية ، وغادر المسرح صحيحاً وسليماً . يقال عادة إن حادثة واحدة تكفي ، وإن اثنتين أكثر مما ينبغي ، ولكن ، بما أن التاريخ لا يهتم بدقائق التأليف الأدبي ، فقد جاء الآن دور ساعي البريد ليتقدم . اجتاز ، وكيسه معلق على كتفه ، الميدان بهدوء ، واعياً لمسؤولياته ، ليس هو بالرجل الذي يضيع وقته في المشهد وملهيات الطريق ، يجب أن ينهي التوزيع ، هناك أناس ينتظرونه ، فارغي الصبر ، رسالة كوامبرا ، غداً ، سأكون بين ذراعيك ، ربما ستصل اليوم . ريكاردو ريس كان ، احتمالاً ، الوحيد في كل هذا الحشد القادر على مقارنة الساعي الليشبوني بفتى باريس الشهير الذي كان يزعق بأعلى صوته ، حلوى ، حلوى ، في حين كان الحشد الهائج يستولي على الباستيل . لا شيء يميزنا ، نحن البرتغاليين ، عن العالم المتمدن ، لنا ، نحن أيضاً ، أبطال الغياب ، شعراؤنا التأمليون ، هذا الكناس الذي يكنس دون انقطاع ، وهذا

الساعي الشارد الذي يعبر الميدان دون أن ينتبه الى كون الرسالة القادمة هي لهذا السيد الواقف أمامه ، قال ، ولكن ليس معي رسالة من كوامبرا ، في حين يكنس الكناس ، ويزعق صبي الفران البرتغالي بأعلى صوته ، كيجاداس سنترا* .

بعد بضعة أيام ، روى ريكاردو ريس لليديا ما كان قد رآه ، الطائرات ، الدخان ، وذكر زمجرة قطع المدفعية المضادة للطائرات ، رشات الرشاشات ، كانت ليديا تصغي إليه آسفة لأنها لم تستطع حضور المشهد ، الحوادث المثيرة تضحكها ، قصة الكناس ممتازة حقاً ، عندما تذكرت ، فجأة ، أنه كان لديها ، هي الأخرى ، شيء ترويه ، هل تعلم من هرب ، ودون أن تنتظر الجواب ، تابعت ، مانويل غيدس ، البحار الذي حدثتك عنه في المرة السابقة ، هل تذكره . نعم ، ولكن من أين هرب . هرب عندما كانوا يقتادونه الى المحكمة ، وكانت ليديا تضحك من كل قلبها ، وكان ريكاردو ريس يكتفي بالابتسام . هذا البلد في أوج الانهيار ، السفن تنزل الى الماء قبل الأوان ، السجناء يهربون ، السعادة لا يسلمون الرسائل ، أما بالنسبة للكناسين ، ياه ، لا يوجد ما يقال حول الكناسين . أما بالنسبة لليديا ، فقد كانت مسرورة جداً لأن مانويل غيدس قد هرب .

* الكيجاداس حلويات صغيرة مستديرة مصنوعة من جبن وبيض تصنع في سنترا .

صراصير غير مرئية تغني في نخيلات التودو سانتا كاتارينا . الجوقة الثاقبة التي تجعل طبلتي أذني أداماستور تهتزان لا تستحق أن تعطى اسم الموسيقى العذب ، ولكن كل شيء يتوقف ، في موضوع الصوت ، على استعدادات المستمع ، فكيف أدرك العملاق العاشق ، الأصوات التي كان يسمعها ، وهو تائه على الشاطئ ، منتظراً دوريس ، الوسيطة ، التي كان يجب أن تحدد الموعد الذي طال انتظاره ، في حين كان البحر يغني وصوت حبيبة تيبيس ، الشبيهة لروح الله ، تطوف فوق المياه . الذكور هي التي تغني ، هنا ، وتحدث صريراً في أجنحتها ، منتجة صوتاً متسلطاً ، غير منقطع ، شبيهاً بالصرخة الحادة التي تنبثق فجأة من مقلع الرخام عندما يتم أخيراً الوصول الى العرق المقاوم في قلب الحجر . الطقس حار . إنها حمّارة القيظ ، في فاطمة التي تحولت الى أتون ، ثم غطيت السماء من جديد ، بل إنها أمطرت رذاذاً ، في الأراضي المنخفضة هبط الفيضان فجأة ، لم يبق من البحر الداخلي الواسع سوى بضع بقاع ماء آسن تمتصها الشمس شيئاً فشيئاً . بما أن الصبيحة كانت رطبة ، فالعجوزان يمشيان في المنطقة بمظلتيهما اللتين يحولانهما الى شمسيتين منذ أن تشتد الشمس ، استعمال

الأشياء أهم من الاسم الذي يعطى لها ، على الرغم من أن هذا الأخير يتوقف ، كما رأينا ، على ذاك ، فنحن نعود ، شئنا أم أبينا ، الى الكلمات دائماً . السفن تروح وتجيء براياتها ، ومداخنها التي تنفث الدخان ، وبحارتها الصغار ، وهذا الصوت القوي للصفارات ، المألوف جداً للرجال عندما يدوي غاضباً ، في الصدفات ، وسط زوابع المحيط الى حد انتهوا معه الى التحدث مع إله البحار حديث المتساوين . هذان العجوزان لم يركبا البحر قط ، دمهما لا يجن عندما يسمعان الزئير الهائل الذي تحطمه المسافة ، ومع ذلك ، فهما يرتعشان ، في أعمق أعماقهما ، كما لو كانت سفن ضائعة في ظلم جسديهما الكلِب ، وسط هيكل العالم العملاق ، تمخر على أقنية عروقهما . عندما يكون كل شيء هادئاً ، يهبطان الشارع ، يعودان للغداء الى بيتيهما حيث ينجز ، منذ أزمنة سحيقة ، في الظل ، طقس القيلولة ، ثم ، منذ أن يبترد بعد الظهر ، يعودان الى الألتو ، يجلسان على المقعد نفسه ، والشمسية مفتوحة ، وظل الأشجار يتسكع ، في انتظار أن تؤول الشمس الى الزوال ، ويختفي ، إذا كان يحمينا منذ لحظة ، فقد هرب الآن ، ذلك أن أشجار النخل عالية جداً . سوف يموت العجوزان دون أن يعرفا أن النخيلات ليست أشجاراً ، جهل البشر لا يقاس ، ولكن الذي لا يصدق أكثر من ذلك أيضاً هو تأكيد أن النخلة ليست شجرة وأنه ليس لذلك أهمية أبداً ، القصة هي نفسها قصة المظلة والشمسية ، المهم هو أنهما تحميانا . وفضلاً عن ذلك ، إذا سألنا الدكتور الذي يأتي الى هنا بعد كل ظهر ، لمعرفة ما إذا كانت النخلة شجرة حقاً ، فمن المحتمل أن يكون لا يعرف شيئاً من ذلك ، ويكون مرغماً على الرجوع الى بيته ليراجع كتابه في علم النبات ، شريطة أن لا يكون قد نسيه في البرازيل ، ذلك أنه ليس لديه ، حول المملكة النباتية ، سوى معارف مبهمة لا تصلح إلا لتزيين أشعاره ، بعض أسماء الزهور ، زهور

الغار ، لأنها كانت موجودة فعلاً في زمن الآلهة ، بضع أشجار لا اسم لها ، الكروم ، دوار الشمس ، القصب الذي يرتعش مع التيار ، لبلاب النسيان ، الزنبق والورود ، الورود ، الورود . قام بين ريكاردو ريس والعجوزين شيء من الإلفة ، إنهم يتبادلون الآن الحديث كأصدقاء ، ومع ذلك ، لم يخرج قط من بيته وهو مصمم على أن يسألهما ، أكنتما تعرفان أن النخلة ليست شجرة ، وكانا يعيدان وضع ما يخيل إليهما أنهما يعرفانه بدرجة من الندرة لم يخطر ، معها ، في بالهما ، أن يسألاه ، هل النخلة شجرة ، يا سيدي الدكتور ، سوف يفترقون ذات يوم دون أن يكونوا قد أوضحوا فيما بينهم هذه النقطة الأساسية من الحياة ، هل النخلة شجرة لأنها تشبه الشجرة ، هل الظل المتشجر الذي نسقطه على الأرض حياة لأنه يشبه الحياة .

ريكاردو ريس يستفيق متأخراً حالياً . لم يعد يتناول طعام الإفطار ، ونجح في السيطرة على الشهية الصباحية الى حد كانت معه الأطباق الغنية التي كانت ليديا تحملها الى غرفته ، في زمن فندق براغانسا المبارك ، تبدو له ذكرى حياة قد لا تكون حياته . إنه ينام حتى ساعة متأخرة من الصباح ، يستيقظ وينام من جديد ، يسهر على نومه الخاص ، وبعد محاولات كثيرة ، نجح في التشبث بحلم وحيد ، الحلم نفسه دائماً . حلم شخص يحلم بأنه لا يريد أن يحلم ويخفي الحلم تحت الحلم ، كما لو كان ذلك لمحو آثاره ، بصماته ، علامة مروره ، من أجل هذا ، لا شيء أسهل من ذلك ، يكفي أن يتقدم المرء جاراً وراءه غصن شجرة أو سعفة ، لن يبقى سوى الأوراق التي تنفصل ، والأسنة الرهيفة التي تجف وتنتهي بالاختلاط بالغبار . عندما ينهض ، تكون ساعة الغداء قد حانت . الاغتسال والحلاقة وارتداء الثياب حركات آلية لا يكاد الشعور أن يشترك فيها . هذا الوجه المغطى بالرغوة ليس شيئاً آخر غير قناع يتكيف مع أي وجه رجل ، وعندما يكشف

الموسى ، شيئاً فشيئاً عما يوجد تحته ، ينظر ريكاردو الى نفسه بحيرة ، منشغل البال قليلاً ، قلقاً ، كما لو كان يخشى أن يظهر داء غامض في هذا الكشف . إنه يراقب الصورة التي تردها له المرآة ، يحاول أن يكتشف فيها قرابات مع وجه آخر لم يعد يراه منذ وقت طويل . يملي ضميره عليه ، توقف إذن عن هذه اللعبة ، لأنك أخيراً ، تحلق كل يوم ، ترى كل يوم هاتين العينين ، هذا الأنف ، هذه الذقن ، هذين الخدين الشاحبين ، هاتين الأذنين ، الزائدتين المتغضنتين والمضحكتين ، ومع ذلك ، فالأمر هو كأنه أمضى عدداً من السنوات في مكان دون مرآة ، دون أن ينظر الى نفسه ، حتى في عيني آخر ، وهو ، إذ ينظر الى نفسه اليوم ، لم يعد يتوصل الى التعرف عليها . يخرج للغداء ، يلتقي أحياناً بالعجوزين اللذين يهبطان الشارع ، ويتبادلون التحية ، نهارك سعيد ، يا سيدي الدكتور ، ويرد ، نهاركما سعيد ، مازال يجهل اسميهما ، كيف يدعيان ، قد يدور الأمر أيضاً حول أشجار أو نخلات . عندما يرغب في ذلك ، يذهب لرؤية فيلم ، ولكنه يعود في أغلب الأحيان الى بيته بعد الغداء ، الحديقة صحراء تحت ركاب الشمس الرصاصي ، ترجيعات النهر تجرح العيون ، أداماستور ، سجين الحجر ، على أهبة إطلاق صرخة عالية ، صرخة غضب إذا حكمنا على ذلك من التعبير الذي أعطاه إياه النحات ، صرخة ألم ، إذا صدقنا كامويس . لجأ ريكاردو ريس ، كالعجوزين ، الى ظل شقته التي نخرتها من جديد رائحة العفن القديمة التي بدا أنها تفوح من قطع الأثاث والجدران ، وحتى لو كانت ليديا تفتح ، كلما مرت ، النوافذ على مصاريعها ، فلم يكن ذلك مجدياً ، المعركة غير متعادلة الى حد بعيد ، والحقيقة هي أن ليديا لم تعد تأتي بهذا التواتر . وفي نهاية بعد الظهر ، عندما تهب أول نسمة ، يخرج ريكاردو ريس من جديد ، ويذهب للجلوس على مقعد في الحديقة ، لا أبعد ولا أقرب

مما ينبغي بالنسبة للعجوزين ، وذلك دون أن يكون قد فاته إعطاؤهما جريدته الصباحية التي قرأها وأعاد قراءتها ، بادرة الصداقة الوحيدة التي ينجزها ، لا يعطي خبزاً ، على اعتبار أن أحداً لا يطلب منه ذلك ، وحتى لو طلب منه ، فلن يعطي أيضاً ، إنه يهب بضع الأوراق هذه التي طبعت عليها الأخبار ، لكل أن يقرر أياً من هاتين الصدقتين تبدو له أفضل .

لو سئل ريكاردو ريس عما الذي أمكنه أن يفعله ، وحده في بيته ، كل هذا الوقت ، فلن يعرف بماذا يجيب وسوف يهز كتفيه . نسي دون شك أنه قرأ ، كتب أبياتاً ، تاه في المماشي وتأمل ، متمركزاً في الشرفة في مؤخرة البناية ، الباحات ، الغسيل الذي يجف ، الشراشف البيض ، المناشف ، أقفاص الأرانب ، الحيوانات الأليفة ، القطط التي تنام ، في الظل ، على الجدران ، الكلاب ، كلا ، لا يوجد كلاب ، هذه الممتلكات لا تحتاج الى أية حراسة ، ثم عاد الى قراءته ، كتب أبياتاً أخرى ، صححها ، مزق بعضها ، أردأ من أن يحتفظ بها ، الكلمة وحدها المماثلة ، وليس ما تعنيه . انتظر بعد ذلك أن تهبط الحرارة ، أن يهب أول نسيم مسائي ، في اللحظة التي كان ينزل فيها على الدرج ، خرجت جارة الأسفل على المنبسط ، الزمن هدأ من الأقاويل وانتهى الى تفاهة مصدرها ، البناية تتنفس سلاماً . سأل ، هل أصبحت حالة زوجك أفضل إذن . نعم ، بفضلك يا سيدي الدكتور ، كان حظه جيداً حقاً ، معجزة حقيقية ، هذا فضلاً عن ذلك ما يرغب فيه الجميع ، الحظ والمعجزات ، حتى عندما لا يسكن المرء الى جانب طبيب ، يكون موجوداً على وجه الدقة عندما يحدث الارتباك الهضمي ، تخلص بالإفراغ من فوق ومن تحت ، بركة من السماء يا سيدي الدكتور ، الحياة هي هذا ، اليد نفسها تكتب وصفة المسهل والبيت السامي أو الحكيم ، استفد من الشمس وهي ساطعة ، وابحث عن الظل إذا

كان الظل هو الذي يناسبك ، وإذا كان هذا هو يوم حظك ، فكل شيء سيجري على مايرام .

العجوزان يقرآن الجريدة ، أحدهما أمي ، سبق أن قلنا ذلك ، لذلك فهو لا يكف عن التعليقات ، عن إبداء رأيه ، هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يملكها لإعادة التوازن ، إذا كان الواحد يعرف ، فالآخر يفسر ، قصة الستمائة المجنون مضحكة جداً حقاً . أعرفه منذ سنوات ، في تلك الفترة كان مايزال سائق ترامواي ، كان لديه هوس بصدم العربات ، يقال إن هذه المزحة كلفته السجن ثمان وثلاثين مرة ، وإن الكاريس* طردته في النهاية لأنه كان يرفض إصلاح نفسه . كانت تلك الحرب المكشوفة ، إلا أنه يجب أن نسلم حقاً بأن أصحاب العربات لم يكونوا بريئين من الملامة بدورهم ، لم يكونوا مستعجلين أبداً ، كانوا يمشون على إيقاع حيواناتهم ، في حين أن الستمائة المجنون الغاضب كان يلعلع ، مزبداً ، بالجرس بضربات من عقب قدمه ، وكان يفقد صبره ، بعد برهة ، وفـ...لات ، يندفع ، بلبلة كبيرة ، كان البوليس يتدخل ويأخذ الجميع ، الآن أصبح الستمائة المجنون سائق عربة ، وهو يقضي وقته في الشجار مع زملائه السابقين الذين يدفعون له من عملته ، كما يقول المثل ، لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك ، هذا ما انتهى إليه العجوز الذي لم يكن يعرف القراءة ، وكان يلجأ ، بالتالي ، الى صيغ لاذعة تأثيرها ، بالتالي ، في جذرية تأثير المسهل . جلس ريكاردو ريس على مقعدهما ، هذا نادر ، ولكن كل المقاعد الأخرى كانت مشغولة اليوم ، فهم أن حوار العجوزين الطويل كان مكرساً له وسأل ، ولقب الستمائة المجنون هذا ، من أين جاء ، فأجاب العجوز الأمي ، الستمائة هي رقمه في

* الشركة الوطنية للترامواي والباصات في ليشبونة .

الكاريس ، أما المجنون ، فهذه الكلمة كانت بسبب هوسه ، الستمائة المجنون ، هذا جيد ، أليس كذلك ، دون أي شك . استأنف العجوزان قراءتهما ، ترك ريكاردو ريس أفكاره تمضي مع التيار ، ما هو اللقب الذي يمكن أن يناسبني حقاً ، ربما كان الطبيب الشاعر ، أو الرائح الغادي ، الروحاني ، صاحب القصائد ، لاعب الشطرنج ، كازانوفا الخادمات ، السيريناد في ضوء القمر ، قال العجوز الذي كان يقرأ فجأة ، لا يحبه الحظ ، إنه لقب لص من الدرجة الثانية ، نشال قبض عليه بالجرم المشهود . لمَ لا ، ريكاردو ريس الذي لا يحبه الحظ ، يمكن جيداً لسوقي أن يدعى ريكاردو ريس ، الأسماء لا تختار مصيرها . ما يروق للعجوزين بشكل خاص هو ، على وجه الدقة ، هذه الأخبار المتنوعة الدراماتيكية والمؤثرة ، قصص الاحتيال ، الاضطرابات والاعتداءات التي تحدث بين الذئب والكلب ، الحركات اليائسة ، الجريمة العاطفية ، ظل السرو ، الحوادث المميتة ، الجنين المهجور ، الاصطدامات بين السيارات ، العجل ذو الرأسين ، الكلبة التي ترضع قططاً رضيعة ، واحدة على الأقل لا تشبه أوغولينا التي التهمت صغارها . في الوقت الحاضر ، أسرتهما قصة ميكاس سالويا ، واسمها الحقيقي ماريا دا كونسياو ، التي أدينت مائة وستين مرة بالسرقة وأرسلت عدة مرات الى أفريقيا ، وقصة جوديت ماليساس ، الكونتيسة دو كاستيلو ميلور المزيفة ، التي نصبت بألفين وخمسمائة ايسكودوس على ملازم في الحرس الوطني الجمهوري ، وهو مبلغ سيبدو مضحكاً بعد خمسين عاماً ، ولكنه في الوقت الجاري ثروة صغيرة ، كما تقول نساء بينافانته اللواتي يكسبن ، في يوم عمل يمتد من شروق الشمس الى غروبها ، عشرة آلاف ريس ، فلننتظر قليلاً ، فمقابل ما يعرفه ملازم الحرس وحده ، حصلت جوديت ماليساس ، مع كونها كونتيسة دو كاستيلو ميلور المزيفة ، معادل

مائتين وخمسين يوم حياة وعمل من أيام ميكاس دا بوردا داغوا ، دون أن نحسب فترات البطالة والمجاعة ، وليس هذا ما ينقص . لنتوقف هنا ، فنحن مهددون بالملل . احتفل بعيد الجوكي كلوب كما كان مقرراً ، وحضره ألوف الأشخاص ، ليس هذا الرقم مفاجأة للأعياد ، والمواكب والحج ، إن وثنياً صريحاً مثل ريكاردو ريس ذهب حقاً الى فاطمة ، هذا يكفي للتوضيح ، ولا يجب أن ننسى أن الأمر كان يدور حول عمل خيري مكرس لمساعدة القريب الذي هو ، في هذه المناسبة ، منكوبو ريباتيجو الذين ذكرت من بينهم ميكاس من بينافانته المشار إليه سابقاً ، والتي ستتلقى نصيبها من الخمسة وأربعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وخمسين ايسكودوس والخمسة سانتافوس ونصف السانتافوس التي كانت حصيلة التبرعات ، إلا أن الحسابات لم تنته بعد ، فيبقى أن نعرف مقدار الضرائب والرسوم ، وهي ليست قليلة . أما بالنسبة للمشهد ، فقد كان يستحق المشاهدة ، ولو لم يكن ذلك إلا بسبب نوعية العروض وأبهتها ، فرقة الحرس الوطني قدمت حفلة موسيقية ، قدم فصيلان من الفرسان المنتمين ، هم أنفسهم ، الى الحرس الوطني ، ألعاب فروسية وهجوماً ، في حين كانت دوريات مدرسة خيالة توريس نوفاس تنفذ كمية من التشكيلات ، حيوانات ريباتيجو تنهار ، منهكة ، الحيوانات لا البشر ، على الرغم من أن هؤلاء الآخرين غالباً جداً ما اضطهدوا وألقي بهم أرضاً هم الآخرين ، أما بالنسبة لضيوفنا ، فقد كانوا ممثلين ومصارعي ثيران من إشبيلية وباداجوز جاؤوا ، مقابل أجر ، خصيصاً الى وطننا ، ومن أجل التحدث إليهم والحصول على الأخبار ، نزل دوقا ألب وميديناسيلي ، نزيلي فندق براغانسا ، الى الميدان ، مقدمين على هذا النحو مثالاً على التضامن الجزيري ، لا شيء يشبه أن تكون كبيراً من إسبانيا في البرتغال .

بالنسبة لما بقي من العالم ، الأخبار لم تتغير أبداً ، الإضرابات مستمرة في فرنسا ، ويقدر عدد المضربين ، فعلاً ، بخمسمائة ألف ، وهو ما يحمل على التفكير في أن حكومة ألبير سارو لن تتأخر عن الاستقالة وتحل محلها حكومة جديدة يشكلها ليون بلوم . عند ذلك سوف تنخفض الإضرابات ، محدثة الانطباع بأن المحتجين وافقوا على الحكومة الجديدة . وبالمقابل ، ففي إسبانيا التي ربما لم يعد مصارعو إشبيلية وباداجوز إليها بعد محادثتهم مع الدوقين ، هنا يحترموننا كما لو أننا كبار من البرتغال ، بل أكثر من ذلك ، أحسبوا حسابنا ، فسنذهب للوخز بالرماح معكم ، فالمضربون ينبتون كالفطر ، في إسبانيا ولارغو كاباليرو لا يتوقف عن إطلاق التحذيرات التي تعطي ترجمتها الى البرتغالية تقريباً ما يلي ، يجب أن نتوقع حركات عنيفة ما لم تدعم السلطة الطبقات العاملة ، هذا ما يقوله ، ويقوله لأنه يتعاطف مع هذه الحركات ، أو لأنها الحقيقة ، ما أهمية ذلك ، يجب من الآن فصاعداً أن نتوقع الأسوأ . وحتى لو لم يصل المرء في الوقت المناسب ، فيجب أن يمضي ، فذلك أفضل دائماً ، كما يقول الآخر ، من أن لا يفعل شيئاً ، وكون النفس صغيرة أو كبيرة لا يغير شيئاً من الموضوع ، أتينا على رؤية مثال عن ذلك مع النجاشي الذي احتفظ له الشعب الانكليزي باستقبال المنتصرين ، يا للانكليز البلهاء ، يبدؤون الآن ، بعد أن تركوا الأثيوبيين لمصيرهم ، في الهتاف لإمبراطورهم ، آه ، يحق لنا جيداً أن تنطبق عليهم المثل ، بعد الموت ، الطبيب ، أخيراً ، أتريدون أن أقول لكم قرارة تفكيري ، كل هذا ليس سوى خديعة ضخمة . فلا عجب إذن ، إذا أخذ العجوزان ، بعدما عاد الدكتور الى بيته ، يتحدثان عن الحيوانات ، عن الذئب الأبيض الذي ظهر في ريو دادس ، قرب ساو جواو دو بيسكيرا والذي يسميه السكان بومبو ، وعن ناديا ، اللبوة التي عضت الفقير بلاكام في ساقه أمام متفرجي

الكوليزيه ، وهو ما يثبت على الأقل شيئاً ، هو أن فناني السيرك يجازفون حقاً بحياتهم . لو لم يكن ريكاردو ريس قد رحل بهذه السرعة ، لاستطاع أن ينتهز الفرصة ليقص عليهما حكاية الكلبة أوغولينا ، مكملاً على هذا النحو سلسلة الوحوش ، الذئب الذي مازال هارباً ، اللبوة التي يجب أن تزاد لها جرعة المهدئات ، الكلبة قاتلة أبنائها ، بوجو ، ناديا ، أوغولينا ، لكل منها اسم . ليس هذا هو ، على كل حال ، الميدان الذي ستتميز فيه الحيوانات عن البشر .

ذات صباح كان فيه ريكاردو ريس هاجعاً ، والوقت كان مايزال مبكراً إذا اخترنا بعين الاعتبار عادات تراخيه الجديدة ، سمع انفجارات واردة من السفن الحربية على التاج ، إحدى وعشرين طلقة مدفعية ، رسمية ، متباعدة ، كانت تهز زجاج النوافذ . قال لنفسه ، ها هي الحرب الجديدة تبدأ ، ولكن أخبار الأمس عادت الى ذاكرته ، العاشر من حزيران ، إنه عيد العرق ، الاحتفال بعظماء بلدنا الذي يحتفظ له المستقبل بدور عظيم وشعبه : قوّم قواه ، وهو نصف ناعس ، تساءل ما إذا كانت ستسمح له بأن يخرج بقفزة واحدة خارج الشراشف المدعوكة ، ويفتح نافذته على مصراعيها لتدخل آخر أصداء الرشقة الأخيرة ، طارداً على هذا النحو بطولياً الظلال من الشقة ، العفونات المختبئة ، رائحة المحبوس الماكرة ، في حين كان يفكر في المسألة ، جرى الإحساس بآخر اهتزازات المكان ، وعاد صمت كبير ليسقط على الألتو دو سانتا كاتارينا ، ريكاردو ريس لم يلاحظ حتى أنه أغمض عينيه ونام من جديد ، عندما تمضي الحياة بشكل معكوس ، فإنها دائماً القصة نفسها ، ينام المرء عندما يجب أن يستيقظ ، يرحل عندما يجب أن يبقى ، وينام عندما يجب أن يسهر ، وعندما يجب أن يفتح النافذة يغلقها . لاحظ ، وهو عائد من الغداء ، بعد الظهر ، أن هناك باقات من

الزهور عند أسفل تمثال كامويس ، هذا التكريم للملحمي ، المشيد الأسمى لفضائل العرق من جانب لجان الوطنيين هو ، حقاً ، البرهان على أننا طردنا نهائياً الكآبة القاتمة التي كانت تسكننا في القرن السادس عشر ، نحن اليوم شعب سعيد . فيما بعد ، سوف تشعل كشافات النور ، وسوف يتألق وجه كامويس أو يبدو كأنه تشوه بالنور المبهر ، كونه أعور العين اليمنى لا يهم ، فعينه اليسرى هنا لترانا ، إلا أنكم إذا قدرتم أن النور أقوى مما ينبغي ، فقولوا ذلك ، فبما أننا متعودون على الظلمات الأصلية ، فسوف نحصل بسهولة على الظل ، وبصورة أسهل أيضاً على الظلام . لو كان ريكاردو ريس قد خرج في الليلة لوجد فرناندو بيسوا على أحد مقاعد ميدان كامويس ، بصحبة أسر وبضعة عازبين ، جاؤوا يبحثون هنا عن قليل من البرودة والهدوء ، وجوههم مشرقة كما لو كانوا في وسط النهار ، يبدون وكأنهم قد مستهم ، النعمة ، تأثير الاحتفال بالعرق ، دون شك . استغرق فرناندو بيسوا الذي يسعى الى تذكر قصيدة منساغيم المكرسة لكامويس وقتاً قبل أن يفهم أنه لم يكتب قط قصيدة حول كامويس . قال لنفسه ، هذا غير ممكن ، وأخذ يسمّع لنفسه القصائد بكاملها ، من أوليس الى سيباستياو ، دون أن ينسى النبيين باندارا وفييرا ، لم يترك واحدة ، ولكن لا شيء حول الأعور ، ولا كلمة ، هذا النقص ، هذا الإغفال ، هذا الغياب ، تجعل يديه ترتعشان ، شعوره يسأله ، لماذا ، ولاشعوره لا يعرف بماذا يجيب ، عند ذلك رسم فم كامويس البرونزي ابتسامة ، الابتسامة الذكية للذي مات منذ زمن طويل جداً ، ويقول ، الغيرة ، يا عزيزي بيسوا ، ولكن لا تقلق ، لا تعذب نفسك بهذا الشكل ، لم يعد لشيء أهمية حيث نحن الإثنان الآن ، سيأتي يوم ينكرونك فيه مائة مرة ، ويوم آخر ، ستكون أنت من يتمنى ذلك فيه . خلال هذا الوقت ، في الطابق الثاني من شارع سانتا

كاتارينا ، كان ريكاردو ريس يحاول كتابة قصيدة لمرساندا من أجل أن لا يمكن أن يقال فيما بعد إن مرساندا عاشت عبثاً ، بحنين للصيف الذي أراه من قبل ، لدي للزهور دموع ، ذكرى مقلوبة لليوم الذي لن تعود فيه ، القصيدة تبدأ هكذا ، ولن يستطيع أحد أن يخمن أن مرساندا ستذكر فيها ، ولكن ، ألا يذكر الأفق أولاً لأنه ، كما يعلم كل واحد ، أقصر طريق الى القلب . بعد نصف ساعة ، أو ساعة ، أو بعد وقت طويل ، سيتوقف الزمن ، عندما تكتب أشعار ، أو يحتدم ، الجزء المتوسط اتخذ شكلاً ومعنى ، وعلى عكس كل توقع ، لم يكن شكوى ، بل التحقق الصافي من أنه لا وجود لأي دواء ، أبواب السنين جرى اجتيازها دون رجعة ، أتوه ، دون زهور ، في الظل ، الهوة اللاغطة التي تسبقني . إنه الفجر ، المدينة نائمة ، كشافات تمثال كامويس ، غير المفيدة ، أطفئت ، فرناندو بيسوا عاد أمس الى مقره ، قائلاً ، ها أنا ، يا جدتي ، إنها البرهة الصعبة التي تنتهي القصيدة فيها ، بنقطة وفاصلة وضعها ريكاردو ريس هنا ، على الرغم منه ، خاض ضدهما معركة صماء ، لأنه كان يريد وضعهما في مكان آخر حديث ، وعلينا نحن أن نخمن ذلك ، ستكون طريقتنا للإسهام في العمل ، وأقطف الوردة ، لأن القدر ملك ، مرساندا ، سأحملها ، فلتذبل معي فذلك أفضل من أن تذبل مع المنحنى النهاري للأرض الواسعة . تمدد ريكاردو ريس بكل ملابسه على سريره ، ويده اليسرى موضوعة على الورقة ، لو انتقل الآن من الحياة الى الموت ، فيمكن أن يظن أن هذه وصيته ، إرادته الأخيرة ، رسالته الوداعية ، ولكنهم لن يكونوا ، بعد انتهاء القراءة ، أكثر تقدماً ، فالنساء لا يدعين مرساندا ، هذا الاسم قادم من عالم آخر ، من فضاء آخر ، أنثوي بالتأكيد ، ولكنه من نوع أسماء الفاعل ، مثل بليموندا* ، هذا الاسم الآخر

* شخصية من مذكرات الدير لساراماغو .

في انتظار امرأة ، مرساندا وجدت اسمها ، إنها بعيدة جداً عن هنا .

بعد بضعة أيام ، كانت ليديا ممددة الى جانبه عندما حدثت هزة أرضية . البناية اهتزت بعنف من أسفل الى أعلى ، ثم توقفت الهزة ، القصيرة والشديدة ، بالفجائية نفسها التي بدأت بها . كان الجيران يصرخون في الدرج ، وكانت ثريا السقف تتأرجح كالنواس . الآن ، وقد انقضى الخوف الرهيب ، بدت الأصوات فاحشة ، كانت الجلبة تنتقل من نافذة الى الأخرى ، عبر شوارع المدينة التي كانت حجارتها ماتزال تحتفظ ، احتمالاً ، بالذكرى المذعورة لزلازل أخرى سليمة ، وهو ما يجعلها غير قادرة اليوم على تحمل الصمت الذي يسود بعد ذلك حالاً ، عندما ينتظر الوعي المتربص ويتساءل ، هل سيعود ذلك من جديد ، هل سأموت . لم ينهض ريكاردو ريس وليديا . كانا ممددين على ظهريهما ، مثل طريحين ، عاريين ، حتى دون شرشف يغطيهما ، لو ظهر الموت في هذه اللحظة ، لوجدهما متفتحين ، معروضين ، جسداهما نديان من العرق والإفرازات الأكثر حميمية ، مايزالان لاهثين ، انفصلا عن بعضهما هذه اللحظة والقلبان يخفقان ويضربان نبض البطن ، لا يمكن أن يكونا أكثر حياة ، عندما يأخذ السرير فجأة في الاهتزاز ، وتنقلب قطع الأثاث ، ويصر السقف والأرضية ، ليس هذا دوار ذروة النشوة الجنسية ، بل هو قلب الأرض الذي أخذ يزأر ، قالت ليديا ، سوف نموت ، ولكنها لم تتشبث بالرجل ، كما هو المتوقع ، النساء الهشات غالباً ما يتصرفن على هذا النحو ، في حين أن الرجال ، يقولون ، وهم مرعوبون ، هذا لا شيء ، هدوءاً ، انتهى الأمر فعلاً ، محاولين في الوقت نفسه إقناع أنفسهم ، كما يفعل ريكاردو ريس الذي كان يرتعد هو الآخر خوفاً ، في حين كان الخطر ، كما قال من قبل ، قد انقضى . الجارات اللواتي كن يصرخن في

السلم هدأن شيئاً فشيئاً ، مع استمرارهن في النقاش ، إحداهن خرجت الى الطريق الثانية وقفت عند النافذة ، وها هما تذوبان في الجوقة العامة . عاد الهدوء ببطء ، استدارت ليديا نحو ريكاردو ريس ، وهو نحوها ، وذراع كل منهما على جسد الآخر ، كرر مرة أخيرة ، لم يكن ذلك شيئاً ، ابتسمت ولكن هناك في نظرتها تعبيراً غريباً ، لم تعد تفكر في الهزة الأرضية ، هذا بديهي ، بقيا هكذا ينظران الى بعضهما ، ضائعين في أفكارهما ، كانا بعيدين بعداً مخيفاً عن بعضهما ، عندما قالت فجأة ، أظن أني حامل ، دورتي تأخرت عشرة أيام . الطبيب يعرف أسرار الجسد البشري ، غوامض العضوية ، إنه يعرف كيف تعمل الحيوينات المنوية التي تعيد صعود النهر الى أن تصل ، بالمعنيين الحقيقي والمجازي ، الى نبع الحياة ، تعلم ذلك في الكتب ، ثم أكدت التجربة له ذلك ، ومع ذلك بقي مذهولاً ، مثل آدم ، يتساءل كيف أمكن لشيء مثل هذا أن يحدث ، في حين أن حواء التي لا تفهم الكثير حول ذلك بدورها تحاول أن تقدم له بعض الشروح . سعى ريكاردو ريس الى كسب الوقت ، ماذا قلت . تأخرت دورتي الشهرية ، أعتقد أني حامل ، إنها ، وهي أهدأ الإثنين ، لم تكف عن التفكير في ذلك منذ أسبوع ، وعندما قالت ، منذ قليل ، سوف نموت ، من المسموح به أن نتساءل فيما إذا كان ضمير الجمع يشمل ريكاردو ريس . انتظر أن تطرح سؤالاً ، ماذا يجب أن أفعل الآن ، ولكنها سكتت بعناد ، وضغطت بطنها الى الداخل بثني خفيف للركبتين ، لا تميز أية علامة على الحمل ، ولكن ذلك دون شك عائد لعدم القدرة على تفسير ما تعنيه عيناها العميقتان والثابتتان كالأفق . بحث ريكاردو ريس عن الكلمات التي ينبغي أن يقولها ، ولكنه لم يحس بشيء آخر خلاف اللامبالاة ، الغياب ، كما لو أنه ، وهو يعرف أنه يجب أن يسهم في حل المسألة ، لا يحس بنفسه أبداً

متورطاً في أصلها ، القريب أو البعيد . كان يرى نفسه في دور الطبيب الذي تفضي إليه مريضته بهمها ، آه ، يا سيدي الدكتور ، ماذا سيحل بي ، أنا حامل ، وهذا أمر يأتي سيئاً جداً ، فليس من حق طبيب أن يجيب ، لا تكوني إذن بلهاء ، اجهضي ، يجب عليه ، على العكس من ذلك ، أن يتخذ هيئة المرتبك التي تفرضها الظروف ويقول ، إذا كنت لم تتخذي أي احتياط ، لا أنت ولا زوجك أيضاً ، فهذا محتمل جداً ، فلننتظر أيضاً بضعة أيام ، فربما دار الأمر حول مجرد تأخير ، هذا يحدث أحياناً . لو استعمل ريكاردو ريس هذه اللهجة الحيادية والمنافقة ، لكان ذلك أمراً غير مقبول لأنه ، أخيراً ، الأب الظنين ، لم تنم ليديا مؤخراً ، في حدود علمنا ، مع رجل آخر سواه ، هو الذي يواصل الصمت . أخيراً ، وزع المسؤوليات ، متخذاً ألف احتياط ، وازناً كل كلمة ، لم نتنبه ، كان يجب أن يحدث ذلك في يوم من الأيام ، ولكن ليديا ترفض الدخول في اللعبة ، أية احتياطات كان يجب أن أتخذ ، لم ينسحب قط في اللحظة المناسبة ، لم يستعمل قط تلك القلنسوات المطاطية ، ترفض أن تتساءل لأنها ، في صميمها ، تسخر من ذلك ، ولذلك تقتصر على التصريح ، إني حامل ، هذا شيء يحدث لمعظم النساء ، وليس هزة أرضية ، حتى إذا كان فيها موت إنسان . انتهت البراعات الديالكتيكية ، ولم يعد أمام ريكاردو ريس ، لمعرفة نواياها ، سوى أن يلقي بنفسه في الماء ، وسؤاله فرضية سلبية متنكرة ، هل ستحتفظين بالطفل ، لم تسمعه ، لحسن الحظ ، أية أذن غريبة ، كان ذلك سيكون الذروة ، أن يكون الآن متهماً بالتحريض على الإجهاض ، عند ذلك ، في حين يستعد القاضي ، وقد انتهى سماع الشهود ، للنطق بالحكم ، سبقته ليديا وأجابت ، سأحتفظ بالطفل . لأول مرة يشعر ريكاردو ريس بقرصة خفيفة في قلبه ليس ألماً ، ولا تشنجاً ، ولا انفصاماً ، بل

انطباعاً غريباً ، لا شبيه له ، مثل أول اتصال جسدي بين كائنين من عالمين مختلفين ، كلاهما من البشر ، ولكنهما غريبان في تشابههما أو ، وهو أبعث على الاضطراب ، متماثلان في اختلافهما . تساءل ريكاردو ريس ، ما هو جنين عمره عشرة أيام ، ولم يستطع أن يجيب ، لم يتفق له أبداً ، خلال حياته المهنية ، أن كانت أمام عينيه سيرورة التكاثر الخلوي الصغيرة هذه ، وإذا كان قد رآها في الكتب ، فإنه لم يحتفظ بأية ذكرى عنها ، والآن ليس لديه ما يراه سوى هذه المرأة الصامتة والسرية ، ليديا ، الخادمة ، العازبة ، معروضة الثديين والبطن ، المجوفة العانة قليلاً ، كما لو كانت تحمي سراً . جذبها إليه ، وتركته يفعل ، سعيدة ، مسلمة أخيراً بأن تكون محمية ضد العالم ، احمرت ، ومثل خطيبة خجول ، ومازال هنا بعض منهن ، وسألت ، ألست غاضباً ، يا لها من فكرة ، ولماذا إذن ، ولكن هذه الكلمات ليست صادقة ، الحقيقة هي أن غضباً قوياً كان يعصف بريكاردو ريس في هذه اللحظة ، فكر ، لقد حشرت نفسي في مأزق جميل ، وإذا لم تجهض ، فها أنا مع طفل على كتفيها ، وسوف ينبغي حقاً أن أعترف به ، هذا واجبي ، يا لها من متاعب ، كيف أمكن حقاً لقصة مثل هذه أن تحدث لي . التصقت به ليديا كي يضمها بشكل أقوى ، وببساطة ، ودون أي تشدق خاص ، تلفظت بالكلمات التالية ، إذا كنت لا تريد أن تعترف بالطفل ، فلا أهمية لذلك ، سوف يولد من أب مجهول مثلي . امتلأت عينا ريكاردو ريس بالدموع ، مزيج من الخجل والشفقة ، وليحدد هويتهما من يظن نفسه قادراً على ذلك ، وفي اندفاعة صادقة أخيراً ، عانقها وقبّلها ، بل وقبّلها من فمها ، ها هو قد تحرر من عبء كبير . هناك برهات يخيل للمرء فيها أنه يطلق العنان لعاطفته ، في حين أن الأمر يدور واقعاً حول اندفاعة امتنان بسيطة . وبعد لحظة ، وبما أنه ليس للجسد الحيواني ما يفعله بهذه

الضروب من الرقة ، اتحد ريكاردو ريس وليديا من جديد ، يئنان ويتنهدان ، لم يعد للأمر ، وقد صنع الطفل فعلاً ، أية أهمية ، بل إن هذه برهة الإفادة من ذلك .

الأيام التي تلت كانت لذيذة . فبما أن ليديا كانت في عطلة ، فقد أمضت معظم وقتها مع ريكاردو ريس ، ولم تكن تعود الى أمها إلا عند هبوط الليل ، من أجل تجنب استفزاز الجارات اللواتي لن يفوتهن ، على الرغم من الوفاق الطيب الذي نشأ منذ الحادث الطبي الذي سبقت الإشارة إليه ، أن يقدحن في هذه العلاقات المريبة بين المعلم والخادمة ، المنتشرة جداً في مدينتنا ليشبونة ، ولكنها تحفظ ، بعناية ، في السر . وإذا مضى شخص ذو أخلاقية متشنجة الى حد التلميح الى أنه يمكن جيداً أن يجري في النهار ما جرت العادة على فعله ليلاً ، فإن ليديا ستستطيع دائماً أن ترد عليه بأنه لم يتوفر لها الوقت بعد لإجراء تنظيفات الربيع الكبرى ، هذا البعث للمساكن لدى الخروج من الشتاء الطويل ، وأنها ، من أجل ذلك ، تأتي مبكرة في الصباح لترحل متأخرة في المساء وأنه يمكن ، في هذه الأثناء ، اليوم كما بالأمس ، رؤيتها وسماعها تعالج النفاضة وخرقة الغبار ، والممسحة والمكنسة ، أحياناً تغلق النوافذ ، ويسود صمت متوتر ، ذلك أنها في حاجة الى الاستراحة بين جهدين ، الى فك شالها ، ونزع ملابسها لتستعيد أنفاسها على مهل . البيت يعرف بدوره سبته المقدس ، أحد فصحه ، وهذا بفضل رعاية هذه المرأة ، هذه الخادمة البسيطة التي تجعل قطع الأثاث تلمع عندما تمر بإصبع فوقها ، الجدران وقطع الأثاث لم تكن تلمع بهذه الصورة حتى في أيام دونا لويزا وقاضي الاستئناف اللذين كان لديهما مع ذلك فوج من الوصيفات والخادمات والطاهيات ، بوركت ليديا بين النساء ، لو كانت مرساندا ، إن أصبحت زوجته الشرعية ، تسكن هنا ، لما استطاعت بالتأكيد

أن تفعل بقدر هذا ، وفضلاً عن ذلك ، فهي معاقة . منذ أيام ، كانت رائحة العفن ، الهواء المحبوس ، الغبار ، النتن ، وها هو النور ينبع الى أكثر الزوايا ظلاماً ، ينعكس على المرايا والزجاج ، يحول كل قطعة الى كريستال ، وينتشر بقاعاً واسعة على الأرضية المشمعة ، السقف يشع منذ أن تدخل الشمس من النوافذ ، هذا المسكن سماوي ببساطة ، ماسة داخل ماسة ، وهذه الروائع هي نتيجة الأعمال الـ المبتذلة . إن كون ليديا وريكاردو ريس غالباً ما مارسا الحب ، آ ومعطيين بمتعة غير معكرة ليس دون شك مصادفة ، ويمكن فضلاً عـ للمرء أن يتساءل عما أمكن أن يحصل لهذين الإثنين ليصبحا ، فجأ هذا الإلحاح ، في هذه الحمى ، أهو الصيف الذي يثيرهما ، أم أن الـ الصغير ، هذا النتاج لعناق شارد دون شك ، هو الذي يسبب نشاط الجديدة ، لا نكاد أن نوجد بعد ، وها نحن نسهم فعلاً في سير العالم .

لأفضل الأشياء ، لسوء الحظ ، نهاية . انتهت عطلة ليديا واستأنـ شيء مساره الطبيعي ، إنها تأتي من جديد مرة في الأسبوع ، عندما لديها إجازة ، والآن ، وحتى لو وجدت الشمس نافذة مفتوحة ، فإن مختلف ، ضعيف ، كامد ، وعاد غربال الزمن الى تمرير الغبار غير للمس الذي يجعله يتلاشى في التعرجات والمسالك . ويصعب على ريـ ريس ، عندما يفتح سريره ، قبل أن يرقد بالضبط ، أن يميز الوساد سيضع عليها رأسه ، وإذا كان لا يحدد ، كل صباح ، بيديه ، خطاً خط بقي منه ، وهذا انطباع لمسي تشوهه ندبة عريضة وعميقة ، فإ يستطيع النهوض . اختار فرناندو بيسوا إحدى تلك الليالي ليقرع ليس حاضراً دائماً عندما تكون هناك حاجة إليه ، ولكنه يظهر دائـ الوقت المناسب تماماً ، يا له من غياب طويل ، خيل إليّ أني لن أراك

أبداً . لم أعد أخرج كثيراً ، أضيع بسهولة ، كمصابة صغيرة بداء النسيان ، مازلت لحسن الحظ أتذكر موقع تمثال كامويس ، وانطلاقاً من هناك أستطيع أن أتوجه . آمل أن لا ينتزعه المولجون بهذه الأمور مع الحمى التي أصابتهم ، في الأفينيدا دا ليبرداد غزوة حقيقية . لم ألاحظ شيئاً ، لم أعد أمر من هناك أبداً . نزعوا تمثال بينيرو شاغاس وتمثال شخص يدعى جوزيه لويس مونتيرو أجهل عنه كل شيء ، أو أنهم يتأهبون لذلك . أنا أيضاً ، ولكن فيما يتعلق ببينيرو شاغاس ، فهذا شيء جيد . أسكت ، أنت لا تعرف ما يحتفظ به المستقبل . أوه ، فما يتعلق بي ، فإنهم لم ينصبوا لي تمثالاً ما لم يمسهم أي حياء ، لست الرجل الذي ينصب له تمثال . أنا متفق معك تماماً ، لا شيء أشد حزناً من تمثال في مصير . فلينصبوها للعسكريين والسياسيين ، إنهم يعبدون ذلك ، أما نحن ، فلسنا سوى رجال أدب ، والأدب شيء لا يسيل في البرونز ولا في الحجر ، إنه ليس سوى كلمات . أنظر الى كامويس ، لقد رأيت ما فعلوه بكلماته . إيه نعم ، لقد حولوه الى غندور بلاط ، أي مهرج يبدو حسناً في زي دارتانيان ، بسيف على جنبه ، أنا لم أعد أعرف حتى كيف هو وجهي . لا تغضب ، يحتمل أن تفلت من اللعنة ، وإذا لم تتوصل الى ذلك ، على صورة ريغوليتو ، فسوف يبقى لك دائماً الأمل في أن يهدموا نصبك كما فعلوا ببينيرو شاغاس ، أو أن ينقلوك الى مكان أهدأ ، الى مستودع مثلاً ، نرى هذا كل يوم ، بل إن بعضهم مضى الى حد الإلحاح في المطالبة بسحب الشيادو . الشيادو أيضاً ، بماذا أساء إليهم إذن . كان مزوحاً ، ماجناً ، لا يناسب ، كما يبدو ، الحي الأنيق الذي وضعوه فيه . بل إن العكس هو الصحيح ، هذا المكان جيد ، تخيل لحظة كامويس دون شيادو ، كلا ، كلا ، الوضع جيد جداً هكذا ، وفضلاً عن ذلك ، فقد عاشا في العصر نفسه ، وإذا كان هناك من شيء يجب

تعديله ، فهو موقع الأخ ، يجب أن يدار نحو الملحمي ، اليد ممدودة ، ليس كما لو كان يتسول ، بل كما لو كان يقدم شيئاً . ليس لكامويس ما يتلقاه من شيادو . قل بالأحرى إنه لا يمكن طرح السؤال على كامويس ، لأنه لم يعد حياً ، ولكنك لا تتخيل كل ما قد يكون في حاجة إليه . ذهب ريكاردو ريس الى المطبخ ليحضر قهوة ، عاد الى المكتب ، وجلس تجاه فرناندو بيسوا وقال ، من المزعج أن لا أستطيع أن أقدم لك كوب قهوة . املأ كوباً وضعه أمامي ، سوف يصحبك وأنت تشرب . لا أتوصل الى التعود على كونك غير موجود . مضت سبعة أشهر ، هذا كاف لحياة جديدة ، ولكنك تعرف هذا أفضل مني ، فأنت طبيب . هل هناك مضمر فيما تقوله . أي مضمر يمكن أن يوجد فيه حقاً . أجهل ذلك . أنت كثير التشكك اليوم . لا أشك في أن هذه قصة التماثيل ، هشاشة وجودنا الجلية ، اسمع ، هل علمت بما حدث لرامي القرص . أي رامٍ للقرص . الموجود في الأفانيدا . آه نعم ، أتذكر ، هذا الغلام العاري ، الإغريقي ـ الروماني . حسناً ، لقد انتزعوه هو أيضاً . لماذا . وجدوا أن له هيئة فتى غير بالغ ومخنث ، وأنه كان من المناسب أن يجنبوا المدينة رؤية عريه المغالي ، وأن ذلك يتعلق بسلامتنا الأخلاقية . إذا لم يكن الغلام يكشف صفات جسدية غير محتملة التصديق ، ولكنه يحترم المواضعات والنسب ، فأين الضرر . هذا أمر أجهله ، الحقيقة هي أن هذه الصفات العتيدة ، كما قلت ، ليست كبيرة ، فقد كانت أكثر من كافية لإعطاء درس مفصل في التشريح . ولكن ، ألم يكونوا يقولون إن الغلام غير بالغ ، ومخنث . نعم . إذن ، فلو كان مذنباً ، فسيكون ذلك بسبب نقص ، لا بسبب زيادة . أنا لا أفعل سوى ترديد أقاويل المدينة . ألا تعتقد ، يا عزيزي ريس ، أن البرتغاليين بدؤوا بكل بساطة يفقدون عقولهم . إذا كنت أنت الذي عشت هنا تطرح السؤال ،

فكيف تريد مني ، أنا الذي قضيت هذه السنوات بعيداً ، أن أستطيع الإجابة عن سؤالك .

انتهى ريكاردو ريس من شرب قهوته ، كان يتساءل عما إذا كان يجب أن يقرأ القصيدة المهداة الى مرساندا ، تلك التي تبدأ كما يلي ، أحن فعلاً الى الصيف الذي أرى ، عندما قال له فرناندو بيسوا ، وعلى شفتيه ابتسامة دون فرح ، في اللحظة نفسها التي كان قد قرر فيها ذلك وبدأ حركة النهوض من على الأريكة ، أضحكني ، قص عليّ نكاتاً أخرى ، عند ذلك ، لم يكن في حاجة الى البحث حقاً أو الى التفكير ، ثلاث كلمات كانت كافية من أجل أن يعلن له أبعدها عن التصديق ، سوف أصبح أباً . نظر فرناندو بيسوا إليه مذهولاً ، رافضاً أن يصدق ، ثم انفجر ضاحكاً ، أنت تسخر مني ، رد ريكاردو ريس ، وقد جرح قليلاً ، أبداً ، أنا لا أفهم دهشتك ، إذا نام رجل مع امرأة بصورة منتظمة ، فهناك احتمالات قوية في أن ينتهيا ذات يوم الى صنع طفل ، وهذا على وجه الدقة الشديدة ما جرى . ومن هي الأم ، ليدياك أم مرسانداك ، ما لم تكن هناك ثالثة ، معك ، يجب أن يتوقع المرء كل شيء . لا توجد ثالثة ولم أتزوج مرساندا . آه ، أتعني أنه لا يمكن ، فيما يتعلق بمرساندا ، أن يكون هناك طفل إلا بالزواج . استنتج ما أردت ، أنت تعرف وزن التربية والأسرة . الأمر أقل تعقيداً مع خادمة . ليس دائماً . أنت على حق ، يكفي التفكير فيما كان يقوله الفارو كامبوس الذي غالباً جداً ما جعل من نفسه أضحوكة مع الخادمات . ليس هذا ما كنت أريد قوله . ولكن ماذا إذن . الخادمة امرأة أيضاً . يا له من اكتشاف ، بعد هذا تستطيع أن تموت . أنت لا تعرف ليديا . يا عزيزي ريس ، سأتحدث دائماً بأكبر الاحترام عن أم طفلك ، أخفي في نفسي كنوز احترام حقيقية ، وبما أني لم أكن أباً قط ، فلست في أدنى حاجة الى أن أخضع هذه العواطف المتسامية

للملل اليومي . توقف عن هذا التهكم . إذا لم تكن أبوتك المفاجئة قد أفسدت حاسة سمعك ، فسوف تعلم أنه ما من أدنى سخرية في أقوالي . بلى ، هناك سخرية ، على الرغم من أنها قناع لشيء آخر . السخرية قناع دائماً . وماذا تخفي في هذه الحالة الدقيقة . ربما شكلاً ما من أشكال الألم . لا تقل لي إنك تعاني لأنه لم يكن لك ابن . من يعلم . أحس ذلك . أنا ، وهو ما يحتمل أنك لم تنسه ، أكثر الأفراد تشككاً ، من شأن فكاهي أن يقول أكثر البيسوات شكاً ، بل إني لم أعد أجازف ، اليوم ، بإخفاء ما أحس به . بالإحساس بما تخفيه . توجب عليّ التخلي عن هذه الممارسة بموتي ، هناك أشياء لا يعود مسموحاً بها في الجانب الآخر . مرّ فرناندو بيسوا بيده على شاربه وسأل ، أمازلت مصمماً على العودة الى البرازيل . لدي ، في بعض الأيام ، الانطباع بأني هناك فعلاً ، أما في باقي الوقت ، فكما لو أني لم أكن فيها قط . أنت تقضي وقتك إجمالاً في الجري من طرف من الأطلسي الى الطرف الآخر . مثل كل البرتغاليين . إنها فرصة ممتازة ، الآن وقد أصبح لك امرأة وطفل ، لإعادة صنع حياتك . لا أفكر في الزواج من ليديا ولا أعلم بعد ما إذا كنت سأعترف بالطفل . إذا سمحت لي بإبداء رأيي ، يا عزيزي ريس ، فسيكون ذلك نذالة خالصة . أتظن ذلك ، كان الفارو دو كامبوس لا يرد هو الآخر بدوره . الفارو دو كامبوس كان ، بالمعنى المضبوط للمصطلح وكي أحافظ على الكلمة نفسها ، نذلاً . لم تتفاهم معه جيداً جداً قط . لم أتفاهم قط جيداً جداً معك أيضاً . لم نتفاهم قط جيداً جداً مع بعضنا بعضاً . كان هذا محتوماً ، فقد كنا أكثر مما ينبغي . ما لا أفهمه هو موقفك الأخلاقي ، المحافظ . الميت ، بالتعريف ، محافظ متطرف ، إنه لا يتحمل أن يعدل النظام . منذ بعض الوقت ، سمعتك تهاجم النظام . حسناً ، الآن ، الأمر عكس ذلك . إذن ، لو كنت حياً ، وكانت هذه القصة قصتك ، وكنت

ابناً غير مرغوب فيه ، امرأة ليست مساوية لك ، لكنت عرفت الشكوك نفسها . بالتأكيد . أنت نذل أيضاً . ضربة موفقة ، يا عزيزي ريس ، نعم ، نذل . مهما يكن من أمر ، فإني لن أهرب . ربما لأن ليديا تسهل لك الأمور . هذا صحيح ، بل إنها ذهبت الى حد القول بأني لست مرغماً على الاعتراف بالطفل . لماذا ، بحق الشيطان ، تتصرف النساء بهذا الشكل . ليس كلهن . هذا واقع ، ولكن ليس هناك من هو قادر على مثل هذه المبادرات غير النساء . لو سمعك أحد لظن أن لديك خبرة كبيرة بالنساء . خبرتي هي خبرة الرجل الذي يحضر ويشاهد ، بكل بساطة . أنت مخطئ خطأ ثقيلاً ، إذا كنت تظن هذا ، يجب أن تنام معهن ، أن تصنع أطفالاً لهن ، حتى لو أجهضن ، أن تراهنّ حزينات وفرحات ، ضاحكات أو محزونات ، صامتات وثرثارات ، يجب النظر إليهن عندما لا يعرفن أنهن مراقبات . وماذا يرى الرجال الذين هم في هذا الذكاء . لغزاً ، مشكلة ، متاهة ، حزورة . كنت دائماً جيداً في الحزورات . ولكن هذه كارثة فيما يتعلق بالنساء . لست لطيفاً يا عزيزي ريس . سامحني ، أعصابي تطن كسلك برقي تهزه الريح . سامحتك . ليس لدي عمل ، بل ليست لديّ أدنى رغبة في البحث عن عمل ، حياتي تنقضي بين البيت والمطعم ومقعد في الحديقة ، وذلك كما لو لكن لدي شيء آخر خلاف انتظار الموت . احتفظ بالطفل . هذا لا يتوقف عليّ ولا يحل شيئاً فيما يتعلق بي ، أحس بأن هذا الطفل لا ينتمي إليّ . أتعتقد أن آخر هو الأب . كلا ، أنا الأب ، المشكلة ليست هنا ، الأم وحدها موجودة ، في الحقيقة ، الأب حادث طارئ ، حادث ضروري . دون شك ، ولكنه يكف عن أن يكون مفيداً منذ أن لبى هذه الضرورة ، من قلة الفائدة بحيث يمكنه أن يموت بعد ذلك ، كذكر النحل أو العباءة الدينية ، أنت تخاف من النساء بقدر ما أخافهن . ربما أكثر منك

أيضاً . ألم تتلق أخباراً أخرى من مرساندا . ولا كلمة . بالمقابل ، كتبت منذ أيام بعض الأبيات حولها . أرتاب في ذلك . أنت على صواب ، إنها ببساطة أبيات يظهر فيها اسمها ، أتريد أن أقرأها لك . كلا . لماذا . أعرف أبياتك على رؤوس أصابعي ، التي كتبت والتي سوف تكتب ، الأصالة الوحيدة هي اسم مرساندا ، وهذه لم تعد أصالة فعلاً . جاء دورك لتكون بغيضاً . ولا أستطيع حتى التذرع بحالة أعصابي ، اقرأ عليّ أول بيت . أحن فعلاً الى الصيف الذي أراه . أليس الثاني ، لدي دموع محل الزهور . أصبت . أنت ترى جيداً ، إن كلاً منا يعرف كل شيء عن الآخر أو ، بعبارة أضبط ، أعرف كل شيء عنك . أهناك شيء لي على وجه الخصوص . لا شيء على وجه الاحتمال . شرب ريكاردو ريس ، بعد رحيل فرناندو بيسوا ، القهوة التي كان قد قدّمها له . كانت باردة ، ولكن هذا المذاق كان يروق له .

بعد بضعة أيام ، أعلنت الصحف أنه قد جرى الاحتفاء بخمسة وعشرين طالباً من شبيبة هامبورغ الهتلرية ، الموجودين في رحلة دراسية ودعاية في البلاد ، في دار المعلمين وأنهم كتبوا بعد زيارة طويلة لمعرض السنة العاشرة للثورة الوطنية على الكتاب الذهبي ، لسنا شيئاً ، وهو تصريح قاطع كان يعني ، بموجب المحضر المجامل ، أن الشعب لا يساوي شيئاً إن لم يكن موجهاً من قبل زبدة الأمة ، زهرتها ، وجه السلة ، النخبة . لا ينبغي رفض هذا المصطلح الأخير ، ألا تأتي النخبة من مختار ، إلا أنه يجب أن يعطى الشعب القدرة على اختيار المصطفين الذين يوجهونه . وبما أن زهرة وزبدة مضحكتان أكثر مما ينبغي حقاً بالبرتغالية ، فلتعش إذن النخبة الفرنسية في انتظار أن نعرف قول ذلك بالألمانية . أعلن كذلك ، للإفادة من التعلم نفسه دون شك ، خلق الموسيداد بورتوغيزا* التي سيبلغ تعدادها ، في تشرين

* الشبيبة البرتغالية .

الأول ، في الفترة التي ستبدأ فيها أعمالها حقاً ، مائتي ألف شاب ، زهرة شبيبتنا أو زبدتها ، ومنها ستخرج ، بعد تصفيات متعاقبة وتطعيمات مناسبة ، النخبة التي سوف تحكمنا فيما بعد ، عندما تكون نخبة اليوم قد زالت . إذا ولد ابن ليديا يوماً ، وإذا استطاع ، بعد أن يولد ، البقاء على قيد الحياة ، فسوف يستطيع هو أيضاً ، كبرتغالي جيد ، أن يحضر المسيرات ، أن يرتدي الزي الموحد الأخضر والكاكي ، أن يحمل الحزام س ، من سعى في الخدمة ومن سالازار ، أو سعى في خدمة سالازار ، وهو ما يصبح س مزدوجة ، س س ، رفع الذراع على الطريقة الرومانية ، بمثابة تحية ، أما بالنسبة لمرساندا ، فمازال أمامها الوقت ، وهي ابنة أسرة طيبة ، لتنتسب الى الأومين* ، لترفع ، هي الأخرى ، ذراعها اليمنى ، المشلولة هي اليسرى . بعض ممثلي الموسيداد بورتوغيزا ، عينة من شبيبتنا الوطنية المقبلة ، سيذهبون قريباً الى برلين ، بأزياء موحدة ، ليحضروا الألعاب الأولمبية ، لا ضرورة لأن نقول إن هؤلاء الفتيان الوسيمين والفخورين ، فخر عرقنا البرتغالي ، مرآة مستقبلنا ، الجذع المزهر الذي يمد أغصانه نحو الشبيبة التي تمر ، سيحدثون انطباعاً فخماً ، فلنتمنَ لهم إذن أن يكرروا بدورهم العبارة الشهيرة ، لسنا شيئاً . سوف تقول ليديا لريكاردو ريس ، ابني لن يلتفت الى هذه التصرفات المضحكة . فلنراهن على أنه يمكن أن نكون هنا ، بعد عشر سنوات ، إذا وصلنا الى هذا الحد ، حقاً ، أمام بداية شجار .

---

* جمعية الأمهات للتربية الوطنية .

فيكتور عصبي . الأمر يدور حول مهمة ثقة لا علاقة لها بالروتين الذي يقوم على متابعة المشبوهين وإغواء مديري الفنادق أو على استجواب الحمالين الذين يفضون بكل شيء لدى أول سؤال . حمل يده اليمنى الى وسطه ليختبر حجم المسدس الباعث على الاطمئنان ، ثم أخرج ، ببطء ، وبرؤوس أصابعه ، من جيبه الخارجي ، قطعة حلوي بالنعناع . نزع الورقة عنها باحتياطات لامتناهية ، صرير الورق ، في صمت الليل ، يجب أن يسمع من مسافة عشر خطوات ، كان ذلك تهوراً ، مخالفة لقواعد الأمن ، ولكن رائحة البصل أصبحت من القوة ، بسبب عصبيته دون شك ، بحيث يمكن يجداً أن تجعل الفريسة تهرب قبل الأوان ، لاسيما وأن الريح ، في ظهره ، تهب في الاتجاه المناسب . معاونو فيكتور الذين أخفتهم جذوع الأشجار ينتظرون ، كامنين في زوايا الأبواب ، إشارة التقرب الصامت الذي يجب أن يسبق الهجوم الصاعق . كانوا ينظرون بثبات الى النافذة التي يتسلل منها شعاع ضوء لا يمكن أن يدرك ، هذه المصاريع المغلقة على الرغم من الحر هي قرينة المؤامرة فعلاً . أحد معاوني فيكتور يمسك طرف المفك الذي سيقتحم بواسطته الباب ، معاون آخر يدس أصابع يده اليسرى في قبضة

أمريكية ، إنهم رجال يعرفون مهنتهم معرفة تامة ويتركون ، في كل مكان يمرون فيه ، آثاراً هي مفصلات مخلوعة وفكوك محطمة . على الرصيف المقابل ، شرطي آخر يسير في الطريق ، هذا لا يحتاج الى الاختفاء ، إنه يتصرف كمواطن مسالم عائد الى بيته ، إنه يسكن في البناية ، ولكنه لم يقرع مطرقة الباب من أجل أن تفتح له امرأته ، أهذه هي الساعة التي تعود فيها الى البيت . خلال خمس عشرة ثانية ، فتح الباب دون مفتاحه ، المفتاح العمومي يكفي . تم اجتياز أول حاجز . الشرطي على الدرج ، ولكنه لم يتلق الأمر بالصعود ، مهمته هي أن يبقى متربصاً ، أن يطلق الإنذار إذا فاجأ ضجات أو حركات مشبوهة ، وهي حالة يجب ، عندها ، أن يخرج ليقدم تقريره الى فيكتور الذي سيقرر . لأن الدماغ هو فيكتور . في الركن ، في الداخل ، يظهر طيف الشرطي ، يشعل لفافة ليدل على أن كل شيء يسير على مايرام ، البناية هادئة ، لا أحد يرتاب في الطابق المعني . يلقي فيكتور بقطعة السكر ، إنه يخشى ، لو نشبت معركة ، أن يختنق وهو في ذروة العمل . تنفس الهواء من فمه ، وأحس ببرودة النعناع ، لم يعد الرجل نفسه . ولكنه لم يجتز ثلاث خطوات حتى عادت الرائحة غير المرئية الى الصعود من معدته ، لم يكن مرؤوسوه ، لحسن الحظ ، قد غيروا مواقعهم ، استمروا في اتباع خطوات رئيسهم ، يسيرون وراءه ، باستثناء اثنين منهم كانا مايزالان يراقبان النافذة ، لقد تلقيا الأمر بإطلاق النار دون إنذار إذا حدثت محاولة هرب من هذه الجهة . صعد رجال الفصيل الستة متقاطرين ، وهو تعبير أقدم بكثير من تعبير الخيط الهندي ، الصمت كامل ، أصبح الجو غير قابل للتنفس ، مكهرباً ، بسبب التوتر المتراكم ، وكانوا جميعاً من العصبية بحيث لم يكونوا يلاحظون أن رائحة كريهة تفوح من رئيسهم ، يمكن الظن بأن لهم جميعاً الرائحة نفسها . عندما وصلوا الى المنبسط ،

كان الصمت يسود كما لو كانت البناية مقفرة ، لو أن الجميع نائمون ، لو لم تكن معلوماتهم موثوقة الى هذا الحد ، لكان فيكتور أصدر أمره بكسر الصف لا المفصلات ، وباستئناف عمل التجسس ، والمتابعة ، والاستجواب ، والإغواء . داخل الشقة ، كان طرف المفك المشقوق مصوباً نحو الباب ، مثل أفعى ترقص ، يدس كلاباته بين الإطار والمصراع ، ويتجمد . جاء الآن دور فيكتور . دق بقبضته المغلقة دقات القدر الأربع ، ثم زأر ، بوليس ، دخل المفك حيز العمل ، طار الإطار شظايا ، القفل ، في الداخل ، حركة مقاعد كبيرة ، خطوات ، أصوات . صرخ فيكتور بصوت جهوري ، لا يتحركن أحد ، انقضت عصبيته ، أضيئت الأنوار في كل الطوابق فجأة ، يريد الجيران ، بدورهم ، أن يشاركوا في العيد ، إنهم لا يجرؤون على الصعود فوق الخشبات ، ولكنهم ينيرون المسرح ، يجب أن يكون أحدهم قد حاول فتح نافذة ، المفك غير موقعه الآن ودخل في شق موسع على ارتفاع المفصلة الداخلية ، حلت اللحظة ، انشق الباب من أسفل الى أعلى كفم منفرج ، ركلتان قويتان تنتزعه نهائياً ، يقع أولاً على الجدار المواجه للممشى ، فاتحاً في الجص جرحاً واسعاً ، ساد صمت كبير في البيت فجأة ، لم يعد هناك خلاص ممكن . يندفع فيكتور ، والمسدس في يده ، مكرراً ، لا يتحركن أحد . أحاط به معاونان ، ليس للآخرين مكان من أجل المناورة ، وبما أنهم لا يستطيعون اتخاذ وضعية إطلاق النار ، فقد تقدموا منذ أن دخل الأولون الغرفة الصغيرة التي تطل على الطريق ، النافذة مفتوحة ، كان في خط نارهم أربعة رجال واقفون ، مرفوعي الأيدي ، خافضي الرؤوس ، مغلوبين . ضحك فيكتور مسروراً ، علِق الجميع ، علِق الجميع ، التقط بعض الأوراق المبعثرة على الطاولة ، وأعطى الأمر بالبدء في التفتيش ، وتوجه نحو الشرطي المسلح بالقبضة الأمريكية الذي بدا محبطاً إحباطاً عميقاً ، لم تحدث

معركة ، لم يستطع توجيه أي ضربة ، يا لسوء الحظ ، إذهب وانظر في الخلف إذا كان أحد قد هرب ، وها هو قد ذهب ، من كوة المطبخ ، ثم من سلم الحريق ، سمع يصرخ في زملائه الذين يكلمون حلقة الحصار أرأيتم أحداً يهرب ، وأجابه الآخرون ، نعم ، هناك واحد قد أفلت . غداً ، سيكتبون في التقرير ، وسوف تتغاير الروايات ، إن فلاناً قد أفلت بقفزة ، عبر الحدائق أو الأسطحة . عاد الرجل ذو القبضة الأمريكية مغلوباً على أمره ، فيكتور لا يحتاج الى شروح دقيقة ليبدأ في الصراخ ، غاضباً ، وآخر أبخرة النعناع قد زالت ، يا لكم من عصبة عاجزين ، أهذه نتيجة فخ في هذا الإحكام ، وبما أن السجناء لم يستطيعوا إخفاء ابتسامة شاحبة ، فقد فهم أن الشخصية الرئيسية ، على وجه الضبط ، هي التي هربت ، وها هو يزبد ويهدد ، يريد أن يعرف من هو هذا الشخص ، ومن أين هرب . إما أن تتكلموا ، وإما أن تموتوا جميعاً ، حمل المعاونون الجميع على الرقود والمسدسات مصوبة عليهم ، الرجل ذو القبضة الأمريكية أخذ يداعب سلاميات أصابعه ، عند ذلك صرخ المخرج ، اقطعوا . لم يهدأ فيكتور المأخوذ في الاندفاعة حالاً ، هذه بالنسبة إليه قضية جدية ، عشرة رجال لاعتقال خمسة ، ويتركون أهمهم ، دماغ المؤامرة ، يفلت منهم ، ولكن المخرج تدخل ، إنه طيب المزاج ، التصوير تم بدرجة من الجودة لن تكون هناك ، معها ، حاجة الى تصوير ثان ، دعك من ذلك ، لو اعتقل الآن لما عاد هناك فيلم ، ولكن النظرة الى البوليس ستكون سيئة يا سيدي لوبيز ريبيرو ، إنه لحط من شأن الهيئة ، سبعة مشذبين أتوا لقتل عنكبوت ، والعنكبوت قد هرب ، العنكبوت أو بالأحرى الذبابة ، العنكبوت هو نحن . دعوه يهرب ، ليست الأنسجة هي التي تنقص العالم ، يهرب المرء من واحد ليرتمي في الآخر ، هذا الأخير سيركض ويلتجئ الى نزل ، باسم مستعار ، يظن أنه

تخلص ، ولا يرتاب في أن عنكبوته هو ابنة صاحبة النزل ، إنها هنا ، في السيناريو ، فتاة رصينة جداً ، قومية جداً ، ستدير رأسه وقلبه ، المرأة ، إنها السلاح الممتاز ، كل واحدة منهن أكثر قداسة من الأخرى ، هذا المخرج حكيم حقيقي . كانوا غائصين في المحادثة عندما اقترب مدير التصوير ، وهو ألماني جاء من ألمانيا ، وقال ، لقطة كبيرة للبوليس* ، فهم المخرج ، هذا طبيعي ، إن ذلك يشبه البرتغالية تقريباً ، وفيكتور الذي فهم كل شيء بدوره ، ذهب فوراً ليتخذ موقعه ، المساعد أنزل اللوحة ، بان ، ثورة أيار ، الثاني ، أو شيء مشابه ، ظهر فيكتور من جديد عند العتبة ، والمسدس في يده ، وتكشيرة مهددة ، متهكمة على شفتيه ، علِق الجميع ، علِق الجميع ، وإذا كان يقول ذلك الآن بمقدار أدنى من الهياج ، فمن أجل أن لا تخنقه قطعة السكر بالنعناع التي وضعها في فمه ليطهر الهواء . مدير التصوير راضٍ ، الى اللقاء ، لم يعد لدي وقت ، تأخر الوقت فعلاً ، وقال للمخرج ، أصبحنا في منتصف الليل ، وهو ما رد عليه لوبيز ريبيرو قائلاً ، أطفئوا الأنوار من فضلكم ، وكل هذا قيل لفظاً وترجمة ، يجب أن لا ننسى أننا مازلنا في البداية . كان فيكتور وزمرته قد نزلوا ثانية ومعهم السجناء مقيدون ، إنهم أصحاب ضمير في واجبهم البوليسي الى حد يأخذون ، معه ، هذه المهزلة مأخذ الجد ، فكل ما يشبه معتقلاً يستحق الأخذ حتى ولو كان الأمر يدور حول تظاهر .

هجمات أخرى تتحضر . ففي حين كانت البرتغال تصلي وتغني ، وفي حين كان الوقت وقت متع ، ومواكب ، وأناشيد ، ومفرقعات وخمرة فيرا مينو ، وحفلات موسيقية ، ومسيرات ملائكة بأجنحة بيضاء تتبع تماثيل

* بالألمانية في الأصل .

القديسين ، وفي حين كان القيظ ، رد السماء على التجاوزات الشتوية ، ينهال على البلد ، تاركاً مكانه أحياناً لأمطار متفرقة ، لعواصف موسمية ، وفي حين كان توماس الكاييد يغني على مسرح ساو لويس ريغوليتو ، مانون والتوسكا ، كانت عصبة الأمم قد قررت على عجل رفع العقوبات المفروضة على إيطاليا ، وكان الانكليز يحتجون من جهتهم على مرور المنطاد هندنبرغ فوق المصانع والمواقع الستراتيجية البريطانية ، وكانت تنتشر شائعة الضم الوشيك لمدينة دانتزيغ الحرة الى الأراضي الألمانية . وبعد كل شيء ، فهذا من شأنهم . فلن تستطيع اكتشاف البقعة السوداء الصغيرة ذات الاسم البربري سوى عين حادة وإصبع متدربة على البحث في الخريطة ، ولن يتوقف العالم ، بالتأكيد ، من أجلها . ذلك أنه إذا أراد المرء ، في نهاية المطاف ، أن يصون الطمأنينة في بيته ، فينبغي أن لا ينشغل بالجيران ، فلينزع سلاحهم من سلحهم ، فهم يأتون للبحث عنا حين يكون الزمن للمسرات . قبل بضعة أيام ، راجت شائعة تقول إن الجنرال سانجورجو يريد أن يدخل سراً الى إسبانيا ليقود الحركة الملكية ، وقد سارع الى التصريح للصحافة بأنه لم يكن يفكر أبداً في أن يغادر البرتغال في هذا الوقت المبكر . فها هو ، إذن ، مقيم في مونت ايستوريل مع أسرته ، في فيلا سانتا ليوكاديا ، مع منظر على البحر ، مستريح الضمير . لو كان عليهم أن يتخذوا موقفاً في هذه المسألة ، لقال بعضهم ، اذهب وانقذ وطنك ، وقال الآخرون ، ابق إذن هادئاً ، لا تجلب على نفسك المتاعب . أما بالنسبة إلينا ، فواجبنا الوحيد هو احترام قواعد الضيافة ، كما فعلنا بكل كرم مع دوقي ألب وميديناسيلي اللذين وجدا ، في الوقت المناسب ، ملجأ في فندق براغانسا ، ولا يفكران في تركه في هذا الوقت المبكر ، إذا صدقنا أقوالهما . ربما لا يدور الأمر هنا إلا حول تحضيرات لهجوم جديد ، ربما

كان السيناريو مختلفاً ، والعملية جاهزة ، ولم يعد ينتظر إلا أمر المخرج ، تحركوا .

ريكاردو ريس قرأ الصحف . المسألة مسألة مزاج دون شك ، فأخبار العالم لا تتوصل الى إقلاقه ، ربما كان يثق بالحس المشترك الذي يؤكد أنه كلما زاد الخوف من المصائب ، قلّت فرصة حصولها ، ولو كان الأمر كذلك ، فالإنسان محكوم عليه إذن ، لمصلحته الخاصة ، بالتشاؤم الأزلي ، الطريق الوحيد الى السعادة ، وإذا استمر في هذا الطريق ، فمجرد الخوف من الموت سيسمح له ، احتمالاً ، بالوصول الى الخلود . ليس ريكاردو ريس مثل جون د . روكفلر ، إنه لا يحتاج الى أن تصفى له الأخبار ، الجريدة التي اشتراها مشابهة لكل تلك التي يحملها البائع معه في حقيبتيه أو ينشرها على الرصيف ، التهديدات عامة ، كالشمس ، وإذا كان الظل الذي يجد فيه ملاذاً يمكن أن يعرف على هذا النحو ، فما لا أريد أن أراه غير موجود ، المسألة الحقيقية الوحيدة هي معرفة كيف سيتقدم فارس المملكة ، وإذا كنت أتحدث عن مسألة ، فليس معنى ذلك أنها مسألة حقاً ، بل إنه ليس لدي ، ببساطة ، مسألة أخرى . قرأ ريكاردو ريس الصحف ، وفرض على نفسه ظاهر قلق . أوروبا في حالة غليان ، وإذا اتفق أن انفجرت ، فلن يكون للشاعر مكان يضع فيه رأسه . وبالمقابل ، كان العجوزان مستثارين الى درجة قررا معها أن يضحي كل منهما ، بدوره ، بشراء الجريدة من أجل أن لا يكون عليهما انتظار نهاية بعد الظهر . عندما نزل ريكاردو ريس الى الحديقة لممارسة إحسانه اليومي ، سمحا لنفسيهما بالرد عليه بعجرفة الفقراء الذين ليسوا ، في نهاية المطاف ، سوى ناكري جميل ، سبق أن قلنا ذلك ، ونشرا ، بصخب ، بتفاخر ، الأوراق العريضة ، لا ينبغي الثقة بالطبيعة البشرية ، والبرهان على ذلك قدّم إلينا منذ قليل .

بما أن ريكاردو ريس قد عاد ، بمجرد أن انتهت عطلة ليديا ، الى النوم حتى ساعة الغداء عملياً فقد كان آخر سكان ليشبونة علماً بأن انقلاباً عسكرياً قد وقع في إسبانيا ..ذهب والنوم مازال في عينيه حتى الدرج ليأخذ الجريدة من فوق ممسحة الأقدام ، وضعها تحت ذراعه ، وعاد الى غرفته متثائباً ، يوم آخر يبدأ أيضاً ، آه ، هذا الملل من الحياة ، ومع ذلك يقال إن هذا يدعى صفاء . عصيان الجيش الإسباني ، أحس ريكاردو ريس ، عندما قفز هذا العنوان الى عينيه ، بدوار ، أو ، بتعبير أصح ، بانطباع إقلاع داخلي ، كما لو كان وقع فجأة في سقوط حر دون أن يكون متأكداً من القدر ، على الوقوع على قدميه ثانية . ما كان ينبغي توقعه قد حدث . الجيش الإسباني ، حارس فضائل العرق والتقاليد سيدع الأسلحة تتكلم ، يطرد التجار من الهيكل ، يعيد مذبح الوطن ، يرد الى إسبانيا العظمة الخالدة التي أفقدها إياها بعض أبنائها الفاسدين . قرأ ريكاردو ريس الخبر ، موجزاً ، ووجد في الصفحة الداخلية بلاغاً متقادماً ، تخشى حركة ثورة فاشية في مدريد ، بعثت كلمة فاشية فيه اضطراباً فريداً ، صحيح أن الخبر كان صادراً عن مدريد ، مقر الحكومة اليسارية ، وكان من المنطقي بالتالي أن تستخدم مثل هذه اللغة ، ولكنه كان من الأبسط بكثير أن يقال ، مثلاً ، إن الملكيين وقفوا ضد الجمهوريين . ريكاردو ريس الذي كان ، ويجب أن لا ننسى ذلك وأن نكرره ، ملكياً كان سيعرف فوراً في أية جهة كانت جماعته . ولكن إذا كان الجنرال سانجورجو ، الذي كان يجب أن يقود الحركة الملكية الإسبانية ، ويبدو أن الشائعات الرائجة في ليشبونة تؤكد ذلك ، قد كذب الخبر تكذيباً قاطعاً ، ليس لدي أبداً النية في مغادرة البرتغال في هذا الوقت المبكر ، فالوضع أقل تعقيداً ، ليس على ريكاردو ريس أن ينحاز ، هذه المعركة ، إذا كانت هناك معركة ، ليست معركته ، إنها قضية بين

جمهوريين وجمهوريين . هذا كل شيء اليوم . ربما أعلنت الجريدة غداً أن الحركة أجهضت ، أن التمرد فشل ، أن السلام يسود كل إسبانيا . تساءل ريكاردو ريس عما إذا كان هذا سيكون بالنسبة إليه راحة أم عبئاً . عندما خرج للغداء ، لاحظ الوجوه ، انتبه الى الأحاديث ، هناك عصبية في الجو ماتزال حتى الآن مسيطراً عليها ، لا يعيبها تطرف ولا نقص ، وذلك دون شك لأن المعلومات ماتزال نادرة ولأنه من المناسب إخفاء المشاعر التي توقظها هذه الأحداث البالغة القرب ، السكوت من ذهب ، الأفضل هو بقاء المرء صامتاً . إلا أنه فاجأ ، بين باب شقته والمطعم ، بضع نظرات انتصار ، ونظرة أو اثنتين تنمان عن إرهاق كئيب ، بل إن واحداً مثله قادر على فهم أن الأمر لا يدور ببساطة حول تقابل بين جمهوريين وملكيين .

شيئاً فشيئاً ، عرف ما جرى . العصيان انطلق من مراكش ، ويبدو أن قائده الرئيسي هو الجنرال فرانكو . هنا ، في ليشبونة ، أتى الجنرال سانجورجو على التصريح بأنه الى جانب إخوته في السلاح ، مع إعادة تأكيده على أنه لن يلتزم مباشرة ، فليصدق ذلك من يشاء ، هذه الكلمات الأربع ليست منه طبعاً ، ولكننا نجد دائماً واحداً يعطي ، في كل الظروف ، رأيه ، حتى وخاصة عندما لا يطلب منه شيء . ان طفلاً سيفهم أن الوضع في اسبانيا خطير ، يكفي ان يقال أننا شهدنا في أقل من ثمان وأربعين ساعة سقوط حكومة كازاريس كيروغا ، وتشكيل حكومة جديدة يرأسها مارتينز باريو وحلها ، وان التساؤل يجري الآن حول مدة حياة الوزارة التي شكلها جيرال . العسكريون أتوا على إعلان انتصار حركتهم ، واذا جرى كل شيء بالجودة المتوقعة ، فإن أيام السلطة الحمراء في اسبانيا معدودة . الطفل الذي تحدثنا عنه منذ قليل يمكنه ان يثبت ذلك ، وكونه لا يكاد يعرف القراءة لا يغير شيئاً من الموضوع ، يكفيه ان يلقي نظرة على ضخامة

العناوين وعلى تنوع الحروف ، فيض من الخطوط يمضي حتى الحروف المائلة ، وسينتهي قريباً الى أن يفيض حتى حروف المقالات الصغيرة .

وفجأة ، كانت الفاجعة . الجنرال سانجورجو أتى على الموت ، محروقاً بصورة بشعة ، كان ذاهباً ليستلم قيادة العصيان العسكري ، أكانت الطائرة محملة بأكثر مما ينبغي ، أم كانت القوة تنقص حركها ، مهما يكن من أمر ، فالنتيجة هي نفسها ، لم تستطع الطائرة أن تقلع ، وتحت أنظار الأسبانيين الذين هرعوا من أجل وداع أخير ، ذهبت لتصطدم أولاً بأشجار ، ثم بجدار وأخيراً ، تحت الشمس القاسية ، أخذت الطائرة والجنرال يلتهبان كمشعل هائل ، في حين أن الطيار المحظوظ ، واسمه انسالدو ، خرج من ذلك ببعض الكدمات وحروق غير خطرة ، كان الجنرال يقول ، كلا ، كلا ، لا أفكر في مغادرة البرتغال ، وكان يكذب ، أخيراً ، فلنكن رحماء ، هذه الازدواجيات هي الخبز اليومي للسياسة ، وليس ممنوعاً أن يجري التساؤل عما يمكن أن يراه الله في كل هذا ، لا شيء يضمن لنا أن ذلك ليس عقاباً إلهياً ، كل واحد يعلم أن الله يعاقب دون عصا ولاحجر ، بل ان له ، بالمقابل ، خبرة طويلة بالنار . في هذه البرهة نفسها ، في حين يعلن الجنرال كيبو دولانو الديكتاتورية العسكرية في كل اسبانيا ، كانت تقام ليلة السهر ، في كنيسة سانتو انطونيو في ايستوريل ، على جثمان الجنرال سانجورجو ، مركيز الريف ، من حيث الجثمان ، فكل ما بقي منه هو فحمة سوداء ، شبيهة بتابوت طفل صغير ، يا لهول رؤية رجل بهذه البدانة في حياته وقد تحول الى جمرة بائسة ، أوه ، إنهم لمصيبون أولئك الذين قالوا أننا لسنا شيئاً في هذا العالم ، ولكننا عبثاً ما نكرر ذلك كل الأيام ، فمن الصعب دائماً التسليم به . كان أعضاء الكتائب الإسبانية الذين ارتدوا الزي الموحد من القدم الى الرأس ، القميص الأزرق ، السروال الأسود ، السكين

في الحزام الجلدي ، يشكلون سياج شرف للقائد الحربي الكبير ، يتساءل المرء ، من أين جاء كل هؤلاء الناس ، المؤكد هو انهم لم يرسلوا من مراكش على وجه السرعة ليحضروا هذه الجنازة الرسمية ، أما بالنسبة للغلام الذي تكلمنا عنه منذ قليل ، فمهما كان بريئاً وأمياً ، فإنه لا يعرف عن ذلك شيئاً بدوره ، وأخيراً ، إذا كان هناك ، كما تؤكد جريدة بويبلوغاليغو ، خمسون ألف إسباني في البرتغال ، فمن البديهي أن هؤلاء لم يكتفوا بأن يجلبوا معهم ملابس داخلية للغيار ، وانهم وضعوا في حقائبهم ، من أجل التأهب لكل احتمال ، سروالاً أسود وقميصاً أزرق وسكيناً ، الشيء الوحيد الذي لم يكونوا ، بالتأكيد ، يتوقعونه هو أنه سوف ينبغي عرض كل هذا في مثل هذه الظروف المأساوية . ومع ذلك ، فإن وميضاً من انتصار كان يضيء هذه الوجوه المطبوعة بألم رجولي ، أليس الموت الخطيبة الأزلية التي يحلم بها كل رجل ذي قيمة ، عذراء نقية كانت ، دائماً ، ضعيفة أمام الإسبان ، خاصة عندما يكونون عسكريين ، غداً سيحوم الإعلان عن تقدم الطوابير المتحركة نحو مدريد فوق بقايا الجنرال سانجورجو المحمولة على عربة تجرها بغال ، كالملاك المعلن عن الخبر الطيب ، رفع الحصار ، الهجوم النهائي لم يعد سوى قضية ساعات . يبدو أنه لم تعد هناك ، فعلاً ، حكومة في العاصمة ، ولكنه يبدو أيضاً ، ولا يبدو أن أحداً يلاحظ التناقض ، ان هذه الحكومة غير الموجودة قررت السماح لأعضاء الجبهة الشعبية بالاستيلاء على الأسلحة والذخائر التي يحتاجون إليها . تلك آخر حشرجات الشيطان . عما قريب ستسحق عذراء دوبيلار تحت عقبها النقي الأفعى الملعونة ، وسوف يرتفع هلال القمر فوق ركام جثث الجور ، ألوف من الجنود المراكشيين ينزلون فعلاً في جنوب اسبانيا ، سوف نعيد ، بفضل مساعدتهم المسكونية ، امبراطورية الصليب والمسبحة حيث كان يسود رمز المنجل

والمطرقة البشع . تجديد قوى أوروبا يتقدم بخطى عملاقة ، ايطاليا أولاً ، ثم البرتغال ، وألمانيا ، والآن جاء دور إسبانيا ، هذه هي الأرض الطيبة ، هذه هي البذرة الجيدة ، غداً ستحصد المواسم . كان الطلاب الألمان قد كتبوا ، لسنا شيئاً ، وهذا على وجه الدقة الشديدة ما كان يتمتم به العبيد الذين بنوا الأهرامات ، لسنا شيئاً ، قالها معماريو مافرا* ورعاتها ، لسنا شيئاً ، نحن أهالي ألنتيجو الذين عضتهم القطة الكلبة ، لسنا شيئاً ، نحن المستفيدين من أعمال الإحسان الوطنية ، لسنا شيئاً ، نحن سكان ريباتيجو الذين جرى من أجلهم احتفال الجوكي كلوب ، لسنا شيئاً ، نحن النقابات الوطنية التي قامت بمسيرة ، في أيار مرفوعة السواعد ، لسنا شيئاً ، هل سيأتي يوم سنكون فيه أخيراً شيئاً ما ، من الذي تكلم ، لا أحد يدري ، إنه مجرد افتراض .

ريكاردو ريس شرح لليديا ، وهي ليست شيئاً كبيراً بدورها ، ضروب تقدم البلد المجاور ، وحدثته عن اسبان الفندق ، الذين احتفلوا بالحدث بعيد كبير ، فموت الجنرال المأسوي لم يضعف معنوياتهم أبداً ، الآن ، ما من عائلة لا تسمع فيها فرقعة فتح زجاجات الشمبانيا الفرنسية ، سلفادور لم يعد يتماسك من الفرح ، بيمنتا يتكلم القشتالية كما لو كانت لغته الأم ، أما بالنسبة لرامون وفيليب ، فلم يعودا يدخلان في سترتيهما منذ أن علما أن الجنرال فرنكو غاليسي ، من إل فيرول ، بل خطرت لأحدهم فكرة رفع علم اسباني على شرفة الفندق ، علامة على الحلف الاسباني ـ البرتغالي ، ولم يعودوا ينتظرون إلا شيئاً واحداً هو أن تهبط كفه الميزان قليلاً أيضاً . سأل ريكاردو ريس ، وأنت ما رأيك فيما يحدث هناك . أنا لست شيئاً ، لم أتعلم ، أما أنت ، يا سيدي الدكتور ، فيجب أن تعرف جيداً ، بالدراسات

* اشارة الى رواية ج . ساراماغو السابقة ، مذكرات الدير التي تجري أحداثها في مافرا أثناء بناء الدير .

التي أجريتها لتصل الى موقعك ، اعتقد أن المرء يرى الى مسافة أبعد كلما ارتفع . القمر المكتمل يشع على كل بحيرة ، لأنه عالٍ جداً في السماء . تقول الأشياء بصورة بالغة الجمال يا سيدي الدكتور . في اسبانيا كانت هناك الفوضى ، البلبلة ، كان ينبغي حقاً أن يأتي أحدهم ليضع حداً لكل ضروب الجنون هذه ، والجيش وحده كان يمكنه ذلك ، هذا ما جرى هنا ، والأمر شبيه بذلك في كل مكان . لا أعرف شيئاً في هذه الأمور ، أخي يقول . هيا ، حسناً ، أخوك أيضاً ، لست في حاجة الى سماعه من أجل أن أفهم ما قال . أنتما ، أخي وأنت ، شخصان مختلفان جداً حقاً . وماذا يقول في نهاية المطاف . قال ان العسكريين لن ينتصروا لأن الشعب بكامله سيقف ضدهم . يجب أن تعرفي ، يا ليديا ، أن الشعب ليس بكامله ، أبداً ، في جانب واحد معاً ، ثم تفضلي بإفهامي ما هو الشعب . الشعب ، هو ما أنا عليه ، خادمة لها أخ ثوري وتنام مع دكتور عدو للثورات . من علمك أن تقولي مثل هذه الأشياء . عندما أفتح فمي للكلام ، تكون الكلمات هنا ، جاهزة تماماً ، يكفي أن أدعها تخرج . بصورة عامة ، يفكر المرء قبل ان يتكلم ، أو لا يفكر وهو يتكلم ، الجميع يفعلون هذا . إذا كان هذا صحيحاً ، فأنا لا أفكر ، إنه مثل صنع طفل ، يكبر دون الانتباه الى ذلك ، وعندما تحين ساعته ، يولد . أأنت على ما يرام . لولا غياب الدورة الشهرية لما عرفت حتى أني حامل . أأنت ثابتة على فكرتك في الاحتفاظ بالطفل . الصغير . نعم ، ولن أغير رأيي . فكري جيداً . إذا صح ذلك ، فأنا لا أفكر ، وبعد قول ليديا ذلك ، أخذت تضحك سعيدة . لم يعرف ريكاردو ريس كيف يرد ، عند ذلك جذبها إليه ، قبلها على جبينها ، ثم على طرف فمها ، ثم في عنقها ، لم يكن السرير بعيداً ، تمددت عليه الخادمة والدكتور ، لم يعد الأخ موضع بحث ، أما اسبانيا ، فهي في آخر الدنيا .

العقول الجيدة تتلاقى* ، هكذا يقول الفرنسيون ، وهم شعب ثاقب الذهن : كان ريكاردو ريس قد ذكر المحافظة الضرورية على النظام ، وها هو الجنرال فرنسيسكو فرنكو يصرح ، في مقابلة مع جريدة أوسيكولو البرتغالية ، نريد أن يسود النظام كل البلد ، وهذا ما سمح للجريدة أن تطبع بعناوين ضخمة ، عمل الخلاص الذي يقوم به الجيش الاسباني ، واذ لم تكن العقول الجيدة لا تحصى ، فهي تزيد كل يوم ، وإليكم الدليل ، بعد قليل ، عندما ستطرح الجريدة السؤال الصعب ، عن الوقت الذي ستنظم فيه أخيراً أممية النظام الأولى ضد أممية الفوضى الثالثة ، فسوف يكون هناك ما يكفي من العقول الجيدة لإعطاء جواب . وفضلاً عن ذلك ، فكون الجنود المراكشيين يواصلون النزول هو بداية فعلاً ، تشكلت مؤخراً عصبة عسكرية في بورغوس ، أما بالنسبة للمواجهة النهائية بين الجيش وقوات العاصمة ، فلم تعد سوى مسألة ساعات . ومن جهة اخرى ، فينبغي عدم إيلاء أهمية لكون سكان بورغوس قد تسلحوا لمقاومة الهجوم ، فهذا لا يكاد أن يكون سوى عنصر آخر في المناقشة حول ما هو أو ما ليس هو الشعب ، هذا كل شيء . فقد تسلح الرجال والنساء والأطفال ، جاهلين ثغرات ليديا وترددات ريكاردو ريس ، ببنادق ، وسيوف ، وهراوات ، ومناجل ، ومسدسات ، وسكاكين ، وعصي ، أي ، باختصار ، بكل ما كان يقع في ايديهم ، وهذه دون شك طريقة الشعب في حمل السلاح ، واذا كانت هذه هي الحال حقاً ، فنحن نعرف من الآن فصاعداً ما هو الشعب وأين يقف الباقي ، واغفروا لي هذا التعبير ، ليس سوى جدل فلسفي ومنحاز .

الموجة تتدحرج وتكبر . في البرتغال ، تتدفق تسجيلات المتطوعين

---

* بالفرنسية في الأصل .

في حركة الشبيبة البرتغالية ، الوطنيون الشباب يستبقون ، في ظل النظرة الأبوية العطوف ، النداء ، ويوقعون بخط تلميذ ، وأيديهم مثقلة بالآمال ، رسالة تطوعهم ثم ، بقدم ثابتة ، يحملونها الى البريداو ، مرتجفين من الانفعال المدني ، يسلمونها لبواب وزارة التربية الوطنية ، الاحترام الديني وحده يمنعهم من الهتاف ، هذا هو جسدي ، هذا هو دمي ، ولكن أي واحد يستطيع أن يرى كم كان ظمؤهم الى الشهادة كبيراً . تفحص ريكاردو ريس القوائم ، وحاول أن يتصور الوجوه ، الحركات ، الهيئات التي قد تعطي شكلاً ومعنى لخواء كل هذه الكلمات الطريفة التي هي أسماء العلم ، أكثر الكلمات فراغاً ان لم تترابط مع وجه بشري ، بعدبضع سنوات ، عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة ، ما الذي سيفكرون فيه ، وقد أصبحوا رجالاً ناضجين ، شيوخاً ، إذا وصلوا الى هذه المرحلة ، حول حماسة شبابهم ، عندما كانوا يقرؤون ويسمعون الشباب الألمان يقولون لهم ، لسنا شيئاً ، ويهرعون بسمو لدى نداء البوق الصوفي ، لسنا شيئاً بدورنا . سوف يقولون دون شك خطيئة شباب ، البراءة جعلتني اقترف الكثير من الأخطاء ، لم ينصحني أحد ، أسفت لذلك كثيراً فيما بعد ، أبي هو الذي ارسلني ، كنت أؤمن بذلك بإخلاص ، اللباس الموحد كان فائق الجمال ، لو كان علي أن أبدأ من جديد ، فإني سأفعل ذلك مرة أخرى ، كانت وسيلة للنجاح في الحياة ، أوائل المسجلين كانوا الأقرب إلى التقدير ، يخطىء المرء بسهولة عندما يكون فتياً ، من السهل جداً خداع فتى ، تبريرات من جملة تبريرات أخرى ، إلا أنه ها هو واحد منهم ينتصب فجأة ، ويرفع يده طالباً الكلام ، ريكاردو ريس يعطيه إياه وقد شعر بالفضول لسماع رجل يقدم تفسيراً حول واحد من الرجال الذين كانهم ، عمر يحاكم الآخر ، وهذا الخطاب هو التالي ، أتينا على سماع الأسباب التي قدمها كل واحد منا ليبرر كونه قد اجتاز الخطوة ،

وسواء تصرف ببراءة أم بحساب . طوعاً أم ضد إرادته ، فالحكم سيكون ، حسب العادة ، تابعاً للعصر والقاضي ، ولكن الحياة التي جرى عيشها يجب ، سواء أُدنا أم بُرئنا ، ان تزن بوزنها في الميزان ، تماماً كالخير والشر اللذين يكونان قد صنعا ، ما نجح وما لم ينجح ، المغفرة والذنب ، وعندما يوزن كل شيء ، بأدق ما يمكن ، وضمن الفرضية غير المحتملة التي تقول ان قلبنا نقي ، فليكن ضميرنا قاضينا الوحيد ، وربما كان علينا ان نصرح أيضاً ، وهذه المرة لهدف مختلف تماماً ، نحن لسنا شيئاً ، على اعتبار أن رجلاً محبوباً ومحترماً من جانب معظمنا ، واعطيكم اسمه فوراً لأجنبكم عناء تخمينه ، رجلاً يدعى ميغيل دو أونامونو ، رئيس جامعة سلمنكة في ذلك العهد ، ليس غلاماً في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره مثلنا ، بل كان عجوزاً محترماً ، سبعينياً كان وراءه حياة طويلة وعمل عظيم يتألف من كتب في شهرة «في الشعور الفاجع بالفراغ» و«احتضار المسيحية» و«نظرة الى كتب التعليم المسيحي» و«الكرامة البشرية» وكتب اخرى كثيرة أيضاً أرجو أن تعفوني من ذكرها ، هذا الرجل ، منارة الذكاء ، انضوى منذ الأيام الأولى من الحرب تحت لواء عصبة حكومة بورغوس مصرحاً ، اعتمدوا علي ، يا رجال اسبانيا ، لمساعدتكم على انقاذ الحضارة الغربية ، رجال اسبانيا هؤلاء ، كانوا العسكريين المتمردين ومغاربة مراكش ، قدم من جيبه خمسة آلاف بيزيتا لما كان يسمى من قبل الجيش القومي الاسباني ، لا اتذكر اسعار ذلك العصر ، فلا أستطيع اذن ان أقول لكم كم خرطوشة كان يمكن شراؤها بذلك المال ، وبلغت به القسوة ، من جهة اخرى ، درجة نصح رئيس الحكومة آزانا بالانتحار ، وبعد بضعة أسابيع ، أدلى بتصريحات لا تقل جلجلة ، أعجب أشد الإعجاب بالمرأة الإسبانية واكن لها أكبر الاحترام لأنها عرفت كيف تمنع العصابات الشيوعية والاشتراكية من الاستيلاء على اسبانيا

في وقت أبكر ، وانتهى ، محمولاً باندفاعه ، الى الهتاف ، ياللنساء القديسات ، في البرتغال ، الأمر مشابه ، ليس ما ينقصها القديسات ، مثالان يكفيان لاثبات ذلك ، ماريليا «المؤامرة» وساذجة ثورة أيار ، سوف ينبغي على نساء اسبانيا ان يشكرن اونامونو على هذا الاحترام ، أما بالنسبة للبرتغاليات ، أيها السيدان تومية فييراولوبزرييبيرو ، فأود حقاً أن أنزل يوماً الى الجحيم لتعداد كل النساء القديسات الموجودات فيه . وكما لو كان الأمر يدور حول جرح مخجل يجب أخفاؤه بأي ثمن ، لا يجرؤ أحد على أن يذكر ميغيل دو أونامونو الذي طالما أعجبنا به مع ذلك ، احتفظ منه ، فقط ، بالكلمات التي يمكن ان تستخدم في بناء الخلود ، آخر الكلمات التي تلفظ بها في سلمنكة ، ليرد على الجنرال ميلان داستراي الذي كان قد صرخ . يحيا الموت . لم ينجح الدكتور ريكاردو ريس في معرفة حول أي كلام كان يدور الأمر ، هذه هي الحياة ، ليس لدى المرء الوقت لمعرفة كل شيء ، حياة ريكاردو ريس لم تسمح له بمعرفة المزيد ، نعلم فقط ان بعضاً منا أرادوا حقاً مراجعة حكمهم لأن هذه الكلمات قد لفظت ، وبالفعل ، فقد كان ميغيل دو أونامونو محظوظاً اذ عاش ما يكفي للاعتراف بخطئه ، أقول الاعتراف حقاً ، لأنه لم يعتذر قط علناً ، لم يسعفه الوقت ، دون شك ، أو أنه أراد أن يحمي حتى النهاية طمأنينة أيامه الأخيرة ، كل شيء ممكن ، في كل الأحوال ، وسوف يكون ختام هذا الخطاب الطويل ، سأطلب إليكم الانتظار حتى نقول ، نحن أيضاً ، كلمتنا الأخيرة أو قبل الأخيرة ، اذا لم يتخل عنا وضوح ذهننا حتى ذلك الحين واذا لم تفقدوا ، في هذه الأثناء ، وضوح ذهنكم ، لقد انتهيت . صفق بعض الحضور بحرارة لأملهم الخاص في الخلاص ، واحتج آخرون وقد غاظهم التفسير السيىء النية الذي أتى على معاناته فكر ميغيل دو أونامونو القومي ، وذلك لأنه وصل ، بسبب عناد

خرف ، نزوة عجوز قدمه في القبر من قبل ، الى الاعتراض على الصرخة الرائعة للجنرال ميلان داستراي ، الوطني الكبير والعسكري العظيم الذي كانت خدماته الحالية والماضية ، تسمح له بالتصرف كمن يعطي دروساً ، والذي ليس لديه درس يتلقاه من أحد . ريكاردو ريس يجهل رد ميغيل أونامونو على الجنرال ، ربما لا يجرؤ على الاستعلام ، وربما لأنه يخاف أن يدخل زوايا المستقبل ، القدر ، الأفضل هو السكون ودون كثير من القلق ، هذا ما كتبه ذات يوم ، هذا ما يحاول أن يفعله كل يوم . ابتعد العجائز وهم يناقشون تصريح أونامونو الأول والثاني والثالث ، وكل واحد يحكم كما يحب أن يحكم عليه ، لو كان المتهم يستطيع ان يختار قانونه لما كانت هناك سوى براءات .

أعاد ريكاردو ريس قراءة الأخبار التي يعرفها من قبل ، اعلان رئيس جامعة سلمنكة ، لانقاذ الحضارة الغربية ، اعتمدوا علي يا رجال اسبانيا ، الخمسة آلاف بيزيتا المقدمة لجيش فرنكو ، النصيحة المرعبة المعطاة لآزانا ، انتحر ، حول النساء القديسات ، لا شيء أيضاً ، ولكننا نعلم من قبل بأية تعابير نتحدث عنهن ، على اعتبار أن مخرجاً برتغالياً بسيطاً صرح ذات يوم بأن كل النساء ، في هذا الجانب من جبال البيرينه ، قديسات ، الويل للرجال الذين يحاكمون هكذا . راجع الصفحات مطولاً ، اعلانات اعطاء العلم تسلية ، سواء أتت من هنا أم من هناك ، من هذا الزمن أو من آخر ، من الحاضر أو المستقبل أو الماضي ، زيجات او معموديات ، سفر ، وصول ، ربما كانت حياة المجتمع موجودة ، إلا أنه لا يوجد أبداً سوى عالم واحد ، وهو حزين حقاً ، لو كنا نستطيع ان نختار الأخبار التي نريد قراءتها لكان كل واحد منا جون د .روكفلر . ألقى نظرة على الاعلانات الصغيرة ، عرض شقات ، طلب شقات ، على هذا الصعيد هو مكتفٍ ، لديه ما ينبغي ، آه ،

السفينة هايلاند بريغاد ستغادر قريباً مرفأ ليشبونة متجهة الي برنامبوكو ، ريودو جانيرو ، سانتوس ، أيها الرسول الأمين ، ما الأخبار التي تأتينا بها من فيغو ، يبدو أن غاليسيا ، بكاملها ، انضمت الى الجنرال فرنكو ، هذا طبيعي جداً ، ابن البلد ، العواطف أمر عظيم الأهمية . هكذا يتداخل عالمان ، معكرين طمأنينة القارىء الذي يقلب الصفحات محموماً ويقع من جديد على درع اشيل ، وذلك كان منذ زمن بعيد . إنه تمجيد الرسوم والخطابات نفسه ، دائماً ، رؤية مفصلة بشكل لا يصدق للعالم ، مشكاك ذو حركة غير منقطعة يقدم نفسه للتأمل ، تعداد تجاعيد الله أصبح أمراً ممكناً ، تحت اسم فرير النقاش ، الجريدة تنشر صورته ، بالمونوكل الشرس ، وربطة العنق المصنوعة للخنق ، حتى ولو كان الطبيب يؤكد أن ما يموت به الإنسان هو المرض ، أو برصاصة ، كما في اسبانيا ، وها هو تحت مخلوقاته يغني حكمة الخالق اللامتناهية ، حياة مشرقة ودون لطخة ، حسب الصيغة المكرسة ، ثلاث ميداليات ذهبية ، وهو تمييز أعلى يمنحه إله أعلى أيضاً يمكن أن يكون ، لأنه لا ينشر اعلانات في الدياريو دونوتيساس ، أن يكون الإله الحقيقي حقاً ، منذ زمن طويل ، كان ريكاردو ريس يرى في هذه الدعاية متاهة ، اليوم لم تعد سوى دائرة فارغة ، مغلقة لا يمكن الخروج منها مساوية في متاهيتها لصحراء دون دروب . رسم لحية رفيعة لفرير النقاش ، جعل من المونوكل نظارتين ، ولكن هذين الاصطناعين عاجزان عن تحقيق الشبه مع دون ميغيل دواونامونو ، الضائع هو أيضاً في متاهة لن يخرج منها سوى عشية موته ، إذا صدقنا المواطن البرتغالي الذي وقف في المجمع ، من المسموح به فضلاً عن ذلك أن نشك في كونه قد وضع كل وجوده في هذا القول الأخير تقريباً ، فبين اليوم الذي تلفظ به فيه واليوم الذي كف فيه عن الحياة ، ربما كان رئيس الجامعة الفخم قد عاد طوعاً الى السقوط في

ازدواجيته الأولى ، التي تقوم على اخفاء ثورته ، على اسكات غضبه . نعم ميغيل دو أونامونو ولاؤه تتسلطان على ريكاردو ريس الحائر ، الموزع بين ما يعرفه عن هذه الأيام التي عاشها كلا الاثنين ، المترابطة فيما بينها بأخبار الجريدة ، والنبوءة القاتمة لذاك الذي يعرف المستقبل ولم يرد أن يقول ، ما يأسف له هو أنه لم يجرؤ على سؤال الخطيب البرتغالي عن هذه الكلمات الحاسمة التي تلفظ بها دون ميغيل وفي أية برهة وجهها الى الجنرال ، واذ ذاك ، في اللحظة نفسها ، فهم انه لم يقل شيئاً لأنه كان قد أعلن له بوضوح أنه لن يعود من هذا العالم يوم التوبة . لم يعرف السيد الدكتور ماذا كانت هذه الكلمات ، هكذا هو الأمر ، الحياة اقصر مما ينبغي ، حياتك لم تسمح لك بمعرفة المزيد عن ذلك . وبالمقابل ، كان لديه كل الوقت ليتبين ان عجلة القدر كانت قد بدأت في الدوران ، ميلان داستراي الذي كان في بونس ايرس ، توجه الى اسبانيا ماراً بريودو جانيرو ، دروب الرجال لا تتغير أبداً ، ها هو الآن يجتاز الأطلسي على متن الألمانزورا محترقاً بحمى حربية ، خلال بضعة أيام سينزل في ليشبونة ، ثم سيأتي دور اشبيلية ، وأخيراً تطوان حيث سيحل محل فرنكو . ميلان داستراي يقترب من سلمنكة ومن ميغيل دو أونامونو ، عما قريب سيصرخ «يحيا الموت» ، وبعد . الثقب الأسود . الخطيب البرتغالي استأنف الكلام ، شفتاه تتحركان ، شمس المستقبل السوداء تنيرانهما ، ولكن ما يقوله غير مسموع ، لا يمكن تخمين الكلمات التي يتلفظ بها .

كان ريكاردو ريس مستعجلاً على مناقشة كل هذا مع فرناندو بيسوا ، ولكن فرناندو بيسوا لا يظهر . الزمن يجر أذياله كموجة بطيئة ودبقة ، كتلة من زجاج سائل تضطرب عشرات الألوف منه على السطح ، تفتن النظرة ، تأسر الانتباه ، في حين تبرق في الأعماق النواة الحمراء والمقلقة ، محرك

الحركة . الأيام والليالي تتعاقب في ظل الحرارة الكبيرة التي تنزل من السماء وتصعد من الأرض بالتناوب . على الألتود وسانتا كاتارينا ، لم يعد العجوزان يظهران إلا في نهاية اليوم ، الحرارة التي تحاصر ظل أشجار النخيل الضيق أقوى مما ينبغي لهما ، وتألق النهر أعنف مما ينبغي لعيونهما المتعبة ، وارتعاش الهواء ينهك قصباتهما . لم يعد هناك أدنى خيط من الماء عندما تفتح ليشبونة صنابيرها ، يمكن أن يقال أنه شعب من الدجاجيات ، شرهة المنقار ، مكسرة الأجنحة . في هذا الخدر الناعس ، يجري الحديث عن نهاية حرب اسبانيا ، ويبدو أن التنبؤ يتأكد ، على اعتبار أن قوات كيبودولانو أصبحت على أبواب باداجوز ، مصممة حقاً على القتال ، الويل لمن يعترض طريق هؤلاء الجنود ، فمتعة القتل عنيفة جداً لديهم . دون ميغيل دوأونامونو يخرج من بيته ليذهب إلى الجامعة ، مستفيداً من خيط الظل الذي يتمطى وراء البنايات ، الشمس المستأسدة تحرق حجارة سلمنكة ، ولكن العجوز المحترم يشعر على وجهه القاسي بنفحة البادرة الحربية القوية القاسية ، يرد بصفاء على تحيات مواطنيه ، على تحيات عسكريي المقر العام ، على المكلفين بمهمة والذين يقفون وقفة الاستعداد ، مرفوعي السواعد ، كأنهم تقمصات السيد كامبيادور الذي سبق ان صرح في زمانه ، فلتنقذ الحضارة الغربية ، إنه ليوم من هذه الأيام هو الذي اختاره ريكاردو ريس ليخرج من بيته ، في الصباح الباكر ، قبل الحرارة الكبرى ، انسل في خيوط الظل ، ثم ظهرت سيارة تاكسي حملته مبهور الأنفاس نحو أعلى الكالسادا دااستريلا ، حتى برازاريس ، وهو اسم مشحون بكل الآمال ولا يدع واحداً منها ، ان لم يكن الأمل في الصمت ، وربما في الراحة أيضاً . لم يعد الزائر في حاجة الى الذهاب للاستعلام ، لم ينس الموقع ولا الرقم ، أربعة آلاف وثلاثمائة وواحد وسبعون ، وبما أنه ليس رقم باب ، فلا ضرورة للقرع ، للسؤال ، أيوجد

أحد هنا ، اذا كان حضور الأحياء لا ينجح في تعكير سر الموتى ، فما الذي تستطيعه الكلمات . اقترب ريكاردو ريس من السياج ، وضع يده على الحجر الساخن ، الشمس ليست عالية جداً بعد ، ولكن المكان الذي تضرب عليه منذ هذا الصباح هو ، بفعل مصادفة طوبوغرافية ، هنا . وصل الى مسامعه من ممشى قريب صوت مكنسة ، في أقصاه تماماً ، أرملة تمر ووجهها شاحب تحت النقاب . لا شيء يتحرك . هبط ريكاردو ريس حتى المنعطف ، وتوقف لينظر الى النهر ، المصب ، وهو اسم مناسب على اعتبار أن المحيط يأتي ، قريباً جداً من هنا ليهدىء ظمأه الذي لا ينطفىء ، لاصقاً شفتيه النهمتين على ينابيع الأرض ، هذه صور ، مجازات ، تشبيهات لا مكان لها في قصيدة شكلية ، ولكنها تنبثق في الساعات الصباحية ، عندما لا يكون ما يفكر فينا مايزال عند مرحلة الاحساس .

لم يلتفت ريكاردو ريس . إنه يعلم ان فرناندو بيسوا غير المرئي موجود الى جانبه ، ربما كان ممنوعاً ، من أجل تجنب اختناقات مرور ، ان ينزه جسده داخل حرم الموت ، ومع ذلك ، فهناك ما يحمل على الابتسام في رؤية هذه الطرقات مزدحمة بالمتوفين . سأل صوت فرناندو بيسوا ، ماذا تفعل هنا في هذه الساعة المبكرة ، يا عزيزي ريس ، ألم تعد اذن تكفيك آفاق التودوسانتاكاتارينا ، ووجهة نظر اداماستور ، ورد ريكاردو ريس دون ان يرد ، على هذا البحر الذي نلمحه من هنا يسافر جنرال اسباني في طريقه الى الحرب الأهلية ، لا أدري اذا كنت تعلم ، الحرب الأهلية بدأت في اسبانيا . وماذا اذن . قيل لي ان هذا الجنرال ، واسمه ميلان داسترای ، يجب ان يقابل ذات يوم ميغيل دواوناموتو ، وانه سيصيح ، يحيا الموت ، وان الآخر سيرد عليه . وماذا بعد . أود أن أعرف رد الدون ميغيل . كيف تريدني أن أقوله لك ، إنه لم يجر النطق به بعد . ربما سيساعدك ان تعرف

ان رئيس جامعة سلمنكة وقف الى جانب الجيش الذي يريد أن يقلب الحكومة والنظام . هذا لا يساعدني في شيء ، أنت تنسى أهمية التناقضات ، كنت ذات مرة على أهمية التسليم بأن الرق كان النظام الطبيعي للمجتمعات السليمة ، وأنا غير قادر اليوم على التفكير فيما كنت أظن أني أفكر فيه آنذاك ، وفيما قادني الى كتابة هذا . كنت أعتقد أني استطيع الاعتماد عليك ، وها أنت تتملص . أود جيداً أن أطرح فرضية ، هذا كل ما استطيع أن أفعله . ما هي هذه الفرضية . ان صاحبك رئيس جامعة سلمنكة سيرد كما يلي ، هناك ظروف أن تصمت فيها يعني أن تكذب ، أتيت على سماع صرخة مريضة وخالية من المعنى ، هذه المفارقة البربرية تقرفني ، الجنرال ميلان داستراي مشوه ، ليس في قول ذلك خروج عن اللياقة ، سرفانتس كان كذلك أيضاً ، لسوء الحظ ، في اسبانيا اليوم كثير من المشوهين ، اتعذب لدى التفكير في أن الجنرال ميلان داستراي قد يطرح اسس سيكولوجية جماهيرية ، المشوه الذي لا يملك العظمة الروحية لشخص مثل سرفانتس يسعى ، عادة ، الى تعزية نفسه بضروب البتر التي ينزلها بالآخرين . اتعتقد أنه يمكنه الادلاء بهذا الرد . هذه احدى الفرضيات العديدة المحتملة ؛ وتنطبق جيداً على ما قاله لي الخطيب البرتغالي . اذا تطابقت الأشياء فيما بينها ، فليس هذا بالغ السوء فعلاً . مع أي شيء يمكن ليد مرساندا اليسرى ان تتطابق . أما زلت تفكر فيها . من وقت الى آخر . لا جدوى من المضي إلى هذا الحد ، من حيث التشويه ، كلنا مشوهون .

ريكاردو ريس وحده . الصراصير بدأت تغني على غصون الدردار المنخفضة ، أخترعت لنفسها ، وهي البكماء ، صوتاً . سفينة سوداء كبيرة تدخل الى مقدمة المرفأ ، ثم تختفي على مرآة الماء المتلألئة . ليس لهذا المنظر الهيئة الواقعية .

في شقة ريكاردو ريس ، الآن صوت جديد ، صوت مذياع صغير من طراز بيلوت ، أرخص ما يمكن أن يوجد في السوق ، مع علبة من الباكليت العاجي اللون ، أختير خاصة بسبب صغر المكان الذي يشغله ، ولأنه يمكن بسهولة نقله من الغرفة الى المكتب ، وهما المكانان اللذان يقضي فيهما شاغل البيت المسرنم معظم وقته . لو كان القرار قد اتخذ منذ الأيام الأولى التي تلت الانتقال ، عندما كان حب المسكن الجديد مايزال جديداً تماماً ، لكان هنا اليوم مذياع من الدرجة الأولى باثني عشر صماماً أو مصراعاً ، ذو قوة صوتية كبيرة ، قادر على أن يصعق الحي بكامله ، بأن يحمل الى النوافذ ثرثارات الجوار والعجوزين الصغيرين المصممين على الإفادة من المتعة الموسيقية ودروس المفردات ، كان من شأنهما ، في سبيل ذلك ، أن يستردا حماستهما وتصرفهما المتملق . المهم بالنسبة لريكاردو ريس هو أن يبقى على اطلاع ، وهو يفعل ذلك بطريقته المتكتمة والمتحفظة ؛ الاستماع الى تمتمة الأخبار الحميمية يجنبه أن يفسر أو أن يحاول تحليل الشعور بالقلق الذي يدفع به نحو الجهاز ، ولن يكون عليه ان يتساءل عن المعاني السرية لعين العملاق المحتضر المطفأة ، حول ضوء الاطار الصغير

الذي ربما كان يعبر عن الحبور ، المفارق اذا كان آخذاً في الموت ، أو عن الخوف أو الشفقة ، وكي نتحدث بمزيد من البساطة ، فلنقل ان ريكاردو ريس لا يتوصل الى معرفة ما اذا كانت انتصارات جيش اسبانيا المتمرد المدوية ، وهزائم القوات التي تدعم الحكومة التي لا تقل عن الأولى دوياً ، تملؤه أو لا تملوه فرحاً . لن يفوت بعضهم أن يشيروا إلى أن الأمرين هما الشيء نفسه ، كلا ، ليس الأمر كذلك ، الويل لنا اذا كنا لم نعد نعرف تأمل تعقيد النفس البشرية ، اكتشاف كون عدوي في وضع مؤسف والاستمتاع بذلك لا يعني ، بالضرورة ، إني أصفق للذي كان أصل صعوباته ، يجب عدم الخلط . لن يعمق ريكاردو ريس هذا الصراع الداخلي ، إنه يكتفي بالضيق الذي يحس به ، واذا كانت العبارة غير مناسبة ، فليغفر لنا ذلك ، كما يصنع للذي لا يجرؤ هو نفسه على سلخ أرنب ، فيطلب الى آخر أن يفعل ، ويشهد العملية ، خجلاً من جبنه ، وهو قريب الى حد يستطيع معه ، ان يشم الرائحة الفاترة ، أن يتنفس البخار الدقيق الذي يصدر عن الجلد المسلوخ ، في حين تولاه نوع من الحقد على الذي يقترف مثل هذه القسوة الرهيبة على قلبه ، أو على أي عضو آخر يكون المقر الاعتيادي لهذا النوع من الإحساس ، يستحيل أن ننتمي أنا وهو الى النوع نفسه ، ولا شك في أن دوافع من النوع نفسه هي التي لا نحب من أجلها الجلادين ولا نستهلك لحم كبش الفداء .

كانت ليديا سعيدة لدى مرأى المذياع ، كم هو جميل ، كم سيكون لطيفاً ان يكون في الإمكان سماع الموسيقى في أية ساعة من ساعات النهار والليل ، إنها تبالغ قليلاً ، ذلك أن هذا الوقت لم يأت بعد ، يجب الانتظار طويلاً . كل شيء يسر هذه النفس البسيطة ، ما لم تكن تتخذ أدنى ذريعة لإخفاء قلقها أمام حالة الإهمال التي وقع فيها ريكاردو ريس الذي أصبح من الآن فصاعداً يلبس كيفما اتفق ولا يعتني بشخصه . روت له أن ألب

وميديناسيلي غادرا الفندق مع الأسف الكبير من جانب سلفادور ، الذي يتعلق ، كما نعلم ، بزبائنه الأوفياء ، واكثر أيضاً ، اذا كانوا من أصحاب الألقاب ، وهو ما لم تكن الحال عليه بالنسبة لهذين الأخيرين ، انهما يدعيان بكل بساطة دون لورنزو ودون الونزو ، ريكاردو ريس هو الذي منحهما لقب الدوق ، وحان الوقت لوضع حد لهذه المزحة . هذا الانتقال لا يفاجئه . انهما يرغبان ، الآن وقد اقترب يوم النصر ، ان يتذوقا ساعاتهما الأخيرة كمنفيين ، من أجل هذا السبب تؤوي الاستوريس ما يسمى في أخبار المجتمع جالية اسبانية رفيعة ، من الممكن جداً أن يكون دوقانا قد أقاما هناك ، ممتلئين بأمل ارستقراطي ، دون لورنزو ودون الونزو تبعا الدوقات والكونتات الآخرين الى مصيفهم ، فيما بعد ، عندما سيصبحان عجوزين ، سيقولان لأحفادهما ، عندما كنت في المنفى ، بصحبة دوق ألب . وظف راديو كلوب البرتغالي ، من أجلهما ، منذ بضعة أيام ، مذيعة اسبانية تعلق على تقدم القوميين بلغة سرفانتس السائغة المذاق بصوت هو ، للأسف صوت زارزويلا السوبرانو ، فليغفر لنا وليغفر الله لنا أيضاً ، هذه السخرية الخالية من الفكاهة الناجمة عن رغبة في البكاء أكثر منها عن رغبة في الضحك . هذه هي حال ليديا ، بعد ان انتهت من تمثيل دور المرأة الفرحة والخفيفة ، ذلك أنه قد أضيفت الآن الى الهموم التي سببها لها ريكاردو ريس أخبار اسبانيا السيئة ، السيئة في تفسيرها هي ، بالتأكيد ، التفسير الذي يتطابق ، كما رأينا ، مع تفسير أخيها دانييل . سمعت ، في المذياع ، نبأ قصف باداجوز ، فأخذت في البكاء ، كمجدلية ، ردة فعل مثيرة للفضول ، ذلك أنها لم تضع قدميها قط في باداجوز ، وليس لها هناك اسرة ولا أملاك كان يمكن أن تتضرر من الغارات . سأل ريكاردو ريس ، لماذا تبكين يا ليديا ، ولكنها لم تعرف كيف تجيب ، لا شك في ان دانييل روى لها أشياء ، ولكن من الذي

أخبره ، ما هي مصادره ، ليس من الصعب أن يخمن المرء انه لا بد أن يناقش أناس أفونسو دوالبوكيرك ، وهم ينظفون سطح السفينة ويلمعون النحاس ، أمر حرب اسبانيا ، والمعلومات التي يتبادلها البحارة ليست ، دون شك ، الأخبار السيئة ، في معظم الوقت ، التي تشبعنا بها الصحف والإذاعات .

لا يوجد ، احتمالاً ، إلا على ظهر افونسو دو البوكيرك ، من لا يصدق الى هذا الحد وعد الجنرال مولا ، أحد أعضاء عصابة القاتل فرنكو ، الذي صرخ مؤخراً بأنه سوف يسمع من راديو مدريد قبل نهاية الشهر ، أما الآخر ، الجنرال كييبودولانو ، فهو يعلن فعلاً بداية نهاية حكومة مدريد ، لم تلزم انتفاضتنا ثلاثة اسابيع لتبلغ هدفها . رد دانييل البحار ، هذا ما يقولونه هم . وفي هذه الأثناء ، يساعد ريكاردو ريس ، بحنانه الآخرق ، ليديا على تجفيف دموعها ، دون أن ينقطع عن المحاكمة ، ردد لها ، ليحاول اقناعها ، الأخبار التي قرأها وسمعها . ها أنت تبكين من أجل باداجوز ، ولا تعلمين ان الشيوعيين قطعوا اذناً من كل واحد من مائة وعشرة ملاكين ، قبل أن يخضعوا نساءهم لضروب عنف ، أوه لنكون أكثر دقة ، هتكوا أعراضهن . كيف علمت ذلك . قرأته في الصحف ، وقرأت أيضاً أن البلاشفة اقتلعوا عيني كاهن مسن ، ثم صبوا عليه النفط وأحرقه ، توميه فييرا ، وهو صحفي ألف كتباً عديدة ، هو الذي يؤكد ذلك . لا أصدقه . هذا مكتوب في الجريدة ، لقد قرأته . لا أشكك في كلامك يا سيدي الدكتور ، ولكن أخي يقول إنه لا ينبغي أن نصدق دائماً ما ترويه الصحف . لا استطيع مع ذلك أن اذهب الى اسبانيا لأتحقق عياناً بما يجري فيها ، يجب حقاً ان أصدق ما يقال لي ، الجريدة لا تستطيع أن تكذب ، سيكون ذلك أكبر خطيئة في العالم . أنت متعلم ، يا سيدي الدكتور ، وأنا أمية تقريباً ، ولكنني اعلم شيئاً ، هو أن

هناك عدة حقائق ، وانها كلها متعارضة في كل شيء فيما بينها ، وانه لا يمكن ، وهي لا تتصارع مع بعضها ، ان نعرف في أي جانب توجد الأكذوبة . واذا كانوا قد اقتلعوا عيني الخوري ، وصبوا عليه النفط ، واحرقوه ، فسوف يكون ذلك شيئاً رهيباً ، ولكن أخي يقول إنه لو كانت الكنيسة الى جانب الفقراء ، ولو كانت تساعدهم على الاحتفاظ بأراضيهم ، لأعطى الفقراء حياتهم من أجلها ، من أجل تجنيبها الجحيم الذي وقعت فيه . لو كانوا حقاً قد قطعوا آذان الملاكين واغتصبوا نساءهم ، فسوف تكون هذه حقيقة اخرى مخيفة ، ولكن أخي يقول إن الفقراء هم على هذه الأرض من أجل أن يعانوا ، إما بالنسبة للأغنياء ، فإنه الفردوس . تردين علي دائماً بكلمات أخيك . والسيد الدكتور لا يتحدث الا بكلمات الصحف . هذا ما وصلنا إليه . في فونشال ، وفي مناطق اخرى من الجزيرة ، سلسلة فتن ، حدثت هجمات على مراكز الضرائب ومصانع الزبدة ، أحصي عدد الموتى والجرحى ، ويجب أن يكون الأمر خطيراً ، على اعتبار أنه قد أرسلت الى هناك سفينتان حربيتان ، والطيران ، وفرق قناصة مجهزة بالرشاشات ، عتاد معركة كامل كان يمكن أن يكفي الى حد بعيد لحرب أهلية على الطريقة البرتغالية . لم ينجح ريكاردو ريس في فهم الدوافع الحقيقية للعصيان الشعبي ، وهو ما لا يجب أن يفاجيء أحداً ، وأن يكون هو أقل من يفاجأ ، فليس لديه معلومة اخرى خلاف معلومة الصحف . اشعل بيلوت العاجي ، ربما تستحق الكلمات المسموعة ثقة اكبر ، من المؤسف أنه لا يمكن أن يرى رأس المتحدث ، نظرة تتردد ، خد يتشنج ، وعلى الفور نعلم ما اذا كان يقول الصدق أو ما اذا كان يكذب ، بمجرد أن تضع البراعة البشرية تحت عيوننا وجه الذي يكلمنا ، نستطيع أن نميز الحقيقة عن الأكذوبة ، سيكون زمن العدالة قد جاء أخيراً . أشعل البيلوت ، كانت ابرة الإطار على راديو كلوب البرتغالي ،

في حين كانت الصمامات تسخن ، اسند جبينه المتعب على الجهاز ، رائحة حارة ، عنيدة ، تصعد من الداخل وتلهيه ، تبين فجأة أنه لم يمس زر حجم الصوت ، عند ذلك اداره بشدة ، لم يدرك أولاً سوى أزيز التردد ، وقع ، وكانت تلك مصادفة خالصة ، على استراحة ، سرعان ما قطعتها موسيقى ونشيد منتصرين ، وجه نحو الشمس والقميص الجديد ، إنه نشيد الكتائب الذي يسحر الجالية الاسبانية في الاستوريس وفندق براغانسا ، في الوقت الحاضر ، هناك في الكازينو التدريب الآخير على النويته بوبراتا التي سيقدمها اريكوبراغا ، الزبائن يتأملون ، في صالة الفندق ، بنظرة مرتابة المرآة المخضرة ، في حين كانت مذيعة راديو كلوب تقرأ البرقية التي ارسلها جنود برتغاليون سابقون من سرية ترسيو الخامسة ، نحييكم أيها الرفاق الذين تحاصرون باداجوز ، وتسري رعشة لهذه الكلمات التي تذكر باللغة الحربية ، بالخشوع الغربي ـ المسيحي ، بأخوة السلاح ، التذكير بالوقائع الماضية ، الأمل في مستقبل مشرق للوطنيين الايبريين المتحدين في مثل أعلى قومي واحد . أطفأ ريكاردو ريس البيلوت بعد أن سمع آخر خبر في النشرة ، ثلاثة آلاف جندي من مراكش نزلوا في الجيزيراس ، وذهب ليتمدد على السرير ، يائساً لشعوره بهذه الوحدة ، لا يفكر في مرساندا ، بل في ليديا ، الأقرب دون شك ، نظرياً مع ذلك ، لأنه لا هاتف حيث هي موجودة ، وحتى لو كان هناك هاتف ، فسوف يثير فضيحة كبيرة اذا هتف للفندق ليقول ، مساء الخير يا سيد سلفادور ، هنا الدكتور ريكاردو ريس ، هل تتذكرني ، لم اسمع صوتك منذ زمن طويل ، هيا اذن ، الأسابيع التي قضيتها في فندقكم كانت من أجملها ، كلا ، كلا ، لا أريد غرفة ، أود فقط التحدث الى ليديا ، سؤالها عما إذا كانت تستطيع المرور ببيتي ، سيكون لطفاً كبيراً منك لو منحتها ساعة أو ساعتين ، أحس بقدر كبير من الوحدة ، كلا يا

سيدي ، ليس الأمر كما تظن ، بل أني ببساطة أحس بنفسي وحيداً جداً . نهض ، جمع صفحات الجريدة المبعثرة على الأرضية ، فوق السرير ، ورقة هنا ، أخرى هناك ، مرّ بعينيه فوق اعلانات الملاهي ، ولكن لا شيء يأتي ليثير خياله ، يود في هذه اللحظة أن يكون أعمى ، أصم أبكم ، ان يكون ثلاث مرات المعاق الذي هو نحن ، على ما يقول فرناندو بيسوا ، عندما وقع ، في وسط أخبار اسبانيا ، على صورة كانت قد فاتته ، صورة دبابات الجيش المتمرد الهجومية التي الصقت عليها صورة القلب الأقدس ، اذا كان هذا شعارهم ، فهذه الحرب ، ويجب أن لا نعود نشك في ذلك ، ستكون دون رحمة . تذكر أن ليديا حامل بصبي صغير ، وهو ما لا تنقطع عن تكراره ، سيكبر ويذهب لخوض الحروب التي تحضر من قبل ، مازال أصغر مما ينبغي لحروب اليوم ، ولكن أخرى ستأتي ، هناك دائماً ، وستكرر ذلك ، مستقبل للحرب القادمة . فلنرَ ، سوف يأتي الى العالم في آذار من السنة القادمة ، اذا أضفنا ثلاثة وعشرين ، أو أربعة وعشرين عاماً ، وهو العمر التقريبي للذهاب الى الحرب ، فما هي حرب عام ألف وتسعمائة وواحد وستين ، أين ستقع ، في أية سهول مقفرة ولماذا ، ريكاردو ريس يراه ، بعيني خيال ليس خياله ، مخترقاً برصاصات ، اسمر وشاحباً كأبيه ، صبي صغير لأمه ، مولود من أب مجهول .

استسلمت باداجوز . سرية ترسيو التي حفزتها الحماسة التي نقلها إليها جنودها الأجانب البرتغاليين القدامى أبدعت ، في القتال البعيد كما في معارك الالتحام ، ودون أن ننسى التأثير المفيد لهواء الوطن القريب جداً ، برز الجنود الأجانب البرتغاليون من الجيل الجيد بشكل خاص ، أرادوا أن يظهروا جديرين بأسلافهم . باداجوز استسلمت . استسلمت بعد أن حولتها الغارات المتعاقبة الى غبار ، وتحطمت سيوفها وتثلمت مناجلها ، وتكسرت

هراواتها وعصيها . جاءت ساعة تصفية الحسابات ، كما صرح الجنرال مولا ، فتحت أبواب حلبة مصارعة الثيران لإدخال أفراد الميليشيات الأسرى ، ثم أغلقت ثانية على الاحتفال ، دوت الرشاشات ، أوليه ، أوليه ، لم يسمع قط صراخ بهذه القوة في حلبة بادا جوز ، الثيران الصغيرة التي ترتدي الكاكي تساقطت على بعضها ، مازجة بين دمائها وعروقها ، وعندما لن يبقى واحد واقفاً على قدميه ، فسوف يجهز القتلة بالمسدسات على الذين لم يكونوا سوى جرحى ، لن يفلت من رحمتهم الا الذي يكون قد دفن حياً . ريكاردو ريس لم يعرف أكثر مما نشرته الصحف البرتغالية ، بل ان احداها زينت الخبر بصورة للحلبة كانت ترى عليها أجساد مبعثرة وعربة ، نابية في مثل هذا المكان ، أكانت تستخدم لجلب الأجساد أم لأخذها ، وأية أجساد ، أجساد الثيران أم الناس ، معرفة ذلك لم تكن ممكنة . ريكاردو ريس ، عرف الباقي من ليديا التي كانت هي نفسها قد عرفت من أخيها الذي علم من مصدر غير معروف ، من رسول للمستقبل الذي ربما سينكشف كل شيء فيه أخيراً . قالت ليديا التي لم تعد تبكي ، قتلوا منهم ألفين ، كانت عيناها جافتين ، وشفتاها مرتجفتين ، ووجنتاها ملتهبتين . بدأ ريكاردو ريس حركة تعزية ، أراد أن يأخذ ذراعها كما في اليوم الأول ، ولكنها تملصت ، لم يكن ذلك عن ضغينة ، ولكنها لن تستطيع أن تتحمل ذلك اليوم . فيما بعد انبثقت الدموع ، وهي تغسل الآنية المتراكمة ، وللمرة الأولى تساءلت عما جاءت تفعل في هذا البيت ، خادمة السيد الدكتور ، بالتأكيد ، خادمته وليست عشيقته ، في هذه الكلمات ، عشيقة ، عشيق ، ذكر أو أنثى ، هذا غير مهم ، هناك مساواة ، وهما ليسا متساويين ، وهي لم تعد تعرف ، اذن ، اذا كانت تبكي موت باداجوز أم تبكي موتها هي ، الذي هو عدم كونها شيئاً . كان ريكاردو ريس ، في مكتبه ، في آخر الشقة ، يجهل ما يحدث ، ومن

أجل تجنب التفكير في الألفي جثة ، اذا صح ما قالته ليديا ، وهذا كثير حقاً ، فتح مرة اخرى «إله المتاهة» الذي كان يتأهب لاستئناف قراءته من حيث تركه ، ولكنه عاد الى البداية عندما تبين ان الكلمات لم تعد تذكر بشيء ، وانه نسي كل ما قرأه سابقاً . الجثة التي اكتشفها لاعب الشطرنج الأول كانت تحتل ، متصالبة الذراعين ، خانتي الملك والوزير والخانتين التاليتين ، من معسكر الخصم ، عندما وصل الى هذا المقطع ، انفصل انتباهه مرة اخرى عما يقرؤه ، على رقعة الشطرنج ، السهل المقفر ، يرى الشاب الذي كان شاباً مفتوح الذراعين ، ثم ترتسم دائرة في المربع الشاسع ، على الرمل ، تبدو الأجساد مصلوبة في الأرض نفسها ، القلب الأقدس يمضي من الواحد الى الآخر ليتأكد من أنه لم يبق هناك جرحى . عندما دخلت ليديا الى المكتب ، بعد ان انتهت من أعمالها المنزلية ، كان الكتاب مغلقاً فوق ركبتي ريكاردو ريس الذي بدا نائماً . كانت له ، وهو مستسلم على هذا النحو ، هيئة عجوز . نظرت إليه كما لو كان غريباً ، ثم خرجت دون ضجة . قالت لنفسها وهي تبتعد ، لن أعود أبداً ، ولكنها لم تكن واثقة من ذلك أبداً .

في تطوان التي وصل إليها الجنرال ميلان داستراي ، كانت الحرب بلا هوادة ، بلا توقف ، كانت حرب إبادة ضد الفيروس الماركسي ، إلا أنه كان يجب احترام القواعد الإنسانية كما حددت مؤخراً في النداء الجديد للجنرال فرنكو ، لم أرد بعد أخذ مدريد لأني لا أريد التضحية بالقسم البريء من السكان ، يا له من كرم ، لم يتصرف من جانبه مثل هيرودس الذي أمر بذبح كل الأطفال الصغار ، إنه ينتظر ان يكبروا ، عن أجل لا يتحمل ضميره هذا الوزر ، وكي لا يزحم السماء بحشد من الملائكة . الاعتقاد بأن الرياح التي كانت تهب من اسبانيا يمكن أن تبقى دون تأثير على البرتغال كان اعتقاداً طوباوياً . طرحت الرهانات ، الأوراق فوق المائدة ، اللعبة واضحة ، أتت

ساعة معرفة من معنا ومن ضدنا ، سوف يجبر العدو على أن يكشف نفسه ، الى أن يفضح ذاته ، وسوف نعرف تماماً كيف نتعرف على الذين لجؤوا إلى ظل أعلامنا . عن محاكاة أوجبن ، عن طموح ملتهم ، أو عن خوف من أن يفقدوا القليل الذي يملكونه . في هذا السياق ، دون شك ، أعلنت النقابات الوطنية عن اللقاء المقبل ضد الشيوعية ، وما أن اذيع النبأ ، حتى اجتازت رعشة الساعات الوطنية الكبرى الجسد الاجتماعي بكامله ، بدأ نشر القوائم التي وقعتها الروابط الوطنية ، وبصفة فردية ، أو بتجمعات تحت راية لجان ، طلبت السيدات الرئيسات بطاقات ، ومن أجل تشجيع الحماسات وتحضير الأذهان ، نظمت بعض النقابات اجتماعات ، وتلك كانت هي الحال مع الموظفين والخبازين والعاملين في الصناعة الفندقية ، على الصور ، كان الحضور يحيون مرفوعي السواعد ، وكل يتدرب جيداً على دوره ، في انتظار المساء الكبير . وفي كل من هذه الاجتماعات ، كان يقرأ بيان النقابات الوطنية ويصفق له ، هذا البيان الذي كان اعلاناً ملتهباً عن الإيمان بالعقيدة والثقة بمصائر الأمة ، وهو ما تثبته المقتطفات القليلة التالية التي اختيرت عشوائياً ، النقابات الوطنية ترفض الشيوعية رفضاً جذرياً وقوياً ، العمال الوطنيون ـ النقابيون برتغاليون ولاتينيون ـ مسيحيون جذرياً ، النقابات الوطنية تطلب الى سالازار ، الأدوية الكبيرة للأمراض الكبيرة ، النقابات الوطنية تعرف أن المبادرة الخاصة والاقتناء الفردي للممتلكات ، بقدر ما تحترم الحدود التي تعينها العدالة الاجتماعية ، يشكلان اساس كل تنظيم اجتماعي واقتصادي وسياسي . ولأن النضال مشترك والعدو مشترك ، جاء الاسبان الى راديو كلوب البرتغالي وهنؤوا أنفسهم ، متوجهين الى الشعب بكامله ، بانضمام البرتغال العام والكثيف الى الحملة الصليبية من أجل التكفير ، وهذه حقاً أكذوبة تاريخية ، فكل العالم يعرف فعلاً ان البرتغاليين

انخرطوا في هذه الحملة الصليبية منذ سنين عديدة ، وأخيراً ، فإن الاسبان هم هكذا ، يجب أن يتدخلوا في كل شيء ، يجب وضعهم تحت الرقابة دائماً .

لم يحضر ريكاردو ريس اجتماعاً سياسياً قط . ولا شك في أن خصوصية مزاجه ، والتربية التي تلقاها ، وميوله الكلاسيكية ، وشيئاً من الخفر أيضاً ، كانت أصل هذا الجهل المنمى طوعاً ، ولكن التفسير يخمن بسهولة بالنسبة لمن يعرف اشعاره . الا أن هياج الأمة والحرب الأهلية التي تدور لدى الجيران ، وربما أيضاً غرابة المكان الذي يجب أن يجتمع فيه المتظاهرون ، حلبة كامبوبيكينو ، أيضاً ؛ ايقظت دون شك في ذهنه وميض فضول غامضاً ، كيف تجري الأمور عندما يجتمع ألوف الأشخاص ليستمعوا الى خطابات ، ما هي الجمل ، ما هي الكلمات التي يصفقون لها ، متى ، ولماذا ، وما هي قناعة أولئك وهؤلاء ، الذين يتكلمون والذين يستمعون ، ما هي تعبيرات الوجوه ، ما هي الحركات ، في مثل هذه التغيرات في المواقف ، ما يفاجىء بالنسبة لإنسان قليل الفضول بطبيعته . ذهب مبكراً ليحصل على مكان ، بل أخذ سيارة تاكسي للوصول بصورة اسرع . الليل حار في نهاية آب هذه . مرت تراموايات خاصة ، مليئة ، في الداخل ، الناس يتحدثون ودياً الى الذين يمضون مشياً ، بعض النفوس القومية المتحمسة تحمساً خاصاً تصرخ ، تعيش الدولة الجديدة ، النقابات هنا مع راياتها ، وبما أنه ليس هناك كثير من الريح ، فإن حَمَلَتَها مرغمون على التلويح بها لنشر الألوان والرموز ، مجموعة شعارات نقابية ماتزال مشوبة بتقاليد جمهورية ، وراءها تأتي الهيئات الحرفية ، المهن ، الفنون ، اذا استعلمنا لغة حرفيي الماضي . وجد ريكاردو ريس ، عندما دخل الى الحلبة ، نفسه في ذلك الموكب ، وسط موظفي مصرف لفّوا على سواعدهم

عصابات زرقاء عليها صليب المسيح ، والحروف الأولى من أسماء مصارفهم ، خاصة الوطنية الرئيسية هي غفران المبالغات وجهل التناقضات ، لاسيما تناقض موظفي المصرف الذين اختاروا كعلامة تعارف صليب الذي طرد في الماضي الباعة والصرافين من الهيكل ، أوائل براعم هذه الشجرة ، الأزهار الأولى لهذه الثمرة ، من حسن حظهم أن المسيح ليس مثل ذئب الحكاية الذي كان يضحي ، مجازفاً بالضلال ، بحملان وديعة بإظهارها بوصفها الخرفان الصلبة التي لن يفوتها أن تصير إليها أو ، وهو أفضل أيضاً ، بوصفها آباءها . كل شيء كان أبسط في الماضي عندما كان في إمكان أي واحد أن يصبح إلهاً ، اليوم نمضي وقتنا في التساؤل عما اذا كانت المياه قد خرجت موحلة من النبع أم ما اذا كانت تيارات غريبة هي التي عكرتها .

اكتظت الحلبة سريعاً بالناس ، كان ريكاردو ريس قد نجح في ايجاد مكان جيد على الدكات المعرضة بصورة طبيعية للشمس ، ولكن لا أهمية لذلك في هذا المساء ، فالظل والليل كانا يسودان كل مكان ، الموقع الذي جلس فيه كان يمتاز بأنه لم يكن بعيداً عن منبر الخطباء ، وهو ما كان يسمح بتمييز وجوههم ، مع المحافظة على رؤية إجمالية طريفة . كان مداً غير منقطع من الرايات والنقابات ، واذا كانت هذه الأخيرة وطنية ، فليست هذه هي الحال مع الأولى ، لأسباب واضحة ، فلا ضرورة فعلاً للمزايدة على الرمز الوطني السامي ، الجميع يعرفون اننا بين برتغاليين ، فلنقل دون ادعاء انهم ليسوا من أدناهم . الدكات مكتظة بالناس ، المكان الشاغر الوحيد يقع تحت ، على الرمل حيث وقف حَمَلة الرايات في كتلة وهكذا سوف يكونون مرئيين بشكل أفضل . كان تبادل التحية يجري بين معارف . الذين كانوا ، في الخارج ، قد صرخوا تعيش الدولة الجديدة ، والموجودون هنا بأعداد

كبيرة ، يمدون الذراع بشكل محموم ، ينهضون ويجلسون بلا انقطاع كلما وصل صاحب رتبة ، ها هم واقفون ، يحيون على الطريقة الرومانية ، فليغفر لنا هذا الالحاح ، الحاحنا والحاحهم ، فيريات وسرتوريوس ناضلا باستماتة لطرد القوات الامبراطورية خارج الوطن ، قوات الامبراطورية مبنية على القوة ، وليس على الحق ، كما أثبتت شهادة المحتلين بقوة ، ناضلوا اذن كما استطاعوا ، وهكذا تبعث روما تحت سمات سلالتهم ، شراء رجل هو ، دون شك ، أضمن طريقة للسيطرة ، ولكن هذا ليس ضرورياً دائماً ، يتفق لهم أن يقدموا أنفسهم بأنفسهم ، ومجاناً تماماً ، مقابل عصابة حول الساعد ، حق استخدام صليب المسيح . كانت فرقة موسيقية تعزف ، من محفوظاتها ، معزوفات بطولية لجعل الانتظار مقبولاً . أخيراً ، وصل الرسميون ، امتلأ المنبر ، إنه الهذيان . انصهرت النباحات الوطنية ، برتغال ، برتغال ، برتغال ، سالازار ، سالازار ، سالازار ، هذا الأخير لم يأت ، لا يظهر إلا عندما يحلو له ذلك ، في أمكنة وساعات يختارها بنفسه ، أما فيما يتعلق بالبرتغال ، فهي ، بالمقابل ، هنا ، وفضلاً عن ذلك ، أليست هي في كل مكان . ممثلو الفاشية الايطالية جلسوا ، عارضين قمصانهم السوداء وأوسمتهم ، في الأماكن المحجوزة ، على حساب أبناء الشعب ، في الجانب الأيمن من المنبر ، الى اليسار ، كان الممثلون النازيون بقمصانهم البنية وعصابات سواعدهم بالصلبان المعقوفة ، وكانوا جميعاً يمدون الذراع نحو الجمهور الذي كان يرد ، دون ان يخلو ذلك من بعض الخرق ، ولكن بنية حسنة كبيرة ، في حين وصل الكتائبيون الاسبان بقمصانهم ، الزرقاء الشهيرة ، ثلاثة ألوان مختلفة لمثل أعلى واحد . وقف الجمهور وقفة الرجل الواحد ، صعد الهتاف حتى السماء ، لغة الخوار العالمية ، بابل التي وحدتها ، أخيراً ، الحركة ، الألمان لا يعرفون البرتغالية ولا القشتالية ولا

الايطالية ، الاسبان لا يعْرفون الألمانية ولا الايطالية ولا البرتغالية ، وبالمقابل ، يعرف البرتغاليون القشتالية جيداً ، أوستد مقابل نحن ، كانتو فاليه من أجل الشراء ، غراسياس مقابل شكراً ، إلا أنه اذا كانت القلوب متوافقة ، فإن صرخة واحدة تكفي . الموت للبلشفية ، بكل اللغات . كان يصعب الحصول على الصمت ، الفرقة الموسيقية ختمت معزوفتها العسكرية بثلاث ضربات طبل قوية ، في حين كان يعلن عن الخطيب الأول ، العامل جيلبرتو اروتيا ، من ترسانة البحرية ، كيف نجحوا في إغوائه ، إنه سر بينه وبين اغرائه ، ثم جاء دور لويس بينتوكويلو ، ممثل الشبيبة البرتغالية ، ومنذ ذلك الحين شوهد هدف هذا الاجتماع يرتسم ، فقد أتى على المطالبة بخلق ميليشيات قومية ، ثالث الخطباء كان فرناندو هو ميم كريستو ، والرابع آبيل ميسكيتا من نقابات ستوبال الوطنية ، وكان الخامس انطونيو كاسترو فرناندز الذي سيكون عما قريب وزيراً ، وكان السادس ريكاردو دوران ، وهو رائد ، ولكنه عظيم في قناعاته ، وسيلقي بعد بضعة أسابيع ، في إيفورا ، وهذه المرة في حلبة أيضاً ، الخطاب نفسه . نحن مجتمعون هنا ، بمثل أعلى وطني لنقول لحكومة الأمة ونبين لها أننا حماة الحركة البرتغالية الكبرى ومكملوها ، ورثة كبارنا الذين أعطوا العالم عوالم جديدة ، ونشروا الإيمان والامبراطورية على صوت البوق أو ، بالأحرى ، في زعيق الأبواق ، بالضبط كما نحن موجودون اليوم ملتفين كرجل واحد حول سالازار ، هذا العبقري الذي كرّس حياته للوطن ، وأخيراً جاء السابع في ترتيب التعاقب ، ولكنه الأول فيما يتعلق بالأهمية السياسية ، النقيب جورج بوتيلو مونيز ، من راديو كلوب البرتغالي ، الذي قرأ التماساً يطالب الحكومة بخلق فرقة مدنية ، منذورة هي الأخرى ، مثل سالازار ، لمصلحة الأمة ، لأن أقل شيء يكن أن نفعله هو أن نساعده بقدر وسائلنا الضعيفة ، والمناسبة تبدو ولنا

ممتازة لنذكر هنا بمثل أغصان القضيب السبعة التي تتكسر ، فرادى ، بسهولة ، ولكنها تشكل ، مجتمعة حزمة ، أوفاشيو ، الكلمة المقاربة لها في اللفظ ، وهما كلمتان ليس لهما المعنى نفسه في القواميس ، من أدلى هذا التعليق ، إنه مجهول ، ولكننا نعرف جيداً من كرره ، الجمهور الذي سمع الحديث عن الفرقة المدنية ، وقف من جديد وقفة الرجل الواحد ، ذلك أن من يتحدث عن فرقة يتحدث عن زي موحد ، ومن يتحدث عن زي موحد يتحدث عن قميص ، يبقى اختيار اللون ، ولكن هنا ليس مكان مناقشة ذلك ، ومع ذلك واذا شاؤوا تجنب نعتهم بالقرود ، فيجب أن يستبعدوا الأسود والبني والأزرق ، أما بالنسبة للأبيض ، فهو يتسخ كثيراً ، الأصفر هو لون اليأس ، الأحمر ليس موضع بحث ، البنفسجي يذكر أكثر مما ينبغي بالمسيح حاملاً صليبه ، لا يبقى اذن سوى الأخضر ، الأخضر ، ولكن ذلك عظيم ، كما هتف شباب الموسيداد الفخورون الذين لم يعودوا يحلمون الا باليوم الذي سيستطيعون فيه أخيراً ارتداء الزي الموحد ، وصل الاجتماع ، وقد انجز مهمته ، الى نهايته . غادر الجمهور الحرم على الطريقة البرتغالية ، أي في نظام جيد ، مازالت بعض الهتافات تدوي ، ولكن النبرة انخفضت ، لف حملة الاعلام راياتهم بعناية ودسوها في غمود تحميها ، اطفئت كشافات الحلبة الرئيسية من قبل ، وتركت بعض الأضواء كي لا يضل المتظاهرون الطريق . في الخارج ، كانت التراموايات المستأجرة تمتلىء على مهل ، تشكلت صفوف انتظار أمام السيارات من أجل الذين يمضون الى مكان أبدع ، شعر ريكاردو ريس ، على الرغم من أنه بقي كل هذا الوقت في الهواء الحر ، والسماء وحدها فوق رأسه ، بالحاجة إلى التنفس ، الى الهواء . اجتاز الشارع ، مزدرياً سيارات التاكسي التي كانت تظهر وتهاجم على الفور ، فاذا كان قد شهد العيد فهو ليس جزءاً منه ، ومضى الى الرصيف

المقابل ، كما لو كان قادماً من مكان آخر ، كما لو كان ماراً من هنا بالصدفة ، لا يمكن صنع شيء ضد المصادفات ، كل واحد يعرف ذلك . اجتاز المدينة على قدميه ، لا شيء يذكر بالمسيرة الوطنية ، الترامواياات كانت تتبع دروباً اخرى ، سيارات التاكسي تغفو في الميادين . بين كامبو بيكينو والتودو سانتاكاتارينا هي تقريباً ، مسافة كبيرة بالنسبة لطبيب أقرب الى الحياة الحضرية . وصل الى بيته منهكاً ، تؤلمه قدماه ، فتح النافذة ليهوي جو الغرفة الخانق ، وعند ذلك تبين أنه لم يكن ، طيلة الطريق ، قد فكر فيما رآه وسمعه ، ومع ذلك كان من شأنه ان يقسم على العكس ، ولكنه عندما حاول جمع ذكرياته ، لم يخطر له ، أي تأمل ، أي تعليق ، الا فكرة ، كان الأمر كما لو أنه كان محمولاً على سحابة أو كما لو كان ، وهو نفسه سحابة ، قد اكتفى بالتحويم . كان يريد أن يتأمل ، أن يفكر ، أن يصوغ رأياً ، وكان غير قادر على ذلك ، كان مايزال يتذكر ويرى القمصان السوداء والبنية والزرقاء ، كان يستطيع تقريباً ان يلمسها بإصبعه ، ها هم الرجال الذين كانوا يدافعون عن الحضارة الغربية ، اليونانيون والرومان بالنسبة لي ، ماذا كان سيفعل دون ميغيل دو أونامونولو دعي إلى هذا المشهد ، كان سيقبل ، دون شك ، الدعوة ، وكان سيظهر للجمهور بين دوراو ومونيز ، ها أنا ، يا رجال البرتغال ، يا شعب المنتحرين ، انتم لا تهتفون يحيا الموت ، ولكنكم تعيشون معه ، ولا استطع ان أقول لكم المزيد ، أنا أضعف مما ينبغي بكثير ، واحتاج ، أنا أيضاً ، الى مساعدة ، تفحص ريكاردو ريس الليل العميق ، يمكن لمن يعرف فن قراءة السطور في التوجسات وحالات النفس أن يقول ، هناك شيء يحضر . كان الوقت متأخراً جداً حين أغلق ريكاردو ريس النافذة ، اقتصر تفكيره ، في نهاية الأمر ، على قرار ، لن اذهب بعد إلى الاجتماعات ، ثم ذهب ليفرشي سترته وسرواله ، واطلقت

حركاته رائحة بصل ، غير معقول ، كان يمكنه مع ذلك أن يقسم بأن فيكتور لم يقترب منه .

كانت الأيام التالية خصبة بالأحداث التي توصف عادة بأنها تاريخية ، كما لو كانت حركة العالم قد تسارعت منذ اجتماع كامبو بيكينو . اعلنت مجموعة امريكية شمالية للجنرال فرنكو بأنها مستعدة لتقديم الأموال اللازمة للثورة القومية الاسبانية ، يلاحظ هنا نفوذ جون د .روكفلر ، هو وحده من كان يمكن أن تخطر له هذه الفكرة بعد أن تكون النيويورك تايمس قد أعلمته بالعصيان العسكري في اسبانيا ، ذلك أنه لم يكن يمكن ، أخيراً ، الاستمرار في اخفاء كل شيء عنه ، وبعد اتخاذ كل الاحتياطات المعتادة ، من أجل عدم تحطيم قلب العجوز الهش ، توجب حقاً ، ان يطلعوه على عدد من الأشياء اذا كانوا يريدون تجنيبه أمراضاً أشد خطورة أيضاً . من جهة الغابة السوداء ، أعلن بعض الأساقفة الألمان أن الكنيسة الكاثوليكية والرايخ سيقاتلان جنباً الى جنب العدو المشترك ، أما فيما يتعلق بموسوليني الذي لم يكن يريد أن يبقى متخلفاً أمام كل هذه التجليات الحربية ، فقد اخبر العالم أنه كان يستطيع ، سريعاً جداً ، تعبئة ثمانية ملايين رجل ، معظمهم مازالوا متحمسين من جراء الانتصار على اثيوبيا ، هذا العدو الآخر للحضارة الغربية . أما عندنا ، كي نعود الى الوطن ، فبعد تدفق الترشيحات للموسيداد ، جاء الآن دور التسجيلات بالألوف في الفرقة البرتغالية ، هذا هو الاسم الذي سيعطى لها ، بل ان إدارة الهيئات نشرت برقية تهنىء فيها بتعابير تقريظية مسؤولي النقابات الوطنية الذين اتخذوا المبادرة الوطنية ، مبادرة تنظيم هذا الاجتماع ، البوتقة التي انصهرت فيها القلوب القومية . لن يستطيع شيء ، بعد من الآن فصاعداً ، إعاقة سير الدولة الجديدة . المقال كان يشير أيضاً الى زيارات السيد رئيس الوزراء الى المؤسسات

العسكرية ، ذهب أولاً الى مصنع براو دوبراتا للعتاد الحربي ، ثم الى مستودع الأسلحة في بيرولاس ، سوف نعلمكم عن تنقلاته المقبلة ، ولا شك في أن هذا هو السبب الذي يسميه بعضهم استيفيز بدلاً من سالازار* .

علم ريكاردو ريس ، بفضل الصحف ، سفر افونسو دو البوكيرك الى اليكانت التي ذهبت اليها لاستعادة لاجئين ، وهذا الاكتشاف أحزنه ، الا تربطه صلته العاطفية بليديا مباشرة بتنقلات هذه السفينة ، مع ذلك فإن ليديا لم تقل له شيئاً عن المهمة الانسانية لأخيها البحّار . وفضلاً عن ذلك ، فإنها لم تعد ، الغسيل الوسخ يتراكم ، الغبار يتوضع على مهل فوق الأثاث والأشياء ، الأشياء تفقد تدريجياً ، كما لو ملت العيش ، حدودها ، ما لم تكن العينان قد تعبتا من رؤيتها . لم يشعر ريكاردو ريس قط بهذه الوحدة . كان ينام النهار بكامله في السرير المنبوش أو على أريكة المكتب ، بل اتفق له أن نام ذات مرة في المرحاض ، ولكنه استيقظ فزعاً لأنه حلم بأنه كان يمكن أن يموت هناك مشوش الهندام ، الميت الذي لا يحترم نفسه لا يستحق كونه قد عاش . كتب رسالة الى مرساندا ، مزقها . كانت رسالة طويلة جداً من عدة صفحات ، نصب تذكاري لذاكرة حية كان ينضج فيها ، منذ آخر ليلة له في الفندق ، اركيولوجيا كاملة للذكرى ، وكتبها دون جهد ، أطلق الريشة ، إلا أنه لم يعرف ، عندما وصل الى اليوم الأخير ، ماذا يضيف ، هل أطلب ، يجب أن لا أفعل ذلك ، هل أعطي ، ليس لدي شيء ، عند ذلك جمع كل الأوراق ، صفها الى جانب بعضها ، نشر الزوايا التي كان قد قرّنها ، ثم أخذ يمزقها منهجياً الى أن جعل منها قطعاً صغيرة كان من الصعب أن يقرأ عليها أدنى كلمة كاملة . لم يلق بها في السلة ،

* لأسباب أمنية ، كانت صحف الفترة السالازارية ، تستعمل صيغة الماضي دائماً لتشير الى تنقلات سالازار . من أجل ذلك حولت النكتة الشعبية سالازار الى استيفيز ر « كان » الذي هو اسم برتغالي أيضاً .

يجب أن أجنبها هذه المهانة الأخيرة ، هذا ما فكر فيه ، ولكنه خرج في الليل الأسود ، كان الشارع بكامله نائماً ، عند ذلك ، مضى يلقي بمطر قِطع أوراقه الصغيرة من فوق سياج الحديقة ، مهرجان حزين ، نسيم الفجر جرها بعيداً ، ولكنها لن تصل حتى كوامبرا . بعد يومين ، اعاد نسخ قصيدته على ورقة ، أحن إلى هذا الصيف الذي أراه ، مع علمه بأن هذه الحقيقة الأولى كانت قد أصبحت في هذه الأثناء أكذوبة ، ذلك أنه لا يحس بأي حنين ، لا يكاد أن يحس الا بنعاس لا نهاية له ، لو كان يستطيع اليوم أن يكتب ، فإنه سيكتب ما يلي ، كنت أحن ، وأبقى أحن إلى الزمن الذي كنت أعرف فيه ما هو الحنين . كتب على المغلف اسم مرساندا سامبايو وسجل عنوان البريد المركزي في كوامبرا ، بعد بضعة أشهر ، اذا لم تأت المرسل إليها لاستلامها ، فسوف تنتهي الى النفاية ، واذا أوصلها الى مكتب الدكتور سامبايو الموظف ذو الحمية والضمير الذي سبق أن تحدثنا عنه ، وهناك كل المبررات للتخوف من ذلك ، فربما سيكون الأمر بسيطاً جداً ، سوف يفتحها الدكتور سامبايو ، وهذا حقه ، وسوف يقول لابنته عندما يعود الى البيت ، يبدو أن لك معجباً مجهولاً ، وستقرأ مرساندا القصيدة مبتسمة ، لن تفكر في أية لحظة بريكاردو ريس ، وفضلاً عن ذلك ، لم يقل لها قط أنه شاعر ، الخطان يتشابهان قليلاً ، ولكن هذه لست الا مصادفة .

كانت ليديا قد قالت ، لن أعود ، وها هي تقرع الباب . لديها مفتاح الشقة في جيبها ، ولكنها ، بسبب هاجس ، لاتستعمله ، لم يبق سوى أن تدخل المفتاح في قفل ما لم يكن قط بيتها ، وهو أقل من ذلك الآن ، اذا كانت هذه الكلمة تقبل اختزالاً ، وأخيراً ، فإننا سنتظاهر بأنها تقبل مادمنا نحن أيضاً نجهل مصير الكلمات ، ذهب ريكاردو ريس ليفتح ، أخفى دهشته ، ولما كان يبدو على ليديا أنها كانت مترددة ، تتساءل ما اذا كان يجب أن تذهب الى الغرفة أم الى المطبخ ، فقد قرر أن يمضي الى مكتبه ، ولم يكن عليها سوى أن تتبعه . كانت عينا ليديا حمراوين ومنتفختين ، ربما قررت في نهاية الأمر أن تجهض بعد معركة طويلة مع حبها الأمي الوليد ، ذلك أنه لا يبدو على هيئتها أن سقوط ايرون أو حصار سان سيباستيان هما اللذان أمكنهما التسبب في مثل هذا الحزن ، قالت ، سامحني ، يا سيدي الدكتور ، لم استطع ان آتي قبل ذلك ، ثم تمالكت نفسها دون أية لحظة انتقالية تقريباً ، ليس هذا هو السبب ، كنت أظن أنك لم تعد في حاجة الي ، تمالكت نفسها من جديد ، مللت من هذه الحياة ، ثم انتظرت ، نظرت ، لأول مرة ، الى ريكاردو ريس وجهاً لوجه ، رأت أنه كبر ، ربما كان

مريضاً . قال ، لقد اشتقت إليك ، ثم سكت ، لقد قال كل ما كان عليه أن يقوله . خطت ليديا خطوتين نحو الباب ، هل ستذهب الى الغرفة لترتيب السرير ، إلى المطبخ لتغسل الآنية ، الى غرفة الغسيل لنقع البياض ، ولكن هذا ليس ما جاءت من أجله ، ستفعله بالتأكيد ، ولكن فيما بعد . فهم ريكاردو ريس ان أسبابها مختلفة ، عند ذلك سأل ، لماذا لا تجلسين ، ثم ، قصي علي ما يجري ، عند ذلك أخذت تبكي بصوت منخفض جداً . سأل ، أهذا بسبب الطفل ، ولكنها أشارت نفياً ، بل وألقت عليه وسط دموعها نظرة لوم ، وأخيراً قالت وهي لم تعد تستطيع الصمود ، أن ذلك بسبب أخي . مرفأ اليكانت الذي مازال بين أيد الاسبان هو الذي يجب أن يبحر إليه الافونسو دو البوكيرك ، أجري الحساب ، اثنان واثنان أربعة ، هل هرب أخوك ، هل بقي في اسبانيا . أخي عاد مع السفن . ماذا إذن . ستقع مصيبة ، مصيبة . ولكني أخيراً لا أفهم عن أي شيء تتكلمين ، فسّري أقوالك بوضوح . ذلك لأن ، وتوقفت لتمسح دموعها وتتمخط ، ذلك أن السفن سوف تتمرد ، سوف تمضي نحو عرض البحر . من قال لك ذلك . دانييل ، إنه سر ، ولكني لا أتوصل إلى الاحتفاظ بهذا العبء لي وحدي ، كان يجب أن أفضي بما في قلبي لأحدهم ، وفكرت فيك ، يا سيدي الدكتور ، بمن أفكر سواك ، ليس لدي أحد ، أمي ، لا يستحق التفكير فيها العناء . دهش ريكاردو لأنه لم يحس بأي شعور ، ربما كان هذا هو القدر ، معرفة ما يجب أن يحدث ، معرفة ان لا شيء يمكن منعه ، والبقاء هادئاً ، مجرد مراقب مشهد العالم ، مع معرفتنا بأن تلك ستكون دون شك نظرتنا الأخيرة ، لأننا سوف نزول نحن أيضاً مع هذا العالم الذي يموت ، سأل ، هل أنت واثقة من ذلك ، ولكن ذلك لم يكن سوى مجرد ارتكاس ، الارتكاس الذي يعيد الى الوراء ، يجعلنا نندم ، نحن الجبناء أمام القدر . أومأت برأسها إيجاباً ، دامعة ، منتظرة

اسئلة دقيقة ، من تلك التي يمكن الاجابة عنها مباشرة بنعم أو بلا ، وهي مهارة تتجاوز القدرات البشرية تجاوزاً واسعاً ، ولذلك ، حين لا تتوفر هذه الاجابات ، يمكن دائماً التساؤل ، لأي هدف ، إنهم لا يظنون مع ذلك أن الخروج الى عرض البحر سيكفيهم لإسقاط الحكومة . خطتهم هي أن يذهبوا إلى انغرا دو هيرويسمو لتحرير السجناء السياسيين واحتلال الجزيرة ثم انتظار العصيانات التي ستحدث هنا . ولكن هذا جنون ، بل أنهم لن يستطيعوا حتى أن يغادروا أول المرفأ . هذا ما قلته لأخي ، ولكنهم لا يصغون الى أحد . متى سيكون ذلك . لا أعلم ، لم يقل لي ، أحد هذه الأيام المقبلة على ما أعتقد . والسفن ، أية سفن . الأفونسودو البوكيرك ، الداو والبرتولوميو دياس . هذا جنون ، كرر ريكاردو ريس الذي لم يعد يفكر فعلاً بالمؤامرة التي كشفت له بهذه السذاجة . رأى من جديد أول يوم من وصوله الى ليشبونة ، كاسحات الألغام في الحوض ، أعلامها المبللة كأسمال ، غواطسها الميتة بلون الرماد ، كان العتال قد قال له ، الداو هي تلك التي تراها هناك ، قريبة ، والداو المتمردة سوف تبحر عما قريب ، فاجأ ريكادرو ريس نفسه يوحي بضربة كبرى ، كما لو كان هو نفسه في مقدمة السفينة ويتلقى في وجهه الريح المالحة ، الزبد المر . كرر ، هذا جنون ، ولكن صوته كان يكذّب أقواله ، هناك في نبرته ما يشبه الأمل ، مجرد وهم ، سيكون هذا فعلاً بالغ العبث ، هذا الأمل لا يمكن أن يكون أمله . أخيراً ، ربما سينتهي الأمر الى التدبر ، يمكن أن يتخلوا عن المشروع ، واذا تمسكوا به ، فربما وصلوا الى انغرا ، سوف نرى جيداً ما سوف يحدث ، على كل حال ، كفي عن البكاء ، الدموع لن تفيد شيئاً ، سوف يغيّرون رأيهم دون شك . بالتأكيد لن يفعلوا ، أنت لا تعرفهم يا سيدي الدكتور ، أنا واثقة ، بقدر ما هو صحيح أن اسمي ليديا ، من أنهم لن يغيروا رأيهم . تلفظ

ليديا باسمها ردها الى واقع المهمات التي يجب إنجازها ، لا أستطيع الترتيب اليوم ، يجب أن أركض الى الفندق ، جئت فقط لأفتح قلبي قليلاً ، ربما لم يلاحظوا غيابي ، ألا أستطيع أن أفعل شيئاً لمساعدتك . إنهم هم الذين سوف يحتاجون الى مساعدة ، مع كل النهر الذي يجب أن يجتازوه قبل أن يصلوا الى البحر ، ولكني أرجوك ، باسم أغلى ما لديك ، لا تقل كلمة لأي كان ، احتفظ بهذا السر الذي لم أستطع كتمانه . اطمئني ، لن أفتح فمي . فمه لا ينفتح ولكن شفتيه انفرجتا من أجل قبلة تعزية ، أنت ليديا ، بسبب حزنها بالتأكيد ، على الرغم من أنه يمكن تفسير هذه الأنة بصورة مختلفة ، هكذا هم البشر ، يتفق لهم أن يحسوا بكل شيء في الوقت نفسه . نزلت ليديا الدرج ، وتبعها ريكاردو ريس ، على عكس عادته ، حتى المنبسط ، رفعت رأسها ، وجه إليها إشارة ، ابتسما لبعضهما ، لحظة كاملة ، كالتي تمنحها لنا الحياة أحياناً ، صفحة مكتوبة تعود فجأة بيضاء .

عندما خرج ريكاردو ريس في الغد من أجل تناول الغداء ، توقف في الحديقة لينظر الى بعيد ، تجاه التيريرو دوباسو ، الى السفن الحربية . لم يكن بصورة عامة يفهم شيئاً في السفن ، ما يكاد أن يعرف أن السميريات أضخم من كاسحات الألغام ، ولكنها تتشابه كلها من هذه المسافة ، وكان هذا الأمر يغيظه ، لأنه إذا كان يعرف أنه عاجز عن التمييز بين الأفونسو دو البوكيرك والبرتو لوميودياس التي لم يكن قد رآها قط ، فإنه كان ، بالمقابل ، يعرف الداو منذ أول يوم من وصوله الى البرتغال ، قال له العتّال ، إنها تلك ، والأقوال التي حملتها الريح قد ضاعت . ليديا حلمت دون شك ، أو أن أخاها سخر منها ، بموجب قصته غير المعقولة عن المؤامرة والتمرد ، يفترض بثلاث من هذه السفن المربوطة بعواماتها أن تبحر ، وها هي هادئة تحت النسيم ، وسط الفرقاطات ، كانت

كاسيليروس* تروح وتغدو ، ونوارس في السماء المكشوفة ، والشمس التي تلمع هنا كما على النهر ، البحار دانييل على صواب في نهاية الأمر ، الشاعر قادر على الإحساس بالقلق الذي يسود هذه المياه . متى ستمضي . قالت ليديا ، في واحد من هذه الأيام ، قلق عنيد يضغط على حنجرة ريكاردو ريس ، الدموع تعكر رؤيته ، حزن أداماستور بدأ هكذا . كان يتهيأ للذهاب عندما سمع أصواتاً مستثارة ، كان العجوزان يصرخان هناك ، هناك ، كانت أصوات أخرى تتساءل ، أين ، ماذا ، في حين أن الغلمان الذين كانوا يلعبون بالنطة تجمدوا ليصرخوا ، المنطاد ، المنطاد ، مسح ريكاردو ريس عينيه بظاهر يده ، ظهر منطاد ضخم من الضفة الأخرى ، يجب أن يكون الغراف زيبلين أو الهندنبورغو جاء ليلقي ببريده الى أمريكا الجنوبية . الصليب المعقوف الأبيض والأحمر والأسود على مقوده يشبه إحدى هذه الطائرات الورقية التي يطلقها الأطفال في السماء ، شعار ضاع معناه الأصلي ، تهديد يحوم وليس بعد نجماً يصعد ، بين البشر والعلامات ، تعقد علاقات ، إنها القديس فرانسوا داسيز مربوطاً بالدم الى صليب المسيح ، إنها ، خلال الاجتماع ، الصليب على سواعد موظفي المصرف ، أمام مثل هذا الاختلاط في الحواس ، يعجب المرء لعدم إحساسه بالمزيد من الضياع ، ولكن ربما نحن كذلك فعلاً ، وأن هذا الضياع يروق لنا . الهندنبورغو طار ، ومحركاته تزأر ، فوق النهر من جانب القصر ، اختفى وراء المنازل ، هديره يخف شيئاً فشيئاً ، سوف يلقي ببريده في بورتيلادوساكافيم ، الهايلاند بريغاد سيتابع مهمته احتمالاً ، من يعلم ، حركات العالم تبدو لنا لا تحصى لأننا لا نرى أن الدروب هي نفسها

* سفينة مكوكية تؤمن الرحلة بين ليشبونة وكاسيلاس ، في الجانب الآخر للنهر .

دائماً . عاد العجوزان الى الجلوس ، الغلمان يلعبون بالنطة من جديد ، الهواء صافٍ وصامت ، ريكاردو ريس لم يزد معرفة ، السفن هنا ، تجاه المد الصاعد في حرارة بعد الظهر الذي يبدأ ، إنها الساعة التي يتغدى فيها البحارة ، اليوم كما في كل الأيام ، ما لم يكن هذا اليوم الأخير . في المطعم ، ملأ ريكاردو ريس كأسه خمراً ، وفعل كذلك بالنسبة لكأس ضيفه غير المرئي ثم قرّبه من شفتيه كما لو كان يشرب نخباً ، وبما أننا لسنا في رأسه ، فلن نعرف أبداً من ولا لماذا ، فلنقتصر على تقليد مستخدمي المطعم الذين لم يعودوا يعيرون انتباهاً لهذا الزبون الذي لا يكاد ، فضلاً عن ذلك ، أن يلاحظ .

بعد الظهر رائع . نزل ريكاردو ريس الى الشيادو ، شارع نوفادو ألمادا ، كان يريد أن يرى السفن من مكان أقرب ، من حافة الرصيف ، وعندما كان يجتاز التيريرو دوباسو ، تذكر أنه لم يعد الى المارتينو دا أركادا منذ اليوم الذي كان فرناندو بيسوا قد رفض فيه عرضه ورأى أن تحدي الجدران المألوفة تهور ، لم يتذكر أحد منهما ذلك فيما بعد ، والفرصة لم تتوفر ، لديه ، هو على الأقل ، أعذار ، فإذا كان يرتاد في السابق هذا المقهى ، فإن سنوات الغياب تغلبت على هذه العادة . عندما ترى هذه السفن من مركز الميدان ، واقفة على المياه المضيئة ، فإنها تشبه تلك السفن المصغرة التي نراها في الواجهات ، والتي يضعها باعة الألعاب على مرآة للإيهام بمرفأ وأسطول . عندما وصل الى حافة الرصيف ، لم يميز شيئاً كثيراً ، ولا حتى اسماً ، لا شيء سوى البحارة الذين يروحون ويجيئون على ظهر السفينة ، يبدون لاواقعيين من هذه المسافة ، إذا كانوا يتحدثون فإنهم لا يسمعون ، وإذا كانوا يفكرون ، فذلك في السر . ريكاردو ريس هناك ، ضائع في تأمله ، وقد نسي الدافع الذي قاده الى هنا ، إنه ينظر ، هذا هو كل

شيء ، عندما قال صوت الى جانبه ، إذن السيد الدكتور جاء لينظر الى السفن ، إنه فيكتور ، لقد تعرف على صوته ، لم يفاجئه هذا الحضور ، بل فاجأه أنه لم يشم رائحته ، فهم فجأة لماذا ، فيكتور وقف في الاتجاه المعاكس لاتجاه الريح . أخذ قلب ريكاردو ريس يخفق ، هل كان فيكتور يشك في شيء ، أكان مطلعاً من قبل على التمرد ، أجاب ، السفن والنهر ، كان يستطيع أيضاً أن يقول الفرقاطات والنوارس ، أو أنه كان يتأهب لأخذ الكاسيليرو لمجرد متعة الرحلة أو أنه كان يرغب في النظر الى قفز خنازير البحر ، اكتفى بأن كرر ، السفن والنهر ثم ابتعد فجأة ، قائلاً لنفسه إن التصرف على هذا النحو كان حماقة ، كان عليه ، على العكس من ذلك ، أن يواصل المناقشة بهدوء . إذا كان يعرف أن شيئاً ما يحضر ، فقد وجد رؤيته لي هنا غريبة بالتأكيد . ظن أن من واجبه أن ينبه ليديا ، ولكنه سرعان ما تراجع . ماذا سأقول لها في نهاية المطاف ، إني صادفت فيكتور في التيريرو دو باسو ، كانت تلك دون شك مصادفة ، الشرطة أيضاً يحبون تأمل النهر ، ربما كان ذلك اليوم يوم عطلته بعد كل شيء ، كان يتمشى عندما أحس فجأة نداء الروح البحرية التي تسكن كل البرتغاليين ، وبما أن السيد الدكتور كان هناك ، فقد كان من غير اللائق أن لا أوجه إليه الكلام ، ألا يحتفظ بذكرى حسنة عنه . مرّ ريكاردو ريس أمام باب فندق براغانسا ، صعد في شارع دو اليكريم ، اللافتة المنحوتة في الحجر مازالت هناك ، «عيادة أمراض العيون وجراحتها» ، أ . مسكارو ، عام ١٨٧٠ ، لم يكن محدداً ما إذا كان المسكارو المذكور مجازاً من الكلية أو ما إذا لم يكن ممارساً عادياً ، لم يكونوا يدققون في موضوع الشهادات في ذلك العهد ، وهذا الأمر لم يتغير منذ ذلك الحين ، يجب أن لا ننسى أن ريكاردو ريس عالج ، دون تأهيل خاص ، مرضى بالقلب . سار في درب التماثيل ، إيسا

دوكيروز ، شيادو ، دارتانيان ، هذا الأداماستور مرئياً من الظهر ، ودار ثلاث مرات حول هذه الأنصاب كما لو كان يتأملها معجباً ، مع الانطباع بأنه يلعب لعبة الشرطة واللصوص ، كل شيء كان يجري على مايرام ، فيكتور لم يتبعه .

انقضى بعد الظهر ببطء ، هبط الليل ، ليشبونة مدينة هادئة ، نهرها عريض وقديم ، لم يخرج ريكاردو ريس للعشاء ، خفق بيضتين ، وضعهما في رغيف ، وروى زاده الزهيد بكأس خمر ، ولكن ذلك لم يكن مقبولاً على كل حال . كان عصبياً ، قلقاً . بعد انقضاء الساعة الحادية عشرة ، نزل الى الحديقة لينظر مرة أخرى الى السفن ، لا تكاد أنوارها أن تميز ، يستحيل الآن التفريق بين السميريات وكاسحات الألغام . كان الكائن الحي الوحيد على الألتو دو سانتا كاتارينا ، أداماستور لم يعد يحسب له حساب ، تحجره قد أنجز ، حنجرته ، التي كان يجب أن تصرخ ، لن تعود تصرخ ، رؤية وجهه بشعة . عاد ريكاردو ريس الى بيته ، لن يخرجوا هذه الليلة ، احتمالاً ، ويجازفوا بخطر الفشل . رقد بنصف ثيابه ، نام متأخراً ، استيقظ ثم عاد الى النوم وقد طمأنه صمت البيت الكبير ، واستيقظ عندما كان أول شعاع فجر يتسلل بين شقوق المصاريع ، لم يكن قد حدث شيء أثناء الليل ، كان يبدو من المستحيل أن يمكن حدوث شيء . لام نفسه على أنه نام بثيابه ، كان قد خلع سترته وربطة عنقه ، سآخذ حماماً ، وانحنى ليلتقط جرابيه تحت السرير عندما سمع أول طلقة مدفع . تمنى أن يكون مخطئاً ، يجب أن يكون شيء ثقيل جداً ، قطعة أثاث ، في الطابق الواقع تحته ، أو ربما يكون قد أغمي على ربة المنزل ، ولكن انفجاراً آخر هز الزجاج ، كانت السفن آخذة في قصف المدينة . فتح النافذة ، كان الناس في الشارع يبدون خائفين ، وهتفت امرأة ، يا إلهي ، إنها الثورة ، وأخذت تركض نحو

الحديقة . انتعل ريكاردو ريس حذائيه بسرعة كلية ، ارتدى سترته ، من حسن الحظ أنه لم يكن قد خلع ملابسه ، كان يمكن أن يقال إنه كان يتوقع ذلك ، كانت الجارات على السلم من قبل ، خرقاوات بملابسهن الداخلية ، عندما رأين الطبيب يظهر ، سألنه وهنّ قلقات جداً ، أهناك جرحى يا سيدي الدكتور ، ذلك ، أخيراً ، إذا كان يركض بهذه السرعة ، فذلك لأنه استدعي على وجه السرعة . تبعنه وهن يسترن صدورهن المكشوفة ، وتجمدن عند باب البناية مختفيات نصف اختفاء حياء . عندما وصل ريكاردو ريس الى الحديقة ، كان هناك كثير من الناس من قبل ، كانت السكنى قريباً جداً من هنا امتيازاً ، ليس هناك من نقطة مراقبة أفضل من هذه في ليشبونة لرؤية دخول السفن وخروجها . لم تكن السفن الحربية هي التي تقصف المدينة ، بل كانت قلعة المادا هي التي ترميها ، ترمي إحداها . سأل ريكاردو ريس ، ما هي هذه السفينة ، وقع ، بالحظ ، على من يعرف ، أنها الأفونسو دو البوكيرك . هنا ، إذن ، كان يوجد أخو ليديا ، البحار دانييل الذي لم يكن قد رآه قط ، حاول لحظة أن يتصور وجهاً ، رأى وجه ليديا ، في هذه الساعة ، اقتربت من إحدى نوافذ فندق براغانسا ، أو أسرعت الى الطريق بمريولها ورأسيتها ، اجتازت راكضة الكيس دو سودريه ، وها هي الآن على الرصيف ، ويداها مضمومتان الى صدرها ، ربما كانت تبكي ، أو أنها تصرخ ، وعيناها جافتان وخداها ملتهبان ، لأن الأفونسو دو البوكيرك قد أصيبت مرة أولى ، وثانية ، على الألتو دو سانتا كاتارينا يصفقون ، في حين ظهر العجوزان مبهوري الأنفاس ، كيف فعلا ليصلا بهذه السرعة ، في حين يسكنان في أقصى الحي ، ولكنهما يفضلان الموت على أن يفوتهما المشهد ، في حين كان يمكن أن يموتا لأنه لم يفتهما . كان لكل ذلك صورة حلم . الأفونسو دو البوكيرك تبحر ببطء ، أحد أجهزتها الحيوية ،

المرجل أو الدفة ، قد أصيب احتمالاً . قلعة المادا مازالت ترمي ، يبدو أن الأفونسو دو البوكيرك قد ردّت ، ولكن لا شيء أقل تأكيداً . من هذا الجانب من المدينة ، سمعت طلقات أخرى أعنف ، أكثر تباعداً ، قال أحدهم ، إنها قلعة التودوكوك ، لقد ضاعوا ، ما عادوا يستطيعون الخروج . في هذه اللحظة ، بدأت سفينة أخرى ، كاسحة ألغام ، تتحرك بدورها ، إنها الداو ، لا يمكن أن يكون غيرها ، تسعى الى الاختفاء وراء دخان مداخنها الخاصة وتقترب من الضفة الجنوبية لتفلت من رمي قلعة المادا ، ولكنها إذا أفلتت من هذه ، فلن تستطيع تجنب رمي الألتو دو كوك ، القنابل الأولى انفجرت في الماء ، عند القلعة ، ولكن الأخرى أصابت السفينة ، أصيبت في وسطها ، على الداو ارتفع العلم الأبيض ، الاستسلام ، ولكن القصف استمر ، رقدت السفينة ببطء على جنبها ، في حين ظهرت علامات أكثر عدداً ، أقمشة ، أكفان ، إنها النهاية ، البرتولوميودياس لم تنجح حتى في طرح طوافة . بلغت الساعة التاسعة ، مائة دقيقة انقضت منذ أن بدأ كل شيء ، ضباب الصبيحة تبدد ، الشمس تلمع بكل بريقها ، يجب أن تكون مطاردة البحارة الذين ألقوا بأنفسهم في الماء قد بدأت . لم يعد هناك ما يرى من أعلى هذه الشرفة . استمر متأخرون لم يستطيعوا الوصول قبل ذلك في التوافد وسابقوهم شرحوا لهم ما حدث ، جلس ريكاردو ريس على مقعد ، العجوزان جلسا الى جانبه ، كانا يريدان حقاً أن يعقدا محادثة ، ولكن الدكتور لا يجيب ، احتفظ برأسه مخفوضاً ، كما لو كان هو الذي أراد الإبحار ووجد نفسه ، في نهاية المطاف ، عالقاً في الفخ . وفي حين كان الراشدون الذين استعادوا هدوءهم يتماحكون بوقار ، عاد الغلمان الى لعبة النطة ، وكانت البنات الصغيرات يغنين ، ذهبت الى حديقة سيليست . وماذا فعلت فيها ، قطفت وردة ، لو كانت الأغنية آتية من نازاريه ، لكانت مختلفة جداً ، من

نوع ، لا تبحر ، يا تونو ، قد تموت ، آه تونو ، تونو ، تونو ، يا لك من عديم الحظ ، هذا ليس اسم أخي ليديا ، ولكنه لا يوجد ، من حيث انعدام الحظ ، فرق كبير . غادر ريكاردو ريس المقعد ، لم يعد العجوزان القاسيان ينتبهان إليه فعلاً ، قالت امرأة عطوف ، يا للصغار المساكين ، كانت تتحدث عن البحارة بالتأكيد ، ولكن هذا القول العذب كان بالنسبة لريكاردو ريس بمثابة ملاطفة ، يد توضع على الرأس وتركض ، خفيفة في الشعر ، ثم عاد الى بيته ، ارتمى على السرير المنبوش ، أخفى عينيه في تجويف ذراعه ، وبكى حتى الثمالة ، دموع لا معنى لها ، هذا التمرد لم يكن تمرده ، العاقل من يكتفي بالفرجة على العالم ، يجب أن أكرر ذلك ألف مرة ، ماذا يهم من لا يعود يهتم بشيء أن يخسر واحد ويربح الآخر . نهض ريكاردو ريس ، عقد ربطة عنقه ، وتهيأ للخروج ، ولكنه تبين له ، عندما مرّ بالمرآة ، أن ذقنه غير محلوقة ، لا حاجة الى مرآة ليعرف أن شكله يبعث لديه القرف ، هذه الشعيرات البيضاء التي تلمع ، هذا الوجه بلون الملح والفلفل تعلن عن الشيخوخة فعلاً . أخذت اللعبة مجراها ، الورقة التي لعبت مغطاة بالآس السباتي ، مهما ركضت سريعاً ، فلن تنقذ أباك من المشنقة ، هذه العبارات المتداولة تساعد الشعب على تحمل قرارات القدر ، من أجل ذلك سيغتسل ريكاردو ريس ويحلق ، إنه رجل عادي هو أيضاً ، عندما يحلق لا يفكر في شيء ، يهتم فقط بانزلاق الشفرة ، تبدو مثلومة ، سوف ينبغي تبديلها ذات يوم . كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف عندما خرج من بيته ليذهب الى فندق براغانسا ، لا شيء أكثر طبيعية من ذلك ، لن يفكر أحد في التعجب من كون زبون قديم ، ليس زبوناً عابراً ، بل هو واحد بقي ثلاثة شهور طويلة ، لن يفكر أحد إذن في التعجب من كون هذا الزبون الذي اعتنت به عناية جيدة على نحو خاص إحدى مستخدمات الفندق التي شارك

أخوها ، كما قالت له ، في التمرد ، نعم يا سيدي الدكتور ، لي أخ بحار على الأفونسو دو البوكيرك ، لن يتعجب أحد إذن من كونه يسعى الى المعرفة ، الى الاستعلام ، يا للصغيرة المسكينة ، لم يكن ينقصها إلا هذا ، هناك أناس غير محظوظين حقاً . للجرس صوت أكثر خشونة أو أن ذاكرته هي التي خانته . رفع الخادم مصباحه المطفأ ، كان في فرنسا أيضاً مصابيح مشابهة ، لن نعرف قط بتأكيد مطلق من أين جاء هذا الأخير ، ليس لدينا وقت لكل شيء . ظهر بيمنتا من أعلى الدرج ، كان يتهيأ للنزول معتقداً أن الأمر كان يدور حول زبون مع حوائجه ، ولكنه سرعان ما توقف ، لم يتعرف على الرجل الذي يصعد ، لا شك في أنه نسيه من قبل ، خادم الفندق يرى الكثير من الرؤوس تدخل وتخرج خلال حياته ، ثم هناك الضوء المعاكس ، يجب التفكير في الضوء المعاكس دائماً ، أصبح الآن قريباً جداً ، وحتى لو كان يتقدم خافضاً رأسه ، فالخطأ مستحيل ، إنه السيد الدكتور ريس ، كيف حالك يا سيدي الدكتور . طاب يومك يا بيمنتا ، هذه الخادمة ، ما اسمها ، آه نعم ، ليديا ، هل هي هنا . آه كلا ، يا سيدي الدكتور ، لقد خرجت ولم تعد حتى الآن ، أعتقد أن أخاها متورط في التمرد . لم ينه بيمنتا التلفظ بالكلمة الأخيرة عندما ظهر سلفادور على المنبسط متظاهراً بأنه لم يسمع شيئاً . ماذا ، السيد الدكتور ، تسعدني رؤيتك ، وقال له بيمنتا ما كان يعرفه من قبل . السيد الدكتور كان يريد التحدث الى ليديا . آه ، ولكن ليديا ليست هنا ، إلا أني إذا أمكنني أن أفيدك . كنت أريد ببساطة أن أعرف ماذا حصل لأخيها ، الصغيرة المسكينة ، كانت قد حدثتني عن أخ لها في البحرية الحربية ، جئت لأساعدها ، بصفتي طبيباً . أفهم ذلك ، يا سيدي الدكتور ، ولكن ليديا ليست هنا ، خرجت عندما بدأ الرمي ولم تعد . كان سلفادور يبتسم ، إنه يبتسم دائماً عندما يعطي معلومات ، إنه مدير جيد ،

لنكرر ذلك للمرة الأخيرة ، ومع ذلك كانت لديه أسباب للحقد على هذا الزبون السابق الذي كان ينام مع الخادمة ، ويجب دون شك أن يكون مستمراً في ذلك ، والذي يأتي الى هنا ، ليلعب دور البريء ، إذا كان يعتقد أنه يخدعني ، فهو مخطئ . سأل ريكاردو ريس ، هل تعرف أين ذهبت . إنها في المنطقة ، ربما كانت في وزارة البحرية ، أو لدى أمها ، أو لدى البوليس ، هذه القضية هي بكل وضوح من اختصاص البوليس ، ولكن كن مطمئناً ، يا سيدي الدكتور ، سأقول لها إنك جئت ، وإنها يجب أن تتصل بك ، وابتسم سلفادور من جديد ، كمن ينصب فخاً ويرى من قبل الفريسة عالقة من عنقها ، ولكن ريكاردو ريس أجاب ، هو ذاك ، فلتتصل بي ، هذا عنواني ، وكتب على ورقة الدلالة التي لم تكن ضرورية . تلاشت ابتسامة سلفادور ، هذا الرد السريع أغاظه ، وسوف نجهل دائماً الكلمات التي كان يستعد للتلفظ بها لأن إسبانيين كانا منخرطين في محادثة نزلا ، في هذه اللحظة ، من الطابق الثاني ، سأل أحدهما ، سنيور سلفادور ، الشيطان حرّض البحارة ، نعم يا دون كاميليو ، حرضهم الشيطان ، حسناً ، حانت الساعة لنقول : هيا يا إسبانيا الى الأعلى ، تعيش البرتغال.. هبط ريكاردو ريس الدرج ، رن الجرس الكهربائي ، كان في السابق جرساً عادياً ، ولكن زبائن الفترة كانوا قد احتجوا قائلين إن ذلك كان يشبه بوابة مقبرة .

لم تظهر ليديا طيلة بعد الظهر ، في ساعة الطبعة الأخيرة ، خرج ريكاردو ريس لشراء الجريدة ، نظر سريعاً الى عناوين الصفحة الأولى ، وبحث عن بقية الأخبار في الصفحة الداخلية ، في الأسفل ، عناوين أخرى ، قتل اثنا عشر بحاراً ، وتلت ذلك الأسماء والأعمار ، دانييل مارتنز ، ثلاثة وعشرون عاماً ، جمد ريكاردو ريس وسط الشارع والجريدة مفتوحة ، ساد صمت مطلق ، المدينة كانت قد توقفت ، أو أنها كانت تمر على رؤوس

أصابع القدمين ، إصبع على شفتيه المغلقتين ، عندما عادت الضجة الباعثة على الصمم ، بوق سيارة ، صيحات بائعي بطاقات ، بكاء طفل كانت أمه تشد أذنيه ، إذا عدت الى ذلك سأمزقك إرباً . لم تكن ليديا تنتظره ، ولم يكن هناك أي أثر لمرورها . سيهبط الليل قريباً . الجريدة تقول إن الأسرى اقتيدوا الى الحكومة المدنية ، ثم الى ميترا ، وإن الموتى الذين لم تعرف هويات بعضهم موجودن في المشرحة . ليديا تركض دون شك بحثاً عن أخيها ، أو إنها لدى أمها ، والاثنتان تبكيان مصيبتهما الهائلة والتي لا دواء لها .

في هذه اللحظة ، قرع الباب . ركض ريكاردو ريس ليفتح متهيئاً لتلقي المرأة الباكية بين ذراعيه ، كان الطارق هو فرناندو بيسوا . آه ، هذا أنت . أكنت تنتظر شخصاً آخر . إذا كنت مطلعاً على ما يجري ، فيجب حقاً أن تعلم أن الجواب هو نعم ، أعتقد أني قلت لك ذات يوم إن لليديا أخاً في البحرية . هل مات . نعم . كانا في الغرفة ، وكان فرناندو بيسوا جالساً عند أسفل السرير ، وريكاردو ريس على كرسي . كانت ليلة ظلماء . انقضت نصف ساعة على هذا النحو ، كانت دقات الساعة في الطابق الأعلى تسمع ، فكر ريكاردو ريس ، هذا غريب ، لم أكن أتذكر هذه الساعة أو أني نسيتها ، إذن ، بعد سماعي إياها للمرة الأولى مباشرة . كان فرناندو بيسوا الذي وضع يديه على ركبتيه وشبك أصابعه يبقي رأسه مخفوضاً . ودون أن يتحرك قال ، جئت لأقول لك إننا لن نرى بعضنا بعد . لماذا . وقتي يقارب نهايته ، هل تذكر ، كنت قد قلت لك إنه ليس لدي سوى بضعة شهور . أتذكر ذلك ، حسناً ، لقد انتهت ، أعاد ريكاردو ريس شد ربطة عنقه ، ونهض ، ارتدى سترته . ذهب الى طاولة الليل يبحث عن « إله المتاهة » ، ووضعه تحت ذراعه . قال ، هيا ، لنذهب . أين أنت ذاهب . أرافقك . ألم

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

يكن عليك أن تنتظر ليديا . نعم دون شك . وأن تعزيها في حزنها على فقدانها أخاها . لا أستطيع شيئاً لها . ولماذا هذا الكتاب . لم أنته من قراءته بعد على الرغم من الوقت الذي كنت أملكه . لن يتسنى لك الوقت . على العكس ، سيكون لدي كل الوقت . أنت مخطئ ، القراءة هي أول قدرة يفقدها المرء ، تذكر ذلك . فتح ريكاردو ريس الكتاب ، رأى علامات غير مفهومة ، خطوطاً سوداء ، صفحة ملطخة . تصعب عليّ القراءة فعلاً ، ولكني سآخذه مع ذلك . لماذا . لأخلص العالم من لغز . خرجا ، أدلى فرناندو بيسوا بملاحظة أخرى ، لم تعتمر قبعة . تعرف مثلي أنه لا تعتمر قبعة حيث نحن ذاهبان . كانا على رصيف الحديقة ، وكانا ينظران الى أضواء النهر الشاحبة ، الى ظل الهضاب المهدد . قال فرناندو بيسوا ، هل نذهب إذن . أجاب ريكاردو ريس ، فلنذهب . لم يلتفت أداماستور لينظر ، كان يبدو على أهبة إطلاق صرخته الكبيرة أخيراً . هنا ، حيث ينتهي البحر ، وحيث البر ينتظر .

نوبل 1998

جوزيه ساراماغو

ولد يوم 16 نوفمبر 1922 في أزينهاغا

(وسط البرتغال) لعائلة من فقراء المزارعين، عام 1924

انتقلت عائلته للسكن في لشبونة.

بدأ حياته صانعا للأقفال ثم صحافيا ومترجما قبل أن يكرس وقته كليا للأدب.

أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام 1947 وتوقف عن الكتابة ما يقرب العشرين عاما ليصدر عام 1966 ديوانه الشعري الأول قصائد محتملة.

أصدر نحو عشرين كتابا ويعتبره النقاد واحدا من أهم الكتاب في البرتغال بفضل رواياته المتعددة الأصوات والتي تستعيد التاريخ البرتغالي بتهكم دقيق قريب من الاسلوب الذي اعتمده فولتير.

عضو في الحزب الشيوعي البرتغالي منذ عام 1959.

حصل على جائزة نادي القلم الدولي عام 1982 وعلى جائزة كأمويس البرتغالية عام 1995.

في أكتوبر من عام 1998 منح جائزة نوبل في الأدب.

نشط في في محاربة العولمة كما هو من المشككين في الرواية الرسمية لأحداث 11 سبتمبر 2001.

توفي في 18 يونيو 2010 عن عمر يناهز 87 عاما في بيته القائم في لانزاروت في جزر الكناري حيث أقام منذ سنة 1992.

يعالج الروائي في عمله هذا لعبة الاخذ والرد بين أكذوبة الواقع وحقيقة السراب ضمن مناخ روائي أبعاده تأتي ضمن خصوصية تاريخية وثقافية برتغالية.
والرواية حازت على جائزة نوبل الادبية لعام 1998.



علي مولا